١

الحافظ ابن كثير
الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤هـ

البداية والنهاية

الجزء التاسع

الطبعة الثامنة
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م
بيروت - لبنان

ضبطت وصححت هذه الطبعة على عدة نسخ وذيلت بشروح
قامت بها هيئة باشراف الناشر

مكتبة المعارف
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

ثم دخلت سنة أربع وسبعين

فيها عزل عبد الملك طارق بن عمرو عن إمارة المدينة وأضافها إلى الحجاج بن يوسف الثقفى ، فقدمها فأقام بها أشهرا ثم خرج معتمرا ثم عاد إلى المدينة فى صفر فأقام بها ثلاثة أشهر ، وبنى فى بنى سلمة مسجدا ، وهو الذى ينسب إليه اليوم ، ويقال إن الحجاج فى هذه السنة وهذه المدة شتم جابرا وسهل بن سعد وقرعهما لم لا نصرا عثمان بن عفان ، وخاطبهما خطابا غليظاً قبحه الله وأخزاه ، واستقضى أبا إدريس الخولانى أظنه على اليمن والله أعلم . قال ابن جرير : وفيها نقض الحجاج بنيان الكعبة الذى كان ابن الزبير بناه وأعادها على بنيانها الأول ، قلت : الحجاج لم ينقض بنيان الكعبة جميعه ، بل إنما هدم الحائط الشامى حتى أخرج الحجر من البيت ثم سده وأدخل فى جوف الكعبة ما فضل من الأحجار ، وبقية الحيطان الثلاثة بحالها ، ولهذا بقى البنيان الشرقى والغربى وهما ملصقان بالأرض كما هو المشاهد إلى يومنا هذا ، ولكن سد الغربى بالكلية وردم أسفل الشرقى حتى جعله مرتفعا كما كان فى الجاهلية ، ولم يبلغ الحجاجَ وعبدَ الملك ما كان بلغ ابن الزبير من العلم النبوى الذى كانت أخبرته به خالته عائشة عن رسول الله ﷺ ، كما تقدم ذلك من قوله : « لولا أن قومك حديث عهدهم بكفر - وفى رواية - بجاهلية لنقضت الكعبة وأدخلت فيها الحجر ، وجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً ، ولألصقتهما بالأرض ، فان قومك قصرت بهم النفقة فلم يدخلوا فيها الحجر ولم

يتمموها على قواعد إبراهيم و رفعوا بابها ليدخلوا من شاؤا و يمنعوا من شاؤا » . فلما تمكن ابن الزبير بناها كذلك ، ولما بلغ عبد الملك هذا الحديث بعد ذلك قال : وددنا لو تركناه وما تولى من ذلك

و فى هذه السنة ولى المهلب بن أبى صفرة حرب الأزارقة عن أمر عبد الملك لأخيه بشر بن مروان أن يجهز المهلب إلى الخوارج فى جيوش من البصرة والكوفة ، و وجد بشر على المهلب فى نفسه حيث عينه عبد الملك فى كتابه . فلم يجد بداً من طاعته فى تأميره على الناس فى هذه العزوة ، وما كان له من الأمر شئ ، غير أنه أوصى أمير الكوفيين عبد الله بن مخنف أن يستبد بالأمر دونه ، وأن لا يقبل له رأيا ولا مشورة ، فسار المهلب بأهل البصرة وأمراء الأرباع معه على منازلهم حتى نزل برامهرمز ، فلم يقم عليها إلا عشراً حتى جاء نعى بشر بن مروان ، وأنه مات بالبصرة واستخلف عليها خالد بن عبد الله ، فأرخى بعض الجيش ورجعوا إلى البصرة فبعثوا فى آثارهم من يردهم ، وكتب خالد ابن عبد الله إلى الفارين يتوعدهم إن لم يرجعوا إلى أميرهم ، و يتوعدهم بسطوة عبد الملك ، فعدلوا يستأذنون عمرو بن حريث فى المصير إلى الكوفة فكتب إليهم : إنكم تركتم أميركم وأقبلتم عاصين مخالفين ، وليس لكم إذن ولا إمام ولا أمان ، فلما جاءهم ذلك أقبلوا إلى رحالهم فركبوها ثم ساروا إلى بعض البلاد فلم يزالوا مختفين بها حتى قدم الحجاج واليا على العراق مكان بشر بن مروان كما سيأتى بيانه قريبا .

و فى هذه السنة عزل عبد الملك بكير بن وشاح التميمى عن إمرة خراسان وولاها أمية بن عبد الله ابن خالد بن أسيد القرشى ليجتمع عليه الناس فانه قد كادت الفتنة تتفاقم بخراسان بعد عبد الله ابن خازم ، فلما قدم أمية بن عبد الله خراسان عرض على بكير بن وشاح أن يكون على شرطته فأبى وطلب منه أن يوليه طخارستان نخوفوه منه أن يخلعه هنالك فتركه مقيما عنده . قال ابن جرير : وحج بالناس فيها الحجاج وهو على إمرة المدينة ومكة واليمن واليمامة . قال ابن جرير : وقد قيل إن عبد الملك اعتمر فى هذه السنة ولا نعلم صحة ذلك .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

رافع بن خديج بن رافع الأنصارى ، صحابى جليل شهد أحدا وما بعدها ، وصفين مع على وكان يتعانا المزارع والفلاحة ، توفى وهو ابن ستة وثمانين سنة ، وأسند ثمانية وسبعين حديثا . وأحاديثه جيدة . وقد أصابه يوم أحد سهم فى ترقوته نخيره رسول الله (ص.) بين أن ينزعه منه و بين أن يترك فيه العطبة و يشهد له يوم القيامة ، فاختار هذه ، وانتقض عليه فى هذه السنة فمات منه رحمه الله .

ابو سعيد الخدري

هو سعد بن مالك بن سنان الأنصارى الخزرجى ، صحابى جليل من فقهاء الصحابة استصغر

يوم أحد ، ثم كان أول مشاهده الخندق ، وشهد مع رسول الله ﷺ ثنتى عشرة غزوة ، وروى عنه أحاديث كثيرة ، وعن جماعة من الصحابة ، وحدث عنه خلق من التابعين وجماعة من الصحابة ، كان من نجباء الصحابة وفضلائهم وعلمائهم . قال الواقدى وغيره : مات سنة أربع وسبعين وقيل قبلها بعشر سنين فالله أعلم .

قال الطبرانى : حدثنا المقدام بن داود ثنا خالد بن نزار ثنا هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى . قال : قلت يارسول الله أى الناس أشد بلاء ؟ فقال : « النبيون قلت : ثم أى ؟ قال ثم الصالحون ، إن كان أحدهم ليبتلى بالفقر حتى مايجد الا السترة - وفى رواية - إلا العباءة أو نحوها ، و إن أحدهم ليبتلى بالقمل حتى ينبذ القمل ، وكان أحدهم بالبلاء أشد فرحاً منه بالرخاء » . وقال قتيبة بن سعيد : ثنا الليث بن سعد عن ابن عجلان عن سعيد المقبرى عن أبى سعيد الخدرى : أن أهله شكوا إليه الحاجة فخرج إلى رسول الله ﷺ يسأل لهم شيئاً ، فوافقه على المنبر وهو يقول : « أيها الناس قد آن لكم أن تستغنوا عن المسألة فانه من يستعف يعفه الله ومن يستغن يغنه الله ، والذى نفس محمد بيده مارزق الله عبداً من رزق أوسع له من الصبر ، ولئن أبيتم إلا أن تسألونى لأعطينكم ما وجدت » . وقد رواه الطبرانى عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد نحوه .

عبدالله بن عمر

ابن الخطاب القرشى العدوى . أبو عبد الرحمن المكى ثم المدنى أسلم قديما مع أبيه ولم يبلغ الحلم وهاجرا وعمره عشرة سنين ، وقد استصغر يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق أجازه وهو ابن خمس عشرة سنة فشهدها وما بعدها ، وهو شقيق حفصة بنت عمر أم المؤمنين ، أمهما زينب بنت مظعون أخت عثمان بن مظعون ، وكان عبد الله بن عمر ربعة من الرجال آدم له جمة تضرب إلى منكبيه جسيما يخضب بالصفرة و يحفى شاربه ، وكان يتوضأ لكل صلاة و يدخل الماء فى أصول عينيه ، وقد أراده عثمان على القضاء فأبى ذلك ، وكذلك أبوه ، وشهد اليرموك والقادسية وجلولاء وما بينهما من وقائع الفرس ، وشهد فتح مصر ، واختط بها داراً ، وقدم البصرة وشهد غزو فارس وورد المدائن مرارا وكان عمره يوم مات النبى ﷺ ثنتين وعشرين سنة ، وكان إذا أعجبه شئ من ماله يقرب به إلى الله عزوجل ، وكأن عبيده قد عرفوا ذلك منه ، فربما لزم أحدهم المسجد فاذارآه ابن عمر على تلك الحال أعتقه ، فيقال له : إنهم يخدعونك ، فيقول : من خدعنا لله انخدعنا له ، وكان له جارية يحبها كثيراً فأعتقها و زوجها لمولاه نافع ، وقال : إن الله تعالى يقول [لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون] واشترى مرة بعيراً فأعجبه لما ركبه فقال : يا نافع أدخله فى إبل الصدقة ، وأعطاه ابن جعفر فى نافع عشرة آلاف فقال : أو خيراً من ذلك ؟ هو حر لوجه الله ، واشترى مرة غلاماً بأربعين ألفا وأعتقه فقال الغلام :

يامولاى قد أعتقتنى فهب لى شيئاً أعيش به فأعطاه أربعين ألفا ، واشترى مرة خمسة عبيد فقام يصلى فقاموا خلفه يصلون فقال : لمن صليتم هـذه الصلاة ؟ فقالوا : لله ! فقال : أنتم أحرار لمن صليتم له ، فأعتقهم . والمقصود أنه مامات حتى أعتق ألف رقبة ، وربما تصدق فى المجلس الواحد بثلاثين ألفا ، وكانت تمضى عليه الأيام الكثيرة والشهر لا يذوق فيه لحما إلا وعلى يديه يتيم ، وبعث اليـه معاوية بمائة ألف لما أراد أن يبايع ليزيد ، فما حال عليه الحول وعنده منها شئ ، وكان يقول : إنى لا أسال أحداً شيئاً ، وما رزقنى الله فلا أرده . وكان فى مدة الفتنة لا يأتى أمير إلا صلى خلفه ، وأدى إليـه زكاة ماله ، وكان أعلم الناس بمناسك الحج ، وكان يتتبع آثار رسول الله صـ يصلى فيها ، حتى أن النبى صـ نزل تحت شجرة وكان ابن عمر يتعاهدها ويصب فى أصلها الماء ، وكان إذا فاتته العشاء فى جماعة أحيا تلك الليلة ، وكان يقوم أكثر الليل ، وقيل إنه مات وهو فى الفضل مثل أبيـه ، وكان يوم مات خير من بقى ، ومكث ستين سـنة يفتى الناس من سائر البـلاد ، وروى عن النبى صـ أحاديث كثيرة ، وروى عن الصديق وعن عمر وعثمان وسعد وابن مسعود وحفصة وعائشة وغيرهم . وعنه خلق منهم بنوه حمزة وبلال وزيد وسالم وعبد الله وعبيد الله وعمر إن كان محفوظ ، وأسلم مولى أبيه وأنس بن سيرين والحسن وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وطاووس وعروة وعطاء وعكرمة ومجاهد وابن سيرين والزهرى ومولاه نافع .

وثبت فى الصحيح عن حفصـة أن رسول الله صـ قال : « إن عبـد الله رجل صالح لو كان يقوم الليل » . وكان بعـد يقوم الليل ، وقال ابن مسعود : إن من أملك شـباب قريش لنفسه عن الدنيا ابن عمر . وقال جابر : ما منا أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها ، إلا ابن عمر ، وما أصاب أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص من درجاته عنـد الله وإن كان عليه كريما ، وقال سعيد بن المسيب : مات ابن عمر يوم مات وما من الدنيا أحـد أحب أن لقى الله بمثل عمله منـه ، وقال الزهرى لا يعدل برأيه فانه أقام بعد رسول الله صـ ستين سنة ، فلم يخف عليه شئ من أمره ولا من أمر أصحابه رضى الله عنهم . وقال مالك : بلغ ابن عمر ستا وثمانين سنة وأفتى فى الاسلام ستين سنة ، تقدم عليه وفود الناس من أقطار الأرض ، قال الواقدى وجماعة : توفى ابن عمر سنة أربع وسبعين ، وقال الزبير بن بكار وآخرون : توفى سنة ثلاث وسبعين والأول أثبت والله أعلم .

عبيد بن عمير

ابن قتادة بن سعد بن عامر بن خندع بن ليث ، الليثى ثم الخندعى ، أبو عاصم المكى قاضى أهل مكة ، قال مسلم بن الحجاج . ولد فى حياة النبى صـ ، وقال غـيره ورآه أيضا ، وروى عن أبيه وله صحبة ، وعن عمر وعلى وأبى هريرة وابن عباس وابن عمر وعبـد الله بن عمرو وأم سلمة وغيرهم ؛

وعنه جماعة من التابعين وغيرهم ، ووثقه ابن معين وأبو زرعة وغير واحد . وكان ابن عمر يجلس فى حلقته ويبكى وكان يعجبه تذكيره ، وكان بليغا ، وكان يبكى حتى يبل الحصى بدموعه . قال مهدى ابن ميمون عن غيلان بن جرير قال : كان عبيد بن عمير إذا آخى أحداً فى الله استقبل به القبلة فقال اللهم اجعلنا سعداء بما جاء به نبيك ، واجعل محمداً شهيداً علينا بالايمان ، وقد سبقت لنا منك الحسنى غير متطاول علينا الأمد ، ولا قاسية قلوبنا ولا قائلين ماليس لنا بحق ، ولا سائلين ماليس لنا به علم . وحكى البخارى عن ابن جريج أن عبيد بن عمير مات قبل ابن عمر رضى الله عنه .

ابو جحيفة

وهب بن عبد الله السوائى ، صحابى رأى النبى (ص) ، وكان دون البلوغ عند وفاة النبى (ص) لكن روى عنه عدة أحاديث ، وعن على والبراء بن عازب ، وعنه جماعة من التابعين ، منهم إسماعيل بن أبى خالد ، والحكم وسلمة بن كهيل والشعبى وأبو إسحاق السبيعى ، وكان قد نزل الكوفة وابتنى بها داراً وتوفى فى هذه السنة ، وقيل فى سنة أربع وتسعين فالله أعلم . وكان صاحب شرطة على ، وكان على إذا خطب يقوم أبو جحيفة تحت منبره .

سلمة بن الأكوع

ابن عمرو بن سنان الأنصارى وهو أحد من بايع تحت الشجرة ، وكان من فرسان الصحابة ومن علمائهم ، كان يفتى بالمدينة ، وله مشاهد معروفة فى حياة النبى (ص) وبعده ، توفى بالمدينة وقد جاوز السبعين سنة .

مالك بن ابي عامر

الأصبحى المدنى وهو جد الامام مالك بن أنس ، روى عن جماعة من الصحابة وغيرهم وكان فاضلا عالما ، توفى بالمدينة .

ابو عبد الرحمن السلمي

مقرئ أهل الكوفة بلا مدافعة واسمه عبد الله بن حبيب ، قرأ القرآن على عثمان بن عفان وابن مسعود ، وسمع من جماعة من الصحابة وغيرهم ، وأقرأ الناس القرآن بالكوفة من خلافة عثمان إلى إمرة الحجاج ، قرأ عليه عاصم بن أبى النجود وخلق غيره ، توفى بالكوفة .

ابو معرض الأسدي

اسمه مغيرة بن عبد الله الكوفى ، ولد فى حياة النبى (ص) ، ووفد على عبد الملك بن مروان وامتدحه ، وله شعر جيد ، ويعرف بالأقيشر ، وكان أحمر الوجه كثير الشعر ، توفى بالكوفة فى هذه السنة ، وقد قارب الثمانين سنة .

بشر بن مروان

الأموى أخو عبد الملك بن مروان ، ولى إمرة العراقين لأخيه عبد الملك ، وله دار بدمشق عند عقبة اللباب ، وكان سمحاً جواداً ، وإليه ينسب دير مروان عند حجير ، وهو الذى قتل خالد بن حصين الكلابى يوم مرج راهط ، وكان لا يغلق دونه الأبواب ويقول : إنما يحتجب النساء ، وكان طليق الوجه ، وكان يجيز على الشعر بألوف ، وقد امتدحه الفرزدق والأخطل ، والجهمية تستدل على الاستواء على العرش بأنه الاستيلاء ببيت الأخطل .

قد استوى بشرٌ على العراقِ * من غير سيفٍ ودم مهراقِ

وليس فيه دليل ، فان هذا استدلال باطل من وجوه كثيرة ، وقد كان الأخطل نصرانيا ، وكان سبب موت بشر أنه وقعت القرحة فى عينه فقيل له يقطعها من المفصل فجزع فما أحس حتى خالطت الكتف ، ثم أصبح وقد خالطت الجوف ثم مات ، ولما احتضر جعل يبكى ويقول : والله لوددت أنى كنت عبداً أرعى الغنم فى البادية لبعض الأعراب ولم أل ما وليت ، فذكر قوله لابى حازم - أو لسعيد بن المسيب - ، فقال : الحمد الله الذى جعلهم عند الموت يفررن إلينا ولم يجعلنا نفر إليهم ، إنا لنرى فيهم عبراً ، وقال الحسن : دخلت عليه فاذا هو يتململ على سريره ثم نزل عنه إلى صحن الدار ، والاطباء حوله . مات بالبصرة فى هذه السنة وهو أول أمير مات بها ، ولما بلغ عبد الملك موته حزن عليه وأمر الشعراء أن يرثوه والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة خمس وسبعين

ففيها غزا محمد بن مروان - أخو عبد الملك بن مروان وهو والد مروان الحمار - صائفة الروم حين خرجوا من عند مرعش ، وفيها ولى عبد الملك نيابة المدينة ليحيى بن أبى العاص ، وهو عمه ، وعزل عنها الحجاج . وفيها ولى عبد الملك الحجاج بن يوسف نيابة العراق والبصرة والكوفة وما يتبع ذلك من الأقاليم الكبار ، وذلك بعد موت أخيه بشر ، فرأى عبد الملك أنه لا يسد عنه أهل العراق غير الحجاج لسطوته وقهره وقسوته وشهامته ، فكتب إليه وهو بالمدينة ولاية العراق ، فسار من المدينة إلى العراق فى اثنى عشر راكبا ، فدخل الكوفة على حين غفلة من أهلها وكان تحتهم النجائب ، فنزل قريب الكوفة فاغتسل واختضب ولبس ثيابه وتقلد سيفه وألقى عذبة العمامة بين كتفيه ، ثم سار فنزل دار الامارة ، وذلك يوم الجمعة وقد أذن المؤذن الأول لصلاة الجمعة ، فخرج عليهم وهم لايعلمون ، فصعد المنبر وجلس عليه وأمسك عن الكلام طويلا ، وقد شخصوا إليه بأبصارهم وجثوا على الركب وتناولوا الحصى ليحذفوه بها ، وقد كانوا حصبوا الذى كان قبله ، فلما سكت أبهتهم وأحبوا أن يسمعوا كلامه ، فكان أول ما تكلم به أن قال : يا أهل العراق يا أهل الشقاق

والنفاق ، ومساوى الأخلاق ، والله إن كان أمركم ليهمنى قبل أن آتى إليكم ، ولقد كنت أدعو الله أن يبتليكم بى ، ولقد سقط منى البارحة سوطى الذى أؤدبكم به ، فاتخذت هذا مكانه - وأشار إلى سيفه - ، ثم قال : والله لآخذن صغيركم بكبيركم ، وحركم بعبدكم ، ثم لأرصعنكم رصع الحداد الحديدة ، والخباز العجينة . فلما سمعوا كلامه جعل الحصى يتساقط من أيديهم ، وقيل إنه دخل الكوفة فى شهر رمضان ظهراً فأتى المسجد وصعد المنبر وهو معتجر بعمامة حمراء متلثم بطرفها ، ثم قال : على بالناس ! فظنه الناس وأصحابه من الخوارج فهموا به حتى إذا اجتمع الناس قام وكشف عن وجهه اللثام وقال :

أنا ابنُ جَلا وطلاعُ الثنايا متى أضعِ العمامةَ تعرِفونى

ثم قال : أما والله إنى لأحمل الشئ بحمله ، وأحذوه بنعله ، وأجزيه بمثله ، وإنى لأرى رؤساً قد أينعت وآن اقتطافها ، وإنى لأنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى ، قد شمرت عن ساقها فشمرى ، ثم أنشد : -

هذا أوانُ الشدِّ فاشتدي زِيَمْ قد لفَّها الليلُ بسوَّاقٍ حُطَمْ

لست براعى إبلٍ ولا غنمْ ولا بجزَّارٍ على ظهرِ وَضَمْ

قد لفَّها الليلَ بِعَصْلَبيِّ أروَعُ خرَّاجٍ من الدَّوِّيِّ

مهاجرٍ ليسَ بأعرابيِّ

ثم قال : إنى والله يا أهل العراق ما أغمز بغماز ، ولا يقعقع لى بالشنان ، ولقد فررت عن ذكاء وجربت من الغاية القصوى ، وإن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان نثر كنانته ثم عجم عيدانها عوداً عوداً فوجدنى أمرها عوداً وأصلبها مغمزاً فوجهنى إليكم ، فأنتم طالما رتعتم فى أودية الفتن ، وسلكتم سبيل الغى ، واخترتم جدد الضلال ، أما والله لألحونكم لحى العود ، ولأعصبنكم عصب السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل ، إنى والله لا أعد إلا وفيت ، ولا أحلق إلا فريت ، فإياى وهذه الجماعات وقيلا وقالا ، والله لتستقيمن على سبيل الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا فى جسده . ثم قال : من وجدت بعد ثالثة من بعث المهلب - يعنى الذين كانوا قد رجعوا عنه لما سمعوا بموت بشر ابن مروان كما تقدم - سفكت دمه وانتهبت ماله ، ثم نزل فدخل منزله ولم يزد على ذلك ، ويقال إنه لما صعد المنبر واجتمع الناس تحته أطال السكوت حتى أن محمد بن عمير أخذ كفا من حصى وأراد أن يحصبه بها ، وقال : قبحه الله ما أعياه وأذمه ! فلما نهض الحجاج وتكلم بما تكلم به جعل الحصى يتناثر من يده وهو لايشعر به ، لما يرى من فصاحته وبلاغته . ويقال إنه قال فى خطبته هذه : شاهت الوجوه إن الله ضرب [مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون] وأنتم أولئك فاستووا

واستقيموا ، فوالله لأذيقنكم الهوان حتى تدروا ، ولأعصبنكم عصب السلمه حتى تنقادوا ، واقسم بالله لتقبلنّ على الانصاف ولتدعن الارجاف وكان وكان ، وأخبرنى فلان عن فلان ، و إيش الخبر وما الخبر ، أو لأهبرنكم بالسيف هبرا يدع النساء أيامى والاولاد يتامى ، حتى تمشوا السمهى وتقلعوا عن ها وها . فى كلام طويل بليغ غريب يشتمل على وعيد شديد ليس فيه وعد بخير .

فلما كان فى اليوم الثالث سمع تكبيراً فى السوق فخرج حتى جلس على المنبر فقال : يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق ، ومساوى الأخلاق ، إنى سمعت تكبيرا فى الأسواق ليس بالتكبير الذى يراد به الترغيب ، ولكنه تكبير يراد به الترهيب . وقد عصفت عجاجة تحتها قصف ، يابنى اللكيعة وعبيد العصا وأبناء الأماء والأيامى ، ألا يربع كل رجل منكم على ظلعه ، ويحسن حقن دمه ويبصر موضع قدمه ، فأقسم بالله لأوشك أن أوقع بكم وقعة تكون نكالا لما قبلها وأدبا لما بعدها . قال فقام إليه عمير بن ضابئ التميمى ثم الحنظلى فقال : أصلح الله الأمير إنا فى هذا البعث وأنا شيخ كبير وعليل ، وهذا ابنى هو أشب منى . قال : ومن أنت ؟ قال عمير بن ضابئ التميمى ، قال : أسمعت كلامنا بالأمس ؟ قال : نعم ! قال : ألست الذى غزا عثمان بن عفان ؟ قال : بلى . قال : وما حملك على ذلك ؟ قال : كان حبس أبى وكان شيخا كبيراً ، قال أوليس هو الذى هو يقول :

همتُ ولم أفعل وَكِدْتَ وليتَنى فعلتُ ووليّتَ البكاءَ حلائلا

ثم قال الحجاج : إنى لأحسب أن فى قتلك صلاح المصرين ، ثم قال قم إليه ياحرسى فاضرب عنقه ، فقام إليه رجل فضرب عنقه وانتهب ماله ، وأمر مناديا فنادى فى الناس ألا إن عمير بن ضابىء تأخر بعد سماع النداء ثلاثا فأمر بقتله ، فخرج الناس حتى ازدحموا على الجسر فعبر عليه فى ساعة واحدة أربعة آلاف من مذحج ، وخرجت معهم العرفاء حتى وصلوا بهم إلى المهلب ، وأخذوا منه كتاباً بوصولهم إليه ، فقال المهلب : قدم العراق والله رجل ذكر ، اليوم قوتل العدو . ويروى أن الحجاج لم يعرف عمير بن ضابئ حتى قال له عنبسة بن سعيد : أيها الأمير ! إن هذا جاء إلى عثمان بعد ما قتل فلطم وجهه ، فأمر الحجاج عند ذلك بقتله .

وبعث الحجاج الحكم بن أيوب الثقفى نائباً على البصرة من جهته ، وأمره أن يشتد على خالد ابن عبد الله ، وأقر على قضاء الكوفة شريحا ثم ركب الحجاج إلى البصرة واستخلف على الكوفة أبا يعفور ، وولى قضاء البصرة لزرارة بن أوفى ، ثم عاد إلى الكوفة . وحج بالناس فى هذه السنة عبد الملك بن مروان ، واقر عمه يحيى على نيابة المدينة ، وعلى بلاد خراسان أمية بن عبد الله . وفى هذه السنة وثب الناس بالبصرة على الحجاج ، وذلك أنه لما ركب من الكوفة بعد قتل عمير بن ضابئ قام فى أهل البصرة فخطبهم نظير ما خطب أهل الكوفة من الوعيد والتشديد والتهديد الأكيد ، ثم

اتى برجل من بنى يشكر فقيل هـذا عاص ، فقال : إن بى فتقا وقـد عذرنى الله وعذرنى بشر بن مروان ، وهـذا عطائى مردود على بيت المال ، فلم يقبل منـه وأمر بقتله فقتل ، ففزع أهل البصرة وخرجوا من البصرة حتى اجتمعوا عنـد قنطرة رامهرمز . وعليهم عبـد الله بن الجارود ، وخرج إليهم الحجاج ـ وذلك فى شعبان من هذه السنة ـ فى أمراء الجيش فاقتتلوا هناك قتالا شديدا ، وقتل أميرهم عبد الله بن الجارود فى رؤس من القبائل معه ، وأمر برؤسهم فقطعت ونصبت عنـد الجسر من رامهرمز ، ثم بعث بها إلى المهلب فقوى بذلك وضعف أمير الخوارج ، وأرسل الحجاج إلى المهلب وعبد الرحمن بن مخنف فأمرهما بمناهضة الازارقـة ، فنهضا بمن معهما إلى الخوارج الأزارقة فأجلوهم عن أماكنهم من رامهرمز بأيسر قتال ، فهربوا إلى أرض كازرون من أقليم سابور ، وسار الناس وراءهم فالتقوا فى العشر الأواخر من رمضان ، فلما كان الليل بيت الخوارج المهلب من الليل فوجدوه قـد تحصن بخندق حول معسكره ، فجاؤا إلى عبد الرحمن بن مخنف فوجدوه غير محترز ـ وكان المهلب قد أمره بالاحتراز بخندق حوله فلم يفعل ـ فاقتتلوا فى الليل فقتلت الخوارج عبد الرحمن بن مخنف وطائفة من جيشه وهزموهم هزيمة منكرة ، ويقال إن الخوارج لما التقوا مع الناس فى هذه الوقعة كان ذلك فى يوم الأربعاء لعشرين بقين من رمضان ، فاقتتلوا قتالا شـديدا لم يعهد مثله من الخوارج ، وحملت الخوارج على جيش المهلب بن أبى صفرة فاضطروه إلى معسكره ، فجعل عبد الرحمن يمده بالخيل بعد الخيل ، والرجال بعـد الرجال ، فمالت الخوارج إلى معسكر عبـد الرحمن بعد العصر فاقتتلوا معه إلى الليل ، فقتل عبـد الرحمن فى أثناء الليل ؛ وقتل معه طائفة كثيرة من أصحابه الذين ثبتوا معه ، فلما كان الصباح جاء المهلب فصلى عليـه ودفنـه وكتب إلى الحجاج بمهلكه ، فكتب الحجاج إلى عبد الملك يعزيه فيه فنعاه عبد الملك إلى الناس بمنى ، وأمّر الحجاج مكانه عتاب بن ورقاء ، وكتب إليـه أن يطيع المهلب ، فكره ذلك ولم يجـد بداً من طاعـة الحجاج ، وكره أن يخالفه ، فسار إلى المهلب فجعل لا يطيعه إلا ظاهراً ويعصيه كثيراً ، ثم تقاولا فهم المهلب أن يوقع بعتاب ثم حجز بينهما الناس ، فكتب عتاب إلى الحجاج يشكو المهلب فكتب إليـه أن يقدم عليـه وأعفاه من ذلك ، وجعل المهلب مكانه ابنه حبيب بن المهلب .

وفيها خرج داود بن النعمان المازنى بنواحى البصرة ، فوجه إليه الحجاج أميراً على سرية فقتله . قال ابن جرير : وفى هـذه السنة تحرك صالح بن مسرح أحـد بنى امرئ القيس ، وكان يرى رأى الصفرية ، وقيل إنه أول من خرج من الصفرية ، وكان سبب ذلك أنه حج بالناس فى هذه السنة ومعه شبيب بن يزيد ، والبطين وأشباههم من رؤس الخوارج ، واتفق حج أمير المؤمنين عبـد الملك فهم شبيب بالفتك به ، فبلغ عبـد الملك ذلك من خبره بعد انصرافه من الحج ، فكتب عبـد الملك

إلى الحجاج أن يتطلبهم ، وكان صالح بن مسرح هذا يكثر الدخول إلى الكوفة والاقامة بها ، وكان له جماعة يلوذون به و يعتقدونه ، من أهل دارا وأرض الموصل ، وكان يعلمهم القرآن و يقص عليهم وكان مصفراً كثير العبادة ، وكان إذا قص يحمد الله و يثنى عليه و يصلى على رسوله ، ثم يأمر بالزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة ، و يحث على ذكر الموت و يترحم على الشيخين أبى بكر وعمر ، و يثنى عليهما ثناء حسناً ، ولكن بعد ذلك يذكر عثمان فيسبه و ينال منه و ينكر عليه أشياء من جنس ما كان ينكر عليه الذين خرجوا عليه وقتلوه من فجرة أهل الأمصار ، ثم يحض أصحابه على الخروج مع الخوارج للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، و إنكار ماقد شاع فى الناس وذاع ، و يهون عليهم القتل فى طلب ذلك ، ويذم الدنيا ذماً بالغاً ، و يصغر أمرها و يحقره ، فالتفت عليه جماعة من الناس ، وكتب إليه شبيب بن يزيد الخارجى يستبطئه فى الخروج و يحثه عليه و يندب إليه ، ثم قدم شبيب على صالح وهو بدارا فتواعدوا وتوافقوا على الخروج فى مستهل صفر من هذه السنة الآتية - وهى سنة ست وسبعين - وقدم على صالح شبيب وأخوه مصاد والمجلل والفضل بن عامر ، فاجتمع عليه من الأبطال وهو بدارا نحو مائة وعشرة أنفس ، ثم وثبوا على خيل لمحمد بن مروان فأخذوها ونفروا بها ثم كان من أمرهم بعد ذلك ما كان ، كما سنذكره فى هذه السنة التى بعدها إن شاء الله تعالى

وكان ممن توفى فيها فى قول أبى مسهر وأبى عبيد : **العرباض بن سارية** رضى الله عنه السلمى أبو نجيح سكن حمص وهو صحابى جليل ، أسلم قديما هو وعمرو بن عنبسة ونزل الصفة ، وكان من البكائين المذكورين فى سورة براءة كما قد ذكرنا أسماءهم عند قوله [ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم] الآية . وكانوا ، تسعة وهو راوى حديث « خطبنا رسول الله (ص) خطبة وجلت منها القلوب و ذرفت منها العيون » الحديث إلى آخره . ورواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى وغيره ، وروى أيضا أن النبى (ص) « كان يصلى على الصف المقدم ثلاثا وعلى الثانى واحدة » وقد كان العرباض شيخا كبيرا ، وكان يحب أن يقبضه الله إليه ، وكان يدعو : اللهم كبرت سنى ووهن عظمى فاقبضنى إليك ، وروى أحاديث .

ابو ثعلبة الخشني

صحابى جليل شهد بيعة الرضوان وغزا حنيناً وكان ممن نزل الشام بدار ياغربى دمشق إلى جهة القبلة ، وقيل ببلاط قرية شرقى دمشق فالله أعلم . وقد اختلف فى اسمه واسم أبيه على أقوال كثيرة ، والأشهر منها جرثوم بن ناشر ، وقد روى عن رسول الله (ص) أحاديث وعن جماعة من الصحابة ، وعنه جماعة من التابعين ، منهم سعيد بن المسيب ومكحول الشامى وأبو إدريس الخولانى ، وأبو قلابة الجرمى ، وكان ممن يجالس كعب الأحبار ، وكان فى كل ليلة يخرج فينظر إلى السماء فيتفكر ثم يرجع إلى المنزل فيسجد لله عز وجل ، وكان يقول : إنى لأرجو أن لا يخنقنى الله عند الموت كما أراكم تختنقون ،

فبينما هو ليلة يصلى من الليل إذ قبضت روحه وهو ساجد . ورأت ابنته فى المنام كأن أباها قدمات فانتبهت مذعورة فقالت لأمها أين أبى ؟ قالت : هو فى مصلاه ، فنادته فلم يجبها ، فجاءته فحركته فسقط لجنبه فاذا هو ميت رحمه الله ، قال أبو عبيدة ومحمد بن سعد وخليفة وغير واحد : كانت وفاته سنة خمس وسبعين ، وقال غيرهم : كانت وفاته فى أول إمرة معاوية فالله أعلم . وقد توفى فى هذه السنة .

الأسود بن يزيد

صاحب ابن مسعود ، وهو الأسود بن يزيد النخعى من كبار التابعين ، ومن أعيان أصحاب ابن مسعود ، ومن كبار أهل الكوفة ، وكان يصوم الدهر ، وقد ذهبت عينه من كثرة الصوم ، وقد حج البيت ثمانين حجة وعمرة ، وكان يهل من الكوفة ، توفى فى هذه السنة ، وكان يصوم حتى يخضر ويصفر ، فلما احتضر بكى فقيل له : ما هذا الجزع ؟ فقال : مالى لا أجزع ؟ ومن أحق بذلك منى ؟ والله لو أنبئت بالمغفرة من الله لأهابن الحياء منه مما قد صنعت ، إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه فلا يزال مستحيياً منه .

حمران بن أبان

مولى عثمان بن عفان كان من سبى عين التمر اشتراه عثمان ، وهو الذى كان يأذن الناس على عثمان توفى فى هذه السنة والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ست وسبعين

كان فى أولها فى مستهل صفر منها ليلة الأربعاء اجتماع صالح بن مسرح أمير الصفرية ، وشبيب ابن يزيد أحد شجعان الخوارج ، فقام فيهم صالح بن مسرح فأمرهم بتقوى الله وحثهم على الجهاد ، وأن لا يقاتلوا أحداً حتى يدعوه إلى الدخول معهم ، ثم مالوا إلى دواب محمد بن مروان نائب الجزيرة فأخذوها فنفروا بها ، وأقاموا بأرض دارا ثلاثة عشر ليلة ، وتحصن منهم أهل دارا ونصيبين وسنجار ، فبعث إليهم محمد بن مروان نائب الجزيرة خمسمائة فارس عليهم عدى بن عدى بن عميرة ، ثم زاده خمسمائة أخرى فسار فى ألف من حران إليهم ، وكأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ، لما يعلموا من جلد الخوارج وقوتهم وشدة بأسهم ، فلما التقوا مع الخوارج هزمتهم الخوارج هزيمة شنيعة بالغة ، واحتووا على مافى معسكرهم ، ورجع فلهم إلى محمد بن مروان ، فغضب وبعث إليهم ألفاً وخمسمائة مع الحارث بن جعونة ، وألفاً وخمسمائة مع خالد بن الحر ، وقال لهما : أيكما سبق إليهم فهو الأمير على الناس ، فساروا إليهم فى ثلاثة آلاف مقاتل ، والخوارج فى نحو من مائة نفس وعشرة أنفس ، فلما انتهوا إلى آمد توجه صالح فى شطر الناس إلى خالد بن الحر ، ووجه شبيباً فى الباقى إلى الحارث ابن جعونة ، فاقتتل الناس قتالاً شديداً إلى الليل ، فلما كان المساء انكشف كل من الفريقين عن

الآخر ، وقد قتل من الخوارج نحو السبعين وقتل من أصحاب ابن مروان نحو الثلاثين ، وهرب الخوارج فى الليل فخرجوا من الجزيرة وأخذوا فى أرض الموصل ومضوا حتى قطعوا الدسكرة ، فبعث إليهم الحجاج ثلاثة آلاف مع الحارث بن عميرة ، فسار نحوهم حتى لحقهم بأرض الموصل وليس مع صالح سوى تسعين رجلا ، فالتقى معهم وقد جعل صالح أصحابه ثلاثة كراديس ، فهو فى كردوس ، وشبيب عن يمينه فى كردوس ، وسويد بن سليمان عن يساره فى كردوس ، وحمل عليهم الحارث بن عميرة ، وعلى ميمنته أبو الرواع الشاكرى ، وعلى ميسرته الزبير بن الاروح التميمى ، فصبرت الخوارج على قلتهم صبراً شديداً ، ثم انكشف سويد بن سليمان ، ثم قتل صالح بن مسرح أميرهم ، وصرع شبيب عن فرسه فالتف عليه بقية الخوارج حتى احتملوه فدخلوا به حصناً هنالك ، وقد بقى معهم سبعون رجلا ، فأحاط بهم الحارث بن عميرة وأمر أصحابه أن يحرقوا الباب ففعلوا ، ورجع الناس إلى معسكرهم ينتظرون حريق الباب فيأخذون الخوارج قهراً ، فما رجع الناس واطمأنوا خرجت عليهم الخوارج على الصعب والذلول من الباب فبيتوا جيش الحارث بن عميرة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وهرب الناس سراعا إلى المدائن ، واحتاز شبيب وأصحابه مافى معسكرهم ، وكان جيش الحارث بن عميرة أول جيش هزمه شبيب ، وكان مقتل صالح بن مسرح فى يوم الثلاثاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة من هذه السنة .

وفيها دخل شبيب الكوفة ومعه زوجته عزالة ، وذلك أن شبيباً جرت له فصول يطول تفصيلها بعد مقتل صالح بن مسرح ، واجتمعت عليه الخوارج وبايعوه ، وبعث إليه الحجاج جيشاً آخر فقاتلوه فهزموه ثم هزمهم بعد ذلك ، ثم سار فجاز المدائن فلم ينل منهم شيئاً ، فسار فأخذ دواباً للحجاج من كلوذا ، وفى عزمه أن يبيت أهل المدائن فهرب من فيها من الجند إلى الكوفة ، فلما وصل فلهم إلى الحجاج جهز جيشا أربعة آلاف مقاتل إلى شبيب ، فمروا على المدائن ثم ساروا فى طلب شبيب فجعل يسير بين أيديهم قليلا قليلا وهو يريهم انه خائف منهم ، ثم يكر فى كل وقت على المقدمة فيكسرها وينهب مافيها ، ولا يواجه أحداً إلا هزمه ، والحجاج يلح فى طلبه ويجهز إليه السرايا والبعوث والمدد وشبيب لايبالى بأحد وإن ما معه مائة وستون فارسا ، وهذا من أعجب العجب ، ثم سار من طريق أخرى حتى واجه الكوفة وهو يريد أن يحاصرها ، فخرج الجيش بكماله إلى السبخة لقتاله ، وبلغه ذلك فلم يبال بهم بل انزعج الناس له وخاف منه وفرقوا منه ، وهم الجيش أن يدخل الكوفة خوفا منه ويتحصنوا بها منه ، حتى قيل لهم إن سويد بن عبد الرحمن فى آثارهم وقد اقترب منهم ، وشبيب نازل بالمدائن بالدير ليس عنده خبر منهم ولا خوف ، وقد أمر بطعام وشواء ان يصنع له فقيل له : قد جاءك الجند فأدرك نفسك ، فجعل لايلتفت إلى ذلك ولا يكترث بهم ويقول للدهقان الذى يصنع له

الطعام : أجـده وأنصجه وعجل به ، فلما استوى أكله ثم توضأ وضوءاً تاما ثم صلى بأصحابه صلاة تامة بتطويل وطمأنينة ، ثم لبس درعه وتقلد سيفين وأخذ عمود حـديد ثم قال : أسرجوالى البغلة ، فركبها فقال له أخوه مصاد : اركب فرساً ، فقال : لا ! حارس كل أمر أجله ، فركبها ثم فتح باب الدير الذى هو فيه وهو يقول : أنا أبو المدله لاحكم إلا الله ، وتقدم إلى أمير الجيش الذى يليه بالعمود الحديد فقتله ، وهو سعيد بن المجالد ، وحمل عـلى الجيش الآخر الكثيف فصرع أميره وهرب الناس من بين يديه ولجأوا إلى الكوفة ، ومضى شبيب إلى الكوفة من أسفل الفرات ، وقتل جماعة هناك ، وخرج الحجاج من الكوفة هارباً إلى البصرة ، واستخلف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة ، ثم اقترب شبيب من الكوفة يريد دخولها ، فأعـلم الدهاقين عروة بن المغيرة بذلك فكتب إلى الحجاج يعلمه بذلك فأسرع الحجاج الخروج من البصرة وقصد الـكوفة فأسرع السير ، وبادره شبيب إلى الـكوفة فسبقه الحجاج إليها فدخلها العصر ، ووصل شبيب إلى المربد عنـد الغروب ، فلما كان آخر الليل دخل شبيب الكوفة وقصـد قصر الامارة فضرب بابه بعموده الحديد فأثرت ضربتـه فى الباب ، فكانت تعرف بعـد ذلك ، يقال هذه ضربة شبيب ، وسلك فى طرق المدينة وتقصد محال القتال ، وقتل رجالا من رؤساء أهل الكوفة وأشرافهم ، منهم أبو سليم والدليث بن أبى سليم ، وعدى بن عمرو ، وأزهر بن عبد الله العامرى ، فى طائفة كثيرة من أهـل الكوفة ، وكان مع شبيب امرأته غزالة ، وكانت معروفة بالشجاعة ، فدخلت مسجد الكوفة وجلست على منبره وجعلت تذم بنى مروان .

ونادى الحجاج فى الناس ياخيل الله اركبى ، فخرج شبيب من الكوفة إلى مجال الطعن والضرب ، فجهز الحجاج فى أثره ستة آلاف مقاتل ، فساروا وراءه وهو بين أيديهم ينعس ويهز رأسه ، وفى أوقات كثيرة يكر عليهم فيقتل منهم جماعة ، حتى قتل من جيش الحجاج خلقاً كثيراً ، وقتل جماعة من الأمراء منهـم زائدة بن قدامة ، قتله شبيب ، وهو ابن عم المختار ، فوجه الحجاج مكانه لحربه عبد الرحمن بن الأشعث ، فلم يقابل شبيباً ورجع ، فوجه مكانه عثمان بن قطن الحارثى ، فالتقوا فى أواخر السنة فقتل عثمان بن قطن وانهزمت جموعه بعد أن قتل من أصحابه ستمائة نفس ، فمن أعيانهم عقيل بن شـداد السلولى ، وخالد بن نهيك الكندى ، والاسود بن ربيعة ، واستفحل أمر شبيب وتزلزل له عبد الملك بن مروان والحجاج وسائر الأمراء وخاف عبد الملك منه خوفاً شديداً ، فبعث له جيشا من أهل الشام فقدموا فى السنة الآتية ، وإن ما مع شبيب شرذمة قليلة ، وقد ملأ قلوب الناس رعبا ، وجرت خطوب كثيرة له معهم ، ولم يزل ذلك دأبه ودأبهم حتى استهلت هذه السنة.

قال ابن جرير : وفى هذه السنة نقش عبد الملك بن مروان على الدراهم والدنانير وهو أول من

نقشها . وقال الماوردى فى كتاب الاحكام السلطانيــة : اختلف فى أول من ضربها بالعربية فى الاســلام فقال سعيد بن المسيب : أول من ضرب الدراهم المنقوشة عبــد الملك بن مروان ، وكانت الدنانير والدراهم روميــة وكسروية ، قال أبو الزناد : وكان نقشه لهــا فى سـنة أربع وسبعين ، وقال المدائنى : خمس وسبعين ، وضربت فى الآفاق سنة ستة وسبعين ، وذكر أنه ضرب على الجانب الواحد منها الله أحد : وعلى الوجه الآخر الله الصمد ، قال : وحكى يحيى بن النعمان الغفارى عن أبيه أن أول من ضرب الدراهم مصعب بن الزبير عن أمر أخيه عبد الله بن الزبير ، سنة سبعين على ضرب الأكاسرة ، عليها الملك من جانب ، والله من جانب ، ثم غــيرها الحجاج وكتب اسمــه عليها من جانب ، ثم خلصها بعده يوسف بن هبيرة فى أيام يزيد بن عبد الملك ، ثم خلصها أجود منها خالد بن عبــد الله القسيرى فى أيام هشام ، ثم يوسف بن عمر أجود منهم كلهم ، ولذلك كان المنصور لا يقبل منها إلا الهبيرية والخالدية واليوسفية وذكر أنه قد كان للناس نقود مختلفة منها الدراهم البعلية ، وكان الدرهم منها ثمانية دوانق ، والطبرية وكان الدرهم منها أربعــة دوانيق ، واليمنى دانق ، فجمع عمر بن الخطاب بين البعلى والطبرى ثم أخذ بنصفها فجعل الدرهم الشرعى وهو نصف مثقال وخمس مثقال ، وذكروا أن المثقال لم يغيروا وزنه فى جاهلية ولا إسلام ، وفى هذا نظر والله أعلم

وفيها ولد مروان بن محمــد بن مروان بن الحــكم وهو مروان الحمار آخر من تولى الخلافة من بنى أمية ، ومنه أخذها بنو العباس . وفيها حج بالناس أبان بن عثمان بن عفان نائب المدينة ، وعلى إمرة العراق الحجاج وعلى خراسان أمية بن عبد الله والله أعلم .

وممن توفى فيها من الأعيان أبو عثمان النهدى القضاعى اسمه عبد الرحمن بن مل أسلم على عهد النبى (ص) وغزا جلولاء والقادســية وتستر ، ونهاوند ، وأذربيجان وغــيرهما ، وكان كثير العبادة زاهداً عالماً يصوم النهار ويقوم الليل ، توفى وعمره مائة وثلاثين سنة بالكوفة .

صلة بن اشيم العدوي

من كبار التابعين من أهل البصرة ، وكان ذا فضل وورع وعبادة وزهد ، كنيته أبو الصهباء ، كان يصلى حتى ما يستطيع أن يأتى الفراش إلا حبوا ، وله مناقب كثيرة جداً ، منها أنه كان يمر عليه شــباب يلهون ويلعبون فيقول : أخبرونى عن قوم أرادوا سفراً فحادوا فى النهار عن الطريق وناموا الليل فمتى يقطعون سفرهم ؟ فقال لهم يوماً هذه المقالة ، فقال شاب منهم : والله ياقوم إنه مايعنى بهذا غيرنا ، نحن بالنهار نلهو ، وبالليل ننام . ثم تبع صلة فلم يزل يتعبد معه حتى مات . ومر عليه فتى يجر ثوبه فهم أصحابه أن يأخذوه بألسنتهم فقال : دعونى أكفكم أمره ، ثم دعاه فقال : يا ابن أخى لى إليك حاجة ،

قال : وماحاجتك ؟ قال أن ترفع إزارك ، قال : نعم ، ونعمت عين ، فرفع إزاره ، فقال صلة : هذا أمثل مما أردتم لو شتمتموه لشتمكم . ومنهاما حكاه جعفر بن زيد قال : خرجنا فى غزاة وفى الجيش صلة بن أشيم فنزل الناس عند العتمة فقلت لأرمقن عمله الليلة ، فدخل غيضة ودخلت فى أثره فقام يصلى وجاء الأسـد حتى دنا منـه وصعدت أنا فى شجرة ، قال فتراه التفت أوعـده جرواً حتى سجد فقلت : الآن يفترسه ، فجلس ثم سلم فقال : أيها السبع إن كنت أمرت بشئ فافعل وإلا فاطلب الرزق من مكان آخر ، فولى الأسد وإن له لزئيراً تصدع منه الجبال ، فلما كان عنـد الصباح جلس فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها ثم قال : اللهـم إنى أسألك أن تجير نى من النار ، أو مثلى يجترئ أن يسألك الجنة . ثم رجع إلى الجيش فأصبح كأنه بات على الحشا ، وأصبحت وبى من الفترة شئ الله به عليم . قال : وذهبت بغلته بثقلها فقال : اللهم إنى أسألك أن ترد على بغلتى بثقلها ، فجاءت حتى قامت بين يديه ، قال : فلما التقينا العدو حمل هو وهشام بن عامر فصنعنا بهم طعنا وضربا ، فقال العدو : رجلان من العرب صنعا بناهذا فكيف لو قاتلونا كلهم ؟ اعطوا المسلمين حاجتهم ـ يعنى انزلوا على حكمهم ـ وقال صله : جعت مرة فى غزاة جوعا شـديداً فبينما أنا أسير أدعو ربى وأستطعمه ، إذ سمعت وجبـة من خلفى فالتفت فاذا أنا بمنـديل أبيض فاذا فيـه دوخلة ملآنة رطباً فأكلت منـه حتى شبعت ، وأدركنى المساء فملت إلى دير راهب فحدثته الحديث فاستطعمنى من الرطب فأطعمته ، ثم إنى مررت على ذلك الراهب بعد زمان فاذا نخلات حسان فقال : إنهن لمن الرطبات التى أطعمتنى ، وجاء بذلك المنديل إلى امرأته فكانت تريه للناس ، ولما أهديت معاذة إلى صلة أدخله ابن أخيه الحمام ثم أدخله بيت العروس بيتاً مطيباً فقام يصلى فقامت تصلى معـه ، فلم يزالا يصليان حتى برق الصبح ، قال : فأتيته فقلت له : أى عم أهديت إليك ابنة عمك الليلة فقمت تصلى وتركتها ؟ قال : إنك أدخلتنى بيتاً أول النهار أذكرتنى به النار ، وأدخلتنى بيتاً آخر النهار أذكرتنى به الجنة ، فلم تزل فكرتى فيهما حتى أصبحت ، البيت الذى أذكره به النار هو الحمام ، والبيت الذى أذكره به الجنة هو بيت العروس . وقال له رجل : أدعو الله لى : فقال رغبـك الله فيما يبقى ، وزهـدك فيما يفنى ، ورزقك اليقين الذى لا يركن إلا إليه ، ولا يعول فى الدين إلا عليه . وكان صلة فى غزاة ومعه ابنه فقال له : أى بنى تقدم فقاتل حتى أحتسبك ، فحمل فقاتل حتى قتل ، ثم تقـدم صله فقاتل حتى قتل ، فاجتمع النساء عند امرأته معاذة العـدوية فقالت : إن كنتن جئتن لتهنينى فرحباً بكن ، وإن كنتن جئتن لتعزينى فارجعن ، توفى صلة فى غزاة هو وابنه نحو بلاد فارس فى هذه السنة .

زهير بن قيس البلوي

شهد فتح مصر وسكنها ، له صحبة ، قتلته الروم ببرقة من بلاد المغرب ، وذلك أن الصريخ أتى

الحاكم بمصر وهو عبد العزيز بن مروان أن الروم نزلوا برقة ، فأمره بالنهوض إليهم ، فساق زهير ومعه أربعون نفسا فوجد الروم فأراد أن يكف عن القتال حتى يلحقه العسكر ، فقالوا : يا أبا شداد احمل بنا عليهم ، فحملوا فقتلوا جميعا **المنذر بن الجارود** . مات فى هذه السنة . تولى بيت المال و وفد على معاوية والله أعلم

ثم دخلت سنة سبع وسبعين

فيها أخرج الحجاج مقاتلة أهل الكوفة وكانوا أربعين ألفاً، وانضاف عليهم عشرة آلاف ، فصار واخمسين ألفا ، وأمر عليهم عتاب بن ورقاء وأمره أن يقصد لشبيب أين كان ، وأن يصمم على قتاله ــ وكان قد اجتمع على شبيب ألف رجل ــ وأن لا يفعلوا كما كانوا يفعلون قبلها من الفرار والهزيمة. ولما بلغ شبيبا ما بعث به الحجاج إليه من العساكر والجنود ، لم يعبأ بهم شيئاً . بل قام فى أصحابه خطيباً فوعظهم وذكرهم وحثهم على الصبر عند اللقاء ومناجزة الأعداء ، ثم سار شبيب بأصحابه نحو عتاب بن ورقاء ، فالتقيا فى آخر النهار عند غروب الشمس ، فأمر شبيب مؤذنه سلام بن يسار الشيبانى فأذن المغرب ثم صلى شبيب بأصحابه المغرب صلاة تامة الركوع والسجود ، وصف عتاب أصحابه وكان قد خندق حوله وحول جيشه من أول النهار ــ فلما صلى شبيب بأصحابه المغرب انتظر حتى طلع القمر وأضاء ثم تأمل الميمنة والميسرة ثم حمل على أصحاب رايات عتاب وهو يقول : أنا شبيب أبو المدله لاحكم الا لله ، فهزمهم وقتل أميرهم قبيصة بن والق وجماعة من الامراء معه ، ثم كر على الميمنة وعلى الميسرة ففرق شمل كل واحدة منهما ، ثم قصد القلب فما زال حتى قتل الأمير عتاب بن ورقاء و زهرة بن جونة ، وولى عامة الجيش مدبرين وداسوا الأمير عتاب و زهرة فوطئته الخيل . وقتل فى المعركة عمار بن يزيد الكلبى . ثم قال شبيب لأصحابه: لا تتبعوا منهزما ، وانهزم جيش الحجاج عن بكرة أبيهم راجعين إلى الكوفة ، وكان شبيب لما احتوى على المعسكر أخذ ممن بقى منهم البيعة له بالامارة وقال لهم إلى أى ساعة تهربون ؟ ثم احتوى على ما فى المعسكر من الأموال والحواصل ، واستدعى بأخيه مصاد من المدائن ، ثم قصد نحو الكوفة ، وقد وفد إلى الحجاج سفيان بن الأبرد الكلبى وحبيب بن عبد الرحمن الحكمى من مذحج فى ستة آلاف فارس ومعهما خلق من أهل الشام ، فاستغنى الحجاج بهم عن نصرة أهل الكوفة ، وقام فى الناس خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : يا أهل الكوفة لا أعز الله من أراد بكم العز ، ولا نصر من أراد بكم النصر ، اخرجوا عنا فلا تشهدوا معنا قتال عدونا ، الحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى ، فلا يقاتلن معنا إلا من كان عاملا لنا ، ومن لم يشهد قتال عتاب بن ورقاء ، وعزم الحجاج على قتال شبيب بنفسه وسار شبيب حتى

بلغ الصراة ، وخرج إليه الحجاج بمن معه من الشاميين وغيرهم ، فلما تواجه الفريقان نظر الحجاج الى شبيب وهو فى ستمائة فخطب الحجاج أهل الشام وقال : يا أهل الشام أنتم أهل السمع والطاعة والصبر واليقين لا يغلبن باطل هؤلاء الأراجس حقكم ، غضو الأبصار واجثوا على الركب ، واستقبلوا بأطراف الأسنة ، ففعلوا ذلك ، وأقبل شبيب وقد عبى أصحابه ثلاث فرق ، واحدة معه ، وأخرى مع سويد ابن سليم ، وأخرى مع المجلل بن وائل . وأمر شبيب سويداً أن يحمل فحمل على جيش الحجاج فصبروا له حتى إذا دنا منهم وثبوا إليه وثبة واحدة فانهزم عنهم ، فنادى الحجاج : يا أهل السمع والطاعة هكذا فافعلوا ، ثم أمر الحجاج فقدم كرسيه الذى هو جالس عليه إلى الامام ، ثم أمر شبيب المجلل أن يحمل فحمل فثبتوا له وقدم الحجاج كرسيه إلى أمام ، ثم إن شبيباً حمل عليهم فى كثيبته فثبتوا له حتى إذا غشى أطراف الأسنة وثبوا فى وجهه فقاتلهم طويلا ، ثم إن أهل الشام طاعنوه حتى ألحقوه بأصحابه ، فلما رأى صبرهم نادى : ياسويد احمل فى خيلك على أهل هذه السرية لعلك تزيل أهلها عنها فأت الحجاج من ورائه ، ونحمل نحن عليه من أمامه . فحمل فلم يفد ذلك شيئاً ، وذلك أن الحجاج كان قد جعل عروة بن المغيرة بن شعبة فى ثلاثمائة فارس ردأ له من ورائه لئلا يؤتوا من خلفهم ، وكان الحجاج بصيراً بالحرب أيضاً ، فعند ذلك حرض شبيب أصحابه على الحملة وأمرهم بها ففهم ذلك الحجاج ، فقال : يا أهل السمع والطاعة اصبروا لهذه الشدة الواحدة ، ثم ورب السماء والأرض ماشئ دون الفتح ، فجثوا على الركب وحمل عليهم شبيب بجميع أصحابه ، فلما غشيهم نادى الحجاج بجماعة الناس فوثبوا فى وجهه ، فما زالوا يطعنون ويطعنون وهم مستظهرون على شبيب وأصحابه حتى ردوهم عن مواقفهم إلى ما ورائها ، فنادى شبيب فى أصحابه يا أولياء الله الأرض الأرض ، ثم نزل ونزلوا ونادى الحجاج يا أهل الشام يا أهل السمع والطاعة ، هذا أول النصر والذى نفسى بيده ، وصعد مسجداً هنالك وجعل ينظر إلى الفريقين ، ومع شبيب نحو عشرين رجلا معهم النبل ، واقتتل الناس قتالا شديداً عامة النهار من أشد قتال فى الأرض ، حتى أقر كل واحد منهم لصاحبه ، والحجاج ينظر إلى الفريقين من مكانه ، ثم إن خالد بن عتاب استأذن الحجاج فى أن يركب فى جماعة فيأتى الخوارج من خلفهم ، فأذن له ، فانطلق فى جماعة معه نحو من أربعة آلاف ، فدخل عسكر الخوارج من ورائهم فقتل مصاداً أخا شبيب ، وغزالة امرأة شبيب ، قتلها رجل يقال له فروة بن دقاق الكلبى ، وخرق فى جيش شبيب ، ففرح بذلك الحجاج وأصحابه وكبروا ، وانصرف شبيب وأصحابه كل منهم على فرس ، فأمر الحجاج أن ينطلقوا فى طلبهم ، فشدوا عليهم فهزموهم ، وتخلف شبيب فى حامية الناس ، ثم انطلق واتبعه الطلب فجعل ينعس وهو على فرسه حتى يخفق برأسه ، ودنا منه الطلب فجعل بعض أصحابه ينهاه عن النعاس فى هذه الساعة فجعل لا يكترث بهم

و يعود فيخفق رأسه ، فلما طال ذلك بعث الحجاج إلى أصحابه يقول دعوه فى حرق النار ، فتركوه و رجعوا.

ثم دخل الحجاج الكوفة فخطب الناس فقال فى خطبته . إن شبيباً لم يهزم قبلها ، ثم قصد شبيب الكوفة فخرجت إليه سرية من جيش الحجاج فالتقوا يوم الأربعاء فلا زالوا يتقاتلون إلى يوم الجمعة

وكان على سرية الحجاج الحارث بن معاوية الثقفى فى ألف فارس معه ، فحمل شبيب على الحارث ابن معاوية فكسره ومن معه ، وقتل منهم طائفة ، ودخل الناس الكوفة هاربين ، وحصن الناس السكك فخرج إليه أبو الورد مولى الحجاج فى طائفة من الجيش فقاتل حتى قتل ، ثم هرب أصحابه ودخلوا الكوفة ، ثم خرج إليه أمير آخر فانكسر أيضاً ، ثم سار شبيب بأصحابه نحو السواد فمروا بعامل الحجاج على تلك البلاد فقتلوه ، ثم خطب أصحابه وقال : اشتغلتم بالدنيا عن الآخرة ، ثم رمى بالمال فى الفرات ، ثم سار بهم حتى افتتح بلاداً كثيرة ولا يبرز له أحد إلا قتله ، ثم خرج إليه بعض الأمراء الذين على بعض المدن فقال له : يا شبيب ابرز إلى وأبرز إليك ، ـ وكان صديقه ـ فقال له شبيب : إنى لا أحب قتلك ، فقال له : لكنى أحب قتلك فلا تغرنك نفسك وما تقدم من الوقائع ، ثم حمل عليه فضربه شبيب على رأسه فهمس رأسه حتى اختلط دماغه بلحمه وعظمه ، ثم كفنه ودفنه ، ثم إن الحجاج أنفق أموالا كثيرة على الجيوش والعساكر فى طلب شبيب فلم يطيقوه و لم يقدروا عليه ، و إنما سلط الله عليه موتاً قدراً من غير صنعهم ولا صنعه فى هذه السنة .

مقتل شبيب عند ابن الكلبي

وكان سبب ذلك أن الحجاج كتب إلى نائبه على البصرة ـ وهو الحكم بن أيوب بن الحكم بن أبى عقيل وهو زوج ابنة الحجاج ـ يأمره أن يجهز جيشا أربعة آلاف فى طلب شبيب ، و يكونون تبعاً لسفيان بن الأبرد ، ففعل وانطلقوا فى طلبه فالتقوا معه . وكان ابن الأبرد معه خلق من أهل الشام ، فلما وصل جيش البصرة إلى ابن الأبرد التقوا معه جيشاً واحداً هم وأهل الشام ، ثم ساروا إلى شبيب فالتقوا به فاقتتلوا قتالا شديداً وصبر كل من الفريقين لصاحبه ، ثم عزم أصحاب الحجاج فحملوا على الخوارج حملة منكرة والخوارج قليلون ففروا بين أيديهم ذاهبين حتى اضطروهم إلى جسر هناك ، فوقف عنده شبيب فى مائة من أصحابه ، وعجز سفيان بن الأبرد عن مقاومته ، و رده شبيب عن موقفه هذا بعد أن تقاتلوا نهاراً طويلا كاملا عند أول الجسر أشد قتال يكون ، ثم أمر ابن الأبرد أصحابه فرشقوهم بالنبال رشقاً واحداً ، ففرت الخوارج ثم كرت على الرماة فقتلوا نحواً من ثلاثين رجلا من أصحاب ابن الأبرد ، وجاء الليل بظلامه فكف الناس بعضهم عن بعض ، وبات كل من الفريقين مصراً على مناهضة الآخر ، فلما طلع الفجر عبر شبيب وأصحابه على الجسر ،

فبينما شبيب على متن الجسر راكبا على حصان له و بين يديه فرس أنثى إذ نزا حصانه عليها وهو على الجسر فنزل حافر فرس شبيب على حرف السفينة فسقط فى الماء ، فقال ليقضى الله أمراً كان مفعولا ، ثم انغمر فى الماء ثم ارتفع وهو يقول [ذلك تقدير العزيز العليم] فغرق . فلما تحققت الخوارج سقوطه فى الماء كبروا وانصرفوا ذاهبين متفرقين فى البلاد ، وجاء أمير جيش الحجاج فاستخرج شبيبا من الماء وعليه درعه ، ثم أمر به فشق صدره فاستخرج قلبه فاذا هو مجتمع صلب كأنه صخرة ، وكانوا يضربون به الأرض فيرتفع قامة الانسان . وقيل إنه كان معه رجال قد أبغضوه لما أصاب من عشائرهم ، فلما تخلف فى الساقة اشتوروا وقالوا نقطع الجسر به ففعلوا ذلك فمالت السفن بالجسر ونفر فرسه فسقط فى الماء فغرق ، ونادوا غرق أمير المؤمنين ، فعرف جيش الحجاج ذلك فجاؤا فاستخرجوه ،

ولما نعى شُبيب إلى أمه قالت : صدقتم إنى كنت رأيت فى المنام وأنا حامل به أنه قد خرج منها شهاب من نار فعلمت أن النار لا يطفئها إلا الماء ، وأنه لا يطفئه إلا الماء ، وكانت أمه جارية اسمها جهيرة ، وكانت جميلة ، وكانت من أشجع النساء ، تقاتل مع ابنها فى الحروب . وذكر ابن خلكان أنها قتلت فى هذه الغزوة ، وكذلك قتلت زوجته غزالة ، وكانت أيضا شديدة البأس تقاتل قتالا شديداً يعجز عنه الأبطال من الرجال ، وكان الحجاج يخاف منها أشد خوف حتى قال فيه بعض الشعراء:

أسدٌ عليَّ وفى الحروبِ نعامةٌ * فتخاء تنفرُ من صفيرِ الصافرِ

هلا برزتَ إلى غزالةَ فى الوغا * بلْ كان قلبُكَ فى جناحيْ طائرِ

قال : وقد كان شبيب بن يزيد بن نعيم بن قيس بن عمرو بن الصلت بن قيس بن شراحيل ابن صبرة بن ذهل بن شيبان الشيبانى ، يدعى الخلافة و يتسمى بأمير المؤمنين ، ولولا أن الله تعالى قهره بما قهره به من الغرق لنال الخلافة إن شاء الله ، ولما قدر عليه أحد ، و إنما قهره الله على يدى الحجاج لما أرسل إليه عبد الملك بعسكر الشام لقتاله ، ولما ألقاه جواده على الجسر فى نهر جيل قال له رجل : أغرقا يا أمير المؤمنين ؟ قال [ذلك تقدير العزيز العليم] قال ثم أخرج وحمل إلى الحجاج فأمر فنزع قلبه من صدره فاذا هو مثل الحجر ، وكان شبيب رجلا طويلا أشمط جعداً ، وكان مولده فى يوم عيد النحر سنة ست وعشرين ، وقد أمسك رجل من أصحابه فحمل إلى عبد الملك بن مروان فقال له أنت القائل :

فانْ يكُ منكمْ كانَ مروان وابنه * وعمروٌ ومنكمْ هاشمٌ وحبيبُ

فمنا حُصينٌ والبطينُ وقعنبٌ * ومنّا أميرُ المؤمنينَ شبيبُ

فقال : إنما قلت ومنا يا أمير المؤمنين شبيب . فأعجبه اعتذاره وأطلقه والله سبحانه أعلم .

وفى هذه السنة كانت حروب كثيرة جداً بين المهلب بن أبى صفرة نائب الحجاج ، وبين الخوارج من الأزارقة وأميرهم قطرى بن الفجاءة ، وكان قطرى أيضا من الفرسان الشجعان المذكورين المشهورين

وقد تفرق عنه أصحابه ونفروا فى هذه السنة ، وأما هو فلا يدرى أحد أين ذهب فانه شرد فى الأرض وقد جرت بينهم مناوشات ومحاولات يطول بسطها ، وقد بالغ ابن جرير فى ذكرها فى تاريخه . قال ابن جرير : وفى هذه السنة ثار بكير بن وشاح الذى كان نائب خراسان على نائبها أمية بن عبد الله ابن خالد وذلك أن بكيراً استجاش عليه الناس وغدر به وقتله ، وقد جرت بينهما حروب طويلة قد استقصاها ابن جرير فى تاريخه . وفى هذه السنة كانت وفاة شبيب بن يزيد كما قدمنا ، وقد كان من الشجاعة والفروسة على جانب كبير لم ير بعد الصحابة مثله ، ومثل الأشتر وابنه إبراهيم ومصعب بن الزبير وأخيه عبد الله ومن يناط بهؤلاء فى الشجاعة مثل قطرى بن الفجاءة من الأزارقة والله أعلم .

وفيها توفى من الأعيان **كثير بن الصلت** بن معدى كرب الكندى ، كان كبيراً مطاعاً فى قومه ، وله بالمدينة دار كبيرة بالمصلى ، وقيل إنه كان كاتب عبد الملك على الرسائل ، توفى بالشام .

محمد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله كانت أخته تحت عبد الملك وولاه سجستان ، فلما سار إليها قيل له إن شبيباً فى طريقك وقد أعيا الناس فاعدل إليه لعلك أن تقتله فيكون ذكر ذلك وشهرته لك إلى الأبد ، فلما سار لقيه شبيب فاقتتل معه فقتله شبيب . وقيل غير ذلك والله أعلم .

عياض بن غنم الأشعري

شهد اليرموك ، وحدث عن جماعة من الصحابة وغيرهم توفى بالبصرة رحمه الله .

مطرف بن عبدالله

وقد كانوا إخوة ، عروة ومطرف وحمزة ، وقد كانوا يميلون إلى بنى أمية فاستعملهم الحجاج على أقاليم ، فاستعمل عروة على الكوفة ، ومطرف على المدائن ، وحمزة على همدان .

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين

ففيها كانت غزوة عظيمة للمسلمين ببلاد الروم افتتحوا إرقيلية ، فلما رجعوا أصابهم مطر عظيم وثلج وبرد ، فأصيب بسببه ناس كثير . وفيها ولى عبد الملك موسى بن نصير غزو بلاد المغرب جميعه فسار إلى طنجة وقد جعل على مقدمته طارقا فقتلوا ملوك تلك البلاد ، وبعضهم قطعوا أنفه ونفوه ، وفيها عزل عبد الملك أمية بن عبد الله عن إمرة خراسان وأضافها إلى الحجاج مع سجستان أيضاً ، وركب الحجاج بعد فراغه من شأن شبيب من إمرة الكوفة إلى البصرة ، واستخلف على الكوفة المغيرة بن عبد الله بن عامر الحضرمى ، فقدم المهلب على الحجاج وهو بالبصرة وقد فرغ من شأن الأزارقة أيضاً ، فأجلسه معه على السرير واستدعى بأصحاب البلاء من جيشه ، فمن أثنى عليه المهلب أجزل الحجاج له العطية ، ثم ولى الحجاج المهلب إمرة سجستان ، وولى عبد الله بن أبى بكرة إمرة خراسان ، ثم ناقل بينهما قبل خروجهما من عنده ، فقيل كان ذلك باشارة المهلب ، وقيل إنه استعان بصاحب

الشرطة وهو عبد الرحمن بن عبيد بن طارق العبشمي ، حتى أشار على الحجاج بذلك فأجابه إلى ذلك : وألزم المهلب بألف ألف درهم ، لأنه اعترض على ذلك .

قال أبو معشر : وحج بالناس فيها الوليد بن عبد الملك وكان أمير المدينة أبان بن عثمان ، وأمير العراق وخراسان وسجستان وتلك النواحي كلها الحجاج ، ونائبه على خراسان المهلب بن أبي صفرة ، ونائبه على سجستان عبد الله بن أبي بكرة الثقفي ، وعلى قضاء الكوفة شريح ، وعلى قضاء البصرة موسى بن أنس بن مالك الأنصاري . وقد توفي في هذه السنة من الأعيان **جابر بن عبدالله** بن عمرو بن حرام ، أبو عبد الله الأنصاري السلمي ، صاحب رسول الله ص ، وله روايات كثيرة ، وشهد العقبة وأراد أن يشهد بدراً فمنعه أبوه وخلفه على إخوانه وأخواته ، وكانوا تسعة ، وقيل إنه ذهب بصره قبل موته . توفي جابر بالمدينة وعمره أربع وتسعون سنة ، وأسند إليه ألف وخمسمائة وأربعين حديثا .

شريح بن الحارث

ابن قيس أبو أمية الكندي ، وهو قاضي الكوفة ، وقد تولى القضاء لعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ، ثم عزله علي ، ثم ولاه معاوية ثم استقل في القضاء إلى أن مات في هذه السنة ، وكان رزقه على القضاء في كل شهر مائة درهم ، وقيل خمسمائة درهم ، وكان إذا خرج إلى القضاء يقول : سيعلم الظالم حظ من نقص ، وقيل إنه كان إذا جلس للقضاء قرأ هذه الآية (ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولاتتبع الهوى) الآية ، وكان يقول : إن الظالم ينتظر العقاب والمظلوم ينتظر النصر ، وقيل إنه مكث قاضيا نحو سبعين سنة . وقيل إنه استعفى من القضاء قبل موته بسنة فالله أعلم . وأصله من أولاد الفرس الذين كانوا باليمن ، وقدم المدينة بعد موت النبي ص ، توفي بالكوفة وعمره مائة وثمان سنين .

وقد روى الطبراني قال : حدثنا علي بن عبد العزيز ثنا عارم أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد عن شعيب ابن الحبحاب عن إبراهيم التيمي . قال : كان شريح يقول : سيعلم الظالمون حق من نقصوا . إن الظالم ينتظر العقاب ، وإن المظلوم ينتظر النصر . ورواه الامام أحمد عن إسماعيل بن علية عن ابن عون عن إبراهيم به . وقال الأعمش : اشتكى شريح رجله فطلاها بالعسل وجلس في الشمس فدخل عليه عواده فقالوا : كيف تجدك ؟ فقال : صالحا . فقالوا : ألا أريتها الطبيب ؟ قال : قد فعلت ، قالوا : فماذا قال لك ؟ قال : وعد خيراً . وفي رواية أنه خرج بإبهامه قرحة فقالوا : ألا أريتها الطبيب ؟ قال : هو الذي أخرجها . وقال الأوزاعي : حدثني عبدة بن أبي لبابة قال : كانت فتنة ابن الزبير تسع سنين وكان شريح لا يختبر ولايستخبر . ورواه ابن ثوبان عن عبدة عن الشعبي عن شريح قال :

لما كانت الفتنة لم أسأل عنها . فقال رجل لو كنت مثلك ما باليت متى مت ، فقال شريح : فكيف بما فى قلبى . وقد رواه شقيق بن سلمة عن شريح قال : فى الفتنة ما استخبرت ولا أخبرت ولا ظلمت مسلما ولا معاهداً ديناراً ولا درهما ، فقال أبو وائل : لو كنت على حالك لأحببت أن أكون قدمت ، فأوى إلى قلبه فقال : كيف بهذا ، وفى رواية : كيف بما فى صدرى تلتقى الفتيتان و إحداهما أحب إلى من الأخرى . وقال لقوم رآهم يلعبون : مالى أراكم تلعبون ؟ قالوا : فرغنا ! قال : ما بهذا أمر الفارغ . وقال سوار بن عبد الله العنبرى : حدثنا العلاء بن جرير العنبرى حدثنى سالم أبو عبد الله أنه قال : شهدت شريحا وتقدم إليه رجل فقال : أين أنت ؟ فقال : بينك و بين الحائط ، فقال : إنى رجل من أهل الشام ، فقال : بعيد سحيق ، فقال : إنى تزوجت امرأة ، فقال : بالرفاء والبنين ، قال : إنى اشترطت لها دارها ، قال : الشرط أملك ، قال : اقض بيننا ، قال : قد فعلت . وقال سفيان : قيل لشريح بأى شئ أصبت هذا العلم ؟ قال : بمعاوضة العلماء ، آخذ منهم وأعطيهم . و روى عثمان بن أبى شيبة عن عبد الله بن محمد بن سالم عن إبراهيم بن يوسف عن أبيه عن أبى إسحاق عن هبيرة أنه سمع عليا يقول : يا أيها الناس ! يأتونى فقهاؤكم يسألونى وأسألهم ، فلما كان من الغد غدونا إليه حتى امتلأت الرحبة ، فجعل يسألهم : ما كذا ما كذا ، و يسألونه ما كذا ما كذا فيخبرهم و يخبرونه حتى إذا ارتفع النهار تصدعوا غير شريح فانه جاث على ركبتيه لا يسأله عن شئ إلا أخبره به ، قال : سمعت عليا يقول : قم ياشريح فأنت أقضى العرب . وأتت شريحا امرأتان جدة صبى وأمه يختصمان فيه كل واحدة تقول : أنا أحق به

أبا أميه أتيناكَ وأنتَ المستعانُ بهِ ... أتاكَ جدةُ ابنٍ وأمّ وكلتانا تفديه [1]

فلو كنتِ تأيمتِ لما نازعتكِ فيهِ ... تزوجتِ فهاتيه ولا يذهبْ بكِ التيهِ

* ألا أيها القاضى فهذهِ قصتى فيهِ *

قالت الأم : —

ألا أيها القاضى قد قالت لك الجدة * قولا فاستمع منى ولا تطردنى رده

تعزى النفسَ عن ابنى * وكبدي حملتْ كبْده

فلما صارَ فى حجرى * يتيماً مفرداً وحده

تزوجتُ رجاءَ الخيرِ * منْ يكفيني فقده

ومن يُظهرُ لي الودَ * ومنْ يحسنُ لي رِفده

فقال شريح : —

---

(١) هذه الابيات طبق الاصل ولم نجد لها نظيراً .

قدْ سمِعَ القاضي ما قلنا ثمَّ قضى * وعلى القاضي جهدٌ إنْ غفلْ
قالَ للجدةِ ربيني بالصبي * وخذي ابنكِ منْ ذاتِ العللْ
إنها لو صبرتْ كانَ لها * قبلَ دعوى ما تبتغيه للبدلْ

فقضى به للجدة . وقال عبد الرزاق : حدثنا معمر بن عون عن إبراهيم عن شريح أنه قضى على رجل باعترافه فقال : يا أبا أمية قضيت عليّ بغير بينة ، فقال شريح : أخبرني ابن أخت خالتك . وقال على بن الجعد : أنبأنا المسعودى عن أبى حصين قال : سئل شريح عن شاة تأكل الذباب فقال : علف مجان ولبن طيب . وقال الامام أحمد : حدثنا يحيى بن سعيد عن أبى حيان التيمى حدثنا أبى قال : كان شريح إذا مات لأهله سنور أمر بها فألقيت فى جوف داره ، ولم يكن له مشعب « شارع » إلا فى جوف داره يفعل ذلك اتقاء أن تؤذى المسلمين ـ يعنى أنه يلقى السنور فى جوف داره لئلا تؤذى بنتن ريحها المسلمين ـ ، وكانت مياذيب أسطحة داره فى جوف الدار لئلا يؤذى بها المارة من المسلمين. وقال الرياشى : قال رجل لشريح : إن شأنك لشوين . فقال له شريح : أراك تعرف نعمة الله على غيرك وتجهلها فى نفسك . وقال الطبرانى : حدثنا أحمد بن يحيى تغلب النحوى حدثنا عبد الله بن شبيب قال حدثنى عبد الرحمن بن عبد الله بن زياد بن سمعان . قال : كتب شريح إلى أخ له هرب من الطاعون : أما بعد فانك والمكان الذى أنت فيه والمكان الذى خرجت منه بعين من لا يعجزه من طلب ، ولا يفوته من هرب ، والمكان الذى خلفته لم يعد امرأً لكمامه ومن تظلمه أيامه . و إنك و إياهم لعلى بساط واحد ، و إن المنتجع من ذى قدرة لقريب .

وقال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا على بن مسهر عن الشيبانى عن الشعبى عن شريح أن عمر كتب إليه : إذا جاءك الشيء من كتاب الله فاقض به ولا يلفتنك عنه رجاء ماليس فى كتاب الله ، وانظر فى سنة رسول الله (ص) فاقض بها ، فان جاءك ماليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به ، وفى رواية : فانظر فيما قضى به الصالحون ، فان لم يكن فان شئت فتقدم و إن شئت فتأخر ، وما أرى التأخر إلا خيراً ، والسلام .

وقال شريح : كنت مع على فى سوق الكوفة فانتهى إلى قاص يقص فوقف عليه وقال : أيها القاص ! تقص ونحن قريبو العهد ؟ أما إنى سائلك فان تجب فما سألتك و إلا أدبتك ، فقال القاص سل يا أمير المؤمنين عما شئت ، فقال على : ماثبات الايمان و زواله ؟ قال القاص : ثبات الايمان الورع و زواله الطمع . قال على : فذلك فقص . قيل إن هذا القاص هو نوف البكالى . وقال رجل لشريح : إنك لتذكر النعمة فى غيرك وتنساها فى نفسك ، قال : إنى والله لأحسدك على ما أرى بك . قال : ما نفعك الله بهذا ولا ضرنى .

وروى جرير عن الشيبانى عن الشعبى قال : اشترى عمر فرسا من رجل على أن ينظر إليه ، فأخذ الفرس فسار به فعطب ، فقال لصاحب الفرس : خذ فرسك ، فقال : لا ! قال : فاجعل بينى و بينك حكما ، قال الرجل نعم ! شريح ، قال عمر : ومن شريح ؟ قال : شريح العراق ، قال : فانطلقا إليه فقصا عليه القصة ، فقال : يا أمير المؤمنين رد كما أخذت أو خذ بما ابتعته ، فقال عمر : وهل القضاء إلا هذا ؟ سر إلى الكوفة فقد وليتك قضاءها ، فانه لأول يوم عرفه يومئذ .

وقال هشام بن محمد الكلبى : حدثنى رجل من ولد سعد بن وقاص قال : كان لشريح ابن يدعو الكلاب و يهارش بين الكلاب ، فدعا بدواة وقرطاس فكتب إلى مؤدبه فقال : ـ

تركَ الصلاةَ لأكلبٍ يسعى بها ... طلبَ الهراشَ مع الغواةِ الرجّسِ

فاذا أتاكَ فعفهُ بملامة ... وعظهُ من عظةِ الأديبِ الأكيسِ

فاذا هممتَ بضربهِ فبدرةٍ ... فاذا ضربتَ بها ثلاثاً فاحبسِ

واعلمْ بأنكَ ما أتيتَ فنفسهُ ... معَ ما تجرعنى أعزُ الأنفسِ

وروى شريح عن عمر عن عائشة أن النبى (ص) قال لها : « يا عائشة [إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً] إنهم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء وأصحاب الضلالة من هذه الأمة ، إن لكل صاحب ذنب توبة إلا أصحاب الأهواء والبدع ، أنا منهم برىء وهم منى براء » . وهذا حديث ضعيف غريب رواه محمد بن مصفى عن بقية عن شعبة ـ أو غيره ـ عن مجالد عن الشعبى ، و إنما تفرد به بقية بن الوليد من هذا الوجه وفيه علة ايضا . وروى محمد بن كعب القرظى عن الحسن عن شريح عن عمر بن الخطاب . قال قال رسول الله (ص) : « إنكم ستغربلون حتى تصيروا فى حثالة من الناس قدمزجت عهودهم وخربت أماناتهم ، فقال قائل : فكيف بنا يا رسول الله ؟ فقال : تعملون بما تعرفون وتتركون ما تنكرون ، وتقولون : أحد أحد ، انصرنا على من ظلمنا واكفنا من بغانا » .

وروى الحسن بن سفيان عن يحيى بن أيوب عن عبد الجبار بن وهب عن عبد الله السلمى عن شريح ، قال : حدثنى البدريون منهم عمر بن الخطاب أن رسول الله (ص) قال : « ما من شاب يدع لذة الدنيا ولهوها و يستقبل بشبابه طاعة الله تعالى إلا أعطاه الله تعالى أجر اثنين وسبعين صديقا ، ثم قال : يقول الله تعالى : أيها الشاب التارك شهوته من أجلى ، المبتذل شبابه لى ، أنت عندى كبعض ملائكتى » . وهذاحديث غريب .

وقال أبو داود : حدثنا صدقة بن موسى حدثنا أبو عمران الجونى عن قيس بن زيد ـ وقال أبو داود أو عن زيد بن قيس ـ عن قاضى المصرين شريح عن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق أن النبى (ص) قال : « إن الله تعالى يدعو صاحب الدين يوم القيامة فيقول : يا ابن آدم فيم أضعت حقوق

الناس ؟ فيم أذهبت أموالهم ؟ فيقول : يارب لم أفسده ولكن أصبت إما غرقا و إما حرقا ، فيقول الله سبحانه أنا أحق من قضى عنك اليوم ، فترجح حسناته على سيئاته فيؤمر به إلى الجنة » . لفظ أبي داود ورواه يزيد بن هارون عن صدقة به وقال فيه : « فيدع الله بشيء فيضعه فى ميزانه فيثقل» ورواه الطبرانى من طريق أبى نعيم عن صدقة به ، ورواه الطبرانى أيضًا عن حفص بن عمر وأحمد ابن داود المكى قالا : حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا صدقة به ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

عبدالله بن غنم

الأشعرى نزيل فلسطين وقد روى عن جماعة من الصحابة وقيل إن له صحبة وقد بعثه عمر بن الخطاب الى الشام ليفقه أهلها فى الدين وكان من العباد الصالحين .

جنادة بن أمية الأزدي

شهد فتح مصر وكان أميراً على غزو البحر لمعاوية ، وكان موصوفا بالشجاعة والخير ، توفى بالشام وقد قارب الثمانين .

العلاء بن زياد البصري

كان من العباد الصالحين من أهل البصرة ، وكان كثير الخوف والورع ، وكان يعتزل فى بيته ولا يخالط الناس ، وكان كثير البكاء ، لم يزل يبكى حتى عمى ، وله مناقب كثيرة ، توفى بالبصرة فى هذه السنة . قلت : إنما كان معظم بكاء العلاء بن زياد بعد تلك الرؤيا التى رآها له رجل من أهل الشام أنه من أهل الجنة ، فقال له العلاء : أما أنت يا أخى فجزاك الله عن رؤياك لى خيراً ، وأما أنا فقد تركتنى رؤياك لا أهدأ بليل ولا نهار ، وكان بعدها يطوى الأيام لا يأكل فيها شيئا و بكى حتى كاد يفارق الدنيا ، و يصلى لا يفتر ، حتى جاء أخوه إلى الحسن البصرى فقال : أدرك أخى فانه قاتل نفسه ، يصوم لا يفطر ، ويقوم لا ينام ، ويبكى الليل والنهار لرؤيا رآها بعض الناس له أنه من أهل الجنة ، فجاء الحسن فطرق عليه بابه فلم يفتح ، فقال له : افتح فانى أنا الحسن ، فلما سمع صوت الحسن فتح له ، فقال له الحسن : يا أخى الجنة وما الجنة للمؤمن ، إن للمؤمن عند الله ما هو أفضل من الجنة ، فقاتل أنت نفسك ؟ فلم يزل به حتى أكل وشرب وقصر عما كان فيه قليلا . و روى ابن أبى الدنيا عنه أنه أتاه آت فى مقامه فأخذ بناصيته وقال : ياغلام قم فاذكر الله يذكرك . فما زالت تلك الشعرات التى أخذ بها قائمة حتى مات ، وقد قيل : إنه كان يرفع له إلى الله كل يوم من العمل الصالح بقدر أعمال خلق كثير من الناس كما رأى ذلك بعض أصحابه فى المنام . وقال العلاء : نحن قوم وضعنا أنفسنا فى النار فان شاء الله أن يخرجنا منها أخرجنا . وقال : كان رجل يرائى بعمله فجعل يشمر ثيابه و يرفع صوته إذا قرأ ، فجعل لا يأتى على أحد إلا سبه ، ثم رزقه الله الاخلاص واليقين

نخفض من صوته وجعل صلاحه بينه و بين الله ، فجعل لا يأتى على أحد بعد ذلك إلا دعاله بخير

سراقة بن مرداس الاذدي كانْ شاعراً مطبقاً ، هجا الحجاج فنفاه إلى الشام فتوفى بها

النابغة الجعدي الشاعر . السائب بن يزيد الكندى ، توفى فى هذه السنة . سفيان بن سلمة الأسدى . معاوية بن قرة البصرى . زر بن حبيش .

ثم دخلت سنة تسع وسبعين

ففيها وقع طاعون عظيم بالشام حتى كادوا يفنون من شدته ، ولم يغز فيها أحد من أهل الشام لضعفهم وقلتهم ، و وصلت الروم فيها انطاكية فأصابوا خلقاً من أهلها لعلمهم بضعف الجنود والمقاتلة. وفيها غزا عبيد الله بن أبى بكرة رتبيل ملك الترك حتى أوغل فى بلاده ، ثم صالحه على مال يحمله إليه فى كل سنة ، وفيها قتل عبد الملك بن مروان الحارث بن سعيد المتنبى الكذاب ، و يقال له الحارث بن عبد الرحمن بن سعيد الدمشق ، مولى أبى الجلاس العبدرى ، و يقال مولى الحكم بن مروان ، كان أصله من الجولة فنزل دمشق وتعبد بها وتنسك وتزهد ثم مكر به و رجع القهقرى على عقبيه ، وانسلخ من آيات الله تعالى ، وفارق حزب الله المفلحين ، واتبع الشيطان فكان من الغاوين ولم يزل الشيطان يزج فى قفاه حتى أخسره دينه ودنياه ، وأخزاه وأشقاه . فإنا لله وحسبنا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله

قال أبو بكر بن أبى خيثمة : ثنا عبد الوهاب نجدة الجولى حدثنا محمد بن مبارك ثنا الوليد بن مسلم عن عبد الرحمن بن حسان قال . كان الحارث الكذاب من أهل دمشق ، وكان مولى لأبى الجلاس ، وكان له أب بالجولة ، فعرض له إبليس ، وكان رجلا متعبدا زاهداً لو لبس جبة من ذهب لرؤيت عليه الزهادة والعبادة ، وكان إذا أخذ بالتحميد لم يسمع السامعون مثل تحميده ولا أحسن من كلامه ، فكتب إلى أبيه وكان بالجولة : يا أبتاه أعجل على فانى قد رأيت أشياء أتخوف أن يكون الشيطان قد عرض لى ، قال فزاده أبوه غيا على غيه ، فكتب إليه أبوه : يابنى أقبل على ما أمرت به فان الله تعالى يقول [هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم] ولست بأفاك ولا أثيم ، فامض لما أمرت به ، وكان يجيء إلى أهل المسجد رجلا رجلا فيذا كرهم أمره و يأخذ عليهم العهد والميثاق إن هو يرى ما يرضى و إلا كتم عليه .

قال : وكان يريهم الأعاجيب . كان يأتى إلى رخامة فى المسجد فينقرها بيده فتسبح تسبيحاً بليغاً حتى يضج من ذلك الحاضرون . قلت : وقد سمعت شيخنا العلامة أبا العباس بن تيمية رحمه الله يقول كان ينقر هذه الرخامة الحمراء التى فى المقصورة فتسبح ، وكان زنديقا . قال ابن أبى خيثمة فى روايته

وكان الحارث يطعمهم فاكهة الشتاء فى الصيف ، وفاكهة الصيف فى الشتاء ، وكان يقول لهم : اخرجوا حتى أريكم الملائكة ، فيخرج بهم إلى دير المراق فيريهم رجالا على خيل فيتبعه على ذلك بشر كثير ، وفشا أمره فى المسجد وكثر أصحابه وأتباعه ، حتى وصل الأمر إلى القاسم بن مخيمرة ، قال فعرض على القاسم أمره وأخذ عليه العهد إن هو رضى أمراً قبله ، و إن كرهه كتم عليه ، قال فقال له : إنى نبى ، فقال القاسم : كذبت ياعدو الله ، ما أنت نبى ، وفى رواية ولكنك أحد الكذابين الدجالين الذين أخبر عنهم رسول الله (ص) : « إن الساعة لاتقوم حتى يخرج ثلاثون دجالون كذابون كلهم يزعم أنه نبى » وأنت أحدهم ولا عهد لك . ثم قام فخرج إلى أبى إدريس ـ وكان على القضاء بدمشق ـ فأعلمه بما سمع من الحارث فقال أبو إدريس نعرفه ، ثم أعلم أبو إدريس عبد الملك بذلك ، وفى رواية أخرى أن مكحولا وعبد الله بن أبى زائدة دخلا على الحارث فدعاهما إلى نبوته فكذباه و ردا عليه ما قال ، ودخلا على عبد الملك فأعلماه بأمره ، فتطلبه عبد الملك طلباً حثيثاً ، واختفى الحارث وصار إلى دار بيت المقدس يدعو إلى نفسه سراً واهتم عبد الملك بشأنه حتى ركب إلى النصرية فنزلها فورد عليه هناك رجل من أهل النصرية ممن كان يدخل على الحارث وهو ببيت المقدس فأعلمه بأمره وأين هو ، وسأل من عبد الملك أن يبعث معه بطائفة من الجند الأتراك ليحتاط عليه ، فأرسل معه طائفة وكتب إلى نائب القدس ليكون فى طاعة هذا الرجل و يفعل ما يأمره به ، فلما وصل الرجل إلى النصرية ببيت المقدس بمن معه انتدب نائب القدس لخدمته ، فأمره أن يجمع ما يقدر عليه من الشموع و يجعل مع كل رجل شمعته فاذا أمرهم باشعالها فى الليل أشعلوها كلهم فى سائر الطرق والأزقة حتى لايخفى أمره ، وذهب الرجل بنفسه فدخل الدار التى فيها الحارث فقال لبوابه استأذن على نبى الله ، فقال : فى هذه الساعة لا يؤذن عليه حتى يصبح ، فصاح النصرى أسرجوا ، فأشعل الناس شموعهم حتى صار الليل كأنه النهار ، وهم النصرى على الحارث فاختفى منه فى سرب هناك فقال أصحابه هيهات يريدون أن يصلوا إلى نبى الله ، إنه قد رفع إلى السماء ، قال فأدخل النصرى يده فى ذلك السرب فاذا بثوبه فاجتره فأخرجه ، ثم قال للفرغانين من أتراك الخليفة قال فأخذوه فقيدوه ، فيقال إن القيود والجامعة سقطت من عنقه مراراً و يعيدونها ، وجعل يقول : [قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى ، و إن اهتديت فبما يوحى إلى ربى إنه سميع قريب] وقال لأولئك الأتراك [أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله] ؟ فقالوا له بلسانهم ولغتهم : هـذا كراننا فهات كرانك ، أى هذا قرآننا فهات قرآنك ، فلما انتهوا به إلى عبد الملك أمر بصلبه على خشبة وأمر رجلاً فطعنه بحربة فانثنت فى ضلع من أضلاعه ، فقال له عبد الملك : و يحك أذكرت اسم الله حين طعنته ؟ فقال : نسيت ، فقال : و يحك سم الله ثم اطعنه ، قال فذكر اسم الله ثم طعنه فأنفذه ، وقد كان عبد الملك حبسه قبل صلبه وأمر رجالا

من أهل الفقه والعلم أن يعظوه ويعلموه أن هذا الذى به من الشيطان ، فأبى أن يقبل منهم فصلبه بعد ذلك ، وهذا من تمام العدل والدين .

وقد قال الوليد بن مسلم عن ابن جابر فحدثنى من سمع الأعور يقول : سمعت العلاء بن زياد العدوى . يقول : ماغبطت عبد الملك بشئ من ولايته إلا بقتله حارثاً حيث إن رسول الله ص م قال : «لاتقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالون كذابون كلهم يزعم أنه نبى ، فمن قاله فاقتلوه ، ومن قتل منهم أحداً فله الجنة » . وقال الوليد بن مسلم : بلغنى أن خالد بن يزيد بن معاوية قال لعبد الملك لو حضرتك ما أمرتك بقتله ، قال : ولم ؟ قال : إنه إنما كان به المذهب فلوجوعته لذهب ذلك عنه ، وقال الوليد عن المنذر بن نافع سمعت خالد بن الجلاخ يقول لغيلان : ويحك يا غيلان ، ألم تأخذك فى شبيبتك ترا من النساء فى شهر رمضان بالتفاح ، ثم صرت حارثيا تحجب امرأته وتزعم أنها أم المؤمنين ثم تحولت فصرت قدرياً زنديقاً .

وفيها غزا عبيد الله بن أبى بكرة رتبيل ملك الترك الأعظم فيهم ، وقد كان يصانع المسلمين تارة ويتمرد أخرى ، فكتب الحجاج إلى ابن أبى بكرة تأخذه بمن معك من المسلمين حتى تستبيح أرضه وتهدم قلاعه وتقتل مقاتلته ، فخرج فى جمع من الجنود من بلاده وخلق من أهل البصرة والكوفة ثم التقى مع رتبيل ملك الترك فكسره وهدم أركانه بسطوة بتارة ، وجاس ابن أبى بكرة وجنده خلال ديارهم ، واستحوذ على كثير من أقاليمه ومدنه وأمصاره ، وتبر ماهنالك تتبيراً ، ثم إن رتبيل تقهقر منه وما زال يتبعه حتى اقترب من مدينته العظمى ، حتى كانوا منها على ثمانية عشر فرسخا ، وخافت الأتراك منهم خوفاً شديداً ، ثم إن الترك أخذت عليهم الطرق والشعاب وضيقوا عليهم المسالك حتى ظن كل من المسلمين أنه لامحالة هالك ، فعند ذلك طلب عبيد الله أن يصالح رتبيل على أن يأخذ منه سبعمائة ألف ، و يفتحوا للمسلمين طريقا يخرجون عنه ويرجعون عنهم إلى بلادهم ، فانتدب شريح بن هانئ ـ وكان صحابيا ، وكان من أكبر أصحاب على وهو المقدم على أهل الكوفة ـ فندب الناس إلى القتال والمصابرة والنزال والجلاد بالسيوف والرماح والنبال ، فنهاه عبيد الله بن أبى بكرة فلم ينته ، وأجابه شرذمة من الناس من الشجعان وأهل الحفائظ ، فما زال يقاتل بهم الترك حتى فنى أكثر المسلمين رضى الله عنهم ، قالوا وجعل شريح بن هانئ يرتجز ، ويقول :

أصبحتُ ذابتّ أقاسي الكِبرا * قدْعِشتُ بينَ المشركينَ أعصُرا

ثمَّ أدركتُ النبيَّ المنذِرا * وبعدَهُ صِدِّيقَهُ وعمرا

ويومَ مهرانَ ويومَ تُسْتُرا * والجمْعَ فى صِفِّينِهِمْ والنَّهرا

هَيْهاتِ ما أطولُ هذا عُمُرا

ثم قاتل حتى قتل رضى الله عنه ، وقتل معه خلق من أصحـابه ، ثم خرج من خرج من الناس صحبة عبيد الله بن أبي بكرة من أرض رتبيل ، وهم قليل ، و بلغ ذلك الحجاج فأخذ ماتقدم وماتأخر ، وكتب إلى عبد الملك يعلمه بذلك و يستشيره فى بعث جيش كثيف إلى بلاد رتبيل لينتقموا منه بسبب ما حل بالمسلمين فى بلاده ، فحين وصل البريد إلى عبد الملك كتب إلى الحجاج بالموافقة عـلى ذلك ، وأن يعجل ذلك سريعاً ، فحين وصل البريد إلى الحجاج بذلك أخذ فى جمع الجيوش فجهز جيشا كثيفا لذلك على ماسيأتى تفصيله فى السنة الآتية بعدها . وقيل إنه قتل من المسلمين مع شريح بن هانئ ثلاثون ألفا وابتيع الرغيف مع المسلمين بدينار وقاسوا شدائد ، ومات بسبب الجوع منهم خلق كثير أيضاً ، فانا لله و إنا إليه راجعون . وقد قتل المسلمون من الترك خلقا كثيراً أيضاً قتلوا أضعافهم

و يقال إنه فى هـذه السنة استعفى شريح من القضاء فأعفاه الحجاج من ذلك وولى مكانه أبا بردة ابن أبى موسى الأشعرى ، وقد تقدمت ترجمة شريح عند وفاته فى السنة الماضية والله أعلم .

قال الواقدى وأبو معشر وغير واحد من أهل السير : وحج بالناس فى هذه السنة أبان بن عثمان أمير المدينة النبوية ، وفيها قتـل قطرى بن الفجاءة التميمى أبو نعامة الخارجى ، وكان من الشجعان المشاهير ، و يقال إنه مكث عشرين سنة يسلم عليه أصحابه بالخـلافة ، وقد جرت له خطوب وحروب مع جيش المهلب بن أبى صفرة من جهة الحجاج وغيره ، وقد قدمنا منها طرفاً صالحاً فى أماكنه ، وكان خروجه فى زمن مصعب بن الزبير ، وتغلب على قلاع كثيرة وأقاليم وغيرها ، ووقائعه مشهورة وقد أرسل إليه الحجاج جيوشاً كبيرة فهزمها ، وقيل إنه برز إليه رجل من بعض الحرورية وهو على فرس أعجف و بيده عمود حديد ، فلما قرب منه كشف قطرى عن وجهه فولى الرجل هارباً فقال له قطرى إلى أين ؟ أما تستحى أن تفر ولم تر طعناً ولا ضرباً ؟ فقال إن الانسان لايستحى أن يفر من مثلك ، ثم إنه فى آخر أمره توجه إليه سفيان بن الأبرد الـكلبي فى جيش فاقتتلوا بطبرستان ، فعثر بقطرى فرسه فوقع إلى الأرض فتكاثروا عليه فقتلوه وحملوا رأسه إلى الحجاج ، وقيل إن الذى قتله سودة بن الحر الدارمى ، وكان قطرى بن الفجاءة مع شجاعتـه المفرطة وإقـدامه من خطباء العرب المشهورين بالفصاحة والبلاغة وجودة الـكلام والشعر الحسن ، فمن مستجاد شعره قوله يشجع نفسه وغيره ومن سمعها انتفع بها :

أقولُ لها وقدْ طارت شعاعا * من الأبطالِ ويحكِ لنْ تراعى
فانكِ لو طلبتِ بقـاءَ يوم * على الأجلِ الذي لكِ لم تطاعى
فصبْراً فى مجالِ الموتِ صبراً * فـا نَيْلُ الخلودِ بمستطاعى
ولا ثوبُ الحياةِ بثوبِ عزٍ * فيطوى عن أخي الخنَعِ اليراعى

سبيلُ الموتِ غايةُ كلِ حيٍ * وداعيهِ لأهلِ الأرضِ داعِ
فمنْ لا يغتبطْ يسأم ويهرمْ * وتسلمهُ المنونُ إلى انقطاعِ
وما للمرءِ خيرٌ فى حياةٍ * إذا ما عُدَّ من سَقَطِ المتاعِ
ذكرها صاحب الحماسة واستحسنها ابن خلكان كثيراً

وفيها توفى عبيد الله بن أبى بكرة رحمه الله وهو أمير الجيش الذى دخل بلاد الترك وقاتلوا رتبيل ملك الترك ، وقد قتل من جيشه خلق كثير مع شريح بن هانئ كما تقدم ذلك ، وقد دخل عبيد الله بن أبى بكرة على الحجاج مرة و فى يده خاتم فقال له الحجاج : وكم ختمت بخاتمك هذا ؟ قال على أربعين ألف ألف دينار . قال ففيم أنفقتها ؟ قال : فى اصطناع المعروف . ورد الملهوف والمكافأة بالصنائع وتزويج العقائل . وقيل إن عبيد الله عطش يوماً فأخرجت له امرأة كوز ماء بارد فأعطاها ثلاثين ألفا ، وقيل إنه أهدى إليه وصيف و وصيفة وهو جالس بين أصحابه فقال لبعض أصحابه خذهما لك ، ثم فكر وقال : والله إن إيثار بعض الجلساء على بعض لشح قبيح ودناءة رديئة . ثم قال ياغلام ادفع إلى كل واحد من جلسائى وصيفا و وصيفة ، فأحصى ذلك فكانوا ثمانين وصيفاً و وصيفة. توفى عبيد الله بن أبى بكرة ببست وقيل بذرخ والله سبحانه وتعالى أعلم وأحلم ، والحمد لله رب العالمين

ثم دخلت سنة ثمانين من الهجرة النبوية

ففيها كان السيل الجحاف بمكة لأنه حجف على كل شئ فذهب به ، وحمل الحجاج من بطن مكة الجمال بما عليها ، والرجال والنساء لايستطيع أحد أن ينقذهم منه ، و بلغ الماء إلى الحجون ، وغرق خلق كثير ، وقيل إنه ارتفع حتى كاد أن يغطى البيت والله أعلم .

وحكى ابن جرير عن الواقدى أنه قال : كان بالبصرة فى هذه السنة الطاعون ، والمشهور أنه كان فى سنة تسع وستين كما تقدم . وفيها قطع المهلب بن أبى صفرة نهر ، وأقام بكش سنتين صابراً مصابراً للاعداء من الأتراك ، وجرت له معهم هناك فصول يطول ذكرها ، وفد عليه فى غضون هذه المدة كتاب ابن الأشعث بخلعه الحجاج ، فبعثه المهلب برمته إلى الحجاج حتى قرأه ثم كان ماسيأتى بيانه وتفصيله فيما بعد من حروب ابن الأشعث ، وفى هذه السنة جهز الحجاج الجيوش من البصرة والكوفة وغيرهما لقتال رتبيل ملك الترك ليقضوا منه ما كان من قتل جيش عبيد الله بن أبى بكرة فى السنة الماضية ، فجهز أربعين ألفا من كل من المصرين عشرين ألفا ، وأمر على الجميع عبد الرحمن بن محمد ابن الأشعث مع أنه كان الحجاج يبغضه جداً ، حتى قال مارأيته قط إلا هممت بقتله ، ودخل ابن الأشعث يوماً على الحجاج وعنده عامر الشعبى فقال انظر إلى مشيته والله لقد هممت أن أضرب عنقه ، فأسرها الشعبى إلى ابن الأشعث فقال ابن الأشعث : وأنا والله لأجهدن أن أزيله عن

سلطانه إن طال بى و به البقاء . والمقصود أن الحجاج أخذ فى استعراض هـذه الجنود و بذل فيهم العطاء ثم اختلف رأيه فيمن يؤمر عليهم ، ثم وقع اختياره على عبـد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فقدمه عليهم ، فأتى عمه إسماعيل بن الأشعث فقال للحجاج : إنى أخاف أن تؤمره فلا ترى لك طاعة إذا جاوز جسر الصراه ، فقال : ليس هو هنالك هو لى حبيب ، ومتى أرهب أن يخالف أمرى أو يخرج عن طاعتى ، فأمضاه عليهم ، فسار ابن الأشعث بالجيوش نحو أرض رتبيل ، فلما بلغ رتبيل مجىء ابن الأشعث بالجنود إليه كتب إليه رتبيل يعتذر مما أصاب المسلمين فى بلاده فى السنة الماضية ، وأنه كان لذلك كارها ، وأن المسلمين هم الذين ألجؤه إلى قتالهم ، وسأل من ابن الأشعث أن يصالحه وأن يبذل للمسلمين الخراج ، فلم يجبه ابن الأشعث إلى ذلك ، وصمم على دخول بلاده ، وجمع رتبيل جنوده وتهيأ له ولحربه ، وجعل ابن الأشعث كلما دخل بلداً أو مدينة أو أخـذ قلعة من بلاد رتبيل استعمل عليها نائباً من جهته يحفظها له ، وجعل المشايخ على كل أرض ومكان مخوف ، فاستحوذ على بلاد ومدن كثيرة من بلاد رتبيل ، وغنم أموالا كثيرة جزيلة ، وسبى خلقاً كثيرة ، ثم حبس الناس عن التوغل فى بلاد رتبيل حتى يصلحوا ما بأيديهـم من البلاد ، و يتقووا بما فيها من المغلات والحواصل ، ثم يتقدمون فى العام المقبل إلى أعدائهم فلا يزالون يجوزون الأراضى والأقاليم حتى يحاصروا رتبيل وجنوده فى مدينتهم مدينة العظماء على الكنوز والأموال والذرارى حتى يغنموها ثم يقتلون مقاتلتهم ، وعزموا على ذلك ، وكان هذا هو الرأى ، وكتب ابن الأشعث إلى الحجاج يخبره بما وقع من الفتح وما صنع الله لهم ، وبهذا الرأى الذى رآه لهم ، وقال بعضهم كان الحجاج قـد وجه هميان بن عدى السدوسى إلى كرما مسلحا لأهلها ليمد عامل سجستان والسند إن احتاجا إلى ذلك ، فعصى هميان ومن معه على الحجاج ، فوجه الحجاج إليـه ابن الأشعث فهزمه وأقام ابن الأشعث بمن معه ، ومات عبيـد الله بن أبى بكرة فكتب الحجاج إلى ابن الأشعث بإمرة سجستان مكان ابن أبى بكرة وجهز إلى ابن الاشعث جيشاً أنفق عليـه ألفى ألف سوى أعطياتهم ، وكان يدعى هذا الجيش جيش الطواويس ، وأمره بالاقدام على رتبيل فكان من أمره معه ماتقدم .

قال الواقدى وأبو معشر : وحج بالناس فى هـذه السنة أبان بن عثمان ، وقال غيرهما : بل حج بهم سليمان بن عبد الملك ، وكان على الصائفة فى هذه السنة الوليد بن عبد الملك ، وعلى المدينة أبان ابن عثمان ، وعلى المشرق بكماله الحجاج ، وعلى قضاء الكوفة أبو بردة بن أبى موسى ، وعلى قضاء البصرة موسى بن أنس بن مالك

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان

اسلم مولى عمر بن الخطاب

وهو أبو زيد بن أسلم أصله من سبى عين التمر اشتراه عمر بمكة لما حج سنة إحدى عشرة،

وتوفى وعمره مائة وأربع عشرة سنة ، وروى عن عمر عدة أحاديث ، وروى عن غيره من أصحابه أيضاً وله مناقب كثيرة رحمه الله .

جبير بن نفير

ابن مالك الحضرمى له صحبة ورواية ، وكان من علماء أهل الشام وكان مشهوراً بالعبادة والعلم توفى بالشام وعمره مائة وعشرون سنة ، وقيل أكثر وقيل أقل .

عبدالله بن جعفر بن ابي طالب

ولد بأرض الحبشة وأمه أسماء بنت عميس ، وهو آخر من رأى النبى (ص.) من بنى هاشم وفاة ، سكن المدينة ، ولما استشهد أبوه جعفر بمؤتة « أتى النبى (ص.) إلى أمهم فقال: ائتونى ببنى أخى ، فأتى بهم كأنهم أفرخ ، فدعا بالحلاق فحلق رؤسهم ثم قال : اللهم اخلف جعفراً فى أهله وبارك لعبد الله فى صفقته ، فجاءت أمهم فذكرت للنبى (ص.) أنه ليس لهم شئ ، فقال أنا لهم عوضاً من أبيهم » وقد بايع النبى (ص.) عبد الله بن جعفر وعبد الله بن الزبير وعمرهما سبع سنين ، وهذا لم يتفق لغيرهما ، وكان عبد الله بن جعفر من أسخى الناس ، يعطى الجزيل الكثير ويستقله ، وقد تصدق مرة بألفى ألف ، وأعطى مرة رجلا ستين ألفا ، ومرة أعطى رجلا أربعة آلاف دينار ، وقيل إن رجلا جلب مرة سكرا إلى المدينة فكسد عليه فلم يشتره أحد فأمر ابن جعفر قيمه أن يشتريه وأن يهديه للناس . وقيل : إن معاوية لما حج ونزل فى دار مروان قال يوماً لحاجبه : انظر هل ترى بالباب الحسن أو الحسين أو ابن جعفر أو فلانا ـ وعد جماعة ـ فخرج فلم ير أحداً ، فقيل له : هم مجتمعون عند عبد الله بن جعفر يتغدون ، فأتى معاوية فأخبره فقال : ما أنا إلا كأحدهم ، ثم أخذ عصا فتوكأ عليها ثم أتى باب ابن جعفر فاستأذن عليه ودخل فأجلسه فى صدر فراشه ، فقال له معاوية : أين غداؤك يا ابن جعفر ؟ فقال : وما تشتهى من شئ فأدعو به ؟ فقال معاوية : أطعمنا مخاً ، فقال يا غلام هات مخا ، فأتى بصحيفة فأكل معاوية ، ثم قال ابن جعفر لغلامه : هات مخاً ، فجاء بصحيفة أخرى ملآنة مخا إلى أن فعل ذلك ثلاث مرات ، فتعجب معاوية وقال : يا ابن جعفر ما يشبعك إلا الكثير من العطاء ، فلما خرج معاوية أمر له بخمسين ألف دينار ، وكان ابن جعفر صديقاً لمعاوية وكان يفد عليه كل سنة فيعطيه ألف ألف درهم ، ويقضى له مائة حاجة . ولما حضرت معاوية الوفاة أوصى ابنه يزيد ، فلما قدم ابن جعفر على يزيد قال له : كم كان أمير المؤمنين يعطيك كل سنة ؟ قال ألف ألف . فقال له : قد أضعفناها لك ، وكان يعطيه ألفى ألف كل سنة ، فقال له عبد الملك بن جعفر : بأبى أنت وأمى ما قلتها لأحد قبلك ، ولا أقولها لأحد بعدك ، فقال يزيد : ولا أعطاكها أحد قبلى ولا يعطيكها أحد بعدى ، وقيل إنه كان عند ابن جعفر جارية تغنيه تسمى عمارة ، وكان يحبها محبة عظيمة ، فحضر عنده يزيد

ابن معاوية يوماً فغنت الجارية ، فلما سمعها يزيد افتتن بها ولم يجسر على ابن جعفر أن يطلبها منـه ، فلم يزل فى نفس يزيد منها حتى مات أبوه معاوية ، فبعث يزيد رجلا من أهل العراق وأمره أن يتطلع فى أمر هـذه الجارية ، فقدم الرجل المدينة ونزل جوار ابن جعفر وأهدى إليـه هدايا وتحفا كثيرة ، وأنس به ، ولا زال حتى أخـذ الجارية وأتى يزيد . وكان الحسن البصرى يذم ابن جعفر على سماعه الغنى واللهو وشرائه المولدات ، ويقول : أما يكفيه هـذا الأمر القبيح المتلبس به من هذه الأشياء وغيرها ؟ حتى زوج الحجاج بنت رسول الله (ص.) ، وكان الحجاج يقول : إنما تزوجتها لأذل بها آل أبى طالب ، وقيل إنه لم يصل إليها ، وقد كتب عبـد الملك إليه أن يطلقها فطلقها . أسند عبد الله ابن جعفر ثلاثة عشر حديثاً .

ابو ادريس الخولاني

• اسمه عائذ الله بن عبـد الله ، له أحوال ومناقب ، كان يقول : قلب نقى فى ثياب دنسة خير من قلب دنس فى ثياب نقية ، وقد تولى القضاء بدمشق ، وقد ذكرنا ترجمته فى كتابنا التكميل .

معبد الجهني القدري

يقال إنه معبد بن عبد الله بن عليم ، راوى حديث : « لا تنتفعوا من الميتة باهاب ولاعصب » . وقيل غير ذلك فى نسبه ، سمع الحديث من ابن عباس وابن عمر ومعاوية وعمران بن حصين وغيرهم . وشهد يوم التحكيم ، وسأل أبا موسى فى ذلك ووصاه ثم اجتمع بعمرو بن العاص فوصاه فى ذلك فقال له : أيها يا تيس جهنة ما أنت من أهل السر والعلانية ، وإنه لا ينفعك الحق ولا يضرك الباطل . وهذا توسم فيه من عمرو بن العاص ، ولهذا كان هو أول من تكلم فى القدر ، ويقال إنه أخـذ ذلك عن رجل من النصارى من أهل العراق يقال له سوس ، وأخذ غيلان القـدر من معبد ، وقد كانت لمعبد عبادة وفيه زهادة ، ووثقه ابن معين وغيره فى حديثه ، وقال الحسن البصرى : إياكم ومعبداً فانه ضال مضل ، وكان ممن خرج مع ابن الأشعث فعاقبه الحجاج عقوبة عظيمة بأنواع العذاب ثم قتله . وقال سعيد بن عفير : بل صلبه عبد الملك بن مروان فى سنة ثمانين بدمشق ثم قتله ، وقال خليفة بن خياط : مات قبل التسعين فالله أعلم ، وقيل إن الأقرب قتل عبد الملك له والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة احدى وثمانين

ففيها فتح عبيد الله بن عبد الملك بن مروان مدينة قاليقلا وغنم المسلمون منها غنائم كثيرة ، وفيها قتل بكير بن وشاح ، قتله بحير بن ورقاء الصريمى ، وكان بكير من الأمراء الشجعان ، ثم ثار لبكير ابن وشاح رجل من قومه يقال له صعصعة بن حرب العوفى الصريمى ، فقتل بحير بن ورقاء الذى قتل بكيرا ، طعنه بخنجر وهو جالس عند المهلب بن أبى صفرة فحمل إلى منزله وهو بآخر رمق ، فبعث

المهلب بصعصعة إليه ، فلما تمكن منه بحير بن ورقاء قال ضعوا رأسه عند رجلي ، فوضعوه فطعنه بحير بحربته حتى قتله ومات على إثره . وقد قال له أنس بن طارق : اعف عنه فقد قتلت بكير بن وشاح ، فقال : لا والله لا أموت وهذا حي ثم قتله ، وقد قيل إنه إنما قتل بعد موته فالله أعلم .

فتنة ابن الأشعث

قال أبو مخنف : كان ابتداؤها في هذه السنة ، وقال الواقدي : في سنة ثنتين وثمانين ، وقد ساقها ابن جرير في هذه السنة فوافقناه في ذلك ، وكان سبب هذه الفتنة أن ابن الأشعث كان الحجاج يبغضه وكان هو يفهم ذلك ويضمر له السوء وزوال الملك عنه ، فلما أمره الحجاج على ذلك الجيش المتقدم ذكره ، وأمره بدخول بلاد رتبيل ملك الترك ، فمضى وصنع ما قدمناه من أخذه بعض بلاد الترك ، ثم رأى لأصحابه أن يقيموا حتى يتقووا إلى العام المقبل ، فكتب إلى الحجاج بذلك فكتب إليه الحجاج يستهجن رأيه في ذلك ويستضعف عقله ويقرعه بالجبن والنكول عن الحرب ، ويأمره حتما بدخول بلاد رتبيل ، ثم أردف ذلك بكتاب ثان ثم ثالث مع البريد ، وكتب في جملة ذلك يا ابن الحائك الغادر المرتد ، امض إلى ما أمرتك به من الايغال في أرض العدو وإلا حل بك مالا يطاق . وكان الحجاج يبغض ابن الأشعث : ويقول هو أهوج أحمق حسود ، وأبوه الذي سلب أمير المؤمنين عثمان ثيابه وقاتله ، ودل عبيد الله بن زياد على مسلم بن عقيل حتى قتله ، وجده الأشعث ارتد عن الاسلام وما رأيته قط إلا هممت بقتله ، ولما كتب الحجاج إلى ابن الأشعث بذلك وترادفت إليه البرد بذلك ، غضب ابن الأشعث وقال: يكتب إلى بمثل هذا وهو لا يصلح أن يكون من بعض جندي ولا من بعض خدمي لخوره وضعف قوته ؟ أما يذكر أباه من ثقيف هذا الجبان صاحب غزالة – يعني أن غزالة زوجة شبيب حملت على الحجاج وجيشه فانهزموا منها وهي امرأة لما دخلت الكوفة – ثم إن ابن الأشعث جمع رؤس أهل العراق وقال لهم : إن الحجاج قد ألح عليكم في الايغال في بلاد العدو ، وهي البلاد التي قد هلك فيها إخوانكم بالأمس ، وقد أقبل عليكم فصل الشتاء والبرد ، فانظروا في أمركم أما أنا فلست مطيعه ولا أنقض رأيا رأيته بالأمس ، ثم قام فيهم خطيباً فأعلمهم بما كان رأى من الرأي له ولهم ، وطلب في ذلك من إصلاح البلاد التي فتحوها ، وأن يقيموا بها حتى يتقووا بغلاتها وأموالها ويخرج عنهم فصل البرد ثم يسيرون في بلاد العدو فيفتحونها بلداً بلداً إلى أن يحصروا رتبيل ملك الترك في مدينة العظماء ، ثم أعلمهم بما كتب إليه الحجاج من الأمر بمعاجلة رتبيل . فثار إليه الناس وقالوا : لا بل نأبى على عدو الله الحجاج ولا نسمع له ولا نطيع . قال أبو مخنف : فحدثني مطرف بن عامر بن واثلة الكناني أن أباه كان أول من تكلم في ذلك ، وكان شاعراً خطيباً ، وكان مما قال : إن مثل الحجاج في هذا الرأي ومثلنا كما قال الأول لأخيه احمل عبدك على الفرس فان

هلك هلك ، و إن نجا فلك ، أنتم إذا ظفرتم كان ذلك زيادة فى سلطانه ، و إن هلكتم كنتم الأعداء البغضاء ، ثم قال : اخلعوا عدو الله الحجاج ـ ولم يذكر خلع عبد الملك ـ و بايعوا لأميركم عبد الرحمن ابن الأشعث فانى أشهدكم أنى أول خالع للحجاج . فقال الناس من كل جانب : خلعنا عدو الله ، ووثبوا إلى عبد الرحمن بن الأشعث فبايعوه عوضاً عن الحجاج ، ولم يذكروا خلع عبد الملك بن مروان ، و بعث ابن الأشعث إلى رتبيل فصالحه على أنه إن ظفروا بالحجاج فلا خراج على رتبيل أبداً . ثم سار ابن الأشعث بالجنود الذين معه مقبلا من سجستان إلى الحجاج ليقاتله و يأخذ منه العراق ، فلما توسطوا الطريق قالوا : إن خلعنا للحجاج خلع لابن مروان فخلعوهما وجددوا البيعة لابن الأشعث فبايعهم على كتاب الله وسنة رسوله وخلع أئمة الضلالة وجهاد الملحدين ، فاذا قالوا نعم بايعهم . فلما بلغ الحجاج ما صنعوا من خلعه وخلع ابن مروان ، كتب إلى عبد الملك يعلمه بذلك و يستعجله فى بعثه الجنود إليه ، وجاء الحجاج حتى نزل البصرة ، و بلغ المهلب خبر ابن الأشعث ، وكتب إليه يدعوه إلى ذلك فأبى عليه ، و بعث بكتابه إلى الحجاج ، وكتب المهلب إلى ابن الأشعث يقول له : إنك يا ابن الأشعث قد وضعت رجلك فى ركاب طويل ، ابق على أمة محمد (ص) ، انظر إلى نفسك فلا تهلكها ، ودماء المسلمين فلا تسفكها ، والجماعة فلا تفرقها ، والبيعة فلا تنكثها ، فان قلت أخاف الناس على نفسى فالله أحق أن تخافه من الناس ، فلا تعرضها لله فى سفك الدماء ، أو استحلال محرم والسلام عليك . وكتب المهلب إلى الحجاج : أما بعد فان أهل العراق قد أقبلوا إليك مثل السيل المنحدر من علو ليس شىء يرده حتى ينتهى إلى قراره ، و إن لأهل العراق شدة فى أول مخرجهم ، وصبابة إلى أبنائهم ونسائهم ، فليس شىء يردهم حتى يصلوا إلى أهليهم و ينبسطوا إلى نسائهم و يشموا أولادهم . ثم واقعهم عندها فان الله ناصرك عليهم إن شاء الله . فلما قرأ الحجاج كتابه قال : فعل الله به وفعل ، لا والله مالى نظر ولكن لابن عمه نصح . ولما وصل البريد بكتاب الحجاج إلى عبد الملك هاله ذلك ثم نزل عن سريره و بعث إلى خالد بن يزيد بن معاوية فأقرأه كتاب الحجاج فقال : يا أمير المؤمنين إن كان هذا الحدث من قبل خراسان فخفه ، و إن كان من قبل سجستان فلا تخفه ، ثم أخذ عبد الملك فى تجهيز الجنود من الشام إلى العراق فى نصرة الحجاج وتجهيزه فى الخروج إلى ابن الأشعث ، وعصى رأى المهلب فيما أشار به عليه ، وكان فى شوره النصح والصدق ، وجعلت كتب الحجاج لا تنقطع عن عبد الملك بخبر ابن الأشعث صباحاً ومساء ، أين نزل ومن أين ارتحل ، وأى الناس إليه أسرع . وجعل الناس يلتفون على ابن الأشعث من كل جانب ، حتى قيل إنه سار معه ثلاثة وثلاثون ألف فارس ومائة وعشرون ألف راجل ، وخرج الحجاج فى جنود الشام من البصرة نحو ابن الأشعث ، فنزل تستر وقدم بين يديه مطهر بن حي الكعبي

أميراً على المقدمة ، ومعه عبد الله بن زميت أميراً آخر ، فانتهوا إلى دجيل فاذا مقدمة ابن الأشعث في ثلاثمائة فارس عليها عبد الله بن أبان الحارثي ، فالتقوا في يوم الأضحى عند نهر دجيل ، فهزمت مقدمة الحجاج وقتل أصحاب ابن الأشعث منهم خلقاً كثيراً نحو ألف وخمسمائة ، واحتازوا ما في معسكرهم من خيول وقماش وأموال . وجاء الخبر إلى الحجاج بهزيمة أصحابه وأخذه مادب ودرج . وقد كان قائماً يخطب فقال : أيها الناس ارجعوا إلى البصرة فانه أرفق بالجند : فرجع بالناس وتبعهم خيول ابن الأشعث لا يدركون منهم شاذا إلا قتلوه ، ولا فاذا إلا أهلكوه ، ومضى الحجاج هاربا لا يلوى على شيء حتى أتى الزاوية فعسكر عندها وجعل يقول : لله در المهلب أى صاحب حرب هذا ، قد أشار علينا بالرأى ولكننا لم نقبل ، وأنفق الحجاج على جيشه وهو بهذا المكان مائة وخمسين ألف ألف درهم ، وخندق حول جيشه خندقاً ، وجاء أهل العراق فدخلوا البصرة واجتمعوا بأهاليهم وشموا أولادهم ، ودخل ابن الأشعث البصرة فخطب الناس بهم وبايعهم وبايعوه على خلع عبد الملك ونائبه الحجاج بن يوسف ، وقال لهم ابن الأشعث : ليس الحجاج بشيء ، ولكن اذهبوا بنا إلى عبد الملك لنقاتله ، ووافقه على خلعهما جميع من في البصرة من الفقهاء والقراء والشيوخ والشباب ، ثم أمر ابن الأشعث بخندق حول البصرة فعمل ذلك ، وكان ذلك في أواخر ذي الحجة من هذه السنة .

وحج بالناس فيها إسحاق بن عيسى فيما ذكره الواقدي وأبو معشر والله سبحانه وتعالى أعلم . وفيها غزا موسى بن نصير أمير بلاد المغرب من جهة عبد الملك بلاد الاندلس فافتتح مدنا كثيرة ، وأراضي عامرة ، وأوغل في بلاد المغرب إلى أن وصل إلى الزقاق المنبثق من البحر الأخضر المحيط والله أعلم .

وممن توفي فيها من الأعيان بجير بن ورقاء الصريمي أحد الأشراف بخراسان ، والقواد والأمراء الذي حارب ابن خازم وقتله ، وقتل بكير بن وشاح ثم قتل في هذه السنة .

سويد بن غفلة بن عوسجة بن عامر

أبو أمية الجعفي الكوفي ، شهد اليرموك وحدث عن جماعة من الصحابة ، وكان من كبار المخضرمين ويقال إنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان مولده عام ولد النبي صلى الله عليه وسلم وصلى معه ، والصحيح أنه لم يره ، وقيل إنه ولد بعده بسنتين ، وعاش مائة وعشرين سنة لم ير يوماً محتنياً ولا متساندا ، وافتض بكرا عام وفاته في سنة إحدى وثمانين ، قاله أبو عبيد وغير واحد . وقيل إنه توفي في سنة ثنتين وثمانين فالله أعلم .

عبدالله بن شداد ابن الهاد

كان من العباد الزهاد ، والعلماء ، وله وصايا وكلمات حسان ، وقد روى عدة أحاديث عن الصحابة وعن خلق من التابعين ،

محمد بن علي بن ابي طالب

أبو القاسم وأبو عبد الله أيضاً ، وهو المعروف بابن الحنفية ، وكانت سوداء سندية من بنى حنيفة اسمها خولة . ولد محمد فى خلافة عمر بن الخطاب ، و وفد على معاوية وعلى عبد الملك بن مروان وقد صرع مروان يوم الجمل وقعد على صدره وأراد قتله فناشده مروان بالله وتذلل له فأطلقه ، فلما وفد على عبد الملك ذكره بذلك فقال عفواً يا أمير المؤمنين فعفا عنه وأجزل له الجائزة ، وكان محمد ابن على من سادات قريش ، ومن الشجعان المشهورين ، ومن الاقوياء المذكورين ، ولما بويع لابن الزبير لم يبايعه ، فجرى بينهما شر عظيم حتى هم ابن الزبير به وبأهله كما تقدم ذلك ، فلما قتل ابن الزبير واستقر أمر عبد الملك وبايعه ابن عمر تابعه ابن الحنفية ، وقدم المدينة فمات بها فى هذه السنة وقيل فى التى قبلها أو فى التى بعدها ، ودفن بالبقيع . والرافضة يزعمون أنه بجبل رضوى ، وأنه حى يرزق ، وهم ينتظرونه ، وقد قال كثير عزة فى ذلك

ألا إنّ الائمةَ من قريشٍ * ولاةُ الحق أربعةٌ سَواءُ

علىٌّ والثلاثةُ من بَنيهِ * همُ الاسباطُ ليس بهم خَفاءُ

فسبطٌ سبطُ إيمانٍ وبرٍ * وسبطٌ غيَّبتهُ كربلاءُ

وسبطٌ لاتراهُ العينُ حتى * تعودَ الخيلُ يقدُمُها لواءُ

ولما هم ابن الزبير بابن الحنفية كتب ابن الحنفية إلى شيعتهم بالكوفة مع أبى الطفيل واثلة بن الأسقع وعلى الكوفة المختار بن عبيد الله ، وقد كان ابن الزبير جمع لهم حطبا كثيراً على أبوابهم ليحرقهم بالنار ، فلما وصل كتاب ابن الحنفية إلى المختار ، وقد كان المختار يدعو إليه ويسميه المهدى ، فبعث المختار أبا عبد الله الجدلى فى أربعة آلاف فاستنقذوا بنى هاشم من يدى ابن الزبير . وخرج معهم ابن عباس فمات بالطائف وبقى ابن الحنفية فى شيعته ، فأمره ابن الزبير أن يخرج عنه فخرج إلى أرض الشام بأصحابه وكانوا نحو سبعة آلاف ، فلما وصل إلى أيلة كتب إليه عبد الملك : إما أن تبايعنى وإما أن تخرج من أرضى ، فكتب إليه ابن الحنفية :أبايعك على أن تؤمّن أصحابى ، قال نعم فقام ابن الحنفية فى أصحابه فحمد الله وأثنى عليه فقال : الحمد لله الذى حقن دماءكم وأحرز دينكم فمن أحب منكم أن يأتى مأمنه إلى بلده محفوظاً فليفعل ، فرحل عنه الناس إلى بلادهم حتى بقى فى سبعمائة رجل، فأحرم بعمرة وقلد هديا وسار نحو مكة ، فلما أراد دخول الحرم بعث إليه ابن الزبير خيلا فمنعه أن يدخل ، فأرسل إليه : إنا لم نأت لحرب ولا لقتال ، دعنا ندخل حتى نقضى نسكنا ثم نخرج عنك ، فأبى عليه وكان معه بدن قد قلدها فرجع إلى المدينة فأقام بها محرما حتى قدم الحجاج وقتل ابن الزبير ، فكان ابن الحنفية فى تلك المدة محرما ، فلما سار الحجاج إلى العراق مضى ابن الحنفية إلى مكة وقضى نسكه

وذلك بعد عدة سنين ، وكان القمل يتناثر منه فى تلك المدة كلها ، فلما قضى نسكه رجع إلى المدينة أقام بها حتى مات ، وقيل إن الحجاج لما قتل ابن الزبير بعث إلى ابن الحنفية : قد قتل عدو الله فبايع ، فكتب إليه إذا بايع الناس كلهم بايعت ، فقال الحجاج : والله لا قتلنك ، فقال ابن الحنفية : إن لله فى كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة فى اللوح المحفوظ ، فى كل نظرة ثلاثمائة وستون قضية ، فلعل الله تعالى أن يجعلنى فى قضية منها فيكفينيك. فكتب الحجاج إلى عبد الملك بذلك فأعجبه قوله وكتب إليه قد عرفنا أن محمداً ليس عنده خلاف فارفق به فهو يأتيك و يبايعك ، وكتب عبد الملك بكلامه ذلك - إن لله ثلاثمائة وستين نظرة - إلى ملك الروم ، وذلك أن ملك الروم كتب إلى عبد الملك يتهدده بجموع من الجنود لا يطيقها أحد ، فكتب بكلام ابن الحنفية فقال ملك الروم : إن هذا الكلام ليس من كلام عبد الملك ، و إنما خرج من بيت نبوة ، ولما اجتمع الناس على بيعة عبد الملك قال ابن عمر لابن الحنفية : ما بقى شئ فبايع ، فكتب بيعته إلى عبد الملك و وفد عليه بعد ذلك .

توفى ابن الحنفية فى المحرم بالمدينة وعمره خمس وستون سنة ، وكان له من الولد عبد الله وحمزة وعلى وجعفر الأكبر والحسن و إبراهيم والقاسم وعبد الرحمن وجعفر الأصغر وعون ورقية ، وكلهم لأمهات شتى . وقال الزبير بن بكار : كانت شيعته تزعم أنه لم يمت وفيه يقول السيد :

ألا قلْ للوصيِ فدتكَ نفسي * أطلتَ بذلكَ الجبلِ المقاما
أضرَّ بمعشرٍ والوكَ منا * وسموكَ الخليفةَ والاماما
وعادَوا فيكَ أهلَ الأرض طراً * مقامكَ فيهمُ ستينَ عاما
وما ذاقَ ابنَ خولةَ طعمَ موتٍ * ولا وارتْ لهُ أرضٌ عظاما
لقدْ أمسى بمورقِ شعبِ رضوى * تراجعهُ الملائكةُ الكلاما
و إنَّ لهُ بهِ لمقيلَ صدقٍ * وأندية تحدثهُ كراما
هدانا اللهُ ادخرتمْ لامرٍ * بهِ عليهِ يلتمسُ التماما
تمامُ نورهَ المهديُ حتى * تروا راياته تترى نظاما

وقد ذهب طائفة من الرافضة إلى إمامته وأنه ينتظر خروجه فى آخر الزمان ، كما ينتظر طائفة أخرى منهم الحسن بن محمد العسكرى ، الذى يخرج فى زعمهم من سرداب سامرا ، وهذا من خرافاتهم وهذيانهم وجهلهم وضلالهم وترهاتهم ، وسنزيد ذلك وضوحا فى موضعه و إن شاء الله .

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين

ففى المحرم منها كانت وقعة الزاوية بين ابن الأشعث والحجاج فى آخره ، وكان أول يوم لأهل العراق على أهل الشام ، ثم تواقفوا يوما آخر فحمل سفيان بن الابرد أحد أمراء أهل الشام على

ميمنة ابن الأشعث فهزمها وقتل خلقا كثيراً من القراء من أصحاب ابن الأشعث فى هذا اليوم ، وخر الحجاج لله ساجداً بعد ما كان جثى على ركبتيه وسل شيئاً من سيفه وجعل يترحم على مصعب بن الزبير ويقول : ما كان أكرمه حتى صبر نفسه للقتل ، وكان من جملة من قتل من أصحاب ابن الاشعث أبو الطفيل بن عامر بن واثلة الليثى ، ولما فر أصحاب ابن الاشعث رجع ابن الأشعث بمن بقى معه ومن تبعه من أهل البصرة ، فسار حتى دخل الكوفة فعمد أهل البصرة إلى عبد الرحمن بن عياش بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فبايعوه ، فقاتل الحجاج خمس ليال أشد القتال ، ثم انصرف فلحق بابن الأشعث ، وتبعه طائفة من أهل البصرة ، فاستناب الحجاج على البصرة أيوب بن الحكم ابن أبى عقيل ، ودخل ابن الأشعث الكوفة فبايعه أهلها على خلع الحجاج وعبد الملك بن مروان ، وتفاقم الأمر وكثر متابعو ابن الأشعث على ذلك ، واشتد الحال ، وتفرقت الكلمة جداً وعظم الخطب ، واتسع الخرق على الراقع .

قال الواقدى : ولما التقى جيش الحجاج وجيش ابن الأشعث بالزاوية جعل جيش الحجاج يحمل عليهم مرة بعد مرة ، فقال القراء ـ وكان عليهم جبلة بن زحر ـ : أيها الناس ليس الفرار من أحد بأقبح منكم فقاتلوا عن دينكم ودنياكم . وقال سعيد بن جبير نحو ذلك ، وقال الشعبي : قاتلوهم على جورهم واستذلالهم الضعفاء وإماتتهم الصلاة ، ثم حملت القراء ـ وهم العلماء ـ على جيش الحجاج حملة صادقة فبرعوا فيهم ثم رجعوا فاذا هم بمقدمهم جبلة بن زحر صريعا ، فهدهم ذلك فناداهم جيش الحجاج يا أعداء الله قد قتلنا طاغيتكم ، ثم حمل سفيان بن الأبرد وهو على خيل الحجاج على ميسرة ابن الأشعث وعليها الأبرد بن مرة التميمى ، فانهزموا ولم يقاتلوا كثير قتال ، فأنكر الناس منهم ذلك . وكان أمير ميسرة ابن الأشعث الأبرد شجاعاً لا يفر ، وظنوا أنه قد خامر ، فنقضت الصفوف وركب الناس بعضهم بعضاً ، وكان ابن الأشعث يحرض الناس على القتال ، فلما رأى ما الناس فيه أخذ من اتبعه وذهب إلى الكوفة فبايعه أهلها ، ثم كانت وقعة دير الجماجم فى شعبان من هذه السنة .

وقعة دير الجماجم

قال الواقدى : وذلك أن ابن الأشعث لما قصد الكوفة خرج إليه أهلها فتلقوه وحفوا به ودخلوا بين يديه ، غير أن شرذمة قليلة أرادت أن تقاتله دون مطر بن ناجية نائب الحجاج فلم يمكنهم من ذلك ، فعدلوا إلى القصر ، فلما وصل ابن الأشعث إلى الكوفة أمر بالسلالم فنصبت على قصر الامارة فأخذه واستنزل مطر بن ناجية وأراد قتله فقال له : استبقنى فانى خير من فرسانك ، فحبسه ثم استدعاه فأطلقه وبايعه واستوثق لابن الأشعث أمر الكوفة وانضم إليه من جاء من أهل البصرة ، وكان ممن قدم عليه عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن عبد المطلب ، وأمر بالمسالح من كل جانب ، وحفظت

الثغور والطرق والمسالك . ثم إن الحجاج ركب فيمن معه من الجيوش الشامية من البصرة فى البر حتى مر بين القادسية والعذيب و بعث إليه ابن الأشعث عبد الرحمن بن العباس فى خيل عظيمة من المصرين فمنعوا الحجاج من دخول القادسية ، فسار الحجاج حتى نزل دير قره ، وجاء ابن الأشعث بمن معه من الجيوش البصرية والكوفية حتى نزل دير الجماجم ، ومعه جنود كثيرة ، وفيهم القراء وخلق من الصالحين ، وكان الحجاج بعد ذلك يقول : قاتل الله ابن الأشعث ، أما كان يزجر الطير حيث رآنى قد نزلت دير قره ، ونزل هو بدير الجماجم . وكان جملة من اجتمع مع ابن الاشعث مائة ألف مقاتل ممن يأخذ العطاء ، ومعهم مثلهم من مواليهم ، وقدم على الحجاج فى غبون ذلك أمداد كثيرة من الشام ، وخندق كل من الطائفتين على نفسه وحول جيشه خندقاً يمتنع به من الوصول إليهم ، غير أن الناس كان يبرز بعضهم لبعض فى كل يوم فيقتتلون قتالا شديداً فى كل حين ، حتى أصيب من رؤوس الناس خلق من قريش وغيرهم ، واستمر هذا الحال مدة طويلة ، واجتمع الأمراء من أهل المشورة عند عبد الملك بن مروان فقالوا له : إن كان أهل العراق يرضيهم منك أن تعزل عنهم الحجاج فهو أيسر من قتالهم وسفك دمائهم ، فاستحضر عبد الملك عند ذلك أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك بن مروان ، ومعهما جنود كثيرة جداً ، وكتب معهما كتابا إلى أهل العراق يقول لهم : إن كان يرضيكم منى عزل الحجاج عنكم عزلته عنكم ، و بعثت عليكم أعطياتكم مثل أهل الشام ، وليختر ابن الأشعث أى بلد شاء يكون عليه أميراً ما عاش وعشت ، وتكون إمرة العراق لمحمد بن مروان ، وقال فى عهده هذا : فان لم تجب أهل العراق إلى ذلك فالحجاج على ماهو عليه و إليه إمرة الحرب ، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الملك فى طاعة الحجاج وتحت أمره لا يخرجون عن رأيه فى الحرب وغيره .

ولما بلغ الحجاج ما كتب به عبد الملك إلى أهل العراق من عزله إن رضوا به شق عليه ذلك مشقة عظيمة جداً وعظم شأن هذا الرأى عنده ، وكتب إلى عبد الملك : يا أمير المؤمنين والله لئن أعطيت أهل العراق نزعى عنهم لا يلبثون إلا قليلا حتى يخالفوك و يسيروا إليك ، ولا يزيدهم ذلك إلا جرأة عليك ، ألم تر وتسمع بوثوب أهل العراق مع الأشتر النخعى على ابن عفان ؟ فلما سألهم ماتريدون ؟ قالوا : نزع سعيد بن العاص ، فلما نزعه لم تتم لهم السنة حتى ساروا إليه فقتلوه ؟ و إن الحديد بالحديد يُفْلَح ، كان الله لك فيما ارتأيت والسلام عليك .

قال : فأبى عبد الملك إلا عرض هذه الخصال على أهل العراق كما أمر ، فتقدم عبد الله ومحمد فنادى عبد الله : يامعشر أهل العراق ، أنا عبد الله ابن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان ، و إنه يعرض عليكم كيت وكيت ، فذكر ما كتب به أبوه معه إليهم من هذه الخصال ، وقال محمد بن مروان : وأنا رسول

أخى أمير المؤمنين إليكم بذلك ، فقالوا : ننظر فى أمرنا غداً ونرد عليكم الخبر عشية ، ثم انصرفوا فاجتمع جميع الأمراء إلى ابن الأشعث فقام فيهم خطيباً وندبهم إلى قبول ماعرض عليهم من عزل الحجاج عنهم و بيعة عبد الملك و إبقاء الأعطيات و إمرة محمد بن مروان على العراق بدل الحجاج ، فنفر الناس من كل جانب وقالوا : لا والله لا نقبل ذلك ، نحن أكثر عدداً وعدداً ، وهم فى ضيق من الحال وقد حكمنا عليهم وذلوا لنا ، والله لا نجيب إلى ذلك أبداً . ثم جددوا خلع عبد الملك ونائبه ثانية ، واتفقوا على ذلك كلهم .

فلما بلغ عبد الله بن عبد الملك وعمه محمداً الخبر قالا للحجاج : شأنك بهم إذا ، فنحن فى طاعتك كما أمرنا أمير المؤمنين ، فكانا إذا لقياه سلما عليه بالامرة و يسلم هو أيضاً عليهم بالامرة ، وتولى الحجاج أمر الحرب وتدبيرها كما كان قبل ذلك ، فعند ذلك برز كل من الفريقين للقتال والحرب ، فجعل الحجاج على ميمنته عبد الرحمن بن سليمان ، وعلى ميسرته عمارة بن تميم اللخمى ، وعلى الخيل سفيان بن الأبرد وعلى الرجالة عبد الرحمن بن حبيب الحكمى . وجعل ابن الأشعث على ميمنته الحجاج بن حارثة الجشمى ، وعلى الميسرة الأبرد بن قرة التميمى ، وعلى الخيالة عبد الرحمن ابن عياش بن أبى ربيعة ، وعلى الرجالة محمد بن سعد بن أبى وقاص الزهرى ، وعلى القراء جبلة بن زحر بن قيس الجعفى ، وكان فيهم سعيد بن جبير وعامر الشعبى وعبد الرحمن بن أبى ليلى وكميل بن زياد ــ وكان شجاعاً فاتكا على كبر سنه ــ وأبو البحترى الطائى وغيرهم ، وجعلوا يقتتلون فى كل يوم ، وأهل العراق تأتيهم الميرة من الرساتيق والأقاليم ، من العلف والطعام ، وأما أهل الشام الذين مع الحجاج فهم فى أضيق حال من العيش ، وقلة من الطعام ، وقد فقدوا اللحم بالكلية فلا يجدونه ، وما زالت الحرب فى هذه المدة كلها حتى انسلخت هذه السنة وهم على حالهم وقتالهم فى كل يوم أو يوم بعد يوم ، والدائرة لأهل العراق على أهل الشام فى أكثر الأيام . وقد قتل من أصحاب الحجاج زياد بن غنم ، وكسر بسطام بن مصقلة فى أربعة آلاف جفون سيوفهم واستقتلوا وكانوا من أصحاب ابن الأشعث .

وفى هذه السنة كانت وفاة المهلب بن أبى صفرة ، وهو المهلب بن أبى صفرة ظالم أبو سعيد الأزدى أحد أشراف أهل البصرة ووجوههم ودهاتهم وأجوادهم وكرمائهم ، ولد عام الفتح ، وكانوا ينزلون فيما بين عمان والبحرين ، وقد ارتد قومه فقاتلهم عكرمة بن أبى جهل فظفر بهم ، و بعث بهم إلى الصديق وفيهم أبو صفرة وابنه المهلب غلام لم يبلغ الحنث ، ثم نزل المهلب البصرة وقد غزا فى أيام معاوية أرض الهند سنة أربع وأربعين ، وولى الجزيرة لابن الزبير سنة ثمان وستين ، ثم ولى حرب الخوارج أول دولة الحجاج ، وقتل منهم فى وقعة واحدة أربعة آلاف وثمانمائة ، فعظمت منزلته عند الحجاج . وكان فاضلا شجاعاً كريماً يحب المدح ، وله كلام حسن ، فمنه : نعم الخصلة السخاء تستر عورة الشريف

وتلحق خسيسة الوضيع ،وتحبب المزهود فيه . وقال: يعجبني في الرجل خصلتان أن أرى عقله زائدا على لسانه ، ولاأرى لسانه زائداً على عقله

توفى المهلب غازياً بمروالروذ وعمره ستة وسبعون سنة رحمه الله . وكان له عشرة من الولد وهم : يزيد ، و زياد ، والمفضل ، ومدرك ، وحبيب ، والمغيرة ، وقبيصة ، ومحمد ، وهند ، وفاطمة . توفى المهلب فى ذى الحجة منها ، وكان من الشجعان وله مواقف حميدة ، وغزوات مشهورة فى الترك والأزارقة وغيرهم من أنواع الخوارج ، وجعل الأمر من بعده ليزيد بن المهلب على إمرة خراسان فأمضى له ذلك الحجاج وعبد الملك بن مروان

اسماء بن خارجة الفزاري الكوفي

وكان جواداً ممدحا ، حكى أنه رأى يوماً شاباً على باب داره جالساً فسأله عن قعوده على بابه فقال : حاجة لا أستطيع ذكرها ، فألح عليه فقال : جارية رأيتها دخلت هذه الدار لم أر أحسن منها وقد خطفت قلبي معها ، فأخذ بيده وأدخله داره وعرض عليه كل جارية عنده حتى مرت تلك الجارية فقال : هذه ، فقال له : اخرج فاجلس على الباب مكانك ، فخرج الشاب فجلس مكانه ، ثم خرج إليه بعد ساعة والجارية معه قد ألبسها أنواع الحلى ، وقال له : مامنعنى أن أدفعها إليك وأنت داخل الدار إلا أن الجارية كانت لأختى ، وكانت ضنينة بها ، فاشتريتها لك منها بثلاثة آلاف ، وألبستها هذا الحلى ، فهى لك بما عليها ، فأخذها الشاب وانصرف .

المغيرة بن المهلب

ابن أبى صفرة ، كان جواداً ممدحا شجاعا ، له مواقف مشهورة .

الحارث بن عبدالله

ابن ربيعة المخزومى المعروف بقباع ، ولى إمرة البصرة لابن الزبير .

محمد بن اسامة بن زيد بن حارثة

كان من فضلاء أبناء الصحابة وأعقلهم ، توفى بالمدينة ودفن بالبقيع .

عبدالله بن ابي طلحة بن ابي الأسود

والد الفقيه إسحاق حملت به أمه أم سليم ليلة مات ابنها فأصبح أبوطلحة فأخبر النبى (ص.) ، فقال (ص.) : «عرستم بارك الله لكما فى ليلتكما » . ولما ولد حنكه بتمرات .

عبد الله بن كعب بن مالك

كان قائد كعب حين عمى ، له روايات ، توفى بالمدينة هذه السنة .

عفان بن وهب

أبو أيمن الخولانى المصرى له صحبة و رواية ، وغزا المغرب ، وسكن مصر و بها مات .

جميل بن عبدالله

ابن معمر بن صباح بن ظبيان بن الحسن بن ربيعة بن حرام بن ضبة بن عبيد بن كثير بن عذرة بن سعد بن هذيم بن زيد بن ليث بن سرهد بن أسلم بن الحاف بن قضاعة . أبو عمرو الشاعر صاحب بثينة ، كان قد خطبها فمنعت منه ، فتغزل فيها واشتهر بها ، وكان أحد عشاق العرب، كانت إقامته بوادى القرى ، وكان عفيفاً حيياً دينا شاعرا إسلاميا ، من أفصح الشعراء فى زمانه ، وكان كثير عزة راويته ، وهو يروى عن هدبة بن خشرم عن الحطيئة عن زهير بن أبى سلمى ، وابنه كعب ، قال كثير عزة كان جميل أشعر العرب حيث يقول : ـ

وأخبرتمانى أنّ تيماءُ منزلٌ * لليلى إذا ما الصيفُ ألقى المراسيا
فهذى شهورُ الصيفِ عنا قد انقضتْ * فما للنوى ترمى بليلى المراميا

ومنها قوله

وما زلت بى يابثن حتى لو اننى * من الشوقِ أستبكى الحمامَ بكى ليا
وما زادنى الواشونَ إلاصبابةً * ولا كثرةُ الناهينَ إلا تماديا
وما أحدثَ النأىُ المفرقُ بيننا * سلوًّا ولا طولُ اجتماعٍ تقاليا
ألم تعلمى ياعذبة الريقِ أننى * أظل إذا لم ألقَ وجهكَ صاديا
لقد خفتُ أنْ ألقى المنيةَ بغتةً * وفى النفسِ حاجاتٌ إليكَ كما هيا

وله أيضا

إنى لأحفظُ غيبكمْ ويسرنى * لو تعلمينَ بصالحٍ أنْ تذكرى

إلى أن قال

ما أنتِ والوعدُ الذى تعدينَنى * إلاّ كبرقِ سحابةٍ لم تمطرِ

وقوله وروى لعمرو ابن أبى ربيعة . فيما نقله ابن عساكر

ما زلتُ ابغى الحىّ أتبعُ فلهمْ * حتى دفعتُ إلى ربيبةَ هودجِ
فدنوتُ مختفياً ألمّ ببيتها * حتى ولجتُ إلى خفىِ المولجِ
قالتْ وعيشُ أخى ونعمةُ والدى * لأنبهنَ الحىَ إنْ لم تخرجِ
فتناولتْ رأسى لتعرفَ مسهُ * بمخضبِ الاطرافِ غيرِ مشنجِ
فخرجتُ خيفةَ أهلها فتبسمتْ * فعلمتُ أنْ يمينها لم تحرجِ
فلثمتُ فاها آخذاً بقرونها * فرشفتُ ريقاً بارداً متثلجِ

قال كثير عزة : لقينى جميل بثينة فقال : من أين أقبلت ؟ فقلت : من عند هذه الحبيبة ، فقال و إلى أين ؟ فقلت : و إلى هذه الحبيبة ـ يعنى عزة ـ فقال : أقسمت عليك لما رجعت إلى بثينة فواعدتها لى فان لى من أول الصيف ما رأيتها ، وكان آخر عهدى بها بوادى القرى ، وهى تغسل هى

وأمها ثوباً فتحادثنا إلى الغروب ، قال كثير : فرجعت حتى أنخت بهم . فقال أبو بثينة : ما ردك يا ابن أخي ؟ فقلت : أبيات قلتها فرجعت لأعرضها عليك . فقال : وما هي ؟ فأنشدته و بثينة تسمع من وراء الحجاب : ـــ

فقلتُ لها يا عزُّ أرسلَ صاحبي * إليكِ رسولاً والرسولُ موكلُ
بأنْ تجعلي بيني و بينكِ موعداً * وأن تأمريني ما الذى فيهِ أفعلُ
وآخرُ عهدى منكِ يومَ لقيتنى * باسفلِ وادى الدومِ والثوبُ يغسلُ

فلما كان الليل أقبلت بثينة إلى المكان الذى واعدته إليه ، وجاء جميل وكنت معهم فما رأيت ليلة أعجب منها ولا أحسن منادمات ، وانفض ذلك المجلس وما أدرى أيهما أفهم لما فى ضمير صاحبه منه .

وذكر الزبير بن بكار عن عباس بن سهل الساعدى أنه دخل على جميل وهو يموت فقال له : ما تقول فى رجل لم يشرب الخمر قط ، ولم يزن قط ، ولم يسرق ولم يقتل النفس وهو يشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : أظنه قد نجا وأرجو له الجنة ، فمن هذا ؟ قال : أنا ، فقلت الله : ما أظنك سلمت وأنت تشبب بالنساء منذ عشرين سنة ، ببثينة . فقال : لا نالتنى شفاعة محمد (ص) ، و إنى لفى أول يوم من أيام الآخرة وآخر يوم من أيام الدنيا إن كنت وضعت يدى عليها بريبة ، قال : فما برحنا حتى مات . قلت : كانت وفاته بمصر لأنه كان قد قدم على عبد العزيز بن مروان فأكرمه وسأله عن حبه بثينة فقال : شديداً ، واستنشده من أشعاره ومدائحه فأنشده فوعده أن يجمع بينه و بينها ففاجئته المنية فى سنة ثنتين وثمانين رحمه الله آمين .

وقد ذكر الأصمعى عن رجل أن جميلا قال له : هل أنت مبلغ عنى رسالة إلى حى بثينة ولك ماعندى ؟ قال نعم ! قال : إذا أنامت فاركب ناقتى والبس حلتى هذه وأمره أن يقول أبياتا منها قوله

قومِي بُثَيْنَةُ فَانْدُبِي بِعَوِيلِ * وابكِي خَليلاً دونَ كلِّ خَليلِ

فلما انتهى إلى حيهم أنشد الأبيات فخرجت بثينة كأنها بدرسرى فى جنة وهى تتثنى فى مرطها فقالت له : ويحك إن كنت صادقا فقد قتلتنى ، و إن كنت كاذبا فقد فضحتنى . فقلت : بلى والله صادق وهذه حلته وناقته ، فلما تحققت ذلك أنشدت أبياتاً ترثيه بها وتتأسف عليه فيها ، وأنه لايطيب لها العيش بعده ، ولاخير لها فى الحياة بعد فقده ، ثم ماتت من ساعتها : قال الرجل : فما رأيت أكثر باكيا ولا باكية من يومئذ .

وروى ابن عساكر عنه أنه قيل له بدمشق : لو تركت الشعر وحفظت القرآن ؟ فقال : هذا أنس بن مالك يخبرنى عن رسول الله (ص) أنه قال : « إن من الشعر لحكمة »

عمر بن عبيد الله

ابن معمر بن عثمان أبو حفص القرشي التميمي أحد الأجواد والأمراء الأمجاد ، فتحت على يديه بلدان كثيرة ، وكان نائبا لابن الزبير على البصرة ،وقد فتح كابل مع عبد الله بن خازم ، وهو الذى قتل قطرى بن الفجاءة ، روى عن ابن عمر وجابر وغيرهما ، وعن عطاء بن أبى رباح ، وابن عون ، ووفد على عبد الملك فتوفى بدمشق سنة ثنتين وثمانين . قاله المدائنى . وحكى أن رجلا اشترى جارية كانت تحسن القرآن والشعر وغيره فأحبها حبا شديداً وأنفق عليها ماله كله حتى أفلس ولم يبق له شئ سوى هذه الجارية ، فقالت له الجارية : قد أرى مابك من قلة الشئ . فلو بعتنى وانتفعت بثمنى صلح حالك ،فباعها لعمر بن عبيد الله هذا ــ وهو يومئذ أمير البصرة ــ بمائة ألف درهم ، فلما قبض المال ندم وندمت الجارية ، فأشارت تخاطب سيدها بأبيات شعر وهى : ــ

هنيئاً لكَ المالُ الذى قدْ أخذتهُ * ولم يبقَ فى كفىَّ الا تفكُّرى

أقولُ لنفسى وهىَ فى كربِ عيشةٍ * أقلى فقدْ بانَ الخليطُ اوا كثرى

إذا لمْ يكنْ فى الأمرِ عندكِ حيلةٌ * ولمْ تجدى بداً مِنَ الصبرِ فاصبرى

فأجابها سيدها فقال : ــ

ولولا قعودَ الدهرِ بى عنكِ لم يكنْ * لفرقتنا شئٌ سوى الموتِ فاصبرى

أأوبُ بحزنٍ من فراقكِ موجعٍ * أناجى بهِ قلباً طويلَ التذكرِ

عليكِ سلامٌ لا زيارةَ بيننا * ولا وصلَ الآ أنْ يشاءَ ابنُ معمرِ

فلما سمعهما ابن معمر قد شببت قال : والله لا فرقت بين محبين أبدا ، ثم أعطاه المال ــ وهو مائة ألف ــ والجارية لما رأى من توجعهما على فراق كل منهما صاحبه ، فأخذ الرجل الجارية وثمنها وانطلق . توفى عمر بن عبيد الله بن معمر هذا بدمشق بالطاعون ، وصلى عليه عبد الملك بن مروان، ومشى فى جنازته وحضر دفنه وأثنى عليه بعد موته ، وكان له من الولد طلحة وهو من سادات قريش تزوج فاطمة بنت القاسم بن محمد بن جعفر على صداق أربعين ألف دينار ، فأولدها إبراهيم ورملة ، فتزوج رملة إسماعيل بن على بن عبد الله بن عباس على صداق مائة ألف دينار رحمهم الله .

كمَيْل بن زياد

ابن نهيك بن خيثم النخعى الكوفى . روى عن عمر وعثمان وعلى وابن مسعود وأبى هريرة ، وشهد مع على صفين ، وكان شجاعاً فاتكا ، وزاهدا عابدا ، قتله الحجاج فى هذه السنة ، وقد عاش مائة سنة قتله صبراً بين يديه ، وإنما نقم عليه لأنه طلب من عثمان بن عفان القصاص من لطمة لطمها إياه . فلما أمكنه عثمان من نفسه عفا عنه ، فقال له الحجاج : أو مثلك يسأل من أمير المؤمنين القصاص؟

ثم أمر فضربت عنقه ، قالوا:وذكر الحجاج عليا فى غبون ذلك فنال منه وصلى عليه كميل ، فقال له الحجاج : والله لأبعثن إليك من يبغض عليا أكثر مما تحبه أنت ، فأرسل إليه ابن أدهم ، وكان من أهل حمص ، ويقال أبا الجهم بن كنانة فضرب عنقه ، وقد روى عن كميل جماعة كثيرة من التابعين وله الأثر المشهور عن على بن أبى طالب الذى أوله «القلوب أوعية فخيرها أوعاها » وهو طويل قد رواه جماعة من الحفاظ الثقات وفيه مواعظ وكلام حسن رضى الله عن قائله .

ذاذان ابو عمرو الكندي

أحد التابعين كان أولا يشرب المسكر ويضرب بالطنبور ، فرزقه الله التوبة على يد عبد الله ابن مسعود وحصلت له إنابة ورجوع إلى الحق ، وخشية شديدة ، حتى كان فى الصلاة كأنه خشبة .

قال خليفة : وفيها توفى زر بن حبيش أحد أصحاب ابن مسعود وعائشة ، وقد أتت عليه مائة وعشرون سنة . وقال أبو عبيد : مات سنة إحدى وثمانين ، وقد تقدمت له ترجمة (شقيق بن سلمة) أبو وائل ، أدرك من زمن الجاهلية سبع سنين ، وأسلم فى حياة النبى ﷺ

ام الدرداء الصغري

اسمها هجيمة ويقال جهيمة تابعية عابدة عالمة فقيهة كان الرجال يقرؤن عليها ويتفقهون فى الحائط الشمالى بجامع دمشق ، وكان عبد الملك بن مروان يجلس فى حلقتها مع المتفقهة يشتغل عليها وهو خليفة ، رضى الله عنها .

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين

استهلت هذه السنة والناس متواقفون لقتال الحجاج وأصحابه بدير قرة ، وابن الأشعث وأصحابه بدير الجماجم ، والمبارزة فى كل يوم بينهم واقعة ، وفى غالب الأيام تكون النصرة لأهل العراق على أهل الشام ، حتى قيل إن أصحاب ابن الأشعث وهم أهل العراق كسروا أهل الشام وهم أصحاب الحجاج بضعا وثمانين مرة ينتصرون عليهم ، ومع هذا فالحجاج ثابت فى مكانه صابر ومصابر لا يتزحزح عن موضعه الذى هو فيه ، بل إذا حصل له ظفر فى يوم من الأيام يتقدم بجيشه إلى نحو عدوه ، وكان له خبرة بالحرب ، ومازال ذلك دأبه ودأبهم حتى أمر بالحملة على كتيبة القراء ، لأن الناس كانوا تبعاً لهم ، وهم الذين يحرضونهم على القتال والناس يقتدون بهم ، فصبر القراء لحملة جيشه ، ثم جمع الرماة من جيشه وحمل بهم ، وما انفك حتى قتل منهم خلقا كثيراً ، ثم حمل على ابن الأشعث وعلى من معه من الجيش فانهزم أصحاب ابن الأشعث وذهبوا فى كل وجه ، وهرب ابن الأشعث بين أيديهم ومعه فل قليل من الناس ، فأتبعه الحجاج جيشا كثيفاً مع عمارة بن غنم اللخمى ومعه محمد بن الحجاج والامرة لعمارة ، فساقوا وراءهم يطردونهم لعلهم يظفرون به قتلا أو أسراً ، فما زال يسوق ويخترق الأقاليم

والكور والرساتيق ، وهم فى أثره حتى وصل إلى كرمان ، واتبعه الشاميون فنزلوا فى قصر كان فيه أهل العراق قبلهم ، فاذا فيه كتاب قد كتبه بعض أهل الكوفة من أصحاب ابن الأشعث الذين فروا معه من شعر أبى خلدة اليشكرى يقول :

أيا لهفاً ويا حزناً جميعاً * ويا حرّ الفؤاد لما لقينا
تركنا الدينَ والدنيا جميعاً * وأسلمنا الحلائلَ والبَنينا
فما كنا أناساً أهلَ دنيا * فنمنعها ولو لم نرجُ دِينا
تركنا دُوْرَنا لطغام علكٍ * وأنباطِ القُرى والأشْعَرينا

ثم إن ابن الأشعث دخل هو ومن معه من الفل إلى بلاد رتبيل ملك الترك ، فأكرمه رتبيل وأنزله عنده وأمنه وعظمه

قال الواقدى : ومر ابن الأشعث وهو ذاهب إلى بلاد رتبيل على عامل له فى بعض المدن كان ابن الأشعث قد استعمله على ذلك عند رجوعه إلى العراق ، فأكرمه ذلك العامل وأهدى إليه هدايا وأنزله ، فعل ذلك خديعة به ومكرا ، وقال له : ادخل إلى عندى إلى البلد لتتحصن بها من عدوك ولكن لا تدع أحداً ممن معك يدخل المدينة ، فأجابه إلى ذلك ، وإنما أراد المكر به ، فمنعه أصحابه فلم يقبل منهم ، فتفرق عنه أصحابه ، فلما دخل المدينة وثب عليه العامل فمسكه وأوثقه بالحديد وأراد أن يتخذ به يداً عند الحجاج ، وقد كان الملك رتبيل سر بقدوم ابن الأشعث ، فلما بلغه ما حدث له من جهة ذلك العامل بمدينة بست ، سار حتى أحاط ببست ، وأرسل إلى عاملها يقول له : والله لئن آذيت ابن الأشعث لا أبرح حتى أستنزلك وأقتل جميع من فى بلدك ، فخافه ذلك العامل وسير إليه ابن الأشعث فأكرمه رتبيل ، فقال ابن الأشعث لرتبيل : إن هذا العامل كان عاملى ومن جهتى ، فغدر بى وفعل مارأيت ، فأذن لى فى قتله ، فقال : قد أمنته . وكان مع ابن الأشعث عبد الرحمن بن عياش ابن أبى ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان هو الذى يصلى بالناس هنالك فى بلاد رتبيل ، ثم إن جماعة من الفل الذين هربوا من الحجاج اجتمعوا وساروا وراء ابن الأشعث ليدركوه فيكونوا معه ـ وهم قريب من ستين ألفا ـ فلما وصلوا إلى سجستان وجدوا ابن الأشعث قد دخل إلى عند رتبيل فتغلبوا على سجستان وعذبوا عاملها عبد الله بن عامر النعار وإخوته وقرابته ، واستحوذوا على مافيها من الأموال ، وانتشروا فى تلك البلاد وأخذوها ، ثم كتبوا إلى ابن الأشعث :أن اخرج إلينا حتى نكون معك ننصرك على من يخالفك ، ونأخذ بلاد خراسان ، فان بها جنداً ومنعة كثيرة منا ، فنكون بها حتى يهلك الله الحجاج أو عبد الملك ، فنرى بعد ذلك رأينا. فخرج إليهم ابن الأشعث وسار بهم قليلا إلى نحو خراسان فاعتزله شرذمة من أهل العراق مع عبيد الله بن سمرة ، فقام فيهم ابن الأشعث

خطيباً فذكر غدرهم ونكولهم عن الحرب ، وقال : لا حاجة لى بكم ، وأنا ذاهب إلى صاحبى رتبيل فأكون عنده . ثم انصرف عنهم وتبعه طائفة منهم و بقى معظم الجيش . فلما انفصل عنهم ابن الأشعث بايعوا عبد الرحمن بن عياش بن أبى ربيعة الهاشمى ، وساروا معه إلى خراسان فخرج إليهم أميرها يزيد بن المهلب بن أبى صفرة ، فمنعهم من دخول بلاده ، وكتب إلى عبد الرحمن بن عياش يقول له : إن فى البلاد متسعا فاذهب إلى أرض ليس بها سلطان فانى أكره قتالك ، وإن كنت تريد مالا بعثت إليك . فقال له : إنا لم نجئ لقتال أحد ، وإنما جئنا نستريح ونريح خيلنا ثم نذهب وليست بنا حاجة إلى شئ مما عرضت . ثم أقبل عبد الرحمن على أخذ الخراج مما حوله من البلاد من كور خراسان ، فخرج إليه يزيد بن المهلب ومعه أخوه المفضل فى جيوش كثيفة ، فلما صادفوهم اقتتلوا غير كثير ثم انهزم أصحاب عبد الرحمن بن عياش ، وقتل يزيد منهم مقتلة كبيرة ، واحتاز مافى معسكره ، و بعث بالأسارى وفيهم محمد بن سعد بن أبى وقاص إلى الحجاج ، و يقال إن محمد بن سعد قال ليزيد بن المهلب : أسألك بدعوة أبى لأبيك لما أطلقتنى ، فأطلقه .

قال ابن جرير : ولهذا الكلام خبر فيه طول ، ولما قدمت الأسارى على الحجاج قتل أكثرهم وعفا عن بعضهم ، وقد كان الحجاج يوم ظهر على ابن الأشعث نادى مناديه فى الناس : من رجع فهو آمن ومن لحق بمسلم بن قتيبة بالرى فهو آمن ، فلحق بمسلم خلق كثير ممن كان مع ابن الأشعث فأمنهم الحجاج ، ومن لم يلحق به شرع الحجاج فى تتبعهم ، فقتل منهم خلقاً كثيراً حتى كان آخر من قتل منهم سعيد بن جبير على ماسيأتى بيانه

وكان الشعبى من جملة من صار إلى مسلم بن قتيبة فذكره الحجاج يوماً فقيل له . إنه سار إلى مسلم بن قتيبة ، فكتب إلى مسلم : أن ابعث لى بالشعبى قال الشعبى : فلما دخلت عليه سلمت عليه بالأمرة ثم قلت : أيها الأمير إن الناس قد أمرونى أن أعتذر إليك بغير مايعلم الله أنه الحق ، وايم الله لا أقول فى هذا المقام إلا الحق كائنا فى ذلك ما كان ، قد والله تمردنا عليك ، وخرجنا وجهدنا كل الجهد فما ألونا ، فما كنا بالأقوياء الفجرة ، ولا بالأتقياء البررة ، ولقد نصرك الله علينا وأظفرك بنا فان سطوت فبذنوبنا وماجرت إليك أيدينا ، و إن عفوت عنا فبحلمك ، و بعد فلك الحجة علينا . فقال الحجاج : أنت والله ياشعبى أحب إلى ممن يدخل علينا يقطر سيفه من دمائنا ثم يقول : مافعلت ولا شهدت ، قد أمنت عندنا ياشعبى . قال : فانصرفت فلما مشيت قليلا قال : هلم ياشعبى ، قال : فوجل لذلك قلبى ، ثم ذكرت قوله قد أمنت ياشعبى فاطمأنت نفسى ، فقال : كيف وجدت الناس بعدنا ياشعبى ؟ - قال : وكان لى مكرماً قبل الخروج عليه - فقلت : أصلح الله الأمير ، قد اكتحلت بعدك السهر ، واستوعرت السهل ، واستوخمت الجناب ، واستحلست الخوف ، واستحليت الهم ،

وفقدت صالح الاخوان ، ولم أجد من الأمير خلفا . قال انصرف ياشعبى ، فانصرفت . ذكر ذلك ابن جرير وغيره . ورواه أبو مخنف عن إسماعيل بن عبد الرحمن السدى عن الشعبى .

وروى البيهقى أنه سأله عن مسألة فى الفرائض وهى أم زوج وأخت وما كان يقوله فيها الصديق وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود ، وكان لكل منهم قول فيها ، فنقل ذلك كله الشعبى فى ساعة فاستحسن قول على وحكم بقول عثمان ، وأطلق الشعبى بسبب ذلك . وقيل إن الحجاج قتل خمسة آلاف أسير ممن سيرهم إليه يزيد بن المهلب كما تقدم ذلك ، ثم سار إلى الكوفة فدخلها فجعل لا يبايع أحداً من أهلها إلا قال : اشهد على نفسك أنك قد كفرت ، فاذا قال نعم بايعه ، وإن أبى قتله ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ممن أبى أن يشهد على نفسه بالكفر ، قال فأتى برجل فقال الحجاج : ما أظن هذا يشهد على نفسه بالكفر لصلاحه ودينه ـ وأراد الحجاج مخادعته ـ فقال : أخادعى أنت عن نفسى ؟ أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون وهامان ونمروذ . قال : فضحك الحجاج وخلى سبيله .

وذكر ابن جرير من طريق أبى مخنف أن أعشى همدان أتى به إلى الحجاج ـ وكان قد عمل قصيدة هجا فيها الحجاج وعبد الملك بن مروان ويمدح فيها ابن الأشعث وأصحابه ـ فاستنشده إياها فأنشده قصيدة طويلة دالية ، فيها مدح كثير لعبد الملك وأهل بيته ، فجعل أهل الشام يقولون : قد أحسن أيها الأمير ، فقال الحجاج : إنه لم يحسن ، إنما يقول هذا مصانعة ، ثم ألح عليه حتى أنشده قصيدته الأخرى ، فلما أنشدها غضب عند ذلك الحجاج وأمر به فضربت عنقه صبراً بين يديه . واسم الأعشى هذا عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث أبو المصبح الهمدانى الكوفى الشاعر ، أحد الفصحاء البلغاء المشهورين ، وقد كان له فضل وعبادة فى مبتداه ، ثم ترك ذلك وأقبل على الشعر فعرف به ، وقد وفد على النعمان بن بشير وهو أمير بحمص فامتدحه ، وكان محصوله فى رحلته إليه منه ومن جند حمص أربعين ألف دينار ، وكان زوج أخت الشعبى ، كما أن الشعبى كان زوج أخته أيضا ، وكان ممن خرج مع ابن الأشعث ، فقتله الحجاج كما ذكرنا رحمه الله .

وقد كان الحجاج وهو مواقف لابن الأشعث بعث كمينا يأتون جيش ابن الأشعث من ورائه ، ثم تواقف الحجاج وابن الأشعث وهرب الحجاج بمن معه وترك معسكره ، فجاء ابن الأشعث فاحتاز مافى المعسكر وبات فيه ، فجاءت السرية إليهم ليلا وقد وضعوا أسلحتهم فمالوا عليهم ميلة واحدة ، ورجع الحجاج بأصحابه فأحاطوا بهم فاقتتلوا قتالا شديدا ، وقتل من أصحاب ابن الأشعث خلق كثير وغرق خلق كثير منهم فى دجلة ودجيل ، وجاء الحجاج إلى معسكرهم فقتل من وجده فيه ، فقتل منهم نحواً من أربعة آلاف ، منهم جماعة من الرؤساء والأعيان ، واحتازوه بكماله ، وانطلق ابن الأشعث هاربا فى ثلاثمائة فركبوا دجيلا فى السفن وعقروا دوابهم وجازوا إلى البصرة ، ثم ساروا من هنالك

إلى بلاد الترك ، وكان فى دخوله بلاد رتبيل ما تقدم ، ثم شرع الحجاج فى تتبع أصحاب ابن الأشعث فجعل يقتلهم مثنى وفرادى ، حتى قيل إنه قتل منهم بين يديه صبراً مائة ألف وثلاثين ألفا ، قاله النضر ابن شميل عن هشام بن حسان ، منهم محمد بن سعد بن أبى وقاص ، وجماعات من السادات الأخيار ، والعلماء الأبرار ، حتى كان آخرهم سعيد بن جبير رحمهم الله و رضى عنهم كما سيأتى ذلك فى موضعه .

بناء واسط

قال ابن جرير : وفى هذه السنة بنى الحجاج واسط ، وكان سبب بنائه لها أنه رأى راهبا على أتان قد أجاز دجلة ، فلما مر بموضع واسط وقفت أتانه فبالت ، فنزل عنها وعمد إلى موضع بولها فاحتفره و رمى به فى دجلة ، فقال الحجاج : على به ، فأتى به فقال له : لم صنعت هذا ؟ قال : إنا نجد فى كتبنا أنه يبنى فى هذا الموضع مسجد يعبد الله فيه مادام فى الأرض أحد يوحده . فعند ذلك اختط الحجاج مدينة واسط فى ذلك المكان و بنى المسجد فى ذلك الموضع . وفيها كانت غزوة عطاء بن رافع صقلية . وممن توفى فيها من الأعيان :

عبد الرحمن بن جحيرة

الخولانى المصرى ، روى عن جماعة من الصحابة وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد جمع له بين القضاء والقصص و بيت المال ، وكان رزقه فى العام ألف دينار ، وكان لايدخر منها شيئا.

طارق بن شهاب

ابن عبد شمس الأحمسى ممن رأى النبى صلى الله عليه وسلم وغزا فى خلافة الصديق وعمر رضى الله عنهما بضعا وأربعين غزاة ، توفى بالمدينة هذه السنة

عبيدالله بن عدي

ابن الخيار أدرك النبى صلى الله عليه وسلم ، وحدث عن جماعة من الصحابة عبد الله بن قيس بن مخرمة ، كان قاضى المدينة . وكان من فقهاء قريش وعلمائهم وأبوه عدى ممن قتل يوم بدر كافراً

وتوفى بها فى هذه السنة مرثد بن عبد الله أبو الخير اليزنى . وفيها فقد جماعة من القراء والعلماء الذين كانوا مع الأشعث ، منهم من هرب ومنهم من قتل فى المعركة ، ومنهم من أسر فضرب الحجاج عنقه ، ومنهم من تتبعه الحجاج حتى قتله ، وقد سمى منهم خليفة بن خياط طائفة من الأعيان ؛ فمنهم مسلم بن يسار المزنى ، وأبو مرانة العجلى قتل ، وعقبة بن عبد الغفار قتل ، وعقبة بن وشاح قتل ، وعبد الله بن خالد الجهضمى قتل ، وأبو الجوزاء الربعى قتل ، والنضر بن أنس ، وعمران والد أبى حمزة الضبعى ، وأبو المنهال سيار بن سلامة الرياحى ، ومالك بن دينار ، ومرة بن ذباب الهدادى وأبو نجيد الجهضمى ، وأبو سبيبج الهنائى ، وسعيد بن أبى الحسن ، وأخوه الحسن البصرى قال أيوب :

قيل لابن الأشعث : إن أحببت أن يقتل الناس حولك كما قتلوا حول هودج عائشة يوم الجمل فأخرج الحسن معك ، فأخرجه . ومن أهل الكوفة سعيد بن جبير ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى ، وعبد الله بن شداد ، والشعبي ، وأبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود ، والمعرور بن سويد ، ومحمد بن سعد بن أبي وقاص ، وأبو البختري ، وطلحة بن مصرف ، وزبيد بن الحارث اليامیان ، وعطاء بن السائب . قال أيوب : فما منهم صرع مع ابن الأشعث إلا رغب عن مصرعه ، ولا نجا أحد منهم إلا حمد الله الذي سلمه . ومن أعيان من قتل الحجاج عمران بن عصام الضبعي ، والد أبي جمرة ، كان من علماء أهل البصرة ، وكان صالحا عابداً ، أتي به أسيراً إلى الحجاج فقال له : اشهد على نفسك بالكفر حتى أطلقك ، فقال : والله إني ما كفرت بالله منذ آمنت به ، فأمر به فضربت عنقه . عبد الرحمن بن أبي ليلى ، روى عن جماعة من الصحابة ، ولأبيه أبي ليلى صحبة . أخذ عبد الرحمن القرآن عن علي بن أبي طالب ، خرج مع ابن الأشعث فأتي به الحجاج فضرب عنقه بين يديه صبراً .

ثم دخلت سنة اربع وثمانين

قال الواقدي : فيها افتتح عبد الله بن عبد الملك المصيصة ، وفيها غزا محمد بن مروان ارمينية فقتل منهم خلقا وصرف كنائسهم وضياعهم وتسمى سنة الحريق ، وفيها استعمل الحجاج على فارس محمد ابن القاسم الثقفي ، وأمره بقتل الأكراد . وفيها ولى عبد الملك الأسكندرية عياض بن غنم التجيبي وعزل عنها عبد الملك بن أبي الكنود الذي كان قد وليها في العام الماضي . وفيها افتتح موسى بن نصير طائفة من بلاد المغرب من ذلك بلد أرومة ، وقتل من أهلها بشراً كثيراً جداً ، وأسر نحواً من خمسين ألفا . وفيها قتل الحجاج أيضاً جماعة من أصحاب ابن الأشعث ، منهم :

ايوب بن القرية

وكان فصيحاً بليغا واعظا ، قتله صبراً بين يديه ، ويقال إنه ندم على قتله . وهو أيوب بن زيد ابن قيس أبو سليمان الهلالي المعروف بابن القرية . وعبد الله بن الحارث بن نوفل . وسعد بن إياس الشيباني ، وأبو غنيما الخولاني . له صحبة ورواية ، سكن حمص وبها توفي وقد قارب المائة سنة . عبد الله ابن قتادة ، وغير هؤلاء جماعة منهم من قتلهم الحجاج ، ومنهم من توفي . أبو زرعة الجذامي الفلسطيني ، كان ذا منزلة عند أهل الشام ، فخاف منه معاوية ففهم منه ذلك أبو زرعة فقال يا أمير المؤمنين لا تهدم ركناً بنيته ، ولا تحزن صاحباً سررته ، ولا تشمت عدواً كبته ، فكف عنه معاوية .

وفيها توفي عتبة بن منذر السلمي صحابي جليل ، كان يعد في أهل الصفة . عمران بن حطان الخارجي ، كان أولا من أهل السنة والجماعة فتزوج امرأة من الخوارج حسنة جميلة جداً فأحبها . وكان هو دميم الشكل ، فأراد أن يردها إلى السنة فأبت فارتد معها إلى مذهبها . وقد كان من الشعراء

المفلقين ، وهو القائل فى قتل على وقاتله :

يا ضربةً مِنْ تقي ما أرادَ بها * إلا ليبلغَ مِنْ ذى العرشِ رضوانا
إنى لأذكرهُ يوماً فأحسَبهُ * أوفى البريةِ عندَ اللهِ ميزانا
أكرِمْ بقومٍ بطونُ الطَّيرِ قبرُهمُ * لمْ يَخْلِطوا دِينهمْ بغياً وعدوانا

وقد كان الثورى يتمثل بأبياته هذه فى الزهد فى الدنيا وهى قوله :ـ

أرى أشقياءَ الناسِ لا يسأمونها * على أنهمْ فيها عُراةٌ وجوّعُ
أراها وإنْ كانتْ تُحِبُّ فأنها * سَحابةُ صيْفٍ عنْ قليلٍ تقشّعُ
كركبٍ قضَوا حاجاتِهمْ وترحَّلوا * طريقُهمُ بادِي العلامةِ مَهْيَعُ

مات عمران بن حطان سنة أربع وثمانين . وقد رد عليه بعض العلماء فى أبياته المتقدمة فى قتل على رضى الله عنه بأبيات على قافيتها ووزنها :

بلْ ضربةٌ مِنْ شقيٍ ما أرادَ بها * إلا ليبلغَ مِنْ ذى العرشِ خسرانا
إنى لأذكرهُ يوماً فأحسبهُ * أشقى البريةِ عندَ اللهِ ميزانا

روح بن زنباع الجذامى

كان من أمراء الشام وكان عبد الملك يستشيره فى أموره .

وفيها كان مهلك عبد الرحمن بن الأشعث الكندى وقيل فى التى بعدها فالله أعلم . وذلك أن الحجاج كتب إلى رتبيل ملك الترك الذى لجأ إليه ابن الأشعث يقول له : والله الذى لا إله إلا هو لئن لم تبعث إلى بابن الأشعث لأبعثن إلى بلادك ألف ألف مقاتل ، ولأخربنها . فلما تحقق الوعيد من الحجاج استشار فى ذلك بعض الأمراء فأشار عليه بتسليم ابن الأشعث إليه قبل أن يخرب الحجاج دياره ويأخذ عامة أمصاره ، فأرسل إلى الحجاج يشترط عليه أن لا يقاتل عشر سنين ، وأن لا يؤدى فى كل سنة منها إلا مائة ألف من الخراج ، فأجابه الحجاج إلى ذلك ، وقيل إن الحجاج وعده أن يطلق له خراج أرضه سبع سنين ، فعند ذلك غدر رتبيل بابن الأشعث فقيل إنه أمر بضرب عنقه صبراً بين يديه ، وبعث برأسه إلى الحجاج ، وقيل : بل كان ابن الأشعث قد مرض مرضا شديداً فقتله وهو بآخر رمق ، والمشهور أنه قبض عليه وعلى ثلاثين من أقربائه فقيدهم فى الأصفاد وبعث بهم مع رسل الحجاج إليه ، فلما كانوا ببعض الطريق بمكان يقال له الرجح ، صعد ابن الأشعث وهو مقيد بالحديد إلى سطح قصر ومعه رجل موكل به لئلا يفر ، وألقى نفسه من ذلك القصر وسقط معه الموكل به فماتا جميعاً ، فعمد الرسول إلى رأس ابن الأشعث فاحتزه ، وقتل من معه من أصحاب ابن الأشعث وبعث برؤوسهم إلى الحجاج فأمر فطيف برأسه فى العراق ، ثم بعثه إلى عبد الملك فطيف

برأسه فى الشام ، ثم بعث به إلى أخيه عبد العزيز بمصر فطيف برأسه هنالك ، ثم دفنوا رأسه بمصر وجثته بالرجح ، وقد قال بعض الشعراء فى ذلك : ـ

هيهاتَ موضعُ جثةٍ من رأسها ❊ رأس بمصرَ وجثةٌ بالرجحِ

و إنما ذكر ابن جرير مقتل ابن الأشعث فى سنة خمس وثمانين فالله أعلم .

وعبد الرحمن هذا هو أبو محمد بن الأشعث بن قيس ، ومنهم من يقول عبد الرحمن بن قيس بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى الكوفى ، قد روى له أبو داود والنسائى عن أبيه عن جده عن ابن مسعود: حديث «إذا اختلف المتبايعان والسلعة قائمة فالقول ماقال البائع أو تشاركا». وعنه أبو العميس ويقال إن الحجاج قتله بعد التسعين سنة فالله أعلم . والعجب كل العجب من هؤلاء الذين بايعوه بالامارة وليس من قريش ، و إنما هو كندى من اليمن ، وقداجتمع الصحابة يوم السقيفةعلى أن الأمارة لاتكون إلا فى قريش ، واحتج عليهم الصديق بالحديث فى ذلك ؛ حتى ان الأنصار سألوا أن يكون منهم أمير مع أمير المهاجرين فأبى الصديق عليهم ذلك ، ثم مع هذا كله ضرب سعد بن عبادة الذى دعا إلى ذلك أولا ثم رجع عنه ، كما قررنا ذلك فيما تقدم . فكيف يعمدون إلى خليفة قد بويع له بالامارة على المسلمين من سنين فيعزلونه وهو من صلبية قريش ويبايعون لرجل كندى بيعة لم يتفق عليها أهل الحل والعقد ؟ ولهذا لما كانت هذه زلة وفلتة نشأ بسببها شر كبير هلك فيه خلق كثير فانا لله و إنا إليه راجعون

ايوب بن القرية

وهى أمه واسم أبيه يزيد بن قيس بن زرارة بن مسلم النمرى الهلالى ، كان أعرابياً أمياً ، وكان يضرب به المثل فى فصاحته و بيانه و بلاغته ، صحب الحجاج و وفد على عبد الملك ، ثم بعثه رسولا إلى ابن الأشعث فقال له ابن الأشعث : لئن لم تقم خطيباً فتخلع الحجاج لأضربن عنقك ، ففعل وأقام عنده ، فلما ظهر الحجاج استحضره وجرت له معه مقامات ومقالات فى الكلام ، ثم آخر الأمر ضرب عنقه وندم بعد ذلك على مافعل من ضرب عنقه ، ولكن ندم حيث لاينفعه الندم . كما قيل : وجادت بوصل حين لاينفع الوصل ❊ وقد ذكره ابن عساكر فى تاريخه وابن خلكان فى الوفيات وأطال ترجمته وذكر فيها أشياء حسنة ، قال : والقرية بكسر القاف وتشديد الياء وهى جدته واسمها جماعة بنت جشم قال ابن خلكان : ومن الناس من أنكر وجوده و وجود مجنون ليلى ، وابن أبى العقب صاحب الملحمة ، وهو يحيى بن عبد الله بن أبى العقب والله أعلم .

روح بن زنباع

ابن سلامة الجذامى أبو زرعة ويقال أبو زنباع الدمشقى داره بدمشق فى طرف البزوريين عند دار

ابن عقب صاحب الملحمة . وهو تابعى جليل ، روى عن أبيه ـ وكانت له صحبة ـ وتميم الدارى ، وعبادة بن الصامت ومعاوية وكعب الأحبار وغيرهم ، وعنه جماعة منهم عبادة بن نسى . كان روح عند عبد الملك كالوزير لايكاد يفارقه ، وكان مع أبيه مروان يوم مرج راهط ، وقد أمره يزيد بن معاوية على جند فلسطين ، وزعم مسلم بن الحجاج أن روح بن زنباع كانت له صحبة ، ولم يتابع مسلم على هذا القول ، والصحيح أنه تابعى وليس بصحابى ، ومن مآثره التى تفرد بها أنه كان كلما خرج من الحمام يعتق نسمة ، قال ابن زيد : مات سنة أربع وثمانين بالاردن ، وزعم بعضهم أنه بقى إلى أيام هشام بن عبد الملك ، وقد حج مرة فنزل على ماء بين مكة والمدينة فأمر فأصلحت له أطعمة مختلفة الألوان ، ثم وضعت بين يديه ، فبينما هو يأكل إذ جاء راع من الرعاة يرد الماء ، فدعاه روح بن زنباع إلى الأكل من ذلك الطعام ، فجاء الراعى فنظر إلى طعامه وقال : إنى صائم ، فقال له روح : فى مثل هذا اليوم الطويل الشديد الحر تصوم ياراعى ؟ فقال الراعى : أفأغبن أيامى من أجل طعامك ؟ ثم إن الراعى ارتاد لنفسه مكاناً فنزله وترك روح بن زنباع ، فقال روح بن زنباع : ـ

لقد ضننتَ بأيامكَ ياراعى * إذ جادَ بها روحُ بن زنباعِ

ثم إن روحا بكى طويلا وأمر بتلك الأطعمة فرفعت ، وقال : انظروا هل تجدون لها آكلا من هذه الأعراب أو الرعاة ؟ ثم سار من ذلك المكان وقد أخذ الراعى بمجامع قلبه وصغرت إليه نفسه والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة خمس وثمانين

فيها كما ذكر ابن جرير كان مقتل عبد الرحمن بن الأشعث فالله أعلم ، وفيها عزل الحجاج عن إمرة خراسان يزيد بن المهلب وولى عليها أخاه المفضل بن المهلب ، وكان سبب ذلك أن الحجاج وفد مرة على عبد الملك فلما انصرف مر بدير فقيل له إن فيه شيخاً كبيراً من أهل الكتاب عالماً ، فدعى فقال : ياشيخ هل تجدون فى كتبكم ما أنتم فيه وما نحن فيه ؟ قال : نعم . قال له فما تجدون صفة أمير المؤمنين ؟ قال : نجده ملكا أقرع ، من يقم فى سبيله يصرع ، قال : ثم من ؟ قال : ثم رجل يقال له الوليد ، قال : ثم ماذا ؟ قال ثم رجل اسمه اسم نبى يفتح به على الناس ، قال : فتعرفنى له قال : قد أخبرت بك . قال : أفتعرف مالى ؟ قال : نعم ! قال : فمن يلى العراق بعدى ؟ قال رجل يقال له يزيد ، قال أفى حياتى أو بعد موتى ؟ قال لا أدرى ، قال : أفتعرف صفته ؟ قال يغدر غدرة لاأعرف غيرها قال : فوقع فى نفس الحجاج أنه يزيد بن المهلب ، وسار سبعا وهو وجل من كلام الشيخ ، ثم بعث إلى عبد الملك يستعفيه من ولاية العراق ليعلم مكانته عنده ؟ فجاء الكتاب بالتقريع والتأنيب والتوبيخ والأمر بالثبات والاستمرار على ماهو عليه . ثم إن الحجاج جلس يوماً مفكراً واستدعى

بعبيد بن موهب فدخل عليه وهو ينكت فى الأرض فرفع رأسه إليه فقال : ويحك ياعبيد ، إن أهل الكتاب يذكرون أن ماتحت يدى سيليه رجل يقال له يزيد ، وقد تذكرت يزيد بن أبى كبشة ويزيد ابن حصين بن نمير ويزيد بن دينار وليسوا هناك ، وماهو إلا يزيد بن المهلب . فقال عبيد : لقد شرفتهم وعظمت ولايتهم وإن لهم لقدراً وجلداً وحظاً فأخلق به . فأجمع رأى الحجاج على عزل يزيد ابن المهلب ، فكتب إلى عبد الملك يذمه ويخوفه غدره ويخبره بما أخبره به ذلك الشيخ الكتابى ، فجاء البريد بكتاب فيه قد أكثرت فى شأن يزيد فسم رجلا يصلح لخراسان ، فوقع اختيار الحجاج على المفضل بن المهلب فولاه قليلا تسعة أشهر ، فغزا بلاد عبس وغيرها وغنم مغانم كثيرة ، وامتدحه الشعراء ثم عزله بقتيبة بن مسلم .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة قتل موسى بن عبد الله بن خازم بترمذ ، ثم ذكر سبب ذلك وملخصه أنه بعد مقتل أبيه لم يبق بيده بلد يلجأ إليه بمن معه من أصحابه ، فجعل كلما اقترب من بلدة خرج إليه ملكها فقاتله ، فلم يزل ذلك دأبه حتى نزل قريبا من ترمذ وكان ملكها فيه ضعف ، فجعل يهادنه ويبعث إليه بالالطاف والتحف ، حتى جعل يتصيد هو وهو ، ثم عن للملك فعمل له طعاماً وبعث إلى موسى بن عبد الله بن خازم أن ائتنى فى مائة من أصحابك ، فاختار موسى من جيشه مائة من شجعانهم ، ثم دخل البلد فلما فرغت الضيافة اضطجع موسى فى دار الملك وقال : والله لا أقوم من هنا حتى يكون هذا المنزل منزلى أو يكون قبرى : فثار أهل القصر إليه فحاجف عنه أصحابه ، ثم وقعت الحرب بينهم وبين أهل ترمذ ، فاقتتلوا فقتل من أهل ترمذ خلق كثير وهرب بقيتهم ، واستدعى موسى ببقية جيشه إليه واستحوذ موسى على البلد فحصنها ومنعها من الأعداء ، وخرج منها ملكها هارباً فلجأ إلى إخوانه من الأتراك فاستنصرهم فقالوا له : هؤلاء قوم نحو من مائة رجل أخرجوك من بلدك ، لا طاقة لنا بقتال هؤلاء . ثم ذهب ملك ترمذ إلى طائفة أخرى من الترك فاستصرخهم فبعثوا معه قصاداً نحو موسى ليسمعوا كلامه ، فلما أحس بقدومهم - وكان ذلك فى شدة الحر - أمر أصحابه أن يؤججوا ناراً ويلبسوا ثياب الشتاء ويدنوا أيديهم من النار كأنهم يصطلون بها ، فلما وصلت إليهم الرسل رأوا أصحابه ومايصنعون فى شدة الحر فقالوا لهم : ماهذا الذى نراكم تفعلون ؟ فقالوا لهم : إنا نجد البرد فى الصيف والكرب فى الشتاء ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا : ما هؤلاء بشر ، ما هؤلاء إلا جن ثم عدوا إلى ملكهم فأخبروه بما رأوا فقالوا : لاطاقة لنا بقتال هؤلاء . ثم ذهب صاحب ترمذ فاستجلب بطائفة أخرى فجاؤا فحاصرهم بترمذ وجاء الخزاعى فحاصرهم أيضاً ، فجعل يقاتل الخزاعى أول النهار ويقاتل آخره العجم ، ثم إن موسى بيتهم فقتل منهم مقتلة عظيمة وأفزع ذلك عمر الخزاعى فصالحه وكان معه ، فدخل يوماً عليه وليس عنده أحد ، وليس يرى معه سلاحاً فقال له على وجه النصح

أصلح الله الأمير، إن مثلك لا ينبغى أن يكون بلا سلاح، فقال: إن عنـدى سلاحاً، ثم رفع صدر فراشـه فإذا سيفه منتضى فأخـذه عمر فضربه به حتى برد وخرج هارباً، ثم تفرق أصحاب موسى بن عبد الله بن خازم.

قال ابن جرير: وفى هذه السنة عزم عبد الملك على عزل أخيه عبد العزيز بن مروان عن إمرة الديار المصرية، وحسّن له ذلك روح بن زنباع الجذامى، فبينما هما فى ذلك إذ دخل عليهما قبيصة بن ذؤيب فى الليل، وكان لا يحجب عنـه فى أى ساعة جاء من ليل أو نهار، فعزاه فى أخيه عبد العزيز فندم على ما كان منه من العزم على عزله، وإنما حمله على إرادة عزله أنه أراد أن يعهد بالأمر من بعـده لأولاده الوليد ثم سليمان ثم يزيد ثم هشام، وذلك عن رأى الحجاج وترتيبه ذلك لعبد الملك، وكان أبوه مروان عهـد بالأمر إلى عبد الملك ثم من بعده إلى عبد العزيز، فأراد عبد الملك أن ينحيه عن الامرة من بعده بالكلية، ويجعل الأمر فى أولاده وعقبه، وأن تكون الخلافة باقية فيهم والله أعلم.

عبد العزيز بن مروان

هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس أبو الأصبغ القرشى الأموى ولد بالمدينة ثم دخل الشام مع أبيه مروان، وكان ولى عهده من بعد أخيه عبد الملك، وولاه أبوه إمرة الديار المصرية فى سنة خمس وستين فكان واليا عليها إلى هذه السنة، وشهد قتل سعيد بن عمرو بن العاص كما قدمنا، وكانت له دار بدمشق وهى دار الصوفية اليوم، المعروفة بالخانقاه السميساطية ثم كانت من بعـده لولده عمر بن عبد العزيز، ثم تنقلت إلى أن صارت خانقاها للصوفية. وقد روى عبـد العزيز بن مروان الحديث عن أبيه وعبد الله بن الزبير وعقبة بن عامر وأبى هريرة، وحديثه عنـه فى مسند أحمد وسنن أبى داود أن رسول الله (ص) قال: «شر ما فى الرجل جبن خالع وشح هالع». وعنه ابنه عمر والزهرى وعلى بن رباح وجماعة. قال محمد بن سعد: كان ثقة قليل الحديث، وقال غيره: كان يلحن فى الحديث وفى كلامه، ثم تعلم العربية فأتقنها وأحسنها فكان من أفصح الناس، وكان سبب ذلك أنه دخل عليـه رجل يشكو ختنه ـ وهو زوج ابنته ـ فقال له عبـد العزيز: من خَتَنَكَ؟ فقال الرجل: ختنى الخاتن الذى يختن الناس، فقال لكاتبه ويحك بماذا أجابنى؟ فقال الكاتب: يا أمير المؤمنين كان ينبغى أن تقول من خَتَنُك، فآلى على نفسه أن لا يخرج من منزله حتى يتعلم العربية، فمكث جمعة واحدة فتعلمها فخرج وهو من أفصح الناس، وكان بعـد ذلك يجزل عطاء من يعرب كلامه وينقص عطاء من يلحن فيه، فتسارع الناس فى زمانه إلى تعلم العربية. قال عبد العزيز يوماً إلى رجل: ممن أنت؟ قال: من بنو عبد الدار، فقال: تجدها فى جائزتك، فنقصت جائزته مائة دينار:

وقال أبو يعلى الموصلي : حدثنا مجاهد بن موسى ثنا إسحاق بن يوسف أنبأنا سفيان عن محمد بن عجلان عن القعقاع بن حكيم قال : كتب عبد العزيز بن مروان إلى عبد الله بن عمر : ارفع إلىّ حاجتك . فكتب إليه ابن عمر : إن رسول الله (ص) قال : « اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول » . ولست أسألك شيئاً ولا أرد رزقا رزقنيه الله عز وجل منك . وقال ابن وهب : حدثنى يحيى بن أيوب عن يزيد بن أبى حبيب عن سويد بن قيس قال : بعثنى عبد العزيز بن مروان بألف دينار إلى ابن عمر قال : فجئت فدفعت إليه الكتاب فقال : أين المال ؟ فقلت : لا أستطيعه الليلة حتى أصبح ، قال : لا والله لا يبيت ابن عمر الليلة وله ألف دينار ، قال : فدفع إلى الكتاب حتى جئته بها ففرقها رضى الله عنه .

ومن كلامه رحمه الله : عجبا لمؤمن يؤمن ويوقن أن الله يرزقه ويخلف عليه ، كيف يحبس مالا عن عظيم أجر وحسن ثناء . ولما حضرته الوفاة أحضر له مالٌ يحصيه وإذا هو ثلاثمائة مدٍّ من ذهب ، فقال : والله لوددت أنه بعر حائل بنجد ، وقال : والله لوددت أنى لم أكن شيئاً مذكوراً ، ولوددت أن أكون هذا الماء الجارى ، أو نباتة بأرض الحجاز ، وقال لهم : ائتونى بكفنى الذى تكفنونى فيه ، فجعل يقول : أف لك ما أقصر طويلك ، وأقل كثيرك .

قال يعقوب بن سفيان عن ابن بكير عن الليث بن سعد قال : كانت وفاته ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ست وثمانين ، قال ابن عساكر : وهذا وهم من يعقوب بن سفيان والصواب سنة خمس وثمانين ، فانه مات قبل عبد الملك أخيه ، ومات عبد الملك بعده بسنة سنة ست وثمانين . وقد كان عبد العزيز بن مروان من خيار الأمراء كريماً جواداً ممدحاً ، وهو والد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ، وقد اكتسى عمر أخلاق أبيه وزاد عليه بأمور كثيرة . وكان لعبد العزيز من الأولاد غير عمر ، عاصم وأبو بكر ومحمد والأصبغ ـ مات قبله بقليل فحزن عليه حزناً كثيراً ومرض بعده ومات . وسهيل وكان له عدة بنات ، أم محمد وسهيل وأم عثمان وأم الحكم وأم البنين وهن من أمهات شتى ، وله من الأولاد غير هؤلاء ، مات بالمدينة التى بناها على مرحلة من مصر وحمل إلى مصر فى النيل ودفن بها ، وقد ترك عبد العزيز من الأموال والأثاث والدواب من الخيل والبغال والابل وغير ذلك ما يعجز عنه الوصف ، من جملة ذلك ثلاثمائة مدٍّ من ذهب غير الورق ، مع جوده وكرمه وبذله وعطاياه الجزيلة ، فانه كان من أعطى الناس للجزيل رحمه الله تعالى .

وقد ذكر ابن جرير أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أخيه عبد العزيز وهو بالديار المصرية يسأله أن ينزل عن العهد الذى له من بعده لولده الوليد أو يكون ولى العهد من بعده ، فانه أعز الخلق علىّ . فكتب إليه عبد العزيز يقول : إنى أرى فى أبى بكر بن عبد العزيز ماترى فى الوليد . فكتب

إليه عبد الملك يأمره . بحمل خراج مصر ـ وقد كان عبد العزيز لايحمل إليه شيئاً من الخراج ولا غيره ، و إنما كانت بلاد مصر بكمالها وبلاد المغرب وغير ذلك كلها لعبد العزيز، مغانمها وخراجها وحملها ـ فكتب عبد العزيز إلى عبد الملك : إنى و إياك يا أمير المؤمنين قد بلغنا سناً لايبلغها أحد من أهل بيتك إلا كان بقاؤه قليلا ، و إنى لا أدرى ولا تدرى أينا يأتيه الموت أولا ، فان رأيت أن لاتعتب علىّ بقية عمرى فافعل ، فرق له عبد الملك وكتب إليه : لعمرى لاأعتب عليك بقية عمرك . وقال عبد الملك لابنه الوليد : إن يرد الله أن يعطيكها لايقدر أحد من العباد على رد ذلك عنك ، ثم قال لابنه الوليد وسليمان : هل قارفتما محرما أو حراماً قط ؟ فقالا : لا والله ، فقال : الله أكبر ، نلتماها ورب الكعبة . ويقال إن عبد الملك لما امتنع أخوه من إجابته إلى ماطلب منه فى بيعته لولده الوليد دعا عليه وقال : اللهم إنه قطعنى فاقطعه ، فمات فى هذه السنة كما ذكرنا ، فلما جاءه الخبر بموت أخيه عبد العزيز ليلا حزن و بكى و بكى أهله بكاء كثيراً على عبد العزيز ، ولكن سره ذلك من جهة ابنيه فانه نال فيهما ما كان يؤمله لهما من ولايته إياهما بعده . وقد كان الحجاج بعث إلى عبد الملك يحسن له ولاية الوليد ويزينها له من بعده ، وأوفد إليه وفداً فى ذلك عليهم عمران بن عصام العنزى ، فلما دخلوا عليه قام عمران خطيباً فتكلم وتكلم الوفد فى ذلك وحثوا عبد الملك على ذلك وأنشد عمران بن عصام فى ذلك :

أميرَ المؤمنينَ إليكَ نهدى * على النأى التحيةَ والسلاما
أجبنى فى بنيكَ يكن جوابى * لهمْ عاديّةً ولنا قواماً
فلو أنّ الوليدَ أطاعَ فيهِ * جعلت لهُ الخلافةَ والذماما
شبيهكَ حولَ قبتهِ قريشٌ * بهِ يستمطرُ الناسُ الغماما
ومثلكَ فى التقى لم يصبُ يوماً * لَدُنْ خلعَ القلائدَ والتماما
فانْ تؤثر أخاكَ بها فانا * وجدِّكَ لا نطيقُ لها اتهاما
ولكنا نحاذرُ منْ بنيهِ * بنى العلاتِ مأثرةً سماما
ونخشى إن جعلتَ الملكَ فيهمْ * سحاباً أنْ تعودَ لهمْ جهاما
فلا يكُ ما حلبتَ غداً لقومٍ * و بعدَ غدٍ بنوكَ همُ العياما
فأقسمُ لو تخطّاني عصامٌ * بذلكَ ما عذرتُ بهِ عصاما
ولوْ أني حبوتُ أخاً بفضلٍ * أريدَ بهِ المقالةَ والمقاما
لعقّبَ فى بنىَّ على بنيهِ * كذلكَ أوْ لرمتُ لهُ مراما
فمنْ يكُ فى أقاربهِ صدوعٌ * فصدعُ الملكِ أبطؤهُ التئاما

قال : فهاجه ذلك على أن كتب لأخيه يستنزله عن الخلافة للوليد فأبى عليـه ، وقدر الله سبحانه موت عبد العزيز قبل موت عبد الملك بعام واحـد ، فتمكن حينئذ مما أراد من بيعة الوليد وسليمان والله سبحانه وتعالى أعلم .

بيعـة عبد الملك لولده الوليـد ثم من بعــده لولده سليمان

وكان ذلك فى هذه السنة بعد موت عبد العزيز بن مروان ، بويع له بدمشق ثم فى سائر الأقاليم ثم لسليمان من بعـده ، ثم لما انتهت البيعة إلى المدينـة امتنع سعيد بن المسيب أن يبايع فى حياة عبـد الملك لأحد ، فأمر به هشام بن إسماعيل نائب المدينة فضربه ستين سوطاً ، وألبسه ثياباً من شعر وأركبه جمـلا وطاف به فى المدينـة ، ثم أمر به فذهبوا به إلى ثنية ذباب ـ وهى الثنية التى كانوا يصلون عندها ويقيلون ـ فلما وصلوا إليها ردوه إلى المدينة فأودعوه السجن ، فقال لهم : والله لو أعلم أنكم لا تقتلوننى لم ألبس هـذا الثياب . ثم كتب هشام بن إسماعيل المخزومى إلى عبـد الملك يعلمه بمخالفة سعيد فى ذلك ، فكتب إليه يعنفه فى ذلك ويأمره باخراجه ويقول له : إن سعيداً كان أحق منك بصلة الرحم مما فعلت به ، وإنا لنعلم أن سعيداً ليس عنده شقاق ولا خلاف ، ويروى أنه قال له : ما ينبغى إلا أن يبايع ، فان لم يبايع ضربت عنقه أو خليت سبيله . وذكر الواقدى أن سعيداً لما جاءت بيعـة الوليـد امتنع من البيعة فضربه نائبها فى ذلك الوقت ـ وهو جابر بن الأسود بن عوف ـ ستين سوطاً أيضاً وسجنه فالله أعلم .

قال أبو مخنف وأبو معشر والواقدى : وحج بالناس فى هـذه السنة هشام بن إسماعيـل المخزومى نائب المدينة ، وكان على العراق والمشرق بكماله الحجاج ، قال شيخنا الحافظ الذهبي : وتوفى فى هذه السنة **أبان بن عثمان** بن عفان أمير المدينة ، كان من فقهاء المدينة العشرة ، قاله يحيى بن القطان . وقال محمـد بن سعد كان ثقة وكان به صمم ووضح كثير ، وأصابه الفالج قبل أن يموت . **عبدالله ابن عامر** بن ربيعة . عمرو بن حريث . عمرو بن سلمة . واثلة بن الأسقع . شـهد واثلة تبوك ثم شهد فتح دمشق ونزلها ، ومسجده بها عند حبس باب الصغير من القبلة . قلت : وقد احترق مسجده فى فتنة تمرلنك ولم يبق منه إلا رسومه ، وعلى بابه من الشرق قناة ماء. **خالد بن يزيد** بن معاوية ابن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية ، كان أعلم قريش بفنون العلم ، وله يد طولى فى الطب ، وكلام كثير فى الكيمياء ، وكان قد استفاد ذلك من راهب اسمه مريانش ، وكان خالد فصيحاً بليغاً شاعراً منطيقاً كأبيه ، دخل يوما على عبـد الملك بن مروان بحضرة الحكم بن أبى العاص ، فشكى إليه أن ابنه الوليد يحتقر أخاه عبـد الله بن يزيد ، فقال عبد الملك : [إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعـلوا أعزة أهلها أذلة] فقال له خالد : [وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق

عليها القول فدمرناها تدميراً] فقال عبد الملك : والله لقد دخل على أخوك عبد الله فاذا هو لايقيم اللحن ، فقال خالد : والوليد لايقيم اللحن ، فقال عبد الملك : إن أخاه سليمان لا يلحن ، فقال خالد : وأنا أخو عبد الله لا ألحن ، فقال الوليد ـ وكان حاضراً ـ لخالد بن يزيد : اسكت ، فوالله ما تعد فى العير ولا فى النفير ، فقال خالد : اسمع يا أمير المؤمنين ! ثم أقبل خالد على الوليد فقال : ويحك وما هو العير والنفير غير جدى أبى سفيان صاحب العير ، وجدى عتبة بن ربيعة صاحب النفير ، ولكن لو قلت غنيمات وجبيلات والطائف ، ورحم الله عثمان ، لقلنا صدقت ـ يعنى أن الحكم كان منفياً بالطائف يرعى غنما ويأوى إلى جبلة الكرم حتى آواه عثمان بن عفان حين ولى ـ فسكت الوليد وأبوه ولم يحيرا جوابا ، والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ست وثمانين

ففيها غزا قتيبة بن مسلم نائب الحجاج على مرو وخراسان ، بلاداً كثيرة من أرض الترك وغيرهم من الكفار ، وسبى وغنم وسلم وتسلم قلاعاً وحصونا وممالك ، ثم قفل فسبق الجيش ، فكتب إليه الحجاج يلومه على ذلك ويقول له : إذا كنت قاصداً بلاد العدو فكن فى مقدمة الجيش ، وإذا قفلت راجعاً فكن فى ساقة الجيش ـ يعنى لتكون ردءاً لهم من أن ينالهم أحد من العدو وغيرهم بكيد ـ وهذا رأى حسن وعليه جاءت السنة ، وكان فى السبى امرأة برمك ـ والد خالد بن برمك ـ فأعطاها قتيبة أخاه عبد الله بن مسلم فوطئها فحملت منه ، ثم إن قتيبة منّ على السبى وردت تلك المرأة على زوجها وهى حبلى من عبد الله بن مسلم ، وكان ولدها عندهم حتى أسلموا فقدموا به معهم أيام بنى العباس كما سيأتى . ولما رجع قتيبة إلى خراسان تلقاه دهاقين بلغار بهدايا عظمة ، ومفتاح من ذهب .

وفيها كان طاعون بالشام والبصرة وواسط ويسمى طاعون الفتيات ، لأنه أول ما بدأ بالنساء فسمى بذلك . وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم فقتل وسبى وغنم وسلم وافتتح حصن بولق وحصن الأخرم من أرض الروم ، وفيها عقد عبد الملك لابنه عبد الله على مصر وذلك بعد موت أخيه عبد العزيز فدخلها فى جمادى الآخرة ، وعمره يومئذ سبع وعشرون سنة . وفيها هلك ملك الروم الأخرم لورى لا رحمه الله . وفيها حبس الحجاج يزيد بن المهلب . وحج بالناس فيها هشام بن إسماعيل المخزومى . وفى هذه السنة توفى أبو أمامة الباهلى وعبد الله بن أبى أوفى ، وعبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدى فى قول ، شهد فتح مصر وسكنها وهو آخر من مات من الصحابة بمصر . وفيها فى شوالها توفى أمير المؤمنين .

عبد الملك بن مروان والد الخلفاء الأمويين

وهو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية أبو الوليد الأموى أمير المؤمنين ،

وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص بن أمية . سمع عثمان بن عفان ، وشهد الدار مع أبيه وهو ابن عشر سنين ، وهو أول من سار بالناس فى بلاد الروم سنة ثنتين وأربعين ، وكان أميراً على أهل المدينة ، وله ست عشرة سنة ، ولاه إياها معاوية ، وكان يجالس الفقهاء والعلماء والعباد والصلحاء وروى الحديث عن أبيه وجابر وأبى سعيد الخدرى وأبى هريرة وابن عمر ومعاوية وأم سلمة وبريرة مولاة عائشة . وروى عنه جماعة منهم خالد بن معدان وعروة والزهرى وعمرو بن الحارث ورجاء بن حيوة وجرير بن عثمان . ذكر عن محمد بن سيرين أن أباه كان قد سماه القاسم وكان يكنى بأبى القاسم ، ثم غير اسمه فسماه عبد الملك ، قال ابن أبى خيثمة عن مصعب بن الزبير : وكان أول من سمى فى الاسلام بعبد الملك ، قال ابن أبى خيثمة : وأول من سمى فى الاسلام بأحمد والد الخليل بن أحمد العروضى . وبويع له بالخلافة فى سنة خمس وستين فى حياة أبيه فى خلافة ابن الزبير ، وبقى على الشام ومصر مدة سبع سنين ، وابن الزبير على باقى البلاد ، ثم استقل بالخلافة على سائر البلاد والأقاليم بعد مقتل ابن الزبير ، وذلك فى سنة ثلاث وسبعين إلى هذه السنة كما ذكرنا ذلك ، وكان مولده ومولد يزيد بن معاوية فى سنة ست وعشرين ، وقد كان عبد الملك قبل الخلافة من العباد الزهاد الفقهاء الملازمين للمسجد التالين للقرآن ، وكان ربعة من الرجال أقرب إلى القصر . وكانت أسنانه مشبكة بالذهب ، وكان أفوه مفتوح الفم ، فربما غفل فينفتح فمه فيدخل فيه الذباب ، ولهذا كان يقال له أبو الذباب . وكان أبيض ربعة ليس بالنحيف ولا البادن ، مقرون الحاجبين أشهل كبير العينين دقيق الأنف مشرق الوجه أبيض الرأس واللحية حسن الوجه لم يخضب ، ويقال إنه خضب بعد . وقد قال نافع : لقد رأيت المدينة وما فيها شاب أشد تشميراً ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك ابن مروان ، وقال الأعمش عن أبى الزناد : كان فقهاء المدينة أربعة سعيد بن المسيب وعروة وقبيصة ابن ذويب وعبد الملك بن مروان قبل أن يدخل فى الامارة . وعن ابن عمر أنه قال : ولد الناس أبناء وولد مروان أباً ـ يعنى عبد الملك ـ ورآه يوماً وقد ذكر اختلاف الناس ، فقال : لو كان هذا الغلام اجتمع الناس عليه ، وقال عبد الملك : كنت أجالس بريدة بن الحصيب فقال لى يوماً : يا عبد الملك إن فيك خصالا ، وإنك لجدير أن تلى أمر هذه الأمة ، فاحذر الدماء فانى سمعت رسول الله (ص) يقول : « إن الرجل ليدفع عن باب الجنة بعد أن ينظر إليها على محجمة من دم يريقه من مسلم بغير حق » . وقد أثنى عليه قبل الولاية معاوية وعمرو بن العاص فى قصة طويلة ،

وقال سعيد بن داود الزبيرى عن مالك عن يحيى بن سعيد بن داود الزبيرى قال : كان أول من صلى ما بين الظهر والعصر عبد الملك بن مروان وفتيان معه ، فقال سعيد بن المسيب : ليست العبادة بكثرة الصلاة والصوم ، إنما العبادة التفكر فى أمر الله والورع عن محارم الله . وقال الشعبى :

ما جالست أحداً إلا وجدت لى الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان فأنى ما ذاكرته حديثاً إلا زادنى منه ، ولا شعرا إلا زادنى فيه . وذكر خليفة بن خياط أن معاوية كتب إلى مروان وهو نائبه على المدينة سنة خمسين أن ابعث ابنك عبد الملك على بعث المدينة إلى بلاد المغرب مع معاوية بن خديج ، فذكر من كفايته وغنائه ومجاهدته فى تلك البلاد شيئاً كثيراً . ولم يزل عبد الملك مقيما بالمدينة حتى كانت وقعة الحرة ، واستولى ابن الزبير على بلاد الحجاز ، وأجلى بنى أمية من هنالك ، فقدم مع أبيه الشام ، ثم لما صارت الامارة مع أبيه وبايعه أهل الشام كما تقدم أقام فى الامارة تسعة أشهر ثم عهد إليه بالامارة من بعده ، فاستقل عبد الملك بالخلافة فى مستهل رمضان أو ربيع الأول من سنة خمس وستين ، واجتمع الناس عليه بعد مقتل ابن الزبير سنة ثلاث وسبعين فى جمادى الأولى إلى هذه السنة .

وقال ثعلب عن ابن الأعرابى : لما سلم على عبد الملك بالخلافة كان فى حجره مصحف فأطبقه وقال : هذا فراق بينى وبينك . وقال أبو الطفيل : صنع لعبد الملك مجلس توسع فيه ، وقد كان بنى له فيه قبة قبل ذلك ، فدخله وقال : لقد كان حثمة الأحوازى ـ يعنى عمر بن الخطاب ـ يرى أن هذا عليه حرام ، وقيل إنه لما وضع المصحف من حجره قال : هذا آخر العهد منك . وكان عبد الملك له إقدام على سفك الدماء ، وكان حازما فهما فطنا سائساً لأمور الدنيا ، لا يكل أمر دنياه إلى غيره وأمه عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبى العاص ، وأبوها معاوية هو الذى جدع أنف حمزة عم النبى ص يوم أحد ، وقال سعيد بن عبد العزيز : لما خرج عبد الملك إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير خرج معه يزيد بن الأسود الجرشى ، فلما التقوا قال : اللهم احجز بين هذين الجبلين وول الأمر أحبهما إليك . فظفر عبد الملك ـ وقد كان مصعب من أعز الناس على عبد الملك ـ وقد ذكرنا كيفية قتله مصعباً . وقال سعيد بن عبد العزيز : لما بويع لعبد الملك بالخلافة كتب إليه عبد الله بن عمر بن الخطاب : بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله بن عمر إلى عبد الملك أمير المؤمنين ! سلام عليك فانى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فانك راع وكل راع مسئول عن رعيته [الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثا] لا أحد والسلام . وبعث به مع سلام فوجدوا عليه إذ قدم اسمه على اسم أمير المؤمنين ، ثم نظروا فى كتبه إلى معاوية فوجدوها كذلك ، فاحتملوا ذلك منه .

وقال الواقدى : حدثنى ابن أبى ميسرة عن أبى موسى الخياط عن أبى كعب قال : سمعت عبد الملك بن مروان يقول : يا أهل المدينة أنا أحق الناس أن يلزم الأمر الأول ، وقد سالت علينا أحاديث من قبل هذا المشرق ولا نعرفها ولا نعرف منها إلا قراءة القرآن ، فالزموا ما فى مصحفكم

الذى حملكم عليه الامام المظلوم ، وعليكم بالفرائض التى جمعكم عليها إمامكم المظلوم رحمه الله ، فانه قد استشار فى ذلك زيد بن ثابت ونعم المشير كان للاسلام رحمه الله ، فأحكما ما أحكما ، واستقصيا ما شذ عنهما . وقال ابن جريج عن أبيه : حج علينا عبد الملك سنة خمس وسبعين بعد مقتل ابن الزبير بعامين ، فخطبنا فقال : أما بعد فانه كان من قبلى من الخلفاء يأكلون من المال ويوكلون ، وإنى والله لا أداوى أدواء هذه الأمة إلا بالسيف ، ولست بالخليفة المستضعف - يعنى عثمان - ولا الخليفة المداهن - يعنى معاوية - ولا الخليفة المأبون - يعنى يزيد بن معاوية - أيها الناس إنا نحتمل منكم كل الغرمة مالم يكن عقد راية أو وثوب على منبر ، هذا عمرو بن سعيد حقه حقه ، قرابته وابنه ، قال برأسه هكذا فقلنا بسيفنا هكذا ، وإن الجامعة التى خلعها من عنقه عندى ، وقد أعطيت الله عهداً أن لا أضعها فى رأس أحد إلا أخرجها الصعداء ، فليبلغ الشاهد الغائب . وقال الأصمعى : ثنا عباد بن سلم بن عثمان بن زياد عن أبيه عن جده . قال : ركب عبد الملك بن مروان بكراً فأنشأ قائده يقول : -

يا أيها البكرُ الذى أراكا * عليكَ سهلُ الأرضِ فى ممشاكا

ويحكَ هلْ تعلمُ من علاكا * خليفةُ اللهِ الذى امتطاكا

* لم يحبُ بكراً مثلَ ما حباكا *

فلما سمعه عبد الملك قال : أيها ياهناه ، قد أمرت لك بعشرة آلاف . وقال الأصمعى : خطب عبد الملك فحصر فقال : إن اللسان بضعة من الانسان ، وإنا نسكت حصراً ولا ننطق هذراً ، ونحن أمراء الكلام ، فينا رسخت عروقه ، وعلينا تدلت أغصانه ، وبعد مقامنا هذا مقام ، وبعد عينا هذا مقال ، وبعد يومنا هذا أيام ، يعرف فيها فصل الخطاب وموضع الصواب . قال الأصمعى : قيل لعبد الملك أسرع إليك الشيب ، فقال : وكيف لا وأنا أعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين ؟ وقال غيره قيل لعبد الملك : أسرع إليك الشيب ، فقال : وتنسى ارتقاء المنبر ومخافة اللحن ؟ ولحن رجل عند عبد الملك - يعنى أسقط من كلامه الفاً - فقال له عبد الملك زد ألف ، فقال الرجل : وأنت فزد ألفاً ، وقال الزهرى : سمعت عبد الملك يقول فى خطبته : إن العلم سيقبض قبضاً سريعاً ، فمن كان عنده علم فليظهره غير غال فيه ولا جاف عنه ، وروى ابن أبى الدنيا أن عبد الملك كان يقول لمن يسايره فى سفره : إذا رفعت له شجرة ، سبحوا بنا حتى نأتى تلك الشجرة ، كبروا بنا حتى نأتى تلك الحجرة ، ونحو ذلك .

وروى البيهقى أن عبد الملك وقع منه فلس فى بئر قذرة فاكترى عليه بثلاثة عشر ديناراً حتى أخرجه منها ، فقيل له فى ذلك فقال : إنه كان عليه اسم الله عز وجل . وقال غير واحد : كان عبد الملك إذا جلس للقضاء بين الناس يقوم السيافون على رأسه بالسيف فينشد ، وقال بعضهم : يأمر من ينشد فيقول:

إنا إذا نالت دواعي الهوى * وأنصتَ السامعُ للقائلِ
واصطرعَ الناسُ بألبابهمْ * نقضى بحكم عادلٍ فاصلِ
لا نجعلُ الباطلَ حقاً ولا * نلفظُ دونَ الحقِ بالباطلِ
نخافُ أنْ تسفهَ أحلامنا * فنجهلَ الحقَ معَ الجاهلِ

وقال الأعمش : أخبرنى محمد بن الزبير أن أنس بن مالك كتب إلى عبد الملك يشكو الحجاج ويقول فى كتابه : لو أن رجلا خدم عيسى بن مريم أو رآه أو صحبه تعرفه النصارى أو تعرف مكانه لهاجرت إليه ملوكهم ، ولنزل من قلوبهم بالمنزلة العظيمة ، ولعرفوا له ذلك ، ولو أن رجلا خدم موسى أو رآه تعرفه اليهود لفعلوا به من الخير والمحبة وغير ذلك ما استطاعوا ، وإنى خادم رسول الله (ص.) وصاحبه ورأيته وأكلت معه ، ودخلت وخرجت وجاهدت معه أعداءه ، وإن الحجاج قد أضر بى وفعل وفعل ، قال : أخبرنى من شهد عبد الملك يقرأ الكتاب وهو يبكى وبلغ به الغضب ما شاء الله ، ثم كتب إلى الحجاج بكتاب غليظ ، فجاء إلى الحجاج فقرأه فتغير ثم قال إلى حامل الكتاب : انطلق بنا إليه نترضاه . وقال أبو بكر بن دريد : كتب عبد الملك إلى الحجاج فى أيام ابن الأشعث : إنك أعز ماتكون بالله أحوج ما تكون إليه ، وأذل ماتكون للمخلوق أحوج ماتكون إليهم ، وإذا عززت بالله فاعف له ، فانك به تعز وإليه ترجع . قال بعضهم : سأل رجل من عبد الملك أن يخلو به فأمر من عنده بالانصراف ، فلما خلا به وأراد الرجل أن يتكلم قال له عبد الملك : احذر فى كلامك ثلاثا ، إياك أن تمدحنى فانى أعلم بنفسى منك ، أو تكذبنى فانه لارأى لكذوب ، أو تسعى إلى بأحد من الرعية فانهم إلى عدلى وعفوى أقرب منهم إلى جورى وظلمى ، وإن شئت أقلتك . فقال الرجل : أقلنى فأقاله . وكذا كان يقول للرسول إذا قدم عليه من الآفاق : اعفنى من أربع وقل ما شئت ، لاتطرنى ، ولاتجبنى فيما لا أسألك عنه ، ولاتكذبنى ، ولاتحملنى على الرعية فانهم إلى رأفتى ومعدلتى أحوج . وقال الأصمعى عن أبيه قال : أتى عبد الملك برجل كان مع بعض من خرج عليه فقال : اضربوا عنقه ، فقال : يا أمير المؤمنين ما كان هذا جزائى منك ، فقال : وما جزاؤك ؟ فقال : والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر لك ، وذلك أنى رجل مشئوم ما كنت مع رجل قط إلا غلب وهزم ، وقد بان لك صحة ما ادعيت ، وكنت عليك خيراً من مائة ألف معك تنصحك ، لقد كنت مع فلان فكسر وهزم وتفرق جمعه ، وكنت مع فلان فقتل ، وكنت مع فلان فهزم ـ حتى عد جماعة من الأمراء ـ فضحك وخلى سبيله . وقيل لعبد الملك : أى الرجال أفضل ؟ قال : من تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة ، وترك النصرة عن قوة . وقال أيضاً لا طمأنينة قبل الخبرة ، فان الطمأنينة قبل الخبرة ضد الحزم . وقال : خير المال ما أفاد حمداً ودفع ذما ، ولا يقولن أحدكم ابدأ بمن تعول ، فان

الخلق كلهم عيال الله ، وينبغى أن يحمل هـذا على غـير ما ثبت به الحديث . وقال المدائنى : قال عبـد الملك لمؤدب أولاده ـ وهو إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر ـ : علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن ، وجنبهم السفلة فانهم أسوأ الناس رغبة فى الخير وأقلهـم أدبا ، وجنبهـم الحشم فانهم لهـم مفسدة ، واحف شعورهم تغلظ رقابهم ، وأطعـمهم اللحم يقووا ، وعلمهم الشعر يمجدوا وينجدوا ، ومرهم أن يستاكوا عرضا ، ويمصوا الماء مصا ، ولا يعبوا عبا ، وإذا احتجت أن تتناولهم فتناولهم بأدب فليكن ذلك فى سر لا يعلم بهم أحد من الغاشية فيهونوا عليهم .

وقال الهيثم بن عدى : أذن عبد الملك للناس فى الدخول عليه إذناً خاصاً ، فدخل شيخ رث الهيئة لم يأبه له الحرس ، فألقى بين يدى عبد الملك صحيفة وخرج فلم يدر أين ذهب ، وإذا فيها : بسم الله الرحمن الرحيم ، يا أيها الانسان إن الله قد جعلك بينه وبين عباده فاحكم بينهم [بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عـذاب شـديد بما نسوا يوم الحساب] [ألا يظن أولئك أنهـم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين][ذلك يومٌ مجموع له الناس وذلك يوم مشـهود] [وما نؤخره إلا لأجل معدود] إن اليوم الذى أنت فيه لو بقى لغيرك ما وصل إليك ، [فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا] وإنى أحذرك يوم ينادى المنادى [احشروا الذين ظلموا وأزواجهم] [ألا لعنة الله على الظالمين] قال فتغير وجه عبد الملك فدخل دار حرمه ولم تزل الـكآبة فى وجهه بعد ذلك أياماً . وكتب زر بن حبيش إلى عبـد الملك كتابا وفى آخره : ولا يطمعك يا أمير المؤمنين فى طول البقاء مايظهر لك فى صحتك فأنت أعـلم بنفسك واذكر ماتكلم به الأولون

إذا الرجالُ ولدتْ أولادها * وَبَلِيتْ من كِبَرٍ أجسادُها
وجعلتْ أسقامُها تعتادُها * تلكَ زروعٌ قد دَنا حَصادُها

فلما قرأه عبد الملك بكى حتى بل طرف ثوبه ، ثم قال : صدق زر ، ولو كتب إلينا بغير هـذا كان أرفق . وسمع عبد الملك جماعة من أصحابه يذكرون سيرة عمر بن الخطاب فقال : أنهى عن ذكر عمر فانه مرارة للامراء مفسدة للرعية . وقال إبراهيم بن هشام بن يحيى القبانى عن أبيه عن جده قال: كان عبد الملك يجلس فى حلقة أم الدرداء فى مؤخر المسجد بدمشق ، فقالت له : بلغنى أنك شربت الطلا بعد العبادة والنسك ، فقال : إى والله ، والدما أيضا قد شربتها . ثم جاءه غلام كان قد بعثه فى حاجة فقال : ماحبسك لعنك الله ؟ فقالت أم الدرداء :لاتفعل ياأمير المؤمنين فانى سمعت أبا الدرداء يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لايدخل الجنـة لعان » . وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : ثنا الحسين بن عبـد الرحمن قال قيل لسعيد بن المسيب : إن عبـد الملك بن مروان قال قـد صرت لا أفرح بالحسـنة أعملها ، ولا أحزن على السيئة أرتكبها ، فقال سعيد : الآن تكامل موت قلبه .

وقال الأصمعي عن أبيه عن جده قال خطب عبد الملك يوماً خطبة بليغة ثم قطعها و بكى بكاء شديداً ثم قال : يارب إن ذنوبي عظيمة ، و إن قليل عفوك أعظم منها ، اللهم فامح بقليل عفوك عظيم ذنوبي . قال : فبلغ ذلك الحسن فبكى وقال : لو كان كلام يكتب بالذهب لـكتب هذا الـكلام ، وقد روى عن غير واحد نحو ذلك ، أي أنه لما بلغه هذا الـكلام قال مثل ما قال الحسن . وقال مسهر الدمشقي : وضع سماط عبد الملك يوماً بين يديه فقال لحاجبه : ائذن لخالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، فقال : مات يا أمير المؤمنين ، قال : فلأبيه عبد الله بن خالد بن أسيد ، قال : مات ، قال : فلخالد بن يزيد ابن معاوية ، قال : مات ، قال فلفلان وفلان ـ حتى عـد أقواماً قد ماتوا وهو يعلم فهلك قبلنا ـ فأمر برفع السماط وأنشأ يقول :

ذَهَبَتْ لداتي وانقضَتْ أيامُهمْ * وغبرتُ بعدَهمُ ولستَ بخالدِ

وقيل : إنه لما احتضر دخل عليه ابنه الوليد فبكى فقال له عبـد الملك : ماهـذا ؟ أتحن حنين الجارية والأمة ؟ إذا أنا مت فشمر واتزر والبس جلد النمر ، وضع الأمور عند أقرانها ، واحذر قريشا. ثم قال له : يا وليد اتق الله فيما أستخلفك فيـه ، واحفظ وصيتي ، وانظر إلى أخي معاوية فصل رحمه واحفظني فيه ، وانظر إلى أخي محمد فأمره على الجزيرة ولا تعزله عنها ، وانظر إلى ابن عمنا عـلي بن عباس فانه قـد انقطع إلينا بمودّته ونصيحته وله نسب وحق فصل رحمـه واعرف حقه ، وانظر إلى الحجاج بن يوسف فأكرمه فانه هو الذي مهـد لك البلاد وقهر الأعـداء وخلص لـكم الملك وشتت الخوارج ، وأنهاك و إخوتك عن الفرقة وكونوا أولاد أم واحدة، وكونوا في الحرب أحراراً ، وللمعروف مناراً ، فإن الحرب لم تدن منية قبـل وقتها ، و إن المعروف يشيد ذكر صاحبه و يميل القلوب بالمحبة ، و يذلل الألسنة بالذكر الجميل ، ولله در القائل :

إنَّ الأمورَ إذا اجتمعنَ فرامَها * بالـكسرِ ذو حَنَقٍ و بطش مفندِ
عزّتْ فلم تكسرْ و إنْ هي بُدِّدتْ * فالـكسرُ والتوهينُ للمتبدِّدِ

ثم قال : إذا أنا مت فادع الناس إلى بيعتك فمن أبى فالسيف ، وعليك بالاحسان إلى أخواتك فأكرمهن وأحبهن إلى فاطمة ـ وكان قد أعطاها قرطي مارية والدرة اليتيمة ـ ثم قال : اللهـم احفظني فيها . فتزوجها عمر بن عبد العزيز وهو ابن عمها .

ولما احتضر سمع غسـالا يغسل الثياب فقال : ماهذا ؟ فقالوا غسال ، فقال : ياليتني كنت غسالا أكسب ما أعيش به يوماً بيوم ، ولم أل الخلافة. ثم تمثل فقال : ـ

لعمري لقدْ عمرتُ في الملكِ برهةً * ودانتْ ليَ الدنيا بوقعِ البواترِ
وأعطيتُ حمرَ المالِ والحكمَ والنهى * ولي سلّمتْ كلُّ الملوكِ الجبابرِ

فأضحى الذى قدْ كانَ مما يسرنى * كحلم مضى فى المزمنات الغوابرِ

فياليتنى لم أعنَ بالملكِ ليلةً * ولمْ أسعَ فى لذاتِ عيشٍ نواضرِ

وقد أنشد هذه الأبيات معاوية بن أبى سفيان عند موته .

وقال أبو مسهر : قيل لعبد الملك فى مرض موته : كيف تجدك ؟ فقال أجدنى كما قال الله تعالى [ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم] الآية . وقال سعيد بن عبد العزيز : لما احتضر عبد الملك أمر بفتح الأبواب من قصره ، فلما فتحت سمع قصاراً بالوادى فقال : ماهذا ؟ قالوا قصار ، فقال : ياليتنى كنت قصاراً أعيش من عمل يدى ، فلما بلغ سعيد بن المسيب قوله قال : الحمد لله الذى جعلهم عند موتهم يفرون إلينا ولا نفر إليهم . وقال : لما حضره الموت جعل يندم ويندب ويضرب بيده على رأسه ويقول : وددت أنى اكتسبت قوتى يوماً بيوم واشتغلت بعبادة ربى عز وجل وطاعته . وقال غيره : لمّا حضرته الوفاة دعا بنيه فوصاهم ثم قال : الحمد لله الذى لا يسأل أحداً من خلقه صغيراً أو كبيراً ثم ينشد : ــ

فهلْ منْ خالدٍ إمّا هلكْنا * وهلْ بالموتِ للباقينِ عارُ

ويروى أنه قال : ارفعونى ، فرفعوه حتى شم الهواء وقال : يادنيا ما أطيبك ! إن طويلك لقصير ، وإن كثيرك لحقير ، وإنا كنا بك لفى غرور ، ثم تمثل بهذين البيتين :

إنْ تناقشْ يكنْ نقاشُكَ ياربُّ * عذاباً لا طوقَ لي بالعذابِ

أو تجاوزْ فأنتَ ربّ صفوحٌ * عنْ مسيءٍ ذنوبُهُ كالترابِ

قالوا : وكانت وفاته بدمشق يوم الجمعة وقيل يوم الأربعاء وقيل الخميس ، فى النصف من شوال سنة ست وثمانين ، وصلى عليه ابنه الوليد ولى عهده من بعده ، وكان عمره يوم مات ستين سنة . قاله أبو معشر وصححه الواقدى ، وقيل ثلاثاً وستين سنة . قاله المدائنى ، وقيل ثمانى وخمسين . ودفن بباب الجابية الصغير ، قال ابن جرير : ذكر أولاده وأزواجه منهم الوليد وسليمان ومروان الأكبر درج وعائشة ، وأمهم ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث بن قطيعة بن عبس بن بغيض ، ويزيد ومروان الأصغر ومعاوية درج وأم كلثوم وأمهم عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ، وهشام وأمه أم هشام عائشة ــ فيما قاله المدائنى ــ بنت هشام بن إسماعيل المخزومى . وأبو بكر واسمه بكار وأمه عائشة بنت موسى بن طلحة بن عبيد الله التيمى ، والحكم درج وأمه أم أيوب بنت عمرو بن عثمان بن عفان الأموى ، وفاطمة وأمها المغيرة بنت المغيرة بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة المخزومى . وعبد الله ومسلمة والمنذر وعنبسة ومحمد وسعد الخير والحجاج لأمهات أولاد شتى ، فكان جملة أولاده تسعة عشر ذكوراً وإناثاً ،

وكانت مدة خلافته إحدى وعشرين سنة ، منها تسع سنين مشاركا لابن الزبير ، وثلاث عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصف مستقلا بالخلافة وحده . وكان قاضيه أبو إدريس الخولانى ، وكاتبه روح بن زنباع ، وحاجبه يوسف مولاه ، وصاحب بيت المال والخاتم قبيصة بن ذؤيب . وعلى شرطته أبو الزعيزعة . وقد ذكرنا عماله فيما مضى . قال المدائنى : وكان له زوجات أخر ، شقراء بنت سلمة بن حلبس الطائى ، وابنة لعلى بن أبى طالب ، وأم أبيها بنت عبد الله بن جعفر . وممن يذكر أنه توفى فى هذه السنة تقريباً .

ارطاة بن زفر

ابن عبد الله بن مالك بن شداد بن ضمرة بن غقمان بن أبى حارثة بن مرة بن شبة بن نميط بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان الوليد المرى ، ويعرف بابن شهبة ، وهى أمه بنت رامل بن مروان بن زهير بن ثعلبة بن خديج بن جشم بن كعب بن عون بن عامر بن عوف ـ سبية من كلب ـ وكانت عند ضرار بن الأزور ، ثم صارت إلى زفر وهى حامل فأتت بأرطاة على فراشه ، وقد عمر أرطاة دهراً طويلا حتى جاوز المائة بثلاثين سنة ، وقد كان سيداً شريفا مطاعا ممدحا شاعراً مطبقاً قال المدائنى : ويقال إن بنى غقمان بن حنظلة بن رواحة بن ربيعة بن مازن بن الحارث دخلوا فى بنى مرة بن شبة فقالوا بنى غقمان بن أبى حارثة بن مرة . وقد وفد أبو الوليد أرطاة بن زفر هذا على عبد الملك فأنشده أبياتا : ـ

رأيتَ المرءَ تأكلهُ الليالى * كأكلِ الأرضِ ساقطةِ الحديدِ
وماتبقى المنيةُ حينَ تأتى * على نفسِ ابن آدمَ مِنْ مزيدِ
وأعلم أنها ستكرُّ حتى * توفى نذرها بأبِى الوليدِ

قال : فارتاع عبد الملك وظن أنه عناه بذلك فقال يا أمير المؤمنين إنما عنيت نفسى ، فقال عبد الملك : وأنا والله سيمر بى ما الذى يمر بك ، وزاد بعضهم فى هذه الابيات : ـ

خلقنا أنفساً وبنى نفوسٍ * ولسنا بالسلامِ ولا الحديدِ
لئنْ أفجعتَ بالقرناءِ يوماً * لقدْ منعتَ بالأملِ البعيدِ

وهو القائل

وإنى لقوامٌ لدى الضيفِ موهناً * إذا أسبلَ السترُ البخيلُ المواكلُ
دعا فاجابتهُ كلابٌ كثيرةٌ * على ثقةٍ منى بأنىَ فاعلُ
وما دونَ ضيفى من تلادٍ تحوزهُ * لى النفسُ إلاّ أنْ تصانَ الحلائلُ

مطرف بن عبدالله بن الشخير

كان من كبار التابعين ، وكان من أصحاب عمران بن حصين ، وكان مجاب الدعوة ، وكان يقول ما أوتى أحد أفضل من العقل ، وعقول الناس على قدر زمانهم . وقال : إذا استوت سريرة العبد

وعلانيته قال الله هذا عبدى حقاً . وقال : إذا دخلتم على مريض فان استطعتم أن يدعو لكم فانه قد حرّك ـ أى قد أوقظ من غفلته بسبب مرضه ـ فدعاؤه مستجاب من أجل كسره ورقة قلبه . وقال : إن أقبح ماطلبت به الدنيا عمل الآخرة .

خلافة الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق

لما رجع من دفن أبيه خارج باب الجابية الصغير ـ وكان ذلك فى يوم الخميس وقيل الجمعة للنصف من شوال من هذه السنة ـ لم يدخل المنزل حتى صعد المنبر ـ منبر المسجد الأعظم بدمشق ـ فخطب الناس فكان مما قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، والله المستعان على مصيبتنا فى أمير المؤمنين ، والحمد لله على ما أنعم علينا من الخلافة ، قوموا فبايعوا . فكان أول من قام إليه عبد الله بن همام السلولى وهو يقول :

اللهُ أعطاكَ التى لا فوقها * وقدْ أرادَ الملحدونَ عوقها

عنكَ ويأبى اللهُ إلا سوقها * إليكَ حتى قلدوكَ طوقها

ثم بايعه وبايع الناس بعده . وذكر الواقدى أنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس إنه لامُقدم لما أخر الله ، ولا مؤخر لما قدم الله ، وقد كان من قضاء الله وسابقته ما كتبه على أنبيائه وحملة عرشه وملائكته الموت ، وقد صار إلى منازل الأبرار بما لاقاه فى هذه الأمة ـ يعنى بالذى يحق لله عليه ـ من الشدة على المريب واللين لأهل الحق والفضل وإقامة ما أقام الله من منار الاسلام وإعلائه من حج هذا البيت وغزو هذه الثغور وشن هذه الغارات على أعداء الله عز وجل فلم يكن عاجزا ولامفرطاً ، أيها الناس عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة فان الشيطان مع الواحد ، أيها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ، ومن سكت مات بدائه . ثم نزل فنظر ما كان من دواب الخلافة فحازها. وكان جباراً عنيداً . وقد ورد فى ولاية الوليد حديث غريب ، وإنما هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك كما سيأتى ، وكما تقدم تقريره فى دلائل النبوة فى باب الاخبار عن الغيوب المستقبلة ، فيما يتعلق بدولة بنى أمية ، وأما الوليد بن عبد الملك هذا فقد كان صيناً فى نفسه حازما فى رأيه ، يقال إنه لا تعرف له صبوة ، ومن جملة محاسنه ما صح عنه أنه قال : لولا أن الله قص لنا قصة قوم لوط فى كتابه ما ظننا أن ذكراً كان يأتى ذكراً كما تؤتى النساء ، كما سيأتى ذلك فى ترجمته عند ذكر وفاته ، وهو بانى مسجد جامع دمشق الذى لا يعرف فى الآفاق أحسن بناء منه ، وقد شرع فى بنائه فى ذى القعدة من هذه السنة ، فلم يزل فى بنائه وتحسينه مدة خلافته وهى عشر سنين ، فلما أنهاه انتهت أيام خلافته كما سيأتى بيان ذلك مفصلا . وقد كان موضع هذا المسجد كنيسة يقال لها كنيسة يوحنا ، فلما فتحت الصحابة دمشق جعلوها مناصفة ، فأخذوا منها الجانب الشرقى فحولوه مسجداً ، وبقى الجانب الغربى كنيسة

بحاله من لدن سنة أربع عشرة إلى هذه السنة ، فعزم الوليد على أخذ بقية الكنيسة منهم وعوضهم عنها كنيسة مريم لدخولها فى جانب السيف ، وقيل عوضهم عنها كنيسة توما ، وهدم بقية هذه الكنيسة وأضافها إلى مسجد الصحابة ، وجعل الجميع مسجداً واحداً على هيئة بديعة لا يعرف كثير من الناس أو أكثرهم لها نظيراً فى البنيان والزينات والآثار والعمارات ، والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة سبع وثمانين

ففيها عزل الوليد بن عبد الملك هشام بن إسماعيل عن إمرة المدينة وولى عليها ابن عمه وزوج أخته فاطمة بنت عبد الملك عمرَ بن عبد العزيز ، فدخلها على ثلاثين بعيراً فى ربيع الأول منها ، فنزل دار مروان وجاء الناس للسلام عليه ، وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة ، فلما صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة وهم عروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وأخوه عبيد الله بن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد بن ثابت . فدخلوا عليه فجلسوا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال : إنى إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون فيه أعوانا على الحق ، إنى لا أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأى من حضر منكم ، فان رأيتم أحداً يتعدى أو بلغكم عن عامل لى ظلامة ، فأحرِّج على من بلغه ذلك إلا أبلغنى . فخرجوا من عنده يجزونه خيراً ، وافترقوا على ذلك . وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز بأن يوقف هشام بن إسماعيل للناس عند دار مروان — وكان يسىء الرأى فيه — لأنه أساء إلى أهل المدينة فى مدة ولايته عليهم ، وكانت نحواً من أربع سنين ، ولاسيما إلى سعيد بن المسيب وعلى بن الحسين . قال سعيد بن المسيب لابنه ومواليه : لا يعرض منكم أحد لهذا الرجل فىَّ ، تركت ذلك لله وللرحم . وأما كلامه فلا أكلمه أبداً ، وأما على بن الحسين فانه مر به وهو موقوف فلم يتعرض له وكان قد تقدم إلى خاصته أن لا يعرض أحد منهم له ، فلما اجتاز به وتجاوزه ناداه هشام الله يعلم حيث يجعل رسالاته

وفى هذه السنة غزا مسلمة بن عبد الملك بلاد الروم فقتل منهم خلقاً كثيراً ، وفتح حصونا كثيرة وغنم غنائم جمة ، ويقال إن الذى غزا بلاد الروم فى هذه السنة هشام بن عبد الملك ففتح حصن بولق ، وحصن الأخرم ، وبحيرة الفرسان ، وحصن بولس ، وقيقم ، وقتل من المستعربة نحواً من ألف وسبى ذراريهم . وفيها غزا قتيبة بن مسلم بلاد الترك وصالحه ملكهم نيزك على مال جزيل ، وعلى أن يطلق كل من ببلاده من أسارى المسلمين ، وفيها غزا قتيبة بيكند فاجتمع له من الأتراك عندها بشر كثير وجم غفير ، وهى من أعمال بخارى ، فلما نزل بأرضهم استنجدوا عليه بأهل الصغد ومن

حولهم من الأتراك ، فأتوهم فى جمع عظيم فأخذوا على قتيبة الطرق والمضايق ، فتواقف هو وهم قريباً من شهرين وهو لايقدر أن يبعث إليهم رسولا ولا يأتيه منهم رسول ، وأبطأ خبره على الحجاج حتى خاف عليه وأشفق على من معه من المسلمين من كثرة الأعداء من الترك ، فأمر الناس بالدعاء لهم فى المساجد وكتب بذلك إلى الأمصار ، وقد كان قتيبة ومن معه من المسلمين يقتتلون مع الترك فى كل يوم ، وكان لقتيبة عين من العجم يقال له تندر ، فأعطاه أهل بخارى مالا جزيلا على أن يأتى قتيبة فيخذله عنهم ، فجاء إليه فقال له : أخلنى ، فأخلاه فلم يبق عنده سوى رجل يقال له ضرار بن حصين ، فقال له تندر : هذا عامل يقدم عليك سريعا بعزل الحجاج ، فلو انصرفت بالناس إلى مرو ، فقال قتيبة لمولاه سياه اضرب عنقه فقتله ، ثم قال لضرار : لم يبق أحد سمع هذا غيرى وغيرك و إنى أعطى الله عهداً إن ظهر هذا حتى ينقضى حربنا ألحقتك به ، فاملك علينا لسانك ، فان انتشار هذا فى مثل هذا الحال ضعف فى أعضاد الناس ونصرة للأعداء ، ثم نهض قتيبة فحرض الناس على الحرب ، ووقف على أصحاب الرايات يحرضهم ، فاقتتل الناس قتالا شديداً ثم أنزل الله على المسلمين الصبر فما انتصف النهار حتى أنزل الله عليهم النصر فهزمت الترك هزيمة عظيمة ، واتبعهم المسلمون يقتلون فيهم ويأسرون ماشاؤا ، واعتصم من بقى منهم بالمدينة ، فأمر قتيبة الفعلة بهدمها فسألوه الصلح على مال عظيم فصالحهم ، وجعل عليهم رجلا من أهله وعنده طائفة من الجيش ثم سار راجعاً ، فلما كان منهم على خمس مراحل نقضوا العهد وقتلوا الأمير وجدعوا أنوف من كان معه ، فرجع إليها وحاصرها شهراً . وأمر النقابين والفعلة فعلقوا سورها على الخشب وهو يريد أن يضرم النار فيها ، فسقط السور فقتل من الفعلة أربعين نفسا ، فسألوه الصلح فأبى ، ولم يزل حتى افتتحها فقتل المقاتلة وسبى الذرية وغنم الأموال ، وكان الذى ألب على المسلمين رجل أعور منهم ، فأسر فقال أنا أفتدى نفسى بخمسة أثواب صينية قيمتها ألف ألف ، فأشار الأمراء على قتيبة بقبول ذلك منه ، فقال قتيبة : لا والله لا أروع بك مسلما مرة ثانية ، وأمر به فضربت عنقه . وهذا من الزهد فى الدنيا ، ثم إن الغنائم سيدخل فيها ما أراد أن يفتدى به نفسه فان المسلمين قد غنموا من بيكند شيئا كثيرا من آنية الذهب والفضة والأصنام من الذهب ، وكان من جملتها صنم سبك فخرج منه مائة ألف وخمسون ألف دينار من الذهب ، ووجدوا فى خزائن الملك أموالا كثيرة وسلاحا كثيرا وعددا متنوعة ، وأخذوا من السبى شيئا كثيراً ، فكتب قتيبة إلى الحجاج يسأله أن يعطى ذلك للجند فأذن له فتمول المسلمون وتقووا على قتال الأعداء ، وصار لكل واحد منهم مال مستكثر جداً ، وصارت لهم أسلحة وعدد وخيول كثيرة فقووا بذلك قوة عظيمة ولله الحمد والمنة .

وقد حج بالناس فى هذه السنة عمر بن عبد العزيز نائب المدينة ، وقاضيه بها أبو بكر بن محمد بن

عمرو بن حزم ، وعلى العراق والمشرق بكماله الحجاج ، ونائبه على البصرة الجراح بن عبد الله الحكمي وقاضيه بها عبد الله بن أذينة ، وعامله على الحرب بالكوفة زياد بن جرير بن عبد الله البجلي ، وقاضيه بها أبو بكر بن أبي موسى الأشعري ، ونائبه على خراسان وأعمالها قتيبة بن مسلم . وفيها توفي من الأعيان :

عتبة بن عبد السلمي

صحابي جليل ، نزل حمص ، يروى أنه شهد بني قريظة ، وعن العرباض أنه كان يقول هو خير مني أسلم قبلي بسنة . قال الواقدي وغيره : توفي في هذه السنة ، وقال غيره بعد التسعين والله أعلم .

قال أبو سعيد بن الأعرابي : كان عتبة بن عبد السلمي من أهل الصفة . وروى بقية عن بحير ابن سعد عن خالد بن معدان عن عتبة بن عبد السلمي أن النبي ص . قال : « لو أن رجلا يجر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرماً في مرضاة الله لحقره يوم القيامة » . وقال إسماعيل بن عياش عن عقيل بن مدرك عن لقمان بن عامر عن عتبة بن عبد السلمي قال : اشتكيت إلى رسول الله ص . العُري فكساني خيشتين فلقد رأيتني وأنا أكسى الصحابة .

المقدام بن معدي كرب

صحابي جليل ، نزل حمص أيضاً ، له أحاديث ، وروى عنه غير واحد من التابعين . قال محمد ابن سعد والفلاس وأبو عبيدة : توفي في هذه السنة ، وقال غيرهم : توفي بعد التسعين فالله أعلم .

ابو امامة الباهلي

واسمه صدَيّ بن عجلان ، نزل حمص ، وهو راوي حديث « تلقين الميت بعد الدفن » رواه الطبراني في الدعاء ، وقد تقدم له ذكر في الوفيات .

قبيصة بن زويب

أبو سفيان الخزاعي المدني ، ولد عام الفتح وأتي به النبي ص . ليدعو له ، روى عن جماعة كثيرة من الصحابة ، وأصيبت عينه يوم الحرة ، وكان من فقهاء المدينة ، وكانت له منزلة عند عبد الملك ، ويدخل عليه بغير إذن ، وكان يقرأ الكتب إذا وردت من البلاد ثم يدخل على عبد الملك فيخبره بما ورد من البلاد فيها ، وكان صاحب سره ، وكان له دار بدمشق بباب البريد ، وتوفي بدمشق .

عروة بن المغيرة بن شعبة

ولي إمرة الكوفة للحجاج ، وكان شريفا لبيبا مطاعا في الناس ، وكان أحول . توفي بالكوفة

﴿ يحيى بن يعمر ﴾ ، كان قاضي مرو ، وهو أول من نقط المصاحف ، وكان من فضلاء الناس وعلمائهم وله أحوال ومعاملات ، وله روايات ، وكان أحد الفصحاء ، أخذ العربية عن أبي الأسود الدؤلي .

شريح بن الحارث بن قيس القاضي

أدرك الجاهلية ، واستقضاه عمر على الكوفة فمكث بها قاضياً خمساً وستين سنة ، وكان عالماً عادلا كثير الخير ، حسن الأخلاق ، فيه دعابة كثيرة ، وكان كوسجاً لا شعر بوجهه ، وكذلك كان عبد الله بن الزبير ، والأحنف بن قيس ، وقيس بن سعد بن عبادة ، وقد اختلف فى نسبه وسنه وعام وفاته على أقوال ، ورجح ابن خلكان وفاته فى هذه السنة .

قلت : قد تقدمت ترجمة شريح القاضى فى سنة ثمان وسبعين بما فيها من الزيادة الكثيرة غير ماذكره المؤلف هنا وهناك

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين

فيها غزا الصائفة مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك ، فافتتحا بمن معهما من المسلمين حصن طوانه فى جمادى من هذه السنة ـ وكان حصيناً منيعاً ـ اقتتل الناس عنده قتالا عظيما ثم حمل المسلمون على النصارى فهزموهم حتى أدخلوهم الكنيسة ، ثم خرجت النصارى فحملوا على المسلمين فانهزم المسلمون ولم يبق أحد منهم فى موقفه إلا العباس بن الوليد ومعه ابن محيريز الجمحى ، فقال العباس لابن محيريز : أين قراء القرآن الذين يريدون وجه الله عز وجل ؟ فقال : نادهم يأتوك ، فنادى يا أهل القرآن ، فتراجع الناس فحملوا على النصارى فكسروهم ولجأوا إلى الحصن فحاصروهم حتى فتحوه .

وذكر ابن جرير أنه فى شهر ربيع الأول من هذه السنة قدم كتاب الوليد على عمر بن عبد العزيز يأمره بهدم المسجد النبوى وإضافة حجر أزواج رسول الله «ص» ، وأن يوسعه من قبلته وسائر نواحيه ، حتى يكون مائتى ذراع فى مائتى ذراع ، فمن باعك ملكه فاشتره منه وإلا فقومه له قيمة عدل ثم اهدمه وادفع إليهم أثمان بيوتهم ، فان لك فى ذلك سلف صدق عمر وعثمان . فجمع عمر بن عبد العزيز وجوه الناس والفقهاء العشرة وأهل المدينة وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين الوليد ، فشق عليهم ذلك وقالوا : هذه حجر قصيرة السقوف ، وسقوفها من جريد النخل ، وحيطانها من اللبن ، وعلى أبوابها المسوح ، وتركها على حالها أولى لينظر إليها الحجاج والزوار والمسافرون ، وإلى بيوت النبى «ص» فينتفعوا بذلك ويعتبروا به ، ويكون ذلك أدعى لهم إلى الزهد فى الدنيا ، فلا يعمرون فيها إلا بقدر الحاجه وهو مايستر ويُكن ، ويعرفون أن هذا البنيان العالى إنما هو من أفعال الفراعنة والأكاسرة ، وكل طويل الأمل راغب فى الدنيا وفى الخلود فيها . فعند ذلك كتب عمر بن عبد العزيز إلى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء العشرة المتقدم ذكرهم ، فأرسل إليه يأمره بالخراب وبناء المسجد على ماذكر ، وأن يعلى سقوفه . فلم يجد عمر بداً من هدمها ، ولما شرعوا فى الهدم صاح الاشراف ووجوه الناس من بنى هاشم وغيرهم ،

وتباكوا مثل يوم مات النبي (ص.)، وأجاب من له ملك متاخم للمسجد للبيع فاشترى منهم، وشرع في بنائه وشمر عن إزاره واجتهد في ذلك، وأرسل الوليد إليه فعولا كثيرة، فأدخل فيه الحجرة النبوية ـ حجرة عائشة ـ فدخل القبر في المسجد، وكانت حده من الشرق وسائر حجر أمهات المؤمنين كما أمر الوليد، وروينا أنهم لما حفروا الحائط الشرقي من حجرة عائشة بدت لهم قدم فخشوا أن تكون قدم النبي (ص.) حتى تحققوا أنها قدم عمر رضي الله عنه، ويحكى أن سعيد بن المسيب أنكر إدخال حجرة عائشة في المسجد ـ كأنه خشي أن يتخذ القبر مسجدا ـ والله أعلم

وذكر ابن جرير أن الوليد كتب إلى ملك الروم يسأله أن يبعث له صناعاً للبناء، فبعث إليه بمائة صانع وفصوص كثيرة من أجل المسجد النبوي، والمشهور أن هذا إنما كان من أجل مسجد دمشق فالله أعلم. وكتب الوليد إلى عمر بن عبد العزيز أن يحفر الفوارة بالمدينة، وأن يجري ماءها ففعل، وأمره أن يحفر الآبار وأن يسهل الطرق والثنايا، وساق إلى الفوارة الماء من ظاهر المدينة، والفوارة بنيت في ظاهر المسجد عند بقعة رآها فأعجبته.

وفيها غزا قتيبة بن مسلم ملك الترك كوربُغانون ابن أخت ملك الصين، ومعه مائتا ألف مقاتل، من أهل الصغد وفرغانة وغيرهم، فاقتتلوا قتالا شديداً، وكان مع قتيبة نيزك ملك الترك مأسورا فكسرهم قتيبة بن مسلم وغنم من أموالهم شيئا كثيرا، وقتل منهم خلقاً وسبى وأسر.

وفيها حج بالناس عمر بن عبد العزيز ومعه جماعات من أشراف قريش، فلما كان بالتنعيم لقيه طائفة من أهل مكة فأخبروه عن قلة الماء بمكة لقلة المطر، فقال لأصحابه: ألا نستمطر؟ فدعا ودعا الناس فما زالوا يدعون حتى سقوا ودخلوا مكة ومعهم المطر، وجاء سيل عظيم حتى خاف أهل مكة من شدة المطر، ومطرت عرفة ومزدلفة ومنى، وأخصبت الأرض هذه السنة خصباً عظيما بمكة وما حولها، وذلك ببركة دعاء عمر ومن كان معه من الصالحين. وكان النواب على البلدان في هذه السنة هم الذين كانوا قبلها.

وممن توفي فيها من الأعيان - عبدالله بن بُسر بن أبي بُسر المازني

صحابي كأبيه، سكن حمص، وروى عنه جماعة من التابعين، قال الواقدي: توفي في هذه السنة عن أربع وتسعين سنة، زاد غيره وهو آخر من توفي من الصحابة بالشام، وقد جاء في الحديث أنه يعيش قرنا، فعاش مائة سنة.

عبدالله بن ابي أوفى

علقمة بن خالد بن الحارث الخزاعي ثم الأسلمي، صحابي جليل، وهو آخر من بقي من الصحابة بالكوفة، وكانت وفاته فيما قاله البخاري سنة تسع أو ثمان وثمانين، وقال الواقدي وغير واحد: سنة ست وثمانين، وقد جاوز المائة، وقيل قاربها رضي الله عنه.

وفيها توفي هشام بن إسماعيل

ابن هشام بن الوليد المخزومى المدنى ، وكان حما عبد الملك بن مروان ونائبه على المدينة ، وهو الذى ضرب سعيد بن المسيب كما تقدم ، ثم قدم دمشق فمات بها ، وهو أول من أحدث دراسة القرآن بجامع دمشق فمات فيها فى السبع .

عمير بن حكيم

العنسى الشامى ، له رواية ، ولم يكن أحد فى الشام يستطيع أن يعيب الحجاج علانية إلا هو وابن محيريز أبو الأبيض ، قتل فى غزوة طوانة من بلاد الروم فى هذه السنة .

ثم دخلت سنة تسع وثمانين

فيها غزا مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه العباس بلاد الروم فقتلا خلقاً كثيراً وفتحا حصوناً كثيرة ، منها حصن سورية وعمورية وهرقلة وقمودية .وغنما شيئاً كثيراً وأسرا جماً غفيراً . وفيها غزا قتيبة بن مسلم بلاد الصغد ونسف وكش ، وقد لقيه هنالك خلق من الأتراك فظفر بهم فقتلهم ، وسار إلى بخارى فلقيه دونها خلق كثير من الترك فقاتلهم يومين وليلتين عند مكان يقال له خرقان ، وظفر بهم فقال فى ذلك نهار بن توسعة :

وباتتْ لَهم منّا بِخَرقانَ لَيْلةٌ * ولَيلتُنا كانتْ بِخَرقانَ أطولا

ثم قصد قتيبة وردان خذاه ملك بخارى فقاتله وردان قتالا شديداً فلم يظفر به قتيبة ، فرجع عنه إلى مرو ، فجاءه البريد بكتاب الحجاج يعنفه على الفرار والنكول عن أعداء الاسلام ، وكتب إليه أن يبعث بصورة هذا البلد ـ يعنى بخارى ـ فبعث إليه بصورتها فكتب إليه أن ارجع إليها وتب إلى الله من ذنبك واتها من مكان كذا وكذا ، ورد وردان خذاه ، وإياك والتحويط ، ودعنى وبنيات الطريق .

وفى هذه السنة ولى الوليد بن عبد الملك إمرة مكة لخالد بن عبد الله القسرى ، فحفر بئراً بأمر الوليد عند ثنية طوى وثنية الحجون ، فجاءت عذبة الماء طيبة ، وكان يستقى منها الناس . وروى الواقدى : حدثنى عمر بن صالح عن نافع مولى بنى مخزوم . قال : سمعت خالد بن عبد الله القسرى يقول على منبر مكة وهو يخطب الناس : أيها الناس ! أيهما أعظم خليفة الرجل على أهله أم رسوله إليهم ؟ والله لو لم تعلموا فضل الخليفة إلا أن إبراهيم خليل الرحمن استسقاه فسقاه ملحا أجاجاً ، واستسقى الخليفة فسقاه عذباً فراتاً ـ يعنى البئر التى احتفرها بالثنيتين ثنية طوى وثنية الحجون ـ فكان ينقل ماؤها فيوضع فى حوض من أدم إلى جنب زمزم ليعرف فضله على زمزم . قال ثم غارت تلك البئر فذهب ماؤها فلا يدرى أين هو إلى اليوم ، وهذا الاسناد غريب ، وهذا الكلام يتضمن

كفراً إن صح عن قائله ، وعندى أن خالد بن عبد الله لايصح عنه هذا الكلام ، و إن صح فهو عدو الله ، وقد قيل عن الحجاج بن يوسف نحو هذا الكلام من أنه جعل الخليفة أفضل من الرسول الذى أرسله الله ، وكل هذه الأقوال تتضمن كفر قائلها .

وفى هذه السنة غزا قتيبة بن مسلم الترك حتى بلغ باب الأبواب من ناحية أذربيجان ، وفتح حصونا ومدائن كثيرة هنالك . وحج بالناس فيها عمر بن عبد العزيز . قال شيخنا الذهبى : وفى هذه السنة فتحت صقلية وميورقة وقيل ميرقة ، وهما فى البحر بين جزيرة صقلية وخضرة من بلاد الأندلس . وفيها سيّر موسى بن نصير ولده إلى النقريس ملك الفرنج فافتتح بلاداً كثيرة . وفيها توفى من الأعيان عبد الله بن ثعلبة بن صُعَير أحد التابعين العذرى الشاعر ، وقد قيل إنه أدرك حياة النبى صلى الله عليه وسلم ومسح على رأسه ، وكان الزهرى يتعلم منه النسب . والعمال فى هذه السنة هم المذكورون فى التى قبلها.

ثم دخلت سنة تسعين من الهجرة

فيها غزا مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بلاد الروم ، ففتحا حصونا وقتلا خلقاً من الروم وغنما وأسرا خلقا كثيراً . وفيها أسرت الروم خالد بن كيسان صاحب البحر ، وذهبوا به إلى ملكهم فأهداه ملك الروم إلى الوليد بن عبد الملك . وفيها عزل الوليد أخاه عبد الله بن عبد الملك عن إمرة مصر وولى عليها قرة بن شريك . وفيها قتل محمد بن القاسم ملك السند داهر بن صصّة ، وكان محمد بن القاسم هذا على جيش من جهة الحجاج . وفيها فتح قتيبة بن مسلم مدينة بخارى وهزم جميع العدو من الترك بها ، وجرت بينهم فصول يطول ذكرها ، وقد تقصاها ابن جرير . وفيها طلب طرخون ملك الصغد بعد فتح بخارى من قتيبة أن يصالحه على مال يبذله فى كل عام فأجابه قتيبة إلى ذلك وأخذ منه رهنا عليه . وفيها استنجد وردان خذاه بالترك فأتوه من جميع النواحى ــ وهو صاحب بخارى بعد اخذ قتيبة لها ــ وخرج وردان خذاه وحمل على المسلمين فحطموهم ثم عاد المسلمون عليهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وصالح قتيبة ملك الصغد ، وفتح بخارى وحصونها ، ورجع قتيبة بالجند إلى بلاده فأذن له الحجاج ، فلما سار إلى بلاده بلغه أن صاحب الصغد قال لملوك الترك : إن العرب بمنزلة اللصوص فان أعطوا شيئاً ذهبوا ، وإن قتيبة هكذا يقصد الملوك ، فان أعطوه شيئاً أخذه ورجع عنهم ، وإن قتيبة ليس بملك ولا يطلب ملكا . فبلغ قتيبة قوله فرجع إليهم فكاتب نيزك ملك الترك ملوك ماوراء النهر منهم ملك الطالقان ، وكان قد صالح قتيبة فنقض الصلح الذى كان بينه وبين قتيبة ، واستجاش عليه بالملوك كلها ، فأتاه ملوك كثيرة كانوا قد عاهدوا قتيبة على الصلح فنقضوا كلهم وصاروا يدا واحدة على قتيبة ، واتعدوا إلى الربيع وتعاهدوا وتعاقدوا على أن يجتمعوا فيقاتلوا كلهم فى فصل الربيع من السنة الآتية ، فقتل منهم قتيبة فى ذلك الحين مقتلة

عظيمة جداً لم يسمع بمثلها ، وصلب منهم سماطين فى مسافة أربعة فراسخ فى نظام واحد ، وذلك مما كسر جموعهم كلهم .

وفى هذه السنة هرب يزيد بن المهلب وأخواه المفضل وعبد الملك من سجن الحجاج ، فلحقوا بسليمان بن عبد الملك فأمنهم من الحجاج ، وذلك أن الحجاج كان قد احتاط عليهم قبل ذلك وعاقبهم عقوبة عظيمة ، وأخذ منهم ستة آلاف ألف ، وكان أصبرهم على العقوبة يزيد بن المهلب ، كان لا يسمع له صوت ولو فعلوا به ما فعلوا نكاية لذلك ، وكان ذلك يغيظ الحجاج ، قال قائل للحجاج : إن فى ساقه أثر نشابة بقى نصلها فيه ، وإنه متى أصابها شئ لا يملك نفسه أن يصرخ ، فأمر الحجاج أن ينال ذلك الموضع منه بعذاب ، فصاح فلما سمعت أخته هند بنت المهلب - وكانت تحت الحجاج - صوته بكت وناحت عليه فطلقها الحجاج ثم أودعهم السجن ، ثم خرج الحجاج إلى بعض المحال لينفذ جيشا إلى الأكراد واستصحبهم معه ، فخندق حولهم ووكل بهم الحرس ، فلما كان فى بعض الليالى أمر يزيد ابن المهلب بطعام كثير فصنع للحرس ، ثم تنكر فى هيئة بعض الطباخين وجعل لحيته لحية بيضاء وخرج فرآه بعض الحرس فقال : ما رأيت مشية أشبه بمشية يزيد بن المهلب من هذا ، ثم تبعه يتحققه ، فلما رأى بياض لحيته انصرف عنه ، ثم لحقه أخواه فركبوا السفن وساروا نحو الشام ، فلما بلغ الحجاج هربهم انزعج لذلك وذهب وهمه أنهم ساروا إلى خراسان ، فكتب إلى قتيبة بن مسلم يحذره قدومهم ويأمره بالاستعداد لهم ، وأن يرصدهم فى كل مكان ، ويكتب إلى أمراء الثغور والكور بتحصيلهم . وكتب إلى أمير المؤمنين يخبره بهربهم ، وأنه لا يراهم هربوا إلا إلى خراسان ، وخاف الحجاج من يزيد أن يصنع كما صنع ابن الأشعث من الخروج عليه وجمع الناس له ، وتحقق عنده قول الراهب . وأما يزيد بن المهلب فانه سلك على البطائح وجاءته خيول كان قد أعدها له أخوه مروان بن المهلب لهذا اليوم ، فركبها وسلك به دليل من بنى كلب يقال له عبد الجبار بن يزيد ، فأخذ بهم على السماوة ، وجاء الخبر إلى الحجاج بعد يومين أن يزيد قد سلك نحو الشام ، فكتب إلى الوليد يعلمه بذلك ، وسار يزيد حتى نزل الأردن على وهيب بن عبد الرحمن الأزدى - وكان كريما على سليمان بن عبد الملك - فسار وهيب إلى سليمان بن عبد الملك فقال له : إن يزيد بن المهلب وأخويه فى منزلى ، قد جاؤا مستعيذين بك من الحجاج ، قال : فاذهب فأتنى بهم فهم آمنون مادمت حيا ، فجاءهم فذهب بهم حتى أدخلهم على سليمان بن عبد الملك ، فأمنهم سليمان وكتب إلى أخيه الوليد : إن آل المهلب قد أمنتهم ، وإنما بقى للحجاج عندهم ثلاثة آلاف ألف ، وهى عندى . فكتب إليه الوليد : لا والله لا أؤمنه حتى تبعث به إلى . فكتب إليه : لا والله لا أبعثه حتى أجئ معه ، فأنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تفضحنى أو تخفرنى فى جوارى . فكتب إليه : لا والله لا تجئ معه وابعث به إلى فى وثاق . فقال يزيد : ابعث

بى إليـه فما أحب أن أوقع بينك و بينه عـداوة وحربا ، فابعثنى اليه وابعث معى ابنك وا كتب إليه بألطف عبارة تقدر عليها فبعثه و بعث معه ابنـه أيوب ، وقال لابنه : إذا دخلت فى الدهليز فادخل مع يزيد فى السلسلة ، وادخلا عليه كذلك . فلما رأى الوليد ابن أخيه فى السلسلة ، قال : والله لقد بلغنا من سليمان . ودفع أيوب كتاب أبيه إلى عمه وقال : يا أمير المؤمنين نفسى فـداؤك لا تخفر ذمة أبى وأنت أحق من منعها ، ولا تقطع منا رجاء من رجا السلامة فى جوارنا لمكاننا منك ، ولا تذل من رجا العز فى الانقطاع إلينا لعزنا بك . ثم قرأ الوليد كتاب سليمان بن عبـد الملك فاذا فيه : أما بعد يا أمير المؤمنين فوالله إن كنت لأظن لو استجار بى عـدو قد نابذك وجاهـدك فأنزلته وأجرته أنك لا تذل جوارى ولا تخفره ، بل لم أجر إلا سامعا مطيعاً ، حسن البلاء والأثر فى الاسـلام هو وأبوه وأهل بيته ، وقـد بعثت به إليك فان كنت إنما تعد قطيعتى واخفار ذمتى والابلاغ فى مساءتى فقد قدرت إن أنت فعلت ، وأنا أعيـذك بالله من احتراد قطيعتى وانتهاك حرمتى ، وترك برى و إجابتى إلى ما سألتك ، و وصلتى ، فو الله يا أمير المؤمنين ماتدرى ما بقائى و بقاؤك ، ولا متى يفرق الموت بينى و بينك ، فان استطاع أمير المؤمنين أدام الله سروره أن لا يأتى أجل الوفاة علينا إلا وهو لى واصل ولحقى مؤد ، وعن مساءتى نازع فليفعل ، و والله يا أمير المؤمنين ما أصبحت بشئ من أمر الدنيا بعد تقوى الله بأسر منى برضاك وسرورك ، و إن رضاك وسرورك أحب إلى من رضاى وسرورى ، ومما ألتمس به رضوان الله عز وجل لصلتى مابينى و بينك ، و إن كنت يا أمير المؤمنين يوماً من الدهر تريد صلتى وكرامتى و إعظام حقى فتجاوز لى عن يزيد ، وكل ما طلبته به فهو على .

فلما قرأ الوليد كتابه قال : لقد أشفقنا على سليمان ، ثم دعا ابن أخيه فأدناه منه ، وتكلم يزيد بن المهلب فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال : يا أمير المؤمنين إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء ، فمن ينس ذلك فلسنا ننساه ، ومن يكفره فلسنا بكافريه ، وقـد كان من بلائنا أهل البيت فى طاعتكم والطعن فى أعين أعـدائكم فى المواطن العظام فى المشارق والمغارب ، ما أن المنة فيه علينا عظيمة . فقال له : اجلس فجلس فأمنه وكف عنه ورده إلى سليمان ، فكان عنده حسن الهيئة ، و يصف له ألوان الأطعمة الشهية ، وكان حظياً عنده لا يهدى إليه بهدية إلا أرسل له بنصفها ، وتقرب يزيد ابن المهلب إلى سليمان بأنواع الهدايا والتحف والتقادم ، وكتب الوليـد إلى الحجاج إنى لم أصل إلى يزيد بن المهلب وأهل بيته مع أخى سليمان ، فا كفف عنهـم واله عن الكتاب إلى فيهـم . فكف الحجاج عن آل المهلب وترك ماكان يطالبهم به من الأموال ، حتى ترك لأبى عيينة بن المهلب ألف ألف درهم ، ولم يزل يزيد بن المهلب عنـد سليمان بن عبـد الملك حتى هلك الحجاج فى سـنة خمس وتسعين ، ثم ولى يزيد بلاد العراق بعد الحجاج كما أخبره الراهب . وفيها توفى من الأعيان :

يتاذوق الطبيب

الحاذق ، له مصنفات فى فنه وكان حظياً عند الحجاج ، مات فى حدود سنة تسعين بواسط .
وفيها توفى ﴿ عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة ﴾ وأبو العالية الرياحى وسنان بن سلمة بن المحبّق أحد الشجعان المذكورين ، أسلم يوم الفتح ، وتولى غزو الهند ، وطال عمره . وتوفى فى هذه السنة محمد بن يوسف الثقفى أخو الحجاج ، وكان أميراً على اليمن ، وكان يلعن عليا على المنابر ، قيل إنه أمر حجر المنذرى أن يلعن عليا فقال : بل لعن الله من يلعن عليا ، ولعنة الله على من لعنه الله . وقيل إنه ورى فى لعنه فالله أعلم .

خالد بن يزيد بن معاوية

أبو هاشم الأموى الدمشقى ، وكانت داره بدمشق تلى دار الحجارة ، وكان عالما شاعراً ، وينسب إليه شئ من علم الكيمياء ، وكان يعرف شيئاً من علوم الطبيعة ، روى عن أبيه ودحية الكلبى وعنه الزهرى وغيره ، قال الزهرى : كان خالد يصوم الأعياد كلها الجمعة والسبت والأحد - يعنى يوم الجمعة وهو عيد المسلمين ، ويوم السبت وهو عيد اليهود ، والأحد للنصارى - وقال أبو زرعة الدمشقى : كان هو وأخوه معاوية من خيار القوم ، وقد ذكر للخلافة بعد أخيه معاوية بن يزيد ، وكان ولى العهد من بعد مروان فلم يلتئم له الأمر ، وكان مروان زوج أمه ، ومن كلامه : أقرب شئ الأجل ، وأبعد شئ الأمل ، وأرجى شئ العمل ، وقد امتدحه بعض الشعراء فقال :

سألتُ الندا والجودَ حُرّانِ أنتما * فردّا وقالا إننا لعبيدُ
فقلتُ ومن مولاكُما فتطاولا * عليّ وقالا خالدُ بنُ يزيدُ

قال : فأمر له بمائة ألف . قلت : وقد رأيتهما قد أنشدا فى خالد بن الوليد رضى الله عنه . فقال : وقالا خالد بن وليد . والله أعلم . وخالد بن يزيد هذا كان أميراً على حمص ، وهو الذى بنى جامع حمص وكان له فيه أربعمائة عبد يعملون ، فلما فرغ منه أعتقهم . وكان خالد يبغض الحجاج ، وهو الذى أشار على عبد الملك لما تزوج الحجاج بنت جعفر أن يرسل إليه فيطلقها ففعل . ولما مات مشى الوليد فى جنازته وصلى عليه ، وكان قد تجدد على خالد اصفرار وضعف ، فسأله عبد الملك عن هذا فلم يخبره فما زال حتى أخبره أنه من حب رملة أخت مصعب بن الزبير ، فأرسل عبد الملك يخطبها لخالد فقالت : حتى يطلق نساءه فطلقهن وتزوجها وأنشد فيها الشعر .

وكانت وفاته فى هذا العام ، وقيل فى سنة أربع وثمانين وقد ذكر هناك ، والصحيح الأول .

عبد الله بن الزبير

ابن سليم الأسدى الشاعر أبو كثير ، ويقال أبو سعيد ، وهو مشهور ، وفد على عبد الله بن

الزبير فامتدحه فلم يعطه شيئاً فقال : لعن الله ناقة حملتنى إليك ، فقال ابن الزبير : إنّ وصاحبها ، يقال إنه مات فى زمن الحجاج .

ثم دخلت سنة احدى وتسعين

فيها غزا الصائفة مسلمة بن عبد الملك وابن أخيه عبد العزيز بن الوليد ، وفيها غزا مسلمة بلاد الترك حتى بلغ الباب من ناحية أذربيجان ، ففتح مدائن وحصونا كثيرة أيضاً ، وكان الوليد قد عزل عمه محمد بن مروان عن الجزيرة وأذربيجان وولاهما أخاه مسلمة بن عبد الملك . وفيها غزا موسى بن نصير بلاد المغرب ففتح مدنا كثيرة ودخل فى تلك البلاد وولج فيها حتى دخل أراضى غابرة قاصية فيها آثار قصور وبيوت ليس بها ساكن ، ووجد هناك من آثار نعمة أهل تلك البلاد ما يلوح على سماتها أن أهلها كانوا أصحاب أموال ونعمة دارة سائغة ، فبادوا جميعاً فلا مخبر بها .
وفيها مهد قتيبة بن مسلم بلاد الترك الذين كانوا قد نقضوا ما كانوا عاهدوه عليه من المصالحة ، وذلك بعد قتال شديد وحرب يشيب لها الوليد ، وذلك أن ملوكهم كانوا قد اتعدوا فى العام الماضى فى أول الربيع أن يجتمعوا ويقاتلوا قتيبة ، وأن لا يولوا عن القتال حتى يخرجوا العرب من بلادهم ، فاجتمعوا اجتماعاً هائلا لم يجتمعوا مثله فى موقف ، فكسرهم قتيبة وقتل منهم أمما كثيرة ، ورد الأمور إلى ما كانت عليه ، حتى ذكر أنه صلب منهم فى بعض المواضع من جملة من أخذه منهم سماطين طولهما أربعة فراسخ من ههنا وههنا ، عن يمينه وشماله ، صلب الرجل منهم بجنب الرجل ، وهذا شئ كثير ، وقتل فى الكفار قتلا ذريعاً ، ثم لايزال يتتبع نيزك خان ملك الترك الأعظم من إقليم إلى إقليم ، ومن كورة إلى كورة ، ومن رستاق إلى رستاق ، ولم يزل ذلك دأبه ودأبه حتى حصره فى قلعة هنالك شهرين متتابعين ، حتى نفد ماعند نيزك خان من الأطعمة ، وأشرف هو ومن معه على الهلاك ، فبعث إليه قتيبة من جاء به مستأمنا مذموما مخذولا ، فسجنه عنده ثم كتب إلى الحجاج فى أمره فجاء الكتاب بعد أربعين يوماً بقتله ، فجمع قتيبة الأمراء فاستشارهم فيه فاختلفوا عليه ، فقائل يقول : اقتله . وقائل يقول لاتقتله فقال له بعض الأمراء : إنك أعطيت الله عهدا أنك إن ظفرت به لتقتلنه ، وقد أمكنك الله منه ، فقال قتيبة : والله إن لم يبق من عمرى إلا مايسع ثلاث كلمات لقتلته ، ثم قال : اقتلوه اقتلوه اقتلوه ، فقتل هو وسبعمائة من أصحابه من أمرائه فى غداة واحدة ، وأخذ قتيبة من أموالهم وخيولهم وثيابهم وأبنائهم ونسائهم شيئا كثيراً ، وفتح فى هذا العام مدنا كثيرة ، وقرر ممالك كثيرة ، وأخذ حصونا كثيرة مشحونة بالأموال والنساء ، ومن آنية الذهب والفضة شيئا كثيراً ، ثم سار قتيبة إلى الطالقان ــ وهى مدينة كبيرة وبها حصون وأقاليم ــ فأخذها واستعمل عليها ، ثم سار إلى الفارياب وبها مدن ورساتيق ، فخرج إليه ملكها سامعا مطيعا ، فاستعمل عليها رجلا من أصحابه ، ثم سار إلى

الجوزجان فأخذها من ملكها واستعمل عليها ، ثم أتى بلخ فدخلها وأقام بها نهاراً واحداً ، ثم خرج منهاوقصد نيزك خان ببغلان ، وقد نزل نيزك خان معسكراً على فم الشعب الذى منه يدخل إلى بلاده ، و فى فم الشعب قلعة عظيمة تسمى شمسية ، لعلوها وارتفاعها واتساعها .فقدم على قتيبةالروب خان ملك الروب وسمنجان ، فاستأمنه على أن يدله على مدخل القلعة ، فأمنه و بعث معه رجالا إلى القلعة فأتوها ليلا ففتحوها وقتلوا خلقا من أهلها وهرب الباق ، ودخل قتيبة الشعب وأتى سمنجان - وهى مدينة كبيرة - فأقام بها وأرسل أخاه عبد الرحمن خلف ملك تلك المدن والبلاد نيزك خان فى جيش هائل ، فسار خلفه إلى بغلان فحصره بها ، وأقام بحصاره شهر بن حتى نفد ماعنده من الأقوات ، فأرسل قتيبة من عنده ترجمانا يسمى الناصح ، فقال له : اذهب فائتنى بنيزك خان ولئن عدت إلى وليس هو معك ضربت عنقك . وأرسل قتيبة معه هدايا وأطعمة فاخرة ، فسار الترجمان إلى نيزك حتى أتاه وقدم إليه الأطعمة فوقع عليها أصحابه يتخاطفونها - وكانوا قد أجهدهم الجوع - ثم أعطاه الناصح الأمان وحلف له ، فقدم به على قتيبة ومعه سبعمائة أمير من أصحابه ومن أهل بيته جماعة . وكذلك استأمن قتيبة جماعة من الملوك فأمنهم وولى على بلادهم والله سبحانه وتعالى أعلم .

قال الواقدى وغيره : وحج بالناس فى هذه السنة أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، فلما قرب من المدينة أمر عمر بن عبد العزيز أشراف المدينة فتلقوه فرحب بهم وأحسن إليهم ، ودخل المدينة النبوية فأخلى له المسجد النبوى ، فلم يبق به أحد سوى سعيد بن المسيب لم يتجاسر أحد أن يخرجه ، وإنما عليه ثياب لاتساوى خمسة دراهم ، فقالوا له : تنح عن المسجد أيها الشيخ ، فان أمير المؤمنين قادم ، فقال : والله لا أخرج منه ، فدخل الوليد المسجد فجعل يدور فيه يصلى ههنا وههنا ويدعو الله عز وجل ، قال عمر بن عبد العزيز : وجعلت أعدل به عن موضع سعيد خشية أن يراه ، فحانت منه التفاتة فقال : من هذا هو سعيد بن المسيب ؟ فقلت : نعم يا أمير المؤمنين ، ولو علم بأنك قادم لقام إليك وسلم عليك . فقال : قد علمت ببغضه لنا ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنه وإنه ، وشرعت أثنى عليه ، وشرع الوليد يثنى عليه بالعلم والدين ، فقلت : يا أمير المؤمنين إنه ضعيف البصر - وإنما قلت ذلك لأعتذر له - فقال : نحن أحق بالسعى إليه ، فجاء فوقف عليه فسلم عليه فلم يقم له سعيد ، ثم قال الوليد : كيف الشيخ ؟ فقال : بخير والحمد لله ، كيف أمير المؤمنين ؟ فقال الوليد : بخير والحمد لله وحده ، ثم انصرف وهو يقول لعمر بن عبد العزيز : هذا فقيه الناس . فقال : أجل يا أمير المؤمنين . قالوا : ثم خطب الوليد على منبر رسول الله (ص) فجلس فى الخطبة الأولى وانتصب فى الثانية ، قال وقال : هكذا خطب عثمان ، ثم انصرف فصرف بنلى الناس من أهل المدينة ذهبا كثيراً وفضة كثيرة ، ثم كسا المسجد النبوى كسوة من كسوة الكعبة التى معه ، وهى من ديباج غليظ .

وتوفى فى هذه السنة السائب بن يزيد بن سعد بن ثمامة ، وقد حج به أبوه مع رسول الله (ص.) وكان عمر السائب سبع سنين ، رواه البخارى فلهذا قال الواقدى : إنه ولد سنة سنة ثلاث من الهجرة ، وتوفى سنة إحدى وتسعين . وقال غيره : سنة ست وقيل ثمان وثمانين ، فالله أعلم .

سهل بن سعد الساعدي

صحابى مدنى جليل ، توفى رسول الله (ص.) وله من العمر خمس عشرة سنة ، وكان ممن ختمه الحجاج فى عنقه هو وأنس بن مالك وجابر بن عبد الله فى يده ، ليذلهم كيلا يسمع الناس من رأيهم ، قال الواقدى : توفى سنة إحدى وتسعين عن مائة سنة ، وهو آخر من مات فى المدينة من الصحابة . قال محمد بن سعد : ليس فى هذا خلاف ، وقد قال البخارى وغيره : توفى سنة ثمان وثمانين فالله أعلم.

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين

فيها غزا مسلمة وابن أخيه عمر بن الوليد بلاد الروم ففتحا حصونا كثيرة وغنما شيئاً كثيراً وهربت منهم الروم إلى أقصى بلادهم ، وفيها غزا طارق بن زياد مولى موسى بن نصير بلاد الأندلس فى اثنى عشر ألفا ، فخرج إليه ملكها أذريقون فى جحافلة وعليه تاجه ومعه سرير ملكه ، فقاتله طارق فهزمه وغنم مافى معسكره ، فكان من جملة ذلك السرير ، وتملك بلاد الأندلس بكمالها ، قال الذهبى : كان طارق بن زياد أمير طنجة وهى أقصى بلاد المغرب ، وكان نائبا لمولاه موسى بن نصير ، فكتب إليه صاحب الجزيرة الخضراء يستنجد به على عدوه ، فدخل طارق إلى جزيرة الأندلس من زقاق سبتة وانتهز الفرصة لكون الفرنج قد اقتتلوا فيما بينهم ، وأمعن طارق فى بلاد الأندلس فافتتح قرطبة وقتل ملكها ادرينوق ، وكتب إلى موسى بن نصير بالفتح ، فحسده موسى على الانفراد بهذا الفتح ، وكتب إلى الوليد يبشره بالفتح وينسبه إلى نفسه ، وكتب إلى طارق يتوعده لكونه دخل بغير أمره ، ويأمره أن لايتجاوز مكانه حتى يلحق به ، ثم سار إليه مسرعاً بجيوشه فدخل الأندلس ومعه حبيب بن أبى عبيدة الفهرى ، فأقام سنين يفتح فى بلاد الأندلس ويأخذ المدن والأموال ، ويقتل الرجال ويأسر النساء والأطفال ، فغنم شيئاً لا يحد ولا يوصف ولا يعد ، من الجواهر واليواقيت والذهب والفضة ، ومن آنية الذهب والفضة والأثاث والخيول والبغال وغير ذلك شيئاً كثيراً ، وفتح من الأقاليم الكبار والمدن شيئاً كثيراً . وكان مما فتح مسلمة وابن أخيه عمر بن الوليد من حصون بلاد الروم حصن سوسنة وبلغا إلى خليج القسطنطينية .

وفيها فتح قتيبة بن مسلم شومان وكش ونسف ، وامتنع عليه أهل فرياب فأحرقها ، وجهز أخاه عبد الرحمن إلى الصغد إلى طرخون خان ملك تلك البلاد، فصالحه عبد الرحمن وأعطاه طرخون خان

أموالا كثيرة ، وقدم على أخيه وهو ببخارى فرجع إلى مرو ، ولما صالح طرخون عبد الرحمن ورحل عنه اجتمعت الصغد وقالوا لطرخون : إنك قد بؤت بالذل ، وأديت الجزية ، وأنت شيخ كبير ، فلا حاجة لنا فيك ، ثم عزلوه وولوا عليهم غورك خان ـ أخا طرخون خان ـ ثم إنهم عصوا ونقضوا العهد ، وكان من أمرهم ما سيأتي .

وفيها غزا قتيبة سجستان يريد رتبيل ملك الترك الأعظم ، فلما انتهى إلى أول مملكة رتبيل تلقته رسله يريدون منه الصلح على أموال عظيمة ، خيول ورقيق ونساء من بنات الملوك ، يحمل ذلك إليه ، فصالحه . وحج بالناس فيها عمر بن عبد العزيز نائب المدينة . وتوفي فيها من الأعيان

مالك بن أوس بن الحدثان النضرى ، أبو سعيد المدنى ، مختلف فى صحبته ، قال بعضهم : ركب الخيل فى الجاهلية ورأى أبا بكر ، وقال محمد بن سعد : رأى رسول الله ﷺ ولم يحفظ منه شيئاً ، وأنكر ذلك ابن معين والبخارى وأبو حاتم ، وقالوا : لا تصح له صحبة والله أعلم . مات فى هذه السنة وقيل فى التى قبلها فالله أعلم .

طويس المغني

اسمه عيسى بن عبد الله أبو عبد المنعم المدنى مولى بنى مخزوم ، كان بارعا فى صناعته ، وكان طويلا مضطربا أحول العين ، وكان مشئوما ، لأنه ولد يوم مات رسول الله ﷺ ، وفطم يوم توفى الصديق ، واحتلم يوم قتل عمر ، وتزوج يوم قتل عثمان ، وولد له يوم قتل الحسين بن على ، وقيل ولد له يوم قتل على . حكاه ابن خلكان وغيره . وكانت وفاته فى هذه السنة عن ثنتين وثمانين سنة بالسويد ـ وهى على مرحلتين من المدينة ـ **الأخطل** كان شاعرا مطبقا ، فاق أقرانه فى الشعر .

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين

وفيها افتتح مسلمة بن عبد الملك حصونا كثيرة من بلاد الروم ، منها حصن الحديد وغزالة وماسة وغير ذلك . وفيها غزا العباس بن الوليد فافتتح سمسطية . وفيها غزا مروان بن الوليد الروم حتى بلغ خنجرة . وفيها كتب خوارزم شاه إلى قتيبة يدعوه إلى الصلح وأن يعطيه من بلاده مدائن ، وأن يدفع إليه أموالا ورقيقاً كثيراً على أن يقاتل أخاه ويسلمه إليه ، فانه قد أفسد فى الأرض وبغى على الناس وعسفهم ، وكان أخوه هذا لا يسمع بشىء حسن عند أحد إلا بعث إليه فأخذه منه ، سواء كان مالا أو نساء أو صبيانا أو دواب أو غيره ، فأقبل قتيبة نصره الله فى الجيوش فسلم إليه خوارزم شاه ماصالحه عليه ، وبعث قتيبة إلى بلاد أخى خوارزم شاه جيشا فقتلوا منهم خلقا كثيراً وأسروا أخاه ومعه أربعة آلاف أسير من كبارهم ، فدفع أخاه إليه ، وأمر قتيبة بالأسارى فضربت أعناقهم بحضرته ، قيل ألفا بين يديه وألفا عن يمينه وألفا عن شماله وألفا من وراء ظهره ، ليرهب بذلك الأعداء من الأتراك وغيرهم .

فتح سمرقند

وذلك أن قتيبة لما فرغ من هذا كله وعزم على الرجوع إلى بلاده ، قال له بعض الأمراء : إن أهل الصغد قد أمّنوك عامك هذا ، فان رأيت أن تعدل إليهم وهم لايشعرون ، فانك متى فعلت ذلك أخذتها إن كنت تريدها يوماً من الدهر . فقال قتيبة لذلك الأمير : هل قلت هذا لأحد ؟ قال : لا ! قال فلأن يسمعه منك أحد أضرب عنقك . ثم بعث قتيبة أخاه عبد الرحمن بن مسلم بين يديه فى عشرين ألفا فسبقه إلى سمرقند ، ولحقه قتيبة فى بقية الجيش ، فلما سمعت الأتراك بقدومهم إليهم انتخبوا من بينهم كل شديد السطوة من أبناء الملوك والأمراء ، وأمروهم أن يسيروا إلى قتيبة فى الليل فيكبسوا جيش المسلمين ،وجاءت الأخبار إلى قتيبة بذلك فجرد أخاه صالحا فى ستمائة فارس من الأبطال الذين لايطاقون ، وقال : خذوا عليهم الطريق ، فساروا فوقفوا لهم فى أثناء الطريق وتفرقوا ثلاث فرق ، فلما اجتازوا بهم بالليل - وهم لايشعرون بهم - نادوا عليهم فاقتتل المسلمون هم و إياهم ، فلم يفلت من أولئك الأتراك إلا النفر اليسير واحتزوا رءوسهم وغنموا ما كان معهم من الاسلحة المحلاة بالذهب ، والأمتعة ، وقال لهم بعض أولئك : تعلمون أنكم لم تقتلوا فى مقامكم هذا إلا ابن ملك أو بطل من الأبطال المعدودين بمائة فارس أو بألف فارس ، فنفلهم قتيبة جميع ماغنموه منهم من ذهب وسلاح ، واقترب من المدينة العظمى التى بالصغد - وهى سمرقند - فنصب عليها المجانيق فرماها بها ، وهو مع ذلك يقاتلهم لايقلع عنهم ، وناصحه من معه عليها من بخارى وخوارزم ، فقاتلوا أهل الصغد قتالا شديداً ، فأرسل إليه غورك ملك الصغد : إنما تقاتلنى باخوانى وأهل بيتى ، فاخرج إلى فى العرب . فغضب عند ذلك قتيبة وميز العرب من العجم وأمر العجم باعتزالهم ، وقدم الشجعان من العرب وأعطاهم جيد السلاح ، وانتزعه من أيدى الجبناء ، و زحف بالأبطال على المدينة و رماها بالمجانيق ، فثلم فيها ثلمة فسدها الترك بغرار الدخن ، وقام رجل منهم فوقها فجعل يشتم قتيبة فرماه رجل من المسلمين بسهم فقلع عينه حتى خرجت من قفاه . فلم يلبث أن مات قبحه الله ، فأعطى قتيبة الذى رماه عشرة آلاف ، ثم دخل الليل ، فلما أصبحوا رماهم بالمجانيق فثلم أيضا ثلمة وصعد المسلمون فوقها ، وتراموا هم وأهل البلد بالنشاب ، فقالت الترك لقتيبة : ارجع عنا يومك هذا ونحن نصالحك غداً ، فرجع عنهم وصالحوه من الغد على ألفى ألف ومائة ألف يحملونها إليه فى كل عام ، وعلى أن يعطوه فى هذه السنة ثلاثين ألف رأس من الرقيق ، ليس فيهم صغير ولاشيخ ولاعيب ، وفى رواية مائة ألف من رقيق ، وعلى أن يأخذ حلية الأصنام ومافى بيوت النيران ، وعلى أن يخلوا المدينة من المقاتلة حتى يبنى فيها قتيبة مسجداً ، و يوضع له فيه منبر يخطب عليه ، و يتغدى و يخرج . فأجابوه إلى ذلك ، فلما دخلها قتيبة دخلها ومعه أربعة آلاف من الأبطال - وذلك بعد أن بنى المسجد

ووضع فيه المنبر ـ فصلى فى المسجد وخطب وتغدى وأتى بالأصنام التى لهم فسلبت بين يديه ، وألقيت بعضها فوق بعض ، حتى صارت كالقصر العظم ، ثم أمر بتحريقها ، فتصارخوا وتباكوا وقال المجوس : إن فيها أصناماً قديمة من أحرقها هلك ، وجاء الملك غورك فنهى عن ذلك ، وقال لقتيبة : إنى لك ناصح ، فقام قتيبة وأخذ فى يده شعلة نار وقال : أنا أحرقها بيدى فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون ، ثم قام إليها وهو يكبر الله عز وجل ، وألقى فيها النار فاحترقت ، فوجد من بقايا ما كان فيها من الذهب خمسون ألف مثقال من ذهب . وكان من جملة ما أصاب قتيبة فى السبى جارية من ولد يزدجرد ، فأهداها إلى الوليد فولدت له يزيد بن الوليد ، ثم استدعى قتيبة بأهل سمرقند فقال لهم : إنى لا أريد منكم أكثر مما صالحتكم عليه ، ولكن لابد من جند يقيمون عندكم من جهتنا . فانتقل عنها ملكها غورك خان فتلا قتيبة [وأنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقى] الآيات ثم ارتحل عنها قتيبة إلى بلاد مرو ، واستخلف على سمرقند أخاه عبد الله بن مسلم ، وقال له : لا تدع مشركا يدخل باب سمرقند إلا مختوم اليد ، ثم لا تدعه بها إلا مقدار ما تجف طينة ختمه ، فان جفت وهو بها فاقتله ، ومن رأيت منهم ومعه حديدة أو سكينة فاقتله بها ، و إذا أغلقت الباب فوجدت بها أحداً فاقتله ، فقال فى ذلك كعب الأشقرى ـ ويقال هى لرجل من جعفى : ـ

كلَّ يومٍ يحوى قتيبةُ نهباً * ويزيدُ الأموالَ مالاً جديدا
باهليٌّ قد ألبسَ التاجَ حتى * شابَ منهُ مفارقٌ كنَّ سودا
دوّخَ الصُّغدَ بالكتائبِ حتى * تركَ الصغدَ بالعراءِ قعودا
فوليدٌ يبكي لفقدِ أبيهِ * وأبٌ موجعٌ يبكّي الوليدا
كلما حلَّ بلدةً أو أتاها * تركتْ خيلُهُ بها أخدودا

وفى هذه السنة عزل موسى بن نصير نائب بلاد المغرب مولاه طارقاً عن الأندلس ، وكان قد بعثه إلى مدينة طليطلة ففتحها فوجد فيها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام ، وفيها من الذهب والجواهر شىء كثير جداً ، فبعثوا بها إلى الوليد بن عبد الملك ، فما وصلت إليه حتى مات وتولى أخوه سليمان بن عبد الملك ، فوصلت مائدة سليمان عليه السلام إلى سليمان على ماسيأتى بيانه فى موضعه ، وكان فيها مايبهر العقول ، لم ير منظر أحسن منها . واستعمل موسى بن نصير مكان مولاه ولده عبد العزيز بن موسى بن نصير . وفيها بعث موسى بن نصير العساكر وبثها فى بلاد المغرب ، فافتتحوا مدنا كثيرة من جزيرة الأندلس منها قرطبة وطنجة ، ثم سار موسى بنفسه إلى غرب الأندلس فافتتح مدينة باجة والمدينة البيضاء وغيرهما من المدن الكبار والأقاليم ، ومن القرى والرساتيق شىء كثير ، وكان لايأتى مدينة فيبرح عنها حتى يفتحها أو ينزلوا على حكمه ، وجهز البعوث والسرايا غربا

وشرقا وشمالا ، فجعلوا يفتتحون المغرب بلداً بلداً ، و إقليما إقليما ، و يغنمون الأموال و يسبون الذرارى والنساء ، و رجع موسى بن نصير بغنائم وأموال وتحف لاتحصى ولا تعد كثرة .

وفيها قحط أهل إفريقية وأجدبوا جدباً شديداً ، فخرج بهم موسى بن نصير يستسقى بهم ، فما زال يدعو حتى انتصف النهار ، فلما أراد أن ينزل عن المنبر قيل له : ألا تدعو لأمير المؤمنين ؟ قال : ليس هذا الموضع موضع ذاك ، فلما قال هذه المقالة أرسل الله عليهم الغيث فأمطروا مطراً غزراً وحسن حالهم ، وأخصبت بلادهم . وفيها ضرب عمر بن عبد العزيز خبيب بن عبد الله بن الزبير خمسين سوطاً بأمر الوليد له فى ذلك ، وصب فوق رأسه قربة من ماء بارد فى يوم شتاء بارد ، وأقامه على باب المسجد يوم ذلك فمات رحمه الله . وكان عمر بن عبد العزيز بعد موت خبيب شديد الخوف لايأمن ، وكان إذا بشر بشئ من أمر الآخرة يقول : وكيف وخبيب لى بالطريق ؟ و فى رواية يقول هذا إذا لم يكن خبيب فى الطريق ، ثم يصيح صياح المرأة الثكلى ، وكان إذا أثنى عليه يقول : خبيب وما خبيب إن نجوت منه فأنا بخير . وما زال على المدينة إلى أن ضرب خبيباً فمات فاستقال وركبه الحزن والخوف من حينئذ ، وأخذ فى الاجتهاد فى العبادة والبكاء ، وكانت تلك هفوة منه وزلة ، ولكن حصل له بسببها خير كثير ، من عبادة و بكاء وحزن وخوف و إحسان وعدل وصدقة و بر وعتق وغير ذلك .

وفيها افتتح محمد بن القاسم ـ وهو ابن عم الحجاج بن يوسف ـ مدينة الدبيل وغيرها من بلاد الهند وكان قد ولاه الحجاج غزو الهند وعمره سبع عشرة سنة ، فسار فى الجيوش فلقوا الملك داهر ـ وهو ملك الهند ـ فى جمع عظيم ومعه سبع وعشرون فيلا منتخبة ، فاقتتلوا فهزمهم الله وهرب الملك داهر ، فلما كان الليل أقبل الملك ومعه خلق كثير جداً فاقتتلوا قتالا شديداً فقتل الملك داهر وغالب من معه ، و تبع المسلمون من انهزم من الهنود فقتلوه ثم سار محمد بن القاسم فافتتح مدينة الكبرج و برها و رجع بغنائم كثيرة وأموال لاتحصى كثرة ، من الجواهر والذهب وغير ذلك . فكانت سوق الجهاد قائمة فى بنى أمية ليس لهم شغل إلا ذلك ، قد علت كلمة الاسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ، و برها و بحرها ، وقد أذلوا الكفر وأهله ، وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعبا ، لايتوجه المسلمون إلى قطر من الأقطار إلا أخذوه ، وكان فى عساكرهم وجيوشهم فى الغزو الصالحون والأولياء والعلماء من كبار التابعين ، فى كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينه . فقتيبة ابن مسلم يفتح فى بلاد الترك ، يقتل و يسبى و يغنم ، حتى وصل إلى تخوم الصين ، وأرسل إلى ملكه يدعوه ، فخاف منه وأرسل له هدايا وتحفا وأموالا كثيرة هدية ، و بعث يستعطفه مع قوته وكثرة جنده ، بحيث أن ملوك تلك النواحى كلها تؤدى إليه الخراج خوفا منه . ولو عاش الحجاج لما أقلع عن بلاد

الصين ، ولم يبق إلا أن يلتقى مع ملكها ، فلما مات الحجاج رجع الجيش كما مر . ثم إن قتيبة قتل بعد ذلك ، قتله بعض المسلمين . ومسلمة بن عبد الملك بن مروان وابن أمير المؤمنين الوليد وأخوه الآخر يفتحون فى بلاد الروم و يجاهدون بعساكر الشام حتى وصلوا إلى القسطنطينية ، و بنى بها مسلمة جامعا يعبد الله فيه ، وامتلأت قلوب الفرنج منهم رعبا . ومحمد بن القاسم ابن أخى الحجاج يجاهد فى بلاد الهند و يفتح مدنها فى طائفة من جيش العراق وغيرهم . وموسى بن نصير مجاهد فى بلاد المغرب و يفتح مدنها وأقاليمها فى جيوش الديار المصرية وغيرهم . وكل هذه النواحى إنما دخل أهلها فى الاسلام وتركوا عبادة الأوثان . وقبل ذلك قد كان الصحابة فى زمن عمر وعثمان فتحوا غالب هذه النواحى ودخلوا فى مبانيها ، بعد هذه الاقاليم الكبار ، مثل الشام ومصر والعراق واليمن وأوائل بلاد الترك ، ودخلوا إلى ماوراء النهر وأوائل بلاد المغرب ، وأوائل بلاد الهند . فكان سوق الجهاد قائما فى القرن الأول من بعد الهجرة إلى انقضاء دولة بنى أمية و فى أثناء خلافة بنى العباس مثل أيام المنصور وأولاده ، والرشيد وأولاده ، فى بلاد الروم والترك والهند . وقد فتح محمود سُبكتكين و ولده فى أيام ملكهم بلاداً كثيرة من بلاد الهند ، ولما دخل طائفة ممن هرب من بنى أمية إلى بلاد المغرب وتملكوها أقاموا سوق الجهاد فى الفرنج بها . ثم لما بطل الجهاد من هذه المواضع رجع العدو إليها فأخذ منها بلاداً كثيرة ، وضعف الاسلام فيها ، ثم لما استولت دولة الفاطميين على الديار المصرية والشامية ، وضعف الاسلام وقل ناصروه ، وجاء الفرنج فأخذوا غالب بلاد الشام حتى أخذوا بيت المقدس وغيره من البلاد الشامية ، فأقام الله سبحانه بنى أيوب مع نور الدين ، فاستلبوهامن أيديهم وطردوهم عنه ، فلله الحمد والمنة ، وسيأتى ذلك كله فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

وفيها عزل الوليد عمر بن عبد العزيز عن إمرة المدينة ، وكان سبب ذلك ، أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى الوليد يخبره عن أهل العراق أنهم فى ضيم وضيق مع الحجاج من ظلمه وغشمه ، فسمع بذلك الحجاج فكتب إلى الوليد : إن عمر ضعيف عن إمرة المدينة ومكة ، وهذا وهن وضعف فى الولاية ، فاجعل على الحرمين من يضبط أمرهما . فولى على المدينة عثمان بن حيان ، وعلى مكة خالد بن عبد الله القسرى ، وفعل ما أمره به الحجاج . فخرج عمر بن عبد العزيز من المدينة فى شوال فنزل السويداء ، وقدم عثمان بن حيان المدينة لليلتين بقيتا من شوال من هذه السنة .

وحج بالناس فيها عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك . وممن توفى فى هذه السنة من الأعيان :

أنس بن مالك

ابن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدى بن النجار ، أبو حمزة

ويقال أبو ثمامة الأنصاري النجاري ، خادم رسول الله ﷺ وصاحبه ، وأمه أم حرام مليكة بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام ، زوجة أبي طلحة زيد بن سهل الأنصاري . روى عن رسول الله ﷺ أحاديث جمة ، وأخبر بعلوم مهمة . وروى عن أبي بكر وعمر وعثمان وابن مسعود وغيرهم . وحدث عنه خلق من التابعين ، قال أنس : قدم رسول الله ﷺ المدينة وأنا ابن عشر سنين ، وتوفى وأنا ابن عشرين سنة . وقال محمد بن عبد الله الأنصاري عن أبيه عن ثمامة قال قيل لأنس : أشهدت بدراً ؟ فقال : وأين أغيب عن بدر لا أم لك ؟ قال الأنصاري : شهدها يخدم رسول الله ﷺ . قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي : لم يذكر ذلك أحد من أصحاب المغازي ، قلت : الظاهر أنه إنما شهد ما بعد ذلك من المغازي والله أعلم .

وقد ثبت أن أمه أتت به - وفي رواية عمه زوج أمه أبو طلحة - إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله هذا أنس خادم لبيب يخدمك ، فوهبته منه فقبله ، وسألته أن يدعو له فقال : « اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة » . وثبت عنه أنه قال : كناني رسول الله ﷺ بنخلة كنت أجتنيها. وقد استعمله أبو بكر ثم عمر على عمالة البحرين وشكراه في ذلك ، وقد انتقل بعد النبي ﷺ فسكن البصرة ، وكان له بها أربع دور ، وقد ناله أذى من جهة الحجاج ، وذلك في فتنة ابن الأشعث ، توهم الحجاج منه أنه له مداخلة في الأمر ، وأنه أفتى فيه ، فختمه الحجاج في عنقه ، هذا عتق الحجاج ، وقد شكاه أنس كما قدمنا إلى عبد الملك ، فكتب إلى الحجاج يعنفه ، ففزع الحجاج من ذلك وصالح أنسا . وقد وفد أنس على الوليد بن عبد الملك في أيام ولايته ، قيل في سنة ثنتين وتسعين ، وهو يبنى جامع دمشق ، قال مكحول : رأيت أنساً يمشي في مسجد دمشق فقمت إليه فسألته عن الوضوء من الجنازة فقال : لاوضوء . وقال الأوزاعي : حدثني إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر قال : قدم أنس على الوليد فقال له الوليد : ماذا سمعت من رسول الله ﷺ يذكر به الساعة ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « أنتم والساعة كهاتين » . ورواه عبد الرزاق بن عمر عن إسماعيل قال : قدم أنس على الوليد في سنة ثنتين وتسعين فذكره . وقال الزهري : دخلت على أنس بن مالك بدمشق وهو يبكي فقلت : ما يبكيك ؟ قال : لا أعرف مما كان رسول الله ﷺ وأصحابه إلا هذه الصلاة ، وقد صنعتم فيها ما صنعتم . وفي رواية وهذه الصلاة قد ضيعت - يعني ما كان يفعله خلفاء بني أمية من تأخير الصلاة إلى آخر وقتها الموسع - كانوا يواظبون على التأخير إلا عمر بن عبد العزيز في أيام خلافته كما سيأتي ، وقال عبد بن حميد عن عبد الرزاق عن جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس . قال : جاءت بي أمي إلى رسول الله ﷺ وأنا غلام فقالت : يا رسول الله خويدمك أنيس فادع الله له . فقال : « اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة » . قال : فقد رأيت اثنتين وأنا أرجو الثالثة ، وفي

رواية قال أنس : فوالله إن مالى لكثير حتى نخلى وكرمى ليثمر فى السنة مرتين ، وإن ولدى وولد ولدى ليتعادّون على نحو المائة ، وفى رواية وإن ولدى لصلبى مائة وستة . ولهذا الحديث طرق كثيرة وألفاظ منتشرة جداً ، وفى رواية قال أنس : وأخبرتنى بنتى آمنة أنه دفن لصلبى إلى حين مقدم الحجاج عشرون ومائة . وقد تقصى ذلك بطرقه وأسانيده وأورد ألفاظه الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أنس ، وقد أوردنا طرفا من ذلك فى كتاب دلائل النبوة فى أواخر السيرة ولله الحمد . وقال ثابت لأنس : هل مست يدك كفّ رسول الله (ص) ؟ قال : نعم ! قال فأعطنيها أقبلها ، وقال محمد ابن سعد عن مسلم بن إبراهيم عن المثنى بن سعيد الذراع قال : سمعت أنس بن مالك يقول : مامن ليلة إلا وأنا أرى فيها حبيبى رسول الله (ص) ثم يبكى . وقال محمد بن سعد عن أبى نعيم عن يونس ابن أبى إسحاق عن المنهال بن عمرو . قال : كان أنس صاحب نعل رسول الله (ص) وإداوته ، وقال أبو داود : ثنا الحكم بن عطية عن ثابت عن أنس . قال : إنى لأرجو أن ألقى رسول الله (ص) فأقول : يا رسول الله خويدمك .

وقال الامام أحمد : حدثنا يونس ثنا حرب بن ميمون عن النضر بن أنس عن أنس . قال : سألت رسول الله (ص) أن يشفع لى يوم القيامة : « قال أنا فاعل ، قلت فأين أطلبك يوم القيامة يانبى الله ؟ قال : اطلبنى أول ماتطلبنى على الصراط ، قلت : فاذا لم ألقك ؟ قال : فأنا عند الميزان ، قلت : فان لم ألقك عند الميزان ؟ قال فأنا عند الحوض لا أخطئ هذه الثلاثة المواطن يوم القيامة » . ورواه الترمذى وغيره من حديث حرب بن ميمون أبى الخطاب صاحب الأعمش الأنصارى به وقال : حسن غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه . وقال شعبة عن ثابت قال قال أبو هريرة : ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله (ص) من ابن أم سليم ـ يعنى أنس بن مالك ـ وقال ابن سيرين : كان أحسن الناس صلاة فى الحضر والسفر . وقال أنس : خذ منى فأنا أخذت من رسول الله (ص) عن الله عز وجل ، ولست تجد أوثق منى . وقال معتمر بن سليمان عن أبيه سمعت أنساً يقول : ما بقى أحد صلى إلى القبلتين غيرى . وقال محمد بن سعد : حدثنا عفان حدثنى شيخ لنا يكنى أبا جناب سمعت الحريرى يقول : أحرم أنس من ذات عرق فما سمعناه متكلما إلا بذكر الله عز وجل حتى أحل ، فقال لى : يا ابن أخى هكذا الاحرام . وقال صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف : دخل علينا أنس يوم الجمعة ونحن فى بعض أبيات أزواج النبى (ص) نتحدث فقال : مه ، فلما أقيمت الصلاة قال : إنى لأخاف أن أكون قد أبطلت جمعتى بقولى لكم مه . وقال ابن أبى الدنيا : ثنا بشار ابن موسى الخفاف ثنا جعفر بن سليمان عن ثابت قال : كنت مع أنس فجاءت قهرمانة فقالت يا أبا حمزة عطشت أرضنا ، قال فقام أنس فتوضأ وخرج إلى البرية فصلى ركعتين ثم دعا فرأيت السحاب

يلتئم ثم أمطرت حتى خيل إلينا أنها ملأت كل شئ ، فلما سكن المطر بعث أنس بعض أهله فقال : انظر أين بلغت السماء ، فنظر فلم تعدُ أرضه إلا يسيراً .

وقال الامام أحمد : حدثنا معاذ بن معاذ ثنا ابن عون عن محمد قال : كان أنس إذا حدث عن رسول الله (ص) حديثا ففرغ منه قال : أو كما قال رسول الله (ص). وقال الأنصارى عن ابن عوف عن محمد قال : بعث أمير من الأمراء إلى أنس شيئاً من الفئ فقال أخمس ؟ قال : لا ، فلم يقبله : وقال النضر بن شداد عن أبيه : مرض أنس فقيل له ألا ندعو لك الطبيب ؟ فقال : الطبيب أمرضنى . وقال حنبل بن إسحاق : ثنا أبو عبد الله الرقاشى ثنا جعفر بن سليمان ثنا على بن يزيد قال : كنت فى القصر مع الحجاج وهو يعرض الناس ليالى ابن الأشعث ، فجاء أنس بن مالك فقال الحجاج : هى يا خبيث ، جوال فى الفتن ، مرة مع على ، ومرة مع ابن الزبير ، ومرة مع ابن الأشعث ، أما والذى نفس الحجاج بيده لأستأصلنك كما تستأصل الصمغة ، ولأجردنك كما تجرد الضب . قال يقول أنس : إياى يعنى الأمير ؟ قال إياك أعنى ، أصم الله سمعك ، قال فاسترجع أنس ، وشغل الحجاج فخرج أنس فتبعناه إلى الرحبة ، فقال : لولا أنى ذكرت ولدى - وفى رواية لولا أنى ذكرت أولادى الصغار - وخفته عليهم ما باليت أى قتل أقتل ، ولكلمته بكلام فى مقامى هذا لا يستخفنى بعده أبداً . وقد ذكر أبو بكر بن عياش أن أنسا بعث إلى عبد الملك يشكو إليه الحجاج ويقول : والله لو أن اليهود والنصارى رأوا مَن خدم نبيهم لأكرموه ، وأنا قد خدمت رسول الله (ص) عشر سنين . فكتب عبد الملك إلى الحجاج كتابا فيه كلام جد وفيه : إذا جاءك كتابى هذا فقم إلى أبى حمزة فترضّاه وقبّل يده ورجله ، وإلا حل بك منى ما تستحقه . فلما جاء كتاب عبد الملك إلى الحجاج بالغلظة والشدة ، همّ أن ينهض إليه فأشار عليه إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر ، الذى قدم بالكتاب أن لا يذهب إلى أنس ، وأشار على أنس أن يبادر إلى الحجاج بالمصالحة - وكان إسماعيل صديق الحجاج - فجاء أنس فقام إليه الحجاج يتلقاه ، وقال : إنما مثلى ومثلك إياك أعنى واسمعى ياجارة . أردت أن لا يبقى لأحد على منطق .

وقال ابن قتيبة : كتب عبد الملك إلى الحجاج - لما قال لأنس ماقال - : يا ابن المستفرمة بعجم الزبيب لقد هممت أن أركلك ركلة تهوى بها إلى نار جهنم ، قاتلك الله أخيفش العينين ، أفيتل الرجلين ، أسود العاجزين - ومعنى قوله المستفرمة بعجم الزبيب - أى تضيق فرجها عند الجماع به ، ومعنى أركلك أى أرفسك برجلى ، وسيأتى بسط ذلك فى ترجمة الحجاج فى سنة خمس وتسعين . وقال أحمد بن صالح العجلى : لم يبتل أحد من الصحابة إلارجلين ، معيقيب كان به الجذام ، وأنس بن مالك كان به وضح . وقال الحميدى عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن أبى جعفر قال :

رأيت أنسا يأكل فرأيته يلقم لقما عظاماً ، ورأيت به وضحا شديداً . وقال أبو يعلى : ثنا عبد الله ابن معاذ بن يزيد عن أيوب قال : ضعف أنس عن الصوم فصنع طعاماً ودعا ثلاثين مسكيناً فأطعمهم. وذكره البخارى تعليقا . وقال شعبة عن موسى السنبلاوى قلت لأنس : أنت آخر من بقى من أصحاب رسول الله (ص) ؟ قال : قد بقى قوم من الأعراب ، فأما من أصحابه فأنا آخر من بقى ، وقيل له فى مرضه : ألا ندعو لك طبيباً ؟ فقال : الطبيب أمرضنى ، وجعل يقول : لقنونى لا إله إلا الله وهو محتضر ، فلم يزل يقولها حتى قبض . وكانت عنده عُصيَّة من رسول الله (ص) فأمر بها فدفنت معه .

قال عمر بن شبة وغير واحد : مات وله مائة وسبع سنين ، وقال الامام أحمد فى مسنده : ثنا معتمر بن سليمان عن حميد أن أنسا عمّر مائة سنة غير سنة ، قال الواقدى : وهو آخر من مات من الصحابة بالبصرة ، وكذا قال على بن المدينى والفلاس وغير واحد . وقد اختلف المؤرخون فى سنة وفاته ، فقيل سنة تسعين ، وقيل إحدى وتسعين ، وقيل ثنتين وتسعين وقيل ثلاث وتسعين ، وهذا هو المشهور وعليه الجمهور والله أعلم . وقال الامام أحمد : حدثنى أبو نعيم قال : توفى أنس بن مالك وجابر بن زيد فى جمعة واحدة سنة ثلاث وتسعين . وقال قتادة : لما مات أنس قال مورق العجلى : ذهب اليوم نصف العلم ، قيل له وكيف ذاك يا أبا المعتمر ؟ قال : كان الرجل من أهل الأهواء إذا خالفونا فى الحديث عن رسول الله (ص) قلنا لهم : تعالوا إلى من سمعه منه .

عمر بن عبدالله بن ابي ربيعة

ابن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، الشاعر المشهور ، يقال إنه ولد يوم توفى عمر بن الخطاب ، وختن يوم مقتل عثمان ، وتزوج يوم مقتل على ، فالله أعلم ، وكان مشهوراً بالتغزل المليح البليغ ، كان يتغزل فى امرأة يقال لها الثريا بنت على بن عبد الله الأموية ، وقد تزوجها سهل بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى ، فقال فى ذلك عمر بن أبى ربيعة : —

أيها المنكِحُ الثريّا سُهَيْلاً * عَمْرَكَ اللهُ كيفَ يلتقيان

هي شاميةٌ إذا ما استقلَّتْ * وسهيلٌ إذا استقلَّ يمانِ

ومن مستجاد شعره ما أورده ابن خلكان :

حيِّ طيفاً من الأحبة زارا * بعد ما برَّحَ الكرى السُمّارا

طارقاً فى المنامِ بعدَ دجى * الليلِ خفيا بأن يزورَ نهارا

قلتَ ما بالَنا جُفينا وكنّا * قبلَ ذاكَ الأسماعِ والأبصارا

قال : إنا كما عهدت ولكنْ * شغل الحلي أهلهُ أنْ يُعارا

بلال بن أبي الدرداء

ولى إمرة دمشق ثم ولى القضاء بها ، ثم عزله عبد الملك بأبى إدريس الخولانى . كان بلال حسن السيرة ، كثير العبادة ، والظاهر أن هـذا القبر الذى بباب الصغير الذى يقال له قبر بلال ، إنما هو قبر بلال بن أبى الدرداء ، لا قبر بلال بن حمامـة مؤذن رسول الله (ص) ، فان بلالاً المؤذن دفن بداريا والله أعلم .

بشر بن سعيد

المزنى السيد العابد الفقيه ، كان من العباد المنقطعين ، الزهاد المعروفين ، توفى بالمدينة .

زرارة بن أوفى

ابن حاجب العامرى ، قاضى البصرة ، كان من كبار علماء أهل البصرة وصلحائها ، له روايات كثيرة ، قرأ مرة فى صلاة الصبح سورة المدثر فلما بلغ[فاذا نقر فى الناقور] خرّ ميتا . توفى بالبصرة وعمره نحو سبعين سنة .

خبيب بن عبدالله

ابن عبد الله بن الزبير ، ضربه عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد له فى ذلك فمات ، ثم عزل عمر بعده بأيام قليلة ، فكان يتأسف على ضربه له ويبكى . مات بالمدينة .

حفص بن عاصم

ابن عمر بن الخطاب المدنى ، له روايات كثيرة ، وكان من الصالحين . توفى بالمدينة .

سعيد بن عبد الرحمن

ابن عتاب بن أسيد الأموى ، أحد الأشراف بالبصرة ، كان جواداً ممدحا ، وهو أحد الموصوفين بالكرم ، قيل إنه أعطى بعض الشعراء ثلاثين

فروة بن مجاهد

قيل إنه كان من الأبدال ، أسر مرة وهو فى غزوة هو وجماعة معه فأتوا بهم الملك فأمر بتقييدهم وحبسهم فى المكان والاحتراز عليهم إلى أن يصبح فيرى فيهم رأيه ، فقال لهم فروة : هل لكم فى المضى إلى بلادنا ؟ فقالوا : وما ترى ما نحن فيه من الضيق ؟ فلمس قيودهم بيده فزالت عنهم ، ثم أتى باب السجن فلمسه بيده فانفتح ، فخرجوا منـه ومضوا ، فأدركوا جيش المسلمين قبل وصولهم إلى البلد .

ابو الشعثاء جابر بن زيد

كان لا يماكس فى ثلاث ، فى الكرى إلى مكة ، وفى الرقبة يشتريها لتعتق ، وفى الأضحية . وقال : لا نماكس فى شئ يتقرب به إلى الله . وقال ابن سيرين : كان أبو الشعثاء مسلما عند الدينار والدرهم ، قلت : كما قيل : —

إنى رأيتُ فلا تظنوا غيرهُ * أنّ التورعَ عندَ هذا الدرهمِ
فاذا قدرتَ عليهِ ثم تركتهُ * فاعلمْ بأن تقاكَ تقوى المسلمِ

وقال أبو الشعثاء : لأن أتصدق بدرهم على يتيم ومسكين أحب إلى من حجة بعد حَجة الاسلام . كان أبو الشعثاء من الذين أوتوا العلم ، وكان يفتى فى البصرة ، وكان الصحابة مثل جابر بن عبد الله إذا سأله أهل البصرة عن مسألة يقول : كيف تسألونا وفيكم أبو الشعثاء ؟ وقال له جابر بن عبد الله : يا ابن زيد إنك من فقهاء البصرة وإنك ستستفتى فلا تفتين إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية ، فانك إن فعلت غير ذلك فقد هلكت وأهلكت . وقال عمرو بن دينار : ما رأيت أحداً أعلم بفتيا من جابر ابن زيد . وقال إياس بن معاوية : أدركت أهل البصرة ومفتيهم جابر بن زيد من أهل عمان . وقال قتادة لما دفن جابر بن زيد : اليوم دفن أعلم أهل الأرض . وقال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال أبو الشعثاء : كتب الحكم بن أيوب نفراً للقضاء أنا أحدهم ــ أى عمرو ــ فلو أنى ابتليت بشئ منه لركبت راحلتى وهربت من الأرض . وقال أبو الشعثاء : نظرت فى أعمال البر فاذا الصلاة تجهد البدن ولا تجهد المال ، والصيام مثل ذلك ، والحج يجهد المال والبدن ، فرأيت أن الحج أفضل من ذلك . وأخذ مرة قبضة تراب من حائط ، فلما أصبح رماها فى الحائط ، وكان الحائط لقوم قالوا : لوكان كلما مر به أخذ منه قبضة لم يبق منه شئ . وقال أبو الشعثاء : إذا جئت يوم الجمعة إلى المسجد فقف على الباب وقل : اللهم اجعلنى اليوم أوجه من توجه إليك ، وأقرب من تقرب إليك ، وأنجح من دعاك ورغب إليك . وقال سيار : حدثنا حماد بن زيد ثنا الحجاج بن أبى عيينة . قال : كان جابر ابن زيد يأتينا فى مصلانا ، قال : فأتانا ذات يوم وعليه نعلان خلقان ، فقال : مضى من عمرى ستون سنة نعلاى هاتان أحب إلى مما مضى منه إلا أن يكون خير قدمته . وقال صالح الدهان : كان جابر ابن زيد إذا وقع فى يده ستوق كسره ورمى به لئلا يغر به مسلم . الستوق الدرهم المغاير أو الدغل وقيل : هو المغشوش .

وروى الامام أحمد : حدثنا أبو عبد الصمد العمى حدثنا مالك بن دينار قال : دخل علىّ جابر ابن زيد وأنا أكتب المصحف فقلت له : كيف ترى صنعتى هذه يا أبا الشعثاء ؟ قال : نعم الصنعه صنعتك ، تنقل كتاب الله ورقة إلى ورقة ، وآية إلى آية ، وكلمة إلى كلمة ، هذا الحلال لا بأس به وقال مالك بن دينار : سألته عن قوله تعالى [إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات] قال ضعف عذاب الدنيا وضعف عذاب الآخرة [ثم لاتجد لك علينا نصيرا] وقال سفيان : حدثنى أبو عمير الحارث بن عمير قال : قالوا لجابر بن زيد عند الموت : ماتشتهى وما تريد ؟ قال : نظرة إلى الحسن . وفى رواية عن ثابت قال : لما ثقل على جابر بن زيد قيل له : ما تشتهى ؟ قال نظرة إلى

الحسن . قال ثابت : فأتيت الحسن فأخبرته فركب إليه ، فلما دخل عليه قال لأهله : أقعدونى ، فجلس فما زال يقول : أعوذ بالله من النار وسوء الحساب .

وقال حماد بن زيد : حدثنا حجاج بن أبى عيينة قال : سمعت هنداً بنت المهلب بن أبى صفرة ـ وكانت من أحسن النساء ـ وذكروا عندها جابر بن زيد فقالوا : إنه كان إباضيا ، فقالت : كان جابر بن زيد أشد الناس انقطاعا إلىَّ وإلى أمى ، فما أعلم عنه شيئا ، وكان لا يعلم شيئا يقربنى إلى الله عز وجل إلا أمرنى به ، ولا شيئاً يباعدنى عن الله إلا نهانى عنه ، وما دعانى إلى الاباضية قط ولا أمرنى بها ، وكان ليأمرنى أين أضع الخمار ـ ووضعت يدها على الجبهة ـ أسند عن جماعة من الصحابة ، ومعظم روايته عن ابن عمر وابن عباس .

ثم دخلت سنة أربع وتسعين

فيها غزا العباس بن الوليد أرض الروم ، فقيل إنه فتح انطاكية ، وغزا أخوه عبد العزيز بن الوليد فبلغ غزالة ، وبلغ الوليد بن هشام المعيطى أرض برج الحمام ، وبلغ يزيد بن أبى كبشة أرض سورية . وفيها كانت الرجفة بالشام . وفيها افتتح مسلمة بن عبد الملك سندرة من أرض الروم . وفيها فتح الله على الاسلام فتوحات عظيمة فى دولة الوليد بن عبد الملك ، على يدى أولاده وأقربائه وأمرائه حتى عاد الجهاد شبيها بأيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وفيها افتتح القاسم بن محمد الثقفى أرض الهند وغنم أموالا لا تعد ولا توصف ، وقد ورد فى غزوة الهند حديث رواه الحافظ ابن عساكر وغيره . وفيها غزا قتيبة بن مسلم الشاش وفرغانة حتى بلغ خُجَنْدة ، وكاشان مدينتى فرغانة ، وذلك بعد فراغه من الصغد وفتح سمرقند ، ثم خاض تلك البلاد يفتح فيها حتى وصل إلى كابل فحاصرها وافتتحها ، وقد لقيه المشركون فى جموع هائلة من الترك فقاتلهم قتيبة عند خجندة فكسرهم مراراً وظفر بهم ، وأخذ البلاد منهم ، وقتل منهم خلقا وأسر آخرين ، وغنم أموالا كثيرة جداً . قال ابن جرير : وقد قال سحبان وائل يذكر قتالهم بخجندة التى هى قريبة من بلاد الصين أبياتا فى ذلك : ـ

فسلِ الفوارسَ فى خجنـ * ـدةَ تحتَ مرهفةِ العوالى
هلْ كنتُ أجمعُهم إذا * هُزِموا وأُقدمُ فى قتالي
أمْ كنتَ أضربُ هامةَ الـ * ـعاتي وأصْبِرُ للنّزال
هذا وأنتَ قريعُ قيـ * ـسٍ كلها ضخمُ النوال
وفضلتَ قيساً فى الندى * وأبوكَ فى الحججِ الخوالى

تمت مروءتكم ونا * غى عزكم غلب الجبال
ولقد تبين عدل حكمك * فيهم فى كل مال

هكذا ذكر ابن جرير هذا من شعر سحبان وائل فى هذه الغزوة . وقد ذكرنا ما أورده ابن الجوزى فى منظمه أن سحبان وائل مات فى خلافة معاوية بن أبى سفيان بعد الخمسين فالله أعلم .

مقتل سعيد بن جبير رحمه الله

قال ابن جرير : وفى هذه السنة قتل الحجاج بن يوسف سعيد بن جبير ، وكان سبب ذلك أن الحجاج كان قد جعله على نفقات الجند حين بعثه مع ابن الأشعث إلى قتال رتبيل ملك الترك ، فلما خلعه ابن الأشعث خلعه معه سعيد بن جبير ، فلما ظفر الحجاج بابن الأشعث وأصحابه هرب سعيد بن جبير إلى اصبهان ، فكتب الحجاج إلى نائبها أن يبعثه إليه ، فلما سمع بذلك سعيد هرب منها ، ثم كان يعتمر فى كل سنة ويحج ، ثم إنه لجأ إلى مكة فأقام بها إلى أن وليها خالد بن عبد الله القسرى ، فأشار من أشار على سعيد بالهرب منها فقال سعيد : والله لقد استحييت من الله مما أفر ولا مفر من قدره ؟ وتولى على المدينة عثمان بن حيان بدل عمر بن عبد العزيز ، فجعل يبعث من بالمدينة من أصحاب ابن الأشعث من العراق إلى الحجاج فى القيود ، فتعلم منه خالد بن الوليد القسرى فعين من عنده من مكة سعيد بن جبير وعطاء بن أبى رباح ، ومجاهد بن جبر ، وعمرو بن دينار ، وطلق ابن حبيب . ويقال إن الحجاج أرسل إلى الوليد يخبره أن بمكة أقواما من أهل الشقاق ، فبعث خالد بهؤلاء إليه ثم عفا عن عطاء وعمرو بن دينار لأنهما من أهل مكة ، وبعث بأولئك الثلاثة ، فأما طلق فمات فى الطريق قبل أن يصل ، وأما مجاهد فحبس فما زال فى السجن حتى مات الحجاج ، وأما سعيد ابن جبير فلما أوقف بين يدى الحجاج قال له : يا سعيد ألم أشركك فى أمانتى ! ألم أستعملك ؟ ألم أفعل ألم أفعل ؟ كل ذلك يقول : نعم ، حتى ظن من عنده أنه سيخلى سبيله ، حتى قال له : فما حملك على الخروج علىّ وخلعت بيعة أمير المؤمنين ؟ فقال سعيد : إن ابن الأشعث أخذ منى البيعة على ذلك وعزم على ، فغضب عند ذلك الحجاج غضباً شديداً وانتفخ حتى سقط طرف ردائه عن منكبه ، وقال له : ويحك ألم أقدم مكة فقتلت ابن الزبير وأخذت بيعة أهلها وأخذت بيعتك لأمير المؤمنين عبد الملك ؟ قال : بلى ، قال : ثم قدمت الكوفة واليا على العراق فجددت لأمير المؤمنين البيعة فأخذت بيعتك له ثانية ؟ قال : بلى ! قال فتنكث بيعتين لأمير المؤمنين وتفى بواحدة للحائك ابن الحائك ؟ يا حرسى اضرب عنقه . قال : فضربت عنقه فبدر رأسه عليه لاطئة صغيرة بيضاء ، وقد ذكر الواقدى نحو هذا ، وقال له : أما أعطيتك مائة ألف ؟ أما فعلت أما فعلت .

قال ابن جرير : فحدثت عن أبى غسان مالك بن إسماعيل قال : سمعت خلف بن خليفة يذكر

عن رجل قال : لما قتل الحجاج سعيد بن جبير فندر رأسه هلل ثلاثا ، مرة يفصح بها ، وفى الثنتين يقول مثل ذلك لا يفصح بها . وذكر أبو بكر الباهلى قال : سمعت أنس بن أبى شيخ يقول : لما اتى الحجاج بسعيد بن جبير قال : لعن ابن النصرانية ـ يعنى خالد القسرى وكان هو الذى أرسل به من مكة ـ أما كنت أعرف مكانه ، بلى والله والبيت الذى هو فيه بمكة ، ثم أقبل عليه فقال : ياسعيد ما أخرجك علىّ ؟ فقال : أصلح الله الأمير ، أنا امرؤ من المسلمين يخطئ مرة و يصيب أخرى ، فطابت نفس الحجاج وانطلق وجهه ، ورجا الحجاج أن يتخلص من أمره ، ثم عاوده فى شئ فقال سعيد : إنما كانت بيعة فى عنقى ، فغضب عند ذلك الحجاج فكان ما كان من قتله . وذكر عتاب ابن بشر عن سالم الافطس قال : أتى الحجاج بسعيد بن جبير وهو يريد الركوب وقد وضع إحدى رجليه فى الغرز ، فقال : والله لاأركب حتى تتبوأ مقعدك من النار ، اضربوا عنقه ، فضربت عنقه . قال : والتبس الحجاج فى عقله مكانه ، فجعل يقول : قيودنا قيودنا ، فظنوا أنه يريد القيود التى على سعيد ، فقطعوا رجليه من أنصاف ساقيه وأخذوا القيود :

وقال محمد بن أبى حاتم : ثنا عبد الملك بن عبد الله بن خباب ، قال : جئ بسعيد بن جبير إلى الحجاج فقال : كتبت إلى مصعب بن الزبير ؟ فقال : بلى كتبت إلى مصعب ، قال : لا والله لأقتلنك قال : إنى إذا لسعيد كما سمتنى أمى . قال فقتله ، فلم يلبث الحجاج بعده إلا أربعين يوماً ، وكان إذا نام يراه فى المنام يأخذ بمجامع ثوبه و يقول : ياعدو الله فيم قتلتنى ؟ فيقول الحجاج : مالى ولسعيد بن جبير ، مالى ولسعيد بن جبير ؟ قال ابن خلكان : كان سعيد بن جبير بن هشام الأسدى مولى بنى والبة كوفيا أحد الأعلام من التابعين ، وكان أسود اللون ، وكان لايكتب على الفتيا ، فلما عمى ابن عباس كتب ، فغضب ابن عباس من ذلك ، وذكر مقتله كنحو ما تقدم ، وذكر أنه كان فى شعبان ، وأن الحجاج مات بعده فى رمضان ، وقيل قبل بستة أشهر . وذكر عن الامام أحمد أنه قال : قتل سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج ـ أو قال مفتقر ـ إلى علمه . و يقال إن الحجاج لم يسلط بعده على أحد ، وسيأتى فى ترجمة الحجاج أيضاً شئ من هذا . قال ابن جرير : وكان يقال لهذه السنة سنة الفقهاء ، لأنه مات فيها عامة فقهاء المدينة ، مات فى أولها على بن الحسين بن زين العابدين ، ثم عروة بن الزبير ، ثم سعيد بن المسيب ، وأبو بكر عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وسعيد بن جبير من أهل مكة ، وقد ذكرنا تراجم هؤلاء فى كتابنا التكميل ، وسنذكر طرفا صالحا هاهنا إن شاء الله تعالى .

قال ابن جرير : واستقضى الوليد بن عبد الملك فى هذه السنة على الشام سليمان بن صرد . وحج بالناس فيها العباس بن الوليد ، و يقال مسلمة بن عبد الملك ، وكان على نيابة مكة خالد القسرى ، وعلى

المدينة عثمان بن حيان ، وعلى المشرق بكماله الحجاج ، وعلى خراسان قتيبة بن مسلم ، وعلى الكوفة من جهة الحجاج زياد بن جرير ، وعلى قضائها أبو بكر بن أبي موسى ، وعلى إمرة البصرة من جهة الحجاج الجراح بن عبد الله الحكمي ، وعلى قضائها عبد الله بن أذينة ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر من توفي فيها من المشاهير والأعيان

سعيد بن جبير الأسدى الوالبي مولاهم أبو محمد ، ويقال أبو عبد الله ، الكوفى المكى ، من أكابر أصحاب ابن عباس ، كان من أئمة الاسلام فى التفسير والفقه وأنواع العلوم ، وكثرة العمل الصالح ، رحمه الله ، وقد رأى خلقاً من الصحابة ، وروى عن جماعة منهم ، وعنه خلق من التابعين ، يقال إنه كان يقرأ القرآن فى الصلاة فيما بين المغرب والعشاء ختمة تامة ، وكان يقعد فى الكعبة القعدة فيقرأ فيها الختمة ، وربما قرأها فى ركعة فى جوف الكعبة . وروى عنه أنه ختم القرآن مرتين ونصفاً فى الصلاة فى ليلة فى الكعبة . وقال سفيان الثورى عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال : لقد مات سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه . وكان فى جملة من خرج مع ابن الأشعث على الحجاج ، فلما ظفر [الحجاج] هرب سعيد إلى اصبهان ، ثم كان يتردد فى كل سنة إلى مكة مرتين ، مرة للعمرة ومرة للحج ، وربما دخل الكوفة فى بعض الأحيان فحدث بها ، وكان بخراسان لايتحدث لأنه كان لايسأله أحد عن شئ من العلم هناك ، وكان يقول : إن مما يهمنى ماعندى من العلم ، ووددت أن الناس أخذوه . واستمر فى هذا الحال مختفيا من الحجاج قريباً من ثنتى عشرة سنة ، ثم أرسله خالد القسرى من مكة إلى الحجاج ، وكان من مخاطبته له ماذكرناه قريباً .

وقال أبو نعيم فى كتابه الحلية : ثنا أبو حامد بن جبلة ثنا محمد بن إسحاق ثنا محمد بن أحمد ابن أبى خلف ثنا شعبان عن سالم بن أبى حفصة . قال : لما أتى بسعيد بن جبير إلى الحجاج قال له : أنت الشقى بن كسير ؟ قال : لا ! إنما أنا سعيد بن جبير ، قال لأقتلنك ، قال : أنا إذاً كما سمتنى أمى سعيداً ! قال شقيت وشقيت أمك ، قال : الأمر ليس إليك . ثم قال : اضربوا عنقه ، فقال : دعونى أصلى ركعتين ، قال : وجهوه إلى قبلة النصارى ، قال : (فأينما تولوا فثم وجه الله) قال : إنى أستعيذ منك بما استعاذت به مريم ، قال : وماعاذت به ؟ قال : قالت [إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا] قال سفيان : لم يقتل بعده إلا واحداً . وفى رواية أنه قال له : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى ، قال : لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً . وفى رواية أنه لما أراد قتله قال : وجهوه إلى قبلة النصارى ، فقال : [أينما تولوا فثم وجه الله] فقال : اجلدوا به الأرض ، فقال : [منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى] فقال : اذبح فما أنزعه لآيات الله منذ اليوم . فقال : اللهم لاتسلطه على أحد بعدى . وقد ذكر أبو نعيم هنا كلاماً كثيراً فى مقتل سعيد

ابن جبير ، أحسنه هذا والله أعلم] (١)

وقد ذكرنا صفة مقتله إياه ، وقد رويت آثار غريبة فى صفة مقتله ، أكثرها لا يصح ، وقد عوقب الحجاج بعده وعوجل بالعقوبة ، فلم يلبث بعده إلا قليلا ثم أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، كما سنذكر وفاته فى السنة الآتية ، فقيل إنه مكث بعده خمسة عشر يوماً ، وقيل أربعين يوماً ، وقيل ستة أشهر والله أعلم .

واختلفوا فى عمر سعيد بن جبير رحمه الله حين قتل ، فقيل تسعاً وأربعين سنة ، وقيل سبعاً وخمسين فالله أعلم . قال أبو القاسم اللالكائى : كان مقتله فى سنة خمس وتسعين ، وذكر ابن جرير مقتله فى هذه السنة ـ سنة أربع وتسعين ـ فالله أعلم .

[قلت : هاهنا كلمات حسان من كلام سعيد بن جبير أحببت أن أذكرها . قال : إن أفضل الخشية أن تخشى الله خشية تحول بينك و بين معصيته ، وتحملك على طاعته ، فتلك هى الخشية النافعة . والذكر طاعة الله ، فمن أطاع الله فقد ذكره ، ومن لم يطعه فليس بذاكر له ، وإن كثر منه التسبيح وتلاوة القرآن . قيل له : من أعبد الناس ؟ قال : رجل اقترف من الذنوب ، فكلما ذكر ذنبه احتقر عمله ، وقال له الحجاج : ويلك ! فقال : الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار ، فقال : اضربوا عنقه ، فقال : إنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، أستحفظك بها حتى ألقاك يوم القيامة فأنا خصمك عند الله ، فذبح من قفاه ، فبلغ ذلك الحسن فقال : اللهم ياقاصم الجبابرة اقصم الحجاج ، فما بقى إلا ثلاثة حتى وقع من جوفه دود فأنتن منه فمات . وقال سعيد للحجاج لما أمر بقتله وضحك فقال له : ما أضحكك ؟ فقال : أضحك من غيراتك على وحلم الله عنك] (٢)

سعيد بن المسيب

ابن حزن بن أبى وهب بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشى أبو محمد المدنى ، سيد التابعين على الاطلاق ، ولد لسنتين مضتا وقيل بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب ، وقيل لأربع مضين منها ، وقول الحاكم أبى عبد الله إنه أدرك العشرة وهم منه والله أعلم . ولكن أرسل عنهم كما أرسل كثيراً عن النبى (ص) ، وروى عن عمر كثيراً ، فقيل سمع منه ، وعن عثمان وعلى وسعيد وأبى هريرة ، وكان زوج ابنته ، وأعلم الناس بحديثه ، وروى عن جماعة من الصحابة ، وحدث عن جماعة من التابعين ، وخلق ممن سواهم ، قال ابن عمر : كان سعيد أحد المتقنين ، وقال الزهرى : جالسته سبع حجج وأنا لا أظن عند أحد علما غيره ، وقال محمد بن إسحاق عن مكحول قال : طفت الأرض كلها فى طلب العلم . فما لقيت أعلم من سعيد بن المسيب . وقال الأوزاعى : سئل الزهرى ومكحول من

---

(١) و (٢) زيادة من المصرية .

أفقه من لقيتما ؟ قالا : سعيد بن المسيب . وقال غيره : كان يقال له فقيه الفقهاء. وقال مالك عن يحيى ابن سعيد عن سعيد بن المسيب : كنت أرحل الأيام والليالى فى طلب الحديث الواحد ، قال مالك : و بلغنى أن ابن عمر كان يرسل إلى سعيد بن المسيب يسأله عن قضايا عمر وأحكامه ، وقال الربيع عن الشافعى انه قال : إرسال سعيد بن المسيب عندنا حسن . وقال الامام أحمد بن حنبل هى صحاح : قال : وسعيد بن المسيب أفضل التابعين . قال على بن المدينى : لا أعلم فى التابعين أوسع علما منه ، و إذا قال سعيد مضت السنة فحسبك به ، وهو عندى أجل التابعين . وقال أحمد بن عبد الله العجلى : كان سعيد رجلا صالحا فقيها ، كان لا يأخذ العطاء ، وكانت له بضاعة أربعمائة دينار ، وكان يتجر فى الزيت ، وكان أعور . وقال أبو زرعة : كان مدنيا ثقة إماما . وقال أبو حاتم : ليس فى التابعين أنبل منه ، وهو أثبتهم فى أبى هريرة ، قال الواقدى : توفى فى سنة الفقهاء ، وهى سنة أربع وتسعين ، عن خمس وسبعين سنة ، رحمه الله .

وكان سعيد بن المسيب من أورع الناس فيما يدخل بيته و بطنه ، وكان من أزهد الناس فى فضول الدنيا ، والكلام فيما لا يعنى ، ومن أكثر الناس أدباً فى الحديث ، جاءه رجل وهو مريض فسأله عن حديث فجلس فحدثه ثم اضطجع ، فقال الرجل : وددت أنك لم تتعن ، فقال : إنى كرهت أن أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا مضطجع ، وقال برد مولاه : مانودى للصلاة منذ أربعين إلا وسعيد فى المسجد . وقال ابن إدريس : صلى سعيد بن المسيب الغداة بوضوء العتمة خمسين سنة . وقال سعيد : لاتملؤا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بالإنكار من قلوبكم ، لكيلا تحبط أعمالكم الصالحة . وقال : مايئس الشيطان من شئ إلا أتاه من قبل النساء . وقال : ما أكرمت العباد أنفسها بمثل طاعة الله ، ولا أهانت أنفسها إلا بمعصية الله تعالى . وقال : كفى بالمرء نصرة من الله له أن يرى عدوه يعمل بمعصية الله . وقال : من استغنى بالله افتقر الناس إليه . وقال : الدنيا نذلة وهى إلى كل نذل أميل ، وأنذل منها من أخذها من غير وجهها و وضعها فى غير سبيلها . وقال : إنه ليس من شريف ولاعالم ولاذى فضل إلا وفيه عيب ، ولكن من الناس مَن لاينبغى أن تذكر عيوبه . وقال : من كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله .

وقد زوج سعيد بن المسيب ابنته على درهمين لكثير بن أبى وداعة ـ وكانت من أحسن النساء وأكثرهم أدباً وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسول الله (ص) ، وأعرفهم بحق الزوج ـ وكان فقيراً ، فأرسل إليه بخمسة آلاف ، وقيل : بعشرين ألفاً ، وقال : استنفق هذه . وقصته فى ذلك مشهورة ، وقد كان عبد الملك خطبها لابنه الوليد فأبى سعيد أن يزوجه بها ، فاحتال عليه حتى ضربه بالسياط كما تقدم ، لما جاءت بيعة الوليد إلى المدينة فى أيام عبد الملك ، ضربه نائبه على المدينة هشام بن

إسماعيل وأطافه المدينـة ، وعرضوه على السيف فمضى ولم يبايع ، فلما رجفوا به رأته امرأة فقالت : ماهـذا الخزى ياسعيد ؟ فقال : من الخزى فررنا إلى مانرين ، أى لو أحببناهم وقعنا فى خزى الدنيا والآخرة . وكان يجعل على ظهره إهاب الشاة ، وكان له مال يتجر فيه ويقول : اللهم إنك تعلم أنى لم أمسكه بخلا ولا حرصا عليه ، ولا محبة للدنيا ونيل شهواتها ، وإنما أريد أن أصون به وجهى عن بنى مروان حتى ألقى الله فيحكم فى وفيهم ، وأصل منه رحمى ، وأؤدى منه الحقوق التى فيه ، وأعود منـه على الأرملة والفقير والمسكين واليتيم والجار . والله سبحانه وتعالى أعلم .

طلق بن حبيب العنزي

تابعى جليل ، روى عن أنس وجابر وابن الزبير وابن عباس ، وعبد الله بن عمر وغيرهم ، وعنـه حميد الطويل والأعمش وطاووس ، وهو من أقرانه وأثنى عليه عمرو بن دينار ، وقـد أثنى عليـه غير واحد من الأئمة ، ولـكن تكلموا فيه من جهة أنه كان يقول بالأرجاء ، وقد كان ممن خرج مع ابن الأشعث ، وكان يقول تقوا بالتقوى ، فقيـل له : صف لنا التقوى ، فقال : التقوى هى العمل بطاعة الله على نور من الله يرجو رحمة الله ، وترك معصية الله على نور من الله يخاف عقاب الله . وقال أيضاً : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن تحصى ، أو يقوم بشكرها العباد ، ولـكن أصبحوا تائبين ، وأمسوا تائبين . وكان طلق لايخرج إلى صلاة إلا ومعه شئ يتصدق به ، وإن لم يجد إلا بصلا ، ويقول : قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة] فتقديم الصـدقة بين يدى مناجاة الله أعظم وأعظم . قال مالك : قتـله الحجاج وجماعة من القراء منهـم سعيد بن جبير . وقـد ذكر ابن جرير فيما سبق أن خالد بن عبـد الله القسرى بعث من مكة ثلاثة إلى الحجاج ، وهم مجاهـد ، وسـعيد بن جبير ، وطلق بن حبيب ، فمات طلق فى الطريق وحبس مجاهد ، وكان من أمر سعيد ما كان والله أعلم .

عروة بن الزبير بن العوام

القرشى الأسدى أبو عبد الله المدنى ، تابعى جليل ، روى عن أبيـه وعن العبادلة ومعاوية والمغيرة وأبى هريرة ، وأمه أسماء ، وخالته عائشة ، وأم سلمة . وعنه جماعة من التابعين ، وخلق ممن سواهم . قال محمد بن سعد : كان عروة ثقة كثير الحديث عالما مأمونا ثبتاً . وقال العجلى : مدنى تابعى رجل صالح لم يدخل فى شئ من الفتن . وقال الواقدى : كان فقيهاً عالما حافظاً ثبتاً حجة عالما بالسير، وهو أول من صنف المغازى ، وكان من فقهاء المدينة المعدودين ، ولقد كان أصحاب رسول الله ص. يسألونه ، وكان أروى الناس للشعر ، وقال ابنه هشام : العلم لواحـد من ثلاثة ، لذى حسب يزين به

حسبه ، أو ذى دين يسوس به دينه ، أو مختلط بسلطان يتحفه بنعمه و يتخلص منه بالعلم ، فلا يقع فى هلكة ، وقال : ولا أعلم أحداً اشترطه لهـذه الثلاثة إلا عروة بن الزبير ، وعمر بن عبد العزيز . وكان عروة يقرأ كل يوم ربع القرآن و يقوم به فى الليل ، وكان أيام الرطب يثلم حائطه للناس فيدخلون و يأكلون ، فاذا ذهب الرطب أعاده ، وقال الزهرى : كان عروة بحراً لاينزف ولا تكدره الدلاء . وقال عمر بن عبـد العزيز : ما أحد أعلم من عروة وما أعلمه يعلم شيئاً أجهله ، وقـد ذكره غـير واحد فى فقهاء المدينة السبعة الذين ينتهى إلى قولهم ، وكان من جملة الفقهاء العشرة الذين كان عمر بن عبد العزيز يرجع إليهم فى زمن ولايته على المدينة [وقد ذكر غير واحد أنه وفد على الوليد بدمشق ، فلما رجع أصابته فى رجله الأكلة فأرادوا قطعها ، فعرضوا عليـه أن يشرب شيئا يغيب عقله حتى لايحس بالألم و يتمكنوا من قطعها ، فقال : ماظننت أن أحـداً يؤمن بالله يشرب شيئاً يغيب عقله حتى لايعرف ربه عز وجل ، ولكن هلموا فاقطعوها فقطعوها من ركبته وهو صامت لايتكلم ، ولايعرف أنه أنّ ، وروى أنهم قطعوها وهو فى الصـلاة فلم يشعر لشغله بالصلاة فالله أعلم . ووقع فى هذه الليلة التى قطعت فيها رجله ولد له يسمى محمداً كان أحب أولاده من سطح فـمـات ، فدخلوا عليـه فعزوه فيـه ، فقال : اللهـم لك الحمد ، كانوا سبعة فأخذت واحداً وأبقيت سـتة ، وكان لى أطراف أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة ، فلئن كنت قد أخذت فلقد أعطيت ، ولئن كنت قـد ابتليت فقد عافيت [قلت : قد ذكر غـير واحـد أن عروة بن الزبير لما خرج من المدينة متوجها إلى دمشق ليجتمع بالوليد ، وقعت الأكلة فى رجله فى واد قرب المدينة وكان مبدؤها هناك ، فظن أنها لايكون منها ماكان ، فـذهب فى وجهـه ذلك ، فما وصل إلى دمشق إلا وهى قد أكلت نصف ساقه ، فدخل على الوليد فجمع له الأطباء العارفين بذلك ، فأجمعوا على أنه إن لم يقطعها و إلا أكلـ رجله كلها إلى وركه . وربما ترقت إلى الجسد فأكلته ، فطابت نفسه بنشرها وقالوا له : ألا نسقيك مرقدا حتى يذهب عقلك منه فلا تحس بألم النشر ؟ فقال : لا ! والله ما كنت أظن أن أحداً يشرب شرابا أو يأكل شيئا يذهب عقـله ، ولكن إن كنتم لابد فاعلين فافعلوا ذلك وأنا فى الصـلاة ، فانى لاأحس بذلك ، ولا أشعر به . قال : فنشروا رجله من فوق الأكلة ، من المكان الحى ، احتياطاً أنه لايبقى منها شىء ، وهو قائم يصلى ، فما تصوّر ولا اختلج ، فلما انصرف من الصـلاة عزاه الوليد فى رجله ، فقال : اللهم لك الحمد ، كان لى أطراف أربعة فأخـذت واحداً فلئن كنت قـد أخذت فقد أبقيت ، وإن كنت قد أبليت فلطالما عافيت ، فلك الحمد على ما أخـذت وعلى ماعافيت . قال : وكان قد صحب معه بعض أولاده من جملتهم ابنه محمد ، وكان أحبهم إليه ، فدخل دار الدواب فرفسته فرس فمات ، فأتوه فعزوه فيه ، فقال : الحمد لله كانوا سبعة فأخذت منهم واحـداً وأبقيت ستة ، فلئن كنت قد ابتليت فلطالما

عافيت ، ولئن كنت قد أخذت فلطالما أعطيت . فلما قضى حاجته من دمشق رجع إلى المدينة ، قال : فما سمعناه ذكر رجله ولا ولده ، ولا شكا ذلك إلى أحد حتى دخل وادى القرى ، فلما كان فى المكان الذى أصابته الأكلة فيه قال : [لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً] فلما دخل المدينة أتاه الناس يسلمون عليه ويعزونه فى رجله وولده ، فبلغه أن بعض الناس قال : إنما أصابه هذا بذنب عظيم أحدثه . فأنشد عروة فى ذلك والأبيات لمعن بن أوس :ـ

لعمركَ ما أهويتُ كفى لريبةٍ * ولاحملتنى نحوَ فاحشةٍ رجلي

ولاقادني سمعي ولابصري لها * ولادلنى رأيى عليها ولا عقلي

ولست بماشٍ ماحييتُ لمنكرٍ * منَ الأمرِ لايمشي إلى مثلهِ مثلي

ولا مؤثرٌ نفسى على ذى قرابةٍ * وأوثرُ ضيفي ما أقامَ على أهلي

وأعلمُ أنى لم تصبنى مصيبةٌ * من الدهرِ إلاّقد أصابتْفتى مثلي

وفى رواية : اللهم إنه كان لى بنون أربعة فأخذت واحداً وأبقيت ثلاثة . كذا ذكر هذا الحديث فيه هشام . وقال مسلمة بن محارب : وقعت فى رجل عروة الأكلة فقطعت ولم يمسكه أحد ، ولم يدع فى تلك الليلة ورده . وقال الأوزاعى : لما نشرت رجل عروة قال : اللهم إنك تعلم أنى لم أمش بها إلى سوء قط . وأنشد البيتين المتقدمين . رأى عروة رجلا يصلى صلاة خفيفة فدعاه فقال : يا أخى أما كانت لك إلى ربك حاجة فى صلاتك ؟ إنى لأسأل الله فى صلاتى حتى أسأله الملح . قال عروة : رب كلمة ذل احتملتها أورثتنى عزاً طويلا . وقال لبنيه : إذا رأيتم الرجل يعمل الحسنة فاعلموا أن لها عنده أخوات ، وإذا رأيتم الرجل يعمل السيئة فاعلموا أن لها عنده أخوات ، فان الحسنة تدل على أختها ، والسيئة تدل على أختها . وكان عروة إذا دخل حائطه ردد هذه الآية [ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله] حتى يخرج منه والله سبحانه وتعالى أعلم][1] .

قيل إنه ولد فى حياة عمر ، والصحيح أنه ولد بعد عمر فى سنة ثلاث وعشرين ، وكانت وفاته فى سنة أربع وتسعين على المشهور ، وقيل سنة تسعين ، وقيل سنة مائة ، وقيل إحدى وتسعين ، وقيل إحدى ومائة ، وقيل سنة اثنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس وتسعين ، وقيل تسع وتسعين فالله أعلم .

﴿ على بن الحسين ﴾

ابن على بن أبى طالب القرشى الهاشمى المشهور بزين العابدين، وأمه أم ولد اسمها سلامة ، وكان له أخ أكبر منه يقال له على أيضاً ، قتل مع أبيه ، روى على هذا الحديث عن أبيه وعمه الحسن بن على ، وجابر وابن عباس والمسور بن مخرمة وأبى هريرة وصفية وعائشة وأم سلمة ، أمهات المؤمنين . وعنه

(١) زيادة من المصرية .

جماعة منهم بنوه زيد وعبد الله وعمر ، وأبو جعفر محمد بن على بن قر ، و زيد بن أسلم ، وطاووس وهو من أقرانه ، والزهرى ، ويحيى بن سعيد الأنصارى ، وأبو سلمة وهو من أقرانه ، وخلق .

قال ابن خلكان : كانت أم سلمة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس ، وذكر الزمخشرى فى ربيع الأبرار أن يزدجرد كان له ثلاث بنات سبين فى زمن عمر بن الخطاب ، فحصلت واحدة لعبد الله بن عمر فأولدها سالما ، والأخرى لمحمد بن أبى بكر الصديق فأولدها القاسم ، والأخرى للحسين بن على فأولدها عليا زين العابدين هذا ، فكلهم بنو خالة . قال ابن خلكان : ولما قتل قتيبة بن مسلم فيروز ابن يزدجرد بعث بابنتيه إلى الحجاج فأخذ إحداهما و بعث بالأخرى إلى الوليد ، فأولدها الوليد يزيد الناقص . وذكر ابن قتيبة فى كتاب المعارف أن زين العابدين هذا كانت أمه سندية ، يقال لها سلامة ، و يقال غزالة ، وكان مع أبيه بكربلاء ، فاستبقى لصغره ، وقيل لمرضه ، فانه كان ابن ثلاث وعشرين سنة ، وقيل أكثر من ذلك ، وقدهم بقتله عبيد الله بن زياد ، ثم صرفه الله عنه ، وأشار بعض الفجرة على يزيد بن معاوية بقتله أيضا فمنعه الله منه ، ثم كان يزيد بعد ذلك يكرمه و يعظمه ويجلسه معه ، ولا يأكل إلا وهو عنده ، ثم بعثهم إلى المدينة ، وكان على بالمدينة محترما معظما . قال ابن عساكر : ومسجده بدمشق المنسوب إليه معروف . قلت : وهو مشهد على بالناحية الشرقية من جامع دمشق . وقد استقدمه عبد الملك بن مروان مرة أخرى إلى دمشق فاستشاره فى جواب ملك الروم عن بعض ما كتب إليه فيه من أمر السكة وطراز القراطيس ، قال الزهرى : ما رأيت قرشيا أورع منه ، ولا أفضل . وكان مع أبيه يوم قتل ابن ثلاث وعشرين سنة وهو مريض ، فقال عمر ابن سعد : لا تعرضوا لهذا المريض . وقال الواقدى : كان من أورع الناس وأعبدهم وأتقاهم لله عز وجل ، وكان إذا مشى لا يخطر بيده ، وكان يعتم بعمامة بيضاء يرخيها من ورائه ، وكان كنيته أبا الحسن ، وقيل أبا محمد ، وقيل أبا عبد الله . وقال محمد بن سعد : كان ثقة مأمونا كثير الحديث عاليا رفيعا ورعا ، وأمه غزالة خلف عليها بعد الحسين مولاه زبيد فولدت له عبد الله بن زبيد ، وهو على الأصغر ، فأما الأكبر فقتل مع أبيه . وكذا قال غير واحد ، وقال سعيد بن المسيب و زيد بن أسلم ومالك وأبو حازم : لم يكن فى أهل البيت مثله . وقال يحيى بن سعيد الأنصارى : سمعت على ابن الحسين وهو أفضل هاشمى أدركته يقول : يا أيها الناس أحبونا حب الاسلام ، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عاراً . وفى رواية : حتى بغضتمونا إلى الناس . وقال الأصمعى : لم يكن للحسين عقب إلا من على بن الحسين ، ولم يكن لعلى بن الحسين نسل إلا من ابن عمه الحسن ، فقال له مروان بن الحكم : لو اتخذت السرارى يكثر أولادك ، فقال : ليس لى ما أتسرى به ، فأقرضه مائة ألف فاشترى له السرارى فولدت له وكثر نسله ، ثم لما مرض مروان أوصى أن لا يؤخذ من على بن

الحسين شيء مما كان أقرضه ، فجميع الحسينيين من نسله رحمه الله . وقال أبو بكر بن أبي شيبة : أصح الأسانيد كلها الزهرى عن على بن الحسين عن أبيه عن جده ، وذكروا أنه احترق البيت الذى هو فيه وهو قائم يصلى ؛ فلما انصرف قالوا له : مالك لم تنصرف ؟ فقال : إنى اشتغلت عن هذه النار بالنار الأخرى ، وكان إذا توضأ يصفر لونه ، فاذا قام إلى الصلاة ارتعد من الفرق ، فقيل له فى ذلك فقال : ألاتدرون بين يدى من أقوم ولمن أناجى ؟ ولما حج أراد أن يلبى فارتعد وقال : أخشى أن أقول لبيك اللهم لبيك ، فيقال لى : لا لبيك ، فشجعوه على التلبية ، فلما لبى غشى عليه حتى سقط عن الراحلة . وكان يصلى فى كل يوم وليلة ألف ركعة . وقال طاووس : سمعته وهو ساجد عند الحجر يقول : عبيدك بفنائك . سائلك بفنائك . فقيرك بفنائك ، قال طاووس : فوالله مادعوت بها فى كرب قط إلا كشف عنى . وذكروا أنه كان كثير الصدقة بالليل ، وكان يقول صدقة الليل تطفئ غضب الرب ، وتنور القلب والقبر ، وتكشف عن العبد ظلمة يوم القيامة ، وقاسم الله تعالى ماله مرتين .

وقال محمد بن إسحاق : كان ناس بالمدينة يعيشون لايدرون من أين يعيشون ومن يعطيهم ، فلما مات على بن الحسين فقدوا ذلك فعرفوا أنه هو الذى كان يأتيهم فى الليل بما يأتيهم به . ولما مات وجدوا فى ظهره وأكتافه أثر حمل الجراب إلى بيوت الأرامل والمساكين فى الليل . وقيل إنه كان يعول مائة أهل بيت بالمدينة ولايدرون بذلك حتى مات . ودخل على بن الحسين على محمد بن أسامة ابن زيد يعوده فبكى ابن أسامة فقال له مايبكيك ؟ قال : على دين ، قال : وكم هو ؟ قال خمسة عشر ألف دينار ــ وفى رواية سبعة عشر ألف دينار ــ فقال : هى على . وقال على بن الحسين : كان أبو بكر وعمر من رسول الله ﷺ فى حياته بمنزلتهما منه بعد وفاته . ونال منه رجل يوماً فجعل يتغافل عنه ــ يريه أنه لم يسمعه ــ فقال له الرجل : إياك أعنى ، فقال له على : وعنك أغضى . وخرج يوماً من المسجد فسبه رجل فانتدب الناس إليه ، فقال : دعوه ، ثم أقبل عليه فقال : ماستره الله عنك من عيوبنا أكثر ، ألك حاجة نعينك عليها ؟ فاستحيا الرجل فألقى إليه خميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم ، فكان الرجل بعد ذلك إذا رآه يقول : إنك من أولاد الأنبياء . قالوا : واختصم على بن الحسين وحسن ابن حسن ــ وكان بينهما منافسة ــ فنال منه حسن بن حسن وهو ساكت ، فلما كان الليل ذهب على ابن الحسين إلى منزله فقال : ياابن عم إن كنت صادقاً يغفر الله لى ، وإن كنت كاذبا يغفر الله لك والسلام عليك ، ثم رجع ، فلحقه فصالحه . وقيل له من أعظم الناس خطراً ؟ فقال : من لم ير الدنيا لنفسه قدراً ، وقال أيضاً : الفكرة مرآة ترى المؤمن حسناته وسيئاته، وقال : فقد الأحبة غربة ، وكان يقول : إن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد ، وآخرون عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار ، وآخرون عبدوه محبة وشكراً فتلك عبادة الأحرار الأخيار . وقال لابنه : يابنى لاتصحب فاسقاً فانه

يبيعك بأكلة وأقل منها يطمع فيها ثم لاينالها ، ولا بخيلا فانه يخـذلك فى ماله أحوج ماتكون إليه ، ولا كذابا فانه كالسراب يقرب منك البعيد و يباعـد عنك القريب ، ولا أحمق فانه يريد أن ينفعك فيضرك ، ولاقاطع رحم فانه ملعون فى كتاب الله . قال تعالى : [فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم]

وكان على بن الحسين إذا دخل المسجد تخطى الناس حتى يجلس فى حلقة زيد بن أسلم ، فقال له نافع بن جبير بن مطعم : غفر الله لك ، أنت سيد الناس تأتى تخطى حاق أهل العلم وقريش حتى تجلس مع هذا العبد الأسود ؟ فقال له على بن الحسين : إنما يجلس الرجل حيث ينتفع ، و إن العلم يطلب حيث كان . وقال الأعمش عن مسعود بن مالك قال قال لى على بن الحسين : أتستطيع أن تجمع بينى و بين سعيد بن جبير ؟ فقلت : ماتصنع به ؟ قال أريد أسأله عن أشياء ينفعنا الله بها ولا منقصة ، إنه ليس عندنا مايرمينا به هؤلاء ـ وأشار بيده إلى العراق ـ

وقال الامام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ثنا إسرائيل عن أبى إسحاق عن زر بن عبيد [1] قال : كنت عند ابن عباس فأتى على بن الحسين فقال ابن عباس :مرحبا بالحبيب ابن الحبيب . وقال أبو بكر بن محمـد بن يحيى الصولى : ثنا العلاء ثنا إبراهيم بن بشار عن سفيان بن عيينة عن أبى الزبير قال : كنا عند جابر بن عبد الله فدخل عليه على بن الحسين فقال : كنت عند رسول الله (ص.) فدخل عليه الحسين بن على فضمه إليه وقبله وأقعده إلى جنبه ، ثم قال : « يولد لابنى هذا ابن يقال له على ، إذا كان يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش ليقم سـيد العابدين ، فيقوم هو » هـذا حـديث غريب جداً أورده ابن عساكر . وقال الزهرى : كان أكثر مجالستى مع على بن الحسين ، ومارأيت أفقه منه ، وكان قليل الحديث ، وكان من أفضل أهل بيته وأحسنهم طاعة ، وأحبهم إلى مروان وابنه عبد الملك ، وكان يسمى زين العابدين . وقال جويرية بن أسماء : ما أكل على بن الحسين بقرابته من رسول الله (ص.) درهما قط . رحمه الله ورضى عنه . وقال محمد بن سعد : أنبأ على بن محمد عن سعيد بن خالد عن المقبرى قال : بعث المختار إلى على بن الحسين بمائة ألف فكره أن يقبلها وخاف أن يردها ، فاحتبسها عنده ، فلما قتل المختار كتب إلى عبـد الملك بن مروان : إن المختار بعث إلى بمائة ألف فكرهت أن أقبلها وكرهت أن أردها ، فابعث من يقبضها . فكتب إليه عبد الملك : يا ابن عم اخذها فقـد طيبتها لك ، فقبلها . وقال على بن الحسين : سادة الناس فى الدنيا الأسخياء الأتقياء ، وفى الآخرة أهل الدين وأهل الفضل والعلم الاتقياء ، لأن العلماء ورثة الأنبياء . وقال أيضاً : إنى لأستحى من الله عز وجل أن أرى الأخ من إخوانى فأسأل الله له الجنة وأبخل عليه بالدنيا ، فاذا كان يوم القيامة

(١) لعله زر بن حبيش .

قيل لى فاذا كانت الجنة بيدك كنت بها أبخل ، وأبخل وأبخل . وذكروا أنه كان كثير البكاء فقيل له فى ذلك فقال : إن يعقوب عليه السلام بكى حتى ابيضت عيناه على يوسف ، ولم يعلم أنه مات ، و إنى رأيت بضعة عشر من أهل بيتى يذبحون فى غداة واحدة ، فترون حزنهم يذهب من قلبى أبداً ؟ وقال عبد الرزاق : سكبت جارية لعلى بن الحسين عليه ماء ليتوضأ فسقط الأبريق من يدها على وجهه فشجه ، فرفع رأسه إليها فقالت الجارية : إن الله يقول [والكاظمين الغيظ] ، فقال : قد كظمت غيظى ، قالت [والعافين عن الناس] فقال : عفا الله عنك . فقالت [والله يحب المحسنين] قال : أنت حرة لوجه الله تعالى .

وقال الزبير بن بكار : ثنا عبد الله بن إبراهيم بن قدامة اللخمى عن أبيه عن جده عن محمد بن على عن أبيه قال : جلس قوم من أهل العراق فذكروا أبا بكر وعمر فنالوا منهما ، ثم ابتدؤا فى عثمان فقال لهم : أخبرونى أأنتم من المهاجرين الأولين الذين [أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله و رضوانا و ينصرون الله و رسوله] ؟ قالوا : لا قال : فأنتم من الذين [تبوؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم] ؟ قالوا لا ! فقال لهم : أما أنتم فقد أقررتم وشهدتم على أنفسكم أنكم لستم من هؤلاء ولا من هؤلاء ، وأنا أشهد أنكم لستم من الفرقة الثالثة الذين قال الله عز وجل فيهم [والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا] الآية ، فقوموا عنى لابارك الله فيكم ، ولاقرب دوركم ، أنتم مستهزئون بالاسلام ، ولستم من أهله . وجاء رجل فسأله متى يبعث على ؟ فقال : يبعث والله يوم القيامة وتهمه نفسه . وقال ابن أبى الدنيا : حدثت عن سعيد بن سليمان عن على بن هاشم عن أبى حمزة الثمالى أن على بن الحسين كان إذا خرج من بيته قال : اللهم إنى أتصدق اليوم — أو أهب عرضى اليوم — من استحله . وروى ابن أبى الدنيا أن غلاماً سقط من يده سفود وهو يشوى شيئاً فى التنور على رأس صبى لعلى بن الحسين فقتله ، فنهض على بن الحسين مسرعا ، فلما نظر إليه قال للغلام : إنك لم تتعمد ، أنت حر ، ثم شرع فى جهاز ابنه . وقال المدائنى : سمعت سفيان يقول : كان على بن الحسين يقول : مايسرنى أن لى بنصيبى من الذل حمر النعم : ورواه الزبير بن بكار من غير وجه عنه . ومات لرجل ولد مسرف على نفسه فجزع عليه من أجل إسرافه ، فقال له على بن الحسين : إن من وراء ابنك خلالا ثلاثا ، شهادة أن لا إله إلا الله ، وشفاعة رسول الله ، ورحمة الله عز وجل . وقال المدائنى : قارف الزهرى ذنباً فاستوحش منه وهام على وجهه وترك أهله وماله . فلما اجتمع بعلى بن الحسين قال له : يازهرى قنوطك من رحمة الله التى وسعت كل شئ أعظم من ذنبك ، فقال الزهرى : [الله أعلم حيث يجعل رسالاته] وفى رواية أنه كان أصاب دما حراماً خطأ فأمره على بالتوبة والاستغفار وأن يبعث الدية إلى أهله ، ففعل ذلك . وكان

الزهرى يقول : على بن الحسين أعظم الناس على منة .

وقال سفيان بن عيينة كان على بن الحسين يقول: لايقول رجل فى رجل من الخير مالا يعلم إلا أوشك أن يقول فيه من الشر مالا يعلم ، وما اصطحب اثنان على معصية إلا أوشك أن يفترقا على غير طاعة . وذكروا أنه زوج أمه من مولى له وأعتق أمه فتزوجها فأرسل إليه عبد الملك يلومه فى ذلك ، فكتب إليه [لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً] وقد أعتق صفية فتزوجها ، وزوج مولاه زيد بن حارثة من بنت عمه زينب بنت جحش . قالوا : وكان يلبس فى الشتاء خميصة من خز بخمسين ديناراً ، فاذا جاء الصيف تصدق بها ، ويلبس فى الصيف الثياب المرقعة ودونها ويتلو قوله تعالى [قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق] .

(وقد روى من طرق ذكرها الصولى والجريرى وغير واحد أن هشام بن عبد الملك حج فى خلافة أبيه وأخيه الوليد ، فطاف بالبيت ، فلما أراد أن يستلم الحجر لم يتمكن حتى نصب له منبر فاستلم وجلس عليه ، وقام أهل الشام حوله ، فبينما هو كذلك إذ أقبل على بن الحسين ، فلما دنا من الحجر ليستلمه تنحى عنه الناس إجلالا له وهيبة واحتراماً ، وهو فى بزة حسنة ، وشكل مليح ، فقال أهل الشام لهشام : من هذا ؟ فقال : لا أعرفه ـ استنقاصا به واحتقاراً لئلا يرغب فيه أهل الشام ـ فقال الفرزدق ـ وكان حاضراً ـ أنا أعرفه ، فقالوا : ومن هو ؟ فأشار الفرزدق يقول :

هذا الذى تعرفُ البطحاءُ وطأتَهُ * والبيتُ يعرفُهُ والحلُ والحرمُ
هذا ابنُ خيرِ عبادِ اللهِ كلهمِ * هذا التقيُ النقيُ الطاهرُ العلمُ
إذا رأته قريشٌ قالَ قائلها * إلى مكارمِ هذا ينتهي الكرمُ
يُنمَى إلى ذروةِ العزِ التي قصرتْ * عنْ نيلها عربُ الأسلامِ والعجمُ
يكادُ يمسكهُ عرفان راحتهِ * ركنُ الحطيمِ إذا ماجاءَ يستلمُ
يُغضِي حياءً ويغضَى منْ مهابتهِ * فما يكلَّمُ إلا حينَ يبتسمُ
بكفِّهِ خيزرانٌ ريحها عبقٌ * منْ كفِ أروعَ فى عرنينهِ شممُ
مشتقةٌ منْ رسولِ اللهِ نبعتهُ * طابتْ عناصرها والخيمُ والشيمُ
ينجابُ نورُ الهدى منْ نورِ غرتهِ * كالشمسِ ينجابُ عنْ إشراقها الغيمُ
حمالُ أثقالِ أقوامٍ إذا فدحوا * حلوُ الشمائلِ تحلو عندهُ نعمُ
هذا ابنُ فاطمةٍ إنْ كنتَ جاهلَهُ * بجدهِ أنبياءُ اللهِ قدْ ختموا
منْ جدهِ دانَ فضلُ الأنبياءِ لهُ * وفضلُ أمتهِ دانتْ لها الأممُ

عمَّ البرية بالأحسانِ فانقشعتْ * عنها الغوايةُ والاملاقُ والظلمُ

كلتا يديهِ غياثٌ عمَّ نفعهما * يستوكفانِ ولايعروهما العدمُ

سهلُ الخليقةِ لاتخشى بوادرهُ * يزينهُ اثنتانِ الحلمُ والكرمُ

لايخلفُ الوعدُ ميمونٌ بغيبتهِ * رحبُ الفناءِ أريبٌ حين يعتزمُ

منْ معشرٍ حبهمْ دينٌ وبغضهمُ * كفرٌ وقربهمُ منجى ومعتصمُ

يستدفعُ السوءَ والبلوى بحبهمُ * ويستزادُ بهِ الاحسانُ والنعمُ

مقدمٌ بعدَ ذكرِ اللهِ ذكرهمُ * فى كلِّ حكمٍ ومختومٌ بهِ الكلمُ

إنْ عدَّ أهلُ التقى كانوا أئمتهمْ * أوقيلَ منْ خيرأهلِ الأرضِ قيلَ همُ

لايستطيعُ جوادٌ بعدَ غايتهمْ * ولايدانيهمُ قومٌ وإنْ كرموا

همُ الغيوثُ إذا ما أزمةٌ أزمتْ * والأسدُ أسدُ الشرى والبأسُ محتدمُ

يأبى لهمْ أن يحلَّ الذمُّ ساحتهمُ * خيمٌ كرامٌ وايدٍ بالندى هضمُ

لا ينقصُ العدمُ بسطاً منْ أكفهمُ * سيانَ ذلكَ إنْ أثروا وإنْ عدموا

أىُّ الخلائقِ ليستْ فى رقابهمُ * لأوليةِ هذا أولهُ نعمُ

فليسَ قولكَ منْ هذا بضائرهِ * العربُ تعرفُ منْ أنكرتَ والعجمُ

منْ يعرفَ اللهَ يعرفْ أوليةَ ذا * فالدينُ منْ بيتِ هذا نالهُ الأممُ

قال : فغضب هشام من ذلك وأمر بحبس الفرزدق بعسفان ، بين مكة والمدينة ، فلما بلغ ذلك على بن الحسين بعث إلى الفرزدق باثنى عشر ألف درهم ، فلم يقبلها وقال : إنما قلت ما قلت لله عز وجل ونصرة للحق ، وقياماً بحق رسول الله (ص) فى ذريته ، ولست أعتاض عن ذلك بشىء . فأرسل إليه على بن الحسين يقول : قد علم الله صدق نيتك فى ذلك ، وأقسمت عليك بالله لتقبلنها فتقبلها منه ثم جعل يهجو هشاماً وكان مما قال فيه :

تحبسنى بينَ المدينةِ والتى * إليها قلوبُ الناسِ تهوى منيبها

يقلبُ راساً لم يكنْ رأس سيدٍ * وعينينِ حولاوين بادٍ عيوبها

وقد روينا عن على بن الحسين أنه كان إذا مرت به الجنازة يقول هذين البيتين :

نراعُ إذا الجنائزُ قابلتنا * ونلهو حينَ تمضى ذاهباتِ

كروعةِ ثلةٍ لمغارِ سَبْعٍ * فلما غابَ عادتْ راتعاتِ

وروى الحافظ ابن عساكر من طريق محمد بن عبد الله المقرى حدثنى سفيان بن عيينة عن الزهرى قال سمعت على بن الحسين سيد العابدين يحاسب نفسه ويناجى ربه : ـ

يانفس حتام إلى الدنيا سكونك ، وإلى عمارتها ركونك ، أما اعتبرت بمن مضى من أسلافك ومن وارته الارض من ألافك ؟ ومن فجعت به من إخوانك ، ونقل إلى الثرى من أقرانك ؟ فهم فى بطون الأرض بعد ظهورها ، محاسنهم فيها بوال دواثر .

خلت دورهم منهم وأقوت عراصهم * وساقتهم نحو المنايا المقادر
وخلوا عن الدنيا وما جمعوا لها * وضمهم تحت التراب الحفائر

كم خرمت أيدى المنون من قرون بعد قرون ، وكم غيرت الأرض ببلائها ، وغيبت فى ترابها ، ممن عاشرت من صنوف وشيعتهم إلى الأمارس ، ثم رجعت عنهم إلى عمل أهل الافلاس : —

وأنت على الدنيا مكب منافس * لخطابها فيها حريص مكاثر
على خطر تمشى وتصبح لاهياً * أتدرى بماذا لو عقلت تخاطر
وإن امرءاً يسعى لدنياه دائباً * ويذهل عن أخراه لاشك خاسر

فحتام على الدنيا إقبالك ؟ وبشهواتها اشتغالك ؟ وقد وخطك القتير ، وأتاك النذير ، وأنت عما يرادبك ساه وبلذة يومك وغدك لاه ، وقد رأيت انقلاب أهل الشهوات ، وعاينت ما حل بهم من المصيبات ،

وفى ذكر هول الموت والقبر والبلى * عن اللهو واللذات للمرء زاجر
أبعد اقتراب الأربعين تربص * وشيب قذال منذر للكابر
كأنك معنى بما هو ضائر * لنفسك عمداً وعن الرشد حائر

انظر إلى الأمم الماضية والملوك الفانية كيف اختطفتهم عقبان الأيام ، ووافاهم الحمام ، فانمحت من الدنيا آثارهم ، وبقيت فيها أخبارهم ، وأضحوا رمماً فى التراب ، إلى يوم الحشر والمآب ،

أمسحوا رمماً فى التراب وعطلت * مجالسهم منهم وأخلى مقاصر
وحلوا بدار لاتزاور بينهم * وأنى لسكان القبور التزاور
فما أن ترى الا قبوراً قد ثووا بها * مسطحة تسفى عليها الأعاصر

كم من ذى منعة وسلطان وجنود وأعوان ، تمكن من دنياه ، ونال فيها ماتمناه ، وبنى فيها القصور والدساكر ، وجمع فيها الأموال والذخائر ، وملح السرارى والحرائر .

فما صرفت كف المنية إذ أتت * مبادرة تهوى إليه الذخائر
ولادفعت عنه الحصون التى بنى * وحف بها أنهاره والدساكر
ولا قارعت عنه المنية حيلة * ولاطمعت فى الذب عنه العساكر

أتاه من الله مالا يرد ، ونزل به من قضائه مالا يصد ، فتعالى الله الملك الجبار ، المتكبر العزيز القهار ، قاصم الجبارين ، ومبيد المتكبرين ، الذى ذل لعزه كل سلطان ، وأباد بقوته كل ديان .

مليكٌ عزيزٌ لايردُّ قضاؤهُ * حكيمٌ عليمٌ نافذُ الأمرِ قاهرُ
عنى كلُّ ذي عزٍ لعزةِ وجههِ * فكمْ مِنْ عزيزٍ للمهيمنِ صاغرُ
لقدْخضعتْواستسلمتْوتضاءلتْ * لعزةِ ذى العرشِ الملوكُ الجبابرُ

فالبدار البدار والحذار الحذار من الدنيا ومكايدها ، ومانصبت لك من مصايدها ، وتحلت لك من زينتها ، وأظهرت لك من بهجتها ، وأبرزت لك من شهواتها ، وأخفت عنك من قواتلها وهلكاتها ،

وفى دونِ ماعاينتَ من فجعاتها * إلى دفعها داعٍ وبالزهدِ آمرُ
فجدَّ ولا تغفلْ وكنْ متيقظاً * فعما قليلٍ يتركُ الدارَ عامرُ
فشمرْ ولاتفترْ فعمركَ زائلٌ * وأنتَ إلى دارِ الاقامةِ صائرُ
ولا تطلبْ الدنيا فانَّ نعيمها * وإنْ نلتَ منها غبهُ لكَ ضائرُ

فهل يحرص عليها لبيب ، أو يسر بها أريب ؟ وهو على ثقة من فنائها ، وغير طامع فى بقائها ، أم كيف تنام عينا من يخشى البيات ، وتسكن نفس مَنْ توقع فى جميع أموره الممات .

ألا لا ولكنا نغرُّ نفوسنا * وتشغلنا اللذاتُ عما نحاذرُ
وكيفَ يلذُّ العيشُ من هو مُوقفٌ * بموقفِ عدلٍ يومَ تبلى السرائرُ
كأنا نرى أن لانشورَ وأننا * سدىً مالنا بعد المماتِ مصادرُ

وما عسى أن ينال صاحب الدنيا من لذتها ويتمتع به من بهجتها ، مع صنوف عجائبها وقوارع فجائعها ، وكثرة عـذابه فى مصابها وفى طلبها ، ومايكابد من أسقامها وأوصابها وآلامها

أما قدْ نرى فى كلِ يومٍ وليلةٍ * يروحُ علينا صرفها ويباكرُ
تعاورنَا آفاتُهـا وهمومُهـا * وكمْ قدْ نرى يَبقىَ لها المتعاورُ
فلا هوَ مغبوطٌ بدنياهُ آمنٌ * ولاهوَ عنْ تَطلابها النفسُ قاصرُ

كم قد غرت الدنيـا من مخلد إليها ، وصرعت من مكب عليها ، فلم تنعشه من عثرته ، ولم تنقذه من صرعته ، ولم تشفه من ألمه ، ولم تبره من سقمه . ولم تخلصه من وصمه

بل أوردتهُ بعدَ عزٍ ومنعةٍ * مواردَ سوءٍ مالهنَّ مصادرُ
فلما رأى أن لانجاةَ وأنهُ * هوَ الموتُ لاينجيهِ منه التحاذرُ
تندم إذْ لم تغنِ عنهُ ندامةٌ * عليهِ وأبكتهُ الذنوبُ الكبائرُ

إذ بكى عـلى ماسلف من خطاياه ، وتحسر على ماخلف من دنيـاه ، واستغفر حتى لا ينفعه الاستغفار ، ولاينجيه الاعتذار ، عند هول المنية ونزول البلية .

أحاطت به أحزانه وهمومه * وأبلس لما أعجزته المقادر
فليس له من كربة الموت فارج * وليس له مما يحاذر ناصر
وقد جشأت خوف المنية نفسه * ترددها منه اللها والحناجر

هنالك خف عواده، وأسلمه أهله وأولاده، وارتفعت البرية بالعويل، وقد أيسوا من العليل، فغمضوا بأيديهم عينيه، ومد عندخروج روحه رجليه، وتخلى عنه الصديق، والصاحب الشفيق

فكم موجع يبكى عليه مفجع * ومستنجد صبراً وما هو صابر
ومسترجع داع له الله مخلصاً * يعدد منه كل ما هو ذاكر
وكم شامت مستبشر بوفاته * وعما قليل للذى صار صائر

فشقت جيوبها نساؤه، ولطمت خدودها إماؤه، وأعول لفقده جيرانه، وتوجع لرزيته إخوانه، ثم أقبلوا على جهازه، وشمروا لابرازه. كأنه لم يكن بينهم العزيز المفدى، ولا الحبيب المبدى.

وحل أحب القوم كان بقربه * يحث على تجهيزه ويبادر
وشمر من قد أحضروه لغسله * ووجه لما فاض للقبر حافر
وكفن فى ثوبين واجتمعت له * مشيعة إخوانه والعشائر

فلو رأيت الأصغر من أولاده، وقد غلب الحزن على فؤاده، ويخشى من الجزع عليه، وخضبت الدموع عينيه، وهو يندب أباه ويقول: يا ويلاه واحرباه: —

لعاينت من قبح المنية منظراً * يهال لمرآه ويرتاع ناظر
أكابر أولاد يهيج اكتئابهم * إذا ماتناساه البنون الاصاغر
وربة نسوان عليه جوازع * مدامعهم فوق الخدود غوازر

ثم أخرج من سعة قصره، إلى ضيق قبره، فلما استقر فى اللحد وهيئ عليه اللبن، احتوشته أعماله وأحاطت به خطاياه، وضاق ذرعا بما رآه، ثم حثوا بأيديهم عليه التراب، وأكثروا البكاء عليه والانتحاب، ثم وقفوا ساعة عليه، وأيسوا من النظر إليه، وتركوه رهنا بما كسب وطلب

فولوا عليه معولين وكلهم * لمثل الذى لاقى أخوه محاذر
كشاء رتاع آمنين بدا لها * بمديته بادى الذراعين حاسر
فريعت ولم ترتع قليلا وأجفلت * فلما نأى عنها الذى هو جازر

عادت إلى مرعاها، ونسيت مافى أختها دهاها، أفبأفعال الأنعام اقتدينا؟ أم على عادتها جرينا؟ عد إلى ذكر المنقول إلى دار البلى، واعتبر بموضعه تحت الثرى، المدفوع إلى هول ما ترى.

ثوى مفرداً فى لحده وتوزعت * مواريثه أولاده والأصاهر

وأخنوا على أمواله يقسمونها * فلا حامدٌ منهم عليها وشاكرُ
فيا عامرَ الدنيا ويا ساعياً لها * ويا آمناً من أن تدورَ الدوائرُ

كيف أمنت هذه الحالة وأنت صائر إليها لا محالة ؟ أم كيف ضيعت حياتك وهى مطيتك إلى مماتك ؟ أم كيف تشبع من طعامك وأنت منتظر حمامك ؟ أم كيف تهنأ بالشهوات ، وهى مطية الآفات

ولم تتزودْ للرحيلِ وقدْ دنا * وأنتَ على حالٍ وشيكٍ مسافرُ
فيالهفَ نفسى كمْ أسوفُ توبتى * وعمرىَ فانٍ والردى لىَ ناظرُ
وكلّ الذى أسلفتُ فى الصحف مثبتٌ * يجازى عليهِ عادلُ الحكمِ قادرُ

فكمْ ترقع بآخرتك دنياك ، وتركب غيك وهواك ، أراك ضعيف اليقين ، يامؤثر الدنيا على الدين أبهذا أمرك الرحمن ؟ أم على هذا نزل القرآن ؟ أما تذكر ما أمامك من شدة الحساب ، وشر المآب أما تذكر حال من جمع وثمر ، ورفع البناء وزخرف وعمر ، أماصار جمعهم بورا ، ومساكنهم قبورا :

تخربُ ما يبقى وتعمرُ فانياً * فلا ذاكَ موفورٌ ولا ذاكَ عامرُ
وهلْ لكَ إن وافاكَ حتفكَ بغتةً * ولم تكتسبْ خيراً لدى اللهِ عاذرُ
أترضى بأنْ تفنى الحياةَ وتنقضى * ودينكَ منقوصٌ ومالكَ وافرُ

وقد اختلف أهل التاريخ فى السنة التى توفى فيها على بن الحسين ، زين العابدين ، فالمشهور عن الجمهور أنه توفى فى هذه السنة ـ أعنى سنة أربع وتسعين ـ فى أولها عن ثمان وخمسين سنة ، وصلى عليه بالبقيع ، ودفن به ، قال الفلاس : مات على بن الحسين وسعيد بن المسيب وعروة وأبو بكر بن عبد الرحمن سنة أربع وتسعين ، وقال بعضهم : توفى سنة ثنتين أو ثلاث وتسعين ، وأغرب المدائنى فى قوله : إنه توفى سنة تسع وتسعين والله أعلم انتهى ماذكره المؤلف [من ترجمة على بن الحسين ، وقد رأيت له كلاما متفرقا وهو من جيد الحكمة ، فأحببت أن أذكره لعل الله أن ينفع به من وقف عليه :

قال حفص بن غياث عن حجاج عن أبى جعفر عن على بن الحسين قال : إن الجسد إذا لم يمرض أشر وبطر ، ولاخير فى جسد يأشر ويبطر . وقال أبو بكر بن الانبارى : حدثنا أحمد بن الصلت حدثنا قاسم بن إبراهيم العلوى حدثنا أبى عن جعفر بن محمد عن أبيه قال قال على بن الحسين : فقد الأحبة غربة . وكان يقول : اللهم إنى أعوذبك أن تحسن فى لوامع العيون علانيتى ، وتقبح فى خفيات الغيوب سريرتى ، اللهم كما أسأتُ وأحسنتَ إلى ، فاذا عدت فعد إلى . اللهم ارزقنى مواساة من قترت عليه رزقك بما وسعت على من فضلك . وقال لابنه : يابنى اتخذ ثوبا للغائط فانى رأيت الذباب يقع على الشئ ثم يقع على الثوب . ثم انتبه فقال : وما كان لرسول الله (ص) وأصحابه إلا ثوب واحد ، فرفضه . وعن أبى حمزة الثمالى قال : أتيت باب على بن الحسين فكرهت أن أصوت فقعدت على

الباب حتى خرج فسلمت عليه ودعوت له فرد على السلام ودعا لى ، ثم انتهى إلى حائط فقال : ياحمزة ترى هذا الحائط ؟ قلت : نعم ! قال : فانى اتكأت عليه يوماً وأنا حزين فاذا رجل حسن الوجه حسن الثياب ينظر فى تجاه وجهى ، ثم قال : ياعلى بن الحسين ! مالى أراك كئيبا حزينا على الدنيا ! فهى رزق حاضر يأخذ منها البر والفاجر . فقلت : ما عليها أحزن لأنها كما تقول ، فقال على الآخرة ؟ فهى وعد صادق ، يحكم فيها ملك قادر ، فقلت : ماعلى هذا أحزن لأنه كما تقول . فقال : فعلام حزنك ؟ فقلت : ما أتخوف من الفتنة ـ يعنى فتنة ابن الزبير ـ فقال لى : ياعلى ! هل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه ؟ قلت : لا ! قال و يخاف الله فلم يكفه ؟ قلت : لا ! ثم غاب عنى فقيل لى : ياعلى إن هذا الخضر الذى جاءك لفظ الخضر مزاد فيه من بعض الرواة .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن عمر بن حارث . قال : لما مات على بن الحسين فغسلوه جعلوا ينظرون إلى آثار سواد فى ظهره . فقالوا : ماهذا ؟ فقيل : كان يحمل جُرُب الدقيق ليلا على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة . وقال ابن عائشة : سمعت أهل المدينة يقولون : مافقدنا صدقة السر حتى مات على بن الحسين .

وروى عبد الله بن حنبل عن ابن اشكاب عن محمد بن بشر عن أبى المنهال الطائى أن على بن الحسين كان إذا ناول المسكين الصدقة قبله ثم ناوله . وقال الطبرى : حدثنا يحيى بن زكريا الغلابى حدثنا العتبى حدثنى أبى . قال قال على بن الحسين ـ وكان من أفضل بنى هاشم الأربعة ـ يابنى اصبر على النوائب ولا تتعرض للحقوق ، ولا تخيب أخاك إلا فى الأمر الذى مضرته عليك أكثر من منفعته لك . وروى الطبرانى باسناده عنه : أنه كان جالسا فى جماعة فسمع داعية فى بيته فنهض فدخل منزله ثم رجع إلى مجلسه ، فقيل له : أمن حدث كانت الداعية ؟ قال : نعم ! فعزوه وتعجبوا من صبره ، فقال : إنا أهل بيت نطيع الله عز وجل فيما نحبه ، ونحمده على مانكره . وروى الطبرانى عنه قال : إذا كان يوم القيامة نادى مناد ليقم أهل الفضل فيقوم ناس من الناس فيقال لهم : انطلقوا إلى الجنة . فتلقاهم الملائكة فيقولون : إلى أين ؟ فيقولون : إلى الجنة . فيقولون قبل الحساب ؟ قالوا : نعم ! قالوا : من أنتم ؟ قالوا نحن أهل الفضل ، قالوا : وما كان فضلكم ؟ قالوا : كنا إذا جهل علينا حلمنا ، وإذا ظلمنا صبرنا ، وإذا أسئ إلينا غفرنا ، قالوا لهم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . ثم ينادى مناد : ليقم أهل الصبر ، فيقوم ناس من الناس فيقال لهم انطلقوا إلى الجنة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون لهم مثل ذلك فيقولون : نحن أهل الصبر ، قالوا : فما كان صبركم ؟ قالوا : صبرنا أنفسنا على طاعة الله ، وصبرناها عن معصية الله ، وصبرناها على البلاء . فقالوا لهم : ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين . ثم ينادى المنادى : ليقم جيران الله فى داره ! فيقوم ناس من الناس وهم قليل ، فيقال لهم :

انطلقوا إلى الجنـة ، فتتلقاهم الملائكة فيقولون لهـم مثل ذلك ، فيقولون : بم استحققتم مجاورة الله عز وجل فى داره ؟ فيقولون : كنا نتزاور فى الله ، ونتجالس فى الله ، ونتباذل فى الله عز وجل . فيقال لهم ، ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين .

وقال عـلى بن الحسين : إن الله يحب المؤمن المذنب التواب . وقال : التارك للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كالنابذ كتاب الله وراء ظهره ، إلا أن يتقى منهـم تقاة . قالوا : وما تقاه ؟ قال : يخاف جباراً عنيداً أن يسطو عليه وأن يطغى . وقال رجل لسعيد بن المسيب : مارأيت أحداً أورع من فلان . فقال له سعيد : هل رأيت على بن الحسين ؟ قال : لا ! قال : مارأيت أورع منه . وروى سفيان بن عيينة عن الزهرى . قال : دخلت عـلى على بن الحسين فقال : يازهرى فيم كنتم ؟ قلت : كنا نتذاكر الصوم ، فأجمع رأيى ورأى أصحابى على أنه ليس من الصوم شئ واجب ، إلا شهر رمضان فقال ! يازهرى ليس كما قلتم ، الصوم على أربعين وجها ، عشرة منها واجب كوجوب شهر رمضان ، وعشرة منها حرام ، وأربع عشرة منها صاحبها بالخيار ، إن شاء صام وإن شاء أفطر ، وصوم النذر واجب ، وصوم الاعتكاف واجب ، قال الزهرى قلت : فسّرهن يا ابن رسول الله ص ، قال : أما الواجب فصوم شهر رمضان ، وصوم شهرين متتابعين فى قتل الخطأ لمن لم يجـد العتق ، وصيام ثلاثة أيام كفارة اليمين لمن لم يجـد الاطعام ، وصيام حلق الرأس ، وصوم دم المتعة لمن لم يجد الهدى وصوم جزاء الصيد ، يقوّم الصيد قيمته ثم يقسم ذلك الثمن على الحنطة . وأما الذى صاحبـه بالخيار فصوم الأثنين والخميس ، وستة أيام من شوال بعد رمضان ، وصوم عرفة ويوم عاشوراء ، كل ذلك صاحبه بالخيار . فأما صوم الأذن فالمرأة لاتصوم تطوعاً إلا باذن زوجها ، وكذلك العبد والأمة ، وأما صوم الحرام فصوم يوم الفطر والأضحى ، وأيام التشريق ، ويوم الشك ، نهينا أن نصومه لرمضان . وصوم الوصال حرام ، وصوم الصمت حرام ، وصوم نذر المعصية حرام ، وصوم الدهر ، وصوم الضيف لايصوم تطوعاً إلا باذن صاحبه ، قال رسول الله ص : « من نزل على قوم فلا يصومن تطوعا إلا بأذنهم » . وأما صوم الاباحـة فمن أكل أوشرب ناسيا أجزأه صومـه ، وأما صوم المريض والمسافر فقال قوم : يصوم ، وقال قوم لا يصوم ، وقال قوم إن شاء صام وإن شاء أفطر » وأما نحن فنقول : يفطر فى الحالين ، فان صام فى السفر والمرض فعليه القضاء] (١)

ابو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث

ابن هشام بن المغيرة بن عبـد الله بن عمر بن مخزوم القرشى المدنى أحد الفقهاء السبعة ، قيل اسمه محمد ، وقيل اسمه أبو بكر ، وكنيته أبو عبد الرحمن ، والصحيح أن اسمه وكنيته واحد ، وله من

(١) زيادة من المصرية .

الأولاد والاخوة كثير، وهو تابعى جليل، يروى عن عمار وأبى هريرة وأسماء بنت أبى بكر، وعائشة وأم سلمة وغيرهم، وعنه جماعة منهم بنوه سلمة وعبد الله وعبد الملك وعمر، ومولاه سمى، وعامر الشعبي وعمر بن عبد العزيز، وعمرو بن دينار، ومجاهد، والزهرى. ولد فى خلافة عمر، وكان يقال له راهب قريش، لكثرة صلاته، وكان مكفوفا، وكان يصوم الدهر، وكان من الثقة والأمانة والفقه وصحة الرواية على جانب عظيم، قال أبو داود: وكان قد كف وكان إذا سجد يضع يده فى طست لعلة كان يجدها. والصحيح أنه مات فى هذه السنة، وقيل فى التى قبلها، وقيل فى التى بعدها. والله أعلم.

[قلت: ونظم بعض الشعراء بيتين ذكر فيهما الفقهاء السبعة فقال: —

ألا كلُّ منْ لايقتدى بأئمةٍ * فقسمته ضيزاً عن الحق خارجهْ

فخذهمْ عبيدَ الله عروةَ قاسمٍ * سعيد أبو بكر سليمانَ خارجهْ

وفيها توفى الفضل بن زياد الرقاشى، أحد زهاد أهل البصرة، وله مناقب وفضائل كثيرة جداً؛ قال: لايلهينك الناس عن ذات نفسك، فان الأمر يخلص إليك دونهم، ولاتقطع نهارك بكيت وكيت، فانه محفوظ عليك ماقلت. وقال: لم أر شيئا أحسن طلبا، ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثة لذنب قديم.

أبو سلمة أبو عبد الرحمن بن عوف الزهرى، كان أحد فقهاء المدينة، وكان إماماً عالما، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة، وكان واسع العلم. توفى بالمدينة.

عبد الرحمن بن عائذ الأزدى، له روايات كثيرة، وكان عالما، وخلف كتبا كثيرة من علمه، روى عن جماعة من الصحابة، وأسر يوم وقعة ابن الأشعث فأطلقه الحجاج.

عبد الرحمن بن معاوية بن خزيمة، قاضى مصر لعمر بن عبد العزيز بن مروان وصاحب شرطته، كان عالما فاضلا، روى الحديث وعنه جماعة] (١).

ثم دخلت سنة خمس وتسعين

فيها غزا العباس بن الوليد بلاد الروم، وافتتح حصونا كثيرة. وفيها فتح مسلمة بن عبد الملك مدينة فى بلاد الروم، ثم حرقها ثم بناها بعد ذلك بعشر سنين، وفيها افتتح محمد بن القاسم مدينة المولينا(٢) من بلاد الهند، وأخذ منها أموالا جزيلة، وفيها قدم موسى بن نصير من بلاد الأندلس إلى إفريقية ومعه الأموال على العجل تحمل من كثرتها، ومعه ثلاثون ألف رأس من السبى، وفيها غزا قتيبة بن مسلم بلاد الشاش، ففتح مدنا وأقاليم كثيرة، فلما كان هناك جاءه الخبر بموت الحجاج بن يوسف فقمعه ذلك ورجع بالناس إلى مدينة مرو وتمثل بقول بعض الشعراء:

---

(١) زيادة من المصرية. (٢) كذا ولعلها (الملتان).

لعمرى لنعم المرء من آل جعفر * بحوران أمسى أعلقتهُ الحبائلُ
فان تحيَ لا أملكْ حياتى وإن تمتْ * فما فى حياتى بعدَ موتكَ طائلُ

وفيها كتب الوليد إلى قتيبة بأن يستمر على ما هو عليه من مناجزة الأعداء ، ويعده على ذلك ويجزيه خيراً ، ويثنى عليه بما صنع من الجهاد وفتح البلاد وقتال أهل الكفر والعناد . وقد كان الحجاج استخلف على الصلاة ابنه عبد الله ، فولى الوليد الصلاة والحرب بالمصرين ـ الكوفة والبصرة ـ يزيد بن أبى كبشة ، وولى خراجهما يزيد بن مسلم ، وقيل كان الحجاج يستخلفهما على ذلك فأقرهما الوليد ، واستمر سائر نواب الحجاج على ما كانوا عليه . وكانت وفاة الحجاج لخمس ، وقيل لثلاث بقين من رمضان ، وقيل مات فى شوال من هذه السنة .

وحج بالناس فيها بشر بن الوليد بن عبد الملك ، قاله أبو معشر والواقدى . وفيها قتل الوضاحى بأرض الروم ومعه ألف من أصحابه ، وفى هذه السنة كان مولد أبى جعفر المنصور عبد الله بن محمد ابن على بن عبد الله بن عباس .

﴿ وهذه ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفى وذكر وفاته ﴾

هو الحجاج بن يوسف بن أبى عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب بن مالك بن دهب بن عمرو ابن سعد بن عوف بن ثقيف ، وهو قسى بن منبه بن بكر بن هوازن ، أبو محمد الثقفى ، سمع ابن عباس وروى عن أنس وسمرة بن جندب وعبد الملك بن مروان وأبى بردة بن أبى موسى ، وروى عنه أنس بن مالك ، وثابت البنانى ، وحميد الطويل ، ومالك بن دينار ، وجواد بن مجالد ، وقتيبة بن مسلم ، وسعيد بن أبى عروبة . قاله ابن عساكر ، قال : وكانت له بدمشق دور منها دار الراوية بقرب قصر ابن أبى الحديد . وولاه عبد الملك الحجاز فقتل ابن الزبير ، ثم عزله عنها وولاه العراق . وقدم دمشق وافداً على عبد الملك ، ثم روى من طريق المغيرة بن مسلم ، سمعت أبى يقول : خطبنا الحجاج بن يوسف فذكر القبر ، فما زال يقول : إنه بيت الوحدة ، وبيت الغربة ، حتى بكى وأبكى من حوله ، ثم قال : سمعت أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يقول : سمعت مروان يقول فى خطبته : خطبنا عثمان بن عفان فقال فى خطبته : « ما نظر رسول الله (ص) إلى قبر أو ذكره إلا بكى » . وهذا الحديث له شاهد فى سنن أبى داود وغيره ، وساق من طريق أحمد بن عبد الجبار : ثنا يسار عن جعفر عن مالك بن دينار قال : دخلت يوما على الحجاج فقال لى : يا أبا يحيى ألا أحدثك بحديث حسن عن رسول الله (ص)؟ فقلت : بلى ! فقال : حدثنى أبو بردة عن أبى موسى . قال قال رسول الله (ص) : « من كانت له إلى الله حاجة فليدع بها فى دبر صلاة مفروضة » . وهذا الحديث له شاهد عن فضالة بن عبيد وغيره فى السنن والمسانيد والله أعلم .

قال الشافعي : سمعت من يذكر أن المغيرة بن شعبة دخل على امرأته وهى تتخلل ـ أى تخلل أسنانها لتخرج مابينها من أذى ـ وكان ذلك فى أول النهار ، فقال : والله لئن كنت باكرت الغذاء إنك لرعينة دنية ، وإن كان الذى تخللين منه شئ بقى فى فيك من البارحة إنك لقذرة ، فطلقها فقالت : والله ما كان شئ مماذكرت ، ولكننى باكرت ماتباكره الحرة من السواك ، فبقيت شظية فى فمى منه فحاولتها لأخرجها . فقال المغيرة ليوسف أبى الحجاج : تزوجها فانها لخليقة بأن تأتى برجل يسود ، فتزوجها يوسف أبو الحجاج . قال الشافعي : فأخبرت أن أبا الحجاج لما بنى بها واقعها فنام فقيل له فى النوم : ما أسرع ما ألقحت بالمبير .

قال ابن خلكان : واسم أمه الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفى ، وكان زوجها الحارث ابن كلدة الثقفى طبيب العرب ، وذكر عنه هذه الحكاية فى السواك . وذكر صاحب العقد أن الحجاج كان هو وأبوه يعلمان الغلمان بالطائف ، ثم قدم دمشق فكان عند روح بن زنباع وزير عبد الملك، فشكا عبد الملك إلى روح أن الجيش لاينزلون لنزوله ولا يرحلون لرحيله ، فقال روح : عندى رجل توليه ذلك ، فولى عبد الملك الحجاج أمر الجيش ، فكان لايتأخر أحد فى النزول والرحيل ، حتى اجتاز إلى فسطاط روح بن زنباع وهم يأكلون فضربهم وطوف بهم وأحرق الفسطاط ، فشكا روح ذلك إلى عبد الملك ، فقال للحجاج : لم صنعت هذا ؟ فقال : لم أفعله إنما فعله أنت ، فان يدى يدك ، وسوطى سوطك ، وما ضرك إذا أعطيت روحاً فسطاطين بدل فسطاطه ، وبدل الغلام غلامين ، ولا تكسرنى فى الذى وليتنى ؟ ففعل ذلك وتقدم الحجاج عنده . قال : وبنى واسط فى سنة أربع وثمانين ، وفرغ منها فى سنة ست وثمانين ، وقيل قبل ذلك قال : وفى أيامه نقطت المصاحف ، وذكر فى حكايته مايدل أنه كان أولا يسمى كليبا ، ثم سمى الحجاج . وذكر أنه ولد ولامخرج له حتى فتق له مخرج ، وأنه لم يرتضع أياماً حتى سقوه دم جدى ثم دم سالخ ولطخ وجهه بدمه فارتضع ، وكانت فيه شهامة وحب لسفك الدماء ، لأنه أول ما ارتضع ذلك الدم الذى لطخ به وجهه ، ويقال إن أمه هى المتمنية لنصر بن حجاج بن علاط ، وقيل إنها أم أبيه والله أعلم . وكانت فيه شهامة عظيمة ، وفى سيفه رهق ، وكان كثير قتل النفوس التى حرمها الله بأدنى شبهة ، وكان يغضب غضب الملوك ، وكان فيما يزعم يتشبه بزياد بن أبيه ، وكان زياد يتشبه بعمر بن الخطاب فيما يزعم أيضاً ، ولا سواء ولا قريب . وقد ذكر ابن عساكر فى ترجمة سليم بن عنز التجيبى قاضى مصر ، وكان من كبار التابعين . وكان ممن شهد خطبة عمر بن الخطاب بالجابية ، وكان من الزهادة والعبادة على جانب عظيم ، وكان يختم القرآن فى كل ليلة ثلاث ختمات فى الصلاة وغيرها .

والمقصود أن الحجاج كان مع أبيه بمصر فى جامعها فاجتاز بهما سليم بن عنز هذا فنهض إليه أبو

الحجاج فسلم عليه ، وقال له : إنى ذاهب إلى آمير المؤمنين ، فهل من حاجة لك عنده ؟ قال : نعم ! تسأله أن يعزلنى عن القضاء . فقال : سبحان الله !! والله لا أعلم قاضياً اليوم خيراً منك . ثم رجع إلى ابنه الحجاج فقال له ابنـه : يا أبة أتقوم إلى رجل من تجيب وأنت ثقفى ؟ فقال له : يابنى والله إنى لأحسب أن الناس يرحمون بهذا وأمثاله . فقال : والله ماعلى أمير المؤمنين أضر من هذا وأمثاله ، فقال : ولم يابنى ؟ قال : لأن هذا وأمثاله يجتمع الناس إليهم فيحدثونهم عن سيرة أبى بكر وعمر ، فيحقر الناس سـيرة أمير المؤمنين ولا يرونها شيئا عنـد سيرتهما فيخلعونه و يخرجون عليـه و يبغضونه ، ولا يرون طاعته ، والله لو خلص لى من الأمر شئ لأضربن عنق هذا وأمثاله . فقال له أبوه : يابنى والله إنى لأظن أن الله عز وجل خلقك شقياً . وهذا يدل على أن أباه كان ذا وجاهة عنـد الخليفة ، وأنه كان ذا فراسة صحيحة ، فانه تفرس فى ابنه ما آل إليه أمره بعد ذلك .

قالوا : وكان مولد الحجاج فى سـنة تسع وثلاثين ، وقيل فى سنة أربعين ، وقيل فى سنة إحدى وأربعين ، ثم نشأ شابا لبيبا فصيحا بليغاً حافظاً للقرآن ، قال بعض السلف : كان الحجاج يقرأ القرآن كل ليلة ، وقال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح منه ومن الحسن البصرى ، وكان الحسن أفصح منـه . وقال الدار قطنى : ذكر سليمان بن أبى منيح عن صالح بن سليمان قال قال عقبـة بن عمرو : ما رأيت عقول الناس إلا قريباً بعضها من بعض ، إلا الحجاج و إياس بن معاوية ، فان عقولهما كانت ترجح على عقول الناس . وتقدم أن عبد الملك لما قتل مصعب بن الزبير سنة ثلاث وسبعين بعث الحجاج إلى أخيـه عبـد الله بمكة فحاصره بها وأقام للناس الحج عامئـذ ، ولم يتمكن ومن معـه من الطواف بالبيت ، ولا تمكن ابن الزبير ومن عنده من الوقوف ، ولم يزل محاصره حتى ظفر به فى جمادى سـنة ثلاث وسبعين ، ثم استنابه عبد الملك على مكة والمدينة والطائف واليمن ، ثم نقله إلى العراق بعد موت أخيه بشر ، فدخل الكوفة كما ذكرنا ، وقال لهم وفعل بهم ماتقدم إيراده مفصلا ، فأقام بين ظهرانيهم عشرين سـنة كاملة . وفتح فيها فتوحات كثيرة ، هائلة منتشرة ، حتى وصلت خيوله إلى بلاد الهند والسند ، ففتح فيها جملة مدن وأقاليم ، و وصلت خيوله أيضا إلى قريب من بلاد الصين ، وجرت له فصول قـد ذكرناها . ونحن نورد هنا أشياء أخر مما وقع له من الامور والجراءة والاقدام ، والتهاون فى الأمور العظام ، مما يمدح على مثله ومما يذم بقوله وفعله ، مما ساقه الحافظ ابن عساكر وغيره :

فروى أبو بكر بن أبى خيثمة عن يحيى بن أيوب عن عبـد الله بن كثير ابن أخى إسماعيل بن جعفر المدينى ما معناه : أن الحجاج بن يوسف صلى مرة بجنب سـعيد بن المسيب ـ وذلك قبل أن يلى شيئاً ـ فجعل يرفع قبل الامام و يقع قبله فى السجود ، فلما سلم أخذ سعيد بطرف ردائه ـ وكان له ذكر يقوله بعد الصـلاة ـ فما زال الحجاج ينازعه رداءه حتى قضى سعيد ذكره ، ثم أقبل عليه سعيد

فقال له : ياسارق ياخائن ، تصلى هذه الصلاة ، لقد هممت أن أضرب بهذا النعل وجهك . فلم يرد عليه ثم مضى الحجاج إلى الحج ، ثم رجع فعاد إلى الشام ، ثم جاء نائبا على الحجاز . فلما قتل ابن الزبير كر راجعا إلى المدينة نائباً عليها ، فلما دخل المسجد إذا بمجلس سعيد بن المسيب ، فقصده الحجاج فخشى الناس على سعيد منه ، فجاء حتى جلس بين يديه فقال له : أنت صاحب الكلمات ؟ فضرب سعيد صدره بيده وقال : نعم ! قال : فجزاك الله من معلم ومؤدب خيراً ، ما صليت بعدك صلاة إلا وأنا أذكر قولك . ثم قام ومضى . وروى الرياشي عن الأصمعي وأبي زيد عن معاذ بن العلاء ـ أخي أبي عمرو بن العلاء ـ قال : لما قتل الحجاج ابن الزبير ارتجت مكة بالبكاء ، فأمر الناس فجمعوا فى المسجد ثم صعد المنبر فقال بعد حمد الله والثناء عليه : يا أهل مكة ! بلغنى إكبارکم قتل ابن الزبير ، ألا وإن ابن الزبير كان من خيار هذه الأمة ، حتى رغب فى الخلافة ونازع فيها أهلها ، فنزع طاعة الله واستكن بحرم الله ، ولو كان شيء مانع العصاة لمنعت آدم حرمة الله ، إن الله خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وأباح له كرامته ، وأسكنه جنته ، فلما أخطأ أخرجه من الجنة بخطيئته ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة ، اذكروا الله يذكركم .

وقال الامام أحمد : حدثنا إسحاق بن يوسف ثنا عون عن أبي الصديق الناجى أن الحجاج دخل على أسماء بنت أبي بكر بعد ما قتل ابنها عبد الله فقال : إن ابنك ألحد فى هذا البيت ، وإن الله أذاقه من عذاب أليم ، وفعل . فقالت : كذبت ، كان براً بوالديه ، صواما قواما ، والله لقد أخبرنا رسول الله (ص) « أنه يخرج من ثقيف كذابان الآخر منهما شر من الأول ، وهو مبير » .
ورواه أبو يعلى عن وهب بن بقية عن خالد عن عون عن أبي الصديق . قال : بلغنى أن الحجاج دخل على أسماء فذكر مثله ، وقال أبو يعلى : ثنا زهير ثنا جرير عن يزيد بن أبي زياد عن قيس بن الأحنف عن أسماء بنت أبي بكر . قالت : سمعت رسول الله (ص) نهى عن المثلة . وسمعته يقول : « يخرج من ثقيف رجلان كذاب ومبير » . قالت فقلت للحجاج : أما الكذاب فقد رأيناه ، وأما المبير فأنت هو يا حجاج . وقال عبيد بن حميد : أنبأ يزيد بن هارون أنبأ العوام بن حوشب حدثنى من سمع أسماء بنت أبي بكر الصديق تقول للحجاج حين دخل عليها يعزيها فى ابنها : سمعت رسول الله (ص) يقول : « يخرج من ثقيف رجلان مبير وكذاب » . فأما الكذاب فابن أبي عبيد ـ تعنى المختار ـ وأما المبير فأنت . وتقدم فى صحيح مسلم من وجه آخر أوردناه عند مقتل ابنها عبد الله ، وقد رواه غير أسماء عن النبي (ص) فقال أبو يعلى : ثنا أحمد بن عمر الوكيعى ثنا وكيع حدثتنا أم عراب عن امرأة يقال لها عقيلة عن سلامة بنت الحر قالت قال رسول الله (ص) : « فى ثقيف كذاب ومبير » . تفرد به أبو يعلى . وقد روى الامام أحمد عن وكيع عن أم عراب ـ واسمها

طلحة ـ عن عقيلة عن سلامة حديثا آخر فى الصلاة ، وأخرجه أبو داود وابن ماجه ، وروى من حديث ابن عمر ، فقال أبو يعلى : ثنا أمية بن بسطام ثنا يزيد بن ربيع ثنا إسرائيل ثنا عبد الله بن عصمة قال : سمعت ابن عمر « أنبأنا رسول الله صـ أن فى ثقيف مبيرا وكذابا » وأخرجه الترمذى من حديث شريك عن عبد الله بن عاصم ويقال عصمة . وقال : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث شريك .

وقال الشافعى : ثنا مسلم بن خالد عن ابن جريج عن نافع أن ابن عمر اعتزل ليالى قتال ابن الزبير والحجاج بمنى ، فكان لا يصلى مع الحجاج . وقال الثورى عن محمد بن المنكدر عن جابر أنه دخل على الحجاج فلم يسلم عليه ولم يكن يصلى وراءه . وقال إسحاق بن راهويه : أنبأ جرير عن القعقاع بن الصلت قال : خطب الحجاج فقال : إن ابن الزبير غير كتاب الله ، فقال ابن عمر : ماسلطه الله على ذلك ، ولا أنت معه ، ولو شئت أقول : كذبت لفعلت . وروى عن شهر بن حوشب وغيره أن الحجاج أطال الخطبة فجعل ابن عمر يقول : الصلاة الصلاة مراراً ، ثم قام فأقام الصلاة فقام الناس ، فصلى الحجاج بالناس ، فلما انصرف قال لابن عمر : ماحملك على ذلك ؟ فقال : إنما نجيء للصلاة فصل الصلاة لوقتها ثم تفتق ماشئت بعد من تفتقه .

وقال الاصمعى : سمعت عمى يقول : بلغنى أن الحجاج لما فرغ من ابن الزبير وقدم المدينة لقى شيخاً خارجاً من المدينة فسأله عن حال أهل المدينة ، فقال : بشرُّ حال ، قتل ابن حوارى رسول الله صـ ، فقال الحجاج : ومن قتله ؟ فقال : الفاجر اللعين الحجاج عليه لعائن الله وتهلكته ، من قليل المراقبة لله . فغضب الحجاج غضباً شديداً ثم قال : أيها الشيخ ! أتعرف الحجاج إذا رأيته ؟ قال : نعم ! فلا عرفه الله خيراً ولا وقاه ضراً . فكشف الحجاج عن لثامه وقال : ستعلم أيها الشيخ الآن إذا سال دمك الساعة . فلما تحقق الشيخ الجد قال : والله إن هذا لهو العجب ياحجاج ، لو كنت تعرفنى ماقلت هذه المقالة ، أنا العباس بن أبى داود ، أصرع كل يوم خمس مرات ، فقال الحجاج : انطلق فلا شفى الله الأبعد من جنونه ولا عافاه .

وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الصمد ثنا حماد بن سلمة عن ابن أبى رافع عن عبد الله بن جعفر قال خالد بن يزيد بن معاوية لعبد الملك : أتمكنه من ذلك ؟ فقال : وما بأس من ذلك . قال : أشد الناس والله ، قال : كيف ؟ قال : والله يا أمير المؤمنين لقد ذهب ما فى صدرى على آل الزبير منذ تزوجت[1] رملة بنت الزبير ، قال : وكأنه كان نائما فأيقظه ، فكتب إلى الحجاج يعزم عليه بطلاقها فطلقها . وقال سعيد بن أبى عروبة : حج الحجاج مرة فمر بين مكة والمدينة فأتى بغدائه فقال لحاجبه:

(١) كذا بالأصول والظاهر أن فى مواضع من هذا الخبر تحريفا .

انظر من يأكل معى ، فذهب فاذا أعرابى نائم فضربه برجله وقال : أجب الأمير ، فقام فلما دخل على الحجاج قال له : اغسل يديك ثم تغـدّ معى ، فقال : إنه دعانى من هو خير منك ، قال : ومن ؟ قال الله دعانى إلى الصوم فأجبته ، قال : فى هذا الحر الشديد ؟ قال: نعم صمت ليوم هو أشد حراً منه، قال : فأفطر وصم غدا ، قال : إن ضمنت لى البقاء لغد . قال : ليس ذلك لى ، قال : فكيف تسألنى عاجلا بآجل لاتقدر عليه ؟ قال : إن طعامنا طعام طيب ، قال : لم تطيبه أنت ولا الطّباخ ، إنما طيبته العافية

فصل

قـد ذكرنا كيفية دخول الحجاج الكوفة فى سـنة خمس وسبعين وخطبته إياهم بغتة ، وتهديده ووعيـده إياهم ، وأنهـم خافوه مخافة شديدة ، وأنه قتل عمير بن ضابئ ، وكذلك قتل كميل بن زياد صبرا ، ثم كان من أمره فى قتال ابن الأشعث ما قـدمنا ، ثم تسلط عـلى من كان معه من الرؤساء والأمراء والعبّاد والقراء ، حتى كان آخر من قتل منهم سعيد بن جبير . قال القاضى المعافى زكريا : ثنا أحمد بن محمد بن سعد الـكلبى ثنا محمد بن زكريا الغلابى ثنا محمد ـ يعنى ابن عبد الله بن عباس ـ عن عطاء ـ يعنى ابن مصعب ـ عن عاصم قال : خطب الحجاج أهل العراق بعد دير الجماجم ، فقال : يا أهل العراق إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم ، والعصب والمسامع ، والأطراف ، ثم أفضى إلى الاسماخ والامخاخ ، والأشـباح والأرواح ، ثم ارتع فعشش ، ثم باض وفرخ ، ثم دب ودرج ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً ، وأشعركم خلافا ، اتخذتموه دليـلا تتبعونه ، وقائداً تطيعونه ، ومؤتمنا تشاورونه وتستأمرونه ، فكيف تنفعكم تجربة ، أو ينفعكم بيان ؟ ألستم أصحابى بالأهواز حيث منيتم المكر واجتمعتم على الغدر ، واتفقتم على الكفر ، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته ، وأنا والله أرميكم بطرفى وأنتم تتسللون لواذا ، وتنهزمون سراعا . ويوم الزاوية وما يوم الزاوية ، مما كان من فشلكم وتنازعكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ، ونكوس قلوبكم إذ وليتم كالابل الشاردة عن أوطانها النوازع ، لا يسأل المرء منكم عن أخيه ، ولا يلوى الشيخ على بنيه ، حين عضكم السلاح ، ونخعتكم الرماح . ويوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم ، بها كانت المعارك والملاحم ، بضرب يزيل الهام عن مقيله ، ويذهل الخليل عن خليله . يا أهل العراق يا أهل الكفران بعـد الفجران ، والغدران بعد الخذلان ، والنزوة بعد النزوات ، إن بعثناكم إلى ثغوركم غللتم وخنتم ، وإن أمنتم أرجفتم ، وإن خفتم نافقتم ، لا تذكرون نعمة ، ولا تشكرون معروفا ، ما استخفكم ناكث ، ولا استغواكم غاو ، ولا استنقذكم عاص ، ولا استنصركم ظالم ، ولا استعضدكم خالع ، إلا لبيتم دعوته ، وأجبتم صيحته ، ونفرتم إليـه خفافاً وثقالا ، وفرسانا ورجالا . يا أهـل العراق هل شغب شاغب ، أو نعب ناعب ، أو زفر زافر

إلا كنتم أتباعه وأنصاره ؟ يا أهل العراق ألم تنفعكم المواعظ ؟ ألم تزجركم الوقائع ؟ ألم يشدد الله عليكم وطأته ، ويذقكم حر سيفه ، وأليم بأسه ومثلاته ؟ . ثم التفت إلى أهل الشام فقال : يا أهل الشام إنما أنا لكم كالظليم الرامح عن فراخه ينفى عنها القذر ، ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر ، ويحميها من الضباب ، ويحرسها من الذباب . يا أهل الشام ! أنتم الجُنة والبرد ، وأنتم الملاءة والجلد ، أنتم الاولياء والأنصار ، والشعار والدثار ، بكم يذب عن البيضة والحوذة ، وبكم ترمى كتائب الأعداء ويهزم من عاند وتولى .

قال ابن أبي الدنيا : حدثني محمد بن الحسين حدثنا عبيد الله بن محمد التميمي سمعت شيخاً من قريش يكنى أبا بكر التيمي قال : كان الحجاج يقول فى خطبته ـ وكان لسناً ـ : إن الله خلق آدم وذريته من الأرض فأمشاهم على ظهرها ، فأكلوا ثمارها وشربوا أنهارها وهتكوها بالمساحى والمرور ، ثم أدال الله الأرض منهم فردهم إليها فأكلت لحومهم كما أكلوا ثمارها ، وشربت دماءهم كما شربوا أنهارها ، وقطعتهم فى جوفها وفرقت أوصالهم كما هتكوها بالمساحى والمرور .

ومما رواه غير واحد عن الحجاج أنه قال فى خطبته فى المواعظ : الرجل وكلكم ذاك الرجل، رجل خطم نفسه وزمها فقادها بخطامها إلى طاعة الله ، وكفها بزمامها عن معاصى الله ، رحم الله امرءاً رد نفسه ، امرءاً اتهم نفسه ، امرءاً اتخذ نفسه عدوة ، امرءاً حاسب نفسه قبل أن يكون الحساب إلى غيره ، امرءاً نظر إلى ميزانه ، امرءاً نظر إلى حسابه ، امرءاً وزن عمله ، امرءاً فكر فيما يقرأ غداً فى صحيفته ويراه فى ميزانه ، وكان عند قلبه زاجراً ، وعند همه آمراً ، امرءاً أخذ بعنان عمله كما يأخذ بعنان جمله ، فان قاده إلى طاعة الله تبعه ، وإن قاده إلى معصية الله كف ، امرءاً عقل عن الله أمره ، امرءاً فاق واستفاق ، وأبغض المعاصى والنفاق ، وكان إلى ماعند الله بالأشواق . فما زال يقول امرءاً امرءاً ، حتى بكى مالك بن دينار .

وقال المدائنى عن عوانة بن الحكم قال قال الشعبى : سمعت الحجاج تكلم بكلام ماسبقه إليه أحد ، يقول : أما بعد فان الله تعالى كتب على الدنيا الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا فناء لما كتب عليه البقاء ، ولا بقاء لما كتب عليه الفناء . فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة ، واقهروا طول الأمل بقصر الأجل . وقال المدائنى عن أبى عبد الله الثقفى عن عمه قال : سمعت الحسن البصرى يقول : وقذتنى كلمة سمعتها من الحجاج سمعته يقول على هذه الأعواد : إن امرءاً ذهبت ساعة من عمره فى غير ماخلق له لحرى أن تطول عليها حسرته إلى يوم القيامة . وقال شريك القاضى عن عبد الملك بن عمير قال قال الحجاج يوما : من كان له بلاء أعطيناه على قدره ، فقام رجل فقال :

اعطنى فانى قتلت الحسين ، فقال : وكيف قتلته ؟ قال : دسرته بالرمح دسراً ، وهبرته بالسيف هبراً ، وما أشركت معى فى قتله أحداً . فقال : اذهب فو الله لاتجتمع أنت وهو فى موضع واحد ، ولم يعطه شيئا . وقال الهيثم بن عدى : جاء رجل إلى الحجاج فقال : إن أخى خرج مع ابن الأشعث فضرب على اسمى فى الديوان ومنعت العطاء وقد هدمت دارى ، فقال الحجاج ، أما سمعت قول الشاعر :

حَنانَيْكَ مَن يَجْنِى عليكَ وَقَدْ * تعدِّى الصِحاحَ مباركُ الجُرَبِ

ولربَّ مأخوذٍ بذنبِ قَريبِهِ * ونجا المُقارِفُ صاحبُ الذَّنْبِ ؟

فقال الرجل : أيها الأمير ! إنى سمعت الله يقول غير هذا ، وقول الله أصدق من هذا ، قال : وما قال ؟ قال [قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين ، قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون] قال : يا غلام أعد اسمه فى الديوان وابن داره ، واعطه عطاءه ، ومر مناديا ينادى صدق الله وكذب الشاعر . وقال الهيثم بن عدى عن ابن عباس : كتب عبد الملك إلى الحجاج أن ابعث إلى برأس أسلم بن عبد البكرى ، لما بلغنى عنه ، فأحضره الحجاج فقال : أيها الأمير أنت الشاهد وأمير المؤمنين الغائب ، وقال الله تعالى [يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين] وما بلغه باطل ، وإنى أعول أربعة وعشرين امرأة ما لهن كاسب غيرى وهن بالباب ، فأمر الحجاج باحضارهن ، فلما حضرن جعلت منه تقول : أنا خالته ، وهذه أنا عمته ، وهذه أنا أخته ، وهذه أنا زوجته ، وهذه أنا بنته ، وتقدمت إليه جارية فوق الثمان ودون العشرة ، فقال لها الحجاج : من أنت ؟ فقالت : أنا ابنته ، ثم قالت : أصلح الله الأمير ، وجثت على ركبتيها وقالت : —

أحجاجُ لم تشهدْ مقامَ بناتِهِ * وعماتِهِ يندبنهُ الليلَ أجمعا

أحجاجُ كم تقتلْ بهِ إن قتلتهُ * ثماناً وعشراً واثنتينِ وأربعا

أحجاجُ مَنْ هذا يقومُ مقامهُ * علينا فمهلاً إنْ تزدنا تضعضعا

أحجاجَ إما أن تجودَ بنعمةٍ * علينا وإما أنْ تقتلنا معـا

قال : فبكى الحجاج وقال : والله لا أعنت عليكن ولازدتكن تضعضعا ، ثم كتب إلى عبد الملك بما قال الرجل ، وبما قالت ابنته هذه ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج يأمره باطلاقه وحسن صلته وبالاحسان إلى هذه الجارية وتفقدها فى كل وقت وقيل إن الحجاج خطب يوماً فقال : أيها الناس الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذاب الله . فقام إليه رجل فقال له : ويحك ياحجاج ما أصفق وجهك وأقل حياءك ، تفعل ماتفعل وتقول مثل هذا الكلام ؟ خبث وضل سعيك ، فقال للحرس خذوه ، فلما فرغ من خطبته قال له : ما الذى جرأك على ؟ فقال : ويحك ياحجاج ، أنت

تجترئ على الله ولا أجترئ أنا عليك ، ومن أنت حتى لا أجترئ عليك ، وأنت تجترئ على الله رب العالمين ، فقال : خلوا سبيله ، فأطلق

وقال المدائنى : أتى الحجاج بأسيرين من أصحاب ابن الأشعث فأمر بقتلهما ، فقال أحدهما : إن لى عندك يداً ، قال : وما هى ؟ قال : ذكر ابن الأشعث يوما أمك فرددت عليه ، فقال : ومن يشهد لك ؟ قال : صاحبى هذا ! فسأله فقال : نعم ! قال : ما منعك أن تفعل كما فعل ؟ قال : بغضك ، قال اطلقوا هذا لصدقه ، وهذا لفعله . فأطلقوهما . وذكر محمد بن زياد عن ابن الأعرابى فيما بلغه أنه كان رجل من بنى حنيفة يقال له جحدر بن مالك وكان فاتكا بأرض اليمامة ، فأرسل الحجاج إلى نائبها يؤنبه ويلومه على عدم أخذه ، فما زال نائبها فى طلبه حتى أسره وبعث به إلى الحجاج ، فقال له الحجاج : ما حملك على ما كنت تصنعه ؟ فقال : جراءة الجنان ، وجفاء السلطان ، وكلب الزمان ، ولو اختبرنى الأمير لوجدنى من صالح الأعوان ، وشهم الفرسان ، ولوجدنى من أصلح رعيته ، وذلك أنى مالقيت فارسا قط إلا كنت عليه فى نفسى مقتدراً ، فقال له الحجاج : إنا قاذفوك فى حائر فيه أسد عاقر فان قتلك كفانا مؤنتك ، وإن قتلته خلينا سبيلك . ثم أودعه السجن مقيداً مغلولة يده اليمنى إلى عنقه ، وكتب الحجاج إلى نائبه بكسكر أن يبعث بأسد عظيم ضار ، وقد قال جحدر هذا فى محبسه هذا أشعاراً يتحزن فيها على امرأته سليمى أم عمرو يقول فى بعضها :

أليسَ الليلُ يجمعُ امَّ عمرو * وإيانا فذاكَ بنا تدانى

بلى وترى الهلالَ كما نراهُ * ويعلوها النهارُ إذا علانى

إذا جاوزتما نخلاتِ نجدٍ * وأوديةَ اليمامةِ فانعيانى

وقولا جحدرٌ أمسى رهيناً * يحاذرُ وقعَ مصقولٍ يمانى

فلما قدم الأسد على الحجاج أمر به فجوع ثلاثة أيام ، ثم أبرز إلى حائر – وهو البستان – وأمر بجحدر فأخرج فى قيوده ويده اليمنى مغلولة بحالها ، وأعطى سيفا فى يده اليسرى وخلى بينه وبين الأسد وجلس الحجاج وأصحابه فى منظرة ، وأقبل جحدر نحو الأسد وهو يقول :

ليثٌ وليثٌ فى مجالٍ ضنكِ * كلاهما ذو أنفٍ ومحكِ

وشدةٍ فى نفسهِ وفتكِ * إنْ يكشفِ اللهُ قناعَ الشكِ

* فهوَ أحقُ منزلٍ بتركِ *

فلما نظر اليه الأسد زأر زأرة شديدة وتمطى وأقبل نحوه فلما صار منه على قدر رمح وثب الأسد على جحدر وثبة شديدة فتلقاه جحدر بالسيف فضربه ضربة خالط ذباب السيف هواته ، فخر الأسد كأنه خيمة قد صرعتها الريح ، من شدة الضربة ، وسقط جحدر من شدة وثبة الأسد وشدة موضع

القيود عليه ، فكبر الحجاج وكبر أصحابه وأشار جحدر يقول :

ياجملُ إنكِ لو رأيتِ كريهتى * فى يومِ هولٍ مسدفٍ وعجاجِ
وتقدمى لليثِ أرسفُ موثقاً * كيما أساورهُ على الأخراجِ
شثنٌ براثنـهُ كأنَ نيوبهُ * زرقُ المعاولِ أو شباةُ زجاجِ
يسمو بناظرتينِ تحسبُ فيهما * لهباً أحدهما شعاعُ سراجِ
وكأنما خيطتْ عليهِ عباءةٌ * برقاء أو خرقاً مِنَ الديباجِ
لعلمتِ أنى ذو حفاظٍ ماجدٍ * مِنْ نسلِ أقوامٍ ذوى ابراجِ

فعند ذلك خيره الحجاج إن شاء أقام عنـده ، و إن شاء انطلق إلى بلاده ، فاختار المقام عند الحجاج ، فأحسن جائزته وأعطاه أموالا . وأنكر يوماً أن يكون الحسين من ذرية رسول الله (ص) لأنه ابن بنته ، فقال له يحيى بن يعمر : كذبت ! فقال الحجاج : لتأتينى على ماقلت ببينة من كتاب الله أو لأضربن عنقك ، فقال قال الله [ومن ذريته داود وسليمان] إلى قوله [وزكريا ويحيى وعيسى] فعيسى من ذرية إبراهيم ، وهو إنما ينسب إلى أمـه مريم ، والحسين ابن بنت رسول الله (ص) . فقال الحجاج : صدقت ، ونفاه إلى خراسان .

وقد كان الحجاج مع فصاحته و بلاغته يلحن فى حروف من القرآن أنكرها يحيى بن يعمر ، منها أنه كان يبدل إن المكسورة بان المفتوحة وعكسه ، وكان يقرأ [قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم] إلى قوله [أحب إليكم] فيقرأها برفع أحب . وقال الأصمعى وغيره : كتب عبد الملك إلى الحجاج يسأله عن أمس واليوم وغـد . فقال للرسول : أكان خويلد بن يزيد بن معاوية عنـده ؟ قال : نعم ! فكتب الحجاج إلى عبد الملك : أما أمس فأجل ، وأما اليوم فعمل ، وأما غداً فأمل . وقال ابن دريد عن أبى حاتم السجستانى عن أبى عبيدة معمر بن المثنى . قال : لما قتل الحجاج ابن الأشعث وصفت له العراق ، وسع على الناس فى العطاء ، فكتب إليـه عبد الملك : أما بعد فقد بلغ أمير المؤمنين أنك تنفق فى اليوم مالا ينفقه أمير المومنين فى الأسبوع وتنفق فى الأسبوع مالا ينفقه أمير المؤمنين فى الشهر ، ثم قال منشداً :

عليكَ بتقوى اللهِ فى الامر كلهِ * وكنْ يا عبيدَ اللهِ تخشى وتضرعُ
ووفرْ خراجَ المسلمينَ وفيأهمْ * وكنْ لهمْ حصناً تجيرُ وتمنعُ

فكتب إليه الحجاج :

لعمرى لقدْ جاءَ الرسولُ بكتبكمْ * قراطيسُ تملا ثمّ تطوى فتطبعُ
كتابٌ أتانى فيهِ لينٌ وغلظةٌ * وذكرتَ والذكرى لذى اللبِ تنفعُ

وكانتْ أمورٌ تعتريني كثيرةٌ * فأرضخُ أو أعتلُ حيناً فأمنعُ
إذا كنتَ سوطاً من عذابٍ عليهمُ * ولمْ يكُ عندي بالمنافعِ مطمعُ
أيرضى بذاكَ الناسُ أو يسخطونهُ * أم احمدَ فيهمْ أمْ ألامُ فأقذعُ
وكانَ بلادَ جئتها حينَ جئتها * بها كلُ نيرانِ العداوةِ تلمعُ
فقاسيتُ منها ماعلمتَ ولم أزلْ * أصارعُ حتى كدتُ بالموتِ أصرعُ
وكم أرجفوا من رجفةٍ قدْ سمعتها * ولو كانَ غيرى طارَ مما يروعُ
وكنتُ إذاهموا باحدى نهاتهمْ * حسرتَ لهمْ رأسى ولا أتقنعُ
فلو لمْ يذد عنى صناديدَ منهمُ * تقسمَ أعضائى ذئابٌ وأضبعُ

قال : فكتب إليه عبد الملك : أن اعمل برأيك . وقال الثورىُ عن محمد بن المستورد الجمحى قال : أتى الحجاج بسارق فقال له لقد كنت غنياً أن تكسب جناية فيؤتى بك إلى الحاكم فيبطل عليك عضواً من أعضائك ، فقال الرجل : إذا قلّ ذات اليد سخت النفس بالمتالف . قال : صدقت والله لو كان حسن اعتذار يبطل حداً لكنتَ له موضعاً . ياغلام سيف صارم و رجل قاطع ، فقطع يده . وقال أبو بكر بن مجاهد عن محمد بن الجهم عن الفراء قال : تغدى الحجاج يوماً مع الوليد بن عبد الملك فلما انقضى غداؤهما دعاه الوليد إلى شرب النبيذ[1] فقال : يا أمير المؤمنين الحلال ما أحللت ، ولكنى أنهى عنه أهل العراق وأهل عملى ، وأكره أن أخالف قول العبد الصالح [وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه] . وقال عمر بن شبة عن أشياخه قال : كتب عبد الملك إلى الحجاج يعتب عليه فى إسرافه فى صرف الاموال ، وسفك الدماء ، و يقول : إنما المال مال الله ونحن خزّانه ، وسيان منع حق أو إعطاء باطل . وكتب فى أسفل الكتاب هذه الأبيات : ـ

إذاأنتَ لمْ تتركْ أموراً كرهتها * وتطلبْ رضائى فى الذى أنا طالبهْ
وتخشى الذى يخشاهُ مثلكَ هارباً * إلى اللهِ منهُ ضيعَ الدرّ حالبهْ
فانْ ترَ منى غفلةً قرشيةً * فيار بما قد غصَ بالماءِ شاربهْ
وإنْ ترَ منى وثبةً أمويةً * فهذا وهذا كلهُ أنا صاحبهْ
فلا تعدُ مايأتيكَ منى فانْ تعدْ * تقمْ فاعلمنْ يوماً عليكَ نوادبهْ

فلما قرأه الحجاج كتب : أما بعد فقد جاءنى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفى فى الأموال ،

---

(١) مايسمى فى هذا العصر نبيذاً هو الخمر المحض ، وهو غير ما كان يسميه سلفنا نبيذاً . والنبيذ عندهم هو التمر أو الزبيب يترك عليه الماء و يسمونه بعد ذلك نبيذاً سواء أسكر أو لم يسكر . وفى كلتا الحالتين فانه أشبه بعصير القصب اليوم إن لم يكن دونه .

والدماء ، فو الله مابالغت فى عقوبة أهل المعصية ، ولا قضيت حق أهل الطاعة ، فإن كان ذلك سرفاً فليحدّ لى أمير المؤمنين حداً أنتهى إليه ولا أتجاوزه ، وكتب فى أسفل الكتاب :

إذا أنا لم أطلبْ رضاكَ وأتقى * أذاكَ فيومى لاتوارتْ كواكبهْ
إذا قارفَ الحجاجَ فيكَ خطيئةً * فقامتْ عليهِ فى الصباحِ نوادبهْ
أسالِمُ من سالمتَ من ذى هوادةٍ * ومنْ لاتسالمهُ فانى محاربهْ
إذا أنا لمْ أدنِ الشفيقَ لنصحهِ * وأقصِ الذى تسرى إلىَّ عقاربهْ
فمنْ يتقى يومى ويرجو إذا غدى * على ما أرى والدهرُ جمٌّ عجائبهْ

وعن الشافعى أنه قال قال الوليد بن عبد الملك للغاز بن ربيعة أن يسأل الحجاج فيما بينه وبينه: هل يجد فى نفسه مما أصاب من الدنيا شيئاً ؟ فسأله كما أمره ، فقال : والله ما أحب أن لى لبنان أوسبير ذهباً أنفقه فى سبيل الله مكان ما أبلانى الله من الطاعة ، والله سبحانه وتعالى أعلم

فصل

فيما روى عنه من الكلمات النافعة والجراءة البالغة

قال أبو دواد : ثنا محمد بن العلاء ثنا أبو بكر عن عاصم قال سمعت الحجاج وهو على المنبر يقول : اتقوا الله ما استطعتم ، ليس فيها مثنوية ، واسمعوا وأطيعوا ليس فيها مثنوية لأمير المؤمنين عبدالملك، والله لو أمرت الناس أن يخرجوا من باب المسجد فخرجوا من باب آخر لحلت لى دماؤهم وأموالهم ، والله لوأخذت ربيعة بمضر لكان ذلك لى من الله حلالا ، وما عذيرى من عبد هذيل يزعم أن قرآنه من عند الله ، والله ما هى الارجز من رجز الأعراب ما أنزلها الله على نبيه ص ، وعذيرى من هذه الحمراء ، يزعم أحدهم يرمى بالحجر فيقول لى إن تقع الحجر حدث أمر ، فوالله لأدعنهم كالأمس الدابر . قال : فذكرته للأعمش فقال : وأنا والله سمعته منه . ورواه أبو بكر بن أبى خيثمة عن محمد بن يزيد عن أبى بكر بن عياش عن عاصم بن أبى النجود والأعمش أنهما سمعا الحجاج قبحه الله يقول ذلك ، وفيه والله لو أمرتكم أن تخرجوا من هذا الباب فخرجتم من هذا الباب لحلت لى دماؤكم ، ولا أجد أحداً يقرأ على قراءة ابن أم عبد إلا ضربت عنقه ، ولأحكّنها من المصحف ولو بضلع خنزير . ورواه غير واحد عن أبى بكر بن عياش بنحوه ، وفى بعض الروايات : والله لو أدركت عبد هذيل لأضربن عنقه . وهذا من جراءة الحجاج قبحه الله ، وإقدامه على الكلام السيئ ، والدماء الحرام . وإنما نقم على قراءة ابن مسعود رضى الله عنه لكونه خالف القراءة على المصحف الأمام الذى جمع الناس عليه عثمان ، والظاهر أن ابن مسعود رجع إلى قول عثمان وموافقيه والله أعلم .

وقال على بن عبد الله بن مبشر عن عباس الدورى عن مسلم بن إبراهيم : ثنا الصلت بن دينار سمعت الحجاج عـلى منبر واسط يقول : عبـد الله بن مسعود رأس المنافقين ، لو أدركته لأسقيت الأرض من دمه . قال وسمعته على منبر واسط وتلا هذه الآية [هب لى ملـكا لاينبغى لأحد من بعدى] قال : والله ان كان سليمان لحسوداً . وهـذه جراءة عظيمة تفضى به إلى الـكفر : قبحه الله وأخزاه ، وأبعده وأقصاه .

[قال أبو نعيم : حدثنا الأعمش عن إبراهيم عن علقمة . قال : جاء رجل إلى عمر بن الخطاب فقال : إنى جئتك من عند رجل يملى المصاحف عن ظهر قلب ، ففزع عمر وغضب وقال : ويحك ، انظر ماتقول . قال : ماجئتك إلا بالحق ، قال : من هو ؟ قال عبـد الله بن مسعود . قال : ما أعلم أحـداً أحق بذلك منـه ، وسأحدثك عن ذلك . « إنا سهرنا ليلة فى بيت عنـد أبى بكر فى بعض ما يكون من حاجة النبى (ص.) ثم خرجنا ورسول الله ص.) يمشى بينى و بين أبى بكر ، فلما انتهينا إلى المسجد إذا رجل يقرأ فقام النبى (ص.) يستمع إليه ، فقلت : يارسول الله أعتمت ، فغمزنى بيده ـ يعنى اسكت ـ قال : فقرأ وركع وسجد وجلس يدعو و يستغفر ، فقال النبى (ص.) : سل تعطه[1] ثم قال : من سرّه أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل فليقرأ قراءة ابن أم عبـد ، فعلمت أنا وصاحبى أنه عبد الله بن مسعود ، فلما أصبحت غدوت إليه لأبشره فقال : سبقك بها أبو بكر ، وما سابقته إلى خير قط إلا سبقنى إليه » وهذا الحديث قد روى من طرق ، فرواه حبيب بن حسان عن زيد بن وهب عن عمر مثله ، ورواه شعبة و زهير وخديج عن أبى اسحاق عن أبى عبيدة عن عبد الله ، ورواه عاصم عن عبـد الله ، ورواه الثورى وزائدة عن الأعمش نحوه . وقال أبو داود : حـدثنا عمر بن ثابت عن أبى إسحاق عن حمير بن مالك قال : سمعت عبد الله بن مسعود يقول : « أخذت من فى رسول الله (ص.) سبعين سورة ، و إن زيد بن ثابت لصبى مع الصبيان ، فأنا لا أدع ما أخذت من فى رسول الله (ص.) » . وقد رواه الثورى و إسرائيل عن أبى إسحاق به . وفى رواية ذكرها الطبرانى عنه قال : « لقد تلقيت من فى رسول الله (ص.) سبعين سورة أحكمتها قبل أن يسلم زيد بن ثابت ، وله ذؤابة يلعب مع الغلمان » . وقد روى أبو داود عنه وذكر قصة رعيه الغنم لعقبة بن أبى معيط ، وأنه قال : قال لى رسول الله (ص.) : « إنك غلام معلم ، قال : فأخذت من فيه سبعين سورة ماينازعنى فيها أحد » . ورواه أبو أيوب الافريقى وأبو عوانة عن عاصم عن زر عنه نحوه . وقال له النبى (ص.) : « إذنك أن ترفع الحجاب وأن تسمع سوادى حتى أنهاك » . وقد روى هذا عنه من طرق

وروى الطبرانى عن عبد الله بن شداد بن الهاد أن عبد الله كان صاحب الوساد والسواد والسواك

---

(١) هذا الخبر فى الأستيعاب لابن عبد البر ، لـكنه اختصر هذا الموضع منه .

والنعلين . وروى غيره عن علقمة قال : قدمت الشام فجلست إلى أبى الدرداء فقال لى : ممن أنت ؟ فقلت : من أهل الكوفة ، فقال : أليس فيكم صاحب الوساد والسواك ؟ وقال الحارث بن أبى أسامة : حدثنا عبد العزيز بن أبان حدثنا قطر بن خليفة حدثنا أبو وائل قال سمعت حذيفة يقول ، وابن مسعود قائم : لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد (ص) ، من أقربهم وسيلة يوم القيامة . وقد روى هذا عن حذيفة من طرق ، فرواه شعبة عن أبى إسحاق عن أبى وائل عن حذيفة ورواه عن أبى وائل فاضل الأحدب وجامع بن أبى راشد ، وعبيدة ، وأبو سنان الشيبانى ، وحكيم بن جبير ، ورواه عبد الرحمن بن يزيد عن حذيفة .

وقال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة عن أبى إسحاق قال : سمعت عبد الرحمن بن زيد يقول : قلنا لحذيفة أخبرنا برجل قريب الهدى والسمت من رسول الله (ص) حتى نلزمه ، فقال : ما أعلم أحداً أقرب هديا وسمتا من رسول الله (ص) حتى يواريه جدار بيته من ابن أم عبد ، ولقد علم المحفوظون من أصحاب النبى (ص) أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة . قلت : فهذا حذيفة بن اليمان صاحب سر رسول الله (ص) ، وهذا قوله فى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه . فكذب الحجاج وفجر ، ولقم النار والحجر فيما يقوله فيه ، وفى رميه له بالنفاق ، وفى قوله عن قراءته : إنها شعر من شعر هذيل ، وإنه لابد أن يحكّها من المصحف ولو بضلع خنزير ، وأنه لو أدركه لضرب عنقه ، فحصل على إثم ذلك كله بنيته الخبيثة . وقال عفان : حدثنا حماد حدثنا عاصم عن زر عن عبد الله قال : كنت أجتنى لرسول الله (ص) سواكا من أراك ، فكانت الريح تكفوه ، وكان فى ساقه دقة ، فضحك القوم ، فقال النبى (ص) : « مايضحككم ؟ قالوا : من دقة ساقيه ، فقال النبي (ص) : والذى نفسى بيده لهما أثقل فى الميزان من أحد » . ورواه جرير وعلى بن عاصم عن مغيرة عن أم موسى عن على بن أبى طالب . وروى سلمة بن كهيل عن أبى الزعراء عن ابن مسعود قال : قال رسول الله (ص) : « تمسكوا بعهد عبد الله بن أم مسعود » ورواه الترمذى والطبرانى .

وقال الامام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى إسحاق . قال : سمعت أبا الأحوص قال : شهدت أبا موسى وأبا مسعود حين توفى ابن مسعود وأحدهما يقول لصاحبه : أتراه ترك بعده مثله . قال : إن قلت ذاك إنه كان ليؤذن له إذا حجبنا ، ويشهد إذا غبنا . وقال الأعمش : يعنى عبد الله بن مسعود . وقال أبو معاوية : حدثنا الأعمش عن زيد بن وهب . قال : أقبل عبد الله بن مسعود ذات يوم وعمر جالس فقال : كنيف ملئ فقها . وقال عمر بن حفص : حدثنا عاصم بن على حدثنا المسعودى عن أبى حصين عن أبى عطية أن أبا موسى الأشعرى قال : لاتسألونا عن شئ مادام هذا الحبر بين أظهرنا من أصحاب محمد (ص) - يعنى ابن مسعود - وروى جرير عن الأعمش

عن عمرو بن عروة عن أبى البخترى قال : قالوا لعلى : حدثنا عن أصحاب محمد (ص)، قال : عن أيهم ؟ قالوا : حدثنا عن ابن مسعود . قال : علم القرآن والسنة ثم انتهى ، وكفى بذلك علما . وفى رواية عن على قال : علم القرآن ثم وقف عنده وكفى به . فهداتنا الصحابة العاملون به ، العارفون بما كان عليه ، فهم أولى بالاتباع وأصدق أقوالاً من أصحاب الأهواء الحائدين عن الحق ، بل أقوال الحجاج وغيره من أهل الأهواء : هذيانات وكذب وافتراء ، وبعضها كفر وزندقة ، فان الحجاج كان عثمانيا أمويا ، يميل إليهم ميلا عظيما . ويرى أن خلافهم كفر . ويستحل بذلك الدماء ، ولا تأخذه فى ذلك لومة لائم

ومن الطامات أيضا مارواه أبو داود : ثنا إسحاق بن إسماعيل الطالقانى ثنا جرير . وحدثنا زهير بن حرب ثنا جرير عن المغيرة عن بُزَيع بن خالد الضبى قال : سمعت الحجاج يخطب فقال فى خطبته : رسول أحدكم فى حاجته أكرم عليه أم خليفته فى أهله ؟ فقلت فى نفسى : لله علىّ أن لا أصلى خلفك صلاة أبداً ، وإن وجدت قوما يجاهدونك لأجاهدنك معهم . زاد إسحاق فقاتل فى الجماجم حتى قتل . فان صح هذا عنه فظاهره كفر إن أراد تفضيل منصب الخلافة على الرسالة ، أو أراد أن الخليفة من بنى أمية أفضل من الرسول . وقال الأصمعى : ثنا أبو عاصم النبيل ثنا أبو حفص الثقفى قال : خطب الحجاج يوما فأقبل عن يمينه فقال : ألا إن الحجاج كافر ، ثم أطرق فقال : إن الحجاج كافر ، ثم أطرق فأقبل عن يساره فقال : ألا إن الحجاج كافر ، فعل ذلك مراراً ، ثم قال : كافر يا أهل العراق باللات والعزى . وقال حنبل بن إسحاق : ثنا هارون بن معروف ثنا ضمرة ثنا ابن شوذب عن مالك بن دينار قال : بينما الحجاج يخطبنا يوما إذ قال : الحجاج كافر ، قلنا : ماله ؟ أى شئ يريد ؟ قال : الحجاج كافر بيوم الأربعاء والبغلة الشهباء . وقال الأصمعى قال عبد الملك يوما للحجاج : ما من أحد إلا وهو يعرف عيب نفسه ، فصف عيب نفسك ، فقال : اعفنى يا أمير المؤمنين ، فأبى ، فقال : أنا لجوج حقود حسود ، فقال عبد الملك : مافى الشيطان شر مما ذكرت وفى رواية أنه قال: إذاً بينك وبين إبليس نسب .

وبالجملة فقد كان الحجاج نقمة على أهل العراق بما سلف لهم من الذنوب والخروج على الأئمة ، وخذلانهم لهم ، وعصيانهم ، ومخالفتهم ، والافتيات عليهم ، قال يعقوب بن سفيان : حدثنا أبو صالح عبد الله بن صالح حدثنى معاوية بن صالح عن شريح بن عبيد عمن حدثه قال : جاء رجل إلى عمر ابن الخطاب فأخبره أن أهل العراق حصبوا أميرهم فخرج غضبان ، فصلى لنا صلاة فسها فيها ، حتى جعل الناس يقولون : سبحان الله سبحان الله ، فلما سلم أقبل على الناس فقال : من ههنا من أهل الشام ؟

فقام رجل ثم قام آخر ثم قمت أنا ثالثا أورابعاً ، فقال : يا أهل الشام استعدوا لأهل العراق ، فان الشيطان قد باض فيهم وفرّخ ، اللهم انهم قد لبسوا عليهم فالبس عليهم وعجل عليهم بالغلام الثقفي ؛ يحكم فيهم بحكم الجاهلية ، لايقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم . وقد رويناه فى كتاب مسند عمر بن الخطاب من طريق أبى عذبة الحمصى عن عمر مثله . وقال عبد الرزاق : ثنا جعفر بن سليمان عن مالك بن دينار عن الحسن قال علي بن أبى طالب : اللهم كما ائتمنتهم فخانونى ، ونصحت لهم فغشونى فسلط عليهم فتى ثقيف الذيال الميال ، يأكل خضرتها ، ويلبس فروتها ، ويحكم فيها بحكم الجاهلية . قال يقول الحسن : وما خلق الحجاج يومئذ . ورواه معتمر بن سليمان عن أبيه عن أيوب عن مالك بن أوس بن الحدثان عن علي أنه قال : الشاب الذيال أمير المصرين يلبس فروتها ويأكل خضرتها ، ويقتل أشراف أهلها ، يشتد منه الفرق ، ويكثر منه الأرق ، ويسلطه الله على شيعته .

وقال الحافظ البيهقى فى دلائل النبوة : أخبرنا أبو عبد الله الحافظ ثنا أبو العباس محمد بن أحمد المحبوبى : ثنا سعيد بن مسعود ثنا يزيد بن هارون أنبأ العوام بن حوشب حدثنى حبيب بن أبى ثابت . قال قال علي لرجل : لامتّ حتى تدرك فتى ثقيف ، قال : وما فتى ثقيف ؟ قال : ليقالن له يوم القيامة : اكفنا زاوية من زوايا جهنم ، رجل يملك عشرين سنة ، أو بضعاً وعشرين سنة ، لا يدع لله معصية إلا ارتكبها ، حتى لو لم يبق إلا معصية واحدة ، وكان بينه وبينها باب مغلق لكسره حتى يرتكبها ، يقتل بمن أطاعه من عصاه . وقال الطبرانى : حدثنا القاسم بن زكريا ثنا إسماعيل بن موسى السدوسى ثنا علي بن مسهر عن الأجلح عن الشعبى عن ام حكيم بنت عمر بن سنان الجدلية قالت : استأذن الأشعث بن قيس على علي فرده قنبر فادمى أنفه فخرج علي فقال : مالك وله يا أشعث ، أما والله لو بعبد ثقيف تحرشت لاقشعرت شعيرات استك ، قيل له : يا أمير المؤمنين ومن عبد ثقيف؟ قال : غلام يليهم لا يبقى أهل بيت من العرب إلا ألبسهم ذلا ، قيل كم يملك ؟ قال عشرين إن بلغ .

وقال البيهقى أنبأنا الحاكم أنبأ الحسن بن الحسن بن أيوب ثنا أبو حاتم الرازى ثنا عبد الله بن يوسف التنيسى ثنا ابن يحيى الغانى . قال قال عمر بن عبد العزيز : لو تخابثت الأمم فجاءت كل أمة بخبيثها ، وجئنا بالحجاج لغلبناهم . وقال أبو بكر بن عياش : عن عاصم بن أبى النجود انه قال : ما بقيت لله عز وجل حرمة إلا وقد ارتكبها الحجاج .

وقد تقدم الحديث « إن فى ثقيف كذابا ومبيرا » وكان المختار هو الكذاب المذكور فى هذا الحديث ، وقد كان يظهر الرفض أولا ويبطن الكفر المحض ، وأما المبير فهو الحجاج بن يوسف هذا ، وقد كان ناصبيا يبغض عليا وشيعته فى هوى آل مروان بنى أمية ، وكان جبارا عنيداً ، مقداما على سفك الدماء بأدنى شبهة . وقد روى عنه ألفاظ بشعة شنيعة ظاهرها الكفر كما قدمنا . فان كان

قد تاب منها وأقلع عنها ، و إلا فهو باق فى عهدتها ، ولكن قد يخشى أنها رويت عنه بنوع من زيادة عليه ، فان الشيعة كانوا يبغضونه جداً لوجوه ، و ربما حرفوا عليه بعض الكلم . و زادوا فيما يحكونه عنه بشاعات وشناعات .

وقد روينا عنه أنه كان يتدين بترك المسكر ، وكان يكثر تلاوة القرآن ، و يتجنب المحارم ، ولم يشتهر عنه شئ من التلطخ بالفروج ، و إن كان متسرعا فى سفك الدماء فالله تعالى أعلم بالصواب وحقائق الأمور وساترها ، وخفيات الصدور وضمائرها :

[قلت : الحجاج أعظم ما نقم عليه وصح من أفعاله سفك الدماء ، وكفى به عقوبة عند الله عز وجل ، وقد كان حريصا على الجهاد وفتح البلاد ، وكان فيه سماحة باعطاء المال لأهل القرآن ، فكان يعطى على القرآن كثيراً ، ولما مات لم يترك فيما قيل إلا ثلثمائة درهم . والله أعلم .] (١)

وقال المعافى بن زكريا الجريرى المعروف بابن طرار البغدادى : ثنا محمد بن القاسم الانبارى ثنا أبى ثنا أحمد بن عبيد ثنا هشام أبو محمد بن السائب الكلبى ثنا عوانة بن الحكم الكلبى . قال : دخل أنس بن مالك على الحجاج بن يوسف فلما وقف بين يديه قال له إيه إيه يا أنيس ، يوم لك مع على ، ويوم لك مع ابن الزبير ، ويوم لك مع ابن الأشعث ، والله لأستأصلنك كما تستأصل الشاة . ولأدمغنك كما تدمغ الصمغة . فقال أنس : إياى يعنى الأمير أصلحه الله ؟ قال : إياك أعنى صك الله سمعك . قال أنس : إنا لله و إنا إليه راجعون ، والله لولا الصبية الصغار ما باليت أى قتلة قتلت . ولا أى ميتة مت ، ثم خرج من عند الحجاج فكتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره بما قال له الحجاج ، فلما قرأ عبد الملك كتاب أنس استشاط غضباً ، وشفق عجبا ، وتعاظم ذلك من الحجاج ، وكان كتاب أنس إلى عبد الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين من أنس بن مالك ، أما بعد : فان الحجاج قال لى هُجراً ، وأسمعنى نكراً ، ولم أكن لذلك أهلا ، فخذلى على يديه ، فانى أمتُّ بخدمتى رسول الله (ص) ، وصحبتى إياه ، والسلام عليك ورحمة الله و بركاته . فبعث عبد الملك إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر ـ وكان مصادقا للحجاج ـ فقال له : دونك كتابىّ هذين فخذهما واركب البريد إلى العراق ، وابدأ بأنس بن مالك صاحب رسول الله (ص) فارفع كتابى إليه وأبلغه منى السلام ، وقل له : يا أبا حمزة قد كتبت إلى الحجاج الملعون كتابا إذا قرأه كان أطوع لك من أمتك ، وكان كتاب عبد الملك إلى أنس بن مالك :

بسم الله الرحمن الرحيم ! من عبد الملك بن مروان إلى أنس بن مالك خادم رسول الله (ص)

---

(١) زيادة من المصرية .

أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت من شكايتك الحجاج ، وما سلطته عليك ولا أمرته بالاساءة إليك ، فان عاد لمثلها ا كتب إلى بذلك أنزل به عقوبتى ، وتحسن لك معونتى . والسلام .
فلما قرأ أنس كتاب أمير المؤمنين وأخبر برسالته قال : جزى الله أمير المؤمنين عنى خيراً ، وعافاه وكفاه وكافأه بالجنة ، فهذا كان ظنى به والرجاء منه . فقال إسماعيل بن عبيد الله لأنس : يا أبا حمزة إن الحجاج عامل أمير المؤمنين ، وليس بك عنه غنى ، ولا بأهل بيتك ، ولو جعل لك فى جامعة ثم دفع إليك ، فقاربه وداره تعش معه بخير وسلام . فقال أنس : أفعل إن شاء الله . ثم خرج إسماعيل من عند أنس فدخل على الحجاج ، فقال الحجاج : مرحباً برجل أحبه وكنت أحب لقاه ، فقال إسماعيل : أنا والله كنت أحب لقاءك فى غير ما أتيتك به ، فتغير لون الحجاج وخاف وقال : ما أتيتنى به ؟ قال : فارقت أمير المؤمنين وهو أشد الناس غضبا عليك ، ومنك بعداً ، قال : فاستوى الحجاج جالساً مرعوبا ، فرمى إليه إسماعيل بالطومار فجعل الحجاج ينظر فيه مرة و يعرق ، و ينظر إلى إسماعيل أخرى ، فلما فضه قال : قم بنا إلى أبى حمزة نعتذر إليه ونترضاه ، فقال له إسماعيل : لاتعجل ! فقال: كيف لا أعجل وقد أتيتنى بآبدة ؟ وكان فى الطومار :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف ، أما بعد فانك عبد طمت بك الأمور ، فسموت فيها وعدوت طورك ، وجاوزت قدرك ، وركبت داهية إدّا ، وأردت أن تبدو لى فان سوغتكها مضيت قدما ، وإن لم أسوغها رجعت القهقرى ، فلعنك الله من عبد أخفش العينين ، منقوص الجاعرتين . أنسيت مكاسب آبائك بالطائف ، وحفرهم الآبار ، ونقلهم الصخور على ظهورهم فى المناهل ، يا ابن المستفرية بعجم الزبيب ، والله لأغمزنك غمز الليث الثعلب ، والصقر الأرنب . وثبت على رجل من أصحاب رسول الله (ص) بين أظهرنا ، فلم تقبل له إحسانه ، ولم تتجاوز له عن إساءته ، جرأة منك على الرب عز وجل ، واستخفافا منك بالعهد ، والله لو أن اليهود والنصارى رأت رجلا خدم عزير بن عزرى ، وعيسى بن مريم ، لعظمته وشرفته وأكرمته وأحبته ، بل لو رأوا من خدم حمار العزير أو خدم حوارى المسيح لعظموه وأكرموه ، فكيف وهذا أنس بن مالك خادم رسول الله (ص) ثمانى سنين ، يطلعه على سره ، ويشاوره فى أمره ، ثم هو مع هذا بقية من بقايا أصحابه ، فاذا قرأت كتابى هذا فكن أطوع له من خفه ونعله ، وإلا أتاك منى سهم مثكل حتف قاض ، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون وقد تكلم ابن طرار على ما وقع فى هذا الكتاب من الغريب ، وكذلك ابن قتيبة وغيرهما من أئمة اللغة والله أعلم .

وقال الامام أحمد : ثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن الزبير - يعنى ابن عدى - قال : أتينا أنس بن مالك نشكو إليه ما نلقى من الحجاج ، فقال : « اصبروا فانه لايأتى عليكم عام أو زمان

أو يوم إلا والذى بعده شر منه ، حتى تلقوا ربكم عز وجل ، سمعته من نبيكم ص . وهذا رواه البخارى عن محمد بن يوسف عن سفيان وهو الثورى عن الزبير بن عـدى عن أنس قال : « لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه » الحديث . قلت : ومن الناس من يروى هذا الحديث بالمعنى فيقول: كل عام ترذلون . وهذا اللفظ لا أصل له ، وإنما هو مأخوذ من معنى هذا الحديث ، والله أعلم .

قلت : قد مر بى مرة من كلام عائشة مرفوعا وموقوفا : كل يوم ترذلون . ورأيت للامام أحمد كلاماً قال فيه : وروى فى الحديث كل يوم ترذلون نسما خبيثا . فيحتمل هذا أنه وقع للامام أحمد مرفوعا ، ومثل أحمد لا يقول هذا إلا عن أصل ، وقد روى عن الحسن مثل ذلك ، والله أعلم . فدل على أن له أصلا إما مرفوعا وإما من كلام السلف ، لم يزل يتناوله الناس قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، حتى وصل إلى هذه الازمان ، وهو موجود فى كل يوم ، بل فى كل ساعة تفوح رائحته ، ولا سيما من بعـد فتنة تمرلنك ، وإلى الآن نجد الرذالة فى كل شئ ، وهذا ظاهر لمن تأمله ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقد قال سفيان الثورى عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى . قال : يأتى على الناس زمان يصلون فيه على الحجاج . وقال أبو نعيم عن يونس بن أبى إسحاق عن أبى السفر . قال قال الشعبى : والله لئن بقيتم لتمنون الحجاج . وقال الأصمعى : قيل للحسن : إنك تقول : الآخر شر من الأول ، وهذا عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج . فقال الحسن : لابد للناس من تنفيسات .

وقال ميمون بن مهران : بعث الحجاج إلى الحسن وقد هم به ، فلما قام بين يديه قال : يا حجاج كم بينك وبين آدم من أب ؟ قال : كثير ، قال : فأين هم ؟ قال : ماتوا قال : فنكس الحجاج رأسه وخرج الحسن . وقال أيوب السختيانى : إن الحجاج أراد قتل الحسن مراراً فعصمه الله منه ، وقد ذكر له معه مناظرات ، عـلى أن الحسن لم يكن ممن يرى الخروج عليه ، وكان ينهى أصحاب ابن الأشعث عن ذلك ، وإنما خرج معهم مكرها كما قدمنا ، وكان الحسن يقول : إنما هو نقمة فلا تقابل نقمة الله بالسيف ، وعليكم بالصبر والسكينة والتضرع . وقال ابن دريد عن الحسن بن الخضر عن ابن عائشة . قال : أتى الوليد بن عبد الملك رجل من الخوارج فقيل له : ما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ فأثنى خيراً ، قال فعثمان ؟ فأثنى خيراً ، قيل له : فما تقول فى عـلى ؟ فأثنى خيراً ، فذكر له الخلفاء واحداً بعد واحد ، فيثنى على كل بما يناسبه ، حتى قيل له : فما تقول فى عبد الملك بن مروان ؟فقال: الآن جاءت المسألة ، ما أقول فى رجل الحجاج خطيئة من بعض خطاياه ؟ .] [1]

وقال الأصمعى عن عـلى بن مسلم الباهلى قال : أتى الحجاج بامرأة من الخوارج فجعل يكلمها وهى لا تنظر إليه ولا ترد عليه كلاماً ، فقال لها بعض الشرط : يكلمك الأمير وأنت معرضة عنه ؟

(١) زيادة من المصرية .

فقالت : إنى لأستحى من الله أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه ، فأمر بها فقتلت . وقد ذكرنا فى سنة أربع وتسعين كيفية مقتل الحجاج لسعيد بن جبير ، وما دار بينهما من الكلام والمراجعة .

وقد قال أبو بكر بن أبى خيثمة : ثنا أبو ظفر ثنا جعفر بن سليمان عن بسطام بن مسلم عن قتادة قال قيل لسعيد بن جبير : خرجت على الحجاج ؟ قال : إنى والله ما خرجت عليه حتى كفر ، ويقال إنه لم يقتل بعده إلا رجلا واحداً اسمه ماهان ، وكان قد قتل قبله خلقا كثيراً ، أكثرهم ممن خرج مع ابن الأشعث . وقال أبو عيسى الترمذى : ثنا أبو داود سليمان بن مسلم البلخى ثنا النضر بن شميل عن هشام بن حسان قال : أحصوا ماقتل الحجاج صبرا فبلغ مائة ألف وعشرين ألفا قال الأصمعى : ثنا أبو عمم عن عباد بن كثير عن قحدم قال : أطلق سليمان بن عبد الملك فى غداة واحدة أحدا وثمانين ألف أسير كانوا فى سجن الحجاج ، وقيل إنه لبث فى سجنه ثمانون ألفا منهم ثلاثون ألف امرأة وعرضت السجون بعد الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفا ، لم يجب على أحد منهم قطع ولا صلب ، وكان فيمن حبس أعرابى وجد يبول فى أصل ربض مدينة واسط ، وكان فيمن أطلق فأنشأ يقول :

إذا نحنُ جاوزنا مدينةَ واسطٍ * خرينا وصلينا بغيرِ حسابِ

وقد كان الحجاج مع هذا العنف الشديد لايستخرج من خراج العراق كبير أمر ، قال ابن أبى الدنيا وإبراهيم الحربى : ثنا سليمان بن أبى سنح ثنا صالح بن سليمان قال قال عمر بن عبد العزيز : لو تخابثت الامم فجاءت كل امة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم ، وما كان الحجاج يصلح لدنيا ولا لآخرة لقد ولى العراق وهو أوفر ما يكون فى العمارة ، فأخسّ به إلى أن صيره إلى أربعين ألف ألف ، ولقد أدى إلىّ عمالى فى عامى هذا ثمانين ألف ألف ، وإن بقيت إلى قابل رجوت أن يؤدى إلى ما أدى إلى عمر بن الخطاب مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف . وقال أبو بكر بن المقرى : ثنا أبو عروبة ثنا عمرو بن عثمان ثنا أبى سمعت جدى قال. كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة : بلغنى انك تستن بسنن الحجاج فلا تستن بسننه ، فانه كان يصلى الصلاة لغير وقتها ، ويأخذ الزكاة من غير حقها وكان لما سوى ذلك أضيع . وقال يعقوب بن سفيان : ثنا سعيد بن أسد ثنا ضمرة عن الريان بن مسلم. قال: بعث عمر بن عبد العزيز بآل بيت أبى عقيل ـ أهل بيت الحجاج ـ إلى صاحب اليمن وكتب إليه : أما بعد فانى قد بعثت بآل أبى عقيل وهم شرّ بيت فى العمل ، ففرقهم فى العمل على قدر هوانهم على الله وعلينا ، وعليك السلام . وإنما نفاهم . وقال الاوزاعى : سمعت القاسم بن مخيمرة يقول : كان الحجاج ينقض عرى الاسلام ، وذكر حكاية . وقال أبو بكر بن عياش عن عاصم : لم يبق لله حرمة إلا ارتكبها الحجاج بن يوسف ، وقال يحيى بن عيسى الرملى عن الأعمش : اختلفوا فى الحجاج فسألوا مجاهداً فقال : تسألون عن الشيخ الكافر .

وروى ابن عساكر عن الشعبى أنه قال : الحجاج مؤمن بالجبت والطاغوت ، كافر بالله العظيم . كذا قال والله أعلم . وقال الثورى عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه قال : عجبا لاخواننا من أهل العراق يسمون الحجاج مؤمنا ؟ ! وقال الثورى عن ابن عوف : سمعت أبا وائل يسأل عن الحجاج أتشهد أنه من أهل النار ؟ قال أتأمرونى أن أشهد على[1] الله العظيم . وقال الثورى عن منصور : سألت إبراهيم عن الحجاج أو بعض الجبابرة فقال : أليس الله يقول [ألا لعنة الله على الظالمين] وبه قال إبراهيم وكفى بالرجل عمى أن يعمى عن أمر الحجاج . وقال سلام بن أبى مطيع لانا بالحجاج أرجى منى لعمرو بن عبيد ، لأن الحجاج قتل الناس على الدنيا ، وعمرو بن عبيد أحدث للناس بدعة شنعاء ، قتل الناس بعضهم بعضاً ، وقال الزبير : سببت الحجاج يوماً عند أبى وائل فقال : لا تسبه لعله قال يوماً اللهم ارحمنى فيرحمه ، إياك ومجالسة من يقول أرأيت أرأيت . وقال عوف : ذكر الحجاج عند محمد بن سيرين فقال : مسكين أبو محمد ، إن يعذبه الله عز وجل فبذنبه ، وإن يغفر له فهنيئاً له ، وإن يلق الله بقلب سليم فهو خير منا ، وقد أصاب الذنوب من هو خير منه . فقيل له ما القلب السليم ؟ قال : أن يعلم الله تعالى منه الحياء والايمان ، وأن يعلم أن الله حق ، وأن الساعة حق قائمة ، وأن الله يبعث من فى القبور .

وقال أبو قاسم البغوى : ثنا أبو سعيد ثنا أبو أسامة قال قال رجل لسفيان الثورى : أتشهد على الحجاج وعلى أبى مسلم الخراسانى أنهما فى النار ؟ قال : لا ! إن أقرّا بالتوحيد . وقال الرياشى : حدثنا عباس الأزرق عن السرى بن يحيى قال : مر الحجاج فى يوم جمعة فسمع استغاثة فقال : ما هذا ؟ فقيل أهل السجون يقولون قتلنا الحر ، فقال : قولوا لهم اخسئوا فيها ولا تكلمون . قال : فما عاش بعد ذلك إلا أقل من جمعة حتى قصمه الله قاصم كل جبار . وقال بعضهم : رأيته وهو يأتى الجمعة وقد كاد يهلك من العلة . وقال الأصمعى : لما مرض الحجاج أرجف الناس بموته فقال فى خطبته : إن طائفة من أهل الشقاق والنفاق نزغ الشيطان بينهمّ فقالوا : مات الحجاج ، ومات الحجاج فه ؟ ! فهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ؟ والله ما يسرنى أن لا أموت وأن لى الدنيا وما فيها ، وما رأيت الله رضى التخليد إلا لأهون خلقه عليه إبليس ، قال الله له [إنك من المنظرين] فأنظره إلى يوم الدين ، ولقد دعا الله العبد الصالح فقال [هب لى ملكا لا ينبغى لأحد من بعدى] فأعطاه الله ذلك إلا البقاء ، ولقد طلب العبد الصالح الموت بعد أن تم له أمره ، فقال [توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين] فما عسى أن يكون أيها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل ، كأنى والله بكل حى منكم ميتاً ، وبكل رطب يابساً ، ثم نقل فى أثياب أكفانه ثلاثة أذرع طولا فى ذراع عرضاً ، فأكلت الأرض لحمه ، ومصت صديده ،

(١) كذا بالأصول .

وانصرف الخبيث من ولده يقسم الخبيث من ماله ، إن الذين يعقلون يعقلون ما أقول ، ثم نزل .

وقال إبراهيم بن هشام بن يحيى الغسانى عن أبيه عن جده عن عمر بن عبد العزيز أنه قال : ما حسدت الحجاج عدو الله على شئ حسدى إياه على حبه القرآن و إعطائه أهله عليه ، وقوله حين حضرته الوفاة : اللهم اغفر لى فان الناس يزعمون أنك لا تفعل . وقال أبو بكر بن أبى الدنيا : حدثنا على بن الجعد حدثنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون عن محمد بن المنكدر . قال : كان عمر بن عبد العزيز يبغض الحجاج فنفس عليه بكلمة قالها عند الموت : اللهم اغفر لى فانهم يزعمون أنك لاتفعل . قال : وحدثنى بعض أهل العلم قال قيل للحسن : ان الحجاج قال عند الموت كذا وكذا ، قال : قالها ؟ قالوا : نعم ! قال فما عسى . وقال أبو العباس المرى عن الرياشى عن الأصمعى قال : لما حضرت الحجاج الوفاة أنشأ يقول :

ياربُ قدْ حلفَ الأعداءُ واجتهدوا * بأننى رجلٌ مِنْ ساكنى النارِ

أيحلفونَ على عمياءَ ويحهمُ * ما علمهمْ بعظيمِ العفوِ غفارِ

قال فأخبر بذلك الحسن فقال : بالله إن نجا لينجون بهما . وزاد بعضهم فى ذلك : —

إنّ الموالى إذا شابتْ عبيدهمُ * فى رقهمْ عتقوهمْ عتقَ أبرارِ

وأنتَ يا خالقى أولى بذا كرماً * قد شبتُ فى الرقِ فاعتقنى مِنَ النارِ

وقال ابن أبى الدنيا : ثنا أحمد بن عبد الله التيمى قال : لما مات الحجاج لم يعلم أحد بموته حتى أشرفت جارية فبكت فقالت : ألا إن مطعم الطعام ، وميتم الأيتام ، ومرمل النساء ، ومفلق الهام ، وسيد أهل الشام قد مات ، ثم أنشأت تقول : —

اليوم يرحمنا من كان يبغضنا * واليوم يأمننا من كان يخشانا

و روى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه أنه أخبر بموت الحجاج مرارا فلما تحقق وفاته قال : [فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين] و روى غير واحد أن الحسن لما بشر بموت الحجاج سجد شكراً لله تعالى ، وكان مختفيا فظهر ، وقال اللهم أمته فأذهب عنا سنته . وقال حماد بن أبى سليمان : لما أخبرت إبراهيم النخعى بموت الحجاج بكى من الفرح . وقال أبو بكر بن أبى خيثمة : ثنا سليمان بن أبى شيخ ثنا صالح بن سليمان قال قال زياد بن الربيع بن الحارث لاهل السجن يموت الحجاج فى مرضه هذا فى ليلة كذا وكذا ، فلما كانت تلك الليلة لم ينم أهل السجن فرحاً ، جلسوا ينظرون حتى يسمعوا الناعية ، وذلك ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان ، وقيل كان ذلك لخمس بقين من رمضان ، وقيل فى شوال من هذه السنة ، وكان عمره إذ ذاك خمسا وخمسين سنة ، لأن مولده كان عام الجماعة سنة أربعين ، وقيل بعدها بسنة ، وقيل قبلها بسنة ، مات بواسط

وعفى قبره ، وأجرى عليه الماء لكيلا ينبش ويحرق والله أعلم .

وقال الأصمعى : ما كان أعجب حال الحجاج ، ما ترك إلا ثلاثمائة درهم . وقال الواقدى : ثنا عبد الله بن محمد بن عبيد حدثنى عبد الرحمن بن عبيد الله بن فرق : ثنا عمى قال : زعموا أن الحجاج لما مات لم يترك إلا ثلاثمائة درهم ومصحفا وسيفا وسرجا ورحلا ومائة درع موقوفة . وقال شهاب بن خراش : حدثنى عمى يزيد بن حوشب قال : بعث إلى أبو جعفر المنصور فقال : حدثنى بوصية الحجاج ابن يوسف ، فقال : اعفنى يا أمير المؤمنين ، فقال : حدثنى بها ، فقلت : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصى به الحجاج بن يوسف أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وأنه لا يعرف إلا طاعة الوليد بن عبد الملك ، عليها يحيى ، وعليها يموت ، وعليها يبعث ، وأوصى بتسعمائة درع حديد ، ستمائة منها لمنافقى أهل العراق يغزون بها ، وثلاثمائة للترك . قال : فرفع أبو جعفر رأسه إلى أبى العباس الطوسى ـ وكان قائما على رأسه ـ فقال : هذه والله الشيعة لا شيعتكم .

وقال الأصمعى عن أبيه قال : رأيت الحجاج فى المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : قتلنى بكل قتلة قتلت بها إنسانا ، قال : ثم رأيته بعد الحول فقلت : يا أبا محمد ما صنع الله بك ؟ فقال : ياماصّ بظر أمه أما سألت عن هذا عام أول ؟ وقال القاضى أبو يوسف : كنت عند الرشيد فدخل عليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين رأيت الحجاج البارحة فى النوم ، قال : فى أى زى رأيته ؟ قال : فى زى قبيح . فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : ما أنت وذاك يا ماصّ بظر أمه ! فقال هارون : صدق والله ، أنت رأيت الحجاج حقا ، ما كان أبو محمد ليدع صرامته حياً وميتاً . وقال حنبل بن إسحاق : ثنا هارون بن معروف ثنا ضمرة بن أبى شوذب عن أشعث الحراز . قال : رأيت الحجاج فى المنام فى حالة سيئة فقلت : يا أبا محمد ما صنع بك ربك ؟ قال : ماقتلت أحداً قتلة إلا قتلنى بها . قال ثم أمر بى إلى النار ، قلت ثم مه ، قال ثم أرجو ما يرجو أهل لا إله إلا الله . قال : وكان ابن سيرين يقول : إنى لأرجو له ، فبلغ ذلك الحسن فقال : أما والله ليخلفن الله رجاءه فيه . وقال أحمد بن أبى الحوارى : سمعت أبا سليمان الدارانى يقول : كان الحسن البصرى لا يجلس مجلسا إلا ذكر فيه الحجاج فدعا عليه ، قال : فرآه فى منامه فقال له : أنت الحجاج ؟ قال : أنا الحجاج ، قال : ما فعل الله بك ؟ قال : قتلت بكل قتيل قتلته ثم عزلت مع الموحدين . قال : فأمسك الحسن بعد ذلك عن شتمه والله أعلم.

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا حمزة بن العباس حدثنا عبد الله بن عثمان أنبأ ابن المبارك أنبأنا سفيان . قال : قدم الحجاج على عبد الملك بن مروان وافداً ومعه معاوية بن قرة ، فسأل عبد الملك معاوية عن الحجاج فقال : إن صدقنا كم قتلتمونا ، وإن كذبنا كم خشينا الله عز وجل ، فنظر إليه الحجاج فقال له عبد الملك : لا تعرض له ، فنفاه إلى السند فكان له بها مواقف

ومن توفي فيها من الأعيان

إبراهيم بن يزيد النخعي قال: كنا إذا حضرنا جنازة أو سمعنا بميت عرف ذلك فينا أياماً ، لأنا قد عرفنا أنه نزل به أمر صيره إلى الجنة أو إلى النار ، وإنكم تتحدثون فى جنائزكم بأحاديث دنياكم . وقال : لا يستقيم رأى إلا برواية ، ولا رواية إلا برأى . وقال : إذا رأيت الرجل يتهاون بالتكبيرة الأولى فاغسل يديك من فلاحه . وقال : إنى لأرى الشئ مما يعاب فلا يمنعنى من عيبه إلا مخافة أن أبتلى به . وبكى عند موته فقيل له ما يبكيك ؟ فقال : انتظار ملك الموت ، ما أدرى يبشرنى بجنة أو بنار

الحسن بن محمد بن الحنفية

كنيته أبو محمد ، كان المقدم على إخوته ، وكان عالما فقيها عارفا بالاختلاف والفقه ، قال أيوب السختيانى وغيره : كان أول من تكلم فى الارجاء ، وكتب فى ذلك رسالة ثم ندم عليها . وقال غيرهم : كان يتوقف فى عثمان وعلى وطلحة والزبير ، فلا يتولاهم ولا يذمهم ، فلما بلغ ذلك أباه محمد بن الحنفية ضربه فشجه وقال : ويحك ألا تتولى أباك علياً ؟ وقال أبو عبيد : توفى سنة خمس وتسعين ، وقال خليفة : توفى فى أيام عمر بن عبد العزيز والله أعلم .

حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهري

وأمه أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وهى أخت عثمان بن عفان لأمه ، وكان حميد فقيها نبيلا عالما ، له روايات كثيرة .

مطرف بن عبدالله بن الشخير

تقدمت ترجمته ، وهؤلاء كلهم لهم تراجم فى كتاب التكميل . وفيها كان موت الحجاج بواسط كما تقدم ذلك مبسوطا مستقصى ولله الحمد . وفيها كان مقتل سعيد بن جبير فى قول على بن المدائنى وجماعة ، والمشهور أنه كان فى سنة أربع وتسعين كما ذكره ابن جرير وغير واحد والله أعلم .

ثم دخلت سنة ست وتسعين

وفيها فتح قتيبة بن مسلم رحمه الله تعالى كاشغر من أرض الصين وبعث إلى ملك الصين رسلا يتهدده ويتوعده ويقسم بالله لا يرجع حتى يطأ بلاده ويختم ملوكهم وأشرافهم ، ويأخذ الجزية منهم أو يدخلوا فى الاسلام . فدخل الرسل على الملك الأعظم فيهم ، وهو فى مدينة عظيمة ، يقال إن عليها تسعين بابا فى سورها المحيط بها ، يقال لها خان بالق ، من أعظم المدن وأكثرها ريعا ومعاملات وأموالا ، حتى قيل إن بلاد الهند مع اتساعها كالشامة فى ملك الصين ، والصين لا يحتاجون إلى أن

يسافروا فى ملك غيرهم لكثرة أموالهم ومتاعهم ، وغيرهم محتاج إليهم لما عندهم من المتاع والدنيا المقسمة ، وسائر ملوك تلك البلاد تؤدى إلى ملك الصين الخراج ، لقهره وكثرة جنده وعدده . والمقصود أن الرسل لما دخلوا على ملك الصين وجدوا مملكة عظمة حصينة ذات أنهار وأسواق وحسن وبهاء ، فدخلوا عليه فى قلعة عظيمة حصينة ، بقدر مدينة كبيرة ، فقال لهم ملك الصين : ما أنتم ؟ ـ وكانوا ثلاثمائة رسول عليهم هبيرة ـ فقال الملك لترجمانه : قل لهم : ما أنتم وماتريدون ؟ فقالوا : نحن رسل قتيبة بن مسلم ، وهو يدعوك إلى الاسلام ، فان لم تفعل فالجزية ، فان لم تفعل فالحرب . فغضب الملك وأمر بهم إلى دار ، فلما كان الغد دعاهم فقال لهم : كيف تكونون فى عبادة إلهكم ؟ فصلوا الصلاة على عادتهم فلما ركعوا وسجدوا ضحك منهم ، فقال : كيف تكونون فى بيوتكم ؟ فلبسوا ثياب مهنهم ، فأمرهم بالانصراف ، فلما كان من الغد أرسل إليهم فقال : كيف تدخلون على ملوككم ؟ فلبسوا الوشى والعمائم والمطارف ودخلوا على الملك ، فقال لهم : ارجعوا فرجعوا ، فقال الملك لأصحابه : كيف رأيتم هؤلاء ؟ فقالوا : هذه أشبه بهيئة الرجال من تلك المرة الأولى ، وهم أولئك . فلما كان اليوم الثالث : أرسل إليهم فقال لهم كيف تلقون عدوكم ؟ فشدوا عليهم سلاحهم ولبسوا المغافر والبيض وتقلدوا السيوف ونكبوا القسى وأخذوا الرماح وركبوا خيولهم ومضوا ، فنظر إليهم ملك الصين فرأى أمثال الجبال مقبلة ، فلما قربوا منه ركزوا رماحهم ثم أقبلوا نحوه مشمرين ، فقيل لهم : ارجعوا ـ وذلك لما دخل قلوب أهل الصين من الخوف منهم ـ فانصرفوا فركبوا خيولهم واختلجوا رماحهم ثم ساقوا خيولهم كأنهم يتطاردون بها ، فقال الملك لأصحابه : كيف ترونهم ؟ فقالوا : ما رأينا كهؤلاء قط . فلما أمسوا بعث إليهم الملك أن ابعثوا إلى زعيمكم وأفضلكم ، فبعثوا إليه هبيرة ، فقال له الملك حين دخل عليه : قد رأيتم عظم ملكى ، وليس أحد يمنعكم منى ، وأنتم بمنزلة البيضة فى كفى ، وأنا سائلك عن أمر فان تصدقنى وإلا قتلتك ، فقال : سل ! فقال الملك : لم صنعتم ماصنعتم من زى أول يوم والثانى والثالث ؟ فقال : أما زينا أول يوم فهو لباسنا فى أهلنا ونسائنا وطيبنا عندهم ، وأما ما فعلنا ثانى يوم فهو زينا إذا دخلنا على ملوكنا ، وأما زينا ثالث يوم فهو إذا لقينا عدونا . فقال الملك : ما أحسن ما دبرتم دهركم ، فانصرفوا إلى صاحبكم ـ يعنى قتيبة ـ وقولوا له ينصرف راجعاً عن بلادى ، فانى قد عرفت حرصه وقلة أصحابه ، وإلا بعثت إليكم من يهلككم عن آخركم . فقال له هبيرة : تقول لقتيبة هذا ؟ ! فكيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله فى بلادك وآخرها فى منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصا من خلف الدنيا قادراً عليها ، وغزاك فى بلادك ؟ وأما تخويفك إيانا بالقتل فانا نعلم أن لنا أجلا إذا حضر فأكرمها عندنا القتل ، فلسنا نكرهه ولا نخافه .

فقال الملك : فما الذى يرضى صاحبكم ؟ فقال : قد حلف أنه لا ينصرف حتى يطأ أرضك و يختم ملوكك و يجبى الجزية من بلادك ، فقال أنا أبر يمينه وأخرجه منها ، أرسل إليه بتراب من أرضى ، وأربع غلمان من أبناء الملوك ، وأرسل إليه ذهبا كثيراً وحريراً وثيابا صينية لا تقوّم ولايدرى قدرها ، ثم جرت لهم معه مقاولات كثيرة ، ثم اتفق الحال على أن بعث صحافا من ذهب متسعة فيها تراب من أرضه ليطأه قتيبة ، و بعث بجماعة من أولاده وأولاد الملوك ليختم رقابهم ، و بعث بمال جزيل ليبر بيمين قتيبة ، وقيل إنه بعث أربعمائة من أولاده وأولاد الملوك ، فلما انتهى إلى قتيبة ما أرسله ملك الصين قبل ذلك منه ، وذلك لأنه كان قد انتهى إليه خبر موت الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين ، فانكسرت همته لذلك ، وقد عزم قتيبة بن مسلم الباهلى على ترك مبايعة سليمان بن عبد الملك ، وأراد الدعوة إلى نفسه لما تحت يده من العساكر ، ولما فتح من البلاد والأقاليم فلم يمكنه ذلك ، ثم قتل فى آخر هذه السنة رحمه الله تعالى ، فانه يقال إنه ما كسرت له راية ، وكان من المجاهدين فى سبيل الله ، واجتمع له من العساكر مالم يجتمع لغيره . وفيها غزا مسلمة بن عبد الملك الصائفة ، وغزا العباس بن الوليد الروم ، ففتح طولس والمرزبانين من بلاد الروم .

وفيها تكامل بناء الجامع الأموى بدمشق على يد بانيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان رحمه الله تعالى وجزاه خيراً ، وكان أصل موضع هذا الجامع قديما معبداً بنته اليونان الكلدانيون الذين كانوا يعمرون دمشق ، وهم الذين وضعوها وعمروها أولا ، فهم أول من بناها ، وقد كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتميزة ، وهى القمر فى السماء الدنيا ، وعطارد فى السماء الثانية ، والزهرة فى السماء الثالثة ، والشمس فى الرابعة ، والمريخ فى الخامسة ، والمشترى فى السادسة ، و زحل فى السابعة . وقد كانوا صوروا على كل باب من أبواب دمشق هيكلا لكوكب من هذه الكواكب السبعة ، وكانت أبواب دمشق سبعة وضعوها قصداً لذلك ، فنصبوا هياكل سبعة لكل كوكب هيكل ، وكان لهم عند كل باب من أبواب دمشق عيد فى السنة ، وهؤلاء هم الذين وضعوا الأرصاد وتكلموا على حركات الكواكب واتصالاتها ومقارنتها ، و بنوا دمشق واختاروا لها هذه البقعة إلى جانب الماء الوارد من بين هذين الجبلين ، وصرفوه أنهاراً تجرى إلى الاماكن المرتفعة والمنخفضة ، وسلكوا الماء فى أفناء أبنية الدور بدمشق ، فكانت دمشق فى أيامهم من أحسن المدن ، بل هى أحسنها ، لما فيها من التصاريف العجيبة ، و بنوا هذا المعبد وهو الجامع اليوم فى جهة القطب ، وكانوا يصلون إلى القطب الشمالى ، وكانت محاريبهم إلى جهته ، وكان باب معبدهم يفتح إلى جهة القبلة خلف المحراب اليوم ، كما شاهدنا ذلك عيانا ، و رأينا محاريبهم إلى جهة القطب ، و رأينا الباب وهو باب حسن مبنى بحجارة منقوشة ، وعليه كتاب بخطهم ، وعن يمينه و يساره بابان صغيران بالنسبة

إليه ، وكان غربى المعبد قصر منيف جدا تحمله هذه الأعمدة التى بباب البريد ، وشرقى المعبد قصر جيرون الملك ، الذى كان ملكهم ، وكان هناك داران عظيمتان معدتان لمن يتملك دمشق قديما منهم ، ويقال إنه كان مع المعبد ثلاث دور عظيمة للملوك ؛ ويحيط بهذه الدور والمعبد سور واحد عال منيف ، بحجارة كبار منحوتة ، وهن دار المطبق ، ودار الخيل ، ودار كانت تكون مكان الخضراء التى بناها معاوية .

قال ابن عساكر فيما حكاه عن كتب بعض الأوائل : إن اليونان مكثوا يأخذون الطالع لبناء دمشق وهذه الأماكن ثمانى عشرة سنة ، وقد حفروا أساس الجدران حتى واتاهم الوقت الذى طلع فيه الكوكبان اللذان أرادوا أن هذا المعبد لايخرب أبداً ولاتخلو منه العبادة ، وأن هذه الدار إذا بنيت لا تخلو من أن تكون دار الملك والسلطنة . قلت : أما المعبد فلم يخل من العبادة . قال كعب الأحبار : لا يخلو منها حتى تقوم الساعة ، وأما دار الملك التى هى الخضراء فقد جدد بناءها معاوية ، ثم أحرقت فى سنة إحدى وستين وأربعمائة كما سنذكره ، فبادت وصارت مساكن ضعفاء الناس وأراذلهم فى الغالب إلى زماننا هذا . والمقصود أن اليونان استمروا على هذه الصفة التى ذكرناها بدمشق مددا طويلة ، تزيد على أربعة آلاف سنة ، حتى أنه يقال إن أول من بنى جدران هذا المعبد الأربعة هود عليه الصلاة والسلام ، وقد كان هود قبل إبراهيم الخليل بمدد طويلة ، وقد ورد إبراهيم الخليل دمشق ونزل شمالها عند برزة ، وقاتل هناك قوما من أعدائه فظفر بهم ، ونصره الله عليهم ، وكان مقامه لمقاتلتهم عند برزة ، فهذا المكان المنسوب إليه بها منصوص عليه فى الكتب المتقدمة ، يأثرونه كابراً عن كابر و إلى زماننا والله أعلم .

وكانت دمشق إذ ذاك عامرة آهلة بمن فيها من اليونان ، وكانوا خلقاً لا يحصيهم إلا الله ، وهم خصماء الخليل ، وقد ناظرهم الخليل فى عبادتهم الأصنام والكواكب وغيرها فى غير موضع ، كما قررنا ذلك فى التفسير ، وفى قصة الخليل من كتابنا هذا « البداية والنهاية » ولله الحمد وبالله المستعان .

والمقصود أن اليونان لم يزالوا يعمرون دمشق ويبنون فيها وفى معاملاتها من أرض حوران والبقاع وبعلبك وغيرها ، البنايات الهائلة الغريبة العجيبة ، حتى إذا كان بعد المسيح بمدة نحو من ثلاثمائة سنة تنصر أهل الشام على يد الملك قسطنطين بن قسطنطين ، الذى بنى المدينة المشهورة به ببلاد الروم وهى القسطنطينية ، وهو الذى وضع لهم القوانين ، وقد كان أولا هو وقومه وغالب أهل الأرض يونانا ، ووضعت له بطاركته النصارى دينا مخترعا مركباً من أصل دين النصرانية ، ممزوجا بشىء من عبادة الأوثان ، وصلوا به إلى الشرق ، وزادوا فى الصيام ، وأحلوا الخنزير ، وعلموا أولادهم الأمانة الكبيرة فيما يزعمون ، وإنما هى فى الحقيقة خيانة كبيرة ، وجناية كثيرة حقيرة ، وهى مع ذلك فى الحجم

صغيرة . وقد تكلمنا على ذلك فيما سلف و بيناه . فبنى لهم هـذا الملك الذى ينتسب إليه الطائفة الملكية من النصارى ، كنائس كبيرة فى دمشق و فى غيرها ، حتى يقال إنه بنى اثنتى عشرة ألف كنيسة ، وأوقف عليها أوقافا دارّة ، من ذلك كنيسة بيت لحم ، وقمامة فى القدس ، بنتها أم هيلانة الفندقانية ، وغير ذلك

والمقصود أنهم ـ يعنى النصارى ـ حولوا بناء هذا المعبد الذى هو بدمشق معظما عند اليونان فجعلوه كنيسة يوحنا ، و بنوا بدمشق كنائس كثيرة غيرها مستأنفة ، واستمر النصارى على دينهم بدمشق وغيرها نحواً من ثلاثمائة سنة ، حتى بعث الله محمداً (ص.) ، فكان من شأنه ما تقدم بعضه فى كتاب السيرة من هذا الكتاب ، وقد بعث إلى ملك الروم فى زمانه ـ وهو قيصر ذلك الوقت ـ واسمه هرقل يدعوه إلى الله عز وجل ، وكان من مراجعته ومخاطبته إلى أبى سفيان ما تقدم ، ثم بعث أمراءه الثلاثة ، زيد بن حارثة ، وجعفر ، وابن رواحة ، إلى البلقاء من تخوم الشام ، فبعث الروم إليهم جيشا كبيراً فقتلوا هؤلاء الأمراء وجماعة ممن معهم من الجيش ، فعزم النبي (ص.) على قتال الروم ودخول الشام عام تبوك ، ثم رجع عام ذلك لشدة الحر ، وضعف الحال ، وضيقه على الناس . ثم لما توفى بعث الصديق الجيوش إلى الشام بكمالها ، ومن ذلك مدينة دمشق بأعمالها ، وقد بسطنا القول فى ذلك عند ذكر فتحها ، فلما استقرت اليد الاسلامية عليها وأنزل الله رحمته فيها ، وساق بره إليها ، وكتب أمير الحرب أبو عبيدة إذ ذاك ، وقيل خالد بن الوليد ، لأهل دمشق كتاب أمان ، أقروا أيدى النصارى على أربع عشرة كنيسة ، وأخذوا منهم نصف هذه الكنيسة التى كانوا يسمونها كنيسة مريحنا ، بحكم أن البلد فتحه خالد من الباب الشرقى بالسيف ، وأخذت النصارى الامان من أبى عبيدة ، وكان على باب الجابية الصلح ، فاختلفوا ثم إتفقوا على أن جعلوا نصف البلد صلحا ونصفه عنوة ، فأخذوا نصف هذه الكنيسة الشرقى فجعله أبو عبيدة مسجداً يصلى فيه المسلمون ، وكان أول من صلى فى هذا المسجد أبو عبيدة ثم الصحابة بعده فى البقعة الشرقية منه ، التى يقال لها محراب الصحابة . ولكن لم يكن الجدار مفتوحاً بمحراب محنى ، وإنما كانوا يصلون عند هذه البقعة المباركة ، والظاهر أن الوليد هو الذى فتق المحازيب فى الجدار القبلى [قلت :هذه المحاريب متجددة ليست من فتق الوليد ، و إنما فتق الوليد محرابا واحدا ، إن كان قد فعل ، ولعله لم يفعل شيئا منها ، فكان يصلى فيه الخليفة ، و بقيتها فتقت قريبا ، لكل إمام محراب ، شافعى وحنفى ومالكى وحنبلى ، وهؤلاء إنما حدثوا بعد الوليد بزمان] [1] وقد كره كثير من السلف مثل هذه المحاريب ، وجعلوه من البدع المحدثة ، وكان المسلمون والنصارى يدخلون هذا المعبد من باب واحد ،

---

(١) زيادة من المصرية :

وهو باب المعبد الأعلى من جهة القبلة ، مكان المحراب الكبير الذى فى المقصورة اليوم ، فينصرف النصارى إلى جهة الغرب إلى كنيستهم ، و يأخذ المسلمون يمنة إلى مسجدهم ، ولا يستطيع النصارى أن يجهروا بقراءة كتابهم ، ولا يضربوا بناقوسهم ، اجلالا للصحابة ومهابة وخوفاً . وقد بنى معاوية فى أيام ولايته على الشام دار الامارة قبلى المسجد الذى كان للصحابة ، و بنى فيها قبة خضراء ، فعرفت الدار بكمالها بها ، فسكنها معاوية أربعين سنة كما قدمنا . ثم لم يزل الامر على ماذ كرنا من أمر هذه الكنيسة شطرين بين المسلمين والنصارى ، من سنة أربع عشرة ، إلى سنة ست وثمانين فى ذى القعدة منها ، وقد صارت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك فى شوال منها ، فعزم الوليد على أخذ بقية هذه الكنيسة و إضافتها إلى مابأيدى المسلمين منها ، وجعل الجميع مسجداً واحداً ، وذلك لأن بعض المسلمين كان يتأذى بسماع قراءة النصارى للانجيل ، و رفع أصواتهم فى صلواتهم ، فأحب أن يبعدهم عن المسلمين ، وأن يضيف ذلك المكان إلى هذا ، فيصير كله معبداً للمسلمين ، و يتسع المسجد لكثرة المسلمين ، فعند ذلك طلب النصارى وسأل منهم أن يخرجوا له عن هذا المكان ، و يعوضهم إقطاعات كثيرة ، وعرضها عليهم ، وأن يبقى بأيديهم أربع كنائس لم تدخل فى العهد ، وهى كنيسة مريم ، وكنيسة المصلبة داخل باب شرقى ، وكنيسة تل الجبن ، وكنيسة حميد بن درة التى بدرب الصقل ، فأبوا ذلك أشد الاباء ، فقال : ائتونى بعهودكم التى بأيديكم من زمن الصحابة ، فأتوا بها فقرئت بحضرة الوليد ، فاذا كنيسة توما - التى كانت خارج باب توما على حافة النهر - لم تدخل فى العهد ، وكانت فيما يقال أكبر من كنيسة مريحنا ، فقال الوليد : أنا أهدمها وأجعلها مسجداً ، فقالوا : بل يتركها أمير المؤمنين وماذ كر من الكنائس ونحن نرضى ونطيب له نفسا ببقية هذه الكنيسة ، فأقرهم على تلك الكنائس ، وأخذ منهم بقية هذه الكنيسة . هذا قول ، و يقال إن الوليد لما أهمه ذلك وعرض ماعرض على النصارى فأبوا من قبوله . دخل عليه بعض الناس فأرشده إلى أن يقيس من باب شرقى ومن باب الجابية ، فوجدوا أن الكنيسة قد دخلت فى العنوة وذلك أنهم قاسوا من باب شرقى ومن باب الجابية فوجدوا منتصف ذلك عند سوق الريحان تقريباً ، فاذا الكنيسة قد دخلت فى العنوة ، فأخذها . وحكى عن المغيرة مولى الوليد قال : دخلت على الوليد فوجدته مهموماً فقلت : مالك يا أمير المؤمنين مهموما ؟ فقال : إنه قد كثر المسلمون وقد ضاق بهم المسجد ، فأحضرت النصارى و بذلت لهم الأموال فى بقية هذه الكنيسة لأضيفها إلى المسجد فيتسع على المسلمين فأبوا ، فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين عندى مايزيل همك ، قال : وماهو ؟ قلت : الصحابة لما أخذوا دمشق دخل خالد بن الوليد من الباب شرقى بالسيف ، فلما سمع أهل البلد بذلك فزعوا إلى أبى عبيدة يطلبون منه الأمان فأمنهم ، وفتحوا له باب الجابية ، فدخل منه أبو عبيدة

بالصلح ، فنحن نماسحهم إلى أى موضع بلغ السيف أخذناه ، وما بالصلح تركناه بأيديهم ، وأرجو أن تدخل الكنيسة كلها فى العنوة ، فتدخل فى المسجد . فقال الوليد : فرجت عنى ، فتول أنت ذلك بنفسك ، فتولاه المغيرة ومسح من الباب الشرقى إلى نحو باب الجابية إلى سوق الريحان فوجد السيف لم يزل عمالا حتى جاوز القنطرة الكبيرة بأربع أذرع وكسر ، فدخلت الكنيسة فى المسجد ، فأرسل الوليد إلى النصارى فأخبرهم وقال : إن هذه الكنيسة كلها دخلت فى العنوة فهى لنا دونكم ، فقالوا : إنك أولا دفعت إلينا الأموال وأقطعتنا الاقطاعات فأبينا ، فمن إحسان أمير المؤمنين أن يصالحنا فيبقى لنا هذه الكنائس الاربع بأيدينا، ونحن نترك له بقية هذه الكنيسة ، فصالحهم على إبقاء هذه الأربع الكنائس والله أعلم .

وقيل إنه عوضهم منها كنيسة عند حمام القاسم عند باب الفراديس داخله فسموها مريحنا باسم تلك الكنيسة التى أخذت منهم ، وأخذوا شاهدها فوضعوه فوق التى أخذوها بدلها فالله أعلم .

ثم أمر الوليد باحضار آلات الهدم واجتمع إليه الأمراء والكبراء ، وجاء إليه أساقفة النصارى وقساوستهم فقالوا : يا أمير المؤمنين إنا نجد فى كتبنا أن من يهدم هذه الكنيسة يجن ، فقال الوليد : أنا أحب أن أجن فى الله ، ووالله لايهدم فيها أحد شيئا قبلى ، ثم صعد المنارة الشرقية ذات الأضالع المعروفة بالساعات ، وكانت صومعة هائلة فيها راهب عندهم ، فأمره الوليد بالنزول منها فأكبر الراهب ذلك ، فأخذ الوليد بقفاه فلم يزل يدفعه حتى أنزله منها ، ثم صعد الوليد على أعلى مكان فى الكنيسة فوق المذبح الأكبر منها ، الذى يسمونه الشاهد ، وهو تمثال فى أعلى الكنيسة ، فقال له الرهبان : احذر الشاهد ، فقال : أنا أول ما أضع فأسى فى رأس الشاهد ، ثم كبر وضرب به فهدمه ، وكان على الوليد قباء أصفر لونه سفرجلى قد غرز أذياله فى المنطقة ، ثم أخذ فأسا بيده فضرب بها فى أعلى حجر فألقاه ، فتبادر الأمراء إلى الهدم ، وكبر المسلمون ثلاث تكبيرات ، وصرخت النصارى بالعويل على درج جيرون ، وكانوا قد اجتمعوا هنالك ، فأمر الوليد أمير الشرطة وهو أبو نائل رياح الغسانى ، أن يضربهم حتى ينهبوا من هنالك ، ففعل ذلك ، فهدم الوليد والأمراء جميع ما جدده النصارى فى تربيع هذا المعبد من المذابح والأبنية والحنايا ، حتى بقى المكان صرحة مربعة ، ثم شرع فى بنائه بفكرة جيدة على هذه الصفة الحسنة الأنيقة ، التى لم يشتهر مثلها قبلها كما سنذكره .

وقد استعمل الوليد فى بناء هذا المسجد خلقاً كثيراً من الصناع والمهندسين والفعلة ، وكان المستحث على عمارته أخوه وولى عهده من بعده سليمان بن عبد الملك ، ويقال إن الوليد بعث الى ملك الروم يطلب منه صناعاً فى الرخام وغير ذلك ، ليستعين بهم على عمارة هذا المسجد على مايريد ، وأرسل يتوعده لئن لم يفعل ليغزون بلاده بالجيوش ، وليخربن كل كنيسة فى بلاده ، حتى

كنيسة القدس ، وهى قمامة ، وكنيسة الرها ، وسائر آثار الروم ، فبعث ملك الروم إليه صناعاً كثيرة جداً ، مائتى صانع ، وكتب إليه يقول : إن كان أبوك فهم هذا الذى تصنعه وتركه فانه لوصمة عليك ، وإن لم يكن فهمه وفهمت أنت لوصمة عليه ، فلما وصل ذلك إلى الوليد أراد أن يجيب عن ذلك ، واجتمع الناس عنده لذلك ، فكان فيهم الفرزدق الشاعر ، فقال : أنا أجيبه يا أمير المؤمنين من كتاب الله . قال الوليد : وما هو ويحك ؟ فقال قال الله تعالى [ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكما وعلما] وسليمان هو ابن داود ، ففهمه الله ما لم يفهمه أبوه . فأعجب ذلك الوليد فأرسل به جوابا إلى ملك الروم . وقد قال الفرزدق فى ذلك : —

فرقتَ بينَ النصارى فى كنائسهمْ * والعابدينَ معَ الأسحارِ والعتمِ

وهمْ جميعاً اذا صلوا وأوجههمْ * شتى إذا سجدوا للهِ والصنمِ

وكيفَ يجتمعُ الناقوسُ يضربهُ * أهلُ الصليبِ معَ القراءِ لم تنمِ

فهمتَ تحويلها عنهم كما فهما * إذ يحكمانِ لهمْ فى الحرثِ والغنمِ

داودُ والملكُ المهدى إذْ جزآ * ولادها واجتزاز الصوفِ بالجلمِ

فهمك اللهُ تحويلاً لبيعتهمْ * عنْ مسجدٍ فيهِ يتلى طيبُ الكلمِ

ما من أبٍ حملتهُ الأرضُ نعلمهُ * خيرٌ بنينٍ ولا خيرٌ منَ الحكمِ

قال الحافظ عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم الدمشقى : بنى الوليد ما كان داخل حيطان المسجد وزاد فى سمك الحيطان . وقال الحسن بن يحيى الخشنى : إن هوداً عليه السلام هو الذى بنى الحائط القبلى من مسجد دمشق . وقال غيره : لما أراد الوليد بناء القبة التى وسط الرواقات — وهى قبة النسر وهو اسم حادث لها ، وكأنهم شبهوها بالنسر فى شكله ، لأن الرواقات عن يمينها وشمالها كالأجنحة لها — حفر لأركانها حتى وصلوا إلى الماء وشربوا منه ماء عذبا زلالا ، ثم إنهم وضعوا فيه زيادة الكرم ، وبنوا فوقها بالحجارة ، فلما ارتفعت الأركان بنوا عليها القبة فسقطت ، فقال الوليد لبعض المهندسين : أريد أن تبنى لى أنت هذه القبة ، فقال : على أن تعطينى عهد الله وميثاقه على أن لا يبنيها أحد غيرى ، ففعل . فبنى الأركان ثم غلفها بالبوارى ، وغاب عنها سنة كاملة لايدرى الوليد أين ذهب ، فلما كان بعد السنة حضر ، فهمّ به الوليد فأخذه ومعه رؤس الناس ، فكشف البوارى عن الأركان فاذا هى قد هبطت بعد ارتفاعها حتى ساوت الأرض ، فقال له : من هذا أتيت ، ثم بناها فانعقدت.

وقال بعضهم : أراد الوليد أن يجعل بيضة القبة من ذهب خالص ليعظم بذلك شأن هذا البناء ، فقال له المعمار : إنك لاتقدر على ذلك ، فضربه خمسين سوطاً ، وقال له : ويلك ! أنا لاأقدر على ذلك وتزعم أنى أعجز عنه ؟ وخراج الأرض وأموالها تجبى إلى ؟ قال : نعم أنا أبين لك ذلك ، قال : فبين

ذلك ، قال : اضرب لبنة واحـدة من الذهب وقس عليها ماتريد هـذه القبة من ذلك ، فأمر الوليد فأحضر من الذهب ماضرب منـه لبنة فاذا هى قد دخلها ألوف من الذهب ، فقال : يا أمـير المؤمنين إنا نريد مثل هـذه اللبنة كذا وكذا ألف لبنة ، فان كان عندك مايكفى من ذلك عملناه ، فلما تحقق صحة قوله أطلق له الوليد خمسين ديناراً ، وقال إنى لا أعجز عما قلت ، ولـكن فيـه إسراف وضياع مال فى غـير وجهه اللائق به ، ولأن يكون ما أردنا من ذلك نفقة فى سبيل الله ، وردا عـلى ضعفاء المسلمين خير من ذلك . ثم عقدها عـلى ما أشار به المعمار . ولمـا سقف الوليـد الجامع جعلوا سقفه جملونات ، وباطنها مسطحا مقرنصاً بالذهب ، فقال له بعض أهـله : أتعبت الناس بعـدك فى طين أسطحتهم ، لما يريد هـذا المسجد فى كل عام من الطين الـكثير ـ يشير إلى أن التراب يغلو والفعلة تقل لأجل العمل فى هـذا المسجد فى كل عام ـ فأمر الوليد أن يجمع مافى بلاده من الرصاص ليجعله عوض الطين ، ويكون أخف على السقوف . فجمع من كل ناحية من الشام وغيره من الاقاليم ، فعازوا فاذا عنـد امرأة منه قناطير مقنطرة ، فساوموها فيه ، فقالت : لا أبيعه إلا بوزنه فضة ، فـكتبوا إلى الوليد فقال : اشتروه منها ولو بوزنه فضة ، فلما بذلوا لها ذلك قالت : أما إذا قلتم ذلك فهو صدقة لله يكون فى سقف هذا المسجد ، فكتبوا على ألواحها بطابع « لله » ويقال إنها كانت إسرائيلية ، وإنه كتب على الالواح التى أخذت منها : هذا ما أعطته الاسرائيلية .

وقال محمد بن عائذ : سمعت المشايخ يقولون : ماتم بناء مسجد دمشق إلا بأداء الأمانة ، لقد كان يفضل عند الرجل من القوم أو الفعلة الفلس ورأس المسمار فيأتى به حتى يضعه فى الخزانة . وقال بعض مشايخ الدماشـقة : ليس فى الجامع من الرخام شئ إلا الرخامتان اللتان فى المقام من عرش بلقيس والباقى كله مرمر . وقال بعضهم : اشترى الوليد العمودين الأخضرين اللذين تحت النسر ، من حرب ابن خالد بن يزيد بن معاوية بألف وخمسمائة دينار . وقال دحيم عن الوليد بن مسلم : ثنا مروان بن جناح عن أبيه قال : كان فى مسجد دمشق اثنا عشر ألف مرخم ، وقال أبو قصى عن دحيم عن الوليد ابن مسلم عن عمرو بن مهاجر الأنصارى : إنهم حسبوا ما أنفقه الوليـد على الكرمة[1] التى فى قبلى المسجد فاذا هو سبعون ألف دينار .

وقال أبو قصى : أنفق فى مسجد دمشق أربعمائة صندوق من الذهب ، فى كل صندوق أربعة عشر ألف دينار ، وفى رواية فى كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار . قلت : فعلى الأول يكون ذلك

(١) هى فسيفساء عـلى هيئة الـكرم مؤلفـة من قطع صغيرة من الزجاج المربع مبطن بالذهب أو الألوان ، وكان منها بقايا إلى أيام الحريق الأخير سنة ١٣١٠ هـ ويوجد قريب منها فى قبة الملك الظاهر بدمشق إلى اليوم .

خمسة آلاف ألف دينار ، وستمائة ألف دينار ، وعلى الثانى يكون المصروف فى عمارة الجامع الأموى إحد عشر ألف ألف دينار ، ومائتى ألف دينار . وقيل إنه صرف أكثر من ذلك بكثير ، والله أعلم .

قال أبو قصى : وأتى الحرسى إلى الوليد فقال : يا أمير المؤمنين إن الناس يقولون أنفق أمير المؤمنين بيوت الأموال فى غير حقها . فنودى فى الناس الصلاة جامعة . فاجتمع الناس فصعد الوليد المنبر وقال : إنه بلغنى عنكم أنكم قلتم أنفق الوليد بيوت الأموال فى غير حقها ، ثم قال : يا عمرو بن مهاجر ، قم فأحضر أموال بيت المال ، فحملت على البغال إلى الجامع ، ثم بسط لها الانطاع تحت قبة النسر ، ثم أفرغ عليها المال ذهبا صبيباً ، وفضة خالصة ، حتى صارت كوماً ، حتى كان الرجل إذا قام من الجانب الواحد لايرى الرجل من الجانب الآخر ، وهذا شئ كثير ، ثم جئ بالقبانين فوزنت الأموال فاذا هى تكفى الناس ثلاث سنين مستقبلة ، وفى رواية ست عشرة سنة مستقبلة ، ولو لم يدخل للناس شئ بالكلية ، فقال لهم الوليد : والله ما أنفقت فى عمارة هذا المسجد درهما من بيوت المال ، وإنما هذا كله من مالى . ففرح الناس وكبروا وحمدوا الله عز وجل على ذلك ، ودعوا للخليفة وانصرفوا شاكرين داعين . فقال لهم الوليد : يا أهل دمشق ، والله ما أنفقت فى بناء هذا المسجد شيئاً من بيوت المال ، وإنما هذا كله من مالى ، لم أرزأكم من أموالكم شيئاً . ثم قال الوليد : يا أهل دمشق ، إنكم تفخرون على الناس بأربع ، بهوائكم ومائكم وفاكهتكم وحماماتكم ، فأحببت أن أزيدكم خامسة وهى هذا الجامع . وقال بعضهم : كان فى قبلة جامع دمشق ثلاث صفائح مذهبة بلازورد ، فى كل منها : بسم الله الرحمن الرحيم الله لا إله إلا هو الحى القيوم لاتأخذه سنة ولانوم . لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، ولا نعبد إلا إياه ، ربنا الله وحده ، وديننا الاسلام ، ونبينا محمد (ص) . أمر ببنيان هذا المسجد وهدم الكنيسة التى كانت فيه عبد الله أمير المؤمنين الوليد ، فى ذى القعدة سنة ست وثمانين ، وفى صفيحة أخرى رابعة من تلك الصفائح : الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم إلى آخر الفاتحة ، ثم النازعات ، ثم عبس ، ثم إذا الشمس كورت ، قالوا : ثم محيت بعد مجئ المأمون إلى دمشق . وذكروا أن أرضه كانت مفضضة كلها ، وأن الرخام كان فى جدرانه إلى قامات ، وفوق الرخام كرمة عظيمة من ذهب ، وفوق الكرمة الفصوص المذهبة والخضر والحمر والزرق والبيض ، قد صوروا بها سائر البلدان المشهورة ، الكعبة فوق المحراب ، وسائر الاقاليم يمنة ويسرة ، وصوروا مافى البلدان من الأشجار الحسنة المثمرة والمزهرة وغير ذلك ، وسقفه مقرنص بالذهب ، والسلاسل المعلقه فيها جميعها من ذهب وفضة ، وأنوار الشموع فى أماكنه مفرقة . قال : وكان فى محراب الصحابة برنية حجر من بلور ، ويقال بل كانت حجراً من جوهر وهى الدرة ، وكانت تسمى القليلة ، وكانت إذا طفئت القناديل تضئ لمن هناك بنورها ، فلما كان زمن الأمين بن الرشيد ـ وكان يحب البلور وقيل

الجوهر - بعث إلى سليمان والى شرطة دمشق أن يبعث بها إليه ، فسرقها الوالى خوفا من الناس وأرسلها إليه ، فلما ولى المأمون ردها إلى دمشق ليشنع بذلك على الأمين . قال ابن عساكر : ثم ذهبت بعد ذلك فجعل مكانها برنية من زجاج ، قال : وقد رأيت تلك البرنية ثم انكسرت بعد ذلك فلم يجعل مكانها شئ ، قالوا : وكانت الأبواب الشارعة من داخل الصحن ليس عليها أغلاق ، وإنما كان عليها الستور مرخاة ، وكذلك الستور على سائر جدرانه إلى حد الكرمة التى فوقها الفصوص المذهبة ، ورؤس الأعمدة مطلية بالذهب الخالص الكثير ، وعملوا له شرفات تحيط به ، وبنى الوليد المنارة الشمالية التى يقال لها مأذنة العروس ، فأما الشرقية والغربية فكانتا فيه قبل ذلك بدهور متطاولة ، وقد كان فى كل زاوية من هذا المعبد صومعة شاهقة جداً ، بنتها اليونان للرصد ، ثم بعد ذلك سقطت الشماليتان وبقيت القبليتان إلى الآن ، وقد أحرق بعض الشرقية بعد الأربعين وسبعمائة ، فنقضت وجدد بناؤها من أموال النصارى ، حيث اتهموا بحريقها ، فقامت على أحسن الأشكال ، بيضاء بذاتها وهى والله أعلم الشرفة التى ينزل عليها عيسى بن مريم فى آخر الزمان بعد خروج الدجال ، كما ثبت ذلك فى صحيح مسلم عن النواس بن سمعان .

[قلت : ثم أحرق أعلى هذه المنارة وجددت ، وكان أعلاها من خشب فبنيت بحجارة كلها فى آخر السبعين وسبعمائة ، فصارت كلها مبنية بالحجارة] [1]

والمقصود أن الجامع الأموى لما كمل بناؤه لم يكن على وجه الأرض بناء أحسن منه ، ولا أبهى ولا أجمل منه ، بحيث إنه إذا نظر الناظر إليه أو إلى جهة منه أو إلى بقعة أو مكان منه تحير فيها نظره لحسنه وجماله ، ولا يمل ناظره ، بل كلما أدمن النظر بانت له أعجوبة ليست كالأخرى ، وكانت فيه طلسمات من أيام اليونان فلا يدخل هذه البقعة شئ من الحشرات بالكلية ، لا من الحيات ولا من العقارب ، ولا الخنافس ولا العناكيب ، ويقال ولا العصافير أيضاً تعشش فيه ، ولا الحمام ولا شئ مما يتأذى به الناس ، وأكثر هذه الطلسمات أو كلها كانت مودعة فى سقف هذا المعبد ، مما يلى السبع ، فأحرقت لما أحرق ليلة النصف من شعبان بعد العصر ، سنة إحدى وستين وأربعمائة ، فى دولة الفاطميين كما سيأتى ذلك فى موضعه . وقد كانت بدمشق طلسمات وضعتها اليونان بعضها باق إلى يومنا هذا والله أعلم .

فمن ذلك العمود الذى فى رأسه مثل الكرة فى سوق الشعير عند قنطرة أم حكيم ، وهذا المكان يعرف اليوم بالعلبيين ، ذكر أهل دمشق أنه من وضع اليونان لعسر بول الحيوان ، فاذا داروا بالحيوان حول هذا العمود ثلاث دورات انطلق باطنه فبال ، وذلك مجرب من عهد اليونان .

---

(١) زيادة من المصرية .

[قال ابن تيمية عن هذا العمود : إن تحته مدفون جبار عنيد ، كافر يعذب ، فاذا داروا بالحيوان حوله سمع العذاب فراثْ وبال من الخوف ، قال : ولهذا يذهبون بالدواب إلى قبور النصارى واليهود والكفار ، فاذا سمعت أصوات المعذبين انطلق بولها . والعمود المشار إليه ليس له سر ، ومن اعتقد أن فيه منفعة أو مضرة فقد أخطأ خطأ فاحشا . وقيل إن تحته كنزاً وصاحبه عنده مدفون ، وكان ممن يعتقد الرجعة إلى الدنيا كما قال تعالى [وقالوا ماهى إلاحياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين] والله سبحانه وتعالى أعلم](١) .

وما زال سليمان بن عبد الملك يعمل فى تكملة الجامع الأموى بعد موت أخيه مدة ولايته ، وجددت له فيه المقصورة ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز عزم على أن يجرده مما فيه من الذهب ، ويقلع السلاسل والرخام والفسيفساء ، ويرد ذلك كله إلى بيت المال ، ويجعل مكان ذلك كله طينا ، فشق ذلك على أهل البلد واجتمع أشرافهم إليه ، وقال خالد بن عبد الله القسرى : أنا أكله لكم ، فقال له : يا أمير المؤمنين بلغنا عنك كذا وكذا ، قال : نعم ! فقال خالد : ليس ذلك لك يا أمير المؤمنين ، فقال عمر : ولم يا ابن الكافرة ؟ ـ وكانت أمه نصرانية رومية أم ولد ـ فقال : يا أمير المؤمنين إن كانت كافرة فقد ولدت رجلا مؤمنا ، فقال : صدقت ، واستحيا عمر ثم قال له : فلم قلت ذلك ؟ قال : يا أمير المؤمنين لأن غالب مافيه من الرخام انما حمله المسلمون من أموالهم من سائر الأقاليم ، وليس هو لبيت المال ، فأطرق عمر . قالوا : واتفق فى ذلك الزمان قدوم جماعة من بلاد الروم رسلا من عند ملكهم ، فلما دخلوا من باب البريد وانتهوا إلى الباب الكبير الذى تحت النسر ، ورأوا ما بهر عقولهم من حسن الجامع الباهر ، والزخرفة التى لم يسمع بمثلها ، صعق كبيرهم وخر مغشيا عليه ، فحملوه إلى منزلهم ، فبقى أياما مدنفاً ، فلما تماثل سألوه عما عرض له فقال : ما كنت أظن أن يبنى المسلمون مثل هذا البناء ، وكنت أعتقد أن مدتهم تكون أقصر من هذا ، فلما بلغ ذلك عمر بن عبد العزيز قال : أو إن الغيظ أهلك الكفار ، دعوه . وسألت النصارى فى أيام عمر بن عبد العزيز أن يعقد لهم مجلسا فى شأن ما كان أخذه الوليد منهم ، وكان عمر عادلا ، فأراد أن يرد عليهم ما كان أخذه الوليد منهم فأدخله فى الجامع ، ثم حقق عمر القضية ، ثم نظر فاذا الكنائس التى هى خارج البلد لم تدخل فى الصلح الذى كتبه لهم الصحابة ، مثل كنيسة دير مران بسفح قاسيون ، وهى بقرية المعظمية ، وكنيسة الراهب ، وكنيسة توما خارج باب توما ، وسائر الكنائس التى بقرى الحواجز ، فخيرهم بين رد ما سألوه وتخريب هذه الكنائس كلها ، أو تبقى تلك الكنائس ويطيبوا نفسا للمسلمين بهذه البقعة ، فاتفقت آراؤهم بعد ثلاثة أيام على إبقاء تلك الكنائس ، ويكتب لهم كتاب أمان بها ،

(١) زيادة من المصرية :

ويطيبوا نفسا بهذه البقعة، فكتب لهم كتاب أمان بها .

والمقصود أن الجامع الأموى كان حين تكامل بناؤه ليس له فى الدنيا مثيل فى حسنه وبهجته ، قال الفرزدق : أهل دمشق فى بلادهم فى قصر من قصور الجنـة ـ يعنى الجامع ـ وقال أحمد بن أبى الحوارى عن الوليد بن مسلم عن ابن ثوبان : ما ينبغى لأحد من أهل الأرض أن يكون أشد شوقا إلى الجنة من أهل دمشق ، لما يرون من حسن مسجدها . قالوا : ولما دخل أمير المؤمنين المهدى دمشق يريد زيارة القدس نظر إلى جامع دمشق فقال لكاتبه أبى عبيد الله الأشعرى : سبقنا بنو أمية بثلاث ، بهذا المسجد الذى لا أعلم على وجه الأرض مثله ، وبنبل الموالى ، وبعمر ابن عبد العزيز ، لايكون والله فينا مثله أبدا . ثم لما أتى بيت المقدس فنظر إلى الصخرة ـ وكان عبد الملك بن مروان هو الذى بناها ـ قال لكاتبه : وهذه رابعة . ولما دخل المأمون دمشق فنظر إلى جامعها وكان معه أخوه المعتصم ، وقاضيه يحيى بن أكثم ، قال : ما أعجب مافيه ؟ فقال أخوه : هذه الأذهاب التى فيه ، وقال يحيى بن أكثم : الرخام وهذه العقد ، فقال المأمون : إنى إنما أعجب من حسن بنيانه على غير مثال متقدم ، ثم قال المأمون لقاسم التمار : أخبرنى باسم حسن أسمى به جاريتى هذه ، فقال : سمها مسجد دمشق ، فانه أحسن شئ . وقال عبد الرحمن عن ابن عبد الحكم عن الشافعى قال : عجائب الدنيا خمسة : أحدها منارتكم هذه ـ يعنى منارة ذى القرنين باسكندرية ـ والثانية أصحاب الرقيم وهم بالروم اثنا عشر رجلا ، والثالثة مرآة بباب الأندلس على باب مدينتها ، يجلس الرجل تحتها فينظر فيها صاحبه من مسافة مائة فرسخ . وقيل ينظر من بالقسطنطينية ، والرابع مسجد دمشق وما يوصف من الانفاق عليه ، والخامس الرخام والفسفساء ، فانه لايدرى لها موضع ، ويقال إن الرخام معجون ، والدليل على ذلك أنه يذوب على النار .

قال ابن عساكر : وذكر إبراهيم بن أبى الليث الكاتب ـ وكان قدم دمشق سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ـ فى رسالة له قال : ثم أمرنا بالانتقال فانتقلت منه إلى بلد تمت محاسنه ، ووافق ظاهره باطنه ، أزقته أرجة ، وشوارعه فرجة ، فحيث ما مشيت شممت طيباً ، وأين سعيت رأيت منظراً عجيباً ، وإن أفضيت إلى جامعه شاهدت منه ماليس فى استطاعة الواصف أن يصفه ، ولا الرائى أن يعرفه ، وجملته أنه كنز الدهر ونادرة الوقت ، وأعجوبة الزمان ، وغريبة الأوقات ، ولقد أثبت الله عز وجل به ذكرا يدرس ، وخلف به أمراً لايخفى ولايدرس . قال ابن عساكر : وأنشدنى بعض المحدثين فى جامع دمشق عمره الله بذكره وفى دمشق فقال :

دمشقُ قد شاعَ حسنُ جامعها * وماحوتهُ رُبى مرابعها

بديعةُ الحسنِ فى الكمالِ لما * يدركهُ الطرفُ من بدائعها.

طيبةٌ أرضها مباركةٌ * باليمنِ والسعدِ أخذُ طالعها
جامعها جامعُ المحاسنِ قدْ * فاقتْ به المدنُ في جوامعها
بنيةٍ بالاتقانِ قدْ وضعتْ * لاضيعَ اللهُ سعيَ واضعها
تذكرُ في فضلهِ ورفعتهِ * آثارُ صدقٍ راقتْ لسامعها
قدْ كانَ قبلَ الحريقِ مدهشةً * فغيرتْ نارهُ بلاقعها
فأذهبتْ بالحريقِ بهجتهُ * فليسَ يرجى إيابُ راجعها
إذا تفكرتَ في الفصوصِ وما * فيها تيقنتَ حذقَ راصعها
اشجارها لاتزالُ مثمرةً * لاترهبُ الريحَ منْ مدافعها
كأنها من زمردٍ غرستْ * في أرضِ تبرٍ تغشى بنافعها
فيها ثمارٌ تخالها ينعتْ * وليسَ يخشى فسادُ يانعها
تقطفُ باللحظِ لابجارحةِ الـ * أيدى ولا تجتنى لبايعها
وتحتها من رخامةٍ قطعٌ * لاقطعَ اللهُ كفَ قاطعها
احكم ترخيمها المرخمُ قدْ * بانَ عليها إحكامُ صانعها
وإنْ تفكرتَ في قناطرهِ * وسقفهِ بانَ حذقَ رافعها
وإنْ تبينتَ حسنَ قبتهِ * تحيرَ اللبُّ في أضالعها
تخترقُ الريحُ في منافذها * عصفاً فتقوى على زعازعها
وأرضهُ بالرخامِ قدْ فرشتْ * ينفسحُ الطرفُ في مواضعها
مجالسُ العلمِ فيهِ مؤنقةٌ * ينشرحُ الصدرُ في مجامعها
وكلَ بابٍ عليهِ مطهرةٌ * قدْ أمنَ الناسُ دفعَ مانعها
يرتفقُ الناسُ من مرافقها * ولا يصدونَ عنْ منافعها
ولا تزالُ المياهُ جاريةً * فيها لما شقَ منْ مشارعها
وسوقها لا تزالُ آهلةً * يزدحمُ الناسُ في شوارعها
لما يشاؤنَ منْ فواكهها * وما يريدونَ منْ بضائعها
كأنها جنةٌ معجلةٌ * في الارضِ لولا مسرى فجائعها
دامتْ برغمِ العدى مسلمةً * وحاطها اللهُ منْ قوارعها

فصل

فيما روي في جامع دمشق من الآثار وما ورد في فضله من الأخبار عن جماعة من السادة الأخيار

روى عن قتادة أنه قال فى قوله تعالى [والتين] قال : هو مسجد دمشق [والزيتون] قال : هو مسجد بيت المقدس [وطور سينين] حيث كلم الله موسى [وهذا البلد الأمين] وهو مكة[1] . رواه ابن عساكر . وقال صفوان بن صالح عن عبد الخالق بن زيد بن واقد عن أبيه عن عطية بن قيس الكلابى قال قال كعب الأحبار : ليبنين فى دمشق مسجد يبقى بعد خراب الدنيا أربعين عاماً . وقال الوليد بن مسلم عن عثمان بن أبى العاتكة عن على بن زيد عن القاسم أبى عبد الرحمن قال : أوحى الله تعالى إلى جبل قاسيون أن هب ظلك وبركتك إلى جبل بيت المقدس ، قال ففعل فأوحى الله إليه أما إذا فعلت فانى سأبنى لى فى خطتك بيتاً أعبد فيه بعد خراب الدنيا أربعين عاما ، ولا تذهب الأيام والليالى حتى أرد عليك ظلك وبركتك ، قال فهو عند الله بمنزلة الرجل الضعيف المتضرع . وقال دحيم : حيطان المسجد الأربعة من بناء هود عليه السلام ، وما كان من الفسيفساء إلى فوق فهو من بناء الوليد بن عبد الملك ــ يعنى أنه رفع الجدار فعلاه من حد الرخام والكرمة إلى فوق ــ وقال غيره : إنما بنى هود الجدار القبلى فقط . ونقل عثمان بن أبى العاتكة عن أهل العلم أنهم قالوا فى قوله تعالى [والتين] قالوا : هو مسجد دمشق .

وقال أبو بكر أحمد بن عبد الله بن الفرج المعروف بابن البرامى الدمشقى : ثنا إبراهيم بن مروان سمعت أحمد بن إبراهيم بن ملاس يقول : سمعت عبد الرحمن بن يحيى بن إسماعيل بن عبيد الله بن أبى المهاجر قال : كان خارج باب الساعات صخرة يوضع عليها القربان ، فما تقبل منه جاءت نار فأكلته ، ومالم يتقبل منه بقى على حاله . قلت : وهذه الصخرة نقلت إلى داخل باب الساعات ، وهى موجودة إلى الآن ، وبعض العامة يزعم أنها الصخرة التى وضع عليها ابنا آدم قربانهما فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، فالله أعلم .

وقال هشام بن عمار : ثنا الحسن بن يحيى الحسنى أن رسول الله ص ليلة أسرى به « صلى فى موضع مسجد دمشق » قال ابن عساكر : وهذا منقطع ومنكر جداً ، ولا يثبت أيضاً لا من هذا الوجه ولا من غيره . وقال أبو بكر البرامى : حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك بن المغيرة المقرى حدثنى أبى عن أبيه أن الوليد بن عبد الملك تقدم إلى القوام ليلة من الليالى فقال : إنى أريد أن أصلى الليلة فى المسجد ، فلا تتركوا أحداً يصلى الليلة ، فقال له بعضهم : يا أمير المؤمنين هذا

---

(١) فى الأصل « قال دمشق » . وصححناه من حديث قتادة فى تاريخ ابن عساكر ١ : ١٩٦

الخضر يصلى فى المسجد فى كل ليلة ، وفى رواية أنه قال لهم : لاتتركوا أحـداً يدخله ، ثم إن الوليد أتى باب الساعات فاستفتح الباب ففتح له ، فاذا رجل قائم بين الساعات وباب الخضراء الذى يلى المقصورة يصلى ، وهو أقرب إلى باب الخضراء منه إلى باب الساعات ، فقال الوليد للقوام : ألم آمركم أن لاتتركوا أحداً الليلة يصلى فى المسجد ؟ فقال له بعضهم : يا أمير المؤمنين هـذا الخضر يصلى كل ليلة فى المسجد » . فى إسـناد هـذه الحكاية وصحتها نظر ، ولايثبت بمثلها وجود الخضر بالكلية ، ولاصلاته فى المكان المذكور والله أعلم .

وقد اشتهر فى الأعصار المتأخرة أن الزاوية القبلية عند باب المأذنة الغربية تسمى زاوية الخضر ، وما أدرى ماسبب ذلك ، والذى ثبت بالتواتر صلاة الصحابة فيه ، وكفى بذلك شرفاً له ولغـيره من المساجد التى صلوا فيها ، وأول من صلى فيه إماما أبوعبيدة بن الجراح ، وهو أمير الأمراء بالشام ، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأمين هذه الأمة ، وصلى فيه خلق من الصحابة مثل معاذ بن جبل وغيره لكن قبل أن يغيره الوليد إلى هذه الصفة ، فأما بعد أن غير إلى هذا الشكل فلم يره أحد من الصحابة كذلك إلا أنس بن مالك ، فانه ورد دمشق سنة ثنتين وتسعين ، وهو يبنى فيـه الوليد ، فصلى فيـه أنس ورأى الوليد وأنكر أنس على الوليد تأخير الصلاة إلى آخر وقتها كما قدمنا ذلك فى ترجمة أنس ، عند ذكر وفاته سـنة ثلاث وتسعين ، وسيصلى فيـه عيسى بن مريم إذا نزل فى آخر الزمان ، إذا خرج الدجال وعمت البلوى به ، وانحصر الناس منـه بدمشق ، فينزل مسيح الهـدى فيقتل مسيح الضلالة ، ويكون نزوله على المنارة الشرقية بدمشق وقت صـلاة الفجر ، فيأتى وقـد أقيمت الصـلاة فيقول له إمام الناس : تقدم ياروح الله ، فيقول : إنما أقيمت لك ، فيصلى عيسى تلك الصلاة خلف رجل من هذه الأمة ، يقال إنه المهدى فالله أعلم .

ثم يخرج عيسى بالناس فيدرك الدجال عند عقبة أفيق ، وقيل بباب لد فيقتله بيده هنالك . وقـد ذكرنا ذلك مبسوطا عنـد قوله تعالى [وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته] وفى الصحيح عن النبى (ص.) : « والذى نفسى بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكما مقسطا ، وإماماً عادلا ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ، ولا يقبل إلا الاسلام » .

والمقصود أن عيسى ينزل على المنارة الشرقيـة بدمشق ، والبلد محصور محصن من الدجال ، فينزل على المنارة ـ وهى هذه المنارة المبنية فى زماننا من أموال النصارى ـ ثم يكون نزول عيسى حتفا لهم وهلاكا ودماراً عليهم ، ينزل بين ملكين واضعاً يديه على مناكبهما ، وعليه مهروذتان ؛ وفى رواية ممصرتان [١] يقطر رأسه ماء كأنما خرج من دماس ، وذلك وقت الفجر ، فينزل على المنارة

(١) الممصرة من الثياب التى فيها صفرة خفيفة .

وقد أقيمت الصلاة ، وهذا إنما يكون فى المسجد الأعظم بدمشق ، وهو هذا الجامع . وما وقع فى صحيح مسلم من رواية النواس بن سمعان الكلابى : فينزل على المنارة البيضاء شرقى دمشق ، كأنه والله أعلم مروى بالمعنى بحسب ما فهمه الراوى ، و إنما هو ينزل على المنارة الشرقية بدمشق ، وقد أخبرت ولم أقف عليه إلى الآن أنه كذلك ، فى بعض ألفاظ هذا الحديث ، فى بعض المصنفات ، والله المسؤل المأمول أن يوفقنى فيوقفنى على هذه اللفظة ، وليس فى البلد منارة تعرف بالشرقية سوى هذه ، وهى بيضاء بنفسها ، ولا يعرف فى بلاد الشام منارة أحسن منها ، ولا أبهى ولا أعلى منها ، ولله الحمد والمنة

[قلت : نزول عيسى على المنارة التى بالجامع الأموى غير مستنكر ، وذلك أن البلاء بالدجال يكون قد عم فينحصر الناس داخل البلد ، و يحصرهم الدجال بها ، ولا يتخلف أحد عن دخول البلد إلا أن يكون متبعا للدجال ، أو مأسوراً معه ، فان دمشق فى آخر الزمان تكون معقل المسلمين وحصنهم من الدجال ، فاذا كان الأمر كذلك فمن يصلى خارج البلد ، والمسلمون كلهم داخل البلد ، وعيسى إنما ينزل وقد أقيمت الصلاة فيصلى مع المسلمين ، ثم يأخذهم و يطلب الدجال ليقتله ، و بعض العوام يقول : إن المراد بالمنارة الشرقية بدمشق ، منارة مسجد بلاشو ، خارج باب شرقى . و بعضهم يقول: إنها المنارة التى على نفس باب شرقى . فالله أعلم بمراد رسول الله ﷺ ، وهو سبحانه العالم بكل شئ ، المحيط بكل شئ ، القادر على كل شئ ، القاهر فوق كل شئ ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض] (١)

الكلام على ما يتعلق برأس يحي بن زكريا عليهما السلام

و روى ابن عساكر عن زيد بن واقد قال : وكلنى الوليد على العمال فى بناء جامع دمشق ، فوجدنا فيه مغارة فعرفنا الوليد ذلك ، فلما كان الليل وافانا و بين يديه الشمع ، فنزل فاذا هى كنيسة لطيفة ، ثلاثة أذرع فى ثلاثة أذرع ، و إذا فيها صندوق ، ففتح الصندوق فاذا فيه سفط و فى السفط رأس يحيى ابن زكريا عليهما السلام . مكتوب عليه هذا رأس يحيى بن زكرياء ، فأمر به الوليد فرد إلى مكانه ، وقال : اجعلوا العمود الذى فوقه مغيراً من بين الأعمدة ، فجعل عليه عمود مسفط الرأس ، وفى رواية عن زيد بن واقد أن ذلك الموضع كان تحت ركن من أركان القبة ــ يعنى قبل أن تبنى ــ قال : وكان على الرأس شعر و بشر . وقال الوليد بن مسلم عن زيد بن واقد قال : حضرت رأس يحيى بن زكريا وقد أخرج من الليطة القبلية الشرقية التى عند مجلس بجيلة ، فوضع تحت عمود السكاسة ، قال الأوزاعى والوليد بن مسلم : هو العمود الرابع المسفط . و روى أبو بكر بن البرامى عن أحمد بن أنس ابن مالك عن حبيب المؤذن عن أبى زياد وأبى أمية الشعنابيين عن سفيان الثورى أنه قال : صلاة

---

(١) زيادة من المصرية .

فى مسجد دمشق بثلاثين ألف صلاة . وهذا غريب جداً . وروى ابن عساكر من طريق أبى مسهر عن المنذر بن نافع ـ مولى أم عمرو بنت مروان ـ عن أبيه ـ وفى رواية عن رجل قد سماه ـ أن واثلة ابن الأسقع خرج من باب المسجد الذى يلى باب جيرون فلقيه كعب الأحبار فقال : أين تريد ؟ قال واثلة : أريد بيت المقدس . فقال : تعال أريك موضعاً فى المسجد من صلى فيه فكأنما صلى فى بيت المقدس ، فذهب به فأراه مابين الباب الأصفر الذى يخرج منه الوالى ـ يعنى الخليفة ـ إلى الحنية ـ يعنى القنطرة الغربية ـ فقال : من صلى فيما بين هذين فكأنما صلى فى بيت المقدس ، فقال واثلة : إنه لمجلسى ومجلس قومى . قال كعب : هو ذاك . وهذا أيضاً غريب جداً ومنكر ولا يعتمد على مثله .

وعن الوليد بن مسلم قال : لما أمر الوليد بن عبد الملك ببناء مسجد دمشق وجدوا فى حائط المسجد القبلى لوحا من حجر فيه كتاب نقش ، فبعثوا به إلى الوليد فبعثه إلى الروم فلم يستخرجوه ، ثم بعث إلى من كان بدمشق من بقية الأسبان فلم يستخرجوه ، فدل على وهب بن منبه فبعث إليه ، فلما قدم عليه أخبره بموضع ذلك اللوح فوجدوه فى ذلك الحائط ـ ويقال ذلك الحائط بناه هود عليه السلام ـ فلما نظر إليه وهب حرك رأسه وقرأه فاذا هو :

بسم الله الرحمن الرحيم ، ابن آدم لو رأيت يسير مابقى من أجلك ، لزهدت فى طول ما ترجو من أملك ، وإنما تلقى ندمك لو قد زل بك قدمك . وأسلمك أهلك وحشمك ، وانصرف عنك الحبيب وأسلمك الصاحب والقريب ، ثم صرت تدعى فلا تجيب ، فلا أنت إلى أهلك عائد ، ولا إلى عملك زائد ، فاعمل لنفسك قبل يوم القيامة ، وقبل الحسرة والندامة ، قبل أن يحل بك أجلك ، وتنزع منك روحك ، فلا ينفعك مال جمعته ، ولا ولد ولدته ، ولا أخ تركته ، ثم تصير إلى برزخ الثرى ، ومجاور الموتى ، فاغتنم الحياة قبل الممات ، والقوة قبل الضعف ، والصحة قبل السقم ، قبل أن تؤخذ بالكظم ويحال بينك وبين العمل ، وكتب فى زمن [1] داود عليهما السلام .

وقال ابن عساكر : قرأت على أبى محمد السلمى عن عبد العزيز التميمى أنبأ تمام الرازى ثنا ابن البرامى سمعت أبا مروان عبد الرحمن بن عمر المازنى يقول : لما كان فى أيام الوليد بن عبد الملك وبنائه المسجد احتفروا فيه موضعاً فوجدوا بابا من حجارة مغلقا ، فلم يفتحوه وأعلموا به الوليد ، فخرج حتى وقف عليه ، وفتح بين يديه ، فاذا داخله مغارة فيها تمثال إنسان من حجارة ، على فرس من حجارة ، فى يد التمثال الواحدة الدرة التى كانت فى المحراب ، ويده الأخرى مقبوضة ، فأمر بها فكسرت ، فاذا فيها حبتان ، حبة قمح وحبة شعير ، فسأل عن ذلك فقيل له لو تركت الكف لم تكسرها لم يسوس فى هذا البلد قمح ولا شعير . وقال الحافظ أبو حمدان الوراق ـ وكان قد عمر مائة

(١) كذا بالأصول ، ولعله سقط منه لفظ « سليمان بن » .

سنة - : سمعت بعض الشيوخ يقول : لما دخل المسلمون دمشق وجدوا على العمود الذى على المقسلاط - على السفود الحديد الذى فى أعلاه - صنما ماداً يده بكف مطبقة ، فكسروه فاذا فى يده حبة قمح ، فسألوا عن ذلك فقيل لهم : هـذه الحبة قمح جعلها حكماء اليونان فى كف هـذا الصنم طلسما ، حتى لايسوس القمح فى هـذه البلاد ، ولو أقام سنين كثيرة . قال ابن عساكر : وقـد رأيت أنا فى هذا السفود على قناطر كنيسة المقسلاط كانت مبنية فوق القناطر التى فى السوق الكبير ، عند الصابونيين والعطارين اليوم ، وعندها اجتمعت جيوش الاسلام يوم فتح دمشق ، أبو عبيدة من باب الجابية ، وخالد من باب الشرق ، ويزيد بن أبى سفيان من باب الجابيـة الصغير . وقال عبـد العزيز التميمى عن أبى نصر عبد الوهاب بن عبد الله المرى : سمعت جماعة من شيوخ أهل دمشق يقولون : إن فى سقف الجامع طلاسم عملها الحكماء فى السقف مما يلى الحائط القبلى ، فيهـا طلاسم للصنونيات ، لا تدخله ولا تعشش فيه من جهة الأوساخ التى تكون منها ، ولايدخله غراب ، وطلسم للفأر والحيات والعقارب ، فما رأى الناس من هـذا شيئا إلا الفأر ، ويشك أن يكون قد عـدم طلسمها ، وطلسم للعنكبوت حتى لا ينسج فيه ، وفى رواية فيركبه الغبار والوسخ . قال الحافظ ابن عساكر : وسمعت جدى أبا الفضل يحيى بن على يذكر أنه أدرك فى الجامع قبل حريقه طلسمات لسائر الحشرات ، معلقة فى السقف فوق البطائن مما يلى السبع ، وأنه لم يكن يوجد فى الجامع شئ من الحشرات قبل الحريق . فلما احترقت الطلسمات حين أحرق الجامع ليلة النصف من شعبان بعد العصر سـنة إحدى وستين وأربعمائة ، وقـد كانت بدمشق طلسمات كثيرة ، ولم يبق منها سوى العمود الذى بسوق العلبيين الذى فى أعلاه مثل الكرة العظيمة ، وهى لعسر بول الدواب ، إذا داروا بالدابة حوله ثلاث مرات انطلق باطنها . وقد كان شيخنا ابن تيمية رحمه الله يقول : إنما هذا قبر مشرك مفرد مدفون هنالك يعذب ، فاذا سمعت الدابة صراخه فزعت فانطلق باطنها وطبعها ، قال : ولهذا يذهبون بالدواب إلى مقابر اليهود والنصارى إذا مغلت فتنطلق طباعها وتروث ، وماذاك إلا أنها تسمع أصواتهم وهم يعذبون والله أعلم .

ذكر الساعات التي على بابه

قال القاضى عبد الله بن أحمد بن زبر : إنما سمى باب الجامع القبلى باب الساعات لأنه عمل هناك بلنكار الساعات ، كان يعمل بها كل ساعة تمضى من النهار ، عليها عصافير من نحاس ، وحيـة من نحاس وغراب ، فاذا تمت الساعة خرجت الحية فصفرت العصافير وصاح الغراب وسقطت حصاة فى الطست فيعلم الناس أنه قد ذهب من النهار ساعة ، وكذلك سائرها . قلت : هذا يحتمل أحد شيئين إما أن تكون الساعات كانت فى الباب القبلى من الجامع ، وهو الذى يسمى باب الزيادة ، ولكن قد قيل إنه محدث بعد بناء الجامع ، ولاينفى ذلك أن الساعات كانت عنـده فى زمن القاضى ابن زبر ،

و إما أنه قد كان فى الجامع فى الجانب الشرقى منه فى الحائط القبلى باب آخر فى محاكاة باب الزيادة ، وعنده الساعات ثم نقلت بعد هذا كله إلى باب الوراقين اليوم ، وهو باب الجامع من الشرق والله أعلم.

[قلت : باب الوراقين قبلى أيضا ، فيضاف إلى الجامع نسبة إلى من يدخل منه إلى الجامع والله أعلم ، أو لمجارته للجامع ولبابه] [1]

قلت : فأما القبة التى فى وسط صحن الجامع التى فيها الماء الجارى ، ويقول العامة لها قبة أبى نواس فكان بناؤها فى سنة تسع وستين وثلاثمائة أرخ ذلك ابن عساكر عن خط بعض الدماشقة . وأما القبة الغربية العالية التى فى صحن الجامع التى يقال لها قبة عائشة ، فسمعت شيخنا الذهبى يقول : إنها إنما بنيت فى حدود سنة ستين ومائة فى أيام المهدى بن منصور العباسى ، وجعلوها لحواصل الجامع وكتب أوقافه ، وأما القبة الشرقية التى على باب مسجد على فيقال :إنها بنيت فى زمن الحاكم العبيدى فى حدود سنة أربع ومائة . وأما الفوارة التى تحت درج جيرون فعملها الشريف فخر الدولة أبو على حمزة بن الحسن بن العباس الحسنى ، وكأنه كان ناظراً بالجامع ، وجر إليها قطعة من حجر كبير من قصر حجاج ، وأجرى منها الماء ليلة الجمعة لسبع ليال خلون من ربيع الاول سنة سبع عشرة وأربعمائة وعملت حولها قناطر ، وعقد عليها قبة ، ثم سقطت القبة بسبب جمال تحاكّت عندها وازدحمت ، وذلك فى صفر سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، فأعيدت ثم سقطت أعمدتها وما عليها من حريق اللبادين والحجارة فى شوال سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، ذكر ذلك كله الحافظ ابن عساكر .

قلت : وأما القصعة التى كانت فى الفوارة ، فما زالت وسطها ، وقد أدركتها كذلك ، ثم رفعت بعد ذلك . وكان بطهارة جيرون قصعة أخرى مثلها ، فلم تزل بها إلى أن تهدمت اللبادين بسبب حريق النصارى فى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، ثم استؤنف بناء الطهارة على وجه آخر أحسن مما كانت ، وذهبت تلك القصعة فلم يبق لها أثر ، ثم عمل الشاذروان الذى شرقى فوارة جيرون ، بعد الخمسمائة ـ أظنه ـ سنة أربع عشرة وخمسمائة والله سبحانه وتعالى أعلم .

ذكر ابتداء امر السبع بالجامع الاموي

قال أبو بكر بن أبى داود : ثنا أبو عباس موسى بن عامر المرى ثنا الوليد ـ هو ابن مسلم ـ قال قال أبو عمر الأوزاعى عن حسان بن عطية قال : الدراسة محدثة أحدثها هشام بن إسماعيل المخزومى ، فى قدمة قدمها على عبد الملك ، فحجبه عبد الملك فجلس بعد الصبح فى مسجد دمشق فسمع قراءة فقال : ماهذا ؟ فأخبر أن عبد الملك يقرأ فى الخضراء ، فقرأ هشام بن إسماعيل ، فجعل عبد الملك يقرأ بقراءة هشام ، فقرأ بقراءته مولى له ، فاستحسن ذلك من يليه من أهل المسجد فقرأوا بقراءته . وقال هشام

(١) زيادة من المصرية .

ابن عمار خطيب دمشق : ثنا أيوب بن حسان ثنا الأوزاعى ثنا خالد بن دهقان قال : أول من أحدث القراءة فى مسجد دمشق هشام بن إسماعيل بن المغيرة المخزومى ، وأول من أحدث القراءة بفلسطين الوليد بن عبد الرحمن الجرشى . قلت : هشام بن إسماعيل كان نائبا على المدينة النبوية ، وهو الذى ضرب سعيد بن المسيب لما امتنع من البيعة للوليد بن عبد الملك ، قبل أن يموت أبوه ، ثم عزله عنها الوليد وولى عليها عمر بن عبد العزيز ، كما ذكرنا .

وقد حضر هذا السبع جماعات من سادات السلف من التابعين بدمشق ، منهم هشام بن إسماعيل ومولاه رافع وإسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر ، وكان مكتباً لأولاد عبد الملك بن مروان ، وقد ولى إمرة إفريقيه لهشام بن عبد الملك وابنيه عبد الرحمن ومروان . وحضره من القضاة أبو إدريس الخولانى ، ونمير بن أوس الأشعرى ، ويزيد بن أبى الهمدانى ، وسالم بن عبد الله المحاربى ، ومحمد ابن عبد الله بن لبيد الأسدى . ومن الفقهاء والمحدثين والحفاظ المقرئين أبو عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى معاوية ، ومكحول ، وسليمان بن موسى الأشدق ، وعبد الله بن العلاء بن زبر ، وأبو إدريس الأصغر عبد الرحمن بن عراك ، وعبد الرحمن بن عامر اليحصبى - أخو عبد الله بن عامر - ويحيى بن الحارث الدمارى ، وعبد الملك بن نعمان المرى ، وأنس بن أنس العذرى ، وسليمان ابن بذيغ القارى ، وسليمان بن داود الخشنى ، وعران - أو هران - بن حكيم القرشى ، ومحمد بن خالد ابن أبى ظبيان الأزدى ، ويزيد بن عبيدة بن أبى المهاجر ، وعباس بن دينار وغيرهم . هكذا أوردهم ابن عساكر . قال : وقد روى عن بعضهم أنه كره اجتماعهم وأنكره ، ولاوجه لانكاره . ثم ساق من طريق أبى بكر بن أبى داود : ثنا عمرو بن عثمان ثنا الوليد - هو ابن مسلم - عن عبد الله بن العلاء قال : سمعت الضحاك بن عبد الرحمن بن عروب ينكر الدراسة ويقول : ما رأيت ولاسمعت ، وقد أدركت أصحاب النبى (ص) . قال ابن عساكر : وكان الضحاك بن عبد الرحمن أميراً على دمشق فى أواخر سنة ست وثمانين [1] فى خلافة عمر بن عبد العزيز .

فصل

كان ابتداء عمارة جامع دمشق فى أواخر سنة ست وثمانين ، هدمت الكنيسة التى كانت موضعه فى ذى القعدة منها ، فلما فرغوا من الهدم شرعوا فى البناء ، وتكامل فى عشر سنين ، فكان الفراغ منه فى هذه السنة - أعنى سنة ست وتسعين - وفيها توفى بانيه الوليد بن عبد الملك ، وقد بقيت فيه بقايا فكملها أخوه سليمان كما ذكرنا . فأما قول يعقوب بن سفيان : سألت هشام بن عمار عن قصة مسجد

---

(١) كذا بالأصول . والصواب : فى سنة تسع وتسعين .

دمشق وهذه الكنيسة قال : كان الوليد قال للنصارى : ماشئتم انا أخذنا كنيسة توما عنوة وكنيسة الداخلة صلحاً ، فأنا أهدم كنيسة توما - قال هشام وتلك أكبر من هذه الداخلة - قال فرضوا أن يهدم كنيسة الداخلة وأدخلها فى المسجد ، قال : وكان بابها قبلة المسجد اليوم ، وهو المحراب الذى يصلى فيه ، قال : وهدم الكنيسة فى أول خلافة الوليد سنة ست وثمانين ، ومكثوا فى بنائها سبع سنين حتى مات الوليد ولم يتم بناءه ، فأتمه هشام من بعده ففيه فوائد وفيه غلط ، وهو قوله إنهم مكثوا فى بنائه سبع سنين ، والصواب عشر سنين ، فانه لاخلاف أن الوليد بن عبد الملك توفى فى هذه السنة - أعنى سنة ست وتسعين - وقد حكى أبو جعفر بن جرير على ذلك إجماع أهل السير ، والذى أتم مابقى من بنائه أخوه سليمان لاهشام والله سبحانه وتعالى أعلم .

[قلت : نقل من خط ابن عساكر وقد تقدم ، وقد جددت فيه بعد ذلك أشياء ، منها القباب الثلاث التى فى صحنه . وقد تقدم ذكرها . وقيل إن القبة الشرقية عمرت فى أيام المستنصر العبيدى فى سنة خمسين وأربعمائة وكتب عليه اسمه واسم الاثنى عشر الذين تزعم الرافضة أنهم أئمتهم ، وأما العمودان الموضوعان فى صحنه فجعلا للتنوير ليالى الجمع ، وصنعا فى رمضان سنة إحدى وأربعين وأربعمائة ، بأمر قاضى البلد أبى محمد] (١)

وهذه ترجمة الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق وذكر وفاته في هذا العام

هو الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، أبو العباس الأموى ، بويع له بالخلافة بعد أبيه بعهد منه فى شوال سنة ست وثمانين ، وكان أكبر ولده ، والولى من بعده ، وأمه ولادة بنت العباس بن حزن بن الحارث بن زهير العبسى . وكان مولده سنة خمسين ، وكان أبواه يترفانه ، فشب بلا أدب ، وكان لايحسن العربية ، وكان طويلا أسمر به أثر جدرى خفى ، أفطس الأنف سائله ، وكان إذا مشى يتوكف فى المشية - أى يتبختر - وكان جميلا وقيل دميما ، قد شاب فى مقدم لحيته ، وقد رأى سهل بن سعد وسمع أنس بن مالك لما قدم عليه سأله ماسمع فى أشراط الساعة ، كما تقدم فى ترجمة أنس ، وسمع سعيد بن المسيب وحكى عن الزهرى وغيره

وقد روى أن عبد الملك أراد أن يعهد إليه ثم توقف لأنه لايحسن العربية فجمع الوليد جماعة من أهل النحو عنده فأقاموا سنة ، وقيل ستة أشهر ، فخرج يوم خرج أجهل مما كان ، فقال عبد الملك : قد أجهد وأعذر ، وقيل إن أباه عبد الملك أوصاه عند موته فقال له : لا ألفينك إذا مت تجلس تعصر عينيك ، وتحن حنين الأمة ، ولكن شمر وائتزر ، ودلنى فى حفرتى ، وخلنى وشأنى ، وادع الناس إلى البيعة ، فمن قال برأسه هكذا فقل بسيفك هكذا . وقال الليث : وفى سنة ثمان وتسعين (٢) غزا الوليد

---

(١) زيادة من المصرية . (٢) كذا بالأصول . وفيها تحريف ظاهر لأنه مات سنة ٩٦ هـ .

بلاد الروم ، وفيها حج بالناس أيضاً . وقال غيره : غزا فى التى قبلها وفى التى بعدها بلاد ملطية وغيرها ، وكان نقش خاتمه أو من بالله مخلصاً . وقيل كان نقشه ياوليد إنك ميت ، ويقال إن آخر ماتكلم به سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله ، وقال إبراهيم بن أبى عبلة قال لى الوليد بن عبد الملك يوما : فى كم تختم القرآن ؟ قلت فى كذا وكذا ، فقال : أمير المؤمنين على شغله يختمه فى كل ثلاث ، وقيل فى كل سبع ، قال : وكان يقرأ فى شهر رمضان سبع عشرة ختمة . قال إبراهيم رحمه الله : الوليد وأين مثله ؟ بنى مسجد دمشق ، وكان يعطينى قطع الفضة فأقسمها على قراء بيت المقدس .

وروى ابن عساكر باسناد رجاله كلهم ثقات عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبيه قال : خرج الوليد يوماً من الباب الأصغر فرأى رجلا عند المئذنة الشرقية يأكل شيئا ، فأتاه فوقف عليه فاذا هو يأكل خبزا وتراباً ، فقال له : ماحملك على هذا ؟ قال : القنوع يا أمير المؤمنين ، فذهب إلى مجلسه ثم استدعى به فقال : إن لك لشأنا فأخبرنى به وإلا ضربت الذى فيه عيناك ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين كنت رجلا حمالا ، فبينما أنا أسير من مرج الصفر قاصدا إلى الكسوة ، إذ زرمنى البول فعدلت إلى خربة لأبول ، فاذا سرب فحفرته فاذا مال صبيب ، فملأت منه غرائرى ، ثم انطلقت أقود رواحلى وإذا بمخلاة معى فيها طعام فألقيته منها ، وقلت : إنى سآتى الكسوة ، ورجعت إلى الخربة لأملأ تلك المخلاة من ذلك المال فلم أهتد إلى المكان بعد الجهد فى الطلب ، فلما أيست رجعت إلى الرواحل فلم أجدها ولم أجد الطعام ، فآليت على نفسى أنى لا آكل إلا خبزا وترابا . قال : فهل لك عيال ؟ قال نعم ، ففرض له فى بيت المال .

قال ابن جرير : وبلغنا أن تلك الرواحل سارت حتى أتت بيت المال فتسلمها حارسه فوضعها فى بيت المال ، وقيل إن الوليد قال له : ذلك المال وصل إلينا واذهب إلى إبلك فخذها ، وقيل إنه دفع إليه شيئا من ذلك المال يقيته وعياله . وقال نمير بن عبد الله الشعنانى عن أبيه قال قال الوليد بن عبد الملك : لولا أن الله ذكر قوم لوط فى القرآن ما ظننت أن ذكرا يفعل هذا بذكر .

[قلت : فنفى عن نفسه هذه الخصلة القبيحة الشنيعة ، والفاحشة المذمومة ، التى عذب الله أهلها بأنواع العقوبات ، وأحل بهم أنواعا من المثلات ، التى لم يعاقب بها أحداً من الأمم السالفات ، وهى فاحشة اللواط التى قد ابتلى بها غالب الملوك والأمراء ، والتجار والعوام والكتاب ، والفقهاء والقضاة ونحوهم ، إلا من عصم الله منهم ، فان فى اللواط من المفاسد ما يفوت الحصر والتعداد ، ولهذا تنوعت عقوبات فاعليه ، ولأن يقتل المفعول به خير من أن يؤتى فى دبره ، فانه يفسد فسادا لا يرجى له بعده صلاح أبداً ، إلا أن يشاء الله ، ويذهب خبر المفعول به . فعلى الرجل حفظ ولده فى حال صغره وبعد بلوغه ، وأن يجنبه مخالطة هؤلاء الملاعين ، الذين لعنهم رسول الله (ص) .

وقد اختلف الناس : هل يدخل الجنة مفعول به ؟ على قولين ، والصحيح فى المسألة أن يقال إن المفعول به إذا تاب توبة صحيحة نصوحاً ، ورزق إنابة إلى الله وصلاحا ، و بدل سيئاته بحسنات ، وغسل عنه ذلك بأنواع الطاعات ، وغض بصره وحفظ فرجه ، وأخلص معاملته لربه ، فهذا إن شاء الله مغفور له ، وهو من أهل الجنة ، فان الله يغفر الذنوب للتائبين إليه [ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون] [ومن تاب وأصلح فان الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم]. وأما مفعول به صار فى كبره شراً منه فى صغره ، فهذا توبته متعذرة ، و بعيد أن يؤهل لتوبة صحيحة ، أو لعمل صالح يمحو به ما قد سلف ، ويخشى عليه من سوء الخاتمة ، كما قد وقع ذلك لخلق كثير ماتوا بأدرانهم وأوساخهم ، لم يتطهروا منها قبل الخروج من الدنيا ، و بعضهم ختم له بشر خاتمة ، حتى أوقعه عشق الصور فى الشرك الذى لا يغفره الله . وفى هذا الباب حكايات كثيرة وقعت للوطية وغيرهم من أصحاب الشهوات يطول هذا الفصل بذكرها .

والمقصود أن الذنوب والمعاصى والشهوات تخذل صاحبها عند الموت مع خذلان الشيطان له ، فيجتمع عليه الخذلان مع ضعف الايمان . فيقع فى سوء الخاتمة . قال الله تعالى [وكان الشيطان للانسان خذولا] بل قد وقع سوء الخاتمة لخلق لم يفعلوا فاحشة اللواط ، وقد كانوا متلبسين بذنوب أهون منها . وسوء الخاتمة أعاذنا الله منها لا يقع فيها من صلح ظاهره و باطنه مع الله ، وصدق فى أقواله وأعماله ، فان هذا لم يسمع به كما ذكره عبد الحق الاشبيلى ، و إنما يقع سوء الخاتمة لمن فسد باطنه عقداً ، وظاهره عملا ، ولمن له جرأة على الكبائر ، و إقدام على الجرائم ، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة .

والمقصود أن مفسدة اللواط من أعظم المفاسد ، وكانت لاتعرف بين العرب قديما كما قد ذكر ذلك غير واحد منهم . فلهذا قال الوليد بن عبد الملك : لولا أن الله عز وجل قص علينا قصة قوم لوط فى القرآن ماظننت أن ذكراً يعلو ذكرا . وفى حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى (ص.) قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » . رواه أهل السنن وصححه ابن حبان وغيره . وقد لعن النبى (ص.) من عمل عمل قوم لوط ثلاث مرات ، ولم يلعن على ذنب ثلاث مرات إلا عليه ، و إنما أمر بقتل الفاعل والمفعول به لأنه لاخير فى بقائهما بين الناس ، لفساد طويتهما ، وخبث بواطنهما ، فمن كان بهذه المثابة فلا خير للخلق فى بقائه ، فاذا أراح الله الخلق منهما صلح لهم أمر معاشهم ودينهم . وأما اللعنة فهى الطرد والبعد ، ومن كان مطروداً مبعداً عن الله وعن رسوله وعن كتابه وعن صالح عباده فلا خير فيه ولافى قربه ، ومن رزقه الله تعالى توسماً وفراسة ، ونوراً وفرقانا عرف من سحن الناس و وجوههم أعمالهم ، فان أعمال العمال بائنة ولائحة على وجوههم و فى أعينهم وكلامهم

وقد ذكر الله اللوطية وجعل ذلك آيات للمتوسمين فقال تعالى : [فأخذتهم الصيحة مشرقين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجين إن فى ذلك لآيات للمتوسمين] ومابعدها .وقال تعالى : [أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ، ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم أعمالكم ، ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم] ونحوذلك من الآيات والأحاديث . فاللوطى قد عكس الفطرة ، وقلب الأمر ، فأتى ذكراً فقلب الله قلبه ، وعكس عليه أمره ، بعد صلاحه وفلاحه ، إلا من تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى

وخصال التائب قد ذكرها الله فى آخر سورة براءة ، فقال : [التائبون العابدون] فلابد للتائب من العبادة والاشتغال بالعمل للآخرة ، و إلا فالنفس همامة متحركة ، إن لم تشغلها بالحق و إلا شغلتك بالباطل ، فلا بد للتائب من أن يبدل تلك الأوقات التى مرت له فى المعاصى بأوقات الطاعات ، وأن يتدارك مافرط فيها وأن يبدل تلك الخطوات بخطوات إلى الخير ، و يحفظ لحظاته وخطواته ، ولفظاته وخطراته . قال رجل للجنيد : أوصنى ، قال : توبة تحل الاصرار ، وخوف يزيل العزة ، و رجاء مزعج إلى طرق الخيرات ، ومراقبة الله فى خواطر القلب . فهذه صفات التائب . ثم قال الله تعالى [الحامدون السائحون الراكعون الساجدون] الآية فهذه خصال التائب كما قال تعالى : [التائبون] فكأن قائلا يقول : من هم ؟ قيل هم العابدون السائحون إلى آخر الآية ، و إلا فكل تائب لم يتلبس بعد توبته بما يقربه إلى من تاب إليه فهو فى بعد و إدبار ، لافى قرب و إقبال ، كما يفعل من اغتر بالله من المعاصى المحظورات ، و يدع الطاعات ، فان ترك الطاعات وفعل المعاصى أشد وأعظم من ارتكاب المحرمات بالشهوة النفسية . فالتائب هو من اتقى المحذورات ، وفعل المأمورات ، وصبر على المقدورات ، والله سبحانه وتعالى هو المعين الموفق ، وهو عليم بذات الصدور] (١)

قالوا : وكان الوليد لحانا كما جاء من غير وجه أن الوليد خطب يوماً فقرأ فى خطبته (يا ليتها كانت القاضية) فضم التاء من ليتها ، فقال عمر بن عبد العزيز : يا ليتها كانت عليك وأراحنا الله منك ، وكان يقول : يا أهلُ المدينة . وقال عبد الملك يوماً لرجل من قريش : إنك لرجل لو لا أنك تلحن ، فقال : وهذا ابنك الوليد يلحن ، فقال : لكن ابنى سليمان لا يلحن ، فقال الرجل : وأخى أبو فلان لا يلحن . وقال ابن جرير : حدثنى عمر ثنا على - يعنى ابن محمد المدائنى - قال : كان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام أفضل خلائفهم ، بنى المساجد بدمشق ، ووضع المنائر ، وأعطى الناس ، وأعطى المجذومين ، وقال لهم : لاتسألوا الناس ، وأعطى كل مقعد خادما ، وكل ضرير قائداً ، وفتح فى ولايته فتوحات كثيرة عظاما ، وكان يرسل بنيه فى كل غزوة إلى بلاد الروم ، ففتح الهند والسند

(١) زيادة من المصرية .

والاندلس وأقاليم بلاد العجم ، حتى دخلت جيوشه إلى الصين وغير ذلك ، قال : وكان مع هذا يمر بالبقال فيأخذ حزمة البقل بيده ويقول : بكم تبيع هـذه ؟ فيقول : بفلس ، فيقول : زد فيها فانك تربح . وذكروا أنه كان يبر حملة القرآن ويكرمهم ويقضى عنهم ديونهم ، قالوا : وكانت همة الوليد فى البناء ، وكان الناس كذلك يلقى الرجل الرجل فيقول : ماذا بنيت ؟ ماذا عمرت ؟ وكانت همة أخيـه سليمان فى النساء ، وكان الناس كذلك ، يلقى الرجل الرجل فيقول : كم تزوجت ؟ ماذا عنـدك من السرارى ؟ وكانت همة عمر بن عبـد العزيز فى قراءة القرآن ، وفى الصـلاة والعبادة ، وكان الناس كذلك ، يلقى الرجل الرجل فيقول : كم وردك ؟ كم تقرأ كل يوم ؟ ماذا صليت البارحة ؟ .

[والناس يقولون : الناس على دين مليكهم ، إن كان خماراً كثر الخمر ، وإن كان لوطيا فكذلك وإن كان شحيحاً حريصا كان الناس كذلك ، وإن كان جواداً كريما شجاعا كان الناس كذلك ، وإن كان طماعاً ظلوما غشوماً فكذلك ، وإن كان ذا دين وتقوى وبر وإحسان كان الناس كذلك وهذا يوجد فى بعض الأزمان وبعض الأشخاص ، والله أعلم] [(١)] .

وقال الواقدى : كان الوليد جباراً ذا سطوة شديدة لا يتوقف إذا غضب ، لجوجا كثير الأكل والجماع مطلاقا ، يقال إنه تزوج ثلاثاً وستين امرأة غير الاماء . قلت : يراد بهذا الوليـد بن يزيد الفاسق لا الوليد بن عبد الملك بانى الجامع والله أعلم .

قلت : بنى الوليد الجامع على الوجه الذى ذكرنا فلم يكن له فى الدنيا نظير ، وبنى صخرة بيت المقدس عقد عليها القبة ، وبنى مسجد النبى (ص) ، ووسعه حتى دخلت الحجرة التى فيها القبر فيه ؛ وله آثار حسان كثيرة جـداً ، ثم كانت وفاته فى يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة من هذه السنة ، قال ابن جرير : هذا قول جميع أهل السير ، وقال عمر بن على الفلاس وجماعة : كانت وفاته يوم السبت للنصف من ربيع الأول من هذه السنة ، عن ست وقيل ثلاث وقيل تسع وقيل أربع وأربعين سنة ، وكانت وفاته بدير مران ، فحمل على أعناق الرجال حتى دفن بمقابر باب الصغير ، وقيل بمقابر باب الفراديس ، حكاه ابن عساكر . وكان الذى صلى عليه عمر بن عبد العزيز [لأن أخاه سليمان كان بالقدس الشريف ، وقيل صلى عليه ابنه عبد العزيز] [(٢)] . وقيل بل صلى عليه أخوه سليمان ، والصحيح عمر بن عبد العزيز والله أعـلم . وهو الذى أنزله إلى قبره وقال حين أنزله : لننزلنه غير موسد ولا ممهد ، قد خلفت الأسلاب وفارقت الأحباب ، وسكنت التراب ، وواجهت الحساب ، فقيراً إلى ماقدمت ، غنيا عما أخرت . وجاء من غير وجـه عن عمر أنه أخبره أنه لما وضعه ـ يعنى الوليد ـ فى لحده ارتكض فى أكفانه ، وجمعت رجلاه إلى عنقه . وكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر على المشهور والله أعلم .

---

(١) ، (٢) زيادة من المصرية .

قال المدائني : وكان له من الولد تسعة عشر ولدا ذكرا ، وهم عبد العزيز ، ومحمد ، والعباس ، وإبراهيم ، وتمام وخالد وعبد الرحمن ومبشر ومسرور وأبو عبيدة وصدقة ومنصور ومروان وعنبسة وعمر وروح وبشر ويزيد ويحيى . فأم عبد العزيز ومحمد أم البنين بنت عمه عبد العزيز بن مروان ، وأم أبي عبيدة فزارية ، وسائرهم من أمهات أولاد شتى . قال المدائني : وقد رثاه جرير فقال :ـ

يا عينُ جودي بدمعٍ هاجَهُ الذِّكَرُ * فما لدمعكِ بعدَ اليومِ مدخرُ

إنَّ الخليفةَ قدْ وارتْ شمائلَهُ * غبراءُ مُلْحَدَةٌ في جُولها زورُ

أضحى بنوهُ وقد جلتْ مصيبتهمْ * مثلَ النجومِ هوى من بينها القمرُ

كانوا جميعاً فلم يدفعْ منيتهُ * عبدُ العزيزِ ولا روحٌ ولا عمرُ

وممن هلك أيام الوليد بن عبد الملك **زياد بن حارث التميمي** الدمشقي ، كانت داره غربي قصر الثقفيين ، روى عن حبيب بن مسلمة الفهري في النهي عن المسألة لمن له ما يغديه ويعشيه ، وفي النفل . ومنهم من زعم أن له صحبة ، والصحيح أنه تابعي . روى عنه عطية بن قيس ومكحول ويونس ابن ميسرة بن حابس ، ومع هذا قال فيه أبو حاتم : شيخ مجهول ، ووثقه النسائي وابن حبان ، روى ابن عساكر أنه دخل يوم الجمعة إلى مسجد دمشق وقد أخرت الصلاة ، فقال : والله ما بعث الله نبيا بعد محمد (ص) أمركم بهذه الصلاة هذا الوقت ، قال : فأخذ فأدخل الخضراء فقطع رأسه ، وذلك في زمن الوليد بن عبد الملك .

عبدالله بن عمر بن عثمان

أبو محمد ، كان قاضي المدينة ، وكان شريفاً كثير المعروف جواداً ممدحاً والله أعلم .

خلافة سليمان بن عبد الملك

بويع له بالخلافة بعد موت أخيه الوليد يوم مات ، وكان يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ، وكان سليمان بالرملة ، وكان ولي العهد من بعد أخيه عن وصية أبيهما عبد الملك

وقد كان الوليد قد عزم قبل موته على خلع أخيه سليمان ، وأن يجعل ولاية العهد من بعده لولده عبد العزيز بن الوليد ، وقد كان الحجاج طاوعه على ذلك وأمره به ، وكذلك قتيبة بن مسلم وجماعة، وقد أنشد في ذلك جرير وغيره من الشعراء قصائد ، فلم ينتظم ذلك له حتى مات ، وانعقدت البيعة إلى سليمان ، فخافه قتيبة بن مسلم وعزم على أن لا يبايعه ، فعزله سليمان وولى على إمرة العراق ثم خراسان يزيد بن المهلب ، فأعاده إلى إمرتها بعد عشر سنين ، وأمره بمعاقبة آل الحجاج بن يوسف ، وكان الحجاج هو الذي عزل يزيد عن خراسان . ولسبع بقين من رمضان من هذه السنة عزل سليمان عن إمرة المدينة عثمان بن حيان وولى عليها أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وكان أحد العلماء ، وقد

كان قتيبة بن مسلم حين بلغه ولاية سليمان الخلافة كتب إليه كتابا يعزيه فى أخيه ، ويهنئه بولايته ، ويذكر فيه بلاءه وعناءه وقتاله وهيبته فى صدور الأعداء ، وما فتح الله من البلاد والمدن والأقاليم الكبار على يديه ، وأنه له على مثل ما كان للوليد من الطاعة والنصيحة ، إن لم يعزله عن خراسان ، ونال فى هذا الكتاب من يزيد بن المهلب ، ثم كتب كتابا ثانيا يذكر مافعل من القتال والفتوحات وهيبته فى صدور الملوك والأعاجم ، ويذم يزيد بن المهلب أيضاً ، ويقسم فيه لئن عزله وولى يزيد ليخلعن سليمان عن الخلافة ، وكتب كتاباً ثالثا فيه خلع سليمان بالكلية ، وبعث بها مع البريد وقال له : ادفع اليه الكتاب الأول ، فان قرأه ودفعه إلى يزيد بن المهلب فادفع إليه الثانى ، فان قرأه ودفعه إلى يزيد ابن المهلب فادفع إليه الثالث ، فلما قرأ سليمان الكتاب الأول - واتفق حضور يزيد عند سليمان - دفعه إلى يزيد فقرأه ، فناوله البريد الكتاب الثانى فقرأه ودفعه إلى يزيد ، فناوله البريد الكتاب الثالث فقرأه فاذا فيه التصريح بعزله وخلعه ، فتغير وجهه ، ثم ختمه وأمسكه بيده ولم يدفعه إلى يزيد ، وأمر بانزال البريد فى دار الضيافة ، فلما كان من الليل بعث إلى البريد فأحضره ودفع إليه ذهبا وكتابا فيه ولاية قتيبة على خراسان ، وأرسل مع ذلك البريد بريداً آخر من جهته ليقرره عليها ، فلما وصلا بلاد خراسان بلغهما أن قتيبة قد خلع الخليفة ، فدفع بريد سليمان الكتاب الذى معه إلى بريد قتيبة ، ثم بلغهما مقتل قتيبة قبل أن يرجع بريد سليمان .

مقتل قتيبة بن مسلم رحمه الله

وذلك أنه جمع الجند والجيوش وعزم على خلع سليمان بن عبد الملك من الخلافة وترك طاعته ، وذكر لهم همته وفتوحه وعدله فيهم ، ودفعه الأموال الجزيلة إليهم ، فلما فرغ من مقالته لم يجبه أحد منهم إلى مقالته ، فشرع فى تأنيبهم وذمهم ، قبيلة قبيلة ، وطائفة طائفة ، فغضبوا عند ذلك ونفروا عنه وتفرقوا ، وعملوا على مخالفته ، وسعوا فى قتله ، وكان القائم بأعباء ذلك رجل يقال له وكيع بن أبى سود ، فجمع جموعاً كثيرة ، ثم ناهضه فلم يزل به حتى قتله فى ذى الحجة من هذه السنة ، وقتل معه أحد عشر رجلا من إخوته وأبناء إخوته ، ولم يبق منهم سوى ضرار بن مسلم ، وكانت أمه الغراء بنت ضرار بن القعقاع بن معبد بن سعد بن زرارة ، فحمته أخواله ، وعمرو بن مسلم كان عامل الجوزجان وقتل قتيبة وعبد الرحمن وعبد الله وعبيد الله وصالح ويسار ، وهؤلاء أبناء مسلم ، وأربعة من أبنائهم فقتلهم كلهم وكيع بن سود .

وقد كان قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين بن ربيعة أبوحفص الباهلى ، من سادات الأمراء وخيارهم ، وكان من القادة النجباء الكبراء ، والشجعان وذوى الحروب والفتوحات السعيدة ، والآراء الحميدة ، وقد هدى الله على يديه خلقا لا يحصيهم إلا الله ، فأسلموا ودانوا لله عز وجل ،

وفتح من البلاد والأقاليم الكبار والمدن العظام شيئا كثيراً كما تقدم ذلك مفصلا مبيناً ، والله سبحانه لا يضيع سعيه ولا يخيب تعبه وجهاده .

ولكن زل زلة كان فيها حتفه ، وفعل فعلة رغم فيها أنفه ، وخلع الطاعة فبادرت المنية إليه ، وفارق الجماعة فمات ميتة جاهلية ، لكن سبق له من الأعمال الصالحة ما قد يكفر الله به سيئاته ، ويضاعف به حسناته ، والله يسامحه ويعفو عنه ، ويتقبل منه ما كان يكابده من مناجزة الأعداء، وكانت وفاته بفرغانة من أقصى بلاد خراسان ، فى ذى الحجة من هذه السنة ، وله من العمر ثمان وأربعون سنة ، وكان أبوه أبو صالح مسلم فيمن قتل مع مصعب بن الزبير ، وكانت ولايته على خراسان عشر سنين ، واستفاد وأفاد فيها خيراً كثيراً ، وقد رثاه عبد الرحمن بن جمانة الباهلى فقال : —

كأن أبا حفصٍ قتيبة لم يسرْ * بجيشٍ إلى جيشٍ ولم يعلُ منبرا

ولم تخفقْ الراياتُ والقومُ حولهُ * وقوفٌ ولم يشهدْ له الناسُ عسكرا

دعتهُ المنايا فاستجاب لربهِ * وراحَ إلى الجناتِ عفاً مطهرا

فما رزئَ الاسلامُ بعد محمدٍ * بمثلِ أبى حفصٍ فبكّيهِ عَبْهَرا

ولقد بالغ هذا الشاعر فى بيته الأخير . وعبهر ولد له . وقال الطرماح فى هذه الوقعة التى قتل فيها على يد وكيع بن سود :

لو لا فوارسُ مذحجٍ ابنة مذحجٍ * والازدُ زعزعَ واستبيحَ العسكرُ

وتقطعتْ بهمُ البلادُ ولم يؤبْ * منهم إلى أهلِ العراقِ مخبرُ

واستضلعتْ عقدَ الجماعةِ وازدرى * أمرَ الخليفةِ واستحلَ المنكرُ

قومٌ همو قتلوا قتيبةَ عنوةً * والخيلَ جانحةٌ عليها العثيرُ

بالمرجِ مرجِ الصينِ حيثُ تبينتْ * مضرُ العراقِ منَ الأعزُّ الأكبرُ

إذ حالفتْ جزعاً ربيعةُ كلها * وتفرقتْ مضرٌ ومنْ يتمضرُ

وتقدمتْ ازدُ العراقِ ومذحجٌ * للموتِ يجمعها أبوها الأكبر

قحطانُ تضربُ رأسَ كلِ مدججٍ * تحمى بصائرهنَ إذْ لا تبصرُ

والازدُ تعلمُ أن تحتَ لوائها * مُلكاً قراسيةً وموتٌ أحمرُ

فبعزنا نصرَ النبىُّ محمدٌ * وبنا تثبتَ فى دمشقَ المنبرُ

وقد بسط ابن جرير هذه القصيدة بسطا كثيراً وذكر أشعاراً كثيرة جدا . وقال ابن خلكان وقال جرير يرثى قتيبة بن مسلم رحمه الله وسامحه ، وأكرم مثواه وعفا عنه :

ندمتم على قتلِ الأميرِ ابنِ مسلمٍ * وأنتمْ إذا لا قيتمُ اللهَ أندمُ

لقدْ كنتمْ من غزوهِ فى غنيمةٍ * وأنتمْ لمنْ لاقيتمُ اليومَ مغنمُ
على أنهُ أفضى إلى حورِ جنةٍ * وتطبقُ بالبلوى عليكمْ جهنمُ

قال : وقد ولى من أولاده وذريته جماعة الأمرة فى البلدان ، فمنهم عمر بن سعيد بن قتيبة بن مسلم وكان جواداً ممدحا ، رثاه حين مات أبو عمرو أشجع بن عمرو السلمى المرى نزيل البصرة يقول :

مضى ابنُ سعيدٍ حيثُ لم يبقَ مشرقٌ * ولا مغربٌ إلا له فيهِ مادحُ
وما كنتُ أدرى ما فواضلُ كفهِ * على الناسِ حتى غيبتهُ الصفائحُ
وأصبحَ فى لحدٍ من الأرضِ ضيقٍ * وكانتْ بهِ حياً تضيقُ الضحاضحُ
سأبكيكَ ما فاضتْ دموعى فإن تغضْ * فحسبكَ منى ما تجنُّ الجوانحُ
فما أنا منْ رزئى وإن جلَّ جازعٌ * ولا بسرورٍ بعدَ موتكَ فارحُ
كأنْ لم يمتْ حىٌّ سواكَ ولم تقمْ * على أحدٍ إلا عليكَ النوائحُ
لئنْ حسنتْ فيكَ المراثى وذكرها * لقد حسنتْ منْ قبلُ فيكَ المدائحُ

قال ابن خلكان : وهى من أحسن المراثى وهى فى الحماسة ، ثم تكلم على باهلة وأنها قبيلة مرذولة عند العرب ، قال : وقد رأيت فى بعض المجاميع أن الأشعث بن قيس قال : يارسول الله أتتكافأ دماؤنا ؟ قال : « نعم ! ولو قتلت رجلا من باهلة لقتلتك » . وقيل لبعض العرب : أيسرك أن تدخل الجنة وأنت باهلى ؟ قال : بشرط أن لا يعلم أهل الجنة بذلك . وسأل بعض الأعراب رجلا ممن أنت ؟ فقال : من باهلة ، فجعل يرثى له قال : وأزيدك أنى لست من الصميم وإنما أنا من مواليهم . فجعل يقبل يديه ورجليه ، فقال : ولم تفعل هذا ؟ فقال : لأن الله تعالى ما ابتلاك بهذه الرزية فى الدنيا إلا ليعوضك الجنة فى الآخرة .

ثم قال ابن جرير : وفى هذه السنة توفى قرة بن شريك العبسى أمير مصر وحاكمها . قلت : هو قرة بن شريك أمير مصر من جهة الوليد ، وهو الذى بنى جامع الفيوم . وفيها حج بالناس أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم ، وكان هو الأمير على المدينة ، وكان على مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وعلى حرب العراق وصلاتها يزيد بن المهلب ، وعلى خراجها صالح بن عبد الرحمن ، وعلى نيابة البصرة ليزيد بن المهلب سفيان بن عبد الله الكندى ، وعلى قضائها عبد الرحمن بن أذينة ، وعلى قضاء الكوفة أبو بكر بن أبى موسى ، وعلى حرب خراسان وكيع بن سود والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة سبع وتسعين

وفيها جهز سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى القسطنطينية ، وفيها أمر ابنه داود على الصائفة ،

ففتح حصن المرأة ، قال الواقدى : وفيها غزا مسلمة بن عبـد الملك أرض الوضاحية ففتح الحصن الذى [بناه] الوضاح صاحب الوضاحية . وفيها غزا مسلمة أيضاً برجمة ففتح حصونا و برجمة وحصن الحديد وسررا ، وشتى بأرض الروم . وفيها غزا عمر بن هبيرة الفزارى فى البحر أرض الروم وشتى بها . وفيها قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير ، وقدم برأسه على سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين ، مع حبيب بن أبى عبيـد الفهرى ، وفيها ولى سليمان نيابة خراسان ليزيد بن المهلب مضافاً إلى ما بيده من إمرة العراق ، وكان سبب ذلك أن وكيع بن أبى سود لما قتل قتيبة بن مسلم وذريته ، بعث برأس قتيبة إلى سليمان فحظى عنده وكتب له بامرة خراسان ، فبعث يزيد بن المهلب عبد الرحمن ابن الأهتم إلى سليمان بن عبد الملك ليحسن عنده أمر يزيد بن المهلب فى إمرة خراسان ، وينتقص عنده وكيع بن سود ، فسار ابن الأهتم - وكان ذا دهاء ومكر - إلى سليمان بن عبد الملك ، فلم يزل به حتى عزل وكيعا عن خراسان وولى عليها يزيد مع إمرة العراق ، و بعث بعهده مع ابن الأهتم ، فسار فى سبع حتى جاء يزيد ، فأعطاه عهد خراسان مع العراق ، وكان يزيد وعده بمائة ألف فلم يف بها ، و بعث يزيد ابنـه مخلدا بين يديه إلى خراسان ، ومعه كتاب أمير المؤمنين مضمونه أن قيساً زعموا أن قتيبة بن مسلم لم يكن خلع الطاعة ، فان كان وكيع قد تعرض له وثار عليـه بسبب أنه خلع ولم يكن خلع فقيـده وابعث به إلىّ ، فتقدم مخلد فأخذ وكيعاً فعاقبـه وحبسه قبل أن يجئ أبوه ، فكانت إمرة وكيع بن أبى سود الذى قتل قتيبة تسعة أشهر ، أو عشرة أشهر ، ثم قـدم يزيد بن المهلب فتسلم خراسان وأقام بها ، واستناب فى البلاد نوابا ذكرهم ابن جرير .

قال : ثم سار يزيد بن المهلب فغزا جرجان ، ولم يكن يومئذ مدينة بأبواب وصور ، وإنما هى جبال وأودية ، وكان ملكها يقال له صول ، فتحول عنها إلى قلعة هناك ، وقيل إلى جزيرة فى بحيرة هناك ، ثم أخـذوه من البحيرة وقتلوا من أهلها خلقاً كثيراً وأسروا وغنموا . قال : وفيها حج بالناس سليمان بن عبـد الملك ، ونواب البلاد هم المذكورون فى التى قبلها ، غير أن خراسان عزل عنها وكيع بن سود ، ووليها يزيد بن المهلب بن أبى صفرة مع العراق . وممن توفى فيها من الأعيان :

الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب

أبو محمـد القرشى الهاشمى ، روى عن أبيه عن جده مرفوعا : « من عال أهل بيت من المسلمين يومهم وليلتهم غفر الله له ذنوبه » . وعن عبد الله بن جعفر عن على فى دعاء الكرب ، وعن زوجته فاطمة بنت الحسين ، وعنه ابنه عبـد الله وجماعة ، وفد على عبـد الملك بن مروان فأكرمه ونصره على الحجاج ، وأقره وحده على ولاية صدقة على ، وقد ترجمه ابن عساكر فأحسن ، وذكر عنه آثاراً تدل على سيادته ، قيل إن الوليد بن عبد الملك كتب إلى عامله بالمدينة : إن الحسن بن الحسن كاتب

أهل العراق ، فإذا جاءك كتابي هذا فاجلده مائة ضربة ، وقفه للناس ، ولاتراني إلا قاتله . فأرسل خلفه فعلمه علي بن الحسين[١] كلمات الكرب فقالها حين دخل عليه فنجاه الله منهم ، وهي : لا إله إلا الله الحليم الكريم ، لا إله إلا الله العلي العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض رب العرش العظيم . توفي بالمدينة ، وكانت أمه خولة بنت منظور الفزاري . وقال يوماً لرجل من الرافضة : والله إن قتلك لقربة إلى الله عز وجل ، فقال له الرجل : إنك تمزح ، فقال : الله ما هذا مني بمزح ولكنه الجد . وقال له آخر منهم : ألم يقل رسول الله (ص) : « من كنت مولاه فعلي مولاه » ؟ . فقال : بلى ، ولو أراد الخلافة لخطب الناس فقال : أيها الناس اعلموا أن هذا ولي أمركم من بعدي ، وهو القائم عليكم ، فاسمعوا له وأطيعوا ، والله لئن كان الله ورسوله اختار علياً لهذا الأمر ثم تركه علي لكان أول من ترك أمر الله ورسوله ، وقال لهم أيضاً : والله لئن ولينا من الأمر شيئا لنقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ، ثم لا نقبل لكم توبة ، ويلكم غررتمونا من أنفسنا ، ويلكم لو كانت القرابة تنفع بلا عمل لنفعت أباه وأمه ، لو كان ما تقولون فينا حقاً لكان آباؤنا إذ لم يعلمونا بذلك قد ظلمونا وكتموا عنا أفضل الأمور ، والله إني لأخشى أن يضاعف العذاب للعاصي منا ضعفين ، كما أني لأرجو للمحسن منا أن يكون له الأجر مرتين ، ويلكم أحبونا إن أطعنا الله على طاعته ، وأبغضونا إن عصينا الله على معصيته .

موسى بن نصير ابو عبد الرحمن اللخمي

مولاهم ، كان مولى لامرأة منهم ، وقيل كان مولى لبني أمية ، افتتح بلاد المغرب ، وغنم منها أموالا لا تعد ولا توصف ، وله بها مقامات مشهورة هائلة ، ويقال إنه كان أعرج ، ويقال إنه ولد في سنة تسع عشرة ، وأصله من عين التمر ، وقيل إنه من اراشة من بلي ، سبي أبوه من جبل الخليل من الشام في أيام الصديق ، وكان اسم أبيه نصراً فصغر ، روى عن تميم الداري ، وروى عنه ابنه عبد العزيز ، ويزيد بن مسروق اليحصبي ، وولي غزو البحر لمعاوية ، فغزا قبرص ، وبنى هنالك حصونا كالماغوصة وحصن بانس وغير ذلك من الحصون التي بناها بقبرص ، وكان نائب معاوية عليها بعد أن فتحها معاوية في سنة سبع وعشرين ، وشهد مرج راهط مع الضحاك بن قيس ، فلما قتل الضحاك لجأ موسى بن نصير لعبد العزيز بن مروان ، ثم لما دخل مروان بلاد مصر كان معه فتركه عند ابنه عبد العزيز ، ثم لما أخذ عبد الملك بلاد العراق جعله وزيراً عند أخيه بشر بن مروان .

وكان موسى بن نصير هذا ذا رأي وتدبير وحزم وخبرة بالحرب ، قال البغوي [٢] . ولي موسى ابن نصير إمرة بلاد إفريقية سنة تسع وسبعين فافتتح بلادا كثيرة جدا مدنا وأقاليم ، وقد ذكرنا أنه

(١) كذا بالأصول وقد تقدمت وفاة علي بن الحسين قبل هذا . (٢) في المصرية الفسوي .

افتتح بلاد الاندلس ، وهى بلاد ذات مدن وقرى وريف ، فسبي منها ومن غيرها خلقاً كثيراً ، وغنم أموالا كثيرة جزيلة ، ومن الذهب والجواهر النفيسة شيئا لايحصى ولا يعد ، وأما الآلات والمتاع والدواب فشئ لايدرى ماهو ، وسبى من الغلمان الحسان والنساء الحسان شيئا كثيرا ، حتى قيل إنه لم يسلب أحد مثله من الأعداء ، وأسلم أهل المغرب على يديه ، و بث فيهم الدين والقرآن ، وكان إذا سار إلى مكان تحمل الأموال معه على العجل لكثرتها وعجز الدواب عنها

وقد كان موسى بن نصير هذا يفتح فى بلاد المغرب ، وقتيبة يفتح فى بلاد المشرق ، فجزاهما الله خيراً ، فكلاهما فتح من الاقاليم والبلدان شيئاً كثيراً ، ولكن موسى بن نصير حظى بأشياء لم يحظ بها قتيبة ، حتى قيل إنه لما فتح الاندلس جاءه رجل فقال له : ابعث معى رجالا حتى أدلك على كنز عظيم ، فبعث معه رجالا فأتى بهم إلى مكان فقال : احفروا ، فحفروا فأفضى بهم الحفر إلى قاعة عظيمة ذات لواوين حسنة ، فوجدوا هناك من اليواقيت والجواهر والزبرجد ما أبهتهم ، وأما الذهب فشئ لايعبر عنه ، ووجدوا فى ذلك الموضع الطنافس ، الطنفسة منها منسوجة بقضبان الذهب ، منظومة باللؤلؤ الغالي المفتخر ، والطنفسة منظومة بالجوهر المثمن ، واليواقيت التى ليس لها نظير فى شكلها وحسنها وصفاتها ، ولقد سمع يومئذ مناد ينادى لايرون شخصه : أيها الناس ، إنه قد فتح عليكم باب من أبواب جهنم فخذوا حذركم . وقيل إنهم وجدوا فى هذا الكنز مائدة سليمان بن داود التى كان يأكل عليها . وقد جمع أخباره وماجرى له فى حروبه وغزواته رجل من ذريته يقال له أبو معاوية معارك بن مروان بن عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير النصيرى .

وروى الحافظ ابن عساكر أن عمر بن عبد العزيز سأل موسى بن نصير حين قدم دمشق أيام الوليد عن أعجب شئ رأيت فى البحر ، فقال : انتهينا مرة إلى جزيرة فيها ست عشرة جرة مختومة بخاتم سليمان بن داود عليهما السلام ، قال : فأمرت بأربعة منها فأخرجت ، وأمرت بواحدة منها فنقبت فاذا قد خرج منها شيطان ينفض رأسه ويقول : والذى أكرمك بالنبوة لاأعود بعدها أفسد فى الأرض ، قال : ثم إن ذلك الشيطان نظر فقال : إنى لاأرى بهاء سليمان وملكه ، فانساخ فى الأرض فذهب ، قال : فأمرت بالثلاث البواقى فرددن إلى مكانهن .

وقد ذكر السمعانى وغيره عنه أنه سار إلى مدينة النحاس التى بقرب البحر المحيط الأخضر ، فى أقصى بلاد المغرب ، وأنهم لما أشرفوا عليها رأوا بريق شرفاتها وحيطانها من مسافة بعيدة ، وأنهم لما أتوها نزلوا عندها ، ثم أرسل رجلا من أصحابه ومعه مائة فارس من الأبطال ، وأمره أن يدور حول سورها لينظر هل لها باب أو منفذ إلى داخلها ، فقيل : إنه سار يوماً وليلة حول سورها ، ثم رجع إليه فأخبره أنه لم يجد بابا ولا منفذاً إلى داخلها ، فأمرهم فجمعوا مامعهم من المتاع بعضه على بعض ، فلم

يبلغوا أعلى سورها ، فأمر فعمل سلالم فصعدوا عليها ، وقيل إنه أمر رجلا فصعد على سورها ، فلما رأى مافى داخلها لم يملك نفسه أن ألقاها فى داخلها فكان آخر العهد به ، ثم آخر فكذلك ، ثم امتنع الناس من الصعود إليها ، فلم يحط أحد منهم بما فى داخلها علما ، ثم ساروا عنها فقطعوها إلى بحيرة قريبة منها ، فقيل : إن تلك الجرار المذكورة وجدها فيها ، ووجد عليها رجلا قائما ، فقال له : ما أنت ؟ قال : رجل من الجن وأبى محبوس فى هذه البحيرة حبسه سليمان ، فأنا أجىء إليه فى كل سنة مرة أزوره . فقال له : هل رأيت أحداً خارجا من هذه المدينة أو داخلا إليها ؟ قال : لا ، إلا أن رجلا يأتى فى كل سنة إلى هذه البحيرة يتعبد عليها أياما ثم يذهب فلا يعود إلى مثلها ، والله أعلم ما هو . ثم رجع إلى إفريقية ، والله أعلم بصحة ذلك ، والعهدة على من ذكر ذلك أولا .

وقد استسقى موسى بن نصير بالناس فى سنة ثلاث وتسعين حين أقحطوا بأفريقية ، فأمرهم بصيام ثلاثة أيام قبل الاستسقاء ، ثم خرج بين الناس وميز أهل الذمة عن المسلمين ، وفرق بين البهائم وأولادها ، ثم أمر بارتفاع الضجيج والبكاء ، وهو يدعو الله تعالى حتى انتصف النهار ، ثم نزل فقيل له : ألا دعوت لأمير المؤمنين ؟ فقال : هذا موطن لايذكر فيه إلا الله عز وجل ، فسقاهم عز وجل لما قال ذلك . وقد وفد موسى بن نصير على الوليد بن عبد الملك فى آخر أيامه ، فدخل دمشق فى يوم جمعة والوليد على المنبر ، وقد لبس موسى ثيابا حسنة وهيئة حسنة ، فدخل ومعه ثلاثون غلاما من أبناء الملوك الذين أسرهم ، والأسبان ، وقد ألبسهم تيجان الملوك مع ما معهم من الخدم والحشم والأبهة العظيمة ، فلما نظر إليهم الوليد وهو يخطب الناس على منبر جامع دمشق بهت إليهم لما رأى عليهم من الحرير والجواهر والزينة البالغة ، وجاء موسى بن نصير فسلم على الوليد وهو على المنبر ، وأمر أولئك فوقفوا عن يمين المنبر وشماله ، فحمد الله الوليد وشكره على ما أيده به ووسع ملكه ، وأطال الدعاء والتحميد والشكر حتى خرج وقت الجمعة ، ثم نزل فصلى بالناس ، ثم استدعى بموسى بن نصير فأحسن جائزته وأعطاه شيئا كثيرا ، وكذلك موسى بن نصير قدم معه بشىء كثير ، من ذلك مائدة سليمان بن داود عليهما السلام ، التى كان يأكل عليها ، وكانت من خليطين ذهب وفضة ، وعليها ثلاثة أطواق لؤلؤ وجوهر لم ير مثله ، وجدها فى مدينة طليطلة من بلاد الأندلس مع أموال كثيرة . وقيل إنه بعث ابنه مروان على جيش فأصاب من السبى مائة ألف رأس ، وبعث ابن أخيه فى جيش فأصاب من السبى مائة ألف رأس أيضاً من البربر ، فلما جاء كتابه إلى الوليد وذكر فيه أن خمس الغنائم أربعون ألف رأس قال الناس : إن هذا أحمق ، من أين له أربعون ألف رأس خمس الغنائم ؟ فبلغه ذلك فأرسل أربعين ألف رأس وهى خمس ما غنم ، ولم يسمع فى الاسلام بمثل سبايا موسى بن نصير أمير المغرب .

وقد جرت له عجائب فى فتحه بلاد الأندلس وقال : ولو انقاد الناس لى لقدتهم حتى أفتح بهم مدينـة رومية ـ وهى المدينة العظمى فى بلاد الفرنج ـ ثم ليفتحها الله عـلى يدى إن شاء الله تعالى ، ولما قدم على الوليد قدم معه بثلاثين ألفا من السبى غير ما ذكرنا ، وذلك خمس ما كان غنمه فى آخر غزاة غزاها ببلاد المغرب ، وقدم معه من الأموال والتحف واللآلى والجواهر مالا يحدولا يوصف ، ولم يزل مقيما بدمشق حتى مات الوليـد وتولى سليمان ، وكان سليمان عاتبا عـلى موسى فحبسه عنـده وطالبه بأموال عظيمة . ولم يزل فى يده حتى حج بالناس سليمان فى هـذه السنة وأخـذه معه فمات بالمدينة ، وقيل بوادى القرى ، وقد قارب الثمانين ، وقيل توفى فى سنة تسع وتسعين فالله أعلم ورحمه الله وعفا عنه عنه وفضله آمين .

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين

ففى هذه السنة جهز سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين أخاه مسلمة بن عبد الملك لغزو القسطنطينية وراء الجيش الذين هم بها ، فسار إليها ومعه جيش عظيم ، ثم التفّ عليه ذلك الجيش الذين هم هناك وقد أمر كل رجل من الجيش أن يحمل معه على ظهر فرسـه مدين من طعام ، فلما وصل إليها جمعوا ذلك فاذا هو أمثال الجبال ، فقال لهم مسلمة : أتركوا هذا الطعام وكلوا مما تجدونه فى بلادهم ، وازرعوا فى أماكن الزرع واستغلوه ، وابنوا لكم بيوتا من خشب ، فانا لا نرجع عن هذا البلد إلا أن نفتحها إن شاء الله . ثم إن مسلمة داخل رجلا من النصارى يقال له اليون ، وواطأه فى الباطن ليأخذ له بلاد الروم ، فظهر منه نصح فى بادئ الأمر ، ثم إنه توفى ملك القسطنطينية ، فدخل إليون فى رسالة من مسلمة وقد خافته الروم خوفا شديداً ، فلما دخل إليهم إليون قالوا له : رده عنا ونحن نملكك علينا فخرج فأعمل الحيلة فى الغدر والمكر ، ولم يزل قبحه الله حتى أحرق ذلك الطعام الذى للمسلمين ، وذلك أنه قال لمسلمة : إنهم ماداموا يرون هذا الطعام يظنون أنك تطاولهم فى القتال ، فلو أحرقته لتحققوا منك العزم ، وسلموا إليك البـلد سريعاً ، فأمر مسلمة بالطعام فأحرق ، ثم انشمر إليون فى السفن وأخـذ ما أمكنه من أمتعة الجيش فى الليل ، وأصبح وهو فى البلد محاربا للمسلمين ، وأظهر العـداوة الأكيدة ، وتحصن واجتمعت عليـه الروم ، وضاق الحال عـلى المسلمين حتى أكلوا كل شئ إلا التراب ، فلم يزل ذلك دأبهم حتى جاءتهم وفاة سليمان بن عبد الملك وتولية عمر بن عبد العزيز ، فـكروا راجعين إلى الشام ، وقد جهدوا جهداً شديداً ، لـكن لم يرجع مسلمة حتى بنى مسجداً بالقسطنطينية شديد البناء محـكما ، رحب الفناء شاهقا فى السماء .

وقال الواقدى : لما ولى سليمان بن عبـد الملك أراد الاقامة ببيت المقدس ، ثم يرسل العساكر إلى القسطنطينية ، فأشار عليه موسى بن نصير بأن يفتح ما دونها من المدن والرساتيق والحصون ،

حتى يبلغ المدينة ، فلا يأتيها إلا وقد هدمت حصونها ووهنت قوتها ، فاذا فعلت ذلك لم يبق بينك وبينها مانع ، فيعطوا بأيديهم ويسلموا لك البلد ، ثم استشار أخاه مسلمة فأشار عليه بأن يدع مادونها من البلاد ويفتحها عنوة ، فتى ما فتحت فان باقى ما دونها من البلاد والحصون بيدك ، فقال سليمان : هذا هو الرأى ، ثم أخذ فى تجهيز الجيوش من الشام والجزيرة فجهز فى البر مائة وعشرين ألفا ، وفى البحر مائة وعشرين ألفا من المقاتلة ، وأخرج لهم الأعطية ، وأنفق فيهم الأموال الكثيرة ، وأعلمهم بغزو القسطنطينية والاقامة إلى أن يفتحوها ، ثم سار سليمان من بيت المقدس فدخل دمشق وقد اجتمعت له العساكر فأمر عليهم أخاه مسلمة ، ثم قال : سيروا على بركة الله ، وعليكم بتقوى الله والصبر والتناصح والتناصف . ثم سار سليمان حتى نزل مرج دابق ، فاجتمع إليه الناس أيضاً من المتطوعة المحتسبين أجورهم على الله ، فاجتمع له جند عظيم لم ير مثله ، ثم أمر مسلمة أن يرحل بالجيوش وأخذ معه إليونُ الرومى المرعشى ، ثم ساروا حتى نزلوا على القسطنطينية فحاصرها إلى أن برح بهم وعرض أهلها الجزية على مسلمة فأبى إلا أن يفتحها عنوة ، قالوا : فابعث إلينا إليون نشاوره ، فأرسله إليهم ، فقالوا له : رد هذه العساكر عنا ونحن نعطيك ونملكك علينا ، فرجع إلى مسلمة : فقال : قد أجابوا إلى فتحها غير أنهم لايفتحونها حتى تتنحى عنهم ؛ فقال مسلمة : إنى أخشى غدرك ، فحلف له أنه يدفع إليه مفاتيحها وما فيها ، فلما تنحى عنهم أخذوا فى ترميم ماتهدم من أسوارها واستعدوا للحصار . وغدر إليون بالمسلمين قبحه الله .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة أخذ سليمان بن عبد الملك العهد لولده أيوب أنه الخليفة من بعده ، وذلك بعد موت أخيه مروان بن عبد الملك ، فعدل عن ولاية أخيه يزيد إلى ولاية ولده أيوب ، وتربص بأخيه الدوائر ، فمات أيوب فى حياة أبيه ، فبايع سليمان إلى ابن عمه عمر بن عبد العزيز أن يكون الخليفة من بعده ، ونعم مافعل . وفيها فتحت مدينة الصقالبة . قال الواقدى : وقد أغارت البرجان على جيش مسلمة وهو فى قلة من الناس فى هذه السنة . فبعث إليه سليمان جيشا فقاتل البرجان حتى هزمهم الله عز وجل . وفيها غزا يزيد بن المهلب قهستان من أرض الصين فحاصرها وقاتل عندها قتالا شديدا ، ولم يزل حتى تسلمها ، وقتل من الترك الذين بها أربعة آلاف صبراً ، وأخذ منها من الأموال والأثاث والأمتعة مالا يحد ولا يوصف كثرة وقيمة وحسنا ، ثم سار منها إلى جرجان فاستجاش صاحبها بالديلم ، فقدموا لنجدته فقاتلهم يزيد بن المهلب وقاتلوه ، فحمل محمد بن عبد الرحمن بن أبى سبرة الجعفى ـ وكان فارسا شجاعا باهراً ـ على ملك الديلم فقتله وهزمهم الله ، ولقد بارز ابن أبى سبرة هذا يوماً بعض فرسان الترك ، فضربه التركى بالسيف على البيضة فنشب فيها ، وضربه ابن أبى سبرة فقتله ، ثم أقبل إلى المسلمين وسيفه يقطر دما وسيف التركى ناشب فى

خودته ، فنظر إليه يزيد بن المهلب فقال : ما رأيت منظراً أحسن من هذا ، مَن هذا الرجل ؟ قالوا : ابن أبى سبرة . فقال : نعم الرجل لولا انهماكه فى الشراب . ثم صمم يزيد على محاصرة جرجان ، وما زال يضيق عـلى صاحبها حتى صالحه على سبعمائة ألف درهم وأربعمائة ألف دينار ، ومائتى ألف ثوب ، وأربعمائة حمار موقرة زعفرانا ؛ وأربعمائة رجل عـلى رأس كل رجل ترس ، على الترس طيلسان وجام من فضة وسرقة من حرير ، وهـذه المدينة كان سعيد بن العاص فيها فتحها صلحا عـلى أن يحملوا الخراج فى كل سـنة مائة ألف ، وفى سـنة مائتى ألف ، وفى بعض السنين ثلاثمائة ألف ، و يمنعون ذلك فى بعض السـنين ، ثم امتنعوا جملة وكفروا ، فغزاهم يزيد بن المهلب وردها صلحا على ما كانت عليـه فى زمن سعيد بن العاص . قالوا : وأصاب يزيد بن المهلب من غـيرها أموالا كثيرة جداً ، فكان من جملتها تاج فيه جواهر نفيسة ، فقال : أترون أحدا يزهد فى هـذا ؟ قالوا : لانعلمه ، فقال : والله إنى لأعـلم رجلا لو عرض عليه هـذا وأمثاله لزهد فيـه ، ثم دعا بمحمد بن واسع ـ وكان فى الجيش مغازيا ـ فعرض عليـه أخذ التاج فقال : لاحاجة لى فيـه ، فقال : أقسمت عليك لتأخذنه ، فأخذه وخرج به من عنـده ، فأمر يزيد رجلا أن يتبعه فينظر ماذا يصنع بالتاج ، فمر بسائل فطلب منـه شيئا فأعطاه [التاج] بكماله وانصرف ، فبعث يزيد إلى ذلك السائل فأخذ منه التاج وعوضه عنه مالا كثيراً

وقال على بن محمد المدائنى قال أبو بكر الهذلى : كان شهر بن حوشب على خزائن يزيد بن المهلب فرفعوا إليه أنه أخذ خريطة فيها مائة دينار ، فسأله عنها فقال : نعم وأحضرها ؛ فقال له يزيد : هى لك ، ثم استدعى الذى وشى به فشتمه ، فقال فى ذلك القطامى الكلبى ، ويقال إنها لسنان بن مكمل النميرى

لقدْ باعَ شـهرُ دينهُ بخريطةٍ * فمَنْ يأمنِ القراءَ بعدكَ ياشهرُ
أخذتَ بهِ شيئاً طفيفاً و بعتـهُ * من ابنِ جونبوذانَ هذا هو الغدرُ

وقال مرة بن النخعى :

ياابنَ المهلبِ ما أردتَ إلى امرئٍ * لولاكَ كانَ كصالحِ القراءِ

قال ابن جرير : ويقال إن يزيد بن المهلبَ كان فى غزوة جرجان فى مائة ألف وعشرين ألفا ، منهم ستون ألفا من جيش الشام أثابهم الله ، وقد تمهدت تلك البلاد بفتح جرجان وسلكت الطرق ، وكانت قبل ذلك مخوفة جدا ، ثم عزم يزيد على المسير إلى خوزستان ، وقدم بين يديه سرية هى أربعة آلاف من سراة الناس ، فلما التقوا اقتتلوا قتالا شديداً ، وقتل من المسلمين فى المعركة أربعة آلاف إنا لله وإنا إليه راجعون . ثم إن يزيد عزم على فتح البلاد لا محالة ، وما زال حتى صالحه صاحبها ـ وهو الاصبهبذ ـ بمال كثير ، سبعمائة ألف فى كل عام ، وغير ذلك من المتاع والرقيق . وممن توفى فيها

من الأعيان : **عبدالله بن عبدالله بن عتبة**

كان إماما حجة ، وكان مؤدب عمر بن عبد العزيز ، وله روايات كثيرة عن جماعات من الصحابة. أبو الحفص النخعى . عبد الله بن محمد بن الحنفية . وقد ذكرنا تراجمهم فى التكميل والله سبحانه وتعالى أعلم .

ثم دخلت سنة تسع وتسعين

فيها كانت وفاة سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين يوم الجمعة لعشر مضين ، وقيل بقين من صفر منها ، عن خمس وأربعين سنة ، وقيل عن ثلاث وأربعين ، وقيل إنه لم يجاوز الأربعين . وكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر ، وزعم أبو أحمد الحاكم أنه توفى يوم الجمعة لثلاث عشر بقيت من رمضان منها ، وأنه استكمل فى خلافته ثلاث سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام ، وله من العمر تسع وثلاثون سنة ، والصحيح قول الجمهور وهو الأول ، والله أعلم .

وهو سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس القرشى الأموى ، أبو أيوب . كان مولده بالمدينة فى بنى جديلة ، ونشأ بالشام عند أبيه ، وروى الحديث عن أبيه عن جده عن عائشة أم المؤمنين فى قصة الافك ، رواه ابن عساكر من طريق ابنه عبد الواحد ابن سليمان عنه ، وروى عن عبد الرحمن بن هنيدة أنه صحب عبد الله بن عمر إلى الغابة قال فسكت فقال لى ابن عمر : مالك ؟ فقال : إنى كنت أتمنى . فقال ابن عمر : فما تتمنى يا أبا عبد الرحمن ؟ فقال لى : لو أن لى أحداً هذا ذهبا أعلم عدده وأخرج زكاته ما كرهت ذلك ، أو قال : ما خشيت أن يضرّ بى . رواه محمد بن يحيى الذهلى عن أبى صالح عن الليث عن عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن الزهرى عنه

قال ابن عساكر : وكانت داره بدمشق موضع ميضأة جيرون الآن فى تلك المساحة جميعها ، وبنى دارا كبيرة مما يلى باب الصغير ، موضع الدرب المعروف بدرب محرز ، وجعلها دار الامارة ، وعمل فيها قبة صفراء تشبيها بالقبة الخضراء ، قال : وكان فصيحاً مؤثراً للعدل محبا للغزو ، وقد أنفذ الجيش لحصار القسطنطينية حتى صالحوهم على بناء الجامع بها .

وقد روى أبو بكر الصولى أن عبد الملك جمع بنيه ، الوليد وسليمان ومسلمة ، بين يديه فاستقرأهم القرآن فأجادوا القراءة ، ثم استنشدهم الشعر فأجادوا ، غير أنهم لم يكملوا أو يحكموا شعر الأعشى ، فلامهم على ذلك ، ثم قال : لينشدنى كل رجل منكم أرق بيت قاله العرب ولا يفحش ، هات يا وليد ، فقال الوليد :

مامركبٌ وركوبُ الخيلِ يعجبنى * كمركبٍ بينَ دملوجٍ وخلخالِ

فقال عبد الملك : وهل يكون من الشعر أرق من هذا ؟ هات ياسليمان ، فقال :

حبذا رجعُها يديها إليها * في يدي درعها تحلّ الازارا

فقال : لم تصب ، هات يا مسلمة ، فأنشده قول امرئ القيس :

وما ذرفتْ عيناكِ إلا لتضربِى * بسهميكِ فى أعشارِ قلبٍ مقتَّل

فقال : كذب امرؤ القيس ولم يصب ، إذا ذرفت عيناها بالوجد فما بقى إلا اللقاء ، وإنما ينبغى للعاشق أن يغتضى[1] منها الجفاء ويكسوها المودة ، ثم قال : أنا مؤجلكم فى هذا البيت ثلاثة أيام فمن أتانى به فله حكمه ، أى مهما طلب أعطيته ، فنهضوا من عنده فبينما سليمان فى موكب إذا هو بأعرابى يسوق إبله وهو يقول :

لوضربوا بالسَّيفِ رأْسي في مودَّتها * لمالَ يهوي سريعاً نحوَها راسي

فأمر سليمان بالأعرابى فاعتقل ، ثم جاء إلى أبيه فقال : قد جئتك بما سألت ، فقال : هات ، فأنشده البيت فقال : أحسنت ، وأنى لك هذا ؟ فأخبره خبر الأعرابى ، فقال : سل حاجتك ولاتنس صاحبك . فقال : يا أمير المؤمنين إنك عهدت بالامر من بعدك للوليد ، وإنى أحب أن أكون ولىَّ العهد من بعده ، فأجابه إلى ذلك ، وبعثه على الحج فى إحدى وثمانين ، وأطلق له مائة ألف درهم ، فأعطاها سليمان لذلك الأعرابى الذى قال ذلك البيت من الشعر ، فلما مات أبوه سنة ست وثمانين وصارت الخلافة إلى أخيه الوليد ، كان بين يديه كالوزير والمشير ، وكان هو المستحث على عمارة جامع دمشق ، فلما توفى أخوه الوليد يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ، كان سليمان بالرملة ، فلما أقبل تلقاه الأمراء ووجوه الناس ، وقيل إنهم ساروا إليه إلى بيت المقدس فبايعوه هناك ، وعزم على الاقامة بالقدس ، وأتته الوفود إلى بيت المقدس ؛ فلم يروا وفادة هناك ، وكان يجلس فى قبة فى صحن المسجد مما يلى الصخرة من جهة الشمال ، ويجلس أكابر الناس على الكراسى ، وتقسم فيهم الأموال ، ثم عزم على المجئ إلى دمشق ، فدخلها وكمل عمارة الجامع .

وفى أيامه جددت المقصورة واتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزيز مستشاراً ووزيراً ، وقال له : إنا قد ولينا ماترى وليس لنا علم بتدبيره ، فما رأيت من مصلحة العامة فمر به فليكتب ، وكان من ذلك عزل نواب الحجاج وإخراج أهل السجون منها ، وإطلاق الاسرا ، وبذل الأعطية بالعراق ، ورد الصلاة إلى ميقاتها الأول ، بعد أن كانوا يؤخرونها إلى آخر وقتها ، مع أمور حسنة كان يسمعها من عمر بن عبد العزيز ، وأمر بغزو القسطنطينية فبعث إليها من أهل الشام والجزيرة والموصل فى البر نحواً من مائة ألف وعشرين ألف مقاتل ، وبعث من أهل مصر وإفريقية ألف مركب فى البحر عليهم عمر بن هبيرة ، وعلى جماعة الناس كلهم أخوه مسلمة ، ومعه ابنه داود بن سليمان بن عبد الملك

---

(١) يغتضى الجفاء أى يغضى عنه . ولعله « ينتضى » بمعنى يخلع ، فى مقابل قوله « ويكسوها »

فى جماعة من أهل بيته ، وذلك كله عن مشورة موسى بن نصير : حين قدم عليه من بلاد المغرب ، والصحيح أنه قدم فى أيام أخيه الوليد والله أعلم .

قال ابن أبى الدنيا : حدثنى محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الكوفى عن جابر بن عون الأسدى . قال: أول كلام تكلم به سليمان بن عبد الملك حين ولى الخلافة أن قال : الحمد لله الذى ما شاء صنع وماشاء رفع وماشاء وضع ، ومن شاء أعطى ومن شاء منع . إن الدنيا دار غرور ، ومنزل باطل ، وزينة تقلب ، تضحك باكيا وتبكى ضاحكا ، وتخيف آمنا وتؤمن خائفاً ، تفقر مثريها ، وتثرى فقيرها ، ميالة لاعبة بأهلها . يا عباد الله اتخذوا كتاب الله إماما ، وارضوا به حكما ، واجعلوه لكم قائداً ، فانه ناسخ لما قبله ، ولن ينسخه كتاب بعده . اعلموا عباد الله أن هذا القرآن يجلو كيد الشيطان وضغائنه كما يجلو ضوء الصبح إذا تنفس أدبار الليل إذا عسعس . وقال يحيى بن معين عن حجاج بن محمد عن أبى معشر عن محمد بن قيس قال : سمعت سليمان بن عبد الملك يقول فى خطبته : فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه . وقال حماد بن زيد عن يزيد بن حازم . قال : كان سليمان بن عبد الملك يخطبنا كل جمعة لا يدع أن يقول فى خطبته : وإنما أهل الدنيا على رحيل ، لم تمض لهم نية ولم تطمئن بهم حتى يأتى أمر الله ووعده وهم على ذلك ، كذلك لا يدوم نعيمها ، ولا تؤمن فجائعها ولا تبقى من شر أهلها ثم يتلو [أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ، ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون] وروى الأصمعى أن نقش خاتم سليمان [كان] : آمنت بالله مخلصا ، وقال أبو مسهر عن أبى مسلم سلمة بن العيار الفزارى . قال : كان محمد بن سيرين يترحم على سليمان بن عبد الملك ، ويقول : افتتح خلافته بخير وختمها بخير ، افتتحها باجابة الصلاة لمواقيتها ، وختمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز.

قد أجمع علماء الناس والتواريخ أنه حج بالناس فى سنة سبع وتسعين وهو خليفة ، قال الهيثم ابن عدى قال الشعبى : حج سليمان بن عبد الملك فلما رأى الناس بالموسم قال لعمر بن عبد العزيز : ألا ترى هذا الخلق الذى لا يحصى عددهم إلا الله ، ولا يسع رزقهم غيره ، فقال : يا أمير المؤمنين هؤلاء رعيتك اليوم ، وهم غدا خصماؤك عند الله ، فبكى سليمان بكاء شديداً ثم قال : بالله أستعين . وقال ابن أبى الدنيا : ثنا إسحاق بن إسماعيل ثنا جرير عن عطاء بن السائب . قال : كان عمر بن عبد العزيز فى سفر مع سليمان بن عبد الملك فأصابهم السماء برعد وبرق وظلمة وريح شديدة ، حتى فزعوا لذلك ، وجعل عمر بن عبد العزيز يضحك ، فقال له سليمان : مايضحكك ياعمر ؟ أما ترى مانحن فيه ؟ فقال له : يا أمير المؤمنين هذه آثار رحمته فيها شدائد ما ترى ، فكيف بآثار سخطه وغضبه ؟

ومن كلامه الحسن رحمه الله قوله : الصمت منام العقل والنطق يقظته ، ولا يتم هذا إلا بهذا . ودخل عليه رجل فكلمه فأعجبه منطقه ثم فتشه فلم يحمد عقله ، فقال : فضل منطق الرجل على عقله خدعة ،

وفضل عقله عـلى منطقه هجنة ، وخير ذلك ما أشبه بعضه بعضاً وقال : العاقل أحرص على إقامة لسانه منه على طلب معاشه ، وقال أيضاً : إن من تـكلم فأحسن قادر على أن يسكت فيحسن ، وليس كل من سكت فأحسن قادراً على أن يتـكلم فيحسن . ومن شعره يتسلى عن صديق له مات فقال :

وهوَّن وجدى فى شراحيل أننى * متى شئت لاقيت امرأً مات صاحبه

ومن شعره أيضا :

ومنّ شِيَمِى ألاّ أفارقَ صاحبى * وإنْ ملَّنى إلا سألتُ لهُ رُشدا

وإنْ دامَ لي بالودِ دمتُ ولم أكنْ * كآخَرَ لايرعَى ذِماماً ولا عهدا

وسمع سليمان ليلة صوت غناء فى معسكره فلم يزل يفحص حتى أتى بهم ، فقال سليمان : إن الفرس ليصهل فتستودق له الرَّمَكة ، وإن الجمل ليهدِر فتضبَع له الناقة ، وإن التيس لينبّ فتستخذى له المعز وإن الرجل ليتغنى فتشتاق له المرأة ، ثم أمر بهم فقال : اخصوهم ، فيقال إن عمر بن عبد العزيز قال : يا أمير المؤمنين إنها مثلة ، ولكن انفهم ، فنفاهم . وفى رواية أنه خصى أحـدهم ، ثم سأل عن أصل الغناء فقيل إنه بالمدينة ، فكتب إلى عامله بها وهو أبو بكر بن محمد بن حزم يأمره أن يخصى من عنده من المغنين المخنثين .

وقال الشافعى : دخل أعرابى عـلى سليمان فدعاه إلى أكل الفالوذج وقال له : إن أكلها يزيد فى الدماغ فقال : لو كان هـذا صحيحاً لكان ينبغى أن يكون رأس أمير المؤمنين مثل [رأس] البغل . وذكروا أن سليمان كان نهما فى الأكل ، وقد نقلوا عنه أشياء فى ذلك غريبة ، فمن ذلك أنه اصطبح فى بعض الأيام بأربعين دجاجة مشوية ، وأربع وثمانين كلوة بشحمها ، وثمانين جردقة ، ثم أكل مع الناس على العادة فى السماط العام [(١)] . ودخل ذات يوم بستانا له وكان قد أمر قيمه أن يجنى ثماره ، فدخله ومعـه أصحابه فأكل القوم حتى ملوا ، واستمر هو يأكل أكلا ذريعـا من تلك الفواكه ، ثم استدعى بشاة مشوية فأكلها ثم أقبل عـلى أكل الفـاكهة ، ثم أتى بدجاجتين فأكلهما ، ثم عاد إلى الفاكهة فأكل منها ، ثم أتى بقعب يقعد فيـه الرجل مملوءاً سويقا وسمنا وسكراً فأكله ثم عاد إلى دار الخلافة ، وأتى بالسماط فما فقدوا من أكله شيئا[(٢)] . وقد روى أنه عرضت لهحمى عقب هذا الأكل أدته إلى الموت ، وقد قيل إن سبب مرضه كان من أكل أربعمائة بيضة وسلتين تيناً فالله أعلم .

وذكر الفضل بن أبى المهلب أنه لبس فى يوم جمعة حلة صفراء ثم نزعها ولبس بدلها حلة خضراء

(١) هذا وأمثاله من مبالغات الاعاجم التى كانوا يتقربون بها إلى بنى العباس . وسيأتى فى ص١٨٣ أن سليمان رحمه الله أنه كان نحيفاً جميلا ، وهى صفة لاتتفق مع ما نسبوه اليه (٢) الذى اخترع هذه الاكاذيب نسى أن المعدة لاتقبل زيادة على حجمها ، وقد قيل إذا كنت كذوبا فكن ذكوراً .

واعتم بعمامة خضراء وجلس على فراش أخضر وقد بسط ما حوله بالخضرة ، ثم نظر فى المرآة فأعجبه حسنه ، وشمر عن ذراعيه وقال : أنا الخليفة الشاب ، وقيل إنه كان ينظر فى المرآة من فرقه إلى قدمه ويقول : أنا الملك الشاب ، وفى رواية أنه كان ينظر فيها ويقول : كان محمد نبياً ، وكان أبو بكر صديقاً وكان عمر فاروقا ، وكان عثمان حييا ، وكان على شجاعا ، وكان معاوية حليما ، وكان يزيد صبورا ، وكان عبد الملك سائسا ، وكان الوليد جباراً ، وأنا الملك الشاب . قالوا : فما حال عليه بعد ذلك شهر ، وفى رواية جمعة ، حتى مات . قالوا : ولما حم شرع يتوضأ فدعا بجارية فصبت عليه ماء الوضوء ثم أنشدته :

أنتَ نعمَ المتاعِ لو كنتَ تبقى * غيرَ أنْ لا بقاءَ للانسانِ
أنتَ خلوٌ من العيوبِ ومما * يكرهُ الناسُ غيرَ أنكَ فانِ

قالوا : فصاح بها وقال : عزتنى فى نفسى ، ثم أمر خاله الوليد بن العباس القمقاع العنسى[1] أن يصب عليه وقال :

قربْ وضوءكَ يا وليدُ فانما * دنياكَ هذى بلغةٌ ومتاع
فاعملْ لنفسكَ فى حياتكَ صالحاً * فالدهرُ فيهِ فرقةٌ وجماعُ

ويروى أن الجارية لما جاءته بالطست جعلت تضطرب من الحمى ، فقال : أين فلانة ؟ فقالت : محمومة ، قال : ففلانة ؟ قالت : محمومة ، وكان بمرج دابق من أرض قنسرين ، فأمر خاله فوضأه ثم خرج يصلى بالناس فأخذته بحة فى الخطبة ، ثم نزل وقد أصابته الحمى فمات فى الجمعة المقبلة ، ويقال : إنه أصابه ذات الجنب فمات بها رحمه الله .

وكان قد أقسم أنه لايبرح بمرج دابق حتى يرجع إليه الخبر بفتح القسطنطينية ، أو يموت قبل ذلك ، فمات قبل ذلك رحمه الله وأكرم مثواه ، قالوا : وجعل يلهج فى مرضه ويقول

إنَّ بنىَّ صغارٌ * أفلحَ من كانَ لهُ كبارُ

فيقول له عمر بن عبد العزيز : قد أفلح المؤمنون يا أمير المؤمنين ، ثم يقول

إن بنىَّ صبيةٌ صيفيونْ * قدْ أفلحَ منْ كانَ لهُ ربعيونْ

ويروى أن هذا آخر ما تكلم به ، والصحيح أن آخر ماتكلم به أن قال : أسألك منقلبا كريما ، ثم قضى . وروى ابن جرير عن رجاء بن حيوة ـ وكان وزير صدق لبنى أمية ـ قال : استشارنى سليمان بن عبد الملك وهو مريض أن يولى له ابنا صغيراً لم يبلغ الحلم ، فقلت : إن مما يحفظ الخليفة فى قبره أن يولى على المسلمين الرجل الصالح ، ثم شاورنى فى ولاية ابنه داود ، فقلت : إنه غائب عنك بالقسطنطينية ولاتدرى أحى هو أو ميت ، فقال : من ترى ؟ فقلت : رأيك يا أمير المؤمنين ،

(١) فى المصرية العبسى .

قال : فكيف ترى فى عمر بن عبد العزيز ؟ فقلت : أعلمه والله خيراً فاضلا مسلما يحب الخير وأهله ، ولكن أتخوف عليه إخوتك أن لايرضوا بذلك ، فقال : هو والله على ذلك وأشار رجال [١] أن يجعل يزيد بن عبد الملك ولى العهد من بعد عمر بن عبد العزيز ليرضى بذلك بنو مروان ، فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز ، إنى قد وليته الخلافة من بعدى ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله ولاتختلفوا فيطمع فيكم عدوكم . وختم الكتاب وأرسل إلى كعب بن حامد العبسى صاحب الشرطة ، فقال له: اجمع أهل بيتى فرهم فليبايعوا على مافى هذا الكتاب مختوما ، فمن أبى منهم ضرب عنقه . فاجتمعوا ودخل رجال منهم فسلموا على أمير المؤمنين ، فقال لهم : هذا الكتاب عهدى إليكم ، فاسمعوا له وأطيعوا و بايعوا من وليت فيه ، فبايعوا لذلك رجلا رجلا ، قال رجاء : فلما تفرقوا جاءنى عمر بن عبد العزيز فقال : أنشدك الله وحرمتى ومودتى إلا أعلمتنى إن كان كتب لى ذلك حتى أستعفيه الآن قبل أن يأتى حال لاأقدر فيها على ما أقدر عليه الساعة ، فقلت : والله لاأخبرك حرفاً واحداً . قال : ولقيه هشام بن عبد الملك فقال : يارجاء إن لى بك حرمة ومودة قديمة ، فأخبرنى هذا الأمر إن كان إلىّ علمت ، و إن كان لغيرى فما مثلى قصّر به عن هذا . فقلت : والله لا أخبرك حرفاً واحداً مما أسرّه إلى أمير المؤمنين ، قال رجاء : ودخلت على سليمان فاذا هو يموت ، فجعلت إذا أخذته السكرة من سكرات الموت أحرفه إلى القبلة ، فاذا أفاق يقول : لم يأن لذلك بعد يارجاء ، فلما كانت الثالثة قال : من الآن يارجاء إن كنت تريد شيئاً ، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قال : فحرفته إلى القبلة فمات رحمه الله . قال : فغطيته بقطيفة خضراء وأغلقت الباب عليه وأرسلت إلى كعب بن حامد فجمع الناس فى مسجد دابق ، فقلت : بايعوا لمن فى هذا الكتاب ، فقالوا : قد بايعنا ، فقلت : بايعوا ثانية ، ففعلوا ، ثم قلت : قوموا إلى صاحبكم فقد مات ، وقرأت الكتاب عليهم ، فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز تغيرت وجوه بنى مروان ، فلما قرأت و إن هشام بن عبد الملك بعده ، تراجعوا بعض الشئ . ونادى هشام لا نبايعه أبداً ، فقلت : أضرب عنقك والله ، قم فبايع ، ونهض الناس إلى عمر بن عبد العزيز وهو فى مؤخر المسجد ، فلما تحقق ذلك قال : إنا لله و إنا إليه راجعون ، و لم تحمله رجلاه حتى أخذوا بضبعيه فأصعدوه على المنبر ، فسكت حينا ، فقال : رجاء بن حيوة : ألا تقوموا إلى أمير المؤمنين فتبايعوه ، فنهض القوم فبايعوه ، ثم أتى هشام فصعد المنبر ليبايع وهو يقول : إنا لله و إنا إليه راجعون ، فقال عمر : نعم ! إنا لله و إنا إليه راجعون الذى صرت أنا وأنت

---

(١) فى المصرية : وأشار سليمان بن رجاء .ولعله : وأشار رجا .

تتنازع هذا الأمر. ثم قام فخطب الناس خطبة بليغة وبايعوه، فكان مما قال فى خطبته: أيها الناس، إنى لست بمبتدع ولكنى متبع، وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن أطاعوا كما أطعتم فأنا واليكم، وإن هم أبوا فلست لكم بوال، ثم نزل، فأخذوا فى جهاز سليمان، قال الأوزاعى: فلم يفرغوا منه حتى دخل وقت المغرب، فصلى عمر بالناس صلاة المغرب، ثم صلى على سليمان ودفن بعد المغرب، فلما انصرف عمر أتى بمراكب الخلافة [فأبى أن يركبها] وركب دابته وانصرف مع الناس حتى أتوا دمشق، فمالوا به نحو دار الخلافة فقال: لا أنزل إلا فى منزلى[1] حتى تفرغ دار أبى أيوب، فاستحسنوا ذلك منه، ثم استدعى بالكاتب فجعل يملى عليه نسخة الكتاب الذى يبايع عليه الأمصار، قال رجاء: فما رأيت أفصح منه.

قال محمد بن إسحاق: وكانت وفاة سليمان بن عبد الملك بدابق من أرض قنسرين يوم الجمعة لعشر ليال خلت من صفر سنة تسع وتسعين، على رأس سنتين وتسعة أشهر وعشرين يوماً من متوفى الوليد، وكذا قال الجمهور فى تاريخ وفاته، ومنهم من يقول: لعشر بقين من صفر، وقالوا: كانت ولايته سنتين وثمانية أشهر، زاد بعضهم إلا خمسة أيام والله أعلم. وقول الحاكم أبى أحمد: إنه توفى يوم الجمعة لثلاث عشر بقين من رمضان سنة تسع وتسعين، حكاه ابن عساكر، وهو غريب جداً، وقد خالفه الجمهور فى كل ما قاله، وعندهم أنه جاوز الأربعين فقيل بثلاث وقيل بخمس والله أعلم.

قالوا: وكان طويلا جميلا أبيض نحيفاً، حسن الوجه، مقرون الحاجبين، وكان فصيحاً بليغاً، يحسن العربية ويرجع إلى دين وخير ومحبة للحق وأهله، واتباع القرآن والسنة، وإظهار الشرائع الاسلامية رحمه الله، وقد كان رحمه الله آلى على نفسه حين خرج من دمشق إلى مرج دابق - ودابق قرية من بلاد حلب - لما جهز الجيوش إلى مدينة الروم العظمى المسماة بالقسطنطينية، أن لا يرجع إلى دمشق حتى تفتح أو يموت، فمات هنالك كما ذكرنا، فحصل له بهذه النية أجر الرباط فى سبيل الله، فهو إن شاء الله ممن يجرى له ثوابه إلى يوم القيامة رحمه الله.

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر فى ترجمة شراحيل بن عبيدة بن قيس العقيلى ما مضمونه: إن مسلمة ابن عبد الملك لما ضيق بمحاصرته على أهل القسطنطينية، وتتبع المسالك واستحوذ على ما هنالك من الممالك، كتب إليون ملك الروم إلى ملك البرجان[2] يستنصره على مسلمة، ويقول له: ليس لهم

---

(١) كان منزله فى موضع مدرسة السميساطية الآن مما يلى باب مسجد بنى أمية الشمالى. أما قصر الخلافة الذى يسمى (الدار الخضراء) فكان وراء الجدار القبلى من مسجد بنى أمية. ويسمى موضعه الان (المصبغة الخضراء) (٢) الأرجح أنهم أمة البلغار، وهم أقرب الأمم النصرانية إلى القسطنطينية.

همة إلا فى الدعوة إلى دينهم ، الأقرب منهم فالأقرب ، و إنهم متى فرغوا منى خلصوا إليك ، فمهما كنت صانعاً حينئذ فاصنعه الآن ، فعند ذلك شرع لعنه الله فى المكر والخديعة ، فكتب إلى مسلمة يقول له : إن إليون كتب إلى يستنصرنى عليك ، وأنا معك فمرنى بما شئت . فكتب إليه مسلمة : إنى لا أريد منك رجالا ولا عدداً ، ولكن أرسل إلينا بالميرة فقد قلّ ما عندنا من الأزواد . فكتب إليه : إنى قد أرسلت إليك بسوق عظيمة إلى مكان كذا وكذا ، فأرسل من يتسلمها و يشترى منها. فأذن مسلمة لمن شاء من الجيش أن يذهب إلى هناك فيشترى له مايحتاج إليه ، فذهب خلق كثير فوجدوا هنالك سوقا هائلة ، فيها من أنواع البضائع والأمتعة والأطعمة ، فأقبلوا يشترون ، واشتغلوا بذلك ، ولا يشعرون بما أرصد لهم الخبيث من الكمائن بين تلك الجبال التى هنالك ، فخرجوا عليهم بغتة واحدة فقتلوا خلقا كثيرا من المسلمين وأسروا آخرين ، وما رجع إلى مسلمة إلا القليل منهم ، فانا لله و إنا إليه راجعون ، فكتب مسلمة بذلك إلى أخيه سليمان يخبره بما وقع من ذلك ، فأرسل جيشا كثيفا صحبة شراحيل بن عبيدة هذا ، وأمرهم أن يعبروا خليج القسطنطينية أولا فيقاتلوا ملك البرجان ، ثم يعودوا إلى مسلمة ، فذهبوا إلى بلاد البرجان وقطعوا إليهم تلك الخلجان ، فاقتتلوا معهم قتالا شديداً ، فهزمهم المسلمون باذن الله ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وسبوا وأسروا خلقاً كثيراً ، وخلصوا أسرى المسلمين ، ثم تحيزوا إلى مسلمة فكانوا عنده حتى استقدم الجميع عمر بن عبد العزيز خوفاً عليهم من غائلة الروم و بلادهم ، ومن ضيق العيش ، وقد كان لهم قبل ذلك مدة طويلة أثابهم الله .

خلافة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه

قد تقدم أنه بويع له بالخلافة يوم الجمعة لعشر مضين ، وقد قيل بقين من صفر من هذه السنة ـ أعنى سنة تسع وتسعين ـ يوم مات سليمان بن عبد الملك ، عن عهد منه إليه من غير علم من عمر كما قدمنا ، وقد ظهرت عليه مخايل الورع والدين والتقشف والصيانة والنزاهة ، من أول حركة بدت منه ، حيث أعرض عن ركوب مراكب الخلافة ، وهى الخيول الحسان الجياد المعدة لها ، والاجتزاء بمركوبه الذى كان يركبه ، وسكنى منزله رغبة عن منزل الخلافة ، ويقال إنه خطب الناس فقال فى خطبته : أيها الناس ، إن لى نفسا تواقة لا تعطى شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أعلى منه ، و إنى لما أعطيت الخلافة تاقت نفسى إلى ما هو أعلى منها وهى الجنة ، فأعينونى عليها يرحمكم الله . وستأتى ترجمته عند وفاته إن شاء الله ، وكان مما بادر إليه عمر فى هذه السنة أن بعث إلى مسلمة بن عبد الملك ومن معه من المسلمين وهم بأرض الروم محاصرو القسطنطينية ، وقد اشتد عليهم الحال وضاق عليهم المجال ، لأنهم عسكر كثير ، فكتب إليهم يأمرهم بالرجوع إلى الشام إلى منازلهم . و بعث إليهم بطعام كثير وخيول كثيرة عتاق ، يقال خمسمائة فرس ، ففرح الناس بذلك ،

وفيها أغارت الترك على أذربيجان فقتلوا خلقا كثيراً من المسلمين ، فوجه إليهم عمرُ حاتمَ بن النعمان الباهلي فقتل أولئك الأتراك ، ولم يفلت منهم إلا اليسير ، و بعث منهم أسارى إلى عمر وهو بخناصرة . وقد كان المؤذنون يذكرونه بعد أذانهم باقتراب الوقت وضيقه لئلا يؤخرها كما كان يؤخرها من قبله ، لكثرة الأشغال ، وكان ذلك عن أمره لهم بذلك والله أعلم . فروى ابن عساكر في ترجمة جرير بن عثمان الرحبي الحمصي قال : رأيت مؤذني عمر بن عبد العزيز يسلمون عليه في الصلاة : السلام عليك أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، حي على الصلاة حي على الفلاح ، الصلاة قد قاربت .

وفي هذه السنة عزل عمر يزيد بن المهلب عن إمرة العراق وبعث عدي بن أرطاة الفزاري على إمرة البصرة ، فاستقضى عليها الحسن البصري ، ثم استعفاه فأعفاه ، واستقضى مكانه إياس بن معاوية الذكي المشهور ، وبعث على إمرة الكوفة وأرضها عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وضم إليه أبا الزناد كاتباً بين يديه ، واستقضى عليها عامراً الشعبي . قال الواقدي : فلم يزل قاضيا عليها مدة خلافة عمر بن عبد العزيز ، وجعل على إمرة خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي ، وكان نائب مكة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وعلى إمرة المدينة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وهو الذي حج بالناس في هذه السنة ، وعزل عن إمرة مصر عبد الملك بن أبي وداعة وولى عليها أيوب بن شرحبيل ، وجعل الفتيا إلى جعفر بن ربيعة ويزيد بن أبي حبيب وعبيد الله بن أبي جعفر ، فهؤلاء الذين كانوا يفتون الناس ، واستعمل على إفريقية وبلاد المغرب إسماعيل بن عبد الله المخزومي ، وكان حسن السيرة ، وأسلم في ولايته على بلاد المغرب خلق كثير من البربر والله سبحانه وتعالى أعلم . وممن توفي فيها من الأعيان :

الحسن بن محمد بن الحنفية

تابعي جليل ، يقال إنه أول من تكلم في الارجاء ، وقد تقدم أن أبا عبيد قال : توفي في سنة خمس وتسعين . وذكر خليفة أنه توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، وذكر شيخنا الذهبي في الاعلام أنه توفي هذا العام ، والله أعلم .

عبدالله بن محيريز بن جنادة بن عبيد

القرشي الجمحي المكي ، نزيل بيت المقدس ، تابعي جليل ، روى عن زوج أم أبي محذورة المؤذن ، وعبادة بن الصامت ، وأبي سعيد ، ومعاوية ، وغيرهم ، وعنه خالد بن معدان ، ومكحول ، وحسان بن عطية ، والزهري ، وآخرون . وقد وثقه غير واحد ، وأثنى عليه جماعة من الأئمة ، حتى قال رجاء بن حيوة : إن يفخر علينا أهل المدينة بعابدهم ابن عمر ، فانا نفخر عليهم بعابدنا عبد الله ابن محيريز . وقال بعض ولده : كان يختم القرآن كل جمعة ، وكان يفرش له الفراش فلا ينام عليه ،

قالوا : وكان صموتا معتزلا للفتن ، وكان لا يترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولا يذكر شيئا من خصاله المحمودة ، ورأى على بعض الأمراء حلة من حرير فأنكر عليه ، فقال : إنما ألبسها من أجل هؤلاء ـ وأشار إلى عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ـ فقال له ابن محيريز : لا تعدل بخوفك من الله خوف أحد من المخلوقين . وقال الاوزاعى : من كان مقتديا فليقتد بمثله ، فان الله لا يضل أمة فيها مثله . قال بعضهم : توفى أيام الوليد ، وقال خليفة بن خياط : توفى أيام عمر بن عبد العزيز ، وذكر الذهبى فى الأعلام أنه توفى فى هذا العام ، والله سبحانه أعلم .

دخل ابن محيريز مرة حانوت بزاز ليشترى منه ثوباً فرفع فى السوم ، فقال له جاره : ويحك هذا ابن محيريز ضع له ، فأخذ ابن محيريز بيد غلامه وقال : اذهب بنا ، إنما جئت لنشترى بأموالنا لا بأدياننا ، فذهب وتركه .

محمود بن لبيد بن عقبة

أبو نعيم الأنصارى الأشهلى ولد فى حياة النبى (ص) ، وروى عنه أحاديث لكن حكمها حكم الارسال . وقال البخارى : له صحبة . وقال ابن عبد البر : هو أحسن من محمود بن الربيع . قيل إنه توفى سنة ست وقيل سبع وتسعين ، وذكر الذهبى فى الاعلام أنه توفى فى هذا العام والله أعلم باليقين

نافع بن جبير بن مطعم

ابن عدى بن نوفل القرشى النوفلى المدنى ، روى عن أبيه وعثمان وعلى والعباس وأبى هريرة وعائشة وغيرهم ، وروى عنه جماعة من التابعين وغيرهم ، وكان ثقة عابداً يحج ماشياً ومركوبه يقاد معه ، قال غير واحد : توفى سنة تسع وتسعين بالمدينة .

كريب بن مسلم

مولى ابن عباس ، روى عن جماعة من الصحابة وغيرهم ، وكان عنده حمل كتب ، وكان من الثقات المشهورين بالخير والديانة .

محمد بن جبير بن مطعم

كان من علماء قريش وأشرافها ، وله روايات كثيرة ، وكان يعقل مجة مجها النبى (ص) فى وجهه وعمره أربع سنين ، توفى وعمره ثلاث وتسعون سنة بالمدينة .

مسلم بن يسار

أبو عبد الله البصرى ، الفقيه الزاهد ، له روايات كثيرة ، كان لا يفضل عليه أحد فى زمانه ، وكان عابداً ورعا زاهداً كثير الصلاة كثير الخشوع ، وقيل إنه وقع فى داره حريق فأطفاؤه وهو فى الصلاة لم يشعر به . وله مناقب كثيرة رحمه الله . قلت : وانهدمت مرة ناحية من المسجد ففزع أهل السوق لهدتها ، وإنه لفى المسجد فى صلاته فما التفت . وقال ابنه : رأيته ساجداً وهو يقول : متى ألقاك

وأنت عنى راض ، ثم يذهب فى الدعاء ، ثم يقول : متى ألقاك وأنت عنى راض ، وكان إذا كان فى غير صلاة كأنه فى الصلاة ، وقد تقدمت ترجمته

حنش بن عمرو الصنعاني

كان والى إفريقية و بلاد المغرب ، وبافريقية توفى غازيا ، وله روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة.

خارجة بن زيد

ابن الضحاك الأنصارى المدنى الفقيه ، كان يفتى بالمدينة ، وكان من فقهائها المعدودين ، كان عالما بالفرائض وتقسيم المواريث ، وهو أحد الفقهاء السبعة الذين مدار الفتوى على قولهم .

سنة مائة من الهجرة النبوية

قال الامام أحمد :حدثنا على بن حفص أنبأ ورقاء عن منصور عن المنهال بن عمرو عن نعيم بن دجاجة قال : دخل ابن مسعود على على فقال : أنت القائل قال رسول الله ص : « لا يأتى على الناس مائة عام وعلى الأرض نفس منفوسة » ؟ إنما قال رسول الله ص : « لا يأتى على الناس مائة عام وعلى الأرض نفس منفوسة ممن هو حى ، و إن رخاء هذه الأمة بعد المائة ». تفرد به أحمد . وفى رواية لابنه عبد الله أن عليا قال له : يافروخ أنت القائل لا يأتى على الناس مائة سنة وعلى الأرض عين تطرف ممن هو حى اليوم ، و إنما رخاء هذه الأمة وفرجها بعد المائة ؟ إنما قال رسول الله ص : « لا يأتى على الناس مائة سنة وعلى الأرض عين تطرف . أخطأت أستك الحفرة ، و إنما أراد ممن هو اليوم حى ». تفرد به[1] وهكذا جاء فى الصحيحين عن ابن عمر ، فوهل الناس فى مقالة رسول الله ص تلك ، و إنما أراد انخرام قرنه

وفيها خرجت خارجة من الحرورية بالعراق فبعث أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد نائب الكوفة ، يأمره بأن يدعوهم إلى الحق ، و يتلطف بهم ، ولا يقاتلهم حتى يفسدوا فى الأرض ، فلما فعلوا ذلك بعث إليهم جيشاً فكسرهم الحرورية ، فبعث عمر إليه يلومه على جيشه ، وأرسل عمر ابن عمه مسلمة بن عبد الملك من الجزيرة إلى حربهم ، فأظفره الله بهم ، وقد أرسل عمر إلى كبير الخوارج ــ وكان يقال له بسطام ــ يقول له : ما أخرجك على ؟ فان كنت خرجت غضباً لله فأنا أحق بذلك منك ، ولست أولى بذلك منى ، وهلم أناظرك ، فان رأيت حقا اتبعته ، وإن أبديت حقاً نظرنا فيه . فبعث طائفة من أصحابه اليه فاختار منهم عمر رجلين فسألهما : ماذا تنقمون ؟ فقالا : جعلك يزيد بن عبد الملك من بعدك ، فقال : إنى لم أجعله أبدا و إنما جعله غيرى . قالا : فكيف ترضى به أمينا للأمة من بعدك ؟ فقال : أنظرانى ثلاثة ، فيقال ان بنى أمية دست إليه سما فقتلوه خشية أن يخرج الامر من أيديهم ويمنعهم الأموال والله أعلم .

(١) كذا بالأصول . ولعله سقط منه لفظ « عبد الله بن أحمد »

وفيها غزا عمر بن الوليد بن هشام المعيطى ، وعمرو بن قيس الكندى من أهل حمص ، الصائفة وفيها ولى عمر بن عبد العزيز عمر بن هبيرة الجزيرة فسار إليها . وفيها حمل يزيد بن المهلب إلى عمر ابن عبد العزيز من العراق، فأرسله عدى بن أرطاة نائب البصرة مع موسى بن وجيه ، وكان عمر يبغض يزيد بن المهلب وأهل بيته ، و يقول : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم ، فلما دخل على عمر طالبه بما قبله من الأموال التى كان قد كتب إلى سليمان أنها حاصلة عنده ، فقال : إنما كتبت ذلك لأرهب الأعداء بذلك ، ولم يكن بينى و بين سليمان شئ ، وقد عرفت مكانتى عنده . فقال له عمر : لاأسمع منك هذا ، ولست أطلقك حتى تؤدى أموال المسلمين ، وأمر بسجنه . وكان عمر قد بعث على إمرة خراسان الجراح بن عبد الله الحكمى عوضه ، وقدم ولد يزيد بن المهلب ، مخلد بن يزيد ، فقال : يا أمير المؤمنين إن الله عز وجل قدمن على هذه الأمة بولايتك عليها ، فلا نكونن نحن أشقى الناس بك فعلام تحبس هذا الشيخ وأنا أقوم له أتصالحنى عنه ؟ فقال عمر : لا أصالحك عنه إلا أن تقوم بجميع مايطلب منه ، ولا آخذ منه إلا جميع ماعنده من مال المسلمين . فقال : يا أمير المؤمنين إن كانت لك بينة عليه بما تقول و إلا فاقبل يمينه أو فصالحنى عنه ، فقال : لا آخذ منه إلا جميع ماعنده . فخرج مخلد بن يزيد من عند عمر ، فلم يلبث أن مات مخلد . وكان عمر يقول : هو خير من أبيه . ثم إن عمر أمر بأن يلبس يزيد بن المهلب جبة صوف و يركب على بعير إلى جزيرة دهلك التى كان ينفى إليها الفساق ، فشفعوا فيه فرده إلى السجن ، فلم يزل به حتى مرض عمر مرضه الذى مات فيه ، فهرب من السجن وهو مريض ، وعلم أنه يموت فى مرضه ذلك ، و بذلك كتب إليه كما سيأتى ، وأظنه كان عالما أن عمر قد سقى سما .

وفيها فى رمضان منها عزل عمر بن عبد العزيز الجراح بن عبد الله الحكمى عن إمرة خراسان ، بعد سنة وخمسة أشهر ، و إنما عزله لأنه كان يأخذ الجزية ممن أسلم من الكفار و يقول : أنتم إنما تسلمون فراراً منها . فامتنعوا من الاسلام وثبتوا على دينهم وأدوا الجزية ، فكتب إليه عمر : إن الله إنما بعث محمداً ﷺ داعيا ، ولم يبعثه جابياً . وعزله وولى بدله عبد الرحمن بن نعيم القشيرى على الحرب ، وعبد الرحمن بن عبد الله على الخراج . وفيها كتب عمر إلى عماله يأمرهم بالخير و ينهاهم عن الشر ، و يبين لهم الحق و يوضحه لهم و يعظهم فيما بينه و بينهم ، و يخوفهم بأس الله وانتقامه ، وكان فيما كتب إلى عبد الرحمن بن نعيم القشيرى :

أما بعد فكن عبداً لله ناصحاً لله فى عباده ، ولا تأخذك فى الله لومة لائم ، فان الله أولى بك من الناس ، وحقه عليك أعظم ، ولاتولين شيئا من أمور المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم ،

والتوفير عليهم . وأدّى الامانة فيما استرعى ، و إياك أن يكون ميلك ميلا إلى غير الحق ، فان الله لا تخفى عليه خافية ، ولاتذهبن عن الله مذهبا ، فانه لاملجأ من الله إلا إليه . وكتب مثل ذلك مواعظ كثيرة إلى العمال . وقال البخارى فى صحيحه : وكتب عمر إلى عدى بن عدى : إن للايمان فرائض وشرائع وحدوداً وسننا ، من استكملها استكمل الايمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان ، فان أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها ، و إن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص .

وفيها كان بدوّ دعوة بني العباس

وذلك أن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ـ وكان مقيما بأرض الشراة ـ بعث من جهته رجلا يقال له ميسرة ، إلى العراق ، وأرسل طائفة أخرى وهم محمد بن خُنَيس وأبو عكرمة السراج ، وهو أبو محمد الصادق ، وحيان العطار ـ خال إبراهيم بن سلمة ـ إلى خراسان ، وعليها يومئذ الجراح ابن عبد الله الحكمى قبل أن يعزل فى رمضان ، وأمرهم بالدعاء إليه و إلى أهل بيته ، فلقوا من لقوا ثم انصرفوا بكتب من استجاب منهم إلى ميسرة الذى بالعراق ، فبعث بها إلى محمد بن على ففرح بها واستبشر وسره أن ذلك أول مبادئ أمر قد كتب الله إتمامه ، وأول رأى قد أحكم الله إبرامه ، أن دولة بنى أمية قد بان عليها مخايل الوهن والضعف ، ولاسيما بعد موت عمر بن عبد العزيز ، كما سيأتى بيانه . وقد اختار أبو محمد الصادق لمحمد بن على اثنى عشر نقيباً ، وهم سليمان بن كثير الخزاعى ، ولاهز بن قريظ التميمى ، وقحطبة بن شبيب الطائى ، وموسى بن كعب التميمى ، وخالد بن إبراهيم أبو داود من بنى عمرو بن شيبان بن ذهل ، والقاسم بن مجاشع التميمى ، وعمران بن إسماعيل أبو النجم ـ مولى لآل أبى مُعيط ـ ومالك بن الهيثم الخزاعى ، وطلحة بن زُريق الخزاعى ، وعمرو ابن أعين أبو حمزة ـ مولى لخزاعة ـ ، وشبل بن طهمان أبو على الهروى ـ مولى لبنى حنيفة ـ وعيسى ابن أعين مولى لخزاعة أيضاً . واختار سبعين رجلا أيضاً . وكتب إليهم محمد بن على كتابا يكون مثالا وسيرة يقتدون بها و يسيرون بها .

وقد حج بالناس فى هذه السنة أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، نائب المدينة . والنواب على الأمصار هم المذكورون فى التى قبلها ، سوى من ذكرنا ممن عزل وتولى غيره والله أعلم . ولم يحج عمر ابن عبد العزيز فى أيام خلافته لشغله بالأمور ، ولكنه كان يبرد البريد إلى المدينة فيقول له : سلم على رسول الله ﷺ عنى ، وسيأتى باسناده إن شاء الله .

وممن توفي فيها من الأعيان

﴿ سالم بن أبى الجعد الأشجعى ﴾ مولاهم الكوفى . أخو زياد وعبد الله وعبيد الله وعمران

ومسلم ؛ وهو تابعي جليل ، روى عن ثوبان[1] وجابر وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، والنعمان ابن بشير وغيرهم . وعنه قتادة والأعمش وآخرون ، وكان ثقة نبيلا جليلا .

ابو أمامة سهل بن حنيف

الأنصارى الأوسى المدنى ، ولد فى حياة النبى (ص) ورآه وحدث عن أبيه وعمر وعثمان وزيد بن ثابت ومعاوية وابن عباس . وعنه الزهرى وأبو حازم وجماعة ، قال الزهرى : كان من علية الأنصار وعلمائهم ، ومن أبناء الذين شهدوا بدراً . وقال يوسف بن الماجشون عن عتبة بن مسلم ، قال : آخر خرجة خرجها عثمان بن عفان إلى الجمعة حصبه الناس وحالوا بينه و بين الصلاة ، فصلى بالناس يومئذ أبو أمامة سهل بن حنيف . قالوا : توفى سنة مائة والله أعلم

ابو الزاهرية حدير بن كريب الحمصى

تابعى جليل ، سمع أبا أمامة صدى بن عجلان ، وعبد الله بن بُسر ، و يقال إنه أدرك أبا الدرداء والصحيح أن روايته عنه وعن حذيفة مرسلة ، وقد حدث عنه جماعة من أهل بلده ، وقد وثقه ابن معين وغيره . ومن أغرب ماروى عنه قول قتيبة : ثنا شهاب بن خراش عن حميد عن أبى الزاهرية قال : أغفيت فى صخرة بيت المقدس فجاءت السدنة فأغلقوا علىّ الباب ، فما انتبهت إلا بتسبيح الملائكة فوثبت مذعوراً فاذا الملائكة صفوف ، فدخلت معهم فى الصف . قال أبو عبيدة وغيره : مات سنة مائة .

ابو الطفيل عامر بن واثلة

ابن عبد الله بن عمرو الليثى الكنانى ، صحابى ، وهو آخر من رأى النبى (ص) وفاة بالاجماع قال : رأيت النبى (ص) يستلم الركن بمحجنه ، وذكر صفة النبى (ص) ، وروى عن أبى بكر وعمر وعلى ومعاذ وابن مسعود ، وحدث عنه الزهرى وقتادة وعمرو بن دينار وأبو الزبير وجماعة من التابعين ، وكان من أنصار على بن أبى طالب ، شهد معه حروبه كلها ، لكن نقم بعضهم عليه كونه كان مع المختار بن أبى عبيد ، و يقال إنه كان حامل رايته ، وقد روى أنه دخل على معاوية فقال : ما أبقى لك الدهر من ثكلك عليا ؟ فقال : ثكل العجوز المقلاة والشيخ الرقوب ، فقال : كيف حبك له ؟ قال حب أم موسى لموسى ، و إلى الله أشكو التقصير . قيل إنه أدرك من حياة النبى (ص) ثمان سنين ، ومات سنة مائة وقيل سنة سبع ومائة فالله أعلم . قال مسلمة بن الحجاج : وهو آخر من مات من الصحابة مطلقاً ومات سنة مائة .

ابو عثمان النهدى

واسمه عبد الرحمن بن مُل البصرى ، أدرك الجاهلية وحج فى زمن الجاهلية مرتين ، وأسلم فى حياة

---

(١) فى خلاصة تذهيب الكمال « قال أحمد : لم يلق ثوبان . وقال البخارى : لم يسمع منه »

النبي (ص) ولم يره ، وأدى فى زمانه الزكاة ثلاث سنين إلى عمال النبي (ص) ، ومثل هذا يسميه أئمة الحديث مخضرماً ، وهاجر إلى المدينة فى زمان عمر بن الخطاب ، فسمع منه ومن على وابن مسعود وخلق من الصحابة وصحب سلمان الفارسى ثنتى عشرة سنة حتى دفنه ، وروى عنه جماعة من التابعين وغيرهم ، منهم أيوب ، وحميد الطويل ، وسليمان بن طرخان التيمى ، وقال عاصم الأحول : سمعته يقول : أدركت فى الجاهلية يغوث صنما من رصاص يحمل على جمل أجرد ، فاذا بلغ واديا برك فيه فيقولون : قد رضى ربكم لكم هذا الوادى فينزلون فيه ، قال : وسمعته وقد قيل له أدركت النبى (ص) ؟ فقال : نعم ! أسلمت على عهده ، وأديت إليه الزكاة ثلاث مرات ، ولم ألقه ، وشهدت اليرموك والقادسية وجلولاء ونهاوند . كان أبو عثمان صوّاما قوّاما ، يسرد الصوم ويقوم الليل لا يتركه ، وكان يصلى حتى يغشى عليه ، وحج ستين مرة مابين حجة وعمرة ، قال سليمان التيمى : إنى لأحسبه لايصيب ذنباً ، لأنه ليله قائما ونهاره صائما ، وقال بعضهم : سمعت أبا عثمان النهدى يقول : أتت على ثلاثون ومائة سنة وما منى شئ إلا وقد أنكرته خلا أملى فانى أجده كما هو . وقال ثابت البنانى عن أبى عثمان . قال : إنى لأعلم حين يذكرنى ربى عز وجل ، قال فيقول : من أين تعلم ذلك ؟ فيقول قال الله تعالى [فاذكرونى أذكركم] فاذا ذكرت الله ذكرنى . قال : وكنا إذا دعونا الله قال : والله لقد استجاب الله لنا ، قال الله تعالى [وقال ربكم ادعونى أستجب لكم] قالوا : وعاش مائة وثلاثين سنة ، قاله هشيم وغيره . قال المدائنى وغيره : توفى سنة مائة ، وقال الفلاس : توفى سنة خمس وتسعين ، والصحيح سنة مائة والله أعلم .

وفيها توفى عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ، وكان يفضل على والده فى العبادة والانقطاع عن الناس ، وله كلمات حسان مع أبيه ووعظه إياه .

ثم دخلت سنة احدى ومائة

فيها كان هرب يزيد بن المهلب من السجن حين بلغه مرض عمر بن عبد العزيز ، فواعد غلمانه يلقونه بالخيل فى بعض الأماكن ، وقيل بابل له ، ثم نزل من محبسه ومعه جماعة وامرأته عاتكة بنت الفرات العامرية ، فلما جاء غلمانه ركب رواحله وسار ، وكتب إلى عمر بن عبد العزيز : إنى والله ما خرجت من سجنك إلا حين بلغنى مرضك ، ولو رجوت حياتك ما خرجت ، ولكنى خشيت من يزيد بن عبد الملك فانه يتوعدنى بالقتل ، وكان يزيد يقول : لئن وليت لأقطعن من يزيد بن المهلب طائفة ، وذلك أنه لما ولى العراق عاقب أصهاره آل عقيل ، وهم بيت الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكان يزيد بن عبد الملك مزوجا بينت محمد بن يوسف ، وله ابنه الوليد بن يزيد الفاسق المقتول كما سيأتى . ولما بلغ عمر بن عبد العزيز أن يزيد بن المهلب هرب من السجن قال : اللهم إن كان يريد بهذه الأمة

سوءاً فا كفهم شره واردد كيده فى نحره ، ثم لم يزل المرض يتزايد بعمر بن عبد العزيز حتى مات وهو بخناصرة ، من دير سمعان بين حماه وحلب ، فى يوم الجمعة ، وقيل فى يوم الاربعاء لخمس بقين من رجب من هذه السنة - أعنى سنة إحدى ومائة - عن تسع وثلاثين سنة وأشهر ، وقيل إنه جاوز الأربعين بأشهر فالله أعلم .

وكانت خلافته فيما ذكر غير واحد سنتين وخمسة اشهر وأربعة أيام ، وكان حكما مقسطا ، و إماما عادلا و ورعا دينا ، لا تأخذه فى الله لومة لائم رحمه الله تعالى .

وهذه ترجمة عمر بن عبد العزيز الأمام المشهور رحمه الله

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن ابى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف أبو حفص القرشى الأموى المعروف أمير المؤمنين ، وأمه أم عاصم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما ، و يقال له أشج بنى مروان ، وكان يقال : الأشج والناقص أعدلا بنى مروان . فهذا هو الأشج وسيأتى ذكر الناقص . كان عمر تابعيا جليلا ، روى عن أنس بن مالك والسائب بن يزيد ، و يوسف بن عبد الله بن سلام ، و يوسف صحابى صغير . وروى عن خلق من التابعين . وعنه جماعة من التابعين وغيرهم . قال الأمام أحمد بن حنبل : لا أدرى قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز . بويع له بالخلافة بعد ابن عمه سليمان بن عبد الملك ، عن عهد منه له بذلك كما تقدم ، و يقال : كان مولده فى سنة إحدى وستين ، وهى السنة التى قتل فيها الحسين بن على بمصر ، قاله غير واحد . وقال محمد بن سعد : ولد سنة ثلاث وستين ، وقيل سنة تسع وخمسين ، فالله أعلم .

وكان له جماعة من الأخوة ولكن الذين هم من أبويه أبو بكر وعاصم ومحمد ، وقال أبو بكر بن أبى خيثمة عن يحيى بن معين عن يحيى بن بكير عن الليث . قال : بلغنى أن عمران بن عبد الرحمن ابن شرحبيل بن حسنة كان يحدث أن رجلا رأى فى المنام ليلة ولد عمر بن عبد العزيز - أو ليلة ولى الخلافة شك أبو بكر - أن مناديا بين السماء والأرض ينادى : أتاكم اللين والدين و إظهار العمل الصالح فى المصلين ، فقلت : ومن هو ؟ فنزل فكتب فى الأرض ع م ر . وقال آدم بن إياس : ثنا أبو على ثروان مولى عمر بن عبد العزيز . قال : دخل عمر بن عبد العزيز إلى اصطبل أبيه فضربه فرس فشجه ، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول : إن كنت أشج بنى أمية إنك إذا لسعيد . رواه الحافظ ابن عساكر من طريق هارون بن معروف عن ضمرة ، وقال نعيم بن حماد : ثنا ضمام بن إسماعيل عن أبى قبيل أن عمر بن عبد العزيز بكى وهو غلام صغير ، فبلغ أمه فأرسلت إليه فقالت : مايبكيك ؟ قال : ذكرت الموت ، فبكت أمه . وكان قد جمع القرآن وهو صغير ، وقال الضحاك بن عثمان الخزامى . كان أبوه قد جعله عند صالح بن كيسان يؤدبه ، فلما حج أبوه اجتاز به فى

المدينة فسأله عنه فقال : ماخبرت أحداً الله أعظم فى صدره من هذا الغلام وروى يعقوب بن سفيان أن عمر بن عبد العزيز تأخر عن الصلاة مع الجماعة يوماً فقال صالح بن كيسان : ماشغلك ؟ فقال : كانت مرجّلتى تسكن شعرى ، فقال له : قدّمت ذلك على الصلاة ؟ وكتب إلى أبيه وهو على مصر يعلمه بذلك ، فبعث أبوه رسولا فلم يكلمه حتى حلق رأسه . وكان عمر بن عبد العزيز يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله يسمع منه ، فبلغ عبيد الله أن عمر ينتقص علياً ، فلما أتاه عمر أعرض عبيد الله عنه وقام يصلى ، فجلس عمر ينتظره ، فلما سلم أقبل على عمر مغضبا وقال له : متى بلغك أن الله سخط على أهل بدر بعد أن رضى عنهم ؟ قال ففهمها عمر وقال : معذرة إلى الله ثم إليك ، والله لا أعود ، قال : فما سمع بعد ذلك يذكر عليا إلا بخير . وقال أبو بكر بن أبى خيثمة : ثنا أبى ثنا المفضل بن عبد الله عن داود بن أبى هند . قال : دخل علينا عمر بن عبد العزيز من هذا الباب ـ وأشار إلى باب من أبواب مسجد النبى ص‍ـ ـ فقال رجل من القوم : بعث الفاسق لنا بابنه هذا يتعلم الفرائض والسنن ، ويزعم أنه لن يموت حتى يكون خليفة ، ويسير سيرة عمر بن الخطاب . قال داود : والله ما مات حتى رأينا ذلك فيه .

وقال الزبير بن بكار : حدثنى العتبى قال : إن أول ما استبين من رشد عمر بن عبد العزيز حرصه على العلم ورغبته فى الأدب ، إن أباه ولى مصر وهو حديث السن يشك فى بلوغه ، فأراد أبوه إخراجه معه إلى مصر من الشام ، فقال : يا أبة أو غير ذلك لعله يكون أنفع لى ولك ؟ قال : وما هو ؟ قال : ترحّلنى إلى المدينة فأقعد إلى فقهائها وأتأدب بآدابهم ، فعند ذلك أرسله أبوه إلى المدينة ، وأرسل معه الخدام ، فقعد مع مشايخ قريش ، وتجنب شبابهم ، وما زال ذلك دأبه حتى اشتهر ذكره ، فلما مات أبوه أخذه عمه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فخلطه بولده ، وقدمه على كثير منهم ، وزوجه بابنته فاطمة ، وهى التى يقول الشاعر فيها :

بنتُ الخليفةِ والخليفةُ جدها * أختَ الخلائفِ والخليفةُ زوجها

قال : ولا نعرف امرأة بهذه الصفة إلى يومنا هذا سواها .

قال العتبى : ولم يكن حاسد عمر بن عبد العزيز ينقم عليه شيئا سوى متابعته فى النعمة ، والاختيال فى المشية ، وقد قال الأحنف بن قيس : الكامل من عُدت هفواته ولا تعد إلا من قلة . وقد ورث عمر من أبيه من الأموال والمتاع والدواب هو وإخوته مالم يرثه غيره فيما نعلم ، كما تقدم ذلك ، ودخل يوما على عمه عبد الملك وهو يتجانف فى مشيته فقال : ياعمر مالك تمشى غير مشيتك ؟ قال : إن فىّ جُرحا ، فقال : وأين هو من جسدك ؟ قال : بين الرانقة والصفن ـ يعنى بين طرف الالية وجلدة الخصية ـ فقال عبد الملك لروح بن زنباع : بالله لو رجل من قومك سئل عن هذا ما أجاب بمثل

هذا الجواب . قالوا : ولما مات عمه عبد الملك حزن عليه ولبس المسوح تحت ثيابه سبعين يوماً ، ولما ولى الوليد عامله بما كان أبوه يعامله به ، وولاه المدينة ومكة والطائف من سنة ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسعين ، وأقام للناس الحج سنة تسع وثمانين ، وسنة تسعين ، وحج الوليد بالناس سنة إحدى وتسعين ، ثم حج بالناس عمر سنة ثنتين أو ثلاث وتسعين .

وبنى فى مدة ولايته هذه مسجد النبى (ص) ووسعه عن أمر الوليد له بذلك ، فدخل فيه قبر النبى (ص) ، وقد كان فى هذه المدة من أحسن الناس معاشرة ، وأعدلهم سيرة ، كان إذا وقع له أمر مشكل جمع فقهاء المدينة عليه ، وقد عين عشرة منهم ، وكان لايقطع أمرا بدونهم أو من حضر منهم ، وهم عروة ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد بن حزم ، وسالم بن عبد الله ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد بن ثابت . وكان لايخرج عن قول سعيد بن المسيب ، وقد كان سعيد بن المسيب لايأتى أحداً من الخلفاء ، وكان يأتى إلى عمر بن عبد العزيز وهو بالمدينة ، وقال إبراهيم بن عبلة : قدمت المدينة وبها ابن المسيب وغيره ، وقد ندبهم عمر يوما إلى رأى

وقال ابن وهب : حدثنى الليث حدثنى قادم البربرى أنه ذاكر ربيعة بن أبى عبد الرحمن يوما شيئا من قضايا عمر بن عبد العزيز إذ كان بالمدينة ، فقال له الربيع : كأنك تقول : أخطأ ، والذى نفسى بيده ما أخطأ قط . وثبت من غير وجه عن أنس بن مالك . قال : ماصليت وراء إمام أشبه بصلاة رسول الله (ص) من هذا الفتى - يعنى عمر بن عبد العزيز - حين كان على المدينة . قالوا : وكان يتم الركوع والسجود ويخفف القيام والقعود ، وفى رواية صحيحة أنه كان يسبح فى الركوع والسجود عشراً عشراً ، وقال ابن وهب : حدثنى الليث عن أبى النضر المدينى ، قال : رأيت سليمان ابن يسار خارجاً من عند عمر بن عبد العزيز فقلت له : من عند عمر خرجت ؟ قال : نعم ! قلت : تعلمونه ؟ قال : نعم ، فقلت : هو والله أعلمكم . وقال مجاهد : أتينا عمر نعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه. وقال ميمون بن مهران : كانت العلماء عند عمر بن عبد العزيز تلامذة ، وفى رواية قال ميمون : كان عمر بن عبد العزيز معلم العلماء . وقال الليث : حدثنى رجل كان قد صحب ابن عمر وابن عباس ، مكان عمر بن عبد العزيز يستعمله على الجزيرة ، قال : ما التمسنا علم شئ إلا وجدنا عمر بن عبد العزيز أعلم الناس بأصله وفرعه ، وما كان العلماء عند عمر بن عبد العزيز إلا تلامذة . وقال عبد الله بن طاووس : رأيت أبى تواقف هو وعمر بن عبد العزيز من بعد صلاة العشاء حتى أصبحنا ، فلما افترقا قلت : يا أبة من هذا الرجل ؟ قال هذا عمر بن عبد العزيز ، وهو من صالحى هذا البيت -

يعنى بنى أمية ـ وقال عبد الله بن كثير قلت لعمر بن عبد العزيز ما كان بدء إنابتك ؟ قال : أردت ضرب غلام لى فقال لى : اذكر ليلة صبيحتها يوم القيامة [١]

وقال الامام مالك : لما عزل عمر بن عبد العزيز عن المدينة ـ يعنى فى سنة ثلاث وتسعين ـ وخرج منها التفت إليها و بكى وقال لمولاه : يا مزاحم ، نخشى أن نكون ممن نفت المدينة ـ يعنى أن المدينة تنفى خبثها كما ينفى الكير خبث الحديد ـ و ينصع طيبها . قلت : خرج من المدينة فنزل بمكان قريب منها يقال له السويداء حيناً [٢] ، ثم قدم دمشق على بنى عمه . قال محمد بن إسحاق عن إسماعيل بن أبى حكيم . قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يقول : خرجت من المدينة وما من رجل أعلم منى ، فلما قدمت الشام نسيت . وقال الامام أحمد : حدثنا عفان ثنا حماد بن زيد عن معمر عن الزهرى قال : سهرت مع عمر بن عبد العزيز ذات ليلة فحدثته ، فقال : كلُّ ما حدثت فقد سمعته ولكن حفظت ونسيتُ . وقال ابن وهب عن الليث عن عقيل عن الزهرى قال قال عمر بن عبد العزيز : بعث إلى الوليد ذات ساعة من الظهيرة ، فدخلت عليه فاذا هو عابس ، فأشار إلى أن اجلس ، فجلست فقال : ماتقول فيمن يسب الخلفاء أيقتل ؟ فسكت ، ثم عاد فسكت ، ثم عاد فقلت : أقتَل يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ، ولكن سب ، فقلت : ينكَّل به ، فغضب وانصرف إلى أهله ، وقال لى ابن الريان السياف : اذهب ، قال : فخرجت من عنده وما تهب ريح إلا وأنا أظن أنه رسول يردنى إليه . وقال عثمان بن زبر : أقبل سليمان بن عبد الملك وهو أمير المؤمنين ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان ، وفيه تلك الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال ، فقال سليمان : ماتقول يا عمر فى هذا ؟ فقال : أرى دنيا يأكل بعضها بعضا وأنت المسئول عن ذلك كله ، فلما اقتربوا من المعسكر إذا غراب قد أخذ لقمة فى فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ، ونعب نعبة ، فقال له سليمان : ماهذا ياعمر ؟ فقال : لا أدرى ، فقال : ماظنك أنه يقول ؟ قلت : كأنه يقول : من أين جاءت وأين يذهب بها ؟ فقال له سليمان : ما أعجبك ؟ فقال عمر : اعجبْ ممن عرف الله فعصاه ، ومن عرف الشيطان فأطاعه ، ومن عرف الدنيا فركن إليها .

وتقدم أنه لما وقف سليمان وعمر بعرفة ورأى سليمان كثرة الناس فقال له عمر : هؤلاء رعيتك

---

(١) بالأصول « يوماً صبيحتها يعنى يوم القيامة » وصححناه من سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صفحة ١٤٩ (٢) السويداء أرض كان يملكها عمر بن عبد العزيز ، واستنبط فيها من عطائه عين ماء ، وله فيها قصر مبنى . ولما تنازل لبيت المال عن جميع ما ورثه عن آبائه أبقى (السويداء) و (خيبر) لأنه اطمأنّ إلى أنهما حلال خالص ليس فيه أية شبهة . وكان هو خليفة يأكل من غلتها و ينفق ما يزيد عن الضرورة

اليوم وأنت مسئول عنهم غدا . وفى رواية وهم خصماؤك يوم القيامة ، فبكى سليمان وقال : بالله نستعين. وتقدم أنهم لما أصابهم ذلك المطر والرعد فزع سليمان وضحك عمر فقال له : أتضحك ؟ فقال : نعم هذه آثار رحمته ونحن فى هذه الحال ، فكيف بآثار غضبه وعقابه ونحن فى تلك الحال ؟ وذكر الامام مالك أن سليمان وعمر تقاولا مرة فقال له سليمان فى جملة الكلام : كذبت ، فقال : تقول كذبت ؟ والله ما كذبت منذ عرفت أن الكذب يضر أهله ، ثم هجره عمر وعزم على الرحيل إلى مصر ، فلم يمكنه سليمان ، ثم بعث إليه فصالحه وقال له : ما عرض لى أمر يهمنى إلا خطرتَ على بالى . وقد ذكرنا أنه لما حضرته الوفاة أوصى بالأمر من بعده إلى عمر بن عبد العزيز فانتظم الأمر على ذلك ولله الحمد .

فصل

وقد كان منتظراً فيما يؤثر من الأخبار

قال أبو داود الطيالسى : حدثنا عبد العزيز بن عبد الله بن أبى سلمة الماجشون ثنا عبد الله ابن دينار قال قال ابن عمر : يا عجبا ! ! يزعم الناس أن الدنيا لا تنقضى حتى يلى رجل من آل عمر يعمل بمثل عمل عمر ، قال : وكانوا يرونه بلال بن عبد الله بن عمر ، قال : وكان بوجهه أثر ، فلم يكن هو ، وإذا هو عمر بن عبد العزيز ، وأمه ابنة عاصم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب . وقال البيهقى : أنبأ الحاكم أنبأ أبو حامد بن على المقرى ثنا أبو عيسى الترمذى ثنا أحمد بن إبراهيم ثنا عفان ثنا عثمان بن عبد الحميد بن لاحق عن جويرية بن أسماء عن نافع . قال : بلغنا أن عمر بن الخطاب قال : إن من ولدى رجلا بوجهه شجان يلى فيملأ الأرض عدلا . قال نافع من قبله : ولا أحسبه إلا عمر ابن عبد العزيز . ورواه مبارك بن فضالة عن عبيد الله عن نافع . وقال : كان ابن عمر يقول : ليت شعرى مَن هذا الذى من ولد عمر فى وجهه علامة يملأ الأرض عدلا ؟ قال وهيب بن الورد : بينا أنا نائم رأيت كأن رجلا دخل من باب بنى شيبة وهو يقول : يا أيها الناس ! ولى عليكم كتاب الله . فقلت : من ؟ فأشار إلى ظفره فاذا مكتوب عليه ع م ر ، قال فجاءت بيعة عمر بن عبد العزيز . وقال بقية عن عيسى بن أبى رزين حدثنى الخزاعى عن عمر بن عبد العزيز أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى روضة خضراء فقال له : « إنك ستلى أمر أمتى فزع عن الدم فزع عن الدم[1] ، فان اسمك فى الناس عمر بن عبد العزيز ، واسمك عند الله جابر » . وقال أبو بكر بن المقرى : ثنا أبو عروبة الحسين بن محمد بن مودود الحرانى ثنا أيوب بن محمد الوزان ثنا ضمرة بن ربيعة ثنا السرى بن يحيى عن رياح بن عبيدة . قال : خرج عمر بن عبد العزيز إلى الصلاة وشيخ متوكئ على يده ، فقلت فى نفسى : إن

---

(١) وزعه يزعه فاتزع ، أى كفّ عنه .

هذا الشيخ جاف ، فلما صلى ودخل لحقته فقلت : أصلح الله الأمير ، من هذا الشيخ الذى أتكأته يدك ؟ فقال : يا رياح رأيته ؟ قلت : نعم ! قال : ما أحسبك يا رياح إلا رجلا صالحاً ، ذاك أخى الخضر أتانى فأعلمنى أنى سألى أمر هذه الأمة وأنى سأعدل فيها .

وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا أبو عمير ثنا ضمرة عن علي بن خولة عن أبى عنبس . قال : كنت جالساً مع خالد بن يزيد بن معاوية فجاء شاب عليه مقطعات فأخذ بيد خالد ، فقال : هل علينا من عين ؟ فقال أبو عنبس : فقلت عليكما من الله عين بصيرة ، وأذن سميعة ، قال : فترقرت عينا الفتى . فأرسل يده من يد خالد و ولى ، فقلت : من هذا ؟ قال : هذا عمر بن عبد العزيز ابن أخى أمير المؤمنين ، ولئن طالت بك حياة لترينه إمام هدى . قلت : قد كان عند خالد بن يزيد بن معاوية شئ جيد من أخبار الأوائل وأقوالهم ، وكان ينظر فى النجوم والطب . وقد ذكرنا فى ترجمة سليمان بن عبد الملك أنه لما حضرته الوفاة أراد أن يعهد إلى بعض أولاده ، فصرفه وزيره الصالح رجاء بن حيوة عن ذلك ، وما زال به حتى عهد إلى عمر بن عبد العزيز من بعده وصوّب ذلك رجاء فكتب سليمان العهد فى صحيفة وختمها ولم يشعر بذلك عمر ولا أحد من بنى مَروان سوى سليمان ورجاء ، ثم أمر صاحب الشرطة باحضار الأمراء ورءوس الناس من بنى مروان وغيرهم ، فبايعوا سليمان على مافى الصحيفة المختومة ، ثم انصرفوا ، ثم لما مات الخليفة استدعاهم رجاء بن حيوة فبايعوا ثانية قبل أن يعلموا موت الخليفة ، ثم فتحها فقرأها عليهم ، فاذا فيها البيعة لعمر بن عبد العزيز ، فأخذوه فأجلسوه على المنبر وبايعوه فانعقدت له البيعة .

وقد اختلف العلماء فى مثل هذا الصنيع فى الرجل يوصى الوصية فى كتاب ويشهد على مافيه من غير أن يقرأ على الشهود . ثم يشهدون على مافيه فينفذ ، فسوغ ذلك جماعات من أهل العلم ، قال القاضى أبو الفرج المعافى بن زكريا الجريرى : أجاز ذلك وأمضاه وأنفذ الحكم به جمهور أهل الحجاز ، وروى ذلك عن سالم بن عبد الله . وهو مذهب مالك ومحمد بن مسلمة المخزومى ومكحول ، ونمير بن أوس وزرعة بن إبراهيم ، والاوزاعى وسعيد بن عبد العزيز ، ومن وافقهم من فقهاء الشام . وحكى نحو ذلك خالد بن يزيد بن أبى مالك عن أبيه وقضاة جنده ، وهو قول الليث بن سعد فيمن وافقه من فقهاء أهل مصر والمغرب ، وهو قول فقهاء أهل البصرة وقضاتهم . وروى عن قتادة وعن سوار ابن عبد الله وعبيد الله بن الحسن ومعاذ بن معاذ العنبرى فيمن سلك سبيلهم ، وأخذ بهذا عدد كثير من أصحاب الحديث ، منهم أبو عبيد وإسحاق بن راهويه . قلت : وقد اعتنى به البخارى فى صحيحه . قال المعافى : وأبى ذلك جماعة من فقهاء العراق ، منهم إبراهيم وحماد والحسن ، وهو مذهب الشافعى وأبى ثور ، قال : وهو قول شيخنا أبى جعفر ، وكان بعض أصحاب الشافعى بالعراق يذهب

الى القول الأول ، قال الجريرى : وإلى القول الأول نذهب . وتقدم أن عمر بن عبد العزيز لما رجع من جنازة سليمان أتى بمراكب الخلافة ليركبها فامتنع من ذلك وأنشأ يقول : ـ

فلولا التقى ثم النهى خشية الردى * لعاصيتُ فى حب الصبا كلَّ زاجر
قضى ما قضى فيما مضى ثم لا نرى * له صبوةً أخرى الليالى الغوابر

ثم قال : ماشاء الله لا قوة إلا بالله . قدموا إلى بغلتى ، ثم أمر ببيع تلك المراكب الخليفية فيمن يزيد ، وكانت من الخيول الجياد المثمنة ، فباعها وجعل أثمانها فى بيت المال . قالوا : ولما رجع من الجنازة وقد بايعه الناس واستقرت الخلافة باسمه ، انقلب وهو مغتم مهموم ، فقال له مولاه : مالك هكذا مغتما مهموما وليس هذا بوقت هذا ؟ فقال : ويحك ومالى لا أغتم وليس أحد من أهل المشارق والمغارب من هذه الأمة إلا وهو يطالبنى بحقه أن أؤديه إليه ، كتب إلى فى ذلك أو لم يكتب ، طلبه منى أو لم يطلب . قالوا : ثم إنه خير امرأته فاطمة بين أن تقيم معه على أنه لا فراغ له إليها ، وبين أن تلحق بأهلها ، فبكت وبكى جواريها لبكائها ، فسمعت ضجة فى داره ، ثم اختارت مقامها معه على كل حال رحمها الله . وقال له رجل : تفرغ لنا يا أمير المؤمنين ، فأنشأ يقول :

قد جاء شغلٌ شاغلٌ * وعدلتَ عن طرق السلامه
ذهبَ الفراغُ فلا فرا * غَ لنا إلى يوم القيامه

وقال الزبير بن بكار : حدثنى محمد بن سلام عن سلام بن سليم قال : لما ولى عمر بن عبد العزيز صعد المنبر وكان أول خطبة خطبها حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فليفارقنا . يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير على مالا نهتدى إليه ، ولا يغتابن عندنا أحدا ، ولا يعرضن فيما لا يعنيه . فانقشع عنه الشعراء والخطباء وثبت معه الفقهاء والزهاد ، وقالوا : ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله . وقال سفيان ابن عيينة : لما ولى عمر بن عبد العزيز بعث إلى محمد بن كعب ورجاء بن حيوة وسالم بن عبد الله فقال لهم : قد ترون ما ابتليت به وما قد نزل بى ، فما عندكم ؟ فقال محمد بن كعب : اجعل الشيخ أبا ، والشاب أخا ، والصغير ولدا ، وبر أباك وصل أخاك ، وتعطف على ولدك . وقال رجاء : ارض للناس ما ترضى لنفسك ، وما كرهت أن يؤتى إليك فلا تأته إليهم ، واعلم أنك أول خليفة تموت . وقال سالم : اجعل الأمر واحدا وصم فيه عن شهوات الدنيا ، واجعل آخر فطرك فيه الموت . فكأن قد . فقال عمر : لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقال غيره : خطب عمر بن عبد العزيز يوما الناس فقال ـ وقد خنقته العبرة ـ أيها الناس أصلحوا آخرتكم يصلح الله دنياكم ، وأصلحوا أسراركم يصلح لكم علانيتكم ، والله إن عبداً ليس

بينه و بين آدم أب إلا قد مات ، إنه لمعرق له فى الموت . وقال فى بعض خطبه : كم من عامر موثق عما قليل يخرب ، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن . فأحسنوا رحمكم الله من الدنيا الرحلة بأحسن مايحضر بكم من النقلة ، بينما ابن آدم فى الدنيا ينافس قرير العين فيها يانع ، إذ دعاه الله بقدره ، ورماه بسهم حتفه ، فسلبه اثارة دنياه ، وصير إلى قوم آخرين مصانعه ومغناه ، إن الدنيا لاتسر بقدر ما تضر ، تسر قليلا وتحزن طويلا . وقال إسماعيل بن عياش عن عمرو بن مهاجر قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز قام فى الناس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس ! إنه لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبى بعد محمد عليه السلام ، و إنى لست بقاض ولكنى منفذ ، و إنى لست بمبتدع ولكنى متبع ، إن الرجل الهارب من الامام الظالم ليس بظالم إلا أن الامام الظالم هو العاصى ، ألا لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق عز وجل . وفى رواية أنه قال فيها : و إنى لست بخير من أحد منكم ، ولكننى أثقلكم حملا ، ألا لاطاعة لمخلوق فى معصية الله ، ألا هل أسمعت .

وقال أحمد بن مروان : ثنا أحمد بن يحيى الحلوانى ثنا محمد بن عبيد ثنا إسحاق بن سليمان عن شعيب بن صفوان حدثنى ابن لسعيد بن العاص قال : كان آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز ، حمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد فانكم لم تخلقوا عبثاً ، ولم تتركوا سدى ، و إن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله تعالى ، وحرم جنة عرضها السموات والأرض ، ألم تعلموا أنه لايأمن غدا إلا من حذر اليوم الآخر وخافه ، وباع فانياً بباق ، ونافداً بمالا نفاد له ، وقليلا بكثير ، وخوفا بأمان ، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين ، وسيكون من بعدكم للباقين ، كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين ، ثم إنكم فى كل يوم تشيعون غاديا و رائحاً إلى الله لايرجع ، قد قضى نحبه حتى تغيبوه فى صدع من الأرض ، فى بطن صدع غير موسد ولا ممهد ، قد فارق الأحباب ، وواجه التراب والحساب ، فهو مرتهن بعمله ، غنى عما ترك ، فقير لما قدم ، فاتقوا الله قبل القضاء ، راقبوه قبل نزول الموت بكم ، أما إنى أقول هذا ، ثم وضع طرف ردائه على وجهه فبكى وأبكى من حوله . وفى رواية : وايم الله إنى لأقول قولى هذا ولا أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسى ، ولكنها سنن من الله عادلة ، أمر فيها بطاعته ، ونهى فيها عن معصيته ، وأستغفر الله ، ووضع كمه على وجهه فبكى حتى بل لحيته ، فما عاد لمجلسه حتى مات رحمه الله .

وروى أبو بكر بن أبى الدنيا عن عمر بن عبد العزيز أنه رأى رسول الله (ص) فى النوم وهو يقول : « ادن ياعمر ، فدنوت حتى خشيت أن أصيبه ، فقال : إذا وليت فاعمل نحوا من عمل هذين ، فاذا كهلان قد اكتنفاه ، فقلت : ومن هذان ؟ قال : هذا أبو بكر وهذا عمر » . وروينا أنه قال : لسالم بن عبد الله بن عمر : اكتب لى سيرة عمر حتى أعمل بها ، فقال له سالم : إنك لا تستطيع ذلك ،

قال : ولم ؟ قال : إنك إن عملت بها كنت أفضل من عمر ، لأنه كان يجد على الخير أعوانا ، وأنت لا تجد من يعينك على الخير . وقد روى أنه كان نقش خاتمه لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وفى رواية آمنت بالله ، وفى رواية الوفاء عزيز . وقد جمع يوما رءوس الناس فخطبهم فقال : إن فدك كانت بيد رسول الله (ص) يضعها حيث أراه الله ، ثم وليها أبو بكر وعمر كذلك ، قال الأصمعى : وما أدرى ماقال فى عثمان ، قال : ثم إن مروان أقطعها فحصل لى منها نصيب ، ووهبنى الوليد وسليمان نصيبهما ، ولم يكن من مالى شئ أرده أغلى منها ، وقد رددتها فى بيت المال على ما كانت عليه فى زمان رسول الله (ص) . قال : فيئس الناس عند ذلك من المظالم ، ثم أمر بأموال جماعة من بنى أمية فردها إلى بيت المال وسماها أموال المظالم ، فاستشفعوا إليه بالناس ، وتوسلوا اليه بعمته فاطمة بنت مروان فلم ينجع فيه شئ ، وقال لهم : لتدعنى وإلا ذهبت إلى مكة فنزلت عن هذا الأمر لأحق الناس به ، وقال : والله لو أقمت فيكم خمسين عاما ما أقمت فيكم إلا ما أريد من العدل ، وإنى لأريد الأمر فما أنفذه إلا مع طمع من الدنيا حتى تسكن قلوبهم .

وقال الامام أحمد عن عبد الرزاق عن أبيه عن وهب بن منبه أنه قال : إن كان فى هذه الأمة مهدى فهو عمر بن عبد العزيز ، ونحو هذا قال قتادة وسعيد بن المسيب وغير واحد . وقال طاوس : هو مهدى وليس به ، إنه لم يستكمل العدل كله ، إذا كان المهدى ثبت على المسئ من إساءته ، وزيد المحسن فى إحسانه ، سمح بالمال شديد على العمال رحيم بالمساكين . وقال مالك عن عبد الرحمن بن حرملة عن سعيد بن المسيب أنه قال : الخلفاء أبو بكر والعمران ، فقيل له : أبو بكر وعمر قد عرفناهما فمن عمر الآخر ؟ قال : يوشك إن عشت أن تعرفه ، يريد عمر بن عبد العزيز ، وفى رواية أخرى عنه أنه قال : هو أشج بنى مروان . وقال عباد السماك وكان يجالس سفيان الثورى - : سمعت الثورى يقول : الخلفاء خمسة ، أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ؛ وعمر بن عبد العزيز . وهكذا روى عن أبى بكر بن عياش والشافعى وغير واحد . وأجمع العلماء قاطبة على أنه من أئمة العدل وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين . وذكره غير واحد فى الأئمة الاثنى عشر ، الذين جاء فيهم الحديث الصحيح : « لايزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى يكون فيهم اثنى عشر خليفة كلهم من قريش » .

وقد اجتهد رحمه الله فى مدة ولايته - مع قصرها - حتى رد المظالم ، وصرف إلى كل ذى حق حقه ، وكان مناديه فى كل يوم ينادى : أين الغارمون ؟ أين الناكحون ؟ أين المساكين ؟ أين اليتامى ؟ حتى أغنى كلا من هؤلاء . وقد اختلف العلماء أيهم أفضل هو أو معاوية بن أبى سفيان ؟ ففضل بعضهم عمر لسيرته ومعدلته وزهده وعبادته ، وفضل آخرون معاوية لسابقته وصحبته ، حتى قال بعضهم : ليوم شهده معاوية من رسول الله (ص) خير من عمر بن عبد العزيز وأيامه وأهل بيته . وذكر ابن

عساكر فى تاريخه أن عمر بن عبد العزيز كان يعجبه جارية من جوارى زوجته فاطمة بنت عبد الملك ، فكان سألها إياها إمابيعاً أوهبة ، فكانت تأبى عليه ذلك ، فلما ولى الخلافة ألبستها وطيبتها وأهدتها إليه ووهبتها منه ، فلما أخلتها به أعرض عنها ، فتعرضت له فصدف عنها ، فقالت له : ياسيدى فأين ما كان يظهر لى من محبتك إياى ؟ فقال : والله إن محبتك لباقية كما هى ، ولكن لاحاجة لى فى النساء ، فقد جاءنى أمر شغلنى عنك وعن غيرك ، ثم سألها عن أصلها ومن أين جلبوها ، فقالت : يا أمير المؤمنين إن أبى أصاب جناية ببلاد المغرب فصادره موسى بن نصير فأخذت فى الجناية ، وبعث بى إلى الوليد فوهبنى الوليد إلى أخته فاطمة زوجتك ، فأهدتنى إليك . فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون ، كدنا والله نفتضح ونهلك ، ثم أمر بردها مكرمة إلى بلادها وأهلها .

وقالت زوجته فاطمة : دخلت يوما عليه وهو جالس فى مصلاه واضعا خده على يده ودموعه تسيل على خديه ، فقلت : مالك ؟ فقال : ويحك يا فاطمة ، قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت ، فتفكرت فى الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والعارى المجهود ، واليتيم المكسور ، والأرملة الوحيدة والمظلوم المقهور . والغريب والأسير ، والشيخ الكبير ، وذى العيال الكثير ، والمال القليل ، وأشباههم فى أقطار الأرض وأطراف البلاد ، فعلمت أن ربى عز وجل سيسألنى عنهم يوم القيامة ، وأن خصمى دونهم محمد (ص) ، فخشيت أن لايثبت لى حجة عند خصومته ، فرحمت نفسى فبكيت .

وقال ميمون بن مهران ولانى عمر بن عبد العزيز عمالة ثم قال لى : إذا جاءك كتاب منى على غير الحق فاضرب به الأرض . وكتب إلى بعض عماله : إذا دعتك قدرتك على الناس إلى مظلمة ، فاذكر قدرة الله عليك ونفاد ما تأتى إليهم ، وبقاء مايأتون إليك . وقال عبد الرحمن بن مهدى عن جرير بن حازم عن عيسى بن عاصم قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن عدى : إن للأسلام سنناوفرائض وشرائع ، فمن استكملها استكمل الايمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الايمان ، فان أعش أبينها لكم لتعملوا بها ، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص . وذكره البخارى فى صحيحه تعليقا مجزوما به .

وذكر الصولى أن عمر كتب إلى بعض عماله : عليك بتقوى الله فانها هى التى لايقبل غيرها ولايرحم إلا أهلها ، ولايثاب إلا عليها ، وإن الواعظين بها كثير ، والعاملين بها قليل . وقال : من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه وينفعه ، ومن أكثر ذكر الموت اجتزأ من الدنيا باليسير . وقال : من لم يعد كلامه من عمله كثرت خطاياه ، ومن عبد الله بغير علم كان مايفسده أكثر مما يصلحه . وكلمه رجل يوماً حتى أغضبه فهم به عمر ثم أمسك نفسه ، ثم قال للرجل : أردت أن يستفزنى الشيطان بعزة السلطان فأنال منك ماتناله منى غداً ؟ قم عافاك الله لاحاجة لنا فى مقاولتك . وكان يقول : إن أحب الأمور إلى الله القصد فى الجد ، والعفو فى المقدرة ، والرفق فى الولاية ، ومارفق عبد

بعبد فى الدنيا إلا رفق الله به يوم القيامة . وخرج ابن له وهو صغير يلعب مع الغلمان فشجه صبى منهم؛ فاحتملوا الصبى الذى شج ابنه وجاؤا به إلى عمر ، فسمع الجلبة فخرج اليهـم ، فاذا مُرَيْئة تقول : إنه ابنى و إنه يتيم ، فقال لها عمر : هونى عليك ، ثم قال لها عمر : أله عطاء فى الديوان ؟ قالت : لا ! قال : فاكتبوه فى الذرية . فقالت زوجته فاطمة : أتفعل هـذا به وقد شج ابنك ؟ فعل الله به وفعل ، المرة الأخرى يشج ابنك ثانية . فقال : ويحك ، إنه يتيم وقد أفزعتموه . وقال مالك بن دينار : يقولون مالك زاهد ، أى زهد عندى ؟ إنما الزاهد عمر بن عبـد العزيز ، أتته الدنيا فاغرة فاها فتركها جملة . قالوا : ولم يكن له سوى قميص واحـد فكان إذا غسلوه جلس فى المنزل حتى ييبس ، وقد وقف مرة على راهب فقال له : ويحك عظنى ، فقال له : عليك بقول الشاعر :ـ

تجردْ من الدنيا فانكَ إنما * خرجتَ إلى الدنيا وأنتَ مجردُ

قال : وكان يعجبه و يكر ره وعمل به حق العمل . قالوا : ودخل على امرأته يوماً فسألها أن تقرضه درهما أو فلوسا يشترى له بها عنباً ، فلم يجـد عندها شيئاً ، فقالت له : أنت أمير المؤمنين وليس فى خزانتك ما تشترى به شيء ؟ فقال : هـذا أيسر من معالجة الأغلال والأنـكال غدا فى نار جهنم . قالوا : وكان سراج بيته على ثلاث قصبات فى رأسهن طين ، قالوا : و بعث يوما غلامه ليشوى له لحمة فجاءه بها سريعاً مشوية ، فقال : أين شويتها ؟ قال : فى المطبخ ، فقال : فى مطبخ المسلمين ؟ قال : نعم . فقال : كلها فانى لم أرزقها ، هى رزقك . وسخنوا له المـاء فى المطبخ العام فرد بدل ذلك بدرهم حطبا . وقالت زوجته : ماجامع ولا احتلم وهو خليفة . قالوا : و بلغ عمر بن عبد العزيز عن أبى سلام الأسود أنه يحـدث عن ثوبان بحديث الحوض فبعث إليـه فأحضره على البريد وقال له ، كالمتوجع له : يا أبا سـلام ما أردنا المشقة عليك ، ولكن أردت أن تشافهنى بالحـديث مشافهة ، فقال : سمعت ثوبان يقول قال رسول الله (ص) : «حوضى ما بين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأكوابه عـدد نجوم السماء ، من شرب منـه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، وأول الناس ورودا عليـه فقراء المهاجرين ، الشعث رؤساً ، الدنس ثياباً ، الذين لاينكحون المتنعمات ، ولاتفتح لهم السدد » . فقال عمر : لـكنى نكحت المتنعمات ، فاطمة بنت عبد الملك ، فلا جرم لاأغسل رأسى حتى يشعث ، ولا ألقى ثوبى حتى يتسخ . قالوا : وكان له سراج يكتب عليـه حوائجه ، وسراج لبيت المال يكتب عليه مصالح المسلمين ، لا يكتب على ضوئه لنفسه حرفا . وكان يقرأ فى المصحف كل يوم أول النهار ، ولا يطيل القراءة ، وكان له ثلاثمائة شرطى ، وثلاثمائة حرسى ، وأهدى له رجل من أهل بيتـه تفاحاً فاشتمه ثم رده مع الرسول ، وقال له : قل له قـد بلغت محلها ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين إن رسول الله (ص) كان يقبل الهدية ، وهذا رجل من أهل بيتك ، فقال : إن الهدية

كانت لرسول الله ص هدية ، فأما نحن فهى لنارشوة . قالوا : وكان يوسع على عماله فى النفقة ، يعطى الرجل منهم فى الشهر مائة دينار ، ومائتى دينار ، وكان يتأول أنهم إذا كانوا فى كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين ، فقالوا له : لو أنفقت على عيالك كما تنفق على عمالك ؟ فقال : لا أمنعهم حقاً لهم ، ولا أعطيهم حق غيرهم . وكان أهله قد بقوا فى جهد عظيم فاعتذر بأن معهم سلفا كثيراً من قبل ذلك ، وقال يوماً لرجل من ولد على : إنى لأستحى من الله أن تقف ببابى ولا يؤذن لك ، وقال لآخر منهم : إنى لأستحى من الله وأرغب بك أن أدنسك بالدنيا لما أكرمكم الله به . وقال أيضاً : كنا نحن و بنو عمنا بنو هاشم مرة لنا ومرة علينا ، نلجأ إليهم و يلجئون إلينا ، حتى طلعت شمس الرسالة فأكسدت كل نافق ، وأخرست كل منافق ، وأسكتت كل ناطق .

وقال أحمد بن مروان : ثنا أبو بكر ابن أخى خطاب ثنا خالد بن خداش ثنا حماد بن زيد عن موسى بن أيمن الراعى ـ وكان يرعى الغنم لمحمد بن عيينة ـ قال : كانت الأسد والغنم والوحش ترعى فى خلافة عمر بن عبد العزيز فى موضع واحد ، فعرض ذات يوم لشاة منها ذئب فقلت : إنا لله ، ما أرى الرجل الصالح إلا قد هلك . قال فحسبناه فوجدناه قد هلك فى تلك الليلة . ورواه غيره عن حماد فقال : كان يرعى الشاة بكرمان فذكر نحوه ، وله شاهد من وجه آخر ، ومن دعائه : اللهم إن رجالا أطاعوك فيما أمرتهم وانتهوا عما نهيتهم ، اللهم وإن توفيقك إياهم كان قبل طاعتهم إياك ، فوفقنى . ومنه : اللهم إن عمر ليس بأهل أن تناله رحمتك ، ولكن رحمتك أهل أن تنال عمر . وقال له رجل : أبقاك الله ما كان البقاء خيراً لك ، فقال : هذا شئ قد فرغ منه ، ولكن قل : أحياك الله حياة طيبة ، وتوفاك مع الأبرار . وقال له رجل : كيف أصبحت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أصبحت بطيئا بطيناً ، متلوثاً بالخطايا ، أتمنى على الله عز وجل . ودخل عليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين إن من كان قبلك كانت الخلافة لهم زين ، وأنت زين الخلافة ، وإنما مثلك يا أمير المؤمنين كما قال الشاعر

وإذا الدرُّ زانَ حسنَ وجوهٍ * كانَ للدرِ حسنُ وجهكَ زينا

قال : فأعرض عنه عمر . وقال رجاء بن حيوة : سمرت عند عمر بن عبد العزيز ذات ليلة فعشى السراج فقلت : يا أمير المؤمنين : ألا أنبه هذا الغلام يصلحه ؟ فقال : لا ! دعه ينام ، لا أحب أن أجمع عليه عملين . فقلت : أفلا أقوم أصلحه ؟ فقال : لا ! ليس من المروءة استخدام الضيف ، ثم قام بنفسه فأصلحه وصب فيه زيتا ثم جاء وقال : قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ، وجلست وأنا عمر ابن عبد العزيز ، وقال : أكثروا ذكر النعم فان ذكرها شكرها . وقال : إنه ليمنعنى من كثرة ذكرها مخافة المباهاة ، وبلغه أن رجلا من أصحابه توفى ، فجاء إلى أهله ليعزيهم فيه ، فصرخوا فى وجهه

بالبكاء عليه ، فقال : مه ، إن صاحبكم لم يكن يرزقكم ، و إن الذى يرزقكم حى لا يموت ، و إن صاحبكم هذا لم يسد شيئاً من حفركم ، و إنما سد حفرة نفسه ، ألا و إن لكل امرئ منكم حفرة لا بد والله أن يسدها ، إن الله عز وجل لما خلق الدنيا حكم عليها بالخراب ، وعلى أهلها بالفناء ، وما امتلأت دار حبرة إلا امتلأت عبرة ، ولا اجتمعوا إلا تفرقوا ، حتى يكون الله هو الذى يرث الأرض ومن عليها ، فمن كان منكم باكيا فليبك على نفسه ، فان الذى صار إليه صاحبكم كل الناس يصيرون إليه غدا .

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر إلى القبور فقال لى : يا أبا أيوب ! هذه قبور آبائى بنى أمية ، كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذتهم وعيشهم ، أما تراهم صرعى قد خلت بهم المثلات ، واستحكم فيهم البلاء ؟ ثم بكى حتى غشى عليه ، ثم أفاق فقال : انطلقوا بنا فوالله لا أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور ، وقد أمن من عذاب الله ، ينتظر ثواب الله . وقال غيره : خرج عمر بن عبد العزيز فى جنازة فلما دفنت قال لأصحابه : قفوا حتى آتى قبور الأحبة : فأتاهم فجعل يبكى ويدعو ، إذ هتف به التراب فقال : ياعمر ألا تسألنى مافعلت فى الأحبة ؟ قال قلت : وما فعلت بهم ؟ قال : مزقت الأكفان ، وأكلت اللحوم ، وشدخت المقلتين ، وأكلت الحدقتين ، ونزعت الكفين من الساعدين ، والساعدين من العضدين ، والعضدين من المنكبين ، والمنكبين من الصلب ، والقدمين من الساقين ، والساقين من الفخذين ، والفخذين من الورك ، والورك من الصلب . فلما أراد أن يذهب قال له : ياعمر أدلك على أكفان لاتبلى ؟ قال : وماهى ؟ قال : تقوى الله والعمل الصالح .

وقال مرة لرجل من جلسائه : لقد أرقت الليلة مفكراً ، قال : وفيم يا أمير المؤمنين ؟ قال : فى القبر وساكنه ، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاث فى قبره ، وماصار إليه ، لاستوحشت من قربه بعد طول الأنس منك بناحيته ، ولرأيت بيتا تجول فيه الهوام ، وتخترق فيه الديدان ، ويجرى فيه الصديد ، مع تغير الريح ، وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح ، ونقاء الثوب ، قال : ثم شهق شهقة خر مغشياً عليه . وقال مقاتل بن حيان : صليت وراء عمر بن عبد العزيز فقرأ [وقفوهم إنهم مسؤلون] فجعل يكررها وما يستطيع أن يتجاوزها . وقالت امرأته فاطمة : مارأيت أحدا أكثر صلاة وصياماً منه ، ولا أحداً أشد فرقاً من ربه منه ، كان يصلى العشاء ثم يجلس يبكى حتى تغلبه عيناه ، ثم ينتبه فلا يزال يبكى حتى تغلبه عيناه ، قالت : ولقد كان يكون معى فى الفراش فيذكر الشئ من أمر الآخرة فينتفض كما ينتفض العصفور فى الماء ، ويجلس يبكى ، فأطرح عليه اللحاف رحمة له ، وأنا أقول : ياليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين ، فو الله مارأينا سروراً منذ دخلنا فيها .

وقال على بن زيد : مارأيت رجلين كأن النار لم تخلق إلا لهما مثل الحسن وعمر بن عبد العزيز . وقال بعضهم : رأيته يبكى حتى بكى دما ، قالوا : وكان إذا أوى إلى فراشه قرأ [إن ربكم الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام] الآية ، ويقرأ [أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاوهم نائمون] ونحو هذه الآيات ، وكان يجتمع كل ليلة إليه أصحابه من الفقهاء فلا يذكرون إلا الموت والآخرة ، ثم يبكون حتى كأن بينهم جنازة ، وقال أبو بكر الصولى : كان عمر بن عبد العزيز يتمثل بقول الشاعر :

فما تزودَ مما كانَ يجمعهُ * سوى حنوطٍ غداةَ البينِ فى خرقِ
وغيرَ نفحة أعوادٍ تشبُّ لهُ * وقلَّ ذلكَ من زادٍ لمنطلقِ
بأيما بلدٍ كانتْ منيتهُ * إن لايسرْ طائعاً فى قصدها يُسقِ

ونظر عمر بن عبد العزيز وهو فى جنازة إلى قوم قد تلثموا من الغبار والشمس وانحازوا إلى الظل فبكى وأنشد :

من كانَ حينَ تصيبُ الشمسُ جبهتهُ * أو الغبارُ يخافُ الشينَ والشعثا
ويألفُ الظلَّ كى تبقى بشاشتهُ * فسوفَ يسكنُ يوماً راغماً جدثا
فى قعرِ مظلمةٍ غبراءَ موحشةٍ * يطيلُ فى قعرها تحتَ الثرى اللبثا
تجهزى بجهازٍ تبلغينَ بهِ * يانفسُ قبلَ الردى لم تخلقى عبثاً

هذه الأبيات ذكرها الآجرى فى أدب النفوس بزيادة فيها فقال : أخبرنا أبو بكر أنبأنا أبو حفص عمر بن سعد القراطيسى حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبى الدنيا حدثنى محمد بن صالح القرشى أخبرنى عمر بن الخطاب الأزدى حدثنى ابن لعبد الصمد بن عبد الأعلى بن أبى عمرة قال : أراد عمر بن عبد العزيز أن يبعثه رسولا إلى اليون طاغية الروم يدعوه إلى الاسلام ، فقال له عبد الأعلى : يا أمير المؤمنين ! إئذن لى فى بعض بنى يخرج معى - وكان عبد الأعلى له عشرة من الذكور - فقال له : انظر من يخرج معك من ولدك . فقال : عبد الله ، فقال له عمر : إنى رأيت ابنك عبد الله يمشى مشية كرهتها منه ومقته عليها ، و بلغنى أنه يقول الشعر . فقال عبد الأعلى : أما مشيته تلك فغريزة فيه ، وأما الشعر فانما هو نواحة ينوح بها على نفسه ، فقال له : مر عبد الله يأتينى وخذ معك غيره ، فراح عبد الاعلى بابنه عبد الله إليه ، فاستنشده فأنشده ذلك الشعر المتقدم :

تجهزى بجهازٍ تبلغين بهِ * يانفسُ قبلَ الردى لم تخلقى عبثا
ولا تكدى لمنْ يبقى وتفتقرى * إنَّ الردى وارثُ الباقى وما ورثا
واخشى حوادثَ صرفِ الدهرِ فى مهلٍ * واستيقظى لاتكونى كالذى بحثا
عنْ مديةٍ كانَ فيها قطعُ مدتهِ * فوافتِ الحرثَ موفوراً كما حرثا

لا تأمنى فجع دهر مترف ختل * قد استوى عنده من طاب أو خبثا
يارب ذى أمل فيه على وجل * أضحى به آمنا امسى وقد حدثا
من كان حين تصيب الشمس جبهته * أو الغبار يخاف الشين والشعثا
ويألف الظل كى تبقى بشاشته * فسكيف يسكن يوما راغما جدثا
قفراء موحشة غبراء مظلمة * يطيل تحت الثرى من قعرها اللبثا

وقد ذكرها ابن أبى الدنيا فعمر أنشدها عنه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وكان عمر يتمثل بها كثيراً و يبكى.

وقال الفضل بن عباس الجلبى : كان عمر بن عبد العزيز لايجف فوه من هذا البيت :

ولا خير فى عيش امرئ لم يكن له * من الله فى دار القرار نصيب

و زاد غيره معه بيتا حسنا وهو قوله :

فان تعجب الدنيا أناسا فانها * متاع قليل والزوال قريب

ومن شعره الذى أنشده ابن الجوزى :

أنا ميت وعز من لايموت * قد تيقنت أننى سأموت
ليس ملك يزيله الموت ملكا * إنما الملك ملك من لا يموت

وقال عبد الله بن المبارك : كان عمر بن عبد العزيز يقول :

تسر بما يفنى وتفرح بالمنى * كما اغتر باللذات فى النوم حالم
نهارك يامغرور سهو وغفلة * وليلك نوم والردى لك لازم
وسعيك فيما سوف تكره غبه * كذلك فى الدنيا تعيش البهائم

وقال محمد بن كثير : قال عمر بن عبد العزيز يلوم نفسه :

أيقظان أنت اليوم أم أنت نائم * وكيف يطيق النوم حيران هائم
فلو كنت يقظان الغداة لحرقت * محاجر عينيك الدموع السواجم
اصبحت فى النوم الطويل وقد دنت * إليك أمور مفظعات عظائم
وتكدح فيما سوف تكره غبه * كذلك فى الدنيا تعيش البهائم
فلا أنت فى النوام يوما بسالم * ولا أنت فى الايقاظ يقظان حازم

و روى ابن أبى الدنيا بسنده عن فاطمة بنت عبد الملك قالت : انتبه عمر ذات ليلة وهو يقول : لقد رأيت الليلة رؤيا عجيبة ، فقلت : أخبرنى بها ، فقال : حتى نصبح ، فلما صلى بالمسلمين دخل

فسألته فقال : رأيت كأنى دفعت إلى أرض خضراء واسعة كأنها بساط أخضر وإذا فيها قصر كأنه الفضة فخرج منه خارج فنادى أين محمد بن عبد الله ، أين رسول الله ؟ إذ أقبل رسول الله ص ، حتى دخل ذلك القصر ، ثم خرج آخر فنادى : أين أبو بكر الصديق ؟ فأقبل فدخل ، ثم خرج آخر فنادى أين عمر بن الخطاب ؟ فأقبل فدخل ، ثم خرج آخر فنادى أين عثمان بن عفان ؟ فأقبل فدخل ، ثم خرج آخر فنادى أين على بن أبى طالب ؟ فأقبل فدخل ، ثم خرج آخر فنادى أين عمر بن عبد العزيز ؟ تممت فدخلت فجلست إلى جانب أبى عمر بن الخطاب ، وهو عن يسار رسول الله ص ، وأبو بكر عن يمينه ، و بينه و بين رسول الله ص رجل ، فقلت : لأبى : من هذا ؟ قال : هذا عيسى بن مريم ، ثم سمعت هاتفاً يهتف بينى و بينه نور لا أراه ، وهو يقول : يا عمر بن عبد العزيز تمسك بما أنت عليه ، واثبت على ما أنت عليه ، ثم كأنه أذن لى فى الخروج فخرجت ، فالتفت فاذا عثمان بن عفان وهو خارج من القصر وهو يقول : الحمد لله الذى نصرنى ربى ، وإذا على فى إثره وهو يقول : الحمد لله الذى غفر لى ربى .

فصل

وقد ذكرنا فى دلائل النبوة الحديث الذى رواه أبو داود فى سننه أن رسول الله ص قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها » . فقال جماعة من أهل العلم منهم أحمد بن حنبل فيما ذكره ابن الجوزى وغيره : إن عمر بن عبد العزيز كان على رأس المائة الأولى ، و إن كان هو أولى من دخل فى ذلك وأحق ، لأمامته وعموم ولايته ، وقيامه واجتهاده فى تنفيذ الحق ، فقد كانت سيرته شبيهة بسيرة عمر بن الخطاب ، وكان كثيراً ما تشبه به . وقد جمع الشيخ أبو الفرج ابن الجوزى سيرة لعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز ، وقد أفردنا سيرة عمر بن الخطاب فى مجلد على حدة ، ومسنده فى مجلد ضخم ، وأما سيرة عمر بن عبد العزيز فقد ذكرنا منها طرفاً صالحا هنا ، يستدل به على مالم نذكره .

وقد كان عمر رحمه الله يعطى من انقطع إلى المسجد الجامع من بلده وغيرها ، للفقه ونشر العلم وتلاوة القرآن ، فى كل عام من بيت المال مائة دينار ، وكان يكتب إلى عماله أن يأخذوا بالسنة ، ويقول : إن لم تصلحهم السنة فلا أصلحهم الله ، وكتب إلى سائر البلاد أن لا يركب ذمى من اليهود والنصارى وغيرهم على سرج ، ولا يلبس قباء ولا طيلسانا ولا السراويل ، ولا يمشين أحد منهم إلا بزنار من جلد ، وهو مقرون الناصية ، ومن وجد منهم فى منزله سلاح أخذ منه . وكتب أيضا أن لا يستعمل على الأعمال إلا أهل القرآن ، فان لم يكن عندهم خير فغيرهم أولى أن لا يكون عنده خير . وكان يكتب إلى عماله : اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلاة ، فان من أضاعها فهو لما سواها

من شرائع الاسلام أشد تضييعاً . وقد كان يكتب الموعظة إلى العامل من عماله فينخلع منها ، وربما عزل بعضهم نفسه عن العمالة وطوى البلاد من شدة ماتقع موعظته منه ، وذلك أن الموعظة إذا خرجت من قلب الواعظ دخلت قلب الموعوظ . وقد صرح كثير من الأئمة بأن كل من استعمله عمر بن عبد العزيز ثقة ، وقد كتب إليه الحسن البصرى بمواعظ حسان ولو تقصينا ذلك لطال هذا الفصل . ولكن قد ذكرنا مافيه إشارة إلى ذلك . وكتب إلى بعض عماله : أذكر ليلة تمخض بالساعة فصباحها القيامة ، فيالها من ليلة ويالة من صباح ، وكان يوماً على الكافر ين عسيرا . وكتب إلى آخر : أذكرك طول سهر أهل النار فى النار مع خلود الأبد ، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد بك ، وانقطاع الرجاء منك ، قالوا : فخلع هذا العامل نفسه من العمالة وقدم على عمر فقال له : مالك ؟ فقال : خلعت قلبى بكتابك يا أمير المؤمنين ، والله لا أعود إلى ولاية أبداً .

فصل

وقد رد جميع المظالم كما قدمنا ، حتى انه رد فص خاتم كان فى يده ، قال : أعطانيه الوليد من غير حقه ، وخرج من جميع ما كان فيه من النعيم فى الملبس والمأكل والمتاع ، حتى انه ترك التمتع بزوجته الحسناء ، فاطمة بن عبد الملك ، يقال كانت من أحسن النساء ، ويقال إنه رد جهازها إلى بيت المال ، والله أعلم . وقد كان دخله فى كل سنة قبل أن يلى الخلافة أربعين ألف دينار ، فترك ذلك كله حتى لم يبق له دخل سوى أربعمائة دينار فى كل سنة ، وكان حاصله فى خلافته ثلاثمائة درهم ، وكان له من الأولاد جماعة ، وكان ابنه عبد الملك أجلهم ، فمات فى حياته فى زمن خلافته ، حتى يقال إنه كان خيراً من أبيه ، فلما مات لم يظهر عليه حزن ، وقال : أمر رضيه الله فلا أكرهه ، وكان قبل الخلافة يؤتى بالقميص الرفيع اللين جداً فيقول : ما أحسنه لولا خشونة فيه ، فلما ولى الخلافة كان بعد ذلك يلبس القميص الغليظ المرقوع ولا يغسله حتى يتسخ جدا ، ويقول : ما أحسنه لولا لينه . وكان يلبس الفروة الغليظة ، وكان سراجه على ثلاث قصبات فى رأسهن طين ، ولم يبن شيئاً فى أيام خلافته ، وكان يخدم نفسه بنفسه ، وقال : ماتركت شيئاً من الدنيا إلا عوضنى الله ماهو خير منه ، وكان يأكل الغليظ ولا يبالى بشىء من النعيم ، ولا يتبعه نفسه ولا يوده . حتى قال أبو سليمان الدارانى : كان عمر بن عبد العزيز أزهد من أويس القرنى ، لأن عمر ملك الدنيا بحذافيرها وزهد فيها ، ولا ندرى حال أويس لو ملك ما ملكه عمر كيف يكون ؟ ليس من جرب كمن لم يجرب . وتقدم قول مالك بن دينار : إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز . وقال عبد الله بن دينار : لم يكن عمر يرتزق من بيت المال شيئاً ، وذكروا أنه أمر جارية تروحه حتى ينام فروحته ، فنامت هى ، فأخذ المروحة من يدها وجعل

بروحها ويقول : أصابك من الحر ما أصابني . وقال له رجل : جزاك الله عن الاسلام خيراً . فقال : بل جزى الله الاسلام عني خيراً . ويقال إنه كان يلبس تحت ثيابه مسحا غليظا من شعر ، ويضع في رقبته غلا إذا قام يصلي من الليل ، ثم إذا أصبح وضعه في مكان وختم عليه فلا يشعر به أحد ، وكانوا يظنونه مالا أو جوهرا من حرصه عليه ، فلما مات فتحوا ذلك المكان فاذا فيه غل ومسح .

وكان يبكي حتى يبكي الدم من الدموع ، ويقال إنه بكى فوق سطح حتى سال دمعه من الميزاب ، وكان يأكل من العدس ليرق قلبه وتغزر دمعته ، وكان إذا ذكر الموت اضطربت أوصاله ، وقرأ رجل عنده [وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين] الآية ، فبكى بكاء شديداً ثم قام فدخل منزله وتفرق الناس عنه ، وكان يكثر أن يقول : اللهم سلم سلم ، وكان يقول : اللهم أصلح من كان في صلاحه صلاح لأمة محمد (ص) ، وأهلك من كان في هلاكه صلاح أمة محمد (ص) . وقال : أفضل العبادة أداء الفرائض واجتناب المحارم . وقال : لو أن المرء لايأمر بالمعروف ولاينهى عن المنكر حتى يحكم أمر نفسه لتواكل الناس الخير ، ولذهب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة . وقال : الدنيا عدوة أولياء الله ، وولية أعداء الله ، أما الأولياء فغمتهم وأحزنتهم ، وأما الأعداء فغرتهم وشتتتهم وأبعدتهم عن الله . وقال : قد أفلح من عصم من المراء والغضب والطمع . وقال لرجل : من سيد قومك ؟ قال : أنا ، قال : لو كنت كذلك لم تقله . وقال : أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب . وقال : لقد بورك لعبد في حاجة أكثر فيها سؤال ربه ، أعطي أو منع . وقال : قيدوا العلم بالكتاب ، وقال لرجل : علم ولدك الفقه الأكبر : القناعة وكف الأذى . وتكلم رجل عنده فأحسن فقال : هذا هو السحر الحلال . وقصته مع أبي حازم مطولة حين رآه خليفة وقد شحب وجهه من التقشف ، وتغير حاله ، فقال له : ألم يكن ثوبك نقيا ؟ ووجهك وضيا ؟ وطعامك شهيا ؟ ومركبك وطيا ؟ فقال له : ألم تخبرني عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال : « إن من ورائكم عقبة كئودا لا يجوزها إلا كل ضامر مهزول » ؟ ثم بكى حتى غشي عليه ، ثم أفاق فذكر أنه لقي في غشيته تلك أن القيامة قد قامت ، وقد استدعى بكل من الخلفاء الأربعة ، فأمر بهم إلى الجنة ، ثم ذكر من بينه وبينهم فلم يدر ما صنع بهم ، ثم دعي هو فأمر به إلى الجنة ، فلما انفصل لقيه سائل فسأله عما كان من أمره فأخبره ، ثم قال للسائل : فمن أنت ؟ قال : أنا الحجاج بن يوسف ، قتلني ربي كل قتلة قتلة ، ثم ها أنا أنتظر ماينتظره الموحدون . وفضائله ومآثره كثيرة جدا ، وفيما ذكرنا كفاية ولله الحمد والمنة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة لنا إلا به .

ذكر سبب وفاته رحمه الله

كان سببها السل ، وقيل سببها أن مولى له سمه في طعام أو شراب ، وأعطي على ذلك ألف

دينار، فحصل له بسبب ذلك مرض، فأخبر أنه مسموم، فقال: لقد علمت يوم سقيت السم، ثم استدعى مولاه الذى سقاه، فقال له: ويحك!! ما حملك على ما صنعت؟ فقال: ألف دينار أعطيتها. فقال: هاتها، فأحضرها فوضعها فى بيت المال، ثم قال له: اذهب حيث لا يراك أحد فتهلك. ثم قيل لعمر: تدارك نفسك، فقال: والله لو أن شفائى أن أمس شحمة أذنى أو أوتى بطيب فأشمه مافعلت، فقيل له: هؤلاء بنوك - وكانوا اثنى عشر - ألا توصى لهم بشئ فانهم فقراء؟ فقال: [إن وليىّ الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين] والله لا أعطيتهم حق أحد وهم بين رجلين إما صالح فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح فما كنت لأعينه على فسقه. وفى رواية فلا أبالى فى أى وادهلك. وفى رواية أفأدع له مايستعين به على معصية الله فأكون شريكه فيما يعمل بعد الموت؟ ما كنت لأفعل. ثم استدعى بأولاده فودعهم وعزاهم بهذا، وأوصاهم بهذا الكلام ثم قال: انصرفوا عصمكم الله وأحسن الخلافة عليكم. قال: فلقد رأينا بعض أولاد عمر ابن عبد العزيز يحمل على ثمانين فرس فى سبيل الله، وكان بعض أولاد سليمان بن عبد الملك - مع كثرة ما ترك لهم من الأموال - يتعاطى ويسأل من أولاد عمر بن عبد العزيز، لأن عمر وكل ولده إلى الله عز وجل، وسليمان وغيره إنما يكلون أولادهم إلى مايدعون لهم، فيضيعون وتذهب أموالهم فى شهوات أولادهم. وقال يعقوب بن سفيان: ثنا أبو النعمان ثنا حماد بن زيد عن أيوب قال قيل لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين لو أتيت المدينة، فان قضى الله موتا دفنت فى القبر الرابع مع رسول الله ص، وأبى بكر وعمر، فقال: والله لأن يعذبنى الله بكل عذاب، إلا النار فانه لا صبر لى عليها، أحب إلى من أن يعلم الله من قلبى أنى لذلك الموضع أهل. قالوا: وكان مرضه بدير سمعان من قرى حمص وكانت مدة مرضه عشرين يوما، ولما احتضر قال: أجلسونى فأجلسوه فقال: إلهى أنا الذى أمرتنى فقصرت، ونهيتنى فعصيت، ثلاثا، ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه فأحدّ النظر، فقالوا: إنك لتنظر نظرا شديداً يا أمير المؤمنين، فقال: إنى لأرى حضرة ماهم بانس ولا جان، ثم قبض من ساعته. وفى رواية أنه قال لأهله: اخرجوا عنى، فخرجوا وجلس على الباب مسلمة بن عبد الملك وأخته فاطمة، فسمعوه يقول: مرحبا بهذه الوجوه التى ليست بوجوه إنس ولا جان ثم قرأ [تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين] ثم هدأ الصوت فدخلوا عليه فوجدوه قد غمض وسوى إلى القبلة وقبض.

وقال أبو بكر بن أبى شيبة: ثنا عبد الملك بن عبد العزيز عن الدراوردى عن عبد العزيز بن أبى سلمة أن عمر بن عبد العزيز لما وضع عند قبره هبت ريح شديدة فسقطت صحيفة بأحسن كتاب

فقرأوها فاذا فيها : بسم الله الرحمن الرحيم براءة من الله لعمر بن عبد العزيز من النار . فأدخلوها بين أكفانه ودفنوها معه .

وروى نحو هذا من وجه آخر ابن عساكر فى ترجمة عبد الصمد بن إسماعيل بسنده عن عمير ابن حبيب السلمى ، قال : أسرت أنا وثمانية فى زمن بنى أمية ، فأمر ملك الروم بضرب رقابنا ، فقتل أصحابى وشفع فىّ بطريق من بطارقة الملك ، فأطلقنى له ، فأخذنى إلى منزله ، وإذا له ابنة مثل الشمس ، فعرضها علىّ على أن يقاسمنى نعمته وأدخل معه فى دينه فأبيت ، وخلت بى ابنته فعرضت نفسها على فامتنعت ، فقالت : ما يمنعك من ذلك ؟ فقلت : يمنعنى دينى ، فلا أترك دينى لامرأة ولا لشئ . فقالت : تريد الذهاب إلى بلادك ؟ قلت : نعم ، فقالت : سر على هذا النجم بالليل وا كمن بالنهار ، فانه يلقيك إلى بلادك ، قال : فسرت كذلك ، قال فبينا أنا فى اليوم الرابع مكمن إذا بخيل مقبلة فخشيت أن تكون فى طلبى ، فاذا أنا بأصحابى الذين قتلوا ومعهم آخرون على دواب شهب ، فقالوا : عمير ؟ فقلت : عمير . فقلت : لهم أوليس قد قتلتم ؟ قالوا : بلى ، ولكن الله عز وجل نشر الشهداء وأذن لهم أن يشهدوا جنازة عمر بن عبد العزيز ، قال : ثم قال لى بعضهم : ناولنى يدك ياعمير ، فأردفنى فسرنا يسيراً ثم قذف بى قذفة وقعت قرب منزلى بالجزيرة ، من غير أن يكون لحقنى شر .

وقال رجاء بن حيوة : كان عمر بن عبد العزيز قد أوصى إلى أن أغسله وأكفنه ، فاذا حللت عقدة الكفن أن أنظر فى وجهه فادلى ، ففعلت فاذا وجهه مثل القراطيس بياضا ، وكان قد أخبرنى أنه كل من دفنه قبله من الخلفاء وكان يحل عن وجوههم فاذا هى مسودة . وروى ابن عساكر فى ترجمة يوسف ابن ماهك قال : بينا نحن نسوى التراب على قبر عمر بن عبد العزيز إذ سقط علينا من السماء كتاب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم أمان من الله لعمر بن عبد العزيز من النار . ساقه من طريق إبراهيم بن بشار عن عباد بن عمرو عن محمد بن يزيد البصيرى عن يوسف بن ماهك فذكره ، وفيه غرابة شديدة والله أعلم وقد رئيت له منامات صالحة ، وتأسف عليه الخاصة والعامة ، لاسيما العلماء والزهاد والعباد . ورثاه الشعراء ، فمن ذلك ما أنشده أبو عمرو الشيبانى لكثير عزة يرثى عمر :ـ

عمت صنائعهُ فعمَّ هلاكهُ * فالناسُ فيهِ كلهمْ مأجورُ
والناسُ مأتمهمْ عليهِ واحدٌ * فى كلِ دارٍ رنةٌ وزفيرُ
يثني عليكَ لسانُ منْ لم تولهِ * خيراً لأنكَ بالثناءِ جديرُ
ردتْ صنائعهُ عليهِ حياتهُ * فكأنهُ من نشرها منشورُ

وقال جرير يرثى عمر بن عبد العزيز رحمه الله :ـ

ينعى النعاةُ أميرَ المؤمنينَ لنا * ياخيرَ منْ حج بيتَ اللهِ واعتمرا

حملتَ أمراً عظيماً فاضطلعتَ بهِ * وسرتَ فيهِ بأمرِ اللهِ يا عمرا
الشمسُ كاسفةٌ ليستْ بطالعةٍ * تبكي عليكَ نجومَ الليلِ والقمرا

وقال محارب بن دثار رحمه الله يرثى عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : ـ

لو أعظمَ الموتَ خلقاً أن يواقعهُ * لعدلهِ لمْ يصبكَ الموتُ يا عمرُ
كمْ منْ شريعةِ عدلٍ قدْ نعشتَ لهمْ * كادتْ تموتُ وأخرى منكَ تنتظرُ
يا لهفَ نفسي ولهفَ الواجدينَ معي * على العدولِ التي تغتالها الحفرُ
ثلاثةٌ مارأتْ عيني لهمْ شبهاً * تضمُّ أعظمهمْ في المسجدِ الحفرُ
وأنتَ تتبعهمْ لمْ تألُ مجتهداً * سقياً لها سننٌ بالحقِ تفتقرُ
لوْ كنتَ أملكُ والاقدارُ غالبةٌ * تأتي رواحاً وتبياناً وتبتكرُ
صرفتُ عنْ عمرَ الخيراتِ مصرعهُ * بديرِ سمعانَ لكنْ يغلبُ القدرُ

قالوا : وكانت وفاته بدير سمعان من أرض حمص ، يوم الخميس ، وقيل الجمعة لخمس مضين ، وقيل بقين من رجب ، وقيل لعشر بقين منه ، سنة إحدى وقيل ثنتين ومائة ، وصلى عليه ابن عمه مسلمة ابن عبد الملك ، وقيل صلى عليه يزيد بن عبد الملك ، وقيل ابنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، وكان عمره يوم مات تسعاً وثلاثين سنة وأشهراً ، وقيل إنه جاوز الأربعين بأشهر ، وقيل بسنة . وقيل بأكثر ، وقيل إنه عاش ثلاثا وستين سنة ، وقيل ستا وثلاثين ، وقيل سبعا وثلاثين ، وقيل ثمانيا وثلاثين سنة ، وقيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين ولم يبلغها . وقال أحمد عن عبد الرزاق عن معمر : مات على رأس خمس وأربعين سنة . قال ابن عساكر : وهذا وهم ، والصحيح الأول تسعا وثلاثين سنة وأشهراً . وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام ، وقيل أربعة عشر يوما ، وقيل سنتان ونصف .

وكان رحمه الله أسمر دقيق الوجه حسنه نحيف الجسم حسن اللحية غائر العينين ، بجبهته أثر شجة وكان قد شاب وخضب رحمه الله ، والله سبحانه أعلم .

فصل

لما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة جاءه صاحب الشرطة ليسير بين يديه بالحربة على عادته مع الخلفاء قبله ، فقال له عمر : مالي ولك ؟ تنح عني ، إنما أنا رجل من المسلمين . ثم سار وساروا معه حتى دخل المسجد ، فصعد المنبر واجتمع الناس إليه فقال : أيها الناس ! إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم ولأمركم من تريدون . فصاح المسلمون صيحة واحدة : قد اخترناك

لأنفسنا وأمرنا ، ورضينا كلنا بك . فلما هدأت أصواتهم حمد الله وأثنى عليه وقال : أوصيكم بتقوى الله ، فان تقوى الله خلف من كل شئ ، وليس من تقوى الله خلف ، وأكثروا من ذكر الموت فانه هادم اللذات ، وأحسنوا الاستعداد له قبل نزوله ، وإن هذه الأمة لم تختلف فى ربها ولا فى كتابها ولا فى نبيها ، وإنما اختلفوا فى الدينار والدرهم ، وإنى والله لا أعطى أحداً باطلا ، ولا أمنع أحداً حقا ، ثم رفع صوته فقال : أيها الناس ! من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعونى ما أطعت الله ، فاذا عصيت الله فلا طاعة لى عليكم ، ثم نزل فدخل فأمر بالستور فهتكت والثياب التى كانت تبسط للخلفاء أمر بها فبيعت ، وأدخل أثمانها فى بيت المال ، ثم ذهب يتبوأ مقيلا ، فأتاه ابنه عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ما ذا تريد أن تصنع ؟ قال : يا بنى أقيل ، قال : تقيل ولا ترد المظالم إلى أهلها ؟ فقال : إنى سهرت البارحة فى أمر سليمان ، فاذا صليت الظهر رددت المظالم . فقال له ابنه : ومن لك أن تعيش إلى الظهر ؟ قال : ادن منى أى بنى ، فدنا منه فقبل بين عينيه وقال : الحمد لله الذى أخرج من صلبى من يعيننى على دينى . ثم قام وخرج وترك القائلة وأمر مناديه فنادى : ألا من كانت له مظلمة فليرفعها ، فقام إليه رجل ذمى من أهل حمص[1] فقال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله ، قال : ما ذاك ؟ قال : العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبنى أرضى . والعباس جالس ، فقال له عمر : يا عباس ماتقول ؟ قال : نعم ! أقطعنيها أمير المؤمنين الوليد وكتب لى بها سجلا ، فقال عمر : ما تقول يا ذمى ؟ قال : يا أمير المؤمنين أسألك كتاب الله تعالى . فقال عمر : نعم كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد ، قم فاردد عليه ضيعته ، فردها عليه .

ثم تتابع الناس فى رفع المظالم إليه ، فما رفعت إليه مظلمة إلا ردها ، سواء كانت فى يده أو فى يد غيره حتى أخذ أموال بنى مروان وغيرهم ، مما كان فى أيديهم بغير استحقاق ، فاستغاث بنو مروان بكل واحد من أعيان الناس ، فلم يفدهم ذلك شيئا ، فأتوا عمتهم فاطمة بنت مروان ــ وكانت عمته ــ فشكوا إليها ما لقوا من عمر ، وأنه قد أخذ أموالهم ويُستنقصون عنده ، وأنه لا يرفع بهم رأسا ، وكانت هذه المرأة لا تحجب عن الخلفاء ، ولا ترد لها حاجة ، وكانوا يكرمونها ويعظمونها ، وكذلك كان عمر يفعل معها قبل الخلافة ، وقامت فركبت إليه ، فلما دخلت عليه عظمها وأكرمها ، لأنها أخت أبيه ، وألقى لها وسادة ، وشرع يحادثها ، فرآها غضبى وهى على غير العادة ، فقال لها عمر : يا عمة مالك ؟ فقالت : بنو أخى عبد الملك وأولادهم يهانون فى زمانك وولايتك ؟ وتأخذ أموالهم فتعطيها لغيرهم ، ويسبون عندك فلا تنكر ؟ فضحك عمر وعلم أنها متحملة ، وأن عقلها قد كبر ، ثم شرع يحادثها والغضب لا يتحيز عنها ، فلما رأى ذلك أخذ معها فى الجد ، فقال : يا عمة ! اعلمى أن النبى ص

---

(١) فى الأصل « من أهل خضر » وصححناه من سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى صفحة ١٠٤

مات وترك الناس على نهر مورود ، فولى ذلك النهر بعده رجل فلم يستنقص منه شيئا حتى مات ، ثم ولى ذلك النهر بعد ذلك الرجل رجل آخر فلم يستنقص منه شيئا حتى مات ، ثم ولى ذلك النهر رجل آخر فكرى منه ساقية ، ثم لم يزل الناس بعده يكرون السواقى حتى تركوه يابسا لا قطرة فيه ، وايم الله لئن أبقانى الله لأردنه إلى مجراه الأول ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط ، وإذا كان الظلم من الأقارب الذين هم بطانة الوالى ، والوالى لا يزيل ذلك ، فكيف يستطيع أن يزيل ما هو ناه عنه فى غيرهم ؟ فقالت : فلا يسبوا عندك ؟ قال : ومن يسبهم ؟ إنما يرفع الرجل مظلمته فآخذ له بها . ذكر ذلك ابن أبى الدنيا وأبو نعيم وغيرهما ، وقد أشار إليه المؤلف إشارة خفية .

وقال مسلمة بن عبد الملك : دخلت على عمر فى مرضه فاذا عليه قميص وسخ ، فقلت لفاطمة : ألا تغسلوا قميص أمير المؤمنين ؟ فقالت : والله ماله قميص غيره ، وبكى فبكت فاطمة فبكى أهل الدار ، لا يدرى هؤلاء ما أبكى هؤلاء ، فلما انجلت عنهم العبرة قالت فاطمة : ما أبكاك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إنى ذكرت منصرف الخلائق من بين يدى الله ، فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، ثم صرخ وغشى عليه .

وعرض عليه مرة مسك من بيت المال فسدّ أنفه حتى وضع ، فقيل له فى ذلك فقال : وهل ينتفع من المسك إلا بريحه ؟ ولما احتضر دعا بأولاده وكانوا بضعة عشر ذكراً ، فنظر إليهم فذرفت عيناه ثم قال : بنفسى الفتية . وكان عمر بن عبد العزيز يتمثل كثيراً بهذه الأبيات : ــ

يرى مستكيناً وهوَ للقولِ ماقتُ * بهِ عنْ حديثِ القومِ ما هوَ شاغلُهْ
وأزعجهُ علمٌ عنِ الجهلِ كلهِ * وما عالمٌ شيئاً كمَنْ هوَ جاهلُهْ
عبوسٌ عنِ الجهالِ حينَ يرامُ * فليسَ لهُ منهمْ خدينٌ يهازلُهْ
تذكرُ مايبقى منَ العيشِ فارعوى * فأشغلهُ عنْ عاجلِ العيشِ آجلُهْ

وروى ابن أبى الدنيا عن ميمون بن مهران قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده سابق البربرى وهو ينشده شعراً ، فانتهى فى شعره إلى هذه الأبيات : ــ

فكمْ مِنْ صحيحٍ باتَ للموتِ آمناً * أتتهُ المنايا بغتةً بعدَ ما هجعْ
فلمْ يستطعْ إذْ جاءهُ الموتُ بغتةً * فراراً ولاَ منهُ بقوّتهِ امتنعْ
فأصبحَ تبكيهِ النساءُ مقنعاً * ولا يسمعُ الداعى وإنْ صوتَهُ رفعْ
وقربَ من لحدٍ فصارَ مقيلهُ * وفارقَ ما قدْ كانَ بالأمسِ قدْ جمعْ
فلا يتركُ الموتُ الغنىَّ لمالهِ * ولا معدماً فى المالِ ذا حاجةٍ يدعْ

وقال رجا بن حيوة : لما مات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وقام يزيد بن عبد الملك بعده

فى الخلافة ، أتاه عمر بن الوليد بن عبد الملك فقال ليزيد يا أمير المؤمنين ! إن هذا المرائى - يعنى عمر ابن عبد العزيز - قد خان من المسلمين كل ما قدر عليه من جوهر نفيس ودر ثمين ، فى بيتين فى داره مملوءين ، وهما مقفولان على ذلك الدر والجوهر . فأرسل يزيد إلى أخته فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر : بلغنى أن عمر خلف جوهراً ودراً فى بيتين مقفولين . فأرسلت إليـه : يا أخى ما ترك عمر من سبد ولا لبد ، إلا مافى هذا المنديل . وأرسلت إليه به ، فحله فوجد فيه قميصا غليظا مرقوعا ، ورداء قشبا ، وجبة محشوة غليظة واهية البطانة . فقال يزيد للرسول : قل لها : ليس عن هذا أسأل ، ولا هـذا أريد ، إنما أسأل عمـا فى البيتين . فأرسلت تقول له : والذى فجعنى بأمير المؤمنين ما دخلت هذين البيتين منذ ولى الخلافة ، لعلمى بكراهته لذلك ، وهـذه مفاتيحهما فتعال فحول ما فيهما لبيت مالك . فركب يزيد ومعه عمر بن الوليد حتى دخل الدار ففتح أحـد البيتين فاذا فيه كرسى من أدم وأربع آجرات مبسوطات عند الكرسى ، وقمقم . فقال عمر بن الوليد : أسـتغفر الله ، ثم فتح البيت الثانى فوجد فيـه مسجداً مفروشا بالحصا ، وسلسلة معلقة بسقف البيت ، فيها كهيئة الطوق بقدر ما يدخل الانسان رأسه فيها إلى أن تبلغ العنق ، كان إذا فتر عن العبادة أو ذكر بعض ذنوبه وضعها فى رقبته ، وربما كان يضعها إذا نعس لئـلا ينام ، ووجـدوا صندوقا مقفلا ففتح فوجدوا فيـه سفطا ففتحه فاذا فيـه دراعة وتبان ، كل ذلك من مسوح غليظ ، فبكى يزيد ومن معه وقال : يرحمك الله يا أخى ، إن كنت لنقى السريرة ، نقى العلانيـة . وخرج عمر بن الوليد وهو مخذول وهو يقول : أستغفر الله ، إنما قلت ما قيل لى .

وقال رجاء : لما احتضر جعل يقول : اللهم رضنى بقضائك ، وبارك لى فى قدرك ، حتى لا أحب لما عجلت تأخيرا ، ولا لما أخرت تعجيلا . فلا زال يقول ذلك حتى مات . وكان يقول : لقد أصبحت ومالى فى الأمور هوى إلا فى مواضع قضاء الله فيها .

وقال شعيب بن صفوان : كتب سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى عمر بن عبـد العزيز لمـا ولى الخلافة : أما بعد ياعمر فانه قد ولى الخلافة والملك قبلك أقوام ، فماتوا على ما قـد رأيت ، ولقوا الله فرادى بعـد الجموع والحفدة والحشم ، وعالجوا نزع الموت الذى كانوا منه يفرون ، فانفقأت عينهـم التى كانت لاتفتأ تنظر لذاتها ، واندفنت رقابهم غير موسدين بعـد لين الوسائد ، وتظاهر الفرش والمرافق والسرر والخدم ، وانشقت بطونهـم التى كانت لا تشبع من كل نوع ولون من الأموال والأطعمة ، وصاروا جيفا بعـد طيب الروائح العطرة ، حتى لو كانوا إلى جانب مسكين ممن كانوا يحقرونه وهم أحياء لتأذى بهـم ، ولنفر منهـم ، بعد إنفاق الأموال على أغراضهم من الطيب والثياب الفاخرة اللينة ، كانوا ينفقون الأموال إسرافا فى أغراضهـم وأهوائهم ، ويقترون فى حق

الله وأمره ، فان استطعت أن تلقاهم يوم القيامة وهم محبوسون مرتهنون بما عليهم ، وأنت غير محبوس ولا مرتهن بشئ فافعل ، واستعن بالله ولا قوة إلا بالله سبحانه .

وما ملكٌ عما قليل بسالمٍ * ولو كثرتْ أحراسهُ ومواكبهْ
ومن كان ذاباب شديدٍ وحاجبٍ * فعما قليلٍ يهجرُ البابَ حاجبهْ
وما كانَ غيرُ الموتِ حتى تفرقتْ * إلى غيرهِ أعوانهُ وحبائبهْ
فأصبحَ مسروراً بهِ كلُ حاسدٍ * وأسلمهُ أصحابهُ وحبائبهْ

وقيل إن هذه الأبيات لغيره .

وقال ابن أبي الدنيا في كتاب الاخلاص : حدثنا عاصم بن عامر حدثنا أبي عن عبد ربه بن أبي هلال عن ميمون بن مهران قال : تكلم عمر بن عبد العزيز ذات يوم وعنده رهط من إخوانه ففتح له منطق وموعظة حسنة ، فنظر إلى رجل من جلسائه وقد ذرفت عيناه بالدموع ، فلما رأى ذلك عمر قطع منطقه ، فقلت له : يا أمير المؤمنين امض في موعظتك فاني أرجو أن يمنّ الله به على من سمعه أو بلغه ، فقال إليك عني يا أبا أيوب ، فان في القول على الناس فتنة لا يخلص من شرها متكلم عليهم ، والفعال أولى بالمؤمن من المقال . وروى ابن أبي الدنيا عنه أنه قال : استعملنا أقواماً كنا نرى أنهم أبرار أخيار ، فلما استعملناهم إذا هم يعملون أعمال الفجار ، قاتلهم الله ، أما كانوا يمشون على القبور ! !

وروى عبد الرزاق قال : سمعت معمراً يذكر قال : كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة ــ وبلغه عنه بعض ما يكره ــ : أما بعد فانه غرني بك مجالستك القراء ، وعمامتك السوداء ، وإرسالك إياها من وراء ظهرك ، وإنك أحسنت العلانية فأحسنا بك الظن ، وقد أطلعنا الله على كثير مما تعملون .

وروى الطبراني والدارقطني وغير واحد من أهل العلم بأسانيدهم إلى عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عامل له : أما بعد فاني أوصيك بتقوى الله واتباع سنة رسوله ، والاقتصاد في أمره ، وترك ما أحدث المحدثون بعده ﷺ ممن قد حارب سنته ، وكفوا مؤنته ، ثم اعلم أنه لم تكن بدعة إلا وقد مضى قبلها ما هو دليل على بطلانها ــ أو قال دليل عليها ــ فعليك لزوم السنة ، فانه إنما سنها من قد علم ما في خلافها من الزيغ والزلل ، والحمق والخطأ والتعمق ، ولهم كانوا على كشف الأمور أقوى ، وعلى العمل الشديد أشد ، وإنما كان عملهم على الأسد ، ولو كان فيما تحملون أنفسكم فضل لكانوا فيه أحرى ، وإليه أجرى ، لأنهم السابقون إلى كل خير ، فان قلت : قد حدث بعدهم خير ، فاعلم أنه إنما أحدثه من قد اتبع غير سبيل المؤمنين ، وحاد عن طريقهم ، ورغبت نفسه عنهم ، ولقد تكلموا منه ما يكفي ، ووصفوا منه ما يشفي ، فأين لا أين ، فمن دونهم مقصر ، ومن فوقهم غير محسن ، ولقد

قصر أقوام دينهم فجفوا، وطمح عنهم آخرون فغلوا، فرحم الله ابن عبد العزيز. ما أحسن هذا القول الذى ما يخرج إلا من قلب قد امتلأ بالمتابعة ومحبة ما كان عليه الصحابة، فمن الذى يستطيع أن يقول مثل هذا من الفقهاء وغيرهم؟ فرحمه الله وعفا عنه.

وروى الخطيب البغدادى من طريق يعقوب بن سفيان الحافظ عن سعيد بن أبى مريم عن رشيد بن سعيد قال: حدثنى عقيل عن شهاب عن عمر بن عبد العزيز. قال: سن رسول الله (ص) وخلفاؤه بعده سننا، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستعمال لطاعة الله، ليس على أحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر فى رأى من خالفها، فمن اقتدى بما سبق هدى، ومن استبصر بها أبصر، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا.

وأمر عمر بن عبد العزيز مناديه ذات يوم فنادى فى الناس: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فخطبهم فقال فى خطبته: إنى لم أجمعكم إلا أن المصدق منكم بما بين يديه من لقاء الله والدار الآخرة ولم يعمل لذلك ويستعد له أحمق، والمكذب له كافر. ثم تلا قوله تعالى [ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم] وقوله تعالى [وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون]

وروى ابن أبى الدنيا عنه أنه أرسل أولاده مع مؤدب لهم إلى الطائف يعلمهم هناك، فكتب إليه عمر: بئس ماعلّمت، إذ قدّمت إمام المسلمين صبيا لم يعرف النية — أولم تدخله النية — ذكره فى كتاب النية له. وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب الرقة والبكاء، عن مولى لعمر بن عبد العزيز أنه قال له: يابنى ليس الخير أن يسمع لك وتطاع، وإنما الخير أن تكون قد غفلت عن ربك عز وجل ثم أطعته، يابنى لاتأذن اليوم لأحد على حتى أصبح ويرتفع النهار، فانى أخاف أن لا أعقل عن الناس ولايفهمون عنى، فقال له مولاه: رأيتك البارحة بكيت بكاء ما رأيتك بكيت مثله، قال فبكى ثم قال: يابنى إنى والله ذكرت الوقوف بين يدى الله عز وجل. قال: ثم غشى عليه فلم يفق حتى علا النهار، قال: فما رأيته بعد ذلك متبسما حتى مات.

وقرأ ذات يوم [وما تكون فى شأن وماتتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا] الآية، فبكى بكاءاً شديداً حتى سمعه أهل الدار، فجاءت فاطمة فجلست تبكى لبكائه وبكى أهل الدار لبكائهما، فجاء ابنه عبد الملك فدخل عليهم وهم على تلك الحال، فقال له: يا أبة مايبكيك؟ فقال: يابنى خير، ود أبوك أنه لم يعرف الدنيا ولم تعرفه، والله يابنى لقد خشيت أن أهلك وأن أكون من أهل النار.

وروى ابن أبى الدنيا عن عبد الأعلى بن أبى عبد الله العنبرى. قال: رأيت عمر بن عبد العزيز

خرج يوم الجمعة فى ثياب دسمة ، وراءه حبشى يمشى ، فلما انتهى إلى الناس رجع الحبشى ، فكان عمر إذا انتهى إلى الرجلين قال : هكذا رحمكما الله ، حتى صعد المنبر فخطب فقرأ [إذا الشمس كوّرت] فقال : وما شأن الشمس [وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت] فبكى وبكى أهل المسجد ، وارتج المسجد بالبكاء حتى رأيت حيطان المسجد تبكى معه ، ودخل عليه أعرابى فقال : يا أمير المؤمنين جاءت بى إليك الحاجة ، وانتهيت إلى الغاية ، والله سائلك عنى . فبكى عمر وقال له : كم أنتم ؟ فقال : أنا وثلاث بنات . ففرض له على ثلثمائة ، وفرض لبناته مائة مائة ، وأعطاه مائة درهم من ماله ، وقال له : اذهب فاستنفقها حتى تخرج أعطيات المسلمين فتأخذ معهم .

وجاءه رجل من أهل أذربيجان فقام بين يديه وقال : يا أمير المؤمنين اذكر بمقامى هذا بين يديك مقامك غداً بين يدى الله ، حيث لا يشغل الله عنك فيه كثرة من يخاصم من الخلائق ، من يوم تلقاه بلاثقة من العمل ، ولا براءة من الذنب ، قال : فبكى عمر بكاءا شديداً ثم قال له : ماحاجتك ؟ فقال : إن عاملك بأذربيجان عدا علىّ فأخذ منى اثنى عشر ألف درهم فجعلها فى بيت المال . فقال عمر : اكتبوا له الساعة إلى عاملها ، فليرد عليه ، ثم أرسله مع البريد . وعن زياد مولى ابن عياش قال : دخلت على عمر بن عبد العزيز فى ليلة باردة شاتية ، فجعلت أصطلى على كانون هناك ، فجاء عمر وهو أمير المؤمنين فجعل يصطلى معى على ذلك الكانون ، فقال لى : يازياد ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : قصّ على ، قلت ما أنا بقاصّ ، فقال : تكلم ، فقلت زياد ، فقال : ماله ؟ فقلت : لا ينفعه من دخل الجنة إذا دخل النار ، ولا يضره من دخل النار إذا دخل الجنة ، فقال : صدقت ، ثم بكى حتى أطفأ الجمر الذى فى الكانون .

وقال له زياد العبدى : يا أمير المؤمنين لاتعمل نفسك فى الوصف واعملها فى المخرج مما وقعت فيه ، فلو أن كل شعرة فيك نطقت بحمد الله وشكره والثناء عليه مابلغت كنه ماأنت فيه ، ثم قال له زياد : يا أمير المؤمنين أخبرنى عن رجل له خصم ألد ماحاله ؟ قال : سيئ الحال ، قال : فان كانا خصمين ألدين ؟ قال : فهو أسوأ حالا ، قال : فان كانوا ثلاثة ؟ قال : ذاك حيث لايهنئه عيش . قال : فوالله يا أمير المؤمنين ما أحد من أمة محمد (ص) إلا وهو خصمك ، قال : فبكى عمر حتى تمنيت أنى لم أكن حدثته ذلك . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن أرطاة وأهل البصرة : أما بعد فان من الناس من شاب فى هذا الشراب ، ويغشون عنده أموراً انتهكوها عند ذهاب عقولهم ، وسفه أحلامهم ، فسفكوا له الدم الحرام ، وارتكبوا فيه الفروج الحرام ، والمال الحرام ، وقد جعل الله عن ذلك مندوحة من أشربة حلال ، فمن انتبذ فلا ينتبذ إلا من أسقية الأدم ، واستغنوا بما أحل الله عما حرم ، فانا من وجدناه شرب شيئا مما حرم الله بعد ماتقدمنا إليه ، جعلنا له عقوبة شديدة ،

ومن استخف بما حرم الله عليه فالله أشد عقوبة له وأشد تنكيلا

خلافة يزيد بن عبد الملك

بويع له بعهد من أخيه سليمان بن عبد الملك أن يكون ولى الأمر من بعد عمر بن عبد العزيز ، فلما توفى عمر فى رجب من هذه السنة – أعنى سنة إحدى ومائة – بايعه الناس البيعة العامة ، وعمره إذ ذاك تسع وعشرون سنة ، فعزل فى رمضان منها عن إمرة المدينة أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم ، وولى عليها عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس ، فجرت بينه وبين أبى بكر بن حزم منافسات وضغائن ، حتى آل الأمر إلى أن استدرك عليه حكومة لحده حدين فيها

وفيها كانت وقعة بين الخوارج ، وهم أصحاب بسطام الخارجى ، وبين جند الكوفة ، وكانت الخوارج جماعة قليلة ، وكان جيش الكوفة نحواً من عشرة آلاف فارس ، وكادت الخوارج أن تكسرهم ، فتذامروا بينهم فطحنوا الخوارج طحنا عظيما ، وقتلوهم عن آخرهم ، فلم يبقوا منهم ثائرة .

وفيها خرج يزيد بن المهلب فخلع يزيد بن عبد الملك واستحوذ على البصرة ، وذلك بعد محاصرة طويلة ، وقتال طويل ، فلما ظهر عليها بسط العدل فى أهلها ، وبذل الأموال ، وحبس عاملها عدى ابن أرطاة ، لأنه كان قد حبس آل المهلب الذين كانوا بالبصرة ، حين هرب يزيد بن المهلب من محبس عمر بن عبد العزيز ، كما ذكرنا ، ولما ظهر على قصر الأمارة أتى بعدى بن أرطاة فدخل عليه وهو يضحك ، فقال يزيد بن المهلب : إنى لأعجب من ضحكك ، لأنك هربت من القتال كما تهرب النساء ، وإنك جئتنى وأنت تُتَلُّ كما يُتَلُّ العبد . فقال عدى : إنى لأضحك لأن بقائى بقاء لك وأن من ورائى طالبا لا يتركنى ، قال : ومن هو ؟ قال : جنود بنى أمية بالشام ، ولا يتركونك ، فدارك نفسك قبل أن يرمى إليك البحر بأمواجه ، فتطلب الاقالة فلا تقال . فرد عليه يزيد جواب ما قال ، ثم سجنه كما سجن أهله ، واستقر أمر يزيد بن المهلب على البصرة ، وبعث نوابه فى النواحى والجهات ، واستناب فى الأهواز ، وأرسل أخاه مدرك بن المهلب على نيابة خراسان ، ومعه جماعة من المقاتلة ، فلما بلغ خبره الخليفة يزيد بن عبد الملك جهز ابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك فى أربعة آلاف ، مقدمة بين يدى عمه مسلمة بن عبد الملك ، وهو فى جنود الشام ، قاصدين البصرة لقتاله ، ولما بلغ يزيد بن المهلب مخرج الجيوش إليه خرج من البصرة واستناب عليها أخاه مروان بن المهلب ، وجاء حتى نزل واسط ، واستشار من معه من الأمراء فيما ذا يعتمده ؟ فاختلفوا عليه فى الرأى ، فأشار عليه بعضهم بأن يسير إلى الأهواز ليتحصن فى رؤس الجبال ، فقال : إنما تريدون أن تجعلونى طائرا فى رأس جبل ؟ وأشار عليه رجال أهل العراق أن يسير إلى الجزيرة فينزلها بأحصن حصن فيها ، ويجتمع

عليه أهل الجزيرة فيقاتل بهم أهل الشام، وانسلخت هذه السنة وهو نازل بواسط وجيش الشام قاصده.

وحج بالناس فى هذه السنة عبد الرحمن بن الضحاك بن قيس أمير المدينة، وعلى مكة عبد العزيز ابن عبد الله بن خالد بن أسيد، وعلى الكوفة عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وعلى قضائها عامر الشعبى، وعلى البصرة يزيد بن المهلب. قد استحوذ عليها وخلع أمير المؤمنين يزيد ابن عبد الملك. وفيها توفى عمر بن عبد العزيز، وربعى بن حراش، وأبو صالح السمان وكان عابداً صادقاً ثبتاً، وقد ترجمناه فى كتابنا التكميل والله أعلم.

ثم دخلت سنة ثنتين ومائة

فيها كان اجتماع مسلمة بن عبد الملك مع يزيد بن المهلب، وذلك أن يزيد بن المهلب ركب من واسط واستخلف عليها ابنه معاوية، وسار هو فى جيش، وبين يديه أخوه عبد الملك بن المهلب، حتى بلغ مكاناً يقال له العقر، وانتهى إليه مسلمة بن عبد الملك فى جنود لا قبل ليزيد بها، وقد التقت المقدمتان أولا فاقتتلوا قتالا شديداً، فهزم أهل البصرة أهل الشام، ثم تدامر أهل الشام فحملوا على أهل البصرة فهزموهم وقتلوا منهم جماعة من الشجعان، منهم المنتوف، وكان شجاعا مشهوراً، وكان من موالى بكر بن وائل: فقال فى ذلك الفرزدق:

تبكى على المنتوف بكر بن وائل * وتنهى عن ابنى مسمع من بكاهما

فأجابه الجعد بن درهم مولى الثوريين من همدان، وهذا الرجل هو أول الجهمية، وهو الذى ذبحه خالد بن عبد الله القسرى يوم عيد الأضحى فقال الجعد: ـ

نبكى على المنتوفِ فى نصرِ قومهِ * وليتنا نبكى الشائدَين أباهما
أرادا فناءَ الحيِ بكرُ بنُ وائلٍ * فعزُ تميمٌ لو أصيبَ فناهما
فلا لقيا روحاً من اللهِ ساعةً * ولا رقأتْ عينا شجىٍ بكاهما
أفى الغشِ نبكى إنْ بكينا عليهما * وقد لقيا بالغشِ فينا رداهما

ولما اقترب مسلمة وابن أخيه العباس بن الوليد من جيش يزيد بن المهلب، خطب يزيد بن المهلب الناس وحرضهم على القتال ـ يعنى قتال أهل الشام ـ وكان مع يزيد نحو من مائة ألف، وعشرين ألفا، وقد بايعوه على السمع والطاعة، وعلى كتاب الله وسنة رسوله (ص)، وعلى أن لا يطأ الجنود بلادهم، وعلى أن لا تعاد عليهم سيرة الفاسق الحجاج، ومن بايعنا على ذلك قبلنا منه، ومن خالفنا قاتلناه.

وكان الحسن البصرى فى هذه الأيام يحرض الناس على الكف وترك الدخول فى الفتنة، وينهاهم أشد النهى، وذلك لما وقع من القتال الطويل العريض فى أيام ابن الأشعث، وما قتل بسبب

ذلك من النفوس العديدة ، وجعل الحسن يخطب الناس و يعظهم فى ذلك ، و يأمرهم بالكف ، فبلغ ذلك نائب البصرة عبـد الملك بن المهلب ، فقام فى الناس خطيبا فأمرهم بالجد والجهاد ، والنفر إلى القتال ، ثم قال : ولقد بلغنى أن هذا الشيخ الضال المرائى ـ ولم يسمه ـ يثبط الناس ، أما والله ليكفن عن ذلك أو لأفعلن ولأفعلن ، وتوعد الحسن ، فلما بلغ الحسن قوله قال : أما والله ما أكره أن يكرمنى الله بهوانه ، فسلمه الله منه حتى زالت دولتهم ، وذلك أن الجيوش لما تواجهت تبارز الناس قليلا ، ولم ينشب الحرب شديدا حتى فر أهل العراق سريعاً ، و بلغهم أن الجسر الذى جاؤا عليه حرق فانهزموا ، فقال : يزيد بن المهلب : ما بال الناس ؟ ولم يكن من الأمر ما يفرّ من مثله ، فقيل له : إنه بلغهم أن الجسر الذى جاؤا عليـه قد حرق . فقال : قبحهم الله ، ثم رام أن يرد المنهزمين فلم يمكنه ، فثبت فى عصابة من أصحابه وجعل بعضهم يتسللون منه حتى بقى فى شرذمة قليلة ، وهو مع ذلك يسير قدما لا يمر بخيل إلا هزمهم ، وأهل الشام يتجاورون عنه يميناً وشمالا ، وقد قتل أخوه حبيب بن المهلب ، فازداد حنقا وغيظاً ، وهو على فرس له أشهب ، ثم قصد نحو مسلمة بن عبد الملك لا يريد غيره ، فلما واجهه حملت عليـه خيول الشام فقتلوه ، وقتلوا معه أخاه محمـد بن المهلب ، وقتلوا السميذع ، وكان من الشجعان ، وكان الذى قتـل يزيد بن المهلب رجل يقال له القحل بن عياش ، فقتل إلى جانب يزيد ابن المهلب ، وجاؤا برأس يزيد إلى مسلمة بن عبد الملك ، فأرسله مع خالد بن الوليد بن عقبة بن أبى معيط إلى أخيه أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك ، واستحوذ مسلمة على مافى معسكر يزيد بن المهلب ، وأسر منهم نحواً من ثلاثمائة ، فبعث بهم إلى الكوفة ، و بعث إلى أخيه فيهـم ، فجاء كتابه بقتلهم ، فسار مسلمة فنزل الحيرة

ولما انتهت هزيمة ابن المهلب إلى ابنه معاوية وهو بواسط ، عمـد إلى نحو من ثلاثين أسيراً فى يده فقتلهم ، منهـم نائب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، عدى بن أرطاة رحمه الله وابنه ، ومالك وعبد الملك ابنا مسمع ، وجماعة من الأشراف ، ثم أقبل حتى أتى البصرة ومعه الخزائن من الأموال ، وجاء معه عمه المفضل بن المهلب إليه ، فاجتمع آل المهلب بالبصرة فأعدوا السفن وتجهزوا أتم الجهاز واستعدوا للهرب ، فساروا بعيالهم وأثقالهم حتى أتوا جبال كرمان فنزلوها ، واجتمع عليهـم جماعة ممن فل من الجيش الذى كان مع يزيد بن المهلب ، وقـد أمروا عليهم المفضل بن المهلب ، فأرسل مسلمة جيشا عليهم هلال بن ماجور المحاربى فى طلب آل المهلب ، ويقال إنهم أمروا عليهم رجلا يقال له مدرك بن ضب الكلبى ، فلحقهم بجبال كرمان فاقتتلوا هنالك قتالا شديداً ، فقتل جماعة من أصحاب المفضل وأسر جماعة من أشرافهـم وانهزم بقيتهم ، ثم لحقوا المفضل فقتلوه وحمل رأسـه إلى مسلمة بن عبـد الملك ، وأقبل جماعة من أصحاب يزيد بن المهلب فأخـذوا لهم أمانا من أمير الشام

منهم مالك بن إبراهيم بن الأشتر النخعى ، ثم أرسلوا بالأثقال والأموال والنساء والذرية فوردت على مسلمة بن عبد الملك ومعهم رأس المفضل ورأس عبد الملك بن المهلب ، فبعث مسلمة بالرؤس وتسعة من الصبيان الحسان إلى أخيه يزيد ، فأمر بضرب أعناق أولئك ، ونصبت رؤسهم بدمشق ثم أرسلها إلى حلب فنصبت بها ، وحلف مسلمة بن عبد الملك ليبيعن ذرارى آل المهلب ، فاشتراهم بعض الأمراء إبراراً لقسمه بمائة ألف ، فأعتقهم وخلى سبيلهم ، ولم يأخذ مسلمة من ذلك الأمير شيئا

وقد رثا الشعراء يزيد بن المهلب بقصائد ذكرها ابن جرير .

ولاية مسلمة على بلاد العراق وخراسان

وذلك أنه لما فرغ من حرب آل المهلب كتب إليه أخوه يزيد بن عبد الملك بولاية الكوفة والبصرة وخراسان فى هذه السنة ، فاستناب على الكوفة وعلى البصرة ، وبعث إلى خراسان ختنه - زوج ابنته - سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص ، الملقب بخُذَينه ، فسار إليها فحرض أهلها على الصبر والشجاعة ، وعاقب عمالا ممن كان ينوب لآل المهلب ، وأخذ منهم أموالا جزيلة ، ومات بعضهم تحت العقوبة .

ذكر وقعة جرت بين الترك والمسلمين

وذلك أن خاقان الملك الأعظم ملك الترك ، بعث جيشا إلى الصغد لقتال المسلمين ، عليهم رجل منهم يقال له كورصول ، فأقبل حتى نزل على قصر الباهلى ، فحصره وفيه خلق من المسلمين ، فصالحهم نائب سمرقند - وهو عثمان بن عبيد الله بن مطرف - على أربعين ألفا ، ودفع إليهم سبعة عشر دهقانا رهائن عندهم ، ثم ندب عثمان الناس فانتدب رجل يقال له المسيب بن بشر الرياحى فى أربعة آلاف ، فساروا نحو الترك ، فلما كان فى بعض الطريق [خطبهم] فحثهم على القتال وأخبرهم أنه ذاهب إلى الأعداء لطلب الشهادة ، فرجع عنه أكثر من ألف ، ثم لم يزل فى كل منزل يخطبهم ويرجع عنه بعضهم ، حتى بقى فى سبعمائة مقاتل ، فسار بهم حتى غالق جيش الأتراك ، وهم محاصرو ذلك القصر ، وقد عزم المسلمون الذين هم فيه على قتل نسائهم وذبح أولادهم أمامهم ، ثم ينزلون فيقاتلون حتى يقتلوا عن آخرهم ، فبعث إليهم المسيب يثبتهم يومهم ذلك ، فثبتوا ومكث المسيب حتى إذا كان وقت السحر فكبر وكبر أصحابه ، وقد جعلوا شعارهم يا محمد ، ثم حملوا على الترك حملة صادقة ، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وعقروا دواب كثيرة ، ونهض إليهم الترك فقاتلوهم قتالا شديداً ، حتى فر أكثر المسلمين ، وضربت دابة المسيب فى عجزها فترجل وترجل معه الشجعان ، فقاتلوا وهم كذلك قتالا عظيما ، والتف الجماعة بالمسيب وصبروا حتى فتح الله عليهم ، وفر المشركون بين أيديهم هاربين لايلوون على شئ ، وقد كان الأتراك فى غاية الكثرة ، فنادى منادى المسيب :

أن لاتتبعوا أحـدا ، وعليكم بالقصر وأهله ، فاحتملوهم وحازوا مافى معسكر أولئك الأتراك من الأموال والأشياء النفيسة وانصرفوا راجعين سالمين بمن معهم من المسلمين الذين كانوا محصورين ، وجاءت الترك من الغد فلم يجدوا به داعياً ولامجيباً ، فقالوا فى انفسهم : هؤلاء الذين لقونا بالأمس لم يكونوا إنسا ، إنما كانوا جناً . وممن توفى فيها من الأعيان والسادة :

الضحاك بن مزاحم الهلالي

أبو القاسم ، ويقال أبو محمد ، الخراسانى ، كان يكون ببلخ وسمرقند ونيسابور ، وهو تابعى جليل روى عن أنس وابن عمر وأبى هريرة ، وجماعة من التابعين ، وقيل إنه لم يصح له سماع من الصحابة حتى ولا من ابن عباس سماع ، وإن كان قد روى عنه أنه جاوره سبع سنين ، وكان الضحاك إماما فى التفسير ، قال الثورى : خـذوا التفسير عن أربعة ، مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك ، وقال الامام أحمد : هو ثقة ، وأنكر شعبة سماعه من ابن عباس ، وقال : إنما أخـذ عن سعيد عنه ، وقال ابن سعيد القطان : كان ضعيفاً . وذكره ابن حبان فى الثقات ، وقال : لم يشافه أحداً من الصحابة ، ومن قال : إنه لقى ابن عباس فقـد وهم ، وحملت به أمه سنتين ، ووضعته وله أسـنان ، وكان يعلم الصبيان حسبة ، وقيل إنه مات سنة خمس وقيل سنة ست ومائة والله أعلم .

ابو المتوكل الناجي

اسمه على بن البصرى ، تابعى جليل ، ثقة ، رفيع القدر ، مات وقد بلغ الثمانين رحمه الله تعالى

ثم دخلت سنة ثلاث ومائة

فيها عزل أمير العراق وهو عمر بن هبيرة سعيد ـ الملقب خذينة ـ عن نيابة خراسان ، وولى عليها سعيد بن عمرو الجريشى ، باذن أمير المؤمنين ، وكان سعيد هذا من الأبطال المشهورين ، انزعج له الترك وخافوه خوفا شديداً ، وتقهقروا من بلاد الصغد إلى ماوراء ذلك ، من بلاد الصين وغيرها ، وفيها جمع يزيد بن عبد الملك لعبد الرحمن بن الضحاك بن قيس بين إمرة المدينة وإمرة مكة ، وولى عبد الرحمن الواحد بن عبد الله النضرى نيابة الطائف . وحج بالناس فيها أمير الحرمين عبد الرحمن ابن الضحاك بن قيس والله سبحانه وتعالى أعلم . وممن توفى فيها من الأعيان :

يزيد بن ابي مسلم

أبو العلاء المدنى . عطاء بن يسار الهلالى ، أبو محمد القاص المدنى ، مولى ميمونة ، وهو أخو سليمان ، وعبد الله ، وعبد الملك ، وكلهم تابعى . وروى هذا عن جماعة من الصحابة ، ووثقه غير واحد من الأئمة ، وقيل إنه توفى سنة ثلاث أو أربع ومائة ، وقيل توفى قبل المائة بالأسكندرية ، وقد جاوز الثمانين والله سبحانه أعلم .

مجاهد بن جبير المكي

أبو الحجاج القرشي المخزومي ، مولى السائب بن أبي السائب المخزومي ، أحد أئمة التابعين والمفسرين كان من أخصاء أصحاب ابن عباس ، وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير ، حتى قيل إنه لم يكن أحد يريد بالعلم وجه الله إلا مجاهد وطاوس ، وقال مجاهد : أخذ ابن عمر بركابي وقال : وددت أن ابني سالما وغلامي نافعاً يحفظان حفظك . وقيل إنه عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة ، وقيل مرتين ، أقفه عند كل آية وأسأله عنها ، مات مجاهد وهو ساجد سنة مائة ، وقيل إحدى وقيل ثنتين وقيل ثلاث ومائة ، وقيل أربع ومائة ، وقد جاوز الثمانين والله أعلم .

فضل

أسند مجاهد عن أعلام الصحابة وعلمائهم ، عن ابن عمر وابن عباس وأبي هريرة وابن عمرو وأبي سعيد ورافع بن خديج . وعنه خلق من التابعين . قال الطبراني : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ثنا عبد الرزاق عن أبي بكر بن عياش قال : أخبرني أبو يحيى أنه سمع مجاهداً يقول : قال لي ابن عباس : لا تنامنّ إلا على وضوء فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه .

وروى الطبراني عنه أنه قال في قوله تعالى : (ادفع بالتي هي أحسن) قال : يسلم عليه إذا لقيه وقيل هي المصافحة . وروى عمرو بن مرة عنه أنه قال : أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام : اتق لا يأخذك الله على ذنب لا ينظر فيه إليك فتلقاه حين تلقاه وليست لك حاجة . وروى ابن أبي شيبة عن أبي أمامة عن الأعمش عن مجاهد . قال : كان بالمدينة أهل بيت ذوى حاجة ، عندهم رأس شاة فأصابوا شيئا ، فقالوا : لو بعثنا بهذا الرأس إلى من هو أحوج إليه منا ، فبعثوا به فلم يزل يدور بالمدينة حتى رجع إلى أصحابه الذين خرج من عندهم أولا . وروى ابن أبي شيبة عن أبي الأحوص عن منصور عن مجاهد قال : مامن مؤمن يموت إلا بكى عليه السماء والأرض أربعين صباحا . وقال : فلأنفسهم يمهدون . قال : في القبر . وروى الأوزاعي عن عبدة بن أبي لبانة عن مجاهد قال : كان يحج من بني إسرائيل مائة ألف ، فاذا بلغوا أرصاف الحرم خلعوا نعالهم ثم دخلوا الحرم حفاة . وقال يحيى بن سعيد القطان قال مجاهد في قوله تعالى : [يا مريم اقنتي لربك] قال : أطلبي الركود . وفي قوله تعالى : [واستفزز من استطعت منهم بصوتك] قال المزامير . وقال في قوله تعالى [أنكالا وجحيما] قال : قيود . وقال في قوله : [لا حجة بيننا وبينكم] قال لاخصومة . وقال : [ثم لتسألن يومئذ عن النعيم] قال : عن كل لذة في الدنيا . وروى أبو الديبع عن جرير ابن عبد الحسيب عن منصور عن مجاهد . قال : رن إبليس أربع رنات ، حين لعن ، وحين أهبط ،

وحين بعث النبي (ص) وحين أنزلت [الحمد لله رب العالمين] وأنزلت بالمدينـة . وكان يقال : الرنة والنخرة من الشيطان ، فلعن من رن أو نخر . وروى ابن نجيح عنه فى قوله تعالى [أتبنون بكل ريع آية تعبثون] قال : بروج الحمام . وقال فى قوله تعالى [أنفقوا من طيبات ما كسبتم] قال : التجارة . وروى ليث عن مجاهد قال [إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا] قال : استقاموا فلم يشركوا حتى ماتوا . وروى يحيى بن سعيد عن سفيان عن ابن أبجر عن طلحة بن مصرف عن مجاهد [ولم يكن له كفوا أحد] قال : صاحبة . وقال ليث عن مجاهد قال : النملـة التى كلمت سليمان كانت مثل الذئب العظيم

وروى الطبرانى عن أبى نجيح عن مجاهد . قال : كان الغـلام من قوم عاد لا يحتلم حتى يبلغ مائتى سنة . وقال : [سأل سائل] دعا داع . وفى قوله [ماء غدقا لنفتنهم فيه] حتى يرجعوا إلى علمى فيه [لا يشركون بى شيئاً] قال لا يحبون غيرى . [الذين يمكرون السيئات] قال هم المراؤن . وفى قوله تعالى : [قل للذين آمنوا يغفرون للذين لا يرجون أيام الله] قال هم الذين لا يدرون أنعم الله عليهم أم لم ينعم . ثم قرأ [وذكرهم بأيام الله] قال : أيامه نعمه ونقمه . [فردوه إلى الله والرسول] فردوه إلى كتاب الله وإلى رسوله ما دام حيا ، فاذا مات فالى سـنته . [وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة] قال : أما الظاهرة فالاسـلام والقرآن والرسول والرزق ، وأما الباطنة فما ستر من العيوب والذنوب . وروى الحكم عن مجاهد قال : لما قدمت مكة نساء على سليمان عليه السلام رأت حطبا جزلا فقالت لغلام سليمان : هل يعرف مولاك كم وزن دخان هذا الحطب ؟ فقال الغلام : دعى مولاى أنا أعرف كم وزن دخانه ، فكيف مولاى ؟ قالت : فكم وزنه ؟ فقال الغلام : يوزن الحطب ثم يحرق الحطب ويوزن رماده فما نقص فهو دخانه . وقال فى قوله تعالى : [ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون] قال : من لم يتب إذا أصبح وإذا أمسى فهو من الظالمين . وقال ما من يوم ينقضى من الدنيا إلا قال ذلك اليوم : الحمد لله الذى أراحنى من الدنيا وأهلها ، ثم يطوى عليـه فيختم إلى يوم القيامة ، حتى يكون الله عز وجل هو الذى يفض خاتمه . وقال فى قوله تعالى : [يؤتى الحكمة من يشاء] قال : العلم والفقه ، وقال إذا ولى الأمر منكم الفقهاء . وفى قوله تعالى : [ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله] قال : البدع والشبهات . وقال : أفضل العبادة الرأى الحسن ـ يعنى اتباع السنة ـ وقال : ما أدرى أى النعمتين أفضل ، أن هدانى للاسلام ، أو عافانى من الأهواء ؟ . وقال فى رواية : ألو الأمر منكم ، أصحاب محمد ، وربما قال : أولو العقل والفضل فى دين الله عز وجل [بما صنعوا قارعة] قال السرية . [ويخلق مالا تعلمون] . قال : السوس فى الثياب . [وهن العظم منى] قال : الأضراس . [حفيا] قال رحيا . وروى عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : وجدت فى كتاب محمد بن أبى حاتم بخط يده : حدثنا

بشر بن الحارث حدثنا يحيى بن يمان عن عثمان بن الأسود عن مجاهد. قال: لو أن رجلا أنفق مثل أحد فى طاعة الله عز وجل لم يكن من المسرفين. وفى قوله تعالى [وهو شديد المحال] قال: العداوة [بينهما برزخ لا يبغيان] قال: بينهما حاجز من الله فلا يبغى الحلو على المالح ولا المالح على الحلو.

وقال ابن منده: ذكر محمد بن حميد: حدثنا عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش قال: كان مجاهد لا يسمع بأعجوبة إلا ذهب فنظر إليها، قال: وذهب إلى حضرموت إلى بئر برهوت قال: وذهب إلى بابل، قال: وعليها وال صديق لمجاهد: فقال مجاهد: تعرض على هاروت وماروت، قال: فدعا رجلا من السحرة فقال: اذهب بهذا فاعرض عليه هاروت وماروت. فقال اليهودى: بشرط أن لا تدعو الله عندهما، قال مجاهد: فذهب بى إلى قلعة فقطع منها حجراً ثم قال: خذ برجلى، فهوى بى حتى انتهى إلى حوبة، فإذا هما معلقين منكسين كالجبلين العظيمين، فلما رأيتهما قلت: سبحان الله خالقكما، قال: فاضطربا فكأن جبال الدنيا قد تدكدكت، قال: فغشى على وعلى اليهودى، ثم أفاق اليهودى قبلى، فقال: قم! كدت أن تهلك نفسك وتهلكنى.

وروى ابن فضيل عن ليث عن مجاهد قال: يؤتى يوم القيامة بثلاثة نفر، بالغنى، والمريض، والعبد المملوك. قال: فيقول الله عز وجل للغنى: ما شغلك عن عبادتى التى إنما خلقتك لها؟ فيقول يارب أكثرت لى من المال فطغيت. فيؤتى بسليمان عليه السلام فى ملكه فيقول لذا: أنت كنت أكثر مالا وأشد شغلا أم هذا؟ قال: فيقول: بل هذا يارب، فيقول الله له: فان هذا لم يمنعه ما أوتى من الملك والمال والشغل عن عبادتى. قال: ويؤتى بالمريض فيقول: مامنعك عن عبادتى التى خلقتك لها؟ فيقول: يا رب شغلنى عن هذا مرض جسدى، فيؤتى بأيوب عليه السلام فى ضره وبلائه، فيقول له: أأنت كنت أشد ضرا ومرضا أم هذا؟ فيقول: بل هذا، فيقول: إن هذا لم يشغله ضره ومرضه عن عبادتى. ثم يؤتى بالمملوك فيقول الله له: ما منعك من عبادتى التى خلقتك لها؟ فيقول ربّ فضلت علىّ أربابا فملكونى وشغلونى عن عبادتك. فيؤتى بيوسف عليه السلام فى رقه وعبوديته فيقول الله له: أأنت كنت أشد فى رقك وعبوديتك أم هذا؟ فيقول: بل هذا يارب، فيقول الله: فان هذا لم يشغله ما كان فيه من الرق عن عبادتى. وروى حميد عن الأعرج عن مجاهد. قال: كنت أصحب ابن عمر فى السفر فاذا أردت أن أركب مسك ركابى، فاذا ركبت سوى علىّ ثيابى فرآنى مرة كأنى كرهت ذلك فىّ، فقال: يامجاهد إنك لضيق الخلق، وفى رواية: صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمنى.

وقال الامام أحمد: حدثنا عبد الرزاق حدثنا الثورى عن رجل عن مجاهد. قال: جعلت الأرض لملك الموت مثل الطست يتناول منها حيث شاء، وجعل له أعوان يتوفون الأنفس ثم يقبضها

منهم . وقال : لما هبط آدم إلى الأرض قال له : ابن للخراب ولد للفناء . وروى قتيبة عن جرير عن منصور عن مجاهد . [ويلعنهم اللاعنون] قال : تلعن عصاة بنى آدم دواب الأرض وماشاء الله حتى الحيات والعقارب ، : يقولون : منعنا القطر بذنوب بنى آدم . وقال غيره : تسلط الحشرات على العصاة فى قبورهم ، لما كان ينالهم من الشدة بسبب ذنوبهم ، فتلك الحشرات من العقارب والحيات هى السيئات التى كانوا يعملونها فى الدنيا ويستلذونها ، صارت عذابا عليهم . نسأل الله العافية . وقال : [إن الانسان لربه لكنود] لكفور . وقال الامام أحمد : حدثنا عمر بن سليمان حدثنى مسلم أبو عبد الله عن ليث عن مجاهد قال : من لم يستحى من الحلال خفت مؤنته وأراح نفسه . وقال عمرو بن زروق حدثنا شعبة عن الحكم عن مجاهد . قال [فظن أن لن نقدر عليه] أن لن نعاقبه بذنبه . وبهذا الاسناد قال : لم أكن أحسن ما الزخرف حتى سمعتها فى قراءة عبد الله بيتا من ذهب . وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا خلف بن خليفة عن ليث عن مجاهد : إن الله عز وجل ليصلح بصلاح العبد ولده . قال : وبلغنى أن عيسى عليه السلام كان يقول : طوبى للمؤمن كيف يخلفه الله فيمن ترك بخير . وقال الفضيل بن عياض عن عبيد المكتب عن مجاهد فى قوله تعالى [وتقطعت بهم الأسباب] الأوصال التى كانت بينهم فى الدنيا . وروى سفيان بن عيينة عن سفيان الثورى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى : [لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة] قال : الالُّ الله عز وجل . وقال فى قوله تعالى [بقية الله خير لكم] طاعة الله عز وجل . وفى قوله تعالى [ولمن خاف مقام ربه جنتان] قال : هو الذى يذكر الله عند الهمّ بالمعاصى . وقال الفضيل بن عياض عن منصور عن مجاهد : [سيماهم فى وجوههم] الخشوع . وفى قوله تعالى : [وقوموا لله قانتين] قال القنوت الركود والخشوع وغض البصر ، وخفض الجناح من رهبة الله . وكان العلماء إذا قام أحدهم فى الصلاة هاب الرحمن أن يشد بصره أو يلتفت أو يقلب الحصا ، أو يعبث بشئ أو يحدث نفسه بشئ من الدنيا . إلا خاشعا مادام فى صلاته.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا أبو عمرو حدثنا ابن إدريس حدثنى عقبة بن إسحاق ـ وأثنى عليه خيراً ـ حدثنا ليث عن مجاهد . قال : كنت إذا رأيت العرب استخفيتها وجدتها من وراء دينها ، فاذا دخلوا فى الصلاة فكأنما أجساد ليست فيها أرواح . وروى الأعمش عنه قال : إنما القلب منزلة الكف ، فاذا أذنب الرجل ذنبا قبض هكذا ـ وضم الخنصر حتى ضم أصابعه كلها اصبعاً اصبعاً ـ قال : ثم يطبع ، فكانوا يرون ذلك الران : قال الله تعالى : [كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون] وروى قبيصة عن سفيان الثورى عن منصور عن مجاهد : [بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته] قال : الذنوب تحيط بالقلوب كالحائط المبنى على الشئ المحيط ، كلما عمل ذنبا ارتفعت حتى تغشى القلب حتى تكون هكذا ـ ثم قبض يده ـ ثم قال : هو الران . وفى قوله : [بما

قدم وأخر] قال : أول عمل العبد وآخره [و إلى ربك فارغب] قال : إذا فرغت من أمر الدنيا فقمت إلى الصلاة فاجعل رغبتك إليه ، ونيتك له .

وعن منصور عن مجاهد [النفس المطمئنة] قال : هى النفس التى قد أيقنت أن الله ربها وضربت حاشا لأمره وطاعته . وروى عبد الله بن المبارك عن ليث عن مجاهد : قال : مامن ميت يموت إلا عرض عليه أهل مجلسه ، إن كان من أهل الذكر فمن أهل الذكر ، و إن كان من أهل اللهو فمن أهل اللهو . وقال أحمد : حدثنا هاشم بن القاسم حدثنا محمد بن طلحة عن زبيد عن مجاهد . قال : قال إبليس : إن يعجزنى ابن آدم فلن يعجزنى من ثلاث خصال: أخذ مال بغير حق، و إنفاقه فى غير حقه[1]

وقال أحمد : حدثنا ابن نمير قال قال الأعمش : كنت إذا رأيت مجاهداً ظننت أنه حر مندح قد ضل حماره فهو مهتم . وعن ليث عن مجاهد قال : من أكرم نفسه وأعزها أذل دينه ، ومن أذل نفسه أعز دينه . وقال شعبة عن الحكم عن مجاهد قال قال لى : يا أبا الغازى كم لبث نوح فى الأرض؟ قال: قلت ألف سنة إلا خمسين عاما ، قال : فان الناس لم يزدادوا فى أعمارهم وأجسادهم وأخلاقهم إلا نقصا . وروى أبو بكر بن أبى شيبة عن أبى علية عن ليث عن مجاهد قال : ذهبت العلماء فما بقى إلا المتعلمون ، وما المجتهد فيكم إلا كاللاعب فيمن كان قبلكم . وروى ابن أبى شيبة أيضا عن ابن إدريس عن ليث عن مجاهد قال : لو لم يصب المسلم من أخيه إلا أن حياء منه يمنعه من المعاصى لكان فى ذلك خير . وقال : الفقيه من يخاف الله و إن قل علمه ، والجاهل من عصى الله و إن كثر علمه . وقال : إن العبد إذا أقبل على الله بقلبه أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه . وقال فى قوله تعالى : [وثيابك فطهر] قال : عملك فأصلح . [واسألوا الله من فضله] قال : ليس من عرض الدنيا [والذى جاء بالصدق وصدق به] قال : هم الذين يجيئون بالقرآن قد اتبعوه وعملوا بما فيه . وقال: يقول القرآن للعبد إنى معك ما اتبعتنى ، فاذا لم تعمل بى اتبعتك . [ولا تنس نصيبك من الدنيا] قال : خذ من دنياك لآخرتك ، وذلك أن تعمل فيها بطاعة الله عز وجل . وقال داود بن المحبر عن عباد بن كثير عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه مجاهد بن جبير قال : قلت لابن عمر : أى حجاج بيت الله أفضل وأعظم أجرا ؟ قال : من جمع ثلاث خصال ، نية صادقة ، وعقلا وافراً ، ونفقة من حلال ، فذكرت ذلك لابن عباس فقال : صدق . فقلت : إذا صدقت نيته وكانت نفقته من حلال فماذا يضره قلة عقله ؟ فقال : ياأبا حجاج ، سألتنى عما سألت عنه رسول الله (ص) فقال : « والذى نفسى بيده ما أطاع العبد الله بشئ أفضل من حسن العقل ، ولا يقبل الله صوم عبد ولاصلاته ، ولا شيئا مما يكون من عمله من أنواع الخير إن لم يعمل بعقل . ولو أن جاهلا فاق المجتهدين فى العبادة ، كان مايفسداً كثر

(١) كذا بالأصل . . .

مما يصلح ». قلتُ : ذكر العقل فى هذا الحديث ورفعه إلى النبى (ص.) من المنكرات والموضوعات ، والثـلاث الخصال موقوفة على ابن عمر ، من قوله من جمع ثلاث خصال ، إلى قوله : قال ابن عباس صدق ، والباقى لايصح رفعه ولا وقفه ، وداود بن المحبر كنيته أبو سليمان ، قال الحاكم : حدث ببغداد عن جماعة من الثقات بأحاديث موضوعة ، حدث بها عنه الحارث بن أبى أسامة ، وله كتاب العقل ، وأكثر ما أودع ذلك الـكتاب موضوع على رسول الله (ص.) ، وذكر العقل مرفوعا فى هذه الرواية لعله من جملتها ، والله أعلم . وقد كذبه أحمد بن حنبل] [١]

مصعب بن سعد بن ابي وقاص

تابعى جليل القـدر . موسى بن طلحة بن عبيد الله التيمى ، كان يلقب بالمهدى لصلاحه ، كان تابعيا جليل القدر من سادات المسلمين رحمه الله

ثم دخلت سنة اربـع ومائة

فيها قاتل سعيد بن عمرو الحرشى نائب خراسان أهل الصغد وحاصر أهـل خجندة وقتل خلقا كثيراً ، وأخذ أموالا جزيلة ، وأسر رقيقا كثيراً جدا ، وكتب بذلك إلى يزيد بن عبـد الملك ، لأنه هو الذى ولاه . وفى ربيع الأول منها عزل يزيد بن عبـد الملك عن إمرة الحرمين عبد الرحمن ابن الضحاك بن قيس ، وكان سـببه أنه خطب فاطمة بنت الحسين فامتنعت من قبول ذلك ، فألح عليها وتوعدها ، فأرسلت إلى يزيد تشكوه إليه ، فبعث إلى عبـد الواحد بن عبدالله النضرى نائب الطائف فولاه المدينـة ، وأن يضرب عبـد الرحمن بن الضحاك حتى يسمع صوته أمـير المؤمنين وهو متكئ على فراشه بدمشق ، وأن يأخذ منه أربعين ألف دينار ، فلما بلغ ذلك عبد الرحمن ركب إلى دمشق واستجار بمسلمة بن عبد الملك ، فدخل عـلى أخيه فقال : إن لى إليك حاجة ، فقال : كل حاجة تقولها فهى لك إلا أن تكون ابن الضحاك ، فقال :هو والله حاجتى ، فقال : والله لاأقبلها ولا أعفو عنه ، فرده إلى المدينة فتسلمه عبد الواحد فضربه وأخـذ ماله حتى تركه فى جبة صوف ، فسأل الناس بالمدينة ، وكان قد باشر نيابة المدينة ثلاث سنين وأشهراً ، وكان الزهرى قد أشار عليه برأى سديد ، وهو أن يسأل العلماء إذا أشكل عليه أمر فلم يقبل ، ولم يفعل ، فأبغضه الناس وذمه الشعراء ثم كان هذا آخر أمره .

وفيها عزل عمر بن هبيرة سعيد بن عمرو الحرشى ، وذلك أنه كان يستخف بأمر ابن هبـيرة ، فلما عزله أحضره بين يديه وعاقبه وأخـذ منه أموالا كثيرة ، وأمر بقتله ثم عفا عنـه ، وولى عـلى خراسان مسلم بن سعيد بن أسلم بن زرعة الـكلابى ، فسار إليها فاستخلص أموالا كانت منكسرة فى

---

(١) من أول الفصل إلى هنا زيادة من المصرية .

أيام سعيد بن عمرو الحرشي . وفيها غزا الجراح بن عبد الله الحكمي نائب أرمينية وأذربيجان ، أرض الترك ، ففتح بلنجر وهزم الترك وغرقهم وذراريهم في الماء ، وسبى منهم خلقا كثيراً ، وافتتح عامة الحصون التي تلي بلنجر ، وأجلى عامة أهلها ، والتقى هو والخاقان الملك فجرت بينهم وقعة هائلة آل الأمر فيها إلى أن انهزم خاقان ، وتبعهم المسلمون ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، قتل فيها خلق كثير لا يحصون . وحج بالناس في هذه السنة عبد الواحد بن عبد الله النضرى أمير الحرمين والطائف ، وعلى نيابة العراق وخراسان عمر ، ونائبه على خراسان مسلم بن سعيد يومئذ . وفي هذه السنة ولد السفاح وهو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الملقب بالسفاح ، أول خلفاء بني العباس وقد بايع أباه في الباطن جماعة من أهل العراق . وفيها توفي من الأعيان :

خالد بن سعدان الكلاعي

[له روايات عن جماعة من الصحابة ، وكان تابعيا جليلا ، وكان من العلماء وأئمة الدين المعدودين المشهورين ، وكان يسبح كل يوم أربعين ألف تسبيحة وهو صائم ، وكان إمام أهل حمص ، وكان يصلي التراويح في شهر رمضان ، فكان يقرأ فيها في كل ليلة ثلث القرآن ، وروى الجوزجاني عنه أنه قال : من اجترأ على الملاوم في مراد الحق ، قلب الله تلك المحامد عليه ذما . وروى ابن أبي الدنيا عنه قال : ما من عبد إلا وله أربعة أعين . عينان في وجهه يبصر بهما أمر دنياه ، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر آخرته ، فاذا أراد الله بالعبد خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما أمر آخرته وهما غيب ، فأمن الغيب بالغيب ، وإذا أراد الله بالعبد خلاف ذلك ترك العبد القلب على ما هو عليه ، فتراه ينظر فلا ينتفع ، فاذا نظر بقلبه نفع ، وقال : بصر القلب من الآخرة ، وبصر العينين من الدنيا وله فضائل كثيرة رحمه الله تعالى][1]

عامر بن سعد بن ابي وقاص الليثي

له روايات كثيرة عن أبيه وغيره ، وهو تابعي جليل ، ثقة مشهور

عامر بن شراحيل الشعبي

توفي فيها في قول [كان الشعبي من شعب همدان ، كنيته أبو عمرو ، وكان علامة أهل الكوفة ، كان إماماً حافظا ، ذا فنون ، وقد أدرك خلقا من الصحابة وروى عنهم وعن جماعة من التابعين ، وعنه أيضا روى جماعة من التابعين ، قال أبو مجلز : ما رأيت أفقه من الشعبي . وقال مكحول : ما رأيت أحداً أعلم بسنة ماضية منه . وقال داود الأودى : قال لي الشعبي : قم معي هاهنا حتى أفيدك علما ، بل هو رأس العلم . قلت : أي شيء تفيدني ؟ قال : إذا سئلت عما لا تعلم فقل : الله أعلم ، فانه

---

(١) زيادة من المصريه .

عـلم حسن . وقال : لو أن رجلا سافر من أقصى اليمن لحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبل من عمره ما رأيت سفره ضائعا ، ولو سافر فى طلب الدنيا أو الشهوات إلى خارج هـذا المسجد ، لرأيت سفره عقوبة وضياعا وقال : العلم أكثر من عدد الشعر ، فخذ من كل شئ أحسنه] [١].

ابو بردة بن ابو موسى الأشعري

تولى قضاء الكوفة قبل الشعبي ، فان الشعبي تولى فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، واستمر إلى أن مات ، وأما أبو بردة فانه كان قاضياً فى زمن الحجاج ، ثم عزله الحجاج وولى أخاه أبا بكر ، وكان أبو بردة فقيها حافظاً عالما ، له روايات كثيرة .

ابو قلابة الجرمي

[عبد الله بن يزيد البصرى ، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة وغيرهم ، وكان من كبار الأئمة والفقهاء ،وطلب للقضاء فهرب منه وتغرب ، قـدم الشام فنزل داريّا وبها مات رحمه الله . قال أبو قلابة : إذا أحدث الله لك علما فأحـدث له عبادة ، ولم يكن همك ما تحـدث به الناس ، فلعل غيرك ينتفع ويستغنى وأنت فى الظلمة تتعثر ، وإنى لأرى هـذه المجالس إنما هى مناخ البطالين . وقال : إذا بلغك عن أخيك شئ تكرهه فالتمس له عذراً جهـدك ، فان لم تجد له عـذراً فقل : لعل لأخى عذراً لا أعلمه] [٢]

ثم دخلت سنة خمس ومائة

فيها غزا الجراح بن عبد الله الحكمى بلاد اللان ، وفتح حصونا كثيرة ، وبلادا متسعة الأكناف من وراء بلنجر ، وأصاب غنائم جمة ، وسبى خلقا من أولاد الاتراك . وفيها غزا مسلم بن سعيد بلاد الترك وحاصر مدينة عظيمة من بلاد الصغد ، فصالحه ملكها على مال كثير يحمله إليه . وفيها غزا سعيد بن عبد الملك بن مروان بلاد الروم ، فبعث بين يديه سرية ألف فارس ، فأصيبوا جميعا

وفيها لخمس بقين من شعبان منها توفى أمير المؤمنين يزيد بن عبـد الملك بن مروان بأربد من أرض البلقاء ، يوم الجمعة ، وعمره ما بين الثلاثين والأربعين ، وهذه ترجمته :

هو يزيد بن عبد الملك بن مروان أبو خالد القرشى الأموى ، أمير المؤمنين ، وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، قيل إنها دفنت بقبر عاتكة فنسبت المحلة إليها والله أعلم . بويع له بالخلافة بعد عمر بن عبد العزيز فى رجب من سنة إحدى ومائة بعهد من أخيه سليمان ، أن يكون الخليفة بعد عمر ابن عبد العزيز ، لخمس بقين من رجب ، قال محمد بن يحيى الذهلى : حدثنا كثير بن هشام ثنا جعفر ابن برقان حدثنى الزهرى قال : كان لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم فى عهد رسول الله (ص) وأبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، فلما ولى الخلافة معاوية ورّث المسلم من الكافر . ولم يورث الكافر من

---

(١) (٢) زيادة من المصرية.

المسلم ، وأخـذ بذلك الخلفاء من بعده ، فلما قام عمر بن عبد العزيز راجع السنة الأولى ، وتبعه فى ذلك يزيد بن عبـد الملك ، فلما قام هشام أخذ بسنة الخلفاء ـ يعنى أنه ورث المسلم من الكافر ـ وقال الوليد بن مسلم عن ابن جابر قال : بينما نحن عند مكحول إذ أقبل يزيد بن عبد الملك فهممنا أن نوسع له ، فقال مكحول : دعوه يجلس حيث انتهى به المجلس ، يتعلم التواضع .

وقد كان يزيد هذا يكثر من مجالسة العلماء قبل أن يلى الخلافة ، فلما ولى عزم عـلى أن يتأسى بعمر بن عبـد العزيز ، فما تركه قرناء السوء ، وحسنوا له الظلم ، قال حرملة عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : لما ولى يزيد بن عبد الملك قال سيروا بسيرة عمر ، فمكث كذلك أربعين ليلة ، فأتى بأربعين شيخاً فشهدوا له أنه ماعلى الخلفاء من حساب ولا عـذاب ، وقد اتهمه بعضهـم فى الدين ، وليس بصحيح ، إنما ذاك ولده الوليد بن يزيد كما سيأتى ، أما هـذا فما كان به بأس ، وقد كتب إليـه عمر بن عبـد العزيز : أما بعـد فانى لاأرانى إلا ملمّا بى ، وما أرى الأمر الا سيفضى إليـك ، فالله الله فى أمة محمد ، فانك عما قليل ميت فتـدع الدنيا إلى من لايعـذرك ، والسلام . وكتب يزيد بن عبـد الملك إلى أخيـه هشام : أما بعد فان أمير المؤمنين قد بلغه أنك استبطأت حياته وتمنيت وفاته ورمت الخلافة ، وكتب فى آخره

تمنى رجالٌ أن أموتَ وإن أمتْ * فتلكَ سبيلٌ لستُ فيها بأوحدِ
وقد علموا لو ينفعُ العلمُ عندهمْ * متى متُّ ماالباغى على بمخلدِ
منيتهُ تجرى لوقتٍ وحتفـهُ * يصادفهُ يوماً عـلى غيرِ موعدِ
فقلْ للذى يبقى خلافَ الذى مضى * تهيأْ لأخرى مثلها وكأنْ قدِ

فكتب إليه هشام : جعل الله يومى قبل يومك ، وولدى قبل ولدك ، فلا خير فى العيش بعدك

وقد كان يزيد هذا يحب حظية من حظاياه يقال لها حبابة ـ بتشديد الباء الاولى ـ والصحيح تخفيفها ـ واسمها العالية ، وكانت جميلة جدا ، وكان قد اشتراها فى زمن أخيـه بأربعة آلاف دينار ، من عثمان بن سهل بن حنيف ، فقال له أخوه سليمان : لقد هممت أحجر على يديك ، فباعها ، فلما أفضت إليه الخلافة قالت له امرأته سعدة يوما : يا أمير المؤمنين ، هل بقى فى نفسك من أمر الدنيا شئ ؟ قال : نعم ، حبابة ، فبعثت امرأته فاشترتها له ولبستها وصنعتها وأجلستها من وراء الستارة ، وقالت له أيضا : يا أمير المؤمنين هل بقى فى نفسك من أمر الدنيا شئ ؟ قال : أو ما أخبرتك ؟ فقالت : هـذه حبابة ـ وأبرزتها له وأخلته بها وتركته وإياها ـ فحظيت الجارية عنده ، وكذلك زوجتـه أيضاً ، فقال يوماً أشتهى أن أخلو بحبابة فى قصر مدة من الدهر ، لايكون عندنا أحد ، ففعل ذلك ، وجمع إليه فى قصره ذلك حبابة ، وليس عنده فيه أحد ، وقد فرش له بأنواع الفرش والبسط الهائلة ، والنعمة الكثيرة السابغة ،

فبينما هو معها فى ذلك القصر على أسرّ حال وأنعم بال ، و بين يديهما عنب يأكلان منه ، إذ رماها بحبة عنب وهى تضحك فشرقت بها فماتت ؛ فمكث أياما يقبلها و يرشفها وهى ميتة حتى أنتنت وجيفت فأمر بدفنها ، فلما دفنها أقام أياما عندها على قبرها هائما ، ثم رجع إلى المنزل ثم عاد إلى قبرها فوقف عليه وهو يقول :

فان تسلُ عنكَ النفسُ أو تدعُ الصبا * فباليأسِ تسلو عنكَ لا بالتجلدِ
وكلّ خليلٍ زارنى فهوَ قائلٌ * من أجلكَ هذا هامةُ اليوم أوِ غدِ

ثم رجع فما خرج من منزله حتى خرج بنعشه وكان مرضه بالسل . وذلك بالسواد سواد الاردن يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان من هذه السنة ـ اعنى سنة خمس ومائة ـ

وكانت خلافته أربع سنين وشهراً على المشهور ، وقيل أقل من ذلك ، وكان عمره ثلاثا وثلاثين سنة ، وقيل خمسا وقيل ستا وقيل ثمانياً وقيل تسعا وثلاثين . وقيل إنه بلغ الأربعين فالله أعلم .

وكان طويلا جسيما أبيض مدور الوجه أفقم الفم لم يشب ، وقيل إنه مات بالجولان ، وقيل بحوران وصلى عليه ابنه الوليد بن يزيد ، وعمره خمس عشرة سنة ، وقيل بل صلى عليه أخوه هشام بن عبد الملك ، وهو الخليفة بعده ، وحمل على أعناق الرجال حتى دفن بين باب الجابية وباب الصغير بدمشق ، وكان قد عهد بالأمر من بعده لأخيه هشام ، ومن بعده لولده الوليد بن يزيد ، فبايع الناس من بعده هشاما

خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان

بويع له بالخلافة يوم الجمعة بعد موت أخيه لخمس بقين من شعبان من هذه السنة ـ أعنى سنة خمس ومائة ـ وله من العمر أربع وثلاثون سنة وأشهر ، لأنه ولد لما قتل أبوه عبد الملك مصعب بن الزبير فى سنة ثنتين وسبعين ، فسماه منصوراً تفاؤلا ، ثم قدم فوجد أمه قد أسمته باسم أبيها هشام ، فأقره . قال الواقدى : أتته الخلافة وهو بالديثونة فى منزل له ، فجاءه البريد بالعصا والخاتم ، فسلم عليه بالخلافة فركب من الرصافة حتى أتى دمشق ، فقام بأمر الخلافة أتم القيام ، فعزل فى شوال منها عن إمرة العراق وخراسان عمر بن هبيرة ، وولى عليها خالد بن عبد الله القسرى ، وقيل إنه استعمله على العراق فى سنة ست ومائة ، والمشهور الأول . وحج بالناس فيها إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى خال أمير المؤمنين ، أخو أمه عائشة بنت هشام بن إسماعيل ، ولم تلد من عبد الملك سواه حتى طلقها ، لأنها كانت حمقاء . وفيها قوى أمر دعوة بنى العباس فى السر بأرض العراق ، وحصل لدعاتهم أموال جزيلة يستعينون بها على أمرهم ، وماهم بصدده . وفيها توفى من الأعيان :

أبان بن عثمان بن عفان

تقدم ذكر وفاته سنة خمس وثمانين ، كان من فقهاء التابعين وعلمائهم ، قال عمرو بن شعيب

ما رأيت أعلم منه بالحديث والفقه ، وقال يحيى بن سعيد القطان : فقهاء المدينة عشرة ، فذكر أبان بن عثمان أحدهم ، وخارجة بن زيد ، وسالم بن عبد الله ، وسعيد بن المسيب ، وسليمان بن يسار ، وعبيد الله ابن عبد الله بن عتبة ، وعروة ، والقاسم ، وقبيصة بن ذؤيب ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن . قال محمد ابن سعد : كان به صمم ووضح ، وأصابه الفالج قبل أن يموت بسنة ، وتوفى سنة خمس ومائة . أبو رجاء العطاردى . عامر الشعبى . فى قول وقد تقدم ، وكثير عزة فى قول . وقيل فى التى بعدها كما سيأتى :

ثم دخلت سنة ست ومائة

ففيها عزل هشام بن عبد الملك عن إمرة المدينة ومكة والطائف ، عبدَ الواحد بن عبد الله النضرى ، وولى على ذلك كله ابن خاله إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومى ، وفيها غزا سعيد بن عبد الملك الصائفة ، وفيها غزا مسلم بن سعيد مدينة فرغانة ومعاملتها ، فلقيه عندها الترك ، وكانت بينهم وقعة هائلة ، قتل فيها الخاقان وطائفة كبيرة من الترك ، وفيها أوغل الجراح الحكمى فى أرض الخزر ، فصالحوه وأعطوه الجزية والخراج . وفيها غزا الحجاج بن عبد الملك اللان ، فقتل خلقاً كثيراً وغنم وسلم . وفيها عزل خالد بن عبد الله القسرى عن إمرة خراسان مسلم بن سعيد ، وولى عليها أخاه أسد بن عبد الله القسرى . وحج بالناس فى هذه السنة أمير المؤمنين هشام بن الملك ، وكتب إلى أبى الزناد قبل دخوله المدينة ليتلقاه ويكتب له مناسك الحج ، ففعل ، فتلقاه الناس من المدينة إلى أثناء الطريق ، وفيهم أبو الزناد قد امتثل ما أمر به ، وتلقاه فيمن تلقاه سعيد بن عبد الله ابن الوليد بن عثمان بن عفان ، فقال له : يا أمير المؤمنين إن أهل بيتك فى مثل هذه المواطن الصالحة لم يزالوا يلعنون أبا تراب ، فالعنه أنت أيضا ، قال أبو الزناد : فشق ذلك على هشام واستثقله ، وقال : ما قدمت لشتم أحد ، ولا لعنة أحد ، إنما قدمنا حجاجاً . ثم أعرض عنه وقطع كلامه وأقبل على أبى الزناد يحادثه ولما انتهى إلى مكة عرض له إبراهيم بن طلحة فتظلم إليه فى أرض ، فقال له : أين كنت عن عبد الملك ؟ قال : ظلمنى ، قال : فالوليد ؟ قال : ظلمنى ، قال : فسليمان ؟ قال : ظلمنى ، قال فعمر ابن عبد العزيز ؟ قال ردها على ، قال : فيزيد ؟ قال : انتزعها من يدى ، وهى الآن فى يدك ، فقال له هشام : أما لو كان فيك مضرب لضربتك ، فقال : بلى فىَّ مضرب بالسوط والسيف ، فانصرف عنه هشام وهو يقول لمن معه : ما رأيت أفصح من هذا . وفيها كان العامل على مكة والمدينة والطائف ، إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، وعلى العراق وخراسان خالد القسرى والله سبحانه أعلم .

وممن توفى فيها ، سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب أبو عمرو الفقيه ، أحد الفقهاء وأحد العلماء وله روايات عن أبيه وغيره ، وكان من العباد الزهاد ، ولما حج هشام بن عبد الملك دخل

الكعبة فاذا هو بسالم بن عبد الله ، فقال له : سالم ؟[1] سلني حاجة ، فقال : إني لأستحي من الله أن أسأل في بيته غيره ، فلما خرج سالم خرج هشام في أثره فقال له : الآن قد خرجت من بيت الله فسلني حاجة ، فقال سالم : من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة ؟ قال : من حوائج الدنيا ، فقال سالم : إني ما سألت الدنيا من يملكها ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟ وكان سالم خشن العيش ، يلبس الصوف الخشن ، وكان يعالج بيده أرضاله وغيرها من الأعمال ، ولا يقبل من الخلفاء ، وكان متواضعا وكان شديد الأدمة وله من الزهد والورع شئ كثير .

وطاوس بن كيسان اليماني من أكبر أصحاب ابن عباس وقد ترجمناهم في كتابنا التكميل ولله الحمد انتهى وقد زدنا هنا في ترجمة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب زيادة حسنة . فأما طاوس فهو أبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان اليماني ، فهو أول طبقة أهل اليمن من التابعين ،وهو من أبناء الفرس الذين أرسلهم كسرى إلى اليمن .

أدرك طاوس جماعة من الصحابة وروى عنهم ، وكان أحد الأئمة الأعلام ، قد جمع العبادة والزهادة ، والعلم النافع ، والعمل الصالح ، وقد أدرك خمسين من الصحابة ، وأكثر روايته عن ابن عباس ، وروى عنه خلق من التابعين وأعلامهم ، منهم مجاهد وعطاء وعمرو بن دينار ، وإبراهيم ابن ميسرة ، وأبو الزبير ومحمد بن المنكدر ، والزهري وحبيب بن أبي ثابت ، وليث بن أبي سليم ، والضحاك بن مزاحم . وعبد الملك بن ميسرة ، وعبد الكريم بن المخارق ووهب بن منبه ، والمغيرة ابن حكيم الصنعاني ، وعبد الله بن طاوس ، وغير هؤلاء .

توفي طاوس بمكة حاجا ، وصلى عليه الخليفة هشام بن عبد الملك ، ودفن بها رحمه الله تعالى . قال الامام أحمد : حدثنا عبدالرزاق قال قال أبي : مات طاوس بمكة فلم يصلوا عليه حتى بعث هشام ابنه بالحرس ، قال فلقد رأيت عبد الله بن الحسن واضعا السرير على كاهله ، قال : ولقد سقطت قلنسوة كانت عليه ومزق رداؤه من خلفه ـ يعني من كثرة الزحام ـ فكيف لا وقد قال النبي (ص) : « الايمان يمان » وقد خرج من اليمن خلق من هؤلاء المشار إليهم في هذا وغيره ، منهم أبو مسلم ، وأبو إدريس ، ووهب وكعب وطاوس وغير هؤلاء كثير . وروى ضمرة عن ابن شوذب قال : شهدت جنازة طاوس بمكة سنة خمس ومائة ، فجعلوا يقولون : رحم الله أبا عبد الرحمن ، حج أربعين حجة .

وقال عبد الرزاق : حدثنا أبي قال : توفي طاوس بالمزدلفة ـ أو بمنى ـ حاجاً ، فلما حمل أخذ عبد الله بن الحسن بن علي بقائمة سريره . فما زايله حتى بلغ القبر . وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق

---

(١) كذا بالأصل ولعل المراد ياسالم .

قال : قدم طاوس بمكة ، فقدم أمير المؤمنـين ، فقيل لطاوس : إن من فضله ومن ، ومن ، فلو أتيته قال : مالى إليه حاجة ، فقالوا : إنا نخاف عليك ، قال : فما هو إذا كما تقولون : وقال ابن جريج قال لى عطاء : جاءنى طاوس فقال لى : يا عطاء إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق دونك بابه ، وجعل دونه حجابه . وعليك بطلب من بابه لك مفتوح إلى يوم القيامة ، طلب منك أن تدعوه ووعدك الاجابة . وقال ابن جريج عن مجاهد عن طاوس [أولئك ينادون من مكان بعيد] قال : بعيد من قلوبهم ، وروى الأحجرى عن سفيان عن ليث قال قال لى طاوس : ما تعلمت من العلم فتعلمه لنفسك ، فان الأمانة والصدق قد ذهبا من الناس . وقال عبد الرحمن بن مهدى عن حماد بن زيد عن الصلت بن راشد . قال : كنا عند طاوس فجاءه مسلم بن قتيبة بن مسلم ، صاحب خراسان ، فسأله عن شئ فانتهره طاوس ، فقلت : هذا مسلم بن قتيبة بن مسلم صاحب خراسان ، قال : ذاك أهون له علي . وقال لطاوس : إن منزلك قد استرم ، فقال : أمسينا .

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس فى قوله تعالى [وخلق الانسان ضعيفا] قال : فى أمور النساء ، ليس يكون فى شئ أضعف منه فى النساء . وقال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا يحيى بن بكير حدثنا إبراهيم بن نافع عن ابن طاوس عن أبيه قال : لقى عيسى بن مريم عليه السلام إبليس فقال إبليس لعيسى : أما علمت أنه لن يصيبك إلا ما كتب الله لك ؟ قال : نعم ، قال إبليس : فأوف بذروة هذا الجبل فتردَّ منه . فانظر أتعيش أم لا ، قال عيسى : أما علمت أن الله تعالى قال : لايجربنى عبدى ، فانى أفعل ماشئت . وفى رواية عن الزهرى عنه قال قال عيسى : إن العبد لايختبر ربه ، ولكن الرب يختبر عبده ، وفى رواية أخرى : إن العبد لا يبتلى ربه ، ولكن الرب يبتلى عبده . قال : فخصمه عيسى عليه السلام . وقال فضيل بن عياض عن ليث عن طاوس قال : حج الأبرار على الرحال ، رواه عبد الله بن أحمد عنه .

وقال الامام أحمد : حدثنا أبو نميلة عن ابن أبى داود . قال : رأيت طاوساً وأصحاباً له إذا صلوا العصر استقبلوا القبلة ولم يكلموا أحداً ، وابتهلوا إلى الله تعالى فى الدعاء . وقال : من لم يبخل ولم يل مال يتيم لم ينله جهد البلاء . روى عنه أبو داود الطيالسى ، وقد رواه الطبرانى عن محمد بن يحيى بن المنذر عن موسى بن إسماعيل عن أبى داود فذكره . وقال لابنه : يا بنى صاحب العقلاء تنسب إليهم وإن لم تكن منهم ، ولاتصاحب الجهال فتنسب إليهم وإن لم تكن منهم ، واعلم أن لكل شئ غاية ، وغاية المرء حسن عقله . وسأله رجل عن مسألة فانتهره ، فقال : يا أبا عبد الرحمن إنى أخوك ، قال : أخى من دون الناس ؟ . وفى رواية أن رجلا من الخوارج سأله فانتهره ، فقال : إنى أخوك ، قال : أمن بين المسلمين كلهم ؟ . وقال عفان عن حماد بن زيد عن أيوب قال : سأل

رجـل طاوساً عن شيء فانتهره ، ثم قال : تريد أن تجعل فى عنقى حبـلا ثم يطاف بى ؟ ورأى طاوس رجلا مسكينا فى عينه عمش وفى ثوبه وسخ ، فقال له : عدٌ ! إن الفقر من الله ، فأين أنت من الماء ؟

وروى الطبرانى عنه قال : إقرار ببعض الظلم خير من القيام فيه ، وعن عبد الرزاق عن داود ابن إبراهيم أن الأسد حبس الناس ليلة فى طريق الحج ، فدق الناس بعضهم بعضا ، فلما كان السحر ذهب عنهم الأسد ، فنزل الناس يمينا وشمالا فألقوا أنفسهم ، وقام طاوس يصلى ، فقال له رجـل ـ وفى رواية فقال ابنـه ـ : ألا تنام فانك قد سهرت ونصبت هـذه الليلة ؟ فقال : وهل ينام السحر أحد ؟ وفى رواية : ما كنت أظن أحداً ينام السحر . وروى الطبرانى من طريق عبد الرزاق عن أبى جريج وابن عيينة . قالا : حدثنا ابن طاوس قال : قلت لأبى : ما أفضل مايقال عـلى الميت ؟ قال الاستغفار .

وقال الطبرانى : حدثنا عبد الرزاق قال سمعت النعمان بن الزبير الصنعانى يحدث أن محمـد بن يوسف ـ أو أيوب بن يحيى ـ بعث إلى طاوس بسبعمائة دينار وقال للرسول : إن أخـذها منك فان الأمير سيكسوك ويحسن إليك . قال : فخرج بها حتى قدم على طاوس الجند ، فقال : يا أبا عبد الرحمن نفقة بعث بها الأمـير إليك ، فقال : مالى بها من حاجة ، فأراده على أخـذها بكل طريق فأبى أن يقبلها ، فغفل طاوس فرمى بها الرجـل من كوة فى البيت ثم ذهب راجعا إلى الأمير ، وقال : قـد أخـذها ، فمكثوا حينا ثم بلغهم عن طاوس ما يكرهون ـ أو شئ يكرهونه ـ فقالوا : ابعثوا إليـه فليبعث إلينا بمالنا ، فجاءه الرسول فقال : المال الذى بعثه إليك الأمير ردّه إلينا ، فقال : ما قبضت منه شيئا ، فرجع الرسول إليهم فأخبرهم ، فعرفوا أنه صادق ، فقالوا : انظروا الذى ذهب بها إليه ، فأرسلوه إليه ، فجاءه فقال : المـال الذى جئتك به يا أبا عبـد الرحمن ، قال : هل قبضت منك شيئا ؟ قال : لا ! قال : فقام إلى المكان الذى رمى به فيـه فوجـدها كما هى ، وقد بنت عليها العنكبوت ، فأخذها فذهب بها إليهم .

ولما حج سليمان بن عبد الملك قال : انظروا إلىّ فقيها أسأله عن بعض المناسك ، قال : فخرج الحاجب يلتمس له ، فمر طاوس فقالوا : هـذا طاوس اليمـانى ، فأخـذه الحاجب فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقال : اعفنى ، فأبى ، فأدخله عليه ، قال طاوس : فلما وقفت بين يديه قلت : إن هذا المقام يسألنى الله عنه ، فقال : يا أمير المؤمنين إن صخرة كانت على شفير جهنم هوت فيها سبعين خريفا حتى استقرت فى قرارها ، أتدرى لمن أعدها الله ؟ قال : لا ! ! ويلك لمن أعدها الله ؟ قال : لمن أشركه الله فى حكمه فجار . وفى رواية ذكرها الزهرى أن سليمان رأى رجـلا يطوف بالبيت ، له جمال وكمال ، فقال : من هذا يازهرى ؟ فقلت : هـذا طاوس ، وقد أدرك عدة من الصحابة ، فأرسل

إليه سليمان فأتاه فقال : لو ما حدثتنا ؟ فقال : حدثنى أبو موسى قال : قال رسول الله (ص) : « إن أهون الخلق على الله عز وجل من ولى من أمور المسلمين شيئا فلم يعدل فيهم » . فتغير وجه سليمان فأطرق طويلا ثم رفع رأسه إليه فقال : لو ما حدثتنا ؟ فقال : حدثنى رجل من أصحاب النبى (ص) - قال ابن شهاب : ظننت أنه أراد عليا - قال : دعانى رسول الله (ص) إلى طعام فى مجلس من مجالس قريش ، ثم قال : « إن لكم على قريش حقا ، ولهم على الناس حق ، ما إذا استرحموا رحموا ، و إذا حكموا عدلوا ، واذا ائتمنوا أدوا ، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا » . قال : فتغير وجه سليمان وأطرق طويلا ثم رفع رأسه إليه وقال : لو ما حدثتنا ؟ فقال : حدثنى ابن عباس أن آخر آية نزلت من كتاب الله : [واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون] .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنى أبو معمر عن ابن عيينة عن إبراهيم بن ميسرة قال قال عمر بن عبد العزيز لطاوس : ارفع حاجتك إلى أمير المؤمنين - يعنى سليمان - فقال طاوس مالى إليه من حاجة ، فكأنه عجب من ذلك ، قال : سفيان وحلف لنا إبراهيم وهو مستقبل الكعبة : ورب هذا البيت ما رأيت أحداً الشريف والوضيع عنده بمنزلة واحدة إلا طاوس . قال : وجاء ابن لسليمان بن عبد الملك فجلس إلى جنب طاوس فلم يلتفت إليه ، فقيل له : جلس إليك أمير المؤمنين فلم تلتفت إليه ؟ قال : أردت أن يعلم هو وأبوه أن لله عباداً يزهدون فيهم وفيما فى أيديهم . وقد روى عبد الله بن أحمد عن ابن طاوس قال : خرجنا حجاجا فنزلنا فى بعض القرى ، وكنت أخاف أبى من الحكام لشدته وغلاظه عليهم ، قال : وكان فى تلك القرية عامل لمحمد بن يوسف - أخى الحجاج بن يوسف - يقال له أيوب بن يحيى ، وقيل يقال له ابن نجيح ، وكان من أخبث عماهم كبراً وتجبراً ، قال : فشهدنا صلاة الصبح فى المسجد ، فاذا ابن نجيح قد أخبر بطاوس فجاء فقعد بين يدى طاوس ، فسلم عليه فلم يجبه ، ثم كلمه فأعرض عنه ، ثم عدل إلى الشق الآخر فأعرض عنه ، فلما رأيت مابه قمت إليه وأخذت بيده ثم قلت له : إن أبا عبد الرحمن لم يعرفك ، فقال طاوس : بلى ! إنى به لعارف ، فقال الأمير : إنه بى لعارف ، ومعرفته بى فعلت بى ما رأيت. ثم مضى وهو ساكت لا يقول شيئا ، فلما دخلت المنزل قال لى أبى : يالكع ، بينما أنت تقول أريد أخرج عليهم بالسيف لم تستطع أن تحبس عنهم لسانك .

وقال أبو عبد الله الشامى : أتيت طاوساً فاستأذنت عليه فخرج إلى ابنه شيخ كبير ، فقلت : أنت طاوس ؟ فقال : لا ! أنا ابنه ، فقلت : إن كنت أنت ابنه فان الشيخ قد خرف ، فقال : إن العالم لا يخرف ، فدخلت عليه فقال طاوس : سل فأوجز ، فقلت : إن أوجزت أوجزت لك ،

فقال تريد أن أجمع لك فى مجلسى هـذا التوراة والانجيل والفرقان ؟ قال : قلت نعم ! قال : خف الله مخافة لا يكون عندك شئ أخوف منـه ، وارجه رجاء هو أشـد من خوفك إياه ، وأحب للناس ما تحب لنفسك .

وقال الطبرانى: حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه . قال : يجاء يوم القيامة بالمال وصاحبـه فيتحاجان ، فيقول صاحب المال للمال : جمعتك فى يوم كذا فى شهر كذا فى سـنة كذا ، فيقول المـال : ألم أقض لك الحوائج ؟ أنا الذى حلت بينك و بين أن تصنع فيما أمرك الله عز وجل من حبك إياى ، فيقول صاحب المال إن هذا الذى نفد على حبال أوثق بها وأقيد ، وقال عثمان بن أبى شيبة : حدثنا أبى حدثنا يحيى بن الضريس عن أبى سنان عن حبيب ابن أبى ثابت قال : اجتمع عنـدى خمسة لايجتمع عنـدى مثلهـم قط ، عطاء وطاووس ، ومجاهد وسعيد بن جبير ، وعكرمة . وقال سفيان : قلت لعبيد الله بن أبى يزيد : مع من كنت تدخل عـلى ابن عبـاس ؟ قال : مع عطاء والعـامة ، وكان طاوس يدخل مع الخاصة ، وقال حبيب : قال لى طاوس إذا حدثتك حديثا قد أثبته فلا تسأل عنه أحدا ــ وفى رواية ــ فلا تسأل عنه غيرى .

وقال أبو أسامة ، حدثنا الأعمش عن عبـد الملك بن ميسرة عن طاوس قال : أدركت خمسين من أصحاب رسول الله ﷺ . وقال الامام أحمد : حدثنا عبـد الرزاق حدثنا معمر أخبرنى ابن طاوس قال : قلت لأبى : أريد أن أتزوج فلانة ، قال : اذهب فانظر إليها ، قال : فـذهبت فلبست من صالح ثيابى ، وغسلت رأسى ، وادهنت ، فلما رآنى فى تلك الحال قال : اجلس فلا تذهب . وقال عبـد الله بن طاوس : كان أبى إذا سار إلى مـكة سار شهراً ، وإذا رجع رجع فى شهر ، فقلت له فى ذلك ، فقال : بلغنى أن الرجل إذا خرج فى طاعة لايزال فى سبيل الله حتى يرجع إلى أهله . وقال حمزة عن هـلال بن كعب . قال : كان طاوس إذا خرج من اليمن لم يشرب إلا من تلك الميـاه القـديمة الجاهلية ، وقال له رجل : ادع الله لى ، فقال : ادع لنفسك فانه يجيب المضطر إذا دعاه .

وقال الطبرانى : حدثنا إسحاق بن ابراهيم حـدثنا عبـد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيـه . قال : كان رجل فيما خـلا من الزمان ، وكان عاقـلا لبيبا ، فـكبر فقعد فى البيت ، فقال لابنه يوما : إنى قـد اغتممت فى البيت ، فلو أدخلت على رجالا يكلمونى ؟ فذهب ابنه فجمع نفراً فقال : ادخلوا على أبى فحدثوه ، فان سمعتم منه منكراً فاعذروه فانه قد كبر ، وإن سمعتم منـه خيراً فاقبـلوه . قال : فدخلوا عليـه فـكان أول ما تكلم به أن قال : إن أكيس الكيس التقى ، وأعجز العجز الفجور ، وإذا تزوج الرجل فليتزوج من معدن صالح ، فاذا اطلعتم على فجرة رجل فاحذروه فان لها أخوات

وقال سلمة بن شبيب : حدثنا أحمد بن نصر بن مالك حدثنا عبد الله بن عمر بن مسلم الجيرى عن أبيه قال قال طاوس لابنه : إذا قبرتنى فانظر فى قبرى ، فان لم تجدنى فاحمد الله تعالى ، و إن وجدتنى فانا لله و إنا إليه راجعون . قال عبد الله : فأخبرنى بعض ولده أنه نظر فلم يره ولم يجد فى قبره شيئا ، ورؤى فى وجهه السرور ، وقال قبيصة : حدثنا سفيان عن سعيد بن محمد قال : كان من دعاء طاوس يدعو : اللهم احرمنى كثرة المال والولد ، وارزقنى الايمان والعمل . وقال سفيان عن معمر حدثنا الزهرى قال : لو رأيت طاوس بن كيسان علمت أنه لا يكذب .

وقال عون بن سلام : حدثنا جابر بن منصور ـ أخو إسحاق بن منصور ـ السلولى عن عمران ابن خالد الخزاعى . قال كنت جالساً عند عطاء فجاء رجل فقال : أبا محمد إن طاوساً يزعم أن من صلى العشاء ثم صلى بعدها ركعتين يقرأ فى الأولى : الٓم تنزيل السجدة ، وفى الثانية تبارك الذى بيده الملك كتب له مثل وقوف عرفة وليلة القدر . فقال عطاء : صدق طاوس ما تركتهما . وقال ابن أبى السرى : حدثنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه . قال : كان رجل من بنى إسرائيل ، وكان ربما داوى المجانين ، وكانت امرأة جميلة ، فأخذها الجنون ، فجئ بها إليه ، فنزلت عنده فأعجبته ، فوقع عليها فحملت ، فجاءه الشيطان فقال : إن علم بها افتضحت ، فاقتلها وادفنها فى بيتك ، فقتلها ودفنها ، فجاء أهلها بعد ذلك بزمان يسألونه عنها ، قال : ماتت ، فلم يتهموه لصلاحه ومنزلته ، فجاءهم الشيطان فقال : إنها لم تمت ، ولكن قد وقع عليها فحملت فقتلها ودفنها فى بيته ، فى مكان كذا وكذا ، فجاء أهلها فقالوا : ما نتهمك ولكن أخبرنا أين دفنتها ، ومن كان معك ؟ فنبشوا بيته فوجدوها حيث دفنها ، فأخذوه فحبسوه وسجنوه ، فجاءه الشيطان فقال : أنا صاحبك ، فان كنت تريد أن أخرجك مما أنت فيه فا كفر بالله فأطاع الشيطان فكفر بالله عز وجل ، فقتل فتبرأ منه الشيطان حينئذ . وقال طاوس : ولا أعلم أن هذه الآية نزلت إلا فيه و فى مثله [كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر ، فلما كفر قال إنى برئ منك إنى أخاف الله رب العالمين] .

وقال الطبرانى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه . قال : كان رجل من بنى إسرائيل له أربعة بنين ، فمرض ، فقال أحدهم : إما أن تمرضوا أبانا وليس لكم من ميراثه شئ ، و إما أن أمرضه وليس لى من ميراثه شئ ، فمرضه حتى مات ودفنه ولم يأخذ من ميراثه شيئاً ، وكان فقيراً وله عيال ، فأتى فى النوم فقيل له : إيت مكان كذا وكذا فاحفره تجد فيه مائة دينار فخذها ، فقال للآتى فى المنام : ببركة أو بلا بركة ؟ فقال : بلا بركة ، فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته فقالت : اذهب فخذها فان من بركتها أن تكسونى منها ونعيش منها . فأبى وقال : لا آخذ شيئا ليس فيه بركة . فلما أمسى أتى فى منامه فقيل له : إيت مكان كذا وكذا فخذ

منه عشرة دنانير ، فقال : ببركة أو بلا بركة ؟ قال : بلا بركة ، فلما أصبح ذكر ذلك لامرأته فقالت له مثل ذلك فأبى أن يأخذها ، ثم أتى فى الليلة الثالثة فقيل له : إيت مكان كذا وكذا فخذ منه ديناراً ، فقال : ببركة أو بلا بركة ؟ قال : ببركة ، قال ، نعم إذاً ، فلما أصبح ذهب إلى ذلك المكان الذى أشير إليه فى المنام فوجد الدينار فأخذه ، فوجد صياداً يحمل حوتين فقال : بكم هما ؟ قال : بدينار ، فأخذهما منه بذلك الدينار ثم انطلق بهما إلى امرأته فقامت تصلحهما ، فشقت بطن أحدهما فوجدت فيه درة لايقوم بها شئ ، ولم ير الناس مثلها ، ثم شقت بطن الآخر فاذا فيه درة مثلها ، قال : فاحتاج ملك ذلك الزمان درة فبعث يطلبها حيث كانت ليشتريها ، فلم توجد إلا عنده ، فقال الملك : إيت بها ، فأتاه بها ، فلما رآها حلاّها الله عز وجل فى عينيه ، فقال : بعنيها ، فقال : لا أنقصها عن وقر ثلاثين بغلا ذهبا ، فقال الملك : ارضوه ، فخرجوا به فوقروا له ثلاثين بغلا ذهبا ، ثم نظر إليها الملك فأعجبته إعجابا عظيما ، فقال : ما تصلح هذه إلا بأختها ، اطلبوا لى أختها ، قال : فأتوه فقالوا له : هل عندك أختها ونعطيك ضعف ما أعطيناك ؟ قال : وتفعلون ؟ قالوا : نعم . فأتى الملك بها ، فلما رآها أخذت بقلبه فقال أرضوه ، فأضعفوا له ضعف أختها ، والله أعلم .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا وهيب بن الورد حدثنا عبد الجبار بن الورد قال حدثنى داود ابن سابور قال قلنا لطاوس : أدع بدعوات ، فقال : لا أجد لذلك حسبة . وقال ابن جرير عن ابن طاوس عن أبيه قال : البخل أن يبخل الأنسان بما فى يده ، والشح أن يحب أن له مافى أيدى الناس بالحرام لايقنع : وقيل الشح هو ترك القناعة ، وقيل : هو أن يشح بما فى يد غيره ، وهو مرض من أمراض القلب ينبغى للعبد أن يعزله عن نفسه وينفيه ما استطاع ، وهو يأمرنا بالبخل كما فى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ قال : « اتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم [أمرهم] بالبخل فبخلوا وبالقطيعة فقطعوا وهذا هو الحرص على الدنيا وحبها » وقال ابن أبى شيبة : حدثنا المحاربى عن ليث عن طاوس قال : ألا رجل يقوم بعشر آيات من الليل فيصبح قد كتب له مائة حسنة أو أكثر من ذلك ، ومن زاد زيد فى ثوابه ، وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا سفيان بن عيينة عن هشام بن حجير عن طاوس . قال : لايتم نسك الشاب حتى يتزوج . وعن سفيان عن إبراهيم بن ميسرة قال : قال لى طاوس : لتنكحن أو لأقولن لك ما قال عمر بن الخطاب لأبى الزوائد : مايمنعك من النكاح إلا عجز أو فجور . وقال طاوس : لايحرز دين المؤمن إلا حفرته . وقال عبد الرزاق عن معمر بن طاوس وغيره أن رجلا كان يسير مع طاوس ، فسمع الرجل غرابا ينعب ، فقال : خير : فقال طاوس : أى خير عند هذا أو شر لاتصحبنى ولا تمش معى . وقال بشر بن موسى : حدثنا الحميدى حدثنا سفيان عن ابن طاوس عن أبيه . قال : إذا غدا الأنسان اتبعه الشيطان ، فاذا أتى المنزل فسلم نكص الشيطان

وقال : لا مقيل ، فاذا أتى بغدائه فذكر اسم الله قال : ولا غـداء ولا مقيل ، فاذا دخـل ولم يسلم قال الشيطان : أدركنا المقيل ، فاذا أتى بغدائه ولم يذكر اسم الله عليه قال الشيطان : مقيل وغداء ، وفى العشاء مثل ذلك . وقال : إن الملائكة ليكتبون صـلاة بنى آدم : فلان زاد فيها كذا وكذا ، وفلان نقص فيها كذا وكذا وذلك فى الركوع والخشوع والسجود .

وقال : لما خلقت النار طارت أفئـدة الملائكة ، فلما خلق آدم سكنت ، وكان إذا سمع صوت الرعد يقول : سبحان من سبحت له . وقال الامام أحمد : حدثنا سفيان عن ابن أبى نجيح قال قال مجاهد لطاوس يا أبا عبد الرحمن ! رأيتك تصلى فى الكعبة والنبى ص على بابها يقول لك : اكشف قناعك ، و بين قراءتك . فقال له : اسكت لا يسمع هـذا منك أحـد . ثم تخيل إلى أن انبسط فى الحديث . وقال أحمد أيضا بهذا الأسناد : إن طاوسا قال لأبى نجيح : يا أبا نجيح ! ! من قال واتقى الله خـير ممن صمت واتقى . وقال مسعر عن رجل إن طاوساً أتى رجـلا فى السحر فقالوا : هو نائم ، فقال : ما كنت أرى أن أحداً ينام فى السحر . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا محمد بن يزيد حـدثنا ابن يمان عن مسعود ، فذكره . قال الثورى : كان طاوس يجلس فى بيته ، فقيل له فى ذلك فقال : حيف الأئمة وفساد الناس .

وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق قال أخبرنى أبى قال : كان طاوس يصلى فى غداة باردة معتمة ، فمر به محمد بن يوسف صاحب اليمن وحاجبها ـ وهو أخو الحجاج بن يوسف ـ وطاوس ساجد ، والأمير راكب فى مركبه ، فأمر بساج أو طيلسان مرتفع القيمة فطرح عـلى طاوس وهو ساجـد ، فلم يرفع رأسه حتى فرغ من حاجته ، فلما سلم نظر فاذا الساج عليـه فانتفض فألقاه عنـه ، ولم ينظر إليـه ومضى إلى منزله وتركه ملقى على الأرض . وقال نعيم بن حماد : حدثنا حماد بن عيينة عن ابن جريج عن عطاء عن طاوس عن ابن عباس : ما من شئ يتكلم به ابن آدم إلا كتب عليـه حتى أنينه فى مرضه ، فلما مرض الامام أحمد أنّ فقيل له : إن طاوسا كان يكره أنين المرض فتركه . وقال أبو بكر بن أبى شيبة : حـدثنا الفضل بن دكين حدثنا سفيان عن أبيه عن داود بن شابور . قال : قال رجل لطاوس : ادع الله لنا ، فقال : ما أجد بقلبى خشية فأدعو لك . وقال ابن طالوت : حدثنا عبد السلام بن هاشم عن الحسن بن أبى الحصين العنبرى . قال : مرّ طاوس برواس قد أخرج رؤساً فغشى عليه . وفى رواية كان إذا رأى الرؤس المشوية لم يتعش تلك الليلة .

وقال الامام أحمـد : حدثنا هاشم بن القاسم حـدثنا الأشجعى عن سفيان الثورى . قال قال طاوس إن الموتى يفتنون فى قبورهم سبعا ، وكانوا يستحبون أن يطعم عنهم تلك الأيام . وقال ابن إدريس : سمعت ليثا يذكر عن طاوس وذكر النساء فقال : فيهن كفر من مضى وكفر من بقى . وقال

أبو عاصم عن بقيـة عن سلمة ابن وهرام عن طاوس قال : كان يقال : اسجد للقرد فى زمانه ، اى أطعه فى المعروف . وقال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا أسامة حدثنا نافع بن عمر عن بشر بن عاصم . قال قال طاوس : ما رأيت مثل (١) أحد آمن على نفسه ، ولقد رأيت رجلا لو قيل لى : من أفضل من تعرف ؟ لقلت : فلان ذلك الرجل ، فمكثت على ذلك حينا ثم أخذه وجع فى بطنه ، فأصاب منه شيئا استنضح بطنه عليـه ، فاشتهاه ، فرأيته فى نطع ما أدرى أى طرفيه أسرع حتى مات عرقا . وروى أحمد حدثنا هشيم قال أخبرنا أبو بشر عن طاوس أنه رأى فتيةً من قريش يرفلون فى مشيتهم ، فقال : إنكم لتلبسون لبسة ما كانت آباؤكم تلبسها ، وتمشون مشـية ما يحسن الزفافون أن يمشوها . وقال أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر أن طاوساً قام على رفيق له مرض حتى فاته الحج ـ لعله هو الرجل المتقدم قبل هذا استنضح بطنه ـ وقال مسعر بن كدام عن عبد الكبير المعلم قال طاوس قال ابن عباس : سئل النبى (ص.) : من أحسن قراءة ؟ قال : « من إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله عز وجل » . وقد روى هـذا ايضا من طريق ابن لهيعة عن عمرو بن دينار عن طاوس قال قال ابن عباس : إن النبى (ص.) قال: « إن أحسن الناس قراءة من قرأ القرآن يتحزن به » . وعنه عن عبـد الله بن عمرو بن العاص قال : رآنى رسول الله (ص.) وعـلىَّ ثوبان معصفران فقال : « أمك أمرتك بهذا ؟ قلت : أغسلهما ؟ قال : بل أحـدهما » رواه مسلم فى صحيحه عن داود بن راشد عن عمر بن أيوب عن إبراهيم بن نافع عن سليمان الأحول عن طاوس به .

وروى محمـد بن مسلمة عن إبراهيم بن ميسرة عن طاوس عن ابن عمرو قال قال رسول الله (ص.). « الجلاوذة والشرط واعوان الظلمة كلاب النار » . انفرد به محمد بن مسلم الطائفى .

وقال الطبرانى : حـدثنا محمد بن الحسن الأنماطى البغدادى حـدثنا عبـد المنعم بن إدريس حـدثنا أبى عن وهب بن منبه عن طاوس عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله ص يقول لعلى بن أبى طالب : « ياعـلى استكثر من المعارف من المؤمنين فكم من معرفـة فى الدنيا بركة فى الآخرة » . فمضى على فأقام حينا لايلقى أحـداً إلا اتخـذه للآخرة ، ثم جاء من بعد ذلك فقال له رسول الله (ص.) : « مافعلت فيما أمرتك به ؟ قال : قـد فعلت يارسول الله ، فقال له النبى (ص.): إذهب فابلُ أخبارهم ، فذهب ثم أتى النبى (ص.) وهو منكس رأسـه ، فقال له النبى (ص.) : اذهب فابل أخبارهم ، فذهب ثم أتى النبى (ص.) تبسم [فقال] : ما أحسب ياعـلى ثبت معك إلا أبناء الآخرة ؟ فقال له على : لاوالذى بعثك بالحق ، فقال له النبى (ص.)[الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عـدو إلا المتقين ياعبادى لاخوف عليكم] ياعلى ! أقبل على شأنك ، واملك لسانك ، وأغفل من

(١) كذا بالأصل ، ولعلها : ما رأيت مثلى أحداً آمنا .

تعاشر من أهل زمانك تكن سالما غانما ، لم يرو إلا من هذا الوجه فيما نعلم والله أعلم

ثم دخلت سنة سبع ومائة

فيها خرج باليمن رجل يقال له عباد الرعيني فدعا إلى مذهب الخوارج واتبعه فرقة من الناس وحلموا فقاتلهم يوسف بن عمر فقتله وقتل أصحابه ، وكانوا ثلاثمائة . وفيها وقع بالشام طاعون شديد ، وفيها غزا معاوية بن هشام الصائفة وعلى جيش أهل الشام ميمون بن مهران ، فقطعوا البحر إلى قبرص وغزا مسلمة فى البر فى جيش آخر . وفيها ظفر أسد بن عبد الله القسرى بجماعة من دعاة بنى العباس بخراسان فصلبهم وأشهرهم . وفيها غزا أسد القسرى جبال نمروذ ، ملك الفرقيسيان ، مما يلى جبال الطالقان ، فصالحه نمروذ وأسلم على يديه . وفيها غزا أسد الغور — وهى جبال هراة — فعمد أهلها إلى حواصلهم وأموالهم وأثقالهم فجعلوا ذلك كله فى كهف منيع ، لا سبيل لأحد عليه ، وهو مستعلٍ جداً ، فأمر أسد بالرجال فحملوا فى توابيت ودلاهم إليه ، وأمر بوضع ما هنالك فى التوابيت ورفعوهم فسلموا وغنموا ، وهذا رأى سديد . وفيها أمر أسد بجمع ما حول بلخ إليها . واستناب عليها برمك والد خالد بن برمك و بناها بناء جيداً جديداً محكما وحصنها وجعلها معقداً للمسلمين . وفيها حج بالناس إبراهيم بن هشام أمير الحرمين . وممن توفى فيها من الأعيان :

سليمان بن يسار أحد التابعين

وهو أخو عطاء بن يسار ، له روايات كثيرة ، وكان من المجتهدين فى العبادة ، وكان من أحسن الناس وجها ، توفى بالمدينة وعمره ثلاث وسبعون سنة ، دخلت عليه امرأة من أحسن الناس وجها فأرادته على نفسها فأبى وتركها فى منزله وخرج هاربا منها ، فرأى يوسف عليه السلام فى المنام . فقال له : أنت يوسف ؟ فقال : نعم أنا يوسف الذى هممت ، وأنت سليمان الذى لم تهمّ . وقيل إن هذه الحكاية إنما وقعت فى بعض منازل الحجاج ، وكان معه صاحب له ، فبعثه إلى سوق الحجاج ليشترى شيئا فانحطت على سليمان امرأة من الجبل حسناء فقالت له : هيت لك ، فبكى واشتد بكاؤه فلما رأت ذلك منه ارتفعت فى الجبل ، وجاء صديقه فوجده يبكى فقال له : مالك تبكى ؟ فقال خير ، فقال : لعلك ذكرت بعض ولدك أو بعض أهلك ؟ فقال : لا ! فقال : والله لتخبرنى ما أبكاك أنت . قال : أبكانى حزنى على نفسى ، لو كنت مكانك لم أصبر عنها ، ثم ذكر أنه نام فرأى يوسف فى منامه كما تقدم والله أعلم

عكرمة مولى ابن عباس

أحد التابعين ، والمفسرين المكثرين والعلماء الربانيين ، والرحالين الجوالين . [وهو أبو عبد الله ، وقد روى عن خلق كثير من الصحابة ، وكان أحد أوعية العلم ، وقد أفتى فى حياة مولاه ابن عباس ،

قال عكرمة : طلبت العلم أربعين سنة ، وقد طاف عكرمة البلاد ، ودخل إفريقية واليمن والشام والعراق وخراسان ، و بث علمه هنالك ، وأخذ الصلات وجوائز الأمراء ، وقد روى ابن أبى شيبة عنه قال : كان ابن عباس يجعل فى رجلى الكبل يعلمنى القرآن والسنن ، وقال حبيب بن أبى ثابت : اجتمع عندى خمسة لايجتمع عندى مثلهم أبدا ، عطاء ، وطاوس ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، ومجاهد فأقبل سعيد ومجاهد يلقيان على عكرمة التفسير فلم يسألاه عن آية إلا فسرها لهما ، فلما نفد ماعندهما جعل يقول : أنزلت آية كذا فى كذا ، قال : ثم دخلوا الحمام ليلا . قال جابر بن زيد : عكرمة أعلم الناس وقال الشعبى ، مابقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة . وروى الأمام أحمد عن عبد الصمد عن سلام بن مسكين سمعت قتادة يقول : أعلمهم بالتفسير عكرمة . وقال سعيد بن جبير نحوه ، وقال عكرمة : لقد فسرت مابين اللوحتين . وقال ابن علية عن أيوب : سأل رجل عكرمة عن آية فقال : نزلت فى سفح ذلك الجبل ـ وأشار إلى سلع ـ وقال عبد الرزاق عن أبيه : لما قدم عكرمة الجند حمله طاوس على نجيب فقال : ابتعت علم هذا الرجل ، وفى رواية أن طاوسا حمله على نجيب ثمنه ستون ديناراً وقال : ألا نشترى علم هذا العبد بستين ديناراً !

ومات عكرمة وكثير عزة فى يوم واحد فأخرجت جنازتهما فقال الناس : مات أفقه الناس وأشعر الناس ، وقال عكرمة : قال لى ابن عباس : انطلق فأفت الناس فمن سألك عما يعنيه فأفته ، ومن سألك عما لايعنيه فلا تفته ، فانك تطرح عنى ثلثى مؤنة الناس . وقال سفيان عن عمرو قال : كنت إذا سمعت عكرمة يحدث عن المغازى كأنه مشرف عليهم ينظر كيف يصنعون و يقتتلون . وقال الأمام أحمد بن حنبل : حدثنا عبد الرزاق قال سمعت معمراً يقول : سمعت أيوب يقول : كنت أريد أن أرحل إلى عكرمة إلى أفق من الآفاق ، قال فانى لفى سوق البصرة فاذا رجل على حمار ، فقيل : هذا عكرمة ، قال : واجتمع الناس إليه فما قدرت أنا على شئ أسأله عنه ، ذهبت منى المسائل ، وشردت عنى فقمت إلى جنب حماره فجعل الناس يسألونه وأنا أحفظه . وقال شعبة عن خالد الحذاء قال قال عكرمة لرجل وهو يسأله : مالك أجبلت ؟ أى فتنت . وقال زياد بن أبى أيوب : حدثنا أبو نميلة حدثنا عبد العزيز بن أبى رواد قال قلت لعكرمة بنيسابور : الرجل يريد الخلاء وفى إصبعه خاتم فيه اسم الله ، قال : يجعل فصه فى باطن يده ثم يقبض عليه .

وقال الامام أحمد : حدثنا أمية بن خالد قال : سمعت شعبة يقول قال خالد الحذاء : كل شئ قال فيه محمد بن سيرين : ثبت عن ابن عباس ، إنما سمعه من عكرمة ، لقيه أيام المختار بالكوفة . وقال سفيان الثورى : خذوا المناسك عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة . وقال أيضا : خذوا التفسير عن أربعة : سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، والضحاك . وقال عكرمة : أدركت مئتين من أصحاب رسول الله

س.) فى هذا المسجد . وقال محمد بن يوسف الفريابى : حدثنا إسرائيل عن سعيد بن مسروق عن عكرمة : قال : كانت الخيل التى شغلت سليمان بن داود عليه السلام عشرين ألفا فعقرها ، وقال أبو بكر بن أبى شيبة : حدثنا معمر بن سليمان عن الحكم بن أبان عن عكرمة : [الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب] قال : الدنيا كلها قريب وكلها جهالة . وفى قوله :[الذين لا يريدون علوا فى الأرض] قال : عنـد سلاطينها وملوكها . [ولا فساداً] لا يعملون بمعاصى الله عز وجل . [والعاقبة] هى الجنة . وقال فى قوله تعالى :[فلما نسوا ما ذكروا به] أى تركوا ما وعظوا [بعذاب بئيس] أى شديد [فلما عتوا عما نهوا عنه] أى تمادوا وأصرّوا . [خاسئين] صاغرين . [فجعلناها نكالا لما بين يديها] أى من الأمم الماضية [وما خلفها] من الأمم الآتية ، من أهل زمانهم وغيرهم [وموعظة] تقى مَن اتعظ بها الشركَ والمعاصى .

وقال ابن عباس : إذا كان يوم القيامة بعث الله الذين اعتدوا و يحاسب الذين تركوا الأمر والنهى كان المسخ لهـم عقوبة فى الدنيا حين تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وقال عكرمة : قال ابن عباس : هلك والله القوم جميعاً ، قال ابن عباس فالذين أمروا ونهوا نجوا ، والذين لم يأمروا ولم ينهوا هلكوا فيمن هلك من أهل المعاصى . قال : وذلك أهل ايلة ـ وهى قرية عـلى شاطئ البحر ـ وكان الله قد أمر بنى إسرائيل أن يتفرغوا ليوم الجمعة فقالوا : بل نتفرغ ليوم السبت ، لأن الله فرغ من الخلق يوم السبت ، فأصبحت الاشياء مسبوتة . وذكروا قصة أصحاب السبت ، وتحريم الصيد عليهم ، وأن الحيتان كانت تأتيهم يوم السبت ولا تأتيهم فى غيره من الأيام ، وذكروا احتيالهم على صيدها فى يوم السبت فقال قوم : لا ندعكم تصيدون فى يوم السبت و وعظوهم ، فجاء قوم آخرون مداهنون فقالوا :[لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديداً ؟] قال الناهون [معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون] أى ينتهون عن الصيد فى يوم السبت . وقد ذكر عكرمة أنه لما قال لابن عباس إن المداهنين هلـكوا مع الغافلين ، كساه ثوبين . وقال حوثرة عن مغيرة عن عكرمة قال : كانت القضاة ثلاثة ـ يعنى فى بنى إسرائيل ـ فمات واحد فجعل الآخر مكانه ، فقضوا ما شاء الله أن يقضوا فبعث الله ملـكا عـلى فرس فمر عـلى رجل يسقى بقرة معها عجل ، فـدعا الملك العجل فتبع العجل الفرس ، فجاء صاحبـه ليرده فقال : ياعبـد الله ! عجلى وابن بقرتى ، فقال الملك : بل هو عجلى وابن فرسى ، فخاصمه حتى أعيا ، فقال : القاضى بينى و بينك ، قال : لقد رضيت ، فارتفعا إلى أحد القضاة فتكلم صاحب العجل فقال له : مر بى عـلى فرس فدعا عجلى فتبعه فأبى أن يرده ، قال : ومع الملك ثلاث درات لم ير الناس مثلها ، فأعطى القاضى درة وقال : اقض لى ، فقال : كيف يسوغ هذا ؟ فقال : نرسل العجل خلف الفرس والبقرة فأيهما تبعها فهو ابنها ، ففعل ذلك فتبع الفرس فقضى له . فقال

صاحب العجل : لا أرضى ، بيني و بينك القاضي الآخر ، ففعلا مثل ذلك ، ثم أتيا الثالث فقصا عليه قصتهما ، وناوله الملك الدرة الثالثة فلم يأخذها ، وقال لا أقضى بينكما اليوم ، فقالا : ولم لا تقضى بيننا ؟ فقال : لأني حائض ، فقال الملك : سبحان الله ! ! رجل يحيض ! ؟ . فقال القاضي : سبحان الله ! وهل تنتج الفرس عجلا ؟ فقضى لصاحب البقرة . فقال الملك : إنكم إنما ابتليتم ، وقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك .

وقال أبو بكر بن عياش عن أبي حمزة الثمالي عن عكرمة أن ملكا من الملوك نادى فى مملكته : إني إن وجدت أحداً يتصدق بصدقة قطعت يده ، فجاء سائل إلى امرأة فقال : تصدقي على بشيء فقالت : كيف أتصدق عليك والملك يقطع يد من يتصدق ؟ قال : أسألك بوجه الله إلا تصدقت على بشيء ، فتصدقت عليه برغيفين ، فبلغ ذلك الملك فأرسل إليها فقطع يديها ، ثم إن الملك قال لأمه : دليني على امرأة جميلة لأتزوجها ، فقالت : إن ههنا امرأة ما رأيت مثلها ، لولا عيب بها . قال : أي عيب هو ؟ قالت مقطوعة اليدين ، قال : فأرسلي إليها ، فلما رآها أعجبته ـ وكان لها جمال ـ فقالت : إن الملك يريد أن يتزوجك : قالت : نعم إن شاء الله ، فتزوجها وأكرمها ، فنهد إلى الملك عدو فخرج إليهم ، ثم كتب إلى أمه : انظري فلانة فاستوصي بها خيرا وافعلي وافعلي معها ، فجاء الرسول فنزل على بعض ضرائرها فحسدنها فأخذن الكتاب فغيرنه وكتبن إلى أمه : انظري فلانة فقد بلغني أن رجالا يأتونها فأخرجيها من البيت وافعلي وافعلي ، فكتبت إليه الأم إنك قد كذبت ، وإنها لامرأة صدق ، فذهب الرسول إليهن فنزل بهن فأخذن الكتاب فغيرنه فكتبن إليه : إنها فاجرة وقد ولدت غلاما من الزنا ، فكتب إلى أمه : انظري فلانة فاجعلي ولدها على رقبتها واضربي على جيبها واخرجيها . قال : فلما جاءها الكتاب قرأته عليها وقالت لها : اخرجي ، فجعلت الصبي على رقبتها وذهبت ، فمرت بنهر وهي عطشانة فنزلت لتشرب والصبي على رقبتها فوقع في الماء فغرق ، فجلست تبكي على شاطئ النهر ، فمر بها رجلان فقالا : ما يبكيك ؟ فقالت : ابني كان على رقبتي وليس لي يدان فسقط في الماء فغرق . فقالا لها : أتحبين أن يرد الله عليك يديك كما كانتا ؟ قالت : نعم ! فدعوا الله ربهما لها فاستوت يداها ، ثم قالا لها : أتدرين من نحن ؟ قالت : لا قالا : نحن الرغيفان اللذان تصدقت بهما . وقال في قوله : [طيراً أبابيل] قال : طير خرجت من البحر لها رؤس كرؤس السباع فلم تزل ترميهم حتى جدرت جلودهم ، وما رؤى الجدرى قبل يومئذ وما رؤى الطير قبل يومئذ ولا بعد . وفى قوله تعالى : [ويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة] قال : لا يقولون لا إله إلا الله ، وفى قوله [قد أفلح من تزكى] قال : من يقول لا إله إلا الله ، وفى قوله : [هل لك إلى أن تزكى] إلى أن تقول لا إله إلا الله ، وفى قوله : [إن الذين قالوا ربنا الله ثم

استقاموا] على شهادة أن لا إله إلا الله . وفى قوله [أليس منكم رجل رشيد] أليس منكم من يقول : لا إله إلا الله ، وفى قوله : [وقال صوابا] قال : لا إله إلا الله . وفى قوله : [إنك لاتخلف الميعاد] لمن قال : لاإله إلا الله . وفى قوله [لا عدوان إلا على الظالمين] على من لا يقول : لا إله إلا الله . وفى قوله : [واذكر ربك إذا نسيت] قال : إذا غضبت [سيماهم فى وجوههم] قال : السهر

وقال : إن الشيطان ليزين للعبد الذنب ، فاذا عمله تبرأ منه ، فلا يزال يتضرع إلى ربه ويتمسكن له ويبكى حتى يغفر الله له ذلك وما قبله . وقال قال جبريل عليه السلام : إن ربى ليبعثنى إلى الشئ لا مضيه فأجد الكون قد سبقنى إليه . وسئل عن الماعون قال : العارية . قلت : فان منع الرجل غربالا أو قدراً أو قصعة أو شيئا من متاع البيت فله الويل ؟ قال : لا ! ولكن إذا نهى عن الصلاة ومنع الماعون فله الويل . وقال : البضاعة المزجاة التى فيها تجوز . وقال : السائحون ، هم طلبة العلم وقال : [كما يئس الكفار من أصحاب القبور] قال : إذا دخل الكفار القبور وعاينوا ما أعد الله لهم من الخزى ، يئسوا من نعمة الله . وقال غيره : [يئس الكفار من أصحاب القبور] أى من حياتهم وبعثهم بعد موتهم . وقال : كان إبراهيم عليه السلام يدعى أبا الضيفان ، وكان لقصره أربعة أبواب لكيلا يفوته أحد ، وقال : أنكالا ، أى قيودا . وقال فى كاهن سبأ : إنه قال لقومه لما دنا منهم العذاب : من أراد سفراً بعيداً وحملا شديداً ، فعليه بعمان ، ومن أراد الخمر والخمير ، وكذا وكذا والعصير ، فعليه ببصرى ـ يعنى الشام ـ ومن أراد الراسخات فى الوحل ، والمقيمات فى المحل فعليه بيثرب ذات النخل . فخرج قوم إلى عمان وقوم إلى الشام ، وهم غسان ، وخرج الأوس والخزرج ـ وهم بنو كعب بن عمرو ـ وخزاعة حتى نزلوا يثرب ، ذات النخل ، فلما كانوا ببطن مرّ قالت خزاعة : هذا موضع صالح لا نريد به بدلا ، فنزلوا ، فمن ثم سميت خزاعة ، لأنهم تخزعوا من أصحابهم . وتقدمت الأوس والخزرج حتى نزلوا بيثرب ، فقال الله عز وجل ليوسف عليه السلام يا يوسف ! بعفوك عن إخوتك رفعت لك ذكرك مع الذاكرين . وقال : قال لقمان لابنه : قد ذقت المرار فلم أذق شيئا أمرّ من الفقر . وحملت كل حمل ثقيل فلم أحمل أثقل من جار السوء . ولو أن الكلام من فضة لكان السكوت من ذهب . رواه وكيع بن الجراح عن سفيان عن أبيه عن عكرمة : [وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى] قال : ما وقع شئ منها إلا فى عين رجل منهم . وقال : فى قوله تعالى [زنيم] هو اللئيم الذى يعرف اللؤمة كما يعرف الشاة بذنمتها . وقال فى قوله تعالى [الذين يؤذون الله ورسوله] قال : هم أصحاب التصاوير ، [وبلغت القلوب الحناجر] قال : لو أن القلوب تحركت أو زالت لخرجت نفسه ، وإنما هو الخوف والفزع . [فتنتم أنفسكم] أى بالشهوات [وتربصتم] بالتوبة [وغرتكم الأمانى] أى التسويف [حتى جاء أمر الله] الموت [وغركم بالله الغرور]

الشيطان . وقال : من قرأ يس والقرآن الحكيم لم يزل ذلك اليوم فى سرور حتى يمسى .

قال سلمة بن شعيب : حدثنا إبراهيم بن الحكم عن أبان عن أبيه . قال : كنت جالسا مع عكرمة عند البحر فذكروا الذين يغرقون فى البحر فقال عكرمة : الذين يغرقون فى البحار تقتسم لحومهم الحيتان فلا يبقى منهم شئ إلا العظام ، حتى تصير حائلا نخرة فتمر بها الابل فتأكلها ، ثم تسير الابل فتبعرها ، ثم يجئ بعدهم قوم فينزلون ذلك المنزل فيأخذون ذلك البعر فيوقدونه ثم يصير رماداً فتجئ الريح فتأخذه فتذريه فى كل مكان من الأرض حيث يشاء الله من بره وبحره ، فاذا جاءت النفخة ـ نفخة البعث ـ فيخرج أولئك وأهل القبور المجموعين سواء . وبهذا الاسناد عنه قال : إن الله أخرج رجلين ، رجلا من الجنة ورجلا من النار ، فقال لصاحب الجنة : عبدى ! كيف وجدت مقيلك ؟ قال خير مقيل . ثم قال لصاحب النار : عبدى كيف وجدت مقيلك ؟ فقال : شرّ مقيل قاله القائلون ، ثم ذكر من عقاربها وحياتها وزنابيرها ، ومن أنواع مافيها من العذاب وألوانه ، فيقول الله تعالى لصاحب النار : عبدى ! ماذا تعطينى إن أنا أعفيتك من النار ؟ فيقول العبد : إلهى وماذا عندى ما أعطيك ، فقال له الرب تعالى : لو كان لك جبل من ذهب أكنت تعطينى فأعفيك من النار ؟ فقال نعم ، فقال له الرب : كذبت لقد سألتك فى الدنيا ما هو أيسر من ذلك ! تدعونى فأستجيب لك ، وتستغفرنى فأغفر لك ، وتسألنى فأعطيك ، فكنت تتولى ذاهبا .

وبهذا الاسناد قال : ما من عبد يقربه الله عز وجل يوم القيامة للحساب إلا قام من عند الله بعفوه ، وبه عنه : لكل شئ أساس ، وأساس الاسلام الخلق الحسن . وبه عنه قال : شكا نبى من الانبياء إلى ربه عز وجل الجوع والعرى ، فأوحى الله إليه : أما ترضى أنى سددت عنك باب الشر الناشئ عنهما ؟ . وبه عنه قال : إن فى السماء ملكا يقال له إسماعيل لو أذن الله له بفتح أذن من آذانه يسبح الرحمن عز وجل لمات من فى السموات والأرض . وبه عنه قال : سعة الشمس سعة الأرض وزيادة ثلاث مرات ، وسعة القمر سعة الأرض مرة ، وإن الشمس إذا غربت دخلت بحراً تحت العرش تسبح الله حتى إذا أصبحت استعفت ربها تعالى من الطلوع فيقول لها : ولم ذاك ـ وهو أعلم ـ فتقول : لئلا أعبد من دونك ، فيقول لها : اطلعى فليس عليك شئ من ذلك ، حسبهم جهنم أبعثها إليهم مع ثلاث عشرة ألف ملك تقودها حتى يدخلوهم : وهذا خلاف ما ثبت فى الحديث الصحيح « إن جهنم يؤتى بها تقاد بسبعين ألف زمام ، مع كل زمام سبعون ألف ملك » . وقال مندل عن أسد ابن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس . قال قال رسول الله ص . « لا يقفن أحدكم على رجل يضرب ظلما فان اللعنة تنزل من السماء على من يحضره إذا لم تدفعوا عنه . ولا يقفن أحدكم على رجل يقتل ظلما فان اللعنة تنزل من السماء على من يحضره إذا لم تدفعوا عنه » . لم يرفعه إلا مندل هذا .

وروى شعبة عن عمارة بن حفصة عن عكرمة عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) « كان إذا عطس غطى وجهه بثوبه ، ووضع يديه على حاجبيه » ، هذا حديث عال من حديث شعبة . وروى بقية عن إسحاق بن مالك الحضرى عن عكرمة عن أبي هريرة عن النبي (ص) قال : « من حلف على أحد يمينا ، وهو يرى أنه سيبره فلم يفعل ، فانما إثمه على الذى لم يبره » . تفرد به بقية بن الوليد مرفوعا . وقال عبد الله بن أحمد فى مسند أبيه : حدثنا عبيد بن عمر القواريرى حدثنا يزيد بن ربيع حدثنا عمارة بن أبي حفصة حدثنا عكرمة حدثتنا عائشة أن النبي (ص) كان عليه بردان قطريان خشنان غليظان ، فقالت عائشة : يارسول الله ، إن ثوبيك هذين غليظان خشنان ، ترشح فيهما فيثقلان عليك ، فأرسل إلى فلان فقد أتاه برد من الشام فاشتر منه ثوبين إلى ميسرة ، فأرسل إليه فأتاه الرسول فقال : إن رسول الله (ص) بعث إليك لتبيعه ثوبين إلى ميسرة . فقال : قد علمت والله ، مايريد نبي الله إلا أن يذهب بثوبيّ ويمطلنى بثمنهما ، فرجع الرسول إلى رسول الله (ص) فأخبره فقال (ص) : كذب ! قد علموا أنى أتقاهم لله ، وآداهم للأمانة » . وفى هذا اليوم قال النبي (ص) : « لأن يلبس أحدكم من رقاع شتى خير له من أن يستدين ما ليس عنده » والله سبحانه أعلم] [1] .

القاسم بن محمد بن ابي بكر الصدّيق

كان أحد الفقهاء المشهورين ، له روايات كثيرة ، عن الصحابة وغيرهم ، وكان من أفضل أهل المدينة ، وأعلم أهل زمانه ، قتل أبوه بمصر وهو صغير ، فأخذته خالته فنشأ عندها ، وساد وله مناقب كثيرة . أبو رجاء العطاردى .

وفيها توفي كثيّر عزة الشاعر المشهور

وهو كثير بن عبد الرحمن بن الأسود بن عامر ، أبو صخر الخزاعى الحجازى ، المعروف بابن أبي جمعة ، وعزة هذه المشهور بها المنسوب إليها ، لتغزله فيها ، هى أم عمرو عزة بالعين المهملة ، بنت جميل بن حفص ، من بنى حاجب بن غفار ، وإنما صغر اسمه فقيل كثير ، لأنه كان دميم الخلق قصيراً ، طوله ثلاثة أشبار . قال ابن خلكان : كان يقال له رب الذبان ، وكان إذا مشى يظن أنه صغير من قصره ، وكان إذا دخل على عبد الملك بن مروان يقول له : طأطئ رأسك لايؤذيك السقف ، وكان يضحك إليه ، وكان يفد على عبد الملك ، ووفد على عبد الملك بن مروان مرات ، ووفد على عمر بن عبد العزيز ، وكان يقال إنه أشعر الاسلاميين ، على أنه كان فيه تشيع ، وربما نسبه بعضهم إلى مذهب التناسخية ، وكان يحتج على ذلك من جهله وقلة عقله إن صح النقل عنه ، فى قوله تعالى [فى أى صورة ما شاء ركبك] وقد استأذن يوما على عبد الملك فلما دخل عليه قال عبد الملك : لأن

---

(١) زيادة من المصرية .

تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ، فقال : حَيَّهلا يا أمير المؤمنين إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، إن نطق نطق ببيان ، و إن قاتل قاتل بجنان ، وأنا الذى أقول

وجربتُ الأمورَ وجربتْنى * وقدْ أبدتْ عريكتى الأمورُ
وما تخفى الرجالُ على أنى * بهمْ لأخو مثاقفةٍ خبيرُ
ترى الرجلَ النحيفَ فتزدريهِ * وفى أثوابهِ أسدٌ زئيرُ
ويعجبكَ الطريرُ فتختبرهُ * فيخلفُ ظنكَ الرجلُ الطريرُ
وما عِظَمُ الرجالِ لها بزينٍ * ولكنْ زينها دينٌ وخيرُ
بغاثُ الطيرِ أطولها جسوماً * ولم تطلْ البزاةُ ولا الصقورُ
وقدْ عظمَ البعيرُ بغيرِ لبٍ * فلمْ يستغنَ بالعظمِ البعيرُ
فيركبُ ثم يضربُ بالهراوى * ولا عرفٌ لديهِ ولا نكيرُ
وعودُ النبعِ ينبتُ مستمراً * وليسَ يطولُ والعضباءُ خورُ

وقد تكلم أبو الفرج بن طرار على غريب هذه الحكاية وشعرها بكلام طويل ، قالوا : ودخل كثير عزة يوما على عبد الملك بن مروان فامتدحه بقصيدته التى يقول فيها : ـــ

على ابن أبى العاصى دروع حصينة * أجاد المسدى سردها وأدالها

قال له عبد الملك : أفلا قلت كما قال الأعشى لقيس بن معديكرب : ـــ

وإذا تجئُ كتيبةٌ ملمومةٌ * شهباً يخشى الذائدونَ صيالها
كنتَ المقدمَ غيرَ لابسِ جبةٍ * بالسيفِ يضربُ معلماً أبطالها

فقال : يا أمير المؤمنين وصفه بالخرق و وصفتك بالحزم . ودخل يوما على عبد الملك وهو يتجهز للخروج إلى مصعب بن الزبير فقال : ويحك يا كثير ، ذكرتك الآن بشعرك فان أصبته أعطيتك حكمك ، فقال : يا أمير المؤمنين كأنك لما ودعت عاتكة بنت يزيد بكت لفراقك فبكى لبكائها حشمها فذكرت قولى :

إذا ما أرادَ الغزوَ لم تثنِ عزمهُ * حصان عليها نظمُ درٍ يزينها
نهتهُ فلماَّ لم ترَ النهى عاقهُ * بكتْ فبكى مماَّ عراها قطينها

قال : أصبت فاحتكم ، قال : مائة ناقة من نوقك المختارة ، قال : هى لك ، فلما سار عبد الملك إلى العراق نظر يوما إلى كثير عزة وهو مفكر فى أمره فقال : علىَّ به ، فلما جئ به قال له : أرأيت إن أخبرتك بما كنت تفكر به تعطينى حكمى ؟ قال : نعم ، قال : والله ؟ قال : والله ، قال له عبد الملك إنك تقول فى نفسك : هذا رجل ليس هو على مذهبى ، وهو ذاهب إلى قتال رجل ليس هو على

مذهبي ، فان أصابني سهم غرب من بينهما خسرت الدنيا والآخرة ، فقال : إي والله يا أمير المؤمنين فاحتكم ، قال : أحتكم حكمي أن أردك إلى أهلك وأحسن جائزتك ، فأعطاه مالا وأذن له بالانصراف

وقال حماد الراوية عن كثير عزة : وفدت أنا والأحوص ونصيب إلى عمر بن عبد العزيز حين ولي الخلافة ، ونحن نمتّ بصحبتنا إياه ومعاشرتنا له ، لما كان بالمدينة ، وكل منا يظن أنه سيشركه في الخلافة . فنحن نسير ونختال في رحالنا ، فلما انتهينا إلى خُناصرة ولاحت لنا أعلامها ، تلقانا مسلمة بن عبد الملك فقال : ما أقدمكم ؟ أوما علمتم أن صاحبكم لايحب الشعر ولا الشعراء ؟ قال : فوجمنا لذلك ، فأنزلنا مسلمة عنده وأجرى علينا النفقات وعلف دوابنا ، وأقمنا عنده أربعة أشهر لا يمكنه أن يستأذن لنا على عمر ، فلما كان في بعض الجمع دنوت منه لأسمع خطبته فأسلم عليه بعد الصلاة ، فسمعته يقول في خطبته : لكل سفر زاد ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة بالتقوى ، وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من عذابه وثوابه فترغبوا وترهبوا ، ولايطولن عليكم الامد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم . فانه والله مابسط أمل من لايدري لعله لا يمسي بعد إصباحه ولا يصبح بعد إمسائه ، وربما كانت له كامنة بين ذلك خطرات الموت والمنايا ، وإنما يطمئن من وثق بالنجاة من عذاب الله وأهوال يوم القيامة ، فأما من لايداوي من الدنيا كلما إلا أصابه جارح من ناحية أخرى فكيف يطمئن ، أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي وتبدو مسكنتي في يوم لاينفع فيه إلا الحق والصدق ، ثم بكى حتى ظننا أنه قاض نحبه ، وارتج المسجد وما حوله بالبكاء والعويل : قال : فانصرفت إلى صاحبي فقلت : خذ سرحا من الشعر غير ما كنا نقول لعمر وآبائه فانه رجل أخرى ليس برجل دنيا . قال : ثم استأذن لنا مسلمة عليه يوم الجمعة فلما دخلنا عليه سلمت عليه ثم قلت : يا أمير المؤمنين طال الثواء وقلت الفائدة ، وتحدث بجفائك إيانا وفود العرب . فقال : [إنما الصدقات للفقراء والمساكين] وقرأ الآية ، فان كنتم من هؤلاء أعطيتم وإلا فلا حق لكم فيها ، فقلت : يا أمير المؤمنين إني مسكين وعابر سبيل ومنقطع به ، فقال : ألستم عند أبي سعيد ؟ ـ يعني مسلمة بن عبد الملك ـ فقلنا : بلى ! فقال : إنه لاثواب على من هو عند أبي سعيد ، فقلت : ائذن لي يا أمير المؤمنين بالأنشاد ، قال : نعم ولا تقل إلا حقا ، فأنشدته قصيدة فيه :

وليتَ فلم تشتم عليا ولم تخفْ * بريئاً ولم تقبلْ إشارةَ مجرمِ
وصدقتَ بالفعلِ المقالَ مع الذي * أتيتُ فأمسى راضياً كل مسلمِ
ألا إنما يكفي الفتى بعدَ زيغِهِ * من الاودِ البادي ثقافُ المقومِ
وقد لبستْ تسعى اليكَ ثيابَها * تراءى لكَ الدنيا بكفٍ ومعصمِ
وتومضُ أحياناً بعينٍ مريضةٍ * وتبسمُ عن مثلِ الجمانِ المنظمِ

فأعرضتَ عنها مشمئزاً كأنما * سقتكَ مذوقاً من سمامٍ وعلقمِ
وقدْ كنتَ من أحبالها فى ممنعٍ * ومنْ بحرها فى مزبدِ الموجِ مفعمِ
ومازلتَ تواقاً إلى كلِ غايةٍ * بلغتَ بها أعلى البناءِ المقدمِ
فلما أتاكَ الملكُ عفواً ولم تكنْ * لطالبِ دنيا بعدهُ فى تكلمِ
تركتَ الذى يفنى وإنْ كانَ مونقاً * وآثرتَ ما يبقى برأىٍ مصممِ
وأضررتَ بالفانى وشمرتَ للذى * أمامكَ فى يومٍ من الشرِ مظلمِ
ومالكَ إذ كنتَ الخليفةَ مانعٌ * سوى اللهِ من مالٍ رعيتَ ولادمِ
سما لكَ همٌّ فى الفؤادِ مؤرقٌ * بلغتَ بهِ أعلى المعالى بسلمِ
فما بينَ شرقِ الأرضِ والغربِ كلها * منادٍ ينادى منْ فصيحٍ وأعجمِ
يقولُ أميرُ المؤمنينَ ظلمتنى * بأخذكَ دينارى وأخذكَ درهمى
ولا بسطُ كفٍ لامرئٍ غيرِ مجرمٍ * ولا السفكُ منهُ ظالماً ملءُ محجمِ
ولو يستطيعُ المسلمونَ لقسموا * لكَ الشطرَ من أعمارهمْ غيرَ ندمِ
فعشتَ بها ما حجَّ للهِ راكبٌ * ملبٍ مطيفٌ بالمقامِ وزمزمِ
فاربحْ بها من صفقةٍ لمبايعٍ * وأعظمْ بها أعظمْ بها ثمَّ أعظمِ

قال : فأقبل علىَّ عمر بن عبد العزيز وقال : إنك تسأل عن هذا يوم القيامة ، ثم استأذنه الأحوص فأنشده قصيدة أخرى فقال : إنك تسأل عن هـذا يوم القيامة . ثم استأذنه نصيب فلم يأذن له وأمر لكل واحد منهم بمائة وخمسين درهما ، وأغزى نصيبا إلى مرج دابق . وقد وفد كثير عزة بعد ذلك علی يزيد بن عبد الملك فامتدحه بقصائد فأعطاه سبعمائة دينار . وقال الزبير بن بكار : كان كثير عزة شيعياً خبيثا يرى الرجعة ، وكان يرى التناسخ ويحتج بقوله تعالى [فى أى صورة ما شاء ركبك] وقال موسى بن عقبة هوّل كثير عزة ليلة فى منامه فأصبح يمتدح آل الزبير ويرثى عبد الله بن الزبير ، وكان يسئ الرأى فيه :

بمفتضحِ البطحا تأولَ أنهُ * أقامَ بها ما لم ترمها الأخاشبُ
سرحنا سروباً آمنينَ ومنْ يخفْ * بوائقَ مايخشى تنبهُ النوائبُ
تبرأتُ من عيبِ ابنِ أسماءَ إننى * إلى اللهِ من عيبِ ابنِ أسماءَ تائبُ
هوَ المرءُ لا ترزى بهِ أمهاتهُ * وآباؤهُ فينا الكرامُ الأطايبُ

وقال مصعب بن عبد الله الزبيرى : قالت عائشة بنت طلحة لكثير عزة : ما الذى يدعوك إلى ماتقول من الشعر فى عزة وليست على نصف من الحسن والجمال ؟ فلو قلت ذلك فىَّ وفى أمثالى فانا

أشرف وأفضل وأحسن منها ـ وكانت عائشة بنت طلحة قد فاقت النساء حسنا وجمالا وأصالة ـ وإنما قالت له ذلك لتختبره وتبلوه فقال:

ضحى قلبهُ ياعزَ أوكادَ يذهلُ * وأضحى يريدُ الصومَ أو يتبدلُ
وكيفَ يريدُ الصومَ من هوَ وامقٌ * لعزةَ لا قالٌ ولا متبـذلُ
إذا واصلتنا خلةٌ كي تزيلنا * أبينا وقلنا الحاجبيةُ أولُ
سنوليكَ عرفاً إنْ أردتَ وصالنا * ونحنُ لتيكَ الحاجبيةِ أوصلُ
وحدثها الواشونَ أني هجرتها * فحملها غيظاً علىَّ المحملُ

فقالت له عائشة: قد جعلتني خلة ولست لك بخلة، وعلا قلت كما قال جميل فهو والله أشعر منك حيث يقول:

يا ربَّ عارضةٍ علينا وصلهَا * بالجدِ تخلطهُ بقولِ الهازلِ
فأجبتها بالقولِ بعدَ تسترٍ * حبي بثينةَ عن وصالكِ شاغلي
لو كانَ في قلبي بقدرِ قُلامةٍ * فضل وصلتكِ أو أتتكِ رسائلي

فقال: والله ما أنكر فضل جميل، وما أنا إلا حسنة من حسناته، واستحيا. ومما أنشده ابن الأنباري لكثير عزة:

بأبي وأمي أنتِ من معشوقةٍ * طبَن العدوُّ لها فغيَّرَ حالها
ومشى إليَّ بعيبِ عزةَ نسوةٌ * جعلَ الالهُ خدودهنَّ نعالها
اللهُ يعلمُ لوْ جمعنَ ومثلت * لأخذتَ قبلَ تأملٍ تمثالها
ولو انَّ عزةَ خاصمتْ شمسَ الضُّحى * في الحسنِ عندَ موفّقٍ لقضى لها

وأنشد غيره لكثير عزة:

فما أحدثَ النأيُ الذي كانَ بيننا * سلوا ولا طولُ اجتماعٍ تقاليا
وما زادني الواشونَ إلا صبابةً * ولا كثرةَ الناهينَ إلاَّ تماديا

غيره له: فقلتُ لها يا عز كلُ مصيبةٍ * إذا وطنتْ يوماً لها النفسُ ذلتِ
هنيئاً مريئاً غيرَ داءٍ مخامرٍ * لعزةَ من أعراضنا ما استحلتَ

وقال كثير عزة أيضا وفيه حكمة أيضا:

ومن لا يغمضُ عينهُ عن صديقهِ * وعن بعضِ مافيهِ يمتْ وهوَ عاتبُ
ومن يتتبعْ جاهداً كلَ عثرةٍ * يجدْها ولا يَبقى له الدهر صاحبُ

وذكروا أن عزة بنت جميل بن حفص أحد بني حاجب بن عبد الله بن غفار أم عمرو الضمرية

وفدت على عبد الملك بن مروان تشكو إليه ظلامة فقال : لا أقضيها لك حتى تنشديني شيئا من شعره ، فقالت : لا أحفظ لكثير شعراً ، لكني سمعتهم يحكون عنه أنه قال في هذه الأبيات :

قضى كلُ ذي دَينٍ علمتُ غريمهُ * وعزةُ ممطولٌ معنّى غريمها

فقال : ليس عن هذا أسألك ولكن أنشديني قوله :

وقد زعمتْ أنى تغيرتُ بعدها * ومنْ ذا الذى يا عزُ لا يتغيرُ

تغيرَ جسمى والمحبةُ كالذى * عهدتِ ولم يُخبرْ بذاكَ مخبرُ

قال فاستحيت وقالت : أما هذا فلا أحفظه ولكن سمعتهم يحكونه عنه ، ولكن أحفظ له قوله :

كأنى أنادى صخرةً حينَ أعرضتْ * منَ الظلم لو تمشى بها العصمُ زلتِ

صفوحٌ فما تلقاكَ إلا بخيلةً * ومنْ ملَّ منها ذلكَ الوصلَ ملتِ

قال فقضى لها حاجتها وردها ورد عليها ظلامتها وقال : أدخلوها الحرم ليتعلموا من أدبها . وروى عن بعض نساء العرب قالت : اجتازت بنا عزة فاجتمع نساء الحاضر إليها لينظرن حسنها ، فاذا هى حميراء حلوة لطيفة ، فلم تقع من النساء بذاك الموقع حتى تكلمت فاذا هى أبرع النساء وأحلاهن حديثاً ، فما بقى فى أعيننا امرأة تفوقها حسنا وجمالا وحلاوة . وذكر الأصمعى عن سفيان بن عيينة قال : دخلت عزة على سكينة بنت الحسين فقالت لها : إنى أسألك عن شئ فاصدقينى ، ما الذى أراد كثير فى قوله لك :

قضى كلّ ذى دينٍ فوفى غريمهُ * وعزةُ ممطولٌ معنًّى غريمُها

فقالت : كنت وعدته قبلة فمطلته بها ، فقالت : أنجزيها له وإثمها على ، وقد كانت سكينة بنت الحسين من أحسن النساء حتى كان يضرب بحسنها المثل . وروى أن عبد الملك بن مروان أراد أن يزوج كثيراً من عزة فأبت عليه وقالت : يا أمير المؤمنين أبعد مافضحنى بين الناس وشهرنى فى العرب ؟ وامتنعت من ذلك كل الامتناع ، ذكره ابن عساكر . وروى أنها اجتازت مرة بكثير وهو لا يعرفها فتنكرت عليه وأرادت أن تختبر ما عنده ، فتعرض لها فقالت : فأين حبك عزة ؟ فقال : أنا لك الفداء لو أن عزة أمة لى لوهبتها لك ، فقالت : ويحك لا تفعل ألست القائل :

إذا وصلتنا خلةٌ كى تزيلنا * أبينا وقلنا الحاجبيةُ أولُ ؟

فقال : بأبى أنت وأمى ، أقصرى عن ذكرها واسمعى ما أقول :

هل وصل عزةَ إلا وصلُ غانيةٍ * فى وصلِ غانيةٍ منْ وصلها بدلُ

قالت : فهل لك فى المجالسة ؟ قال : ومن لى بذلك ؟ قالت : فكيف بما قلت فى عزة ؟ قال : أقلبه فيتحول لك ، قال فسفرت عن وجهها وقالت : أغدراً وتنا كثا يافاسق ، وإنك لهاهنا ياعدو

الله ، فبهت وأبلس ولم ينطق وتحير وخجل ، ثم قالت : قاتل الله جميلا حيث يقول : ـ

محا اللهُ من لاينفعَ الودُّ عنده * ومن حبلهِ إن صدَّ غيرُ متينِ

ومنْ هو ذو وجهينِ ليسَ بدائمٍ * على العهدِ حلافاً بكلِ يمينِ

ثم شرع كثير يعتذر ويتنصل مما وقع منه ويقول فى ذلك الأشعار ذا كراً وآثراً . وقد ماتت عزة بمصر فى أيام عبد العزيز بن مروان ، وزار كثير قبرها ورثاها وتغير شعره بعدها ، فقال له قائل : مابال شعرك تغير وقد قصرت فيه ؟ فقال : ماتت عزة ولا أطرب ، وذهب الشباب فلا أعجب ، ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب ، وإنما ينشأ الشعر عن هذه الخلال .

وكانت وفاته ووفاة عكرمة فى يوم واحد ، ولكن فى سنة خمس ومائة على المشهور . وإنما ذكره شيخنا الذهبى فى هذه السنة ـ أعنى سنة سبع ومائة ـ والله سبحانه أعلم .

ثم دخلت سنة ثمان ومائة

[ففيها افتتح مسلمة بن عبد الملك قيسارية من بلاد الروم ، وفتح إبراهيم بن هشام بن عبد الملك حصنا من حصون الروم أيضا ، وفيها غزا أسيد بن عبد الله القسرى أمير خراسان فكسر الأتراك كسرة فاضحة . وفيها زحف خاقان إلى أذربيجان وحاصر مدينة ورثان ورماها بالمناجيق ، فسار إليه أمير تلك الناحية الحارث بن عمرو نائب مسلمة بن عبد الملك ، فالتقى مع خاقان ملك الترك فهزمه وقتل من جيشه خلق كثير ، وهرب الخاقان بعد أن كان قتل فى جملة من قتل من جيشه ، وقتل الحارث بن عمرو شهيدا ، وذلك بعد أن قتلوا من الأتراك خلقا كثيراً . وفيها غزا معاوية بن هشام بن عبد الملك أرض الروم ، وبعث البطال على جيش كثيف فافتتح جنجرة وغنم منها شيئا كثيراً][1]

وفيها توفى من الاعيان بكر بن عبد الله المزنى البصرى . [كان عالما عابداً زاهدا متواضعا قليل الكلام ، وله روايات كثيرة عن خلق من الصحابة والتابعين . قال بكر بن عبد الله : إذا رأيت من هو أكبر منك من المسلمين فقل : سبقنى إلى الإسلام والعمل الصالح فهو خير منى ، وإذا رأيت من هو أصغر منك فقل : سبقته إلى المعاصى فهو خير منى ، وإذا رأيت إخوانك يكرمونك ويعظمونك فقل : هذا من فضل ربى ، وإذا رأيت منهم تقصيراً فقل : هذا بذنب أحدثته . وقال : من مثلك يا ابن آدم ؟ خلى بينك وبين الماء والمحراب متى شئت تطهرت ودخلت على ربك عز وجل ليس بينك وبينه ترجمان ولا حاجب . وقال : لايكون العبد تقياً حتى يكون تقى الطعم تقى الغضب . وقال : إذا رأيتم الرجل موكلا بعيوب الناس ناسيا لعيبه فاعلموا أنه قد مُكر به . وقال : كان الرجل من بنى إسرائيل إذا بلغ المبلغ الصالح من العمل فمشى فى الناس تظله غمامة ، قال : فمر رجل قد أظلته غمامة على رجل فأعظمه لما رآه مما آتاه الله ، فاحتقره صاحب الغمامة فأمرها الله أن تتحول

(١) زيادة من المصرية .

عن رأسه إلى رأس الذى احتقره ، وهو الذى عظم أمر الله عزوجل . وقال : ما سبقهم أبو بكر بكثير صلاة ولا صيام ، ولـكن بشئ قرّ فى صدره . وله كلام حسن كثير يطول ذكره] [1] **راشد بن سعد المقرائي الحمصي** عمّر دهراً ، وروى عن جماعة من الصحابة ، وقـد كان عابداً صالحاً زاهداً . رحمه الله تعالى ، وله ترجمة طويلة **محمد بن كعب القرظي**

توفى فيها فى قول [وهو أبو حمزة ، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة ، وكان عالما بتفسير القرآن ، صالحا عابداً ، قال الأصمعى : حدثنا أبو المقدام ـ هشام بن زياد ـ عن محمد بن كعب القرظى أنه سئل : ما علامة الخذلان ؟ قل : أن يقبح الرجل ما كان يستحسن ، ويستحسن ما كان قبيحا . وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا عبد الله بن عبد الله بن موهب قال : سمعت ابن كعب يقول : لأن أقرأ فى ليلة حتى أصبح إذا زلزلت والقارعة لا أزيد عليهما وأردد فيهما الفكر ، أحب إلى من أن أهذّ القرآن هـذاً ـ أو قال أنثره نثراً ـ . وقال : لو رخص لأحد فى ترك الذكر لرخص لزكريا عليه السلام ، قال تعالى : [آيتك أن لاتكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيراً وسبح بالعشى والأبكار] فلو رخص لأحـد فى ترك الذكر لرخص له ، ولرخص للذين يقاتلون فى سبيل الله ، قال تعالى : [يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلـكم تفلحون] وقال فى قوله تعالى : [اصبروا وصابروا ورابطوا] قال : اصبروا على دينكم وصابروا لوعدكم الذى وعدتم ، ورابطوا عدوّكم الظاهر والباطن ، واتقوا الله فيما بينى وبينكم ، لعلـكم تفلحون إذا لقيتمونى . وقال فى قوله تعالى : [لولا أن رأى برهان ربه] : علم ما أحل القرآن مما حرّم [منها قائم وحصيد] قال : القائم ما كان من بنائهم قائما ، والحصيد ماحصد فهدم . [إن عذابها كان غراما] قال : غرموا ما نعموا به من النعم فى الدنيا ، وفى رواية سألهم ثمن نعمة فلم يقدروا عليها ولم يؤدوها ، فأغرمهم ثمنها . فأدخلهم النار .

وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا عبـد الرحمن بن أبى الموالى قال : سمعت محمد بن كعب فى هذه الآية [وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عنـد الله] قال : هو الرجل يعطى الآخر من ماله ليكافئه به أو يزداد ، فهذا الذى لا يربو عنـد الله ، والمضعفون هم الذين يعطون لوجـه الله لا يبتغى مكافأة أحد . وفى قوله تعالى : [أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق] قال : اجعل سريرتى وعلانيتى حسنة . وقيل : أدخلنى مدخل صدق فى العمل الصالح ، أى الاخلاص ، وأخرجنى مخرج صدق أى سالما . [أو ألقى السمع وهو شهيد] أى يسمع القرآن وقلبه معه في مكان آخر . [فاسعوا إلى ذكر الله] قال : السعى العمل ليس بالشـد . وقال : الكبائر ثلاثة ، أن تأمن مكر الله ، وأن تقنط من رحمة الله ، وأن تيأس من روح الله .

(١) زيادة من المصرية .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب قال : إذا أراد الله بعبد خيراً جعل فيـه ثلاث خصال ، فقها فى الدين ، وزهادة فى الدنيا ، و بصراً بعيوب نفسه . وقال : الدنيا دار قلق ، رغب عنها السعداء ، وانتزعت من أيدى الأشـقياء ، فأشقى الناس بها أرغب الناس فيها ، وأزهـد الناس فيها أسـعد الناس بها ، هى الغاوية لمن أضاعها ، المهلكة لمن اتبعها ، الخائنة لمن انقاد لها ، علمها جهل ، وغناؤها فقر ، و زيادتها نقصان ، وأيامها دول . وروى ابن المبارك عن داود بن قيس قال سمعت محمـد بن كعب يقول : إن الأرض لتبكى من رجل وتبكى على رجل ، تبكى على من كان يعمل على ظهرها بطاعة الله ، وتبكى ممن كان يعمل على ظهرها بمعصية الله ، قد أثقلها . ثم قرأ [فما بكت عليهم السماء والأرض] وقال فى قوله تعالى : [فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره] : من يعمل مثقال ذرة خيراً من كافر يرى ثوابها فى نفسه وأهله وماله حتى يخرج من الدنيـا وليس له خير . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، من مؤمن يرى عقوبتها فى نفسه وأهله وماله حتى يخرج من الدنيا وليس له شر . وقال : ما يؤمننى أن يكون الله قد اطلع علىَّ فى بعض ما يكره فمقتنى ، وقال : اذهب لا أغفر لك ، مع أن عجائب القرآن تردنى على أمور حتى أنه لينقضى الليل ولم أفرغ من حاجتى .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى محمـد بن كعب يسأله أن يبيعه غلامه سالما ــ وكان عابداً خيراً زاهدا ــ فكتب إليه : ــ إنى قد دبرته ، قال : فازدد فيه ، فأتاه سالم فقال له عمر : إنى قد ابتليت بما ترى ، وأنا والله أتخوف أن لا أنجو ، فقال له سالم : إن كنت كما تقول فهذا نجاته ، و إلا فهو الأمر الذى يخاف . قال : يا سالم عظنى ، قال : آدم عليه السلام أخطأ خطيئة واحدة خرج بها من الجنة ، وأنتم مع عمل الخطايا ترجون دخول الجنة ، ثم سكت . قلت : والأمر كما قيل فى بعض كتب الله : تزرعون السيئات وترجون الحسنات ، لا يجتنى من الشوك العنب .

تصلُ الذنوبُ إلى الذنوبِ وترتجَى * دَرَجَ الجنانِ وطيبَ عيشِ العابدِ
ونسيتَ أن اللهَ أخرجَ آدماً * منْها إلى الدُّنيا بذنْبٍ واحِـدِ

وقال : من قرأ القرآن متع بعقله و إن بلغ من العمر مائتى سنة . وقال له رجل : ماتقول فى التوبة ؟ قال : لا أحسنها ، قال : أفرأيت إن أعطيت الله عهداً أن لا تعصيه أبداً ؟ قال : فمن أعظم جرما منك ، تتألى على الله أن لا ينفذ فيك أمره .

وقال الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى : حدثنا ابن عبد العزيز حدثنا أبو عبيد القاسم ابن سلام حدثنا عباد بن عباد عن هشام بن زياد أبى المقدام . قالوا كلهم : حدثنا محمـد بن كعب القرظى قال : حدثنا ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « من أحب أن يكون أغنى الناس فليكن

بما فى يد الله أوثق مما فى يده ، ألا أنبئكم بشراركم ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : من نزل وحده ، ومنع رفده ، وجلد عبده ، أفأنبئكم بشر من هذا ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : من لا يقيل عثرة ولا يقبل معذرة ، ولا يغفر ذنبا ، ثم قال : ألا أنبئكم بشر من هذا ؟ قالوا : نعم يا رسول الله ، قال : من لا يرجى خيره ، ولا يؤمن شره ، إن عيسى بن مريم قام فى بنى إسرائيل خطيبا فقال: يا بنى إسرائيل لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموها - وقال مرة فتظلموهم - ولا تظلموا ظالما ، ولا تطاولوا ظالما فيبطل فضلكم عند ربكم ، يا بنى إسرائيل الأمور ثلاثة ، أمر تبين رشده فاتبعوه ، وأمر تبين غيه فاجتنبوه ، وامر اختلف فيه فردوه إلى الله » . وهذه الألفاظ لا تحفظ عن النبى (ص) بهذا السياق إلا من حديث محمد بن كعب عن ابن عباس ، وقد روى أول الحديث إلى ذكر عيسى من غير طريقه ، وسيأتى أن هذا الحديث تفرد به الطبرانى بطوله والله سبحانه وتعالى أعلم] [١]

وفيها توفى أبو نضرة المنذر بن مالك بن قِطْعة العبدى ، وقد ذكرنا تراجمهم فى كتابنا التكميل.

ثم دخلت سنة تسع ومائة

ففيها عزل هشام بن عبد الملك أسد بن عبد الله القسرى عن إمرة خراسان وأمره أن يقدم إلى الحج ، فأقبل منها فى رمضان ، واستخلف على خراسان الحكم بن عوانة الكلبى ، واستناب هشام على خراسان أشرس بن عبد الله السلمى ، وأمره أن يكاتب خالد بن عبد الله القسرى ، وكان أشرس فاضلا خيراً ، وكان سمى الكامل لذلك ، وكان أول من اتخذ المرابطة بخراسان ، واستعمل المرابطة عبد الملك بن زياد الباهلى ، وتولى هو الأمور بنفسه كبيرها وصغيرها ، ففرح بها أهلها . وفيها حج بالناس إبراهيم بن هشام أمير الحرمين .

سنة عشر ومائة من الهجرة النبوية

فيها قاتل مسلمة بن عبد الملك ملك الترك الأعظم خاقان ، فزحف إلى مسلمة فى جموع عظيمة فتواقفوا نحواً من شهر ، ثم هزم الله خاقان زمن الشتاء ، ورجع مسلمة سالما غانما ، فسلك على مسلك ذى القرنين فى رجوعه إلى الشام ، وتسمى هذه الغزاة غزاة الطين ، وذلك أنهم سلكوا على مغارق ومواضع غرق فيها دواب كثيرة ، وتوحل فيها خلق كثير ، فما نجوا حتى قاسوا شدائد وأهوالا صعابا وشدائد عظاماً ، وفيها دعا أشرس بن عبد الله السلمى نائب خراسان أهل الذمة بسمرقند ومن وراء النهر إلى الدخول فى الاسلام ، ويضع عنهم الجزية فأجابوه إلى ذلك ، وأسلم غالبهم ، ثم طالبهم

---

(١) زيادة من المصرية .

بالجزية فنصبوا له الحرب وقاتلوه ، ثم كانت بينه و بين الترك حروب كثيرة ، أطال ابن جرير بسطها وشرحها فوق الحاجة . وفيها أرسل أمير المؤمنين هشام بن عبيدة إلى إفريقية متوليا عليها ، فلما وصل جهز ابنه وأخاه فى جيش فالتقوا مع المشركين فقتلوا منهم خلقا كثيراً وأسروا بطريقهم وانهزم باقيهم ، وغنم المسلمون منهم شيئا كثيراً . وفيها افتتح معاوية بن هشام حصنين من بلاد الروم ، وغنم غنائم جمة . وفيها حج بالناس إبراهيم بن هشام ، وعلى العراق خالد القسرى ، وعلى خراسان أشرس السلمى

ذكر من توفى فيها من الأعيان :

جرير الشاعر

وهو جرير بن الخطفى ويقال ابن عطية بن الخطفى واسم الخطفى حذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مر بن طابخة بن الياس ابن مضر بن نزار ، أبو حرزة الشاعر البصرى ، قدم دمشق مرارا ، وامتدح يزيد بن معاوية والخلفاء من بعده ووفد على عمر بن عبد العزيز ، وكان فى عصره من الشعراء الذين يقارنونه الفرزدق والأخطل ، وكان جرير أشعرهم وأخيرهم ، قال غير واحد : هو أشعر الثلاثة، قال ابن دريد ثنا الاشناندانى ثنا الثورى عن أبى عبيدة عن عثمان البتّى قال : رأيت جريراً وما تضم شفتاه من التسبيح ، فقلت : وما ينفعك هذا ؟ فقال : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد إن الحسنات يذهبن السيئات ، وعد من الله حق . وقال هشام بن محمد الكلبى عن أبيه قال : دخل رجل من بنى عذرة على عبد الملك بن مروان يمتدحه بقصيدة وعنده الشعراء الثلاثة ، جرير والفرزدق والأخطل ، فلم يعرفهم الأعرابى ، فقال عبد الملك للأعرابى : هل تعرف أهجى بيت قالته العرب فى الاسلام ؟ قال : نعم ! قول جرير :

فَغُضَّ الطرفَ إنكَ من نُمَيْرٍ * فلا كَعْباً بلغتَ ولا كِلابا

فقال : أحسنت ، فهل تعرف أمدح بيت قيل فى الاسلام ؟ قال نعم ! قول جرير :

ألستمْ خيرَ من ركبَ المطايا * وأندى العالمين بطونَ راحِ

فقال : أصبت وأحسنت ، فهل تعرف أرق بيت قيل فى الاسلام ؟ قال : نعم ! قول جرير :

إن العيونَ التى فى طَرْفِها مَرَضٌ * قَتَلْنَنا ثُمَّ لم يُحيينَ قتلانا

يصرعْنَ ذا اللبِّ حتى لاحَراكَ به * وهنَّ أضعفُ خلْقِ الله أرْكانا

فقال : أحسنت ، فهل تعرف جريرا ؟ قال : لا والله ، و إنى إلى رؤيته لمشتاق ، قال : فهذا جرير وهذا الفرزدق وهذا الأخطل ، فأنشأ الأعرابى يقول : ـ

فحيّا الإلهُ أبا حِزْرَةٍ * وأرغمَ أنفكَ يا أخطلُ
وجدُّ الفرزدقِ أتعِسْ بهِ * ورقَّ خياشيمهُ الجندلُ

فأنشأ الفرزدق يقول :

يا أرغَمَ اللهُ أنفاً أنتَ حاملُهُ * يا ذا الخَنا ومقالِ الزُّورِ والخطَلِ
ما أنتَ بالحكمِ الترضى حكومتهُ * ولا الاصيلُ ولاذى الرأيِ والجدلِ

ثم أنشأ الأخطل يقول :ـ

يا شرَّ من حملتْ ساقٌ على قدمٍ * ما مثلُ قولكَ فى الأقوامِ يحتملُ
ان الحكومةَ ليستْ في أبيكَ ولا * فى معشرٍ أنتَ منهمْ انهمْ سفلُ

فقام جرير مغضبا وقال :ـ

أتشتمانِ سَفاهاً خيْرَكُمْ حَسَباً * ففيكما ـ وإلَهي ـ الزورُ والخطل
شتمتماهُ عـلى رفعي ووضْعِكما * لا زلتما فى سَفالٍ أيها السَّفَل

ثم وثب جرير فقبل رأس الأعرابى وقال : يا أمير المؤمنين جائزتى له ، وكانت خمسة آلاف ، فقال عبد الملك : وله مثلها من مالى ، فقبض الأعرابى ذلك كله وخرج . وحكى يعقوب بن السكيت أن جريرا دخل على عبد الملك مع وفد أهل العراق من جهة الحجاج فأنشده مديحه الذى يقول فيه :

ألستمْ خيرُ منَ ركبَ المطايا * وأندى العالمينَ بُطونَ راحِ

فأطلق له مائة ناقة وثمانية من الرعاء أربعة من النوبة وأربعة من السبى الذين قدم بهم من الصغد قال جرير : و بين يدى عبد الملك جامان من فضة قد أهديت له ، وهو لا يعبأ بها شيئاً ، فهو يقرعها بقضيب فى يده ، فقلت : يا أمير المؤمنين المحلب ، فألقى إلى واحداً من تلك الجامات ، ولما رجع إلى الحجاج أعجبه إكرام أمير المؤمنين له فأطلق الحجاج له خمسين ناقة تحمل طعاماً لأهله .

وحكى نفطويه أن جريراً دخل يوما على بشر بن مروان وعنده الأخطل ، فقال بشر لجرير : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، ومن هذا أيها الأمير ؟ فقال : هذا الأخطل ، فقال الأخطل : أنا الذى قذفت عرضك ، وأسهرت ليلك ، وآذيت قومك ، فقال جرير : أما قولك شتمت عرضك فما ضر البحر أن يشتمه من غرق فيه ، وأما قولك وأسهرت ليلك ، فلو تركتنى أنام لكان خيراً لك ، وأما قولك وآذيت قومك فكيف تؤذى قوما أنت تؤدى الجزية إليهم ؟ وكان الأخطل من نصارى العرب المتنصرة ، قبحه الله وأبعد مثواه ، وهو الذى أنشد بشر بن مروان قصيدته التى يقول فيها :

قدْ استوى بشرُ على العراقِ * من غير سيفٍ ودمٍ مهراقِ

وهذا البيت تستدل به الجهمية على أن الاستواء على العرش بمعنى الاستيلاء ، وهذا من تحريف الكلم عن مواضعه ، وليس فى بيت هذا النصرانى حجة ولادليل على ذلك ، ولا أراد الله عز وجل باستوائه على عرشه استيلاءه عليه ، تعالى الله عن قول الجهمية علواً كبيراً ، فانه إنما يقال استوى على الشئ إذا كان ذلك الشئ عاصيا عليه قبل استيلائه عليه ، كاستيلاء بشر على العراق ، واستيلاء الملك على المدينة بعد عصيانها عليه ، وعرش الرب لم يكن ممتنعا عليه نفسا واحدا ، حتى يقال استوى عليه ، أو معنى الاستواء الاستيلاء ، ولا تجد أضعف من حجج الجهمية ، حتى أداهم الافلاس من الحجج إلى بيت هذا النصرانى المقبوح وليس فيه حجة والله أعلم .

وقال الهيثم بن عدى عن عوانة بن الحكم قال : لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد إليه الشعراء فمكثوا ببابه أياماً لا يؤذن لهم ولا يلتفت إليهم ، فساءهم ذلك وهموا بالرجوع إلى بلادهم ، فمر بهم رجاء بن حيوة فقال له جرير : ــ

يا أيها الرجلُ المرخى عمامتهُ * هذا زمانكَ فاستأذنْ لنا عمرا

فدخل ولم يذكر لعمر من أمرهم شيئا ، فمرَّ بهم عدى بن أرطاة فقال له جرير منشدا :

يا أيها الراكبُ المرخى مطيتهُ * هذا زمانكَ إنى قدّ مضى زمنى

أبلغْ خليفتنا إنْ كنتَ لاقيهُ * أنى لدى الباب كالمصفود فى قرنِ

لا تنسَ حاجتنا لاقيتَ مغفرةً * قدطالَ مكثىَ عنْ أهلى وعنْ وطنى

فدخل عدى على عمر بن عبد العزيز فقال : يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة ، فقال : ويحك ياعدى ، مالى وللشعراء ، فقال : يا أمير المؤمنين إن رسول الله (ص) قد كان يسمع الشعر ويجزى عليه ، وقد أنشده العباس بن مرداس مدحه فأعطاه حلة ، فقال له عمر : أتروى منها شيئا ؟ قال : نعم فأنشده : ــ

رأيتكَ يا خيرَ البريةِ كلها * نشرتَ كتاباً جاءَ بالحقِ معلما

شرعتَ لنا دينَ الهدى بعدَ جوْرِنا * عُنِ الحقِ لما أصبحَ الحقُ مظلما

ونوّرتَ بالبرهانِ أمراً مدلّساً * واطفأتَ بالقرآنِ ناراً تضرّما

فمن مبلغٍ عنّي النبيَّ محمداً * وكلُ امرئٍ يجزى بما كانَ قدّما

أقمتَ سبيلَ الحقِ بعدَ اعوجاجهِ * وكانَ قديماً ركنهُ قدْ تهدّما

تعالى علواً فوقَ عرشِ إلهنا * وكانَ مكانُ اللهِ أعلا وأعظَما

فقال عمر : من بالباب منهم ؟ فقال : عمر بن أبى ربيعة ، فقال أليس هو الذى يقول :

ثم نبهتهـا فهبتْ كعابا * طفلةٌ ما تبينُ رجعَ الـكلامِ

ساعةً ثم إنها بعدُ قالتْ * ويلنا قد عجلتَ يا ابنَ الكرامِ
أعلى غيرِ موعدٍ جئتَ تسرى * تتخطى إلى رءوسِ النيامِ
ما تجشمتَ ما تريدُ من الأمرِ * ولا جئتَ طارقاً لخصامِ

فلو كان عدو الله إذ فجر كتم وستر على نفسه ، لا يدخل والله أبداً ، فمن بالباب سواه ؟ قال : همام بن غالب ـ يعنى الفرزدق ـ فقال عمر : أوليس هو الذى يقول فى شعره :

هما دلّتاني من ثمانينَ قامةً * كما انقض بازٍ أقتمُ الريشِ كاسرهْ
فلما استوتْ رجلاىَ بالأرضِ قالتا * أحىٌّ يرجَّى أمْ قتيلٌ نحاذرهْ

لا يطأ والله بساطى وهو كاذب ، فمن سواه بالباب ؟ قال : الأخطل ، قال : أوليس هو الذى يقول:

ولستُ بصائمٍ رمضانَ طوعاً * ولستُ بآكلٍ لحمَ الاضاحى
ولستُ بزاجرٍ عيساً بكورٍ * إلى بَطْحَاءِ مكّةَ للنجاحِ
ولستُ بزائرٍ بيتاً بعيداً * بمكةَ أبتغي فيهِ صَلاحي
ولستُ بقائمٍ كالعيرِ أدعو * قبيلَ الصبحِ حىَ على الفلاحِ
ولكنى سأشربها شمولاً * وأسجدُ عندَ منبلجِ الصباحِ

والله لا يدخل على وهو كافر أبدا ، فهل بالباب سوى من ذكرت ؟ قال : نعم الأحوص ، قال : أليس هو الذى يقول :

اللهُ بينى وبينَ سيّدها * يفرُّ منّي بها وأتبعهُ

فما هو دون من ذكرت ، فمن ههنا غيره ؟ قال جميل بن معمر ، قال : الذى يقول : ـ

ألا ليتَنا نحيا جميعاً وإن نَمتْ * يوافقُ فى الموتى خريجي خريجها
فما أنا فى طولِ الحياةِ براغبٍ * إذا قيلَ قد سوّى عليها صَفيحُها

فلو كان عدو الله تمنى لقاءها فى الدنيا ليعمل بذلك صالحا ويتوب، والله لا يدخل على أبدا ، فهل بالباب أحد سوى ذلك ؟ قلت : جرير ، قال أما إنه الذى يقول :

طرقتكِ صائدةَ القلوبِ وليس ذا * حينَ الزيارةِ فارجعي بسلامِ

فان كان لابد فأذن لجرير ، فأذن له فدخل على عمر وهو يقول :

إن الذى بعثَ النبىَ محمداً * جعلَ الخلافةَ للامامِ العادلِ
وسعَ الخلائقَ عدلهُ ووفاؤهُ * حتى ارعوى وأقامَ ميلَ المائلِ
إنى لأرجو منكَ خيراً عاجلاً * والنفسُ مولعةٌ بحبِ العاجلِ

فقال له : ويحك ياجرير، اتق الله فيما تقول، ثم إن جريرا استأذن عمر فى الانشاد فلم يأذن له ولم

ينهه، فأنشده قصيدة طويلة يمدحه بها، فقال له : ويحك ياجرير لاأرى لك فيما ههنا حقاً، فقال : إنى مسكين وابن سبيل، قال : إنا ولينا هذا الأمر ونحن لانملك إلا ثلاثمائة درهم، أخذت أم عبد الله مائة وابنها مائة وقد بقيت مائة، فأمر له بها، فخرج على الشعراء فقالوا : ماوراءك ياجرير؟ فقال : مايسوءكم، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطى الفقراء ويمنع الشعراء وإنى عنه لراض، ثم أنشأ يقول :

رأيتُ رقى الشيطانِ لاتستفزُّه * وقدْ كانَ شيطانى منَ الجن راقيا

وقال بعضهم فيما حكاه المعافى بن زكريا الجريرى قالت جارية للحجاج بن يوسف : إنك تدخل هذا علينا، فقال : إنه ما علمت عفيفا، فقالت : أما إنك لو أخليتنى وإياه سترى مايصنع، فأمر باخلائها مع جرير فى مكان يراهما الحجاج ولا يريانه، ولايشعر جرير بشىء من ذلك، فقالت له : ياجرير، فأطرق رأسه، وقال : هأنذا، فقالت : أنشدنى من قولك كذا وكذا ـ الشعر فيه رقة ـ فقال : لست أحفظه ولكن أحفظ كذا وكذا ـ ويعرض عن ذاك وينشدها شعرا فى مدح الحجاج ـ فقالت : لست أريد هذا، إنما أريد كذا وكذا ـ فيعرض عن ذاك وينشدها فى الحجاج ـ حتى انقضى المجلس فقال الحجاج : لله درك، أبيت إلا كرما وتكرما . وقال عكرمة أنشدت أعرابيا بيتا لجرير الخطفى :

أبدلَ الليلُ لا تجرى كواكبُهُ * أو طالَ حتى حسبتُ النجمَ حيرانا

فقال الأعرابى : إن هذا حسن فى معناه وأعوذ بالله من مثله، ولكنى أنشدك فى ضده من قولى

وليلٌ لم يقصرهُ رقادٌ * وقصرهُ لنا وصلُ الحبيبِ
نعيمُ الحبِ أورقَ فيهِ * حتى تناولنا جناهُ من قريبِ
بمجلسِ لذةٍ لم نقفِ فيهِ * على شكوى ولاعيبِ الذنوبِ
نخشينا أنْ نقطعهُ بلفظٍ * فترجمتْ العيونُ عن القلوبِ[1]

فقلت له : زدنى، قال : أما من هذا فحسبك ولكن أنشدك غيره فأنشدنى :

وكنتُ إذا عقدتُ حِبال قومٍ * صحبتُهمُ وشيمتىَ الوفاءُ
فأُحسنُ حينَ يحسنُ محُسِنوهمْ * وأجتنبُ الإساءةَ إنْ أساءوا
أَشاءُ سوى مشيئتِهمْ فآتي * مشيئَتَهمْ وأَتركُ ماأشاءُ

قال ابن خلكان : كان جرير أشعر من الفرزدق عند الجمهور، وأفخر بيت قاله جرير :

إذا غضبتْ عليكَ بنو تميمٍ * حسبتَ الناسَ كلَّهمُ غِضَابا

قال وقد سأله رجل : من أشعر الناس؟ فأخذ بيده وأدخله على ابنه، وإذا هو يرتضع من ثدى

(١) فى هذه الأبيات تحريف، ولم نقف عليها فى مرجع آخر .

عنز ، فاستدعاه فنهض واللبن يسيل على لحيته ، فقال جرير للذى سأله : أتبصر هذا ؟ قال : نعم ، قال : أتعرفه ؟ قال : لا ، قال : هذا أبى ، وإنما يشرب من ضرع العنز لئلا يحلبها فيسمع جيرانه حس الحلب فيطلبوا منه لبنا ، فأشعر الناس من فاخر بهذا ثمانين شاعرا فغلبهم ، وقد كان بين جرير والفرزدق مقاولات ومهاجاة كثيرة جدا يطول ذكرها ، وقد مات فى سنة عشر ومائة ، قاله خليفة بن خياط وغير واحد ، قال خليفة : مات الفرزدق وجرير بعده بأشهر ، وقال الصولى : ماتا فى سنة إحدى عشرة ومائة ، ومات الفرزدق قبل جرير بأربعين يوماً ، وقال السكرى عن الاصمعى عن أبيه قال : رأى رجل جريراً فى المنام بعد موته فقال له : مافعل الله بك ؟ فقال : غفر لى ، فقيل : بماذا ؟ قال بتكبيرة كبرتها بالبادية ،قيل له : فما فعل الفرزدق ؟ قال أيهات أهلكه قذف المحصنات . قال الأصمعى لم يدعه فى الحياة ولافى الممات

وأما الفرزدق

واسمه همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم بن حنظلة بن زيد بن مناة بن مر بن أد بن طابخة أبو فراس بن أبى خطل التميمى البصرى الشاعر المعروف بالفرزدق ، وجده صعصعة بن ناجية صحابى ، وفد إلى رسول الله (ص) ، وكان يحيى الموؤدة فى الجاهلية ، حدث الفرزدق عن على أنه ورد مع أبيه عليه ، فقال من هذا ؟ قال ابنى وهو شاعر ، قال علمه القراءة فهو خير له من الشعر . وسمع الفرزدق الحسين بن على ورآه وهو ذاهب إلى العراق وأبا هريرة وأبا سعيد الخدرى وعرفجة بن أسعد ، وزرارة بن كرب ، والطرماح بن عدى الشاعر ، وروى عنه خالد الحذاء ومروان الأصغر وحجاج بن حجاج الأحول ، وجماعة ، وقد وفد على معاوية يطلب ميراث عمه الحباب ، وعلى الوليد بن عبد الملك وعلى أخيه ، ولم يصح ذلك ، وقال أشعث بن عبد الله عن الفرزدق قال نظر أبو هريرة إلى قدمى فقال : يا فرزدق إنى أرى قدميك صغيرين فاطلب لهما موضعاً فى الجنة ، فقلت : إن ذنوبى كثيرة ، فقال : لا بأس فانى سمعت رسول الله (ص) يقول : « إن بالمغرب بابا مفتوحاً للتوبة لا يغلق حتى تطلع الشمس من مغربها » . وقال معاوية بن عبد الكريم عن أبيه قال : دخلت على الفرزدق فتحرك فاذا فى رجله قيد ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : حلفت أن لا أنزعه حتى أحفظ القرآن . وقال أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت بدوياً أقام بالحضر إلا فسد لسانه إلا رؤبة بن العجاج والفرزدق فانهما زادا على طول الاقامة جدة وحدة ، وقال راويته أبو شفقل طلق الفرزدق امرأته النوار ثلاثاً ثم جاء فأشهد على ذلك الحسن البصرى ، ثم ندم على طلاقها وإشهاده الحسن على ذلك فأنشأ يقول : ـ

فلو أني مَلَكْتُ يَدي وقَلْبي * لَكانَ عليَّ للقَدَرِ الخِيارُ

ندمتُ ندامةَ الكسعيِ لما * غدتْ مني مطلقةً نوارُ
وكانتْ جنّتي فخرجتُ منها * كآدمَ حينَ أخرجهُ الضرارُ

وقال الأصمعي وغير واحد : لما ماتت النوار بنت أعين بن ضبيعة المجاشعي امرأة الفرزدق ـ وكانت قد أوصت أن يصلي عليها الحسن البصري ـ فشهدها أعيان أهل البصرة مع الحسن والحسن على بغلته ، والفرزدق على بعيره ، فسار فقال الحسن للفرزدق : ماذا يقول الناس ؟ قال : يقولون شهد هذه الجنازة اليوم خير الناس ـ يعنونك ـ وشر الناس ـ يعنوني ـ فقال له : يا أبا فراس لست أنا بخير الناس ولست أنت بشر الناس ، ثم قال له الحسن : ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال : شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة ، فلما أن صلى عليها الحسن مالوا إلى قبرها فأنشأ الفرزدق يقول :

أخافَ وراءَ القبرِ انْ لمْ يعافني * أشدَّ منَ القبرِ التهاباً وأضيقا
إذا جاءني يومَ القيامةِ قائدٌ * عنيفٌ وسواقٌ يسوقُ الفرزدقا
لقدْ خابَ منْ أولادِ دارمَ منْ مشى * إلى النارِ مغلولَ القلادةِ أزرقا
يساقُ إلى نارِ الجحيمِ مسربَلاً * سرابيلَ قطرانٍ لباساً محرقا
إذا شربوا فيها الصديدَ رأيتهمْ * يذوبونَ منْ حرِ الصديدِ تمزقا

قال : فبكى الحسن حتى بل الثرى ثم التزم الفرزدق ، وقال : لقد كنت من أبغض الناس إلي ، وإنك اليوم من أحب الناس إلي . وقال له بعض الناس : ألا تخاف من الله في قذف المحصنات ، فقال : والله للهُ أحب إلي من عيني اللتين أبصر بهما ، فكيف يعذبني ؟ وقد قدمنا أنه مات سنة عشر ومائة قبل جرير بأربعين يوما ، وقيل بأشهر فالله أعلم .

وأما الحسن وابن سيرين فقد ذكرنا ترجمة كل منهما في كتابنا التكميل مبسوطة وحسبنا الله ونعم الوكيل .

فأما الحسن بن ابي الحسن

فاسم أبيه يسار وأبرد هو أبو سعيد البصري مولى زيد بن ثابت ، ويقال مولى جابر بن عبد الله وقيل غير ذلك ، وأمه خيرة مولاة لأم سلمة كانت تخدمها ، وربما أرسلتها في الحاجة فتشتغل عن ولدها الحسن وهو رضيع ، فتشاغله أم سلمة بثدييها فيدران عليه فيرتضع منهما ، فكانوا يرون أن تلك الحكمة والعلوم التي أوتيها الحسن من بركة تلك الرضاعة من الثدي المنسوب إلى رسول الله (ص) ، ثم كان وهو صغير تخرجه أمه إلى الصحابة فيدعون له ، وكان في جملة من يدعو له عمر بن الخطاب ، قال : اللهم فقهه في الدين ، وحببه إلى الناس . وسئل مرة أنس بن مالك عن مسألة فقال : سلوا عنها مولانا الحسن ، فانه سمع وسمعنا ، فحفظ ونسينا ، وقال أنس مرة : إني لأغبط أهل البصرة بهذين الشيخين ـ الحسن وابن سيرين ـ وقال قتادة : ما جالست رجلا فقيها إلا رأيت فضل الحسن عليه ،

وقال أيضا : ما رأت عيناى أفقه من الحسن ، وقال أيوب : كان الرجل يجالس الحسن ثلاث حجج ما يسأله عن مسألة هيبة له ، وقال الشعبى لرجل يريد قدوم البصرة : إذا نظرت إلى رجل أجمل أهل البصرة وأهيبهم فهو الحسن ، فأقرأه منى السلام . وقال يونس بن عبيد : كان الرجل إذا نظر إلى الحسن انتفع به وإن لم ير عمله ولم يسمع كلامه ، وقال الأعمش : ما زال الحسن يعى الحكمة حتى نطق بها ، وكان أبو جعفر إذا ذكره يقول : ذاك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء ،

وقال محمد بن سعد : قالوا كان الحسن جامعا للعلم والعمل ، عالما رفيعا فقيها ثقة مأمونا عابداً زاهداً ناسكا كثير العلم والعمل فصيحا جميلا وسيما ، وقدم مكة فأجلس على سرير ، وجلس العلماء حوله ، واجتمع الناس إليه فحدثهم . قال أهل التاريخ : مات الحسن عن ثمان وثمانين سنة ، عام عشر ومائة فى رجب منها ، بينه و بين محمد بن سيرين مائة يوم .

وأما ابن سيرين

فهو محمد بن سيرين أبو بكر بن أبى عمرو الأنصارى مولى أنس بن مالك النضرى ، كان أبو محمد من سبى عين التمر ، أسره خالد بن الوليد فى جملة السبى ، فاشتراه أنس ثم كاتبه ، ثم ولد له من الأولاد الأخيار جماعة ، محمد هذا ، وأنس بن سيرين ، ومعبد ويحيى وحفصة وكريمة ، وكلهم تابعيون ثقات أجلاء رحمهم الله . قال البخارى : ولد محمد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان ، وقال هشام بن حسان : هو أصدق من أدركت من البشر ، وقال محمد بن سعد : كان ثقة مأمونا عالما رفيعا فقيها إماما كثير العلم ورعا . وكان به صمم ، وقال مورق العجلى : ما رأيت رجلا أفقه فى ورعه ، وأورع فى فقهه منه ، قال ابن عون : كان محمد بن سيرين أرجى الناس لهذه الأمة ، وأشد الناس إزارا على نفسه ، وأشدهم خوفا عليها . قال ابن عون : ما بكى فى الدنيا مثل ثلاثة ، محمد بن سيرين فى العراق ، والقاسم بن محمد فى الحجاز ، ورجاء بن حيوة بالشام . وكانوا يأتون بالحديث على حروفه ، وكان الشعبى يقول : عليكم بذاك الأصم - يعنى محمد بن سيرين - وقال ابن شوذب : مارأيت أحداً أجرأ على تعبير الرؤيا منه . وقال عثمان البتى : لم يكن بالبصرة أعلم بالقضاء منه . قالوا : ومات فيه تاسع شوال من هذه السنة بعد الحسن بمائة يوم .

فصل

كان اللائق بالمؤلف أن يذكر تراجم هؤلاء العلماء الأخيار قبل تراجم الشعراء المتقدم ذكرهم فيبدأ بهم ثم يأتى بتراجم الشعراء ، وأيضا فانه أطال القول فى تراجم الشعراء واختصر تراجم العلماء ، ولو كان فيها حسن وحكم جمة ينتفع بها من وقف عليها ، ولعلها أفيد من مدحهم والثناء عليهم ، ولا سيما

كلام الحسن وابن سيرين ووهب بن منبه ـ كما ذكره بعد وكما سيأتى ذكر ترجمته فى هذه الزيادة ـ فانه قد اختصرها جداً وإن المؤلف أقدر وأوسع علما ، فما ينبغى أن يخل ببعض كلامهم وحكمهم ، فان النفوس مستشرفة إلى معرفة ذلك والنظر فيه ، فان أقوال السلف لها موقع من القلوب ، والمؤلف غالبا فى التراجم يحيل على ما ذكره فى التكميل الذى صنفه فى أسماء الرجال ، وهذا الكتاب لم نقف عليه نحن ولا من سألناه عنه من العلماء ، فانا قد سألنا عنه جماعة من أهل الفن فلم يذكر غير واحد أنه اطلع عليه . فكيف حال غيرهم . ؟ وقد ذكرت فى غالب التراجم زيادات على ما ذكره المؤلف مما وصلت إليه معرفتى واطلعنا عليه ، ولو كان عندى كتب لأشبعت القول فى ذلك ، إذ الحكمة هى ضالة المؤمن . ولعل أن يقف على هذا راغب فى الآخرة ، طالب ما عند الله عز وجل فينتفع به أعظم مما ينتفع به من تراجم الخلف والملوك والأمراء ، وإن كانت تلك أيضا نافعة لمعتبر ومزدجر ، فان ذكر أئمة العدل والجور بعد موتهم فيها فضل أولئك ، وغم هؤلاء ، ليعلم الظالم أنه وإن مات لم يمت ما كان متلبسا به من الفساد والظلم ، بل هو مدون فى الكتب عند العلماء . وكذلك أهل العدل والصلاح والخير ، فان الله قد قص فى القرآن أخبار الملوك والفراعنة والكفار والمفسدين ، تحذيراً من أحوالهم وما كانوا يعملون ، وقص أيضا أخبار الأتقياء والمحسنين والأبرار والأخيار والمؤمنين ، للاقتداء والتأسى بهم والله سبحانه أعلم . فنقول وبالله التوفيق :

اما الحسن

فهو أبو سعيد البصرى الامام الفقيه المشهور ، أحد التابعين الكبار الأجلاء علما وعملا وإخلاصا فروى ابن أبى الدنيا عنه قال : كان الرجل يتعبد عشرين سنة لا يشعر به جاره ، وأحدهم يصلى ليلة أو بعض ليلة فيصبح وقد استطال على جاره ، وإن كان القوم ليجتمعون فيتذاكرون فتجئ الرجل عبرته فيردها ما استطاع ، فان غلب قام عنهم . وقال الحسن : تنفس رجل عند عمر بن عبد العزيز فلكزه عمر ـ أو قال : لكمه ـ وقال : إن فى هذا لفتنة . وقد ذكره ابن أبى الدنيا عن الحسن عن عمر بن الخطاب . وروى الطبرانى عنه أنه قال : إن قوما ألهتهم أمانى المغفرة ورجاء الرحمة حتى خرجوا من الدنيا وليست لهم أعمال صالحة ، يقول أحدهم : إنى لحسن الظن بالله ، وارجو رحمة الله . وكذب ، لو أحسن الظن بالله لأحسن العمل لله ، ولو رجا رحمة الله لطلبها بالأعمال الصالحة ، يوشك من دخل المفازة من غير زاد ولا ماء أن يهلك . وروى ابن أبى الدنيا عنه قال : حادثوا هذه القلوب فانها سريعة الدثور ، واقدعوا هذه الأنفس فانها تنزع إلى شرغاية .

وقال مالك بن دينار : قلت للحسن : ما عقوبة العالم إذا أحب الدنيا ؟ قال : موت القلب ، فاذا أحب الدنيا طلبها بعمل الآخرة ، فعند ذلك ترحل عنه بركات العلم ويبقى عليه رسمه . وروى القتبى عن أبيه قال : عاد الحسن عليلا فوجده قد شفى من علته ، فقال : أيها الرجل إن الله قد ذكرك

فاذكره ، وقد أقالك فاشكره ، ثم قال الحسن : إنما المرض ضربة سوط من ملك كريم ، فأما أن يكون العليل بعد المرض فرسا جواداً ، وإما أن يكون حماراً عثورا معقوراً . وروى العتبي عن أبيه أيضا قال : كتب الحسن إلى فرقد :

أما بعد فانى أوصيك بتقوى الله ، والعمل بما علمك الله ، والاستعداد لما وعد الله ، مما لا حيلة لأحد فى دفعه ، ولا ينفع الندم عند نزوله ، فاحسر عن رأسك قناع الغافلين ، وانتبه من رقدة الجاهلين ، وشمر الساق ، فان الدنيا ميدان مسابقة ، والغاية الجنة أو النار ، فان لى ولك من الله مقاماً يسألنى و إياك فيه عن الحقير والدقيق ، والجليل والخافى ، ولا آمن أن يكون فيما يسألنى و إياك عنه وساوس الصدور ، ولحظ العيون ، و إصغاء الأسماع . وما أعجز عنه .

وروى ابن قتيبة عنه أنه مر على باب ابن هبيرة فرأى القراء ـ وكانوا هم الفقهاء ـ جلوسا على باب ابن هبيرة فقال : طفحتم نعالكم ، و بيضتم ثيابكم ، ثم أتيتم إلى أبوابهم تسعون؟ ثم قال لأصحابه: ما ظنكم بهؤلاء الحذاء ؟ ليست مجالسهم من مجالس الأتقياء ، و إنما مجالسهم مجالس الشرط . وروى الخرائطى عن الحسن أنه كان إذا اشترى شيئا وكان فى ثمنه كسر جبره لصاحبه . ومر الحسن بقوم يقولون : نقص دانق أى عن الدرهم الكامل والدينار الكامل ـ إما أن يكون درهما ينقص نصفا او ربعا ، والعشرة تسعة ونصف ، وقس على هذا ، فكان الحسن يستحب جبران هذه الأشياء ، و إن كان اشترى السلعة بدرهم ينقص دانقا كمله درهما ، أو بتسعة ونصف كملها عشرة ، مروءة وكرما . وقال عبد الأعلى السمسار ، قال الحسن: يا عبد الأعلى ! أما يبيع أحدكم الثوب لأخيه فينقص درهمين أو ثلاثة ؟ قلت لا والله ولا دانق واحد ، فقال الحسن : إن هذه الأخلاق فما بقى من المروءة إذاً ؟ . قال : وكان الحسن يقول : لا دين إلا بمروءة . وباع بغلة له فقال له المشترى : أما تحط لى شيئا يا أبا سعيد ؟ قال لك خمسون درهما ، أزيدك ؟ قال : لا ! رضيت ، قال : بارك الله لك.

وروى ابن أبى الدنيا عن حمزة الأعمى قال : ذهبت بى أمى إلى الحسن فقالت : يا أبا سعيد : ابنى هذا قد أحببت أن يلزمك فلعل الله أن ينفعه بك ، قال : فكنت أختلف إليه ، فقال لى يوما : يابنى أدم الحزن على خير الآخرة لعله أن يوصلك إليه ، وابك فى ساعات الليل والنهار فى الخلوة لعل مولاك أن يطلع عليك فيرحم عبرتك فتكون من الفائزين ، قال : وكنت أدخل على الحسن منزله وهو يبكى ، وربما جئت إليه وهو يصلى فأسمع بكاءه ونحيبه ، فقلت له يوما: إنك تكثر البكاء فقال يابنى ! ماذا يصنع المؤمن إذا لم يبك ؟ يابنى إن البكاء داع إلى الرحمة ، فان استطعت أن تكون عمرك باكيا فافعل لعله تعالى أن يرحمك ، فاذا أنت نجوت من النار ، وقال : ماهو إلا حلول الدار إما الجنة وإما النار ، ماهناك منزل ثالث . وقال : بلغنا أن الباكى من خشية الله لاتقطر من دموعه

قطرة حتى تعتق رقبته من النار . وقال : لو أن باكيا بكى فى ملأ من خشية الله لرحموا جميعا ، وليس شئ من الأعمال إلا له وزن إلا البكاء من خشية الله فانه لايقوّم الله بالدمعة منه شيئا .وقال : ما بكى عبد إلا شهد عليه قلبه بالصدق أو الكذب .

وروى ابن أبى الدنيا عنه فى كتاب اليقين قال : من علامات المسلم قوة دين ، وحزم فى لين ، و إيمان فى يقين ، وحكم فى علم ، وحبس فى رفق ، و إعطاء فى حق ، وقصد فى غنى ، وتحمل فى فاقة و إحسان فى قدرة ، وطاعة معها نصيحة ، وتورع فى رغبة ، وتعفف وصبر فى شدة ، لاترديه رغبته ، ولا يبدره لسانه ، ولا يسبقه بصره ، ولا يغلبه فرجه ، ولا يميل به هواه ، ولا يفضحه لسانه ، ولا يستخفه حرصه ، ولا تقصر به نيته . كذا ذكر هذه الألفاظ عنه [1]. قال : حدثنا عبد الرحمن ابن صالح عن الحكم بن ظهير عن يحيى بن المختار عن الحسن فذكره ، وقال فيه أيضا عنه : يا ابن آدم إن من ضعف يقينك أن تكون بما فى يدك أوثق منك بما فى يدى الله عز وجل .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا على بن إبراهيم اليشكرى حدثنا موسى بن إسماعيل الجبلى حدثنا حفص بن سليمان أبو مقاتل عن عون بن أبى شداد عن الحسن قال قال لقمان لابنه : يابنى العمل لايستطاع إلا باليقين ، ومن يضعف يقينه يضعف عمله . وقال : يابنى إذا جاءك الشيطان من قبل الشك والريب فاغلبه باليقين والنصيحة ، و إذا جاءك من قبل الكسل والسآمة فاغلبه بذكر القبر والقيامة ، و إذا جاءك من قبل الرغبة والرهبة فاخبره أن الدنيا مفارقة متروكة . وقال الحسن : ما أيقن عبد بالجنة والنار حق يقينهما إلا خشع وذبل واستقام واقتصد حتى يأتيه الموت . وقال : باليقين طلبت الجنة ، وباليقين هربت من النار ، وباليقين أديت الفرائض على أكمل وجهها ، وباليقين أصبر على الحق وفى معافاة الله خير كثير ، قد والله رأيناهم يتعاونون فى العافية ، فاذا نزل البلاء تفارقوا . وقال : الناس فى العافية سواء ، فاذا نزل البلاء تبين عنده الرجال . وفى رواية : فاذا نزل البلاء تبين من يعبد الله وغيره ، وفى رواية فاذا نزل البلاء سكن المؤمن إلى إيمانه ، والمنافق إلى نفاقه .

وقال الفريابى فى فضائل القرآن : حدثنا عبد الله بن المبارك أخبرنا معمر عن يحيى بن المختار عن الحسن قال : إن هذا القرآن قد قرأه عبيد وصبيان لاعلم لهم بتأويله ، لم يأتوا الأمر من قبل أوله ، قال الله عز وجل : [كتاب أنزلناه مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب] وماتدبر آياته إلا أتباعه ، أما والله ماهو بحفظ حروفه و إضاعة حدوده ، حتى أن أحدهم ليقول : قد قرأت القرآن كله فما أسقط منه حرفا واحدا ، وقد والله أسقطه كله ، مايرى له القرآن فى خلق ولا عمل ، حتى ان أحدهم ليقول : والله إنى لأقرأ السورة فى نفس ، لا والله ماهؤلاء بالقراء ولا بالعلماء ولا الحكماء

(١) كذا بالأصل ولم يعين اسم الذاكر

ولا الورعة ، ومتى كانت القراءةهكذا أو يقول مثل هذا ،لا أ كثر الله فى الناس مثل هؤلاء . ثم روى الحسن عن جندب قال : قال لنا حذيفة : هل تخافون من شئ ؟ قال : قلت والله إنك وأصحابك لأهون الناس عندنا ، فقال : أما والذى نفسى بيده لاتؤتون إلا من قبلنا ، ومع ذلك نشئ آخر يقرؤن القرآن يكونون فى آخر هذه الأمة ينثرونه نثر الدقل ، لايجاوز تراقيهم ، تسبق قراءتهم إيمانهم .

وروى ابن أبى الدنيا عنه فى ذم الغيبة له قال : والله للغيبة أسرع فى دين المؤمن من الأ كلة فى جسده . وكان يقول . ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الايمان حتى لا تصيب الناس بعيب هو فيك ، وحتى تبدأ بصلاح ذلك العيب فتصلحه من نفسك ، فاذا فعلت ذلك كان ذلك شغلك فى طاعة نفسك ، وأحب العبادإلى الله مَن كان هكذا . وقال الحسن : ليس بينك و بين الفاسق حرمة . وقال : ليس لمبتدع غيبة . وقال أصلت بن طريف : قلت للحسن : الرجل الفاجر المعلن بفجوره ، ذكرى له بما فيه غيبة ؟ قال : لا ولا كرامة . وقال : إذا ظهر فجوره فلا غيبة له . وقال : ثلاثة لاتحرم عليك غيبتهم : المجاهر بالفسق ، والامام الجائر ، والمبتدع . وقال له رجل:إن قوما يجالسونك ليجدوا بذلك إلى الوقيعة فيك سبيلا ، فقال : هون عليك ياهذا فانى أطمعت نفسى فى الجنان فطمعت ، وأطمعتها فى النجاة من النار فطمعت ، وأطمعتها فى السلامة من الناس فلم أجد إلى ذلك سبيلا ، فان الناس لم يرضوا عن خالقهم ورازقهم فكيف يرضون عن مخلوق مثلهم ؟ وقال : كانوا يقولون : من رمى أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يصيب ذلك الذنب . وقال الحسن : قال لقمان لابنه : يا بنى إياك والكذب فانه شهى كلحم العصفور عما قليل يقلاه صاحبه . وقال الحسن : اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا أقوالهم فان الله عز وجل لم يدع قولا إلا جعل عليه دليلا من عمل يصدقه أو يكذبه ، فان سمعت قولا حسنا فرويداً بصاحبه ، فان وافق قول عملا فنعم ونعمت عين أخته وأخيه ، وإذا خالف قول عملا فماذا يشبه عليك منه ، أم ماذا يخفى عليك منه ؟ إياك و إياه لايخدعنك كما خدع ابن آدم ، إن لك قولا وعملا ؛ فعملك أحق بك من قولك ، و إن لك سريرة وعلانية ، فسريرتك أحق بك من علانيتك ، و إن لك عاجلة وعاقبة ، فعاقبتك أحق بك من عاجلتك .

وقال ابن أبى الدنيا : حدثنا حمزة بن العباس أنبأ عبدان بن عثمان أنبأ معمر عن يحيى بن المختار عن الحسن قال : إذا شئت لقيت الرجل أبيض حديد اللسان حديد النظر ميت القلب والعمل ، أنت أبصر به من نفسه ، ترى أبدانا ولاقلوبا ، وتسمع الصوت ولا أنيس ، أخصب ألسنة وأجدب قلوبا ، يأكل أحدهم من غير ماله ويبكى على عماله ، فاذا كظته البطنة قال : يا جارية أو يا غلام ايتنى بهاضم ، وهل هضمت يا مسكين إلا دينك ؟ . وقال : من رق ثوبه رق دينه ، ومن سمن جسمه هزل دينه ، ومن طاب طعامه أنتن كسبه . وقال فيما رواه عنه الآجرى : رأس مال المؤمن

دين حيث ما زال زال معـه ، لا يخلفه فى الرحال ، ولا يأتمن عليه الرجال . وقال فى قوله تعالى : [فلا أقسم بالنفس اللوامة] قال : لا تلقى المؤمن إلا يلوم نفسـه ، ما أردت بكلمة كذا ، ما أردت بأكلة كذا ، ما أردت بمجلس كذا ، وأما الفاجر فيمضى قدما قدما لا يلوم نفسه . وقال : تصبروا وتشددوا فانما هى ليال تعـد ، و إنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت ، فانقلبوا بصالح ما بحضرتكم ، إن هذا الحق أجهد الناس وحال بينهم و بين شهواتهم ، و إنما يصبر على هذا الحق من عرف فضله وعاقبته . وقال : لايزال العبد بخير ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسبة من همته .

وقال ابن أبى الدنيا فى محاسبة النفس : حدثنا عبد الله حدثنا إسماعيل بن زكريا حدثنا عبد الله ابن المبارك عن معمر عن يحيى بن المختار عن الحسن قال : المؤمن قوام على نفسـه يحاسب نفسـه لله عز وجل ، و إنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم فى الدنيا ، و إنما شق الحساب يوم القيامة على أقوام أخذوا هـذا الأمر من غير محاسبة ، إن المؤمن يفجأه الشئ و يعجبه فيقول : والله إنك لمن حاجتى و إنى لأشتهيك ، ولـكن والله مامن صلة إليك ، هيهات حيل بينى و بينك، ويفرط منه الشئ فيرجع إلى نفسه فيقول : ماأردت إلى هذا أبدا إن شاء الله : إن المؤمنين قوم قـد أوثقهم القرآن وحال بينهم و بين هلكتهم ، إن المؤمن أسير فى الدنيا يسعى فى فكاك رقبته ، لايأمن شيئا حتى يلقى الله عز وجل ، يعلم أنه مأخوذ عليه فى سمعه و بصره ولسانه ، وفى جوارحه كلها . وقال : الرضا صعب شديد ، و إنما معول المؤمن الصبر . وقال : ابن آدم عن نفسك فـكايس ، فانك إن دخلت النار لم تجبر بعدها أبدا . وقال ابن أبى الدنيا : أنبأ إسحاق بن إبراهيم قال : سمعت حماد بن زيد يذكر عن الحسن قال : المؤمن فى الدنيا كالغريب لاينافس فى غيرها ولا يجزع من ذلها ، للناس حال وله حال ، الناس منه فى راحة ، ونفسه منه فى شغل . وقال : لولا البلاء ما كان فى أيام قلائل مايهلك المرء نفسه . وقال : أدركت صدر هـذه الأمة وخيارها وطال عمرى فيهم ، فو الله إنهم كانوا فيما أحل الله لهم أزهـد منكم فيما حرم الله عليكم ، أدركتهم عاملين بكتاب ربهم ، متبعين سنة نبيهم ، ماطوى أحدهم ثوبا ، ولاجعل بينه و بين الأرض شيئا ، ولاأمر أهله بصنع طعام ، كان أحدهم يدخل منزله فان قُرب اليه شئ أكل و إلا سكت فلا يتكلم فى ذلك . وقال إن المنافق إذا صلى صلى رياء أوحياء من الناس أوخوفا ، و إذا صلى صلى فقرأهم الدنيا ، و إن فاتته الصلاة لم يندم عليها ولم يحزنه فواتها .

وقال الحسن فيما رواه عنه صاحب كتاب النكت : من جعل الحمد لله على النعم حصنا وحابساً وجعل أداء الزكاة على المال سياجا وحارسا ، وجعل العلم له دليلا وسائسا ، أمن العطب ، و بلغ أعلى الرتب . ومن كان للمال قانصا ، وله عن الحقوق حابسا ، وشغله وألهاه عن طاعة الله كان لنفسه ظالما

ولقلبه بما جنت يداه كالما ، وسلطه الله على ماله سالبا وخالسا ، ولم يأمل العطب فى سائر وجوه الطلب وقيل : إن هذا لغيره ، والله أعلم .

وقال الحسن : أربع من كنّ فيه ألقى الله عليه محبته . ونشر عليه رحمته : من رق لوالديه ، ورق لمملوكه ، وكفل اليتيم ، وأعان الضعيف . وسئل الحسن عن النفاق فقال : هو اختلاف السر والعلانية والمدخل والمخرج ، وقال : ما خافه إلا مؤمن ، ولا أمنه إلا منافق - يعنى النفاق - وحلف الحسن : ما مضى مؤمن ولا بقى إلا وهو يخاف النفاق ، وفى رواية : إلا وهو من النفاق مشفق ، ولا مضى منافق ولا بقى إلا وهو من النفاق آمن . وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن : كيف حبك الدينار والدرهم ؟ قال : لا أحبهما ، فكتب إليه : تولّ فانك تعدل . وقال إبراهيم بن عيسى : ما رأيت أطول حزنا من الحسن ، وما رأيته قط إلا حسبته حديث عهد بمصيبة ، وقال مسمع : لو رأيت الحسن لقلت : قد بث عليه حزن الخلائق . وقال يزيد بن حوشب : ما رأيت أحزن من الحسن وعمر بن عبد العزيز ، كأن النار لم تخلق إلا لهما . وقال ابن أسباط : مكث الحسن ثلاثين سنة لم يضحك ، وأربعين سنة لم يمزح . وقال : ما سمع الخلائق بعورة بادية ، وعين باكية مثل يوم القيامة . وقال : ابن آدم ! إنك ناظر غداً إلى عملك يوزن خيره وشره ، فلا تحقرن شيئا من الشر أن تتقيه ، فانك إذا رأيته غداً فى ميزانك سرك[1] مكانه . وقال : ذهبت الدنيا وبقيت أعمالكم قلائد فى أعناقكم وقال : ابن آدم ! بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا ، وهذا مأثور عن لقمان أنه قاله لولده .

وقال الحسن : تجد الرجل قد لبس الأحمر والأبيض وقال : هلموا فانظروا إلى ، قال الحسن : قد رأيناك يا أفسق الفاسقين فلا أهلا بك ولا سهلا ، فأما أهل الدنيا فقد اكتسبوا بنظرهم إليك مزيد حرص على دنياهم ، وجرأة على شهوات الغنى فى بطونهم وظهورهم . وأما أهل الآخرة فقد كرهوك ومقتوك . وقال : إنهم وإن هملجت بهم البراذين ، وزفرت بهم البغال ، ووطئت أعقابهم الرجال ، إن ذل المعاصى لا يفارق رقابهم ، يأبى الله إلا أن يذل من عصاه .

وقال فرقد : دخلنا على الحسن فقلنا : يا أبا سعيد : ألا يعجبك من محمد بن الاهتم ؟ فقال : ماله ؟ فقلنا : دخلنا عليه آنفا وهو يجود بنفسه فقال : انظروا إلى ذاك الصندوق - وأومأ إلى صندوق فى جانب بيته - فقال : هذا الصندوق فيه ثمانون ألف دينار - أو قال : درهم - لم أؤد منها زكاة ، ولم أصل منها رحما ، ولم يأكل منها [محتاج] . فقلنا : يا أبا عبد الله ، فلمن كنت تجمعها ؟ قال : لروعة الزمان ، ومكاثرة الأقران ، وجفوة السلطان . فقال : انظروا من أين أتاه شيطانه تخوفه روعة زمانه ،

---

(١) كذا بالأصل وفيه نقص يظهر بالتأمل .

ومكاثرة أقرانه ، وجفوة سلطانه ؟ ثم قال : أيها الوارث : لاتخدعن كما خدع صويحبك بالأمس ، جاءك هذا المال لم تتعب لك فيه يمين ، ولم يعرق لك فيه جبين ، جاءك ممن كان له جموعا منوعا ، من باطل جمعه ، من حق منعه ، ثم قال الحسن : إن يوم القيامة لذو حسرات ، الرجل يجمع المال ثم يموت ويدعه لغيره فيرزقه الله فيه الصلاح والانفاق فى وجوه البر ، فيجد ماله فى ميزان غيره . وكان الحسن يتمثل بهذا البيت فى أول النهار يقول :

وما الدنيا بباقية لحى * ولا حىٌ على الدنيا بباقِ

وبهذا البيت فى آخر النهار :

يسرُّ الفتى ما كان قدمَ منْ تقى * إذا عرفَ الداءَ الذى هو قاتلهُ

ولد الحسن فى خلافة عمر بن الخطاب وأتى به إليه فدعا له وحنكه . ومات بالبصرة فى سنة عشر ومائة والله سبحانه وتعالى أعلم .

محمد بن سيرين

أبو بكر بن أبى عمر والأنصارى ، مولى أنس بن مالك النضرى ، كان أبوه من سبى عين التمر أسره فى جملة السبى خالد بن الوليد فاشتراه أنس ثم كاتبه . وقد ولد له من الاخيار جماعة ، محمد هذا ، وأنس بن سيرين ، ومعبد ، ويحيى ، وحفصة ، وكريمة ، وكلهم تابعيون ثقات أجلاء ، رحمهم الله تعالى .

قال البخارى : ولد محمد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان . وقال هشام بن حسان : هو أصدق من أدركت من البشر . وقد تقدم هذا كله فيما ذكره المؤلف .

كان ابن سيرين إذا ذكر عنده رجل بسوء ذكره بأحسن مايعلم . وقال خلف بن هشام : كان محمد بن سيرين قد أعطى هديا وسمتا وخشوعا ، وكان الناس إذا رأوه ذكروا الله . ولما مات أنس بن مالك أوصى أن يغسله محمد بن سيرين ـ وكان محمد محبوسا ـ فقالوا له فى ذلك ، فقال : أنا محبوس فقالوا : قد استأذنا الأمير فى إخراجك ، قال : إن الأمير لم يحبسنى ، إنما حبسنى من له الحق ، فأذن له صاحب الحق فغسله . وقال يونس : ماعرض لمحمد بن سيرين أمران إلا أخذ بأوثقهما فى دينه ، وقال : إنى لأعلم الذنب الذى حملت بسببه ، إنى قلت يوما لرجل : يامفلس ، فذكر هذا لأبى سليمان الدارانى فقال : قلت ذنوبهم فعرفوا من أين أتوا . ومثلنا قد كثرت ذنوبنا فلم ندر من أين نؤتى ، ولا بأى ذنب نؤخذ . وكان إذا دعى إلى وليمة يدخل منزله فيقول : ايتونى بشربة سويق فيشربها ويقول : إنى أكره أن أحمل جوعى إلى موائدهم وطعامهم : وكان يدخل السوق نصف النهار فيكبر الله ويسبحه ويذكره ويقول : إنها ساعة غفلة الناس ، وقال : إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً

ن قلبه يأمره وينهاه . وقال : ظلم لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما تعلم منه وتكتم خيره .
وقال : العزلة عبادة ، وكان إذا ذكر الموت مات منه كل عضو على حدته . وفى رواية كان يتغير ونه وينكر حاله ، حتى كأنه ليس بالذى كان ، وكان إذا سئل عن الرؤيا قال للسائل : اتق الله فى اليقظة ولا يغرك ما رأيت فى المنام . وقال له رجل : رأيت كأنى أصب الزيت فى الزيتون ، فقال : فتش على امرأتك فإنها أمك ، ففتش فإذا هى أمه . وذلك أن الرجل أخذ من بلاده صغيراً سبياً ثم مكث فى بلاد الاسلام إلى أن كبر ، ثم سبيت أمه فاشتراها جاهلا أنها أمه ، فلما رأى هذه الرؤيا وذكرها لابن سيرين فأمره أن يفتش على ذلك ، ففتش فوجد الأمر على ما ذكره . وقال له آخر : رأيت كأنى دست ـ أو قال وطئت ـ تمرة فخرجت منها فأرة . فقال له : تتزوج امرأة ـ أو قال . تطأ امرأة ـ صالحة تلد بنتا فاسقة ، فكان كما قال . وقال له آخر : رأيت كأن على سطح بيتى حبات شعير فجاء ديك فلقطها ، فقال له : إن سرق لك شيء فى هذه الأيام فأتنى . فوضعوا بساطاً على سطحهم فسرق ، فجاء إليه فأخبره ، فقال : اذهب إلى مؤذن محلتك فخذه منه ، فجاء إلى المؤذن فأخذ البساط منه . وقال له رجل : رأيت الحمام تلقط الياسمين . فقال : مات علماء البصرة . وأتاه رجل فقال : رأيت رجلا عريانا واقفا على مزبلة وبيده طنبور يضرب به ، فقال له ابن سيرين : لا تصلح هذه الرؤيا فى زماننا هذا إلا للحسن البصرى ، فقال : الحسن هو والله الذى رأيت . فقال : نعم ، لأن المزبلة الدنيا وقد جعلها تحت رجليه ، وعريه تجرده عنها ، والطنبور يضرب به هى المواعظ التى يقرع بها آذان الناس . وقال له آخر : رأيت كأنى أسنانى والدم يسيل . فقال له : أنت رجل تقع فى أعراض الناس وتأكل لحومهم وتخرج فى بابه وتأتيه [1].

وقال له آخر : رأيت كأنى أرى اللؤلؤ فى الحمأة ، فقال له : أنت رجل تضع القرآن والعلم عند غير أهله ومن لا ينتفع به . وجاءته امرأة فقالت : رأيت كأن سنوراً أدخل رأسه فى بطن زوجى فأخذ منه قطعة ، فقال لها ابن سيرين : سرق لزوجك ثلاثمائة درهم ، وستة عشر درهما ، فقالت : صدقت من أين أخذته ؟ فقال : من هجاء حروفه وهى حساب الجمل ، فالسين ستون ، والنون خمسون ، والواو ستة والراء مائتان ، وذلك ثلاثمائة وستة عشر ، وذكرت السنور أسود فقال : هو عبد فى جواركم ، فالزموا عبداً أسود كان فى جوارهم وضرب فأقر بالمال المذكور . وقال له رجل : رأيت لحيتى قد طالت وأنا أنظر إليها . فقال له أمؤذن أنت ؟ قال : نعم ! قال له : اتق الله ولا تنظر إلى دور الجيران . وقال له آخر : رأيت كأن لحيتى قد طالت حتى جززتها ونسجتها كساء وبعته فى السوق . فقال له : اتق الله فانك شاهد زور . وقال له آخر : رأيت كأنى آكل أصابعى ، فقال له تأكل من عمل يدك . وقال لرجل

---

(١) كذا الأصل ، وفيه تحريف .

انظر هل ترى فى المسجد أحـدا ؟ فذهب فنظر ثم رجع إليه فقال : ليس فى المسجد أحـد ، فقال : أليس أمرتك أن تنظر هل ترى أحداً قد يكون فى المسجد من الأمراء[1] ؟ . وقال عن رجل ذكر له ذلك الأسود ، ثم قال : أستغفر الله ! ما أرانى إلا قـد اغتبت الرجل ـ وكان الرجل أسود ـ وقال : اشترك سبعة فى قتل امرأة فقتلهم عمر ، فقال لو أن أهل صنعاء اشتركوا فى قتلها لأبدت خضراءهم.

وهيب بن منبه اليماني

تابعى جليل ، وله معرفة بكتب الأوائل ، وهو يشـبه كعب الأحبار ، وله صـلاح وعبادة ، ويروى عنه أقوال حسنة وحـكم ومواعظ ، وقد بسطنا ترجمته فى كتابنا التكميل ولله الحمـد . قال الواقـدى : توفى بصنعاء سنة عشر ومائة ، وقال غيره : بعـدها بسنة ، وقيل بأكثر ، والله أعلم . ويزعم بعض الناس أن قبره غربى بصرى بقرية يقال لها عصم ، ولم أجد لذلك أصـلا ، والله أعلم . انتهى ما ذكره المؤلف .

فصل

أدرك وهب بن منبـه عـدة من الصحابة ، وأسـند عن ابن عباس وجابر والنعمان بن بشير . وروى عن معاذ بن جبل وأبى هريرة ، وعن طاوس . وعنه من التابعين عدة . وقال وهب : مثل من تعلم علماً لا يعمل به كمثل طبيب معه شفاء لا يتداوى به . وعن منير مولى الفضل بن أبى عياش قال : كنت جالساً مع وهب بن منبه فأتاه رجل فقال له : إنى مررت بفـلان وهو يشتمك ، فغضب وقال : ما وجد الشيطان رسولا غيرك ؟ فما برحت من عنده حتى جاءه ذلك الشاتم فسلم على وهب فرد عليـه السلام ، ومد يده إليه وصافحه وأجلسه إلى جنبه . وقال ابن طاوس : سمعت وهبا يقول : ابن آدم احتل لدينك فان رزقك سيأتيك . وقال وهب : كسى أهل النار والعرى كان خيراً لهم ، وطعموا والجوع كان خيراً لهم ، وأعطوا الحياة والموت كان خيراً لهم . وقال : قال داود عليه السلام : اللهم أيما فقير سأل غنيا فتصامّ عنه ، فأسألك إذا دعاك فلا تجبه ، وإذا سألك فلا تعطه . وقال : قرأت فى بعض كتب الله : ابن آدم ، لاخير لك فى أن تعلم مالم تعلم ، ولم تعمل بما قد علمت ، فان مثلك كمثل رجل احتطب حطبا فحزم حزمـة فذهب يحملها فعجز عنها فضم إليها أخرى . وقال : إن لله ثمانية عشر ألف عالم ، الدنيا منها عالم واحد ، وما العمارة فى الخراب إلا كفسطاط فى الصحراء .

وروى الطبرانى عنه أنه قال : إذا أردت أن تعمل بطاعة الله عز وجل فاجتهد فى نصحك وعملك لله ، فان العمل لا يقبل ممن ليس بناصح ، والنصح لله لا يكمل إلا بطاعة الله ، كمثل الثمرة الطيبة ريحها وطعمها ، كذلك مثل طاعة الله ، النصح ريحها ، والعمل طعمها ، ثم زين طاعتك بالحلم

---

(١) كذا الاصل ، وفيه تحريف .

والعقل ، والفقه والعمل ، ثم أكبر نفسك عن أخلاق السفهاء وعبيد الدنيا ، وعبّدها على أخلاق الأنبياء والعلماء العاملين ، وعوّدها فعل الحكماء ، وامنعها عمل الأشقياء ، وألزمها سيرة الأتقياء ، واعزبها عن سبل الخبثاء ، وما كان لك من فضل فأعن به من دونك ، وما كان فيمن دونك من نقص فأعنه عليه حتى يبلغه ، فإن الحكيم من جمع فواضله وعاد بها على من دونه ، وينظر فى نقائص من دونه فيقومها ويرجيها حتى يبلغه ، إن كان فقيها حمل من لا فقه له إذا رأى أنه يريد صحابته ومعونته وإذا كان له مال أعطى منه من لا مال له ، وإذا كان مصلحا استغفر للمذنب ورجا توبته ، وإذا كان محسنا أحسن إلى من أساء إليه واستوجب بذلك أجره ، ولا يغتر بالقول حتى يحسن منه الفعل ، فإذا أحسن الفعل نظر إلى فضل الله وإحسانه إليه ، ولا يتمنى الفعل حتى يفعله ، فإذا بلغ من طاعة الله مبلغا حمد الله على ما بلغ منها ثم طلب ما لم يبلغ منها ، وإذا ذكر خطيئة سترها عن الناس واستغفر الله الذى هو قادر على أن يغفرها ، وإذا علم من الحكمة شيئا لم يشبعه بل يطلب ما لم يبلغ منها ، ثم لا يستعين بشئ من الكذب ، فإن الكذب كالأكلة فى الجسد تكاد تأكله ، أو كالأكلة فى الخشب ، يرى ظهرها حسنا وجوفها نخر تغر من يراها حتى تنكسر على ما فيها وتهلك من اغتر بها . وكذلك الكذب فى الحديث لا يزال صاحبه يغتر به ، يظن أنه معينه على حاجته ورائد له فى رغبته ، حتى يعرف ذلك منه ، ويتبين لذوى العقول غروره ؛ فتستنبط الفقهاء ما كان يستخفى به عنه ، فإذا أطلعوا على ذلك من أمره وتبين لهم ، كذبوا خبره ، وأباروا شهادته ، واتهموا صدقه ، وحقروا شأنه ، وأبغضوا مجلسه ، واستخفوا منه بسرائرهم ، وكتموه حديثهم ، وصرفوا عنه أماناتهم ، وغيبوا عنه أمرهم ، وحذروه على دينهم ومعيشتهم ، ولم يحضروه شيئا من محاضرتهم ، ولم يأمنوه على شئ من سرّهم ، ولم يحكموه فيما شجر بينهم .

وروى عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب قال : قال لقمان لابنه : إن مثل أهل الذكر والغفلة كمثل النور والظلمة . وقال : قرأت فى التوراة أربعة أسطر متواليات : من قرأ كتاب الله فظن أنه لا يغفر له فهو من المستهزئين بآيات الله ، ومن شكا مصيبة نزلت به فإنما يشكو ربه عز وجل ، ومن أسف على ما فاته من الدنيا سخط قضاء ربه عز وجل ، ومن تضعضع لغنى ذهب ثلث دينه .

وقال وهب : قرأت فى التوراة : أيما دار بنيت بقوة الضعفاء جعلت عاقبتها إلى الخراب ، وأيما مال جمع من غير حله أسرع الفقر إلى أهله .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا معمر عن محمد بن عمرو قال : سمعت وهب بن منبه يقول : وجدت فى بعض الكتب : يقول الله تعالى : إذا أطاعنى عبدى استجبت له من قبل أن يدعونى ، وأعطيته من قبل أن يسألنى ، وإن عبدى إذا أطاعنى لو أن أهل السموات وأهل الأرض أجلبوا

عليه جعلت له المخرج من ذلك ، و إن عبدى إذا عصانى قطعت يديه من أبواب السماء ، وجعلته فى الهواء فلا يمتنع من شئ أراده من خلق . وقال ابن المبارك أيضا : حدثنا بكار بن عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه يقول : قال الله تعالى فيما يعيب به أحبار بنى إسرائيل : تفقهون لغير الدين ، وتتعلمون لغير العمل ، وتبتاعون الدنيا بعمل الآخرة ، وتلبسون جلود الضأن ، وتحملون نفس الذباب ، وتتنخلون الغذاء من شرابكم ، وتبتلعون أمثال الجبال من الحرام ، وتثقلون الدين على الناس أمثال الجبال ، ثم لا تعينوهم برفع الخناصر ، تطيلون الصلاة وتبيضون الثياب ، تنتقصون بذلك مال اليتيم والأرملة ، فبعزتى حلفت لأضربنكم بفتنة يضل فيها رأى ذى الرأى وحكمة الحكيم .

وقال الطبرانى : حدثنا عبد الله بن محمد الصنعانى حدثنا همام بن مسلمة حدثنا غوث بن جابر حدثنا عقيل بن معقل قال : سمعت وهب بن منبه يقول: إن الله ليس يحمد أحداً على طاعة ، ولا ينال أحد من الله خيراً إلا برحمته ، وليس يرجو الله خير الناس ولا يخاف شرهم ، ولا يعطف الله على الناس إلا برحمته إياهم ، إن مكروا به أباد مكرهم ، و إن خادعوه رد عليهم خداعهم ، و إن كاذبوه كذب بهم ، و إن أدبروا قطع دابرهم ، و إن أقبلوا قبل منهم ولا يقبل منهم شيئا من حيلة ، ولا مكر ولا خداع ولا سخط ولا مشادة ، و إنما يأتى بالخير من الله تعالى رحمته ، ومن لم يبتغ الخير من قبل رحمته لا يجد بابا غير ذلك يدخل منه ، فان الله تعالى لا ينال الخير منه إلا بطاعته ، ولا يعطف الله على الناس شئ إلا تعبدهم له ، وتضرعهم إليه حتى يرحمهم ، فاذا رحمهم استخرجت رحمته منه حاجتهم ، وليس ينال الخير من الله من وجه غير ذلك ، وليس إلى رحمة الله سبيل تؤتى من قبله إلا تعبد العباد له وتضرعهم إليه ، فان رحمة الله عز وجل باب كل خير يبتغى من قبله ، و إن مفتاح ذلك الباب التضرع إلى الله عز وجل والتعبد له ، فمن ترك المفتاح لم يفتح له ، ومن جاء بالمفتاح فتح له به ، وكيف يفتح الباب بغير مفتاح ، ولله خزائن الخير كله ، وباب خزائن الله رحمته ، ومفتاح رحمة الله التذلل والتضرع والافتقار إلى الله ، فمن حفظ ذلك المفتاح فتحت له الخزائن ودخل ، فله فيها ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين وفيها ما تشاؤن وما تدعون فى مقام أمين ، لا يحولون عنه ولا يخافون ولا ينصبون ولا يهرمون ولا يفتقرون ولا يموتون ، فى نعيم مقيم ، وأجر عظيم ، وثواب كريم ، نزلا من غفور رحيم .

وقال سفيان بن عيينة : قال وهب : أعون الأخلاق على الدين الزهادة فى الدنيا ، وأسرعها رداً اتباع الهوى وحب المال والشرف ، ومن حب المال والشرف تنتهك المحارم ، ومن انتهاك المحارم يغضب الرب ، وغضب الله ليس له دواء . وقال : يقول الله تعالى فى بعض كتبه يعتب به بنى إسرائيل : إنى إذا أطعت رضيت ، و إذا رضيت باركت ، وليس لبركتى نهاية ، و إذا عصيت غضبت وإذا غضبت لعنت ، و إن اللعنة منى تبلغ السابع من الولد . وقال : كان فى بنى إسرائيل رجل

عصى الله عز وجل ما ئتى سنة ، ثم مات فأخذوا برجله فألقوه على مزبلة ، فأوحى الله إلى موسى : أن صل عليه ، فقال : يارب إن بنى إسرائيل شهدوا أنه قـد عصاك مائتى سنة ، قال الله له : نعم هكذا كان ، إلا أنه كان كلما نشر التوراة ورأى أسم محمد ص قبّله ووضعه على عينيه وصلى عليه ، فشكرت ذلك له فغفرت له ذنوبه وزوجته سبعين حوراء . كذا روى وفيه علل ، ولا يصح مثله ، وفى إسناده غرابة وفى متنه نكارة شـديدة . وروى ابن إدريس عن أبيـه عن وهب قال : قال موسى : يارب احبس عنى كلام الناس ، فقال الله له : يا موسى ما فعلت هذا بنفسى ؛ وقال لما دعى يوسف إلى الملك وقف بالباب وقال : حسبى دينى من دنياى ، حسبى ربى من خلقه ، عز جارك وجل ثناؤك ، ولا إله غيرك ثم دخل عـلى الملك ، فلما نظر إليه الملك نزل عن سريره وخر له ساجداً ثم أقعده الملك معه على السرير ، وقال : [إنك اليوم لدينا مكين أمين] فقال : [اجعلنى على خزائن الارض إنى حفيظ عليم] حفيظ بهذه السنين وما استودعتنى فيها ، عليم بلغة من يأتينى .

وقال الأمام أحمد : حدثنا منذر بن النعمان الأفطس أنه سمع وهبا يقول : لمـا أمر الله الحوت أن لا يضره ولا يكلمه ـ يعنى يونس ـ قال : [فلو لا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون] قال : من العابدين قبل ذلك ، فذكره الله بعبادته المتقدمة ، فلما خرج من البحر نام فأنبت الله شجرة من يقطين ـ وهو الدباء ـ فلما رآها قد أظلته ورأى خضرتها فأعجبته ، ثم نام فاستيقظ فاذا هى قـد يبست ، فجعل يتحزن عليها ، فقيل له : أنت لم تخلق ولم تسق ولم تنبت وتحزن عليها ، وأنا الذى خلقت مائة ألف من الناس أو يزيدون ثم رحمتهم فشق ذلك عليك .

وقال الأمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد الغسانى حدثنا رباح حدثني عبد الملك بن عبد المجيد ابن خشك عن وهب قال : لمـا أمر نوح أن يحمل من كل زوجين اثنين ، قال : يارب كيف أصنع بالأسـد والبقر ؟ وكيف أصنع بالعناق والذئب ؟ وكيف أصنع بالحمام والهر ؟ قال : من ألقى بينهـم العداوة ؟ قال : أنت يارب ، قال : فانى أؤلف بينهم حتى لا يتضررون .

وقال وهب لعطاء الخراسانى : ويحك ياعطاء ، ألم أخـبر أنك تحمـل علمك إلى أبواب الملوك وأبناء الدنيـا ، وأبواب الأمراء ؟ ويحك ياعطاء ، أتأتى من يغلق عنك بابه ، ويظهر لك فقره ، ويوارى عنك غناه ، وتترك باب من يقول : [ادعونى أستجب لـكم] ؟ ويحك ياعطاء ، إن كان يغنيك ما يكفيك فأوهى ما فى الدنيـا يكفيك ، وإن كان لا يغنيك ما يكفيك فليس فى الدنيا شئ يكفيك ، ويحك ياعطاء ، إنما بطنك بحر من البحور ، وواد من الأودية ، لا يملؤه شئ إلا التراب . وسئل وهب عن رجلين يصليان ، أحـدهما أطول قنوتا وصمتا ، والآخر أطول سجودا ، فأيهما أفضل ؟ فقال : أنصحهما لله عز وجل . وقال : من خصال المنافق أن يحب الحمـد ويكره الذم ، أى

يحب أن يحمد على مالم يفعل ، ويكره أن يذم بما فيه . قال : وقال لقمان لابنه : يابنى اعقل عن الله فإن أعقل الناس من عقل عن الله ، وإن الشيطان ليفر من العاقل ما يستطيع أن يكايده . وقال لرجل من جلسائه : ألا أعلمك طباً لا يتعايافيه الأطباء ، وفقها لا يتعايافيه الفقهاء ، وحلما لا يتعايافيه الحلماء ، قال : بلى يا أبا عبد الله ، قال : أما الطب فلا تأكل طعاما إلا سميت الله على أوله وحمدته على آخره ، وأما الفقه فإن سئلت عن شئ عندك فيه علم فأخبر بما تعلم وإلا فقل : لاأدرى ، وأما الحلم فأكثر الصمت إلا أن تسأل عن شئ . وقال : إذا كان فى الصبى خلقان ، الحياء والرهبة ، طمع فى رشده.

وقال : لما بلغ ذو القرنين مطلع الشمس قال له ملك هناك : صف لى الناس ، فقال محادثتك من لا يعقل كمن يغنى الموتى ، ومحادثتك من لا يعقل كمن يبل الصخر الأصم كى يلين ، وكمن يطبخ الحديد يلتمس أدمه ، ومحادثتك من لا يعقل كمن يضع المائدة لأهل القبور ، ونقل الحجارة من رؤس الجبال أيسر من محادثة من لا يعقل . وقال : قرأت فى بعض الكتب أن منادياً ينادى من السماء الرابعة كل صباح : أبناء الأربعين زرع قد دنا حصاده ، أبناء الخمسين ما ذا قدمتم ؟ أبناء الستين لاعذر لكم ، ليت الخلق لم يخلقوا ، وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، قد أتتكم الساعة فخذوا حذركم . وقال : قال دانيال : يالهفى على زمن يلتمس فيه الصالحون فلا يوجد منهم أحد ، إلا كالسنبلة فى أثر الحاصد ، أو كالخصلة فى أثر القاطف ، يوشك نوائح أولئك وبواكيهم أن تبكيهم .

وروى عبد الرزاق عن عبد الصمد بن معقل . قال : سمعت وهبا يقول فى قوله تعالى : [ونضع الموازين القسط ليوم القيامة] قال : إنما يوزن من الأعمال خواتيمها ، وإذا أراد الله بعبد خيراً ختم له بخير عمله ، وإذا أراد الله بعبد شراً ختم له بشر عمله . وقال وهب : إن الله تعالى لما فرغ من الخلق نظر إليهم حين مشوا على وجه الأرض فقال : أنا الله لا إله إلا أنا الذى خلقتكم وأفنيكم بحكمى حق قضائى ونافذ أمرى ، أنا أعيدكم كما خلقتكم ، وأفنيكم حتى أبقى وحدى ، فإن الملك والخلود لايحق إلا لى ، أدعو خلقى وأجمعهم بقضائى ، يوم أحشر أعدائى ، وتجل القلوب من هيبتى ، وتتبرأ الآلهة ممن عبدها دونى .

قال : وذكر وهب أن الله لما فرغ من خلقه يوم الجمعة أقبل يوم السبت فمدح نفسه بما هو أهله وذكر عظمته وجبروته وكبرياءه ، وسلطانه وقدرته وملكه وربوبيته ، فأنصت كل شئ وأطرق له ، فقال : أنا الملك لا إله إلا أنا ذو الرحمة الواسعة والأسماء الحسنى ، أنا الله لا إله إلا أنا ذو العرش المجيد والأمثال العلا ، أنا الله لا إله إلا أنا ذو الطول والمن والآلاء والكبرياء ، أنا الله لا اله إلا أنا بديع السموات والأرض ، ملأت كل شئ عظمتى ، وقهر كل شئ ملكى ، وأحاطت بكل شئ قدرتى ، وأحصى كل شئ علمى ، ووسعت كل شئ رحمتى ، وبلغ كل شئ لطفى ، فأنا الله يا معشر الخلائق

فاعرفوا مكانى ، فليس شى فى السموات والأرضين إلا أنا ، وخلقى كلهم لا يقوم ولا يدوم إلا بى ، ويتقلب فى قبضتى ، و يعيش برزقى ، وحياته وموته و بقاؤه وفناؤه بيدى ، فليس له محيص ولا ملجأ غيرى ، لو تخليت عنه طرفة عين لدمر كله ، وكنت أنا على حالى لاينقصنى ذلك شيئا ، ولا ينقص ذلك ملكى شيئا ، وأنا مستغن بالعز كله فى جبروتى وملكى ، و برهان نورى ، وشديد بطشى ، وعلو مكانى ، وعظمة شأنى ، فلا شئ مثلى ، ولاإله غيرى ، وليس ينبغى لشئ خلقته أن يعدل بى ولا ينكرنى ، وكيف ينكرنى من خلقته يوم خلقته على معرفتى ؟ ، أم كيف يكابرنى من قهر قهره ملكى ؟ أم كيف يعجزنى من ناصيته بيدى ؟ أم كيف يعدل بى من أعمره وأسقم جسمه وأنقص عقله وأتوفى نفسه وأخلقه وأهرمه فلا يمتنع منى ؟ أم كيف يستنكف عن عبادتى عبدى وابن عبدى وابن أمتى ، ومن لاينسب إلى خالق ولا وارث غيرى ؟ أم كيف يعبد دونى من تخلقه الأيام ، و يفنى أجله اختلاف الليل والنهار ؟ وهما شعبة يسيرة من سلطانى ؟ فالىّ إلى يا أهل الموت والفناء ، لا إلى غيرى ، فانى كتبت الرحمة على نفسى وقضيت العفو والمغفرة لمن استغفرنى ، أغفر الذنوب جميعا ، صغيرها وكبيرها لمن استغفرنى ، ولا يكبر ذلك على ولا يتعاظمنى ، فلا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ولاتقنطوا من رحمتى ، فان رحمتى سبقت غضبى ، وخزائن الخير كلها بيدى ، ولم أخلق شيئا مما خلقت لحاجة كانت منى إليه ، ولكن لأبين به قدرتى ، ولينظر الناظرون فى ملكى ، و يتدبروا حكمتى ، وليسبحوا بحمدى و يعبدونى لايشركوا بى شيئا ، ولتعنو الوجوه كلها إلى .

وقال أشرس عن وهب قال قال داود : إلهى أين أجدك ؟ قال عند المنكسرة قلوبهم من مخافتى .
وقال كان رجل من بنى إسرائيل صام سبعين أسبوعا يفطر فى كل أسبوع يوماً وهو يسأل الله أن يريه كيف يغوى الشيطان الناس ، فلما أن طال ذلك عليه ولم يجب ، قال فى نفسه : لو أقبلت على خطيئتى وعلى ذنوبى وما بينى و بين ربى لكان خيراً من هذا الأمر الذى أطلب ، ثم أقبل على نفسه فقال: يانفس من قبلك أتيت ، لو علم الله فيك خيراً لقضى حاجتك . فأرسل الله ملكا إلى نبيهم : أن قل لفلان العابد : إزراؤك على نفسك وكلامك الذى تكلمت به ، أعجب إلى مما مضى من عبادتك ، وقد أجاب الله سؤالك ، وفتح بصرك فانظر الآن ، فنظر فاذا أحبولة لابليس قد أحاطت بالأرض، و إذا ليس أحد من بنى آدم الاوحوله شياطين مثل الذباب ، فقال : إى رب ، ومن ينجو من هؤلاء ؟ قال صاحب القلب الوادع اللين .

وقال وهب : كان رجل من السائحين فأتى على ارض فيها قثاء فدعته نفسه إلى أخذ شئ منه ، فعاقبها فقام مكانه يصلى ثلاثة أيام ، فمرّ به رجل وقد لوّحته الشمس والريح ، فلما نظر إليه قال :

سبحان الله ! ! لـكأنما أحرق هـذا الانسان بالنار ، فقال السائح : هكذا بلغ منى ما ترى خوف النار ، فكيف بى لو قد دخلتها ؟ !

وقال : كان رجـل من الأولين أصاب ذنبا فقال : لله علىّ أن لا يظلنى سقف بيت ابداً حتى تأتينى براءة من النار ، فكان بالصحراء فى الحر والقر ، فمر به رجل فرأى شدة حاله فقال : يا عبد الله ما بلغ بك ما أرى ؟ فقال : بلغ ماترى ذكر جهنم ، فكيف بى اذا أنا وقعت فيها ! ؟ . وقال : لايكون البطال من الحكماء أبدا ، ولا يرث الزناة من ملكوت السماء . وقال وهب فى موعظته : اليوم يعظ السعيد ، ويستكثر من منافعه اللبيب ، يا ابن آدم إنما جمعت من منافع هذا اليوم لدفع ضرر الجهالة عنك ، وإنما أوقـدت فيـه مصابيح الهدى لتنبه لحز بك ، فلم أر كاليوم ضل مع نوره متحير داع لمداواة سليم ، يا ابن آدم ! إنه لا أقوى من خالق ، ولا أضعف من مخلوق ، ولا أقدر ممن طلبته فى يده ، ولاأضعف ممن هو فى يد طالبه ، يا ابن آدم إنه قد ذهب منك ما لا يرجع إليك ، وأقام عندك ما سيذهب ، فما الجزع مما لابد منه ؟ وما الطمع فيما لا يرتجى ؟ وما الحيلة فى بقاء ما سيذهب ؟ يا ابن آدم اقصر عن طلب مالا تدرك ، وعن تناول مالا تناله ، وعن ابتغاء ما لا يوجـد . واقطع الرجاء عنك كما قعدت به عنك الأشياء ، واعلم أنه رُبّ مطلوب هو شر لطالبه ، يا ابن آدم إنما الصبر عند المصيبة ، وأعظم من المصيبة سوء الخلق منها ، يا ابن آدم أى أيام الدهر ترتجى ؟ يوم يجئ فى عتم أو يوم تستأخر عاقبته عن أوان مجيئه ؟ فانظر إلى الدهر تجده ثلاثة أيام ، يوم مضى لاترجوه ، ويوم لا بد منه ، ويوم يجئ لاتأمنه ، فأمس شاهد عليك مقبول ، وأمين مؤد ، وحكيم مؤدب ، قد فجعك بنفسه ، وخلف فيك حكمته . واليوم صديق مودع ، كان طويل الغيبة عنك ، وهو سريع الظعن إياك ولم يأته ، وقد مضى قبله شاهد عدل ، فان كان ما فيه لك فاشفعه بمثله أوثق لك باجتماع شهادتهما عليك . يا ابن آدم إنما أهل الدنيا سفر لايحلون عقد رحالهم إلا فى غيرها ، وإنما يتبلغون بالعوارى فما أحسنه ـ يعنى الشكر ـ للمنعم والتسليم للمعاد ، يا ابن آدم إنما الشئ من مثله وقد مضت قبلنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء الفرع بعد ذهاب أصله ؟ ! إنما يقر الفرع بعد الاصل . يا ابن آدم إنه لا أعظم رزية فى عقله ممن ضيع اليقين وأخطأ العمل . أيها الناس ! إنما البقاء بعد الفناء ، وقد خلقنا ولم نكن ، وسنبلى ثم نعود ، ألا وإنما العوارى اليوم والهنات غـدا ، ألا وإنه قـد تقارب منا سلب فاحش ، أو عطاء جزيل ، فأصلحوا ما تقدمون عليه بما تظعنون عنه . أيها الناس !! إنما أنتم فى هذه الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا ، وإن ما أنتم فيه من دنيا كم نهب للمصائب ، لا تنالون فيها نعمة إلا بفراق الأخرى ، ولا يستقبل منكم معمر يوما من عمره إلا بهدم آخر من أجله ، ولا يتخذ له زيادة فى ماله إلا بنفاد ماقبله من رزقه ، ولا يحيى له أثر إلا مات له أثر . نسأل الله أن يبارك لنا ولـكم فيما مضى من هـذه العظة .

وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا كثير بن هشام حدثنا جعفر بن مروان عن وهب بن منبه . عن الطريق ولم تستقم [1] لسائقها ، وإن فتر سائقها حزنت ، ولم تتبع قائدها : فاذا اجتمعا استقامت طوعاً أو كرها ، ولا تستطيع الدين إلا بالطوع والكره ، وإن كان كلما كره الانسان شيئا من دينه تركه ، أوشك أن لا يبقى معه من دينه شئ . وقال وهب : إن من حكمة الله عز وجل أنه خلق الخلق مختلفاً خلقه ومقاديره ، فمنه خلق يدوم مادامت الدنيا ، لاتنقصه الأيام ولا تهرمه وتبليه ويموت ، ومنه خلق لا يطعم ولا يرزق ، ومنه خلق يطعم ويرزق ، خلقه الله وخلق معه رزقه ، ثم خلق الله من ذلك خلقا فى البر وخلقاً فى البحر ، ثم جعل رزق ماخلق فى البحر وفى البر ، ولا ينفع رزق دواب البر دواب البحر ، ولا رزق دواب البحر دواب البر ، لو خرج مافى البحر إلى البر هلك ، ولو دخل مافى البر إلى البحر هلك ، ففى ذلك ممن خلق الله فى البر والبحر عبرة لمن أهمته قسمة الأرزاق والمعيشة فليعتبر ابن آدم فيما قسم الله من الأرزاق ، فانه لا يكون فيها شئ إلا كما قسمه سبحانه بين خلقه ، لا يستطيع أحد أن يغيرها ولا أن يخلطها ، كما لا تستطيع دواب البر أن تعيش بأرزاق دواب البحر ، ولا دواب البحر بأرزاق دواب البر ، ولو اضطرت اليه هلكت كلها ، فاذا استقرت كل دابة منها فيما رزقت أصلحها ذلك وأحياها ، وكذلك ابن آدم إذا استقر وقنع بما قسم الله له من رزقه أحياه ذلك وأصلحه ، فاذا تعاطى رزق غيره نقصه ذلك وضره وفضحه .

وقال لعطاء الخراسانى : كان العلماء قبلكم قد استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم ، فكانوا لا يلتفتون إلى أهل الدنيا ، ولا إلى مافى أيديهم ، فكان أهل الدنيا يبذلون إليهم دنياهم رغبة فى علمهم ، فأصبح أهل العلم فينا اليوم يبذلون لأهل الدنيا علمهم رغبة فى الدنيا ، فأصبح أهل الدنيا قد زهدوا فى علمهم لما رأوا من سوء موضعه عندهم ، فاياك ياعطاء وأبواب السلطان فان عند أبوابهم فتنا كمبارك الابل ، لاتصيب من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينك مثله .

وقال إبراهيم الجنيد : حدثنا عبد الله بن أبى بكر المقدمى حدثنا جعفر بن سليمان حدثنا عمر بن عبد الرحمن الصنعانى قال : سمعت وهب بن منبه يقول : لقى عالم عالماً هو فوقه فى العلم ، فقال : كيف صلاتك ؟ فقال : ما أحسب أحداً سمع بذكر الجنة والنار يأتى عليه ساعة لا يصلى فيها ، قال : فكيف ذكرك للموت ؟ قال : ما أرفع قدما ولا أضع أخرى إلا رأيت أنى ميت . فقال : فكيف صلاتك أنت أيها الرجل ؟ فقال : إنى لأصلى وأبكى حتى ينبت العشب من دموعى ، فقال العالم : أما إنك إن تضحك وأنت معترف بخطيئتك خير لك من أن تبكى وأنت مدل بعلمك ، فان المدل لا يرفع له عمل فقال : أوصنى فانى أراك حكيما ، فقال ازهد فى الدنيا ولا تنازع أهلها فيها ، وكن فيها كالنخلة ، إن

(١) كذا بالأصل وفيه نقص أو تحريف فليحرر .

أكلت أكلت طيبا ، وإن وضعت وضعت طيبا ، وإن وقعت على عود لم تكسره ، وانصح لله نصح الكلب لأهله ، فإنهم يجيعونه ويطردونه ويضربونه وهو يأبى إلا أن يحوطهم ويحفظهم ، وينصح لهم . فكان وهب إذا ذكر هذا الحديث قال : واسوأتاه إذا كان الكلب أنصح لأهله منك يا ابن آدم لله عز وجل . وفي رواية أنه قال : إنى لأصلى حتى ترم قدماى ، فقال له : إنك إن تبت نائبا ، وتصبح نادما، خير لك من أن تبيت قائما وتصبح معجبا ، إلى آخره . وروى سفيان عن رجل من أهل صنعاء عن وهب فذكر الحديث كما تقدم .

وقال عثمان بن أبى شيبة : حدثنا محمد بن عمران بن أبى ليلى حدثنا الصلت بن عاصم المرادى عن أبيه عن وهب قال: لما أهبط آدم من الجنة استوحش لفقد أصوات الملائكة ، فهبط عليه جبريل فقال : يا آدم ألا أعلمك شيئا تنتفع به فى الدنيا والآخرة ؟ قال : بلى . قال قل : اللهم تمم لى النعمة حتى تهنئنى المعيشة ، اللهم اختم لى بخير حتى لا تضرنى ذنوبى ، اللهم اكفنى مؤنة الدنيا وكل هول فى القيامة حتى تدخلنى الجنة فى عافية

وقال عبد الرزاق : حدثنى بكار بن عبد الله عن وهب قال : قرأت فى بعض الكتب فوجدت الله تعالى يقول : يا ابن آدم ما أنصفتنى ، تذكرنى وتنسانى ، وتدعو إلى وتفر منى ، خيرى إليك نازل، وشرك إلى صاعد ، ولا يزال ملك كريم قد نزل اليك من أجلك ، يا ابن آدم إن أحب ماتكون إلى وأقرب ماتكون منى إذا رضيت بما قسمت لك . وأبغض ماتكون إلىّ ، وأبعد ما تكون منى إذا سخطت بما قسمت لك . يا ابن آدم أطعنى فيما أمرتك ، ولا تعلمنى بما يصلحك ، إنى عالم بخلقى ، وأنا أعلم بحاجتك التى ترفعك من نفسك ، إنى إنما أكرم من أكرمنى ، وأهين من هان عليه أمرى ، لست بناظر فى حق عبدى حتى ينظر العبد فى حقى . وقال وهب: قرأت نيفا وتسعين كتابا من كتب الله تعالى فوجدت فى جميعها : ان من وكل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر . وقال : لايسكن ابن آدم، إن الله هو قسم الأرزاق متفاضلة ومختلفة ، فان تقلل ابن آدم شيئاً من رزقه فليزدد إلى الله رغبة ، ولا يقولن : لو اطلع الله على هذا من حالى ، أو شعر به غيره ؟ فكيف لايطلع على شئ الذى خلقه وقدره ؟ أو يعتبر ابن آدم فى غير ذلك مما يتفاضل فيه الناس ، كأن الله فاضل بينهم فى الأجسام والاموال والالوان والعقول والأحلام ، فلا يكبر على ابن آدم أن يفضل عليه فى الرزق والمعيشة ، ولا يكبر عليه أن يفضل عليه فى الحلم والعلم والعقل والدين ، أولا يعلم ابن آدم أن الذى رزقه فى ثلاثة أزمان من عمره لم يكن له فى واحد منها كسب ولا حيلة ، أنه سوف يرزقه فى الزمن الرابع . أول زمان من أزمانه حين كان فى بطن أمه ، يخلق فيه ويرزق من غير مال كسبه ، وهو فى قرار مكين ، لا يؤذيه فيه حرّ ولا برد ، ولا شئ ولا همّ ولاحزن ، وليس له هناك يد تبطش ،

ولا رجل تسعى ، ولا لسان ينطق . فساق الله عز وجل إليه رزقه هناك على أتم الوجوه وأهناها وأمراها ، ثم إن الله عز وجل أراد أن يحوله من تلك المنزلة إلى غيرها . ويحدث له فى الزمن الثانى رزقا من أمه يكفيه ويغنيه ، من غير حول منه ولا قوة ، ولا بطش ولا سعى ، بل تفضلا من الله وجوداً ، ورزقا أجراه وساقه إليه ، ثم أراد الله سبحانه أن ينقله من الزمن الثانى إلى الزمن الثالث من ذلك اللبن إلى رزق يحدثه له من كسب أبويه ، بأن يجعل له الرحمة فى قلوبهما حتى يؤثراه على نفسهما بكسبهما ، ويغنياه ويغذياه بأطيب ما يقدران عليه من الأغذية ، وهو لا يعينهما على شئ من ذلك بكسب ولا حيلة ، حتى إذا عقل حدث نفسه بأنه إنما يرزق بحيلته ومكسبه وسعيه ، ثم يدخل عليه فى الزمن الرابع إساءة الظن بربه عز وجل ، فيضيع أوامر الله فى طلب المعاش وزيادة المال وكثرته ، وينظر إلى أبناء الجنس وما عليه من التنافس فى طلب الدنيا ، فيكسب بذلك ضعف اليقين والايمان ، ويمتلئ قلبه فقراً وخوفا منه مع المتاع ، ويبتلى بموت القلب وعدم العقل ، ولو نظر ابن آدم نظر معرفة وعقل لعلم أنه لن يغنيه فى الزمن الرابع إلا من أغناه ورزقه فى الأزمان الثلاثة قبل ، فلا مقال له ولا معذرة مما سلط عليه فى الزمان الرابع إلا برحمة الله ، فان ابن آدم كثير الشك يقصر به حكمه وعلمه عن علم الله والتفكر فى أمره ، ولو تفكر حتى يفهم ، وتفهم حتى يعلم ، علم أن علامة الله التى بها يعرف ، خلقه الذى خلق ، ثم رزقه لما خلق ، وقدره لما قدر .

وقال عطاء الخراسانى : لقيت وهباً فى الطريق فقلت : حدثنى حديثا أحفظه عنك فى مقامى هذا وأوجز . فقال : أوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام : ياداود ، أما وعزتى وعظمتى لاينتصر بى عبد من عبادى دون خلقى أعلم ذلك من نيته ، فتكيده السموات السبع ومن فيهن ، والأرضون السبع ومن فيهن ، إلا جعلت له منهن فرجا ومخرجا ، أما وعزتى وجلالى لا يعتصم عبد من عبادى بمخلوق دونى أعلم ذلك من نيته ، إلا قطعت أسباب السموات من يده ، وأسخت الأرض من تحته ولا أبالى فى أى واد هلك .

وقال أبو بلال الأشعرى عن أبى هشام الصنعانى قال: حدثنى عبد الصمد بن معقل قال سمعت وهب بن منبه يقول : وجدت فى بعض الكتب أن الله تعالى يقول : كفانى للعبد مآلا ، إذا كان عبدى فى طاعتى أعطيته قبل أن يسألنى ، وأستجيب له من قبل أن يدعونى ، فانى أعلم بحاجته التى رفق به من نفسه . وقال : قرأت فى بعض الكتب أن الشيطان لم يكابد شيئا أشد عليه من مؤمن عاقل لأنه إذا كان مؤمنا عاقلا ذا بصيرة فهو أثقل على الشيطان من الجبال الصم ، إنه ليزاول المؤمن العاقل فلا يستطيعه ، فيتحول عنه إلى الجاهل فيستأمره ويتمكن من قياده . وقال : قام موسى عليه السلام فلما رأته بنو إسرائيل قاموا ، فقال : على مكانكم ، ثم ذهب إلى الطور فاذا هو بنهر أبيض

فيه مثل رؤس الكثبان كافور محفوف بالرياحين ، فلما رآه أعجبه فدخل عليه فاغتسل وغسل ثوبه ، ثم خرج وجفف ثوبه ، ثم رجع إلى الماء فاستنضح فيه إلى أن جف ثوبه ، فلبسه ثم أخذ نحو الكثيب الآخر الذى فوق الطور ، فاذا هو برجلين يحفران قبراً ، فقام عليهما فقال : ألا أعينكما ؟ قالا : بلى فنزل فحفر ، فقال لهما : لتحدثانى مثل من الرجل ؟ فقالا : على طولك وهيئتك ، فاضطجع فيه لينظروا فالتأمت عليه الأرض ، فلم ينظر إلى قبر موسى عليه السلام إلا الرخم ، فأصمها الله وأبكمها.

وقال : يقول الله عز وجل : لولا أنى كتبت النتن على الميت لحبسه الناس فى بيوتهم ، ولولا أنى كتبت الفساد على اللحم لحرمه الأغنياء على الفقراء .

وقال : مرَّ عابد براهب فقال له : منذ كم أنت فى هذه الصومعة ؟ قال : منذ ستين سنة ، قال : وكيف صبرت فيها ستين سنة ؟ قال : مر فان الزمان يمر ، وإن الدنيا تمر ، ثم قال له : يا راهب كيف ذكرك للموت ؟ قال : ما أحسب عبداً يعرف الله تأتى عليه ساعة إلا يذكر الموت فيها ، وما أرفع قدما إلا وأنا أظن أن لا أضعها حتى أموت ، وما أضع قدما إلا وأنا أظن أن لا أرفعها حتى أموت ، فجعل العابد يبكى ، فقال له الراهب : هذا بكاؤك إذا خلوت ؟ ـ أو قال : كيف أنت إذا خلوت ؟ ـ فقال العابد : إنى لأبكى عند إفطارى فأشرب شرابى بدموعى ، ويصرعنى النوم فأبل متاعى بدموعى ، فقال له الراهب : إنك إن تضحك وأنت معترف بذنبك خير لك من أن تبكى وأنت مدل على الله بعملك . فقال : أوصنى بوصية ، قال : كن فى الدنيا بمنزلة النخلة ، إن أكلت أكلت طيبا ، وإن وضعت وضعت طيبا ، وإن سقطت على شئ لم تضره ، ولا تكن فى الدنيا بمنزلة الحمار إنما همته أن يشبع ثم يرمى بنفسه فى التراب ، وانصح لله نصح الكلب لأهله ، فانهم يجيعونه ويطردونه ، وهو يأبى إلا أن يحرسهم ويحفظهم . قال أبو عبد الرحمن أشرس : وكان طاوس إذا ذكر هذا الحديث بكى وقال : عز علينا أن تكون الكلاب أنصح لأهلها منا لمولانا عز وجل . وقد تقدم نحو هذا المتن .

وقال وهب : تخلى راهب فى صومعته فى زمن المسيح : فأراد إبليس أن يكيده فلم يقدر عليه ، فأتاه بكل مراد فلم يقدر عليه ، فأتاه متشبهاً بالمسيح فناداه : أيها الراهب اشرف علىّ أكلمك فأنا المسيح ، فقال : إن كنت المسيح فمالى إليك من حاجة ، أليس قد أمرتنا بالعبادة ؟ ووعدتنا القيامة ؟ انطلق لشأنك فلا حاجة لى فيك . قال : فذهب عنه الشيطان خاسئا وهو حسير ، فلم يعد إليه . ومن طريق أخرى عنه قال : أتى إبليس راهباً فى صومعته فاستفتح عليه ، فقال له : من أنت ؟ قال : أنا المسيح ، فقال الراهب : والله لئن كنت إبليس لأخلون بك ، ولئن كنت المسيح فما عسى أن أصنع بك اليوم شيئا ، لقد بلغتنا رسالة ربك عز وجل فقبلناها عنك ، وشرعت لنا الدين

فنحن عليه ، فاذهب فلست بفاتح لك فقال : صدقت ، أنا إبليس ولا أريد إضلالك بعد اليوم أبداً فسلني عما بدا لك أخبرك به . قال : وأنت صادق ؟ قال : لا تسألني عن شئ إلا صدقتك فيه . قال: فأخبرني أي أخلاق بني آدم أوثق في أنفسكم أن تضلوهم به ؟ قال ثلاثة أشياء : الحدة ، والشح ، والسكر.

وقال وهب : قال موسى : يارب أي عبادك قال : من لا تنفعه موعظة ، ولا يذكرني إذا خلا ، قال : إلهي فما جزاء من ذكرك بلسانه وقلبه ؟ قال : يا موسى أظله يوم القيامة بظل عرشي ، وأجعله في كنفي . وقال وهب : لقي عالم عالما هو فوقه في العلم فقال له : رحمك الله ما هذا البناء الذي لا إسراف فيه ؟ قال : ما سترك من الشمس ، وأكنك من الغيث . قال : فما هذا الطعام الذي لا إسراف فيه ؟ قال : فوق الجوع ودون الشبع من غير تكلف . قال : فما هذا اللباس الذي لا إسراف فيه ؟ قال : هو ما ستر العورة ومنع الحر والبرد من غير تنوع ولا تلون . قال : فما هذا الضحك الذي لا إسراف فيه ؟ قال : هو ما أسفر وجهك ولا يسمع صوتك . قال : فما هذا البكاء الذي لا إسراف فيه ؟ قال : لا تمل من البكاء من خشية الله عز وجل ، ولا تبك على شئ من الدنيا . قال : كم أخفي من عملي ؟ قال : ما أظن بك أنك لم تعمل حسنة . قال : ما أعلن من عملي ؟ قال : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وما يأتم بك الحريص ، واحذر النظر إلى الناس . وقال : لكل شئ طرفان ووسط ، فاذا أمسكت بأحد الطرفين مال الآخر ، وإذا أمسكت بالوسط اعتدلا ، فعليكم بالوسط من الأشياء . وقال : أربعة أحرف في التوراة : من لم يشاور يندم ، ومن استغنى استأثر ، والفقر الموت الأحمر ، وكما تدين تدان ، ومن تجر فجر .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا بكار بن عبد الله أنه سمع وهب بن منبه يقول : كان رجل من أفضل أهل زمانه ، وكان يزار فيعظهم ، فاجتمعوا إليه ذات يوم فقال : إنا قد خرجنا عن الدنيا وفارقنا الأهل والأموال مخافة الطغيان ، وقد خفنا أن يكون قد دخل علينا في حالنا هذه من الطغيان أعظم وأكثر مما يدخل على أهل الأموال في أموالهم ، وعلى الملوك في ملكهم ، أرانا يحب أحدنا أن تقضى له الحاجة ، وإذا اشترى شيئاً أن يحابى لمكان دينه ، وأن يعظم إذا لقي الناس لمكان دينه ، وجعل يعدد آفات العلماء والعباد الذين يدخل عليهم في دينهم من حب الشرف والتعظيم . قال : فشاع ذلك الكلام عنه حتى بلغ ملك تلك البلاد ، فعجب منه الملك وقال لرؤس دولته : ينبغي لهذا أن يزار ، ثم اتعدوا لزيارته يوما ، فركب إليه الملك ليسلم عليه ، فأشرف العابد ــ وكان عالما جيد العلم بآفات العلوم والأعمال ودسائس النفوس ــ فرأى الأرض التي تحت مكانه قد سدت بالخيل والفرسان ، فقال ماهذا ؟ فقيل له : هذا الملك قاصد إليك يسلم عليك لما بلغه من حسن كلامك

صم آفات الأعمال والعالمين .

فقال : إنا لله ، وما أصنع به ؟ هلكنا والله إن لم نلقن الحجة من عند الله مع هذا الرجل ، و ينصرف عنا وهو ماقت لنا ، ثم سأل خادمه : هل عندك طعام ؟ قال : نعم . قال : فأت به فضعه بين أيدينا ، قال : فهو شيء من ثمر الشجر ، وهو شيء من بقل و زيتون ، قال : فأت به ، فأتى به ، ثم أمر بجماعته فاجتمعوا حول ذلك الطعام ، فقال : إذا دخل عليكم هذا الرجل فلا يلتفت أحد منكم إليه ، ولا يقم له أحد ، وأقبلوا على الأكل العنيف ، ولا يرفع أحد منكم رأسه ، لعل الله أن يصرفه عنا وهو كاره لنا فانى أخاف الفتنة والشهرة وامتلاء القلب منهما ، فلا نخلص إلا بنار جهنم . قال : فبكى القوم و بكى ذلك الرجل العالم ، فلما اقترب الملك من جبلهم الذى هم فيه ، ترجل الملك ومن معه من أعيان دولته وصعد فى الجبل ، فلما وصل إلى قرب مكانهم أخذوا فى الأكل العنيف ، فدخل عليهم الملك وهم يأكلون فلم يرفعوا رؤسهم إليه ، وجعل ذلك العالم الفاضل يلف البقل مع الزيتون مع الكسرة الكبيرة من الخبز و يدخلها فى فمه ، فسلم عليهم الملك وقال : أيكم العابد ؟ فأشاوروا إليه ، فقال له الملك : كيف أنت أيها الرجل ؟ فقال له : كالناس ــ وهو يأكل ذلك الأكل العنيف ــ فقال الملك : ليس عند هذا خير ، ثم أدبر الملك خارجا عنه ، وقال : ما عند هذا من علم . فلما نزل الملك من الجبل نظر إليه العابد من كوة وقال : أيها الملك ! الحمد لله الذى صرفك عنى وأنت لى كاره ــ أو قال : الحمد لله الذى صرفك عنى بما صرفك به ــ وفى رواية ذكر ابن المبارك أنه قال : الحمد لله الذى صرفه عنى وهو لى لائم .

وفى رواية أن هذا العابد كان ملكا ، وكان قد زهد فى الدنيا وتركها ، لأنه كان قد دخل عليه رجل من بقايا أهل الجنة والعمل الصالح فوعظه ، فاتعد معه أن يصحبه ، وأنه يخرج عن الملك طلبا لما عنده فى الدار الآخرة ، وأنه وافقه جماعة من بنيه وأهله ورؤس دولته ، فخرجوا برمتهم ، لايدرى أ [illegible] أين ذهبوا ، وكان هذا الملك من أهل العدل والخير والخوف من الله عز وجل ، وكان متسع الملك والمملكة ، كثير الأموال والرجال ، فساروا حتى أتوا جبلا فى أطراف مملكته ، كثير الشجر والمياه ، فأقاموا به حينا ، فقال الملك : إن نحن طال أمرنا ومقامنا فى هذا الجبل ، سمع بنا الناس من أهل مملكتنا فلا يدعونا ، و إنى أرى أن نذهب إلى غير مملكتنا فننزل مكانا بعيداً عن الناس ، لعل أن نسلم منهم ويسلوا منا ، فساروا من ذلك الجبل طالبين بلاداً لايعرفون ، فوجدوا بها جبلا نائيا عن الناس ، كثير الأشجار والمياه ، قليل الطوارق ، و إذا فى ذروته عين ماء جارية وأرض متسعة ، تزرع لمن أراد الزرع بها ، فنزلوا به و بنوا به أماكن للعبادة والسكنى ، و زرعوا لهم على ماء تلك العين بعض بقول يأتدمون بها ، وأشجار زيتون ، وجعلوا يزرعون بأيديهم ويأكلون ثم شاع أمرهم فى بعض تلك البلاد القريبة من جبلهم ، فجعلوا يأتونهم و يزورونهم ، الى أن شاع

ذلك الكلام المتقدم عن ذلك العالم ، فبلغ ملك تلك البلاد فقصدهم للزيارة ، فذكر القصة كما تقدم ، والله أعلم .

وقال وهب : أزهد الناس فى الدنيا - و إن كان عليها حريصا - من لم يرض منها إلا بالكسب الحلال الطيب ، مع حفظ الامانات ، وأرغب الناس فيها و إن كان عنها معرضا ، من لم يبال من أين كسبه منها حلالا كان أو حراما ، و إن أجود الناس فى الدنيا من جاد بحقوق الله عز وجل ، و إن رآه الناس بخيلا فيما سوى ذلك ، و إن أبخل الناس فى الدنيا من بخل بحقوق الله عز وجل و إن رآه الناس جواداً فيما سوى ذلك .

وقال الطبرانى : حدثنا معاذ بن المثنى حدثنا على بن المدينى حدثنا محمد بن عمرو بن مقسم قال سمعت عطاء بن مسلم يقول : سمعت وهب بن منبه يقول : إن الله تعالى كلم موسى عليه السلام فى ألف مقام ، وكان إذا كلمه رؤى النور على وجه موسى ثلاثة أيام ، ولم يمس موسى امرأة منذ كلمه ربه عز وجل . وقال عثمان بن أبى شيبة : حدثنا عبد الله بن عامر بن زرارة حدثنا عبد الله بن الأجلح عن محمد بن إسحاق قال : حدثنى ربيعة بن أبى عبد الرحمن قال : سمعت ابن منبه اليمانى يقول : إن للنبوة أثقالا ومؤنة لا يحملها إلا القوى ، و إن يونس بن متى كان عبداً صالحاً ، وكان فى خلقه ضيق ، فلما حملت عليه النبوة تفسخ تحتها تفسخ الربع تحت الحمل ، فرفضها من يده وخرج هاربا ، فقال الله تعالى لنبيه (ص.) : [فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل] وقال : [فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم] الآية ، وقال يونس بن بكير عن أبى إسحاق بن وهب بن منبه عن أبيه قال : أمر الله الريح أن لا يتكلم أحد من الخلائق بشئ فى الأرض إلا ألقته فى أذن سليمان ، فلذلك سمع كلام النملة .

و روى سفيان عن عمرو بن دينار عن وهب قال : كان الرجل من بنى إسرائيل إذا ساح أربعين سنة أرى شيئا ، كأن يرى علامة القبول ، قال : فساح رجل من ولد ربيعة أربعين سنة فلم ير شيئا ، فقال : يارب إذ أحسنت وأساء والداى فما ذنبى ؟ قال : فأرى ما كان يرى غيره . وفى رواية أنه قال : يا رب إذا كان والداى قد أكلا أضرس أنا ؟ وفى رواية عنه أنه قال : يا رب إذا كان والداى قد أساءا أحرم أنا إحسانك وبرك ؟ فأظلته غمامة .

و روى عبد الله بن المبارك عن رباح بن زيد عن عبد العزيز بن مروان . قال : سمعت وهب ابن منبه يقول : مثل الدنيا والآخرة مثل ضرتين ، إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، وقال : إن أعظم الذنوب عند الله بعد الشرك بالله السحر . وروى عبد الرزاق قال : أخبرنى أبى عن وهب قال : إذا صام الانسان زاغ بصره ، فاذا أفطر على حلاوة عاد بصره . وقال ابن المبارك

عن بكر بن عبد الله قال سمعت وهبا يقول : مرّ رجل عابد على رجل عابد فرآه مفكراً ، فقال له : مالك ؟ فقال له : أعجب من فلان ، إنه كان قد بلغ من عبادته مابلغ ، ثم مالت به الدنيا . فقال : لا تعجب ممن مال كيف مال ، ولكن اعجب ممن استقام كيف استقام .

وقال عبد الله ابن الامام أحمد بن حنبل : حدثنى أبى حدثنا عبد الرزاق حدثنا بكار بن عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه يقول : إن بنى إسرائيل أصابتهم عقوبة وشدة ، فقال النبى (ص) : وددنا أن نعلم ما الذى يرضى ربنا فنتبعه ، فأوحى الله عز وجل إليه : إن قومك يقولون : إذا أرضوهم رضيت ، و إذا أسخطوهم أسخطت . وقال عبد الله بن أحمد أيضا : حدثنا أبى حدثنا إبراهيم بن خالد حدثنى عمر بن عبد الرحمن قال : سمعت وهب بن منبه يقول : إن عيسى عليه السلام كان واقفا على قبر ومعه الحواريون ـ أو نفر من أصحابه ـ قال : وصاحب القبر يدلّى فيه ، قال : فذكروا من ظلمة القبر وضيقه ، فقال عيسى : قد كنتم فيما هو أضيق من ذلك ، فى أرحام أمهاتكم ، فاذا أحب الله أن يوسع وسع ، أو كما قال .

وقال عبد الله بن المبارك : حدثنا بكار بن عبد الله قال : سمعت وهب بن منبه يقول : كان رجل عابد من السياح أراده الشيطان من قبل الشهوة والرغبة والغضب ، فلم يستطع منه شيئا من ذلك ، فتمثل له حية وهو يصلى ، فمضى ولم يلتفت إليه ، فالتوى على قدميه فلم يلتفت إليه ، فدخل ثيابه وأخرج رأسه من عند رأسه فلم يلتفت ولم يستأخر ، فلما أراد أن يسجد التوى فى موضع سجوده ، فلما وضع رأسه ليسجد فتح فاه ليلتقم رأسه ، فوضع رأسه فجعل يحركه حتى استمكن من السجود على الأرض . ثم جاءه على صورة رجل فقال له : أنا صاحبك الذى أخوفك ، أتيتك من قبل الشهوة والغضب والرغبة ، وأنا الذى كنت أتمثل لك بالسباع والحيات فلم أستطع منك شيئاً ، وقد بدا لى أن أصادقك ولا آتيك فى صلاتك بعد اليوم . فقال له العابد : لا يوم خوفتنى خفتك ، ولا اليوم بى حاجة فى مصادقتك . قال : سلنى عما شئت أخبرك قال فما عسيت أن أسألك ؟ قال : ألا تسألنى عن مالك ما فعل به بعدك ؟ قال : لو أردت ذلك ما فارقته . قال : أفلا تسألنى عن أهلك من مات منهم ومن بقى ؟ قال : أنا مت قبلهم . قال أفلا تسألنى عما أضل به الناس ؟ قال : أنت أضلهم . فأخبرنى عن أوثق ما فى نفسك تضل به بنى آدم . قال : ثلاثة أخلاق ، الشح ، والحدة، والسكر . فان الرجل إذا كان شحيحاً قللنا ماله فى عينه و رغبناه فى أموال الناس ، و إذا كان حديداً تداولناه بيننا كما يتداول الصبيان الكرة ، ولو كان يحيى الموتى بدعوته لم نيأس منه ، وكل ما يبنيه نهدمه ، لنا كلمة واحدة . و إذا سكر قدناه إلى كل شر وفضيحة وخزى وهوان كما تقاد القط إذا أخذ بأذنها كيف شئنا

وقال وهب : أصاب أيوب البلاء سبع سنين ، وترك يوسف فى السجن سبع سنين ، ومسخ بختنصر فى السباع سبع سنين . وسئل وهب عن الدنانير والدراهم فقال : هى خواتيم رب العالمين ، فالأرض لمعايش بنى آدم لاتؤكل ولاتشرب ، فأينما ذهبت بخاتم رب العالمين قضيت حاجتك ، وهى أزمة المنافقين بها يقادون إلى الشهوات . وروى داود بن عمر الضبي عن ابن المبارك عن معمر عن سماك ابن الفضل عن وهب قال : مثل الذى يدعو بغير عمل مثل الذى يرمى بغير وتر . وقال ابن المبارك : أخبرنى عمر بن عبد الرحمن بن مهرب قال : سمعت وهبا يقول : قال حكيم من الحكماء : إنى لأستحى من الله عز وجل أن أعبده رجاء ثواب الجنة فقط ، فأكون كالأجير السوء ، إن أعطى عمل وإن لم يعط لم يعمل ، وإنى لأستحى من الله أن أعبده مخافة النار فقط ، فأكون كالعبد السوء إن رهب عمل وإن ترك لم يعمل ، وإنى ليستخرج منى حب الله ما لا يستخرج مني غيره .

وقال السرى بن يحيى : كتب وهب إلى مكحول : إنك قد أصبت بما ظهر من علم الاسلام عند الناس محبة وشرفا ، فاطلب بما بطن من علم الأنسان عند الله محبة وزلفى ، واعلم أن إحدى المحبتين تمنع الأخرى - أو قال : سوف تمنعك الأخرى - وقال زافر بن سليمان عن أبى سنان الشيبانى قال : بلغنا أن وهب بن منبه قال قال لقمان لابنه : يابنى اتخذ طاعة الله تجارة تربح بها ربح الدنيا والآخرة ، والايمان سفينتك التى تحمل عليها ، والتوكل على الله شراعها ، والدنيا بحرك ، والايام موجك ، والاعمال الصالحة تجارتك التى ترجو ربحها ، والنافلة هى هديتك التى ترجو بها كرامتك ، والحرص عليها يسيرها ويزجيها ، ورد النفس عن هواها مراسيها ، والموت ساحلها ، والله ملكها وإليه مصيرها . وأحب التجار إلى الله وأفضلهم وأقربهم منه أكثرهم بضاعة وأصفاهم نية ، وأخلصهم هدية . وأبغضهم إليه أقلهم بضاعة ، وأردأهم هدية ، وأخبثهم طوية ، فكلما حسنت تجارتك ازداد ربحك ، وكلما خلصت هديتك تكرم . وفى رواية عنه أنه قال : قال لقمان لابنه : يابنى اتخذ طاعة الله بضاعة تأتك الأرباح من كل مكان ، واجعل سفينتك تقوى الله ، وحشوها التوكل على الله ، وشراعها الايمان بالله ، وبحرك العلم النافع والعمل الصالح لعلك أن تنجو ، وما أراك بناج . وقال عبد الله بن المبارك عن رباح بن زيد عن رجل قال : إن للعلم طغيانا كطغيان المال .

وقال الطبرانى : حدثنا عبيد بن محمد الصنعانى حدثنا أبو قدامة همام بن مسلمة بن عقبة حدثنا غوث بن جابر حدثنا عقيل بن منبه قال : سمعت عمى وهب بن منبه يقول : الأجر من الله عز وجل معروض ، ولكن لا يستوجبه من لا يعمل ، ولا يجده من لا يبتغيه ، ولا يبصره من لاينظر إليه ، وطاعة الله قريبة ممن يرغب فيها ، بعيدة ممن زهد فيها ، ومن يحرص عليها يصل إليها ، ومن لايحبها لا يجدها ، لا تسبق من سعى إليها ، ولا يدركها من أبطأ عنها ، وطاعة الله تشرف من أكرمها ،

ونهين من أضاعها ، وكتاب الله يدل عليها ، والايمان بالله يحض عليها .

وقال الامام أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد حدثنا عمر بن عبد الرحمن سمعت وهب بن منبه يقول قال داود عليه السلام : يارب أى عبادك أحب إليك ؟ قال : مؤمن حسن الصورة حسن العمل . قال : يارب أى عبادك أبغض إليك ؟ قال : كافر حسن الصورة كفر أو شكر ، هذان . وفى رواية ذكرها أحمد بن حنبل : أى عبادك أبغض إليك ؟ قال : عبد استخارنى فى أمر فخرت له فلم يرض به .

وقال إبراهيم بن الجنيد : حدثنى إبراهيم بن سعيد عن عبد المنعم بن إدريس حدثنا عبد الصمد ابن معقل عن وهب بن منبه قال : كان سائح يعبد الله تعالى ، فجاءه إبليس أو شيطان فتمثل بانسان فجعل يريه أنه يعبد الله تعالى ، وجعل يزيد عليه فى العبادة ، فأحبه ذلك السائح لما رأى من اجتهاده وعبادته ، فقال له الشيطان – والسائح فى مصلاه – : لو دخلنا إلى المدينة فخالطنا الناس وصبرنا على أذاهم وأمرنا ونهينا ، كان أعظم لأجرنا ، فأجابه السائح إلى ذلك ، فلما أخرج السائح إحدى رجليه من باب مكانه لينطلق معه ، هتف به هاتف فقال : إن هذا شيطان أراد أن يفتنك . فقال السائح : رجلٌ خرجت فى معصية الله وطاعة الشيطان لا تدخل معى : فما حولها من موضعها ذلك حتى فارق الدنيا ، فأنزل الله تعالى ذكره فى بعض كتبه فقال : وذو الرِّجل .

وقال وهب : أتى رجل من أفضل أهل زمانه إلى ملك كان يفتن الناس على أكل لحم الخنزير ، فأعظم الناس مكانه ، وهالهم أمره ، فقال له صاحب شرطة الملك – سراً بينه وبينه – : أيها العالم ، اذبح جدياً مما يحل لك أكله ثم ادفعه إلى حتى أصنعه لك على حدته ، فاذا دعا الملك بلحم الخنزير أمرت به فوضع بين يديك ، فتأكل منه حلالا ويرى الملك والناس أنك إنما أكلت لحم الخنزير ، فذبح ذلك العالم جدياً ، ثم دفعه إلى صاحب الشرطة فصنعه له ، وأمر الطباخين إذا أمر الملك بأن يقدم إلى هذا العالم لحم الخنزير ، أن يضعوا بين يديه لحم هذا الجدى واجتمع الناس ، لينظروا أمر هذا العالم فيه أيأكل أم لا ، وقالوا إن أكل أكلنا وإن امتنع امتنعنا ، فجاء الملك فدعا لهم بلحوم الخنازير فوضعت بين أيديهم ، ووضع بين يدى ذلك العالم لحم ذلك الجدى الحلال المذكى ، فألهم الله ذلك العالم فألقى فى روعه وفكره ، فقال : هب أنى أكلت لحم الجدى الذى أعلم حله أنا ، فماذا أصنع بمن لا يعلم ؟ والناس إنما ينتظرون أكلى ليقتدوا بى ، وهم لا يعلمون إلا أنى إنما أكلت لحم الخنزير فيأكلون اقتداء بى ، فأكون ممن يحمل أوزارهم يوم القيامة ، لا أفعل والله وإن قتلت وحرقت بالنار ، وأبى أن يأكل ، فجعل صاحب الشرطة يغمز إليه ويومى إليه ويأمره بأكله ، أى إنما هو لحم الجدى ، فأبى أن يأكل ، ثم أمره الملك أن يأكل فأبى ، فألحوا عليه فأبى ، فأمر الملك صاحب الشرطة بقتله ، فلما ذهبوا به ليقتلوه . قال له صاحب الشرطة : مامنعك أن تأكل من اللحم الذى ذكيته أنت ودفعته

إلى ؟ أظننت أنى أتيتك بغيره وخنتك فيما ائتمنتنى عليه ؟ ما كنت لأفعل والله . فقال له العالم قد علمت أنه هو ، ولكن خفت أن يتأسى الناس بى ، وهم إنما ينتظرون أكلى منه ، ولا يعلمون إلا أنى إنما أكلت لحم الخنزير ، وكذلك كل من أريد على أكله فيما يأتى من الزمان يقول : قد أكله فلان ، فأكون فتنة لهم . فقتل رحمه الله . فينبغى للعالم أن يحذر المعايب ، ويجتنب المحذورات ، فان زلته وناقصته منظورة يقتدى بها الجاهل . وقال معاذ بن جبل : اتقوا زيغة الحكيم ، وقال غيره : اتقوا زلة العالم ، فانه إذا زل زل بزلته عالم كبير . ولاينبغى له أن يستهين بالزلة وإن صغرت ، ولا يفعل الرخص التى اختلف فيها العلماء ، فان العالم هو عصاة كل أعمى من العوام ، بها يصول على الحق ليدحضه ، ويقول : رأيت فلانا العالم ، وفلانا وفلانا يفعلون ويفعلون . وليجتنب العوائد النفسية ، فانه قد يفعل أشياء على حكم العادة فيظنها الجاهل جائزة أو سنة أو واجبة ، كما قيل : سل العالم يصدقك ولا تقتد بفعله الغريب ، ولكن سله عنه يصدقك إن كان ذادين ، وكم أفسد النظر إلى غالب علماء زمانك هذا من خلق ، فما الظن بمخالطتهم ومجالستهم ولكن [من يهدى الله فهو المهتدى ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا] .

وقال محمد بن عبد الملك بن زنجويه : حدثنا عبد الرزاق عن أبيه قال : قلت لوهب بن منبه : كنت ترى الرؤيا فتخبرنا بها ، فلا نلبث أن نراها كما رأيتها ، قال : ذهب ذلك عنى منذ وليت القضاء . قال عبد الرزاق : فحدثت به معمراً فقال : والحسن بعد ماولى القضاء لم يحمدوا فهمه ، فمن يأمن القراء بعدك ياشهر ؟فكيف حال من قد غرق فى قاذورات الدنيا من علماء زمانك هذا ، ولاسيما من بعد فتنة تمرلنك ؟ فان القلوب قد امتلأت بحب الدنيا ، فلا يجد العلم فيها موضعا ، فجالس من شئت منهم لتنظر مبادئ مجالستهم وغاياتها ، ولا تستخفك البدوات ، فانما الأمور بعواقبها وخواتيمها ونتائجها ، وغاياتها . [ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب] وقال وهب : البلاء للمؤمن كالشكال للدابة . وقال أبو بلال الأشعرى عن أبى شهاب الصنعانى عن عبد الصمد عن وهب قال : من أصيب بشئ من البلاء فقد سلك به طريق الأنبياء . وقال عبد الله ابن الامام أحمد بن حنبل: حدثنا عبد الرزاق قال : أنبأنا منذر قال : سمعت وهبا يقول : قرأت فى كتاب رجل من الحواريين : إذا سلك بك طريق - أو قال سبيل - أهل البلاء فطب نفسا ، فقد سلك بك طريق الأنبياء والصالحين

وقال الامام أحمد : حدثنا أحمد بن جعفر حدثنا إبراهيم بن خالد حدثنى أمية بن شبل عن عثمان بن بزدويه قال : كنت مع وهب وسعيد بن جبير يوم عرفة تحت نخيل ابن عامر ، فقال وهب لسعيد : يا أبا عبد الله ! كم لك منذ خفت من الحجاج ؟ قال : خرجت عن امرأتى وهى حامل فجاءنى الذى فى بطنها وقد خرج [شعر] وجهه ، فقال له وهب : إن من كان قبلكم كان إذا أصابه بلاء عده رجاء ،

وإذا أصابه رجاء عده بلاء . وروى عبد الله بن أحمد بسنده عن وهب قال : قرأت فى بعض الكتب : ليس من عبادى من سحر أو سحر له ، أو تكهن أو تكهن له ، أو تطير أو تطير له ، فمن كان كذلك فليدع غيرى ، فانما هو أنا وخلقى كلهم لى . وقال الامام أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد حدثنا رباح عن جعفر بن محمد عن التيمى عن وهب أنه قال : دخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول الأغنياء الجنة . قلت : هذا إنما هو لشدة الحساب وطول وقوف الأغنياء فى الكرب ، كما قد ضربت الأمثال للشدائد . والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال الامام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا بكار قال سمعت وهبا يقول : ترك المكافأة من التطفيف . وقال الامام أحمد : حدثنا الحجاج وأبو النصر قالا : حدثنا محمد بن طلحة عن محمد بن جحادة عن وهب قال : من يتعبد يزدد قوة ، ومن يتكسل يزدد فترة . وقد قال غيره : إن حوراء جاءته فى المنام فى ليلة باردة فقالت له : قم إلى صلاتك فهى خير لك من نومة توهن بدنك . ورأيت فى ذلك حديثا لم يحضرنى الآن . وهذا أمر مجرب أن العبادة تنشط البدن وتلينه ، وأن النوم يكسل البدن فيقسيه ، وقد قال بعض السلف لما تبع صلة ابن أشيم حين دخل تلك الغيضة ، وأنه قام ليلته إلى أن أصبح ، قال فأصبح كأنه بات على الحشايا ، وأصبحت ولى من الكسل والفتور مالا يعلمه إلا الله عز وجل .

وقد قيل للحسن : مابال المتعبدين أحسن الناس وجوها ؟ قال : لأنهم خلوا بالجليل فألبسهم نوراً من نوره . وقال يحيى بن أبى كثير : والله مارجل يخلو بأهله عروساً أقر ما كانت نفسه وآنس ، بأشد سروراً منهم بمناجاة ربهم تعالى إذا خلوا به . وقال عطاء الخراسانى : قيام الليل محياة للبدن ، ونور فى القلب ، وضياء فى الوجه ، وقوة فى البصر والأعضاء كلها ، وإن الرجل إذا قام بالليل أصبح فرحا مسرورا ، وإذا نام عن حزبه أصبح حزينا مكسور القلب كأنه قد فقد شيئا ، وقد فقد أعظم الأمور له نفعا .

وقال ابن أبى الدنيا ، حدثنا أبو جعفر أحمد بن منيع حدثنا هاشم بن القاسم أبو النصر حدثنا بكر بن حبيش عن محمد القرشى عن ربيعة بن يزيد عن أبى إدريس الخولانى عن بلال قال قال رسول الله (ص) : « عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم ، وإن قيام الليل قربة إلى الله تعالى ، ومنهاة عن الاثم ، وتكفير عن السيئات ، ومطردة للشيطان عن الجسد » وقد رواه غيره من طرق : « عليكم بقيام الليل فانه دأب الصالحين قبلكم » ويكفى فى هذا الباب مارواه أهل الصحيح والمسانيد عن أبى هريرة أن رسول الله (ص) قال : « يعقد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب مكان كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد . فاذا استيقظ وذكر الله انحلت

عقدة ، و إذا توضأ انحلت عقدة ، فان صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطا طيب النفس ، و إلا أصبح خبيث النفس كسلان » . وهذا باب واسع . وقد قال هود فيما أخبر الله عنه : [اعبدوا الله مالكم من إله غيره] ثم قال : [و يزدكم قوة إلى قوتكم] وهذه القوة تشمل جميع القوى ، فيزيد الله عابديه قوة فى إيمانهم و يقينهم ودينهم وتوكلهم ؛ وغير ذلك مما هو من جنس ذلك ، و يزدهم قوة فى أسماعهم وأبصارهم وأجسادهم وأموالهم وأولادهم وغير ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال الامام أحمد : حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدثنى عبد الصمد أنه سمع وهبا يقول : تصدق صدقة رجل يعلم أنه إنما قدم بين يديه ماله بما خلف مال غيره .

قلت : وهذا كما فى الحديث « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ فقالوا : كلنا ماله أحب إليه من مال وارثه ، فقال : إن ماله ماقدم ، ومال وارثه ما أخر » . قال : وسمعت وهبا على المنبر يقول : احفظوا عنى ثلاثا ، إياكم وهوى متبعا ، وقرين سوء ، و إعجاب المرء بنفسه . وقد رويت هذه الألفاظ فى حديث . وقال الأمام أحمد : حدثنا يونس بن عبد الصمد بن معقل حدثنا إبراهيم بن الحجاج قال : سمعت وهبا يقول : أحب بنى آدم إلى الشيطان النؤوم الأكول .

وقال الامام أحمد : حدثنا غوث بن جابر حدثنا عمران بن عبد الرحمن أبو الهذيل أنه سمع وهبا يقول : إن الله عز وجل يحفظ بالعبد الصالح القبيل من الناس . وقال أحمد أيضا : حدثنا إبراهيم بن عقيل حدثنا عمران أبو الهذيل من الأبناء عن وهب بن منبه قال : ليس من الآدميين أحد إلا ومعه شيطان موكل به ، فأما الكافر فيأكل معه و يشرب معه ، وينام معه على فراشه . وأما المؤمن فهو مجانب له ينتظر متى يصيب منه غفلة أوغرة . وأحب الآدميين إلى الشيطان الأكول النؤوم . وقال محمد بن غالب : حدثنا أبو المعتمر ابن أخى بشر بن منصور عن داود بن أبى هند عن وهب . قال : قرأت فى بعض الكتب الذى أنزلت من السماء على بعض الأنبياء : أن الله تعالى قال لابراهيم عليه الصلاة والسلام : أتدرى لم اتخذتك خليلا ؟ قال : لا يا رب ، قال : لذل مقامك بين يدى فى الصلاة .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا محمد بن أيوب حدثنا أبو بكر بن عياش عن إدريس ابن وهب بن منبه قال : حدثنى أبى قال : كان لسليمان بن داود ألف بيت أعلاه قوارير وأسفله حديد فركب الريح يوما فمر بحراث فنظر إليه الحراث فاستعظم ما أوتى سليمان من الملك ، فقال : لقد أوتى آل داود ملكا عظيما ، فحملت الريح كلام الحراث فألقته فى أذن سليمان ، قال : فأمر الريح فوقفت ، ثم نزل يمشى حتى أتى الحراث فقال له : إنى قد سمعت قولك ، و إنما مشيت إليك لئلا تتمنى مالا تقدر عليه مما أقدرنى الله عليه تفضلا و إحسانا منه على ، لأنه هو الذى أقامنى لهذا وأعاننى . ثم قال : والله لتسبيحة واحدة يقبلها الله عز وجل منك أو من مؤمن خير مما أوتى آل داود من الملك ، لأن

ما أوتى آل داود من ملك الدنيا يفنى ، والتسبيحة تبقى ، وما يبقى خير مما يفنى . فقال الحراث : أذهب الله همك كما أذهبت همى

وقال الامام أحمد : حدثنا إبراهيم بن عقيل بن معقل حدثنى أبى عن وهب بن منبه . قال : إن الله عز وجل أعطى موسى عليه السلام نوراً ، فقال له هارون : هبه لى يا أخى ، فوهبه له ، فأعطاه هارون ابنه ، وكان فى بيت المقدس آنية تعظمها الأنبياء والملوك ، فكان ابنا هارون يسقيان فى تلك الآنية الخمر ، فنزلت نار من السماء فاختطفت ابنى هارون فصمدت بهما ، ففزع هارون لذلك فقام مستغيثاً متوجها بوجهه إلى السماء بالدعاء والتضرع ، فأوحى الله إليه : ياهارون هكذا أفعل بمن عصانى من أهل طاعتى ، فكيف فعلى بمن عصانى من أهل معصيتى ؟ . وقال الحكم بن أبان : نزل بى ضيف من أهل صنعاء فقال : سمعت وهب بن منبه يقول : إن لله عز وجل فى السماء السابعة داراً يقال لها البيضاء يجمع فيها أرواح المؤمنين ، فاذا مات الميت من أهل الدنيا تلقته الأرواح فيسألونه عن أخبار الدنيا كما يسأل الغائب أهله إذا قدم عليهم . وقال : من جعل شهوته تحت قدمه فزع الشيطان من ظله ، فمن غلب علمه هواه فذلك العالم الغلاب . وقال فضيل بن عياض : أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : بعينى ما يتحمل المتحملون من أجلى ، وما يكابدون فى طلب مرضاتى ، فكيف بهم إذا صاروا إلى دارى ، وتبجبحوا فى رياض نعمتى ؟ هنالك فليبشر المضعفون لله أعمالهم بالنظر العجيب من الحبيب القريب ، أترانى أنسى لهم عملا ؟ وكيف وأنا ذو الفضل العظيم أجود على المولين المعرضين عنى ، فكيف بالمقبلين على ؟ وماغضبت على شىء كغضبى على من أخطأ خطيئة فاستعظمها فى جنب عفوى ، ولو تعاجلت بالعقوبة أحداً ، أو كانت العجلة من شأنى ، لعاجلت القانطين من رحمتى . ولو رآنى عبادى المؤمنون كيف أستوهبهم ممن اعتدوا عليه ، ثم أحكم لمن وهبهم بالخلد المقيم ، اتهموا فضلى وكرمى ، أنا الديان الذى لا تحل معصيتى ، والذى أطاعنى أطاعنى برحمتى ، ولا حاجة لى بهوان من خاف مقامى . ولو رآنى عبادى يوم القيامة كيف أرفع قصوراً تحار فيها الأبصار فيسألونى : لمن ذا ؟ فأقول : لمن وهب لى ذنبا مالم يوجب على نفسه معصيتى والقنوط من رحمتى ، و إنى مكافىء على المدح فامدحونى .

وقال سلمة بن شبيب : حدثنا سلمة بن عاصم حدثنا عبد الله بن محمد بن عقبة حدثنا عبد الرحمن أبو طالوت حدثنى مهاجر الأسدى عن وهب . قال : مرّ عيسى بن مريم ومعه الحواريون بقرية قد مات أهلها ، إنسها وجنها ، وهوامها وأنعامها وطيورها ، فقام عليها ينظر إليها ساعة ثم أقبل على أصحابه فقال : إنما مات هؤلاء بعذاب من عند الله ، ولولا ذلك لماتوا متفرقين . ثم ناداهم عيسى : يا أهل القرية ، فأجابه مجيب : لبيك ياروح الله ، فقال : ما كانت جنايتكم وسبب هلاككم ؟ قال

عبادة الطاغوت وحب الدنيا ، قال : وما كانت عبادتكم للطاغوت ؟ قال : طاعة أهل المعاصى هى عبادة الطاغوت . قال : وما كان حبكم للدنيا ؟ قال : كحب الصبيّ لأمه ، كنا إذا أقبلت فرحنا ، و إذا أدبرت حزنا ، مع أمل بعيد ، و إدبار عن طاعة الله ، و إقبال على مساخطه . قال : فكيف كان هلاككم ؟ قال : بتنا ليلة فى عافية وأصبحنا فى هاوية ، قال : وما الهاوية ؟ قال : سجين ، قال : وما السجين ؟ قال : جمرة من نار مثل أطباق الدنيا كلها دفنت أرواحنا فيها ، قال : فما بال أصحابك لا يتكلمون ؟ قال : لا يستطيعون أن يتكلموا . قال : وكيف ذلك ؟ قال : هم ملجمون بلجم من نار . قال : وكيف كلمتنى أنت من بينهم ؟ قال : كنت فيهم لما أصابهم العذاب ولم أكن منهم ولا على أعمالهم ، فلما جاء البلاء عمنى معهم ، وأنا معلق بشعرة فى الهاوية لا أدرى أكردس فيها أم أنجو . فقال عيسى عليه السلام عند ذلك لأصحابه : بحق أقول لكم : لخبز الشعير وشرب الماء القراح والنوم على المزابل كثير مع عافية الدنيا والآخرة

وروى الطبرانى عنه أنه قال : لا يكون المرء حكيما حتى يطيع الله عز وجل ، وما عصى الله حكيم ، ولا يعصى الله إلا أحمق ، وكما لا يكمل النهار إلا بالشمس ، ولا يعرف الليل إلا بالظلام ، كذلك لا تكمل الحكمة إلا بطاعة الله عز وجل ، ولا يعصى الله حكيم ، كما لا يطير الطير إلا بجناحين ، ولا يستطيع من لا جناح له أن يطير ، كذلك لا يطيع الله من لا يعمل له ، ولا يطيق عمل الله من لا يطيعه . وكما لا مكث للنار فى الماء حتى تطفأ ، كذلك لا مكث لعمل الرياء حتى يبور . وكما يبدى سرّ الزانية وفضيحتها فعلها ، كذلك يفتضح بالفعل السيئ من كان يقرأ لجليسه بالقول الحسن ولم يعمل به . وكما تكذب معذرة السارق بالسرقة إذا ظهر عليها عنده ، كذلك تكذب معصية القارئ لله قراءته إذا كان يقرؤها لغير الله تعالى .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن النضر حدثنا على بن بحر بن برى حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدثنا عبد الصمد بن معقل . قال سمعت وهبا يقول : فى مزامير آل داود : طوبى لمن يسلك سبيل الخطائين ولا يجالس البطالين ، وطوبى لمن يسلك طريق الأئمة و يستقيم على عبادة ربه ، فمثله كمثل شجرة نابتة على ساقية لا تزال فيها الحياة ، ولا تزال خضراء . وروى الطبرانى أيضا عنه قال : إذا قامت الساعة صرخت الحجارة صراخ النساء ، وقطرت العضاه دما . وروى عنه أنه قال : ما من شئ إلا يبدو صغيرا ثم يكبر ، إلا المصيبة فانها تبدو كبيرة ثم تصغر . وروى عنه أيضا أنه قال : وقف سائل على باب داود عليه السلام ، فقال : يا أهل بيت النبوة تصدقوا علينا بشئ رزقكم الله رزق التاجر المقيم فى أهله . فقال داود : اعطوه ، فوالذى نفسى بيده إنها لفى الزبور . وقال : من عرف بالكذب لم يجز صدقه ، ومن عرف بالصدق ائتمن على حديثه ، ومن أكثر الغيبة

والبغضاء لم يوثق منه بالنصيحة ، ومن عرف بالفجور والخديعة لم يؤمن إليه فى المحنة ، ومن انتحل فوق قدره جحد قدره ، ولا تستحسن فيك ما تستقبح فى غيرك . هذه الآثار رواها الطبرانى عنه من طرق .

وروى داود بن عمرو عن إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عثمان بن خيثم . قال : قدم علينا وهب مكة فطفق لا يشرب ولا يتوضأ إلا من زمزم ، فقيل له : مالك فى الماء العذب ؟ فقال : ما أنا بالذى أشرب وأتوضأ إلا من زمزم حتى أخرج منها ، إنكم لاتدرون ماماء زمزم ، والذى نفسى بيده إنها لفى كتاب الله طعام طعم ، وشفاء سقم ، ولا يعمد أحد إليها يتضلع منها ريا ، ابتغاء بركتها ، إلا نزعت منه داء وأحدثت له شفاء . وقال : النظر فى زمزم عبادة . وقال : النظر فيها يحط الخطايا حطا . وقال وهب : مسخ بختنصر أسداً فكان ملك السباع ، ثم مسخ نسراً فكان ملك الطيور ، ثم مسخ ثوراً فكان ملك الدواب ، وهو فى كل ذلك يعقل عقل الانسان ، وكان ملكه قائما يدبر ، ثم رد الله عليه روحه إلى حالة الانسان ، فدعا إلى توحيد الله وقال : كل إله باطل إلا إله السماء . فقيل له : أمات مؤمنا ؟ فقال : وجدت أهل الكتاب قد اختلفوا فيه ، فقال بعضهم : آمن قبل أن يموت ، وقال بعضهم : قتل الأنبياء ، وحرق الكتب ، وحرق بيت المقدس ، فلم يقبل منه التوبة . هكذا رواه الطبرانى عن محمد بن أحمد بن الفرج عن عباس بن يزيد عن عبد الرزاق عن بكار بن عبد الله . قال : سمعت وهب بن منبه يقول ، فذكره .

وقال وهب : كان رجل بمصر فسألهم ثلاثة أيام أن يطعموه فلم يطعموه ، فمات فى اليوم الرابع فكفنوه ودفنوه ، فأصبحوا فوجدوا الكفن فى محرابهم مكتوب عليه : قتلتموه حيا وبرزعوه ميتا ؟ قال يحيى : فأنا رأيت القرية التى مات فيها ذلك الرجل ، ومابها أحد إلا وله بيت ضيافة : لاغنى ولافقير هكذا رواه يحيى بن عبد الباقى عن على بن الحسن عن عبد الله بن أخى وهب ، قال : حدثنى عمى وهب بن منبه فذكره . قال : وأهل القرية يعترفون بذلك . فمن ثم اتخذوا بيوتا للضيفان والفقراء خوفا من ذلك . وقال عبد الرزاق عن بكار عن وهب . قال : إذا دخلت الهدية من الباب خرج الحق من الكوة . وقال إبراهيم بن الجنيد : حدثنا إبراهيم بن سعيد عن عبد المنعم بن إدريس عن عبد الصمد عن وهب بن منبه قال : مر نبى من الأنبياء على عابد فى كهف جبل ، فمال إليه فلم عليه وقال له : ياعبد الله منذكم أنت هاهنا ؟ قال : منذ ثلثمائة سنة . قال : من أين معيشتك ؟ قال : من ورق الشجر ، قال : فمن أين شرابك ؟ قال : من ماء العيون ، قال : فأين تكون فى الشتاء ؟ قال : تحت هذا الجبل ، قال : فكيف صبرك على العبادة ؟ قال : وكيف لا أصبر وإنما هو يومى إلى الليل ، وأما أمس فقد مضى عما فيه ، وأما غد فلم يأت بعد . قال فعجب النبى من قوله : إنما هو

يومى إلى الليل . وبهذا الاسناد أن رجلا من العباد قال لمعلمه : قطعت الهوى فلست أهوى من الدنيا شيئا . فقال له معلمه : أتفرق بين النساء والدواب إذا رأيتهن معا ؟ قال : نعم ، قال أتفرق بين الدنانير والدراهم والحصا ؟ قال نعم ، قال : يابنى إنك لم تقطع الهوى عنك ولكنك قد أوثقته فاحذر انفلاته وانقلابه .

وقال غوث بن جابر بن غيلان بن منبه : حدثنى عقيل بن معقل عن وهب قال : اعمل فى نواحى الدين الثلاث ، فان للدين نواحى ثلاثا ، هن جماع الأعمال الصالحة لمن أراد جمع الصالحات «أولاهن» تعمل شكراً لله على الأنعم الكثيرات الغاديات الرائحات ، الظاهرات الباطنات ، الحادثات القديمات ، يعمل المؤمن شكراً لهن ورجاء تمامهن « والناحية الثانية من الدين » رغبة فى الجنة التى ليس لها ثمن وليس لها مثل ، ولا يزهد فيها وفى العمل لها إلا سفيه فاجر ، أو منافق كافر « والناحية الثالثة من الدين » أن يعمل المؤمن فراراً من النار التى ليس لأحد عليها صبر ، ولا لأحد بها طاقة ولا يدان ، وليست مصيبتها كالمصيبات ، ولا حزن أهلها كالأحزان ، نبأها عظيم ، وشأنها شديد ، والآخرة وحزنها فظيع ، ولا يغفل عن الفرار والتعوذ بالله منها إلا سفيه أحمق خاسر ، [قد خسر الدنيا ذلك هو الخسران المبين] .

وقال إسحاق بن راهويه : حدثنا عبد الملك بن محمد الدمادى قال أخبرنى محمد بن سعيد بن رمانة قال أخبرنى أبى قال قيل لوهب : أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله ؟ قال : بلى ، ولكن ليس من مفتاح إلا وله أسنان ، فمن أتى الباب بمفتاح بأسنانه فتح له ، ومن لم يأت الباب بمفتاح بأسنانه لم يفتح له . وقال محمد : حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم حدثنا عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهبا يقول : ركب ابن ملك فى جند من قومه وهو شاب ، فصرع عن فرسه فدق عنقه فمات فى أرض قرية من القرى ، فغضب أبوه وحلف أن يقتل أهل تلك القرية عن آخرهم ، وأن يطأهم بالأفيال ، فما أبقت الأفيال وطئته الخيل ، فما أبقت الخيل وطئته الرجال ، فتوجه إليهم بعد أن سقى الأفيال والخيل الخمر وقال : طأوهم بالأفيال ، وإلا فما أبقت الأفيال فلتطأه الخيل ، فما أخطأته الخيل فلتطأه الرجال فلما سمع بذلك أهل تلك القرية وعرفوا أنه قد قصدهم لذلك ، خرجوا بأجمعهم فجأروا إلى الله سبحانه وعجوا إليه وابتهلوا يدعونه تعالى ليكشف عنهم شر هذا الملك الظالم ، وماقصده من هلاكهم . فبينما الملك وجيشه سائرون على ذلك ، وأهل القرية فى الابتهال والدعاء والتضرع إلى الله تعالى ، إذ نزل فارس من السماء فوقع بينهم ، فنفرت الأفيال فطغت على الخيل وطغت الخيل على الرجال ، فقتل الملك ومن معه وطأ بالافيال والخيل ، ونجى الله أهل تلك القرية من بأسهم وشرهم .

وروى عبد الرزاق عن المنذر بن النعمان أنه سمع وهبا يقول : قال الله تعالى لصخرة بيت

المقدس : لأضعن عليك عرشى ، ولأحشرن عليك خلقى ، وليأتينك داود يومئذ را كبا . وروى سماك بن المفضل عن وهب قال : إنى لأتفقد أخلاقى ومافيها شئ يعجبنى . وروى عبد الرزاق عن أبيه قال قال وهب : ربما صليت الصبح بوضوء العتمة . وقال بقية بن الوليد : حدثنا زيد بن خالد عن خالد بن معدان عن وهب قال : كان نوح عليه السلام من أجمل أهل زمانه ، وكان يلبس البرقع فأصابهم مجاعة فى السفينة ، فكان نوح إذا تجلى لهم شبعوا . وقال قال عيسى : الحق أقول لكم : إن أشدكم جزعا على المصيبة أشدكم حبا للدنيا . وقال جعفر بن برقان : بلغنا أن وهبا كان يقول : طوبى لمن نظر فى عيبه عن عيب غيره ، وطوبى لمن تواضع لله من غير مسكنة ، ورحم أهل الذل والمسكنة ، وتصدق من مال جمعه من غير معصية ، وجالس أهل العلم والحلم والحكمة ، ووسعته السنة ولم يتعدها إلى البدعة . وروى سيار عن جعفر عن عبد الصمد بن معقل عن وهب قال : وجدت فى زبور داود : يا داود هل تدرى من أسرع الناس مرا على الصراط ؟ الذين يرضون بحكمى ، وألسنتهم رطبة بذكرى . وقيل إن عابداً عبد الله تعالى خمسين سنة فأوحى الله إلى نبيهم : إنى قد غفرت له ، فأخبره ذلك النبى ، فقال : أى رب ، وأى ذنب تغفرلى ؟ فأمر عرقا فى عنقه فضرب عليه ، فلم ينم ولم يهدأ ولم يصل ليلته ، ثم سكن العرق ، فشكا ذلك إلى النبى ، فقال : مالاقيت من عرق ضرب على فى عنقى ثم سكن . فقال له النبى : إن الله يقول : إن عبادتك خمسين سنه ما تعدل سكون هذا العرق . وقال وهب : رءوس النعم ثلاثة « إحداها » نعمة الاسلام التى لا تتم نعمة إلا بها . « والثانية » نعمة العافية التى لا تطيب الحياة إلا بها . « والثالثة » نعمة الغنى التى لا يتم العيش إلا بها . ومر وهب بمبتلى أعمى مجذوم مقعد عريان به وضح وهو يقول : الحمد لله على نعمه ، فقال له رجل كان مع وهب : أى شئ بقى عليك من النعمة تحمد الله عليه ؟ فقال المبتلى : ارم ببصرك إلى أهل المدينة وانظر إلى كثرة أهلها ، أفلا أحمد الله أنه ليس فيها أحد يعرفه غيرى ؟ . وقال وهب : المؤمن يخالط ليعلم ، ويسكت ليسلم ، ويتكلم ليفقههم ، ويخلو ليغنم . وقال : المؤمن مفكر مذكر مدخر ، تذكر فغلبته السكينة ، سكن فتواضع فلم يتهم ، رفض الشهوات فصارحرا ، ألقى الحسد فظهرت له المحبة ، زهد فى كل فان فاستكمل العقل ، رغب فى كل باق فعقل المعرفة ، قلبه متعلق بهمه ، وهمه موكل بمعاده ، لايفرح إذا فرح أهل الدنيا ، بل حزنه عليه سرمد ، وفرحه إذا نامت العيون يتلو كتاب الله ويردده على قلبه ، فمرة يفزع قلبه ومرة تدمع عينه ، يقطع عنه الليل بالتلاوة ، ويقطع عنه النهار بالخلوة والعزلة ، مفكراً فى ذنوبه ، مستصغراً لأعماله . وقال وهب : فهذا ينادى يوم القيامة فى ذلك الجمع العظيم على رءوس الخلائق : قم أيها الكريم فادخل الجنة .

وقال إبراهيم بن سعيد عن عبد الرحمن بن مسعود عن ثور بن يزيد . قال قال وهب بن منبه :

الويل لكم إذا سماكم الناس صالحين ، وأكرموكم على ذلك . وقال الطبرانى : حدثنا عبيد بن محمد الكشورى حدثنا همام بن سلمة بن عقبة حدثنا غوث بن جابر حدثنا عقيل بن معقل بن منبه قال : سمعت عمى وهب بن منبة يقول : يابنى ! اخلص طاعة الله بسريرة ناصحة يصدق بها فعلك فى العلانية ، فان من فعل خيراً ثم أسره إلى الله فقد أصاب مواضعه ، وأبلغه قراره ، ووضعه عندحافظه وإن من أسر عملا صالحا لم يطلع عليه إلا الله ، فقد أطلع عليه من هو حسبه،واستحفظه واستودعه حفيظا لا يضيع أجره ، فلا تخافن يابنى على من عمل صالحا أسره إلى الله عز وجل ضياعا ، ولاتخافن ظلمة ولاهضمة ، ولاتظنن أن العلانية هى أنجح من السريرة ، فان مثل العلانية مع السريرة كمثل ورق الشجرة مع عرقها ، العلانية ورقها والسريرة أصلها ، إن يحرق العرق هلكت الشجرة كلها ، وإن صلح الأصل صلحت الشجرة ، ثمرها وورقها ، والورق يأتى عليه حين يجف ويصير هباء تذروه الرياح ، بخلاف العرق ، فانه لايزال ماظهر من الشجرة فى خير وعافية ما كان عرقها مستخفيا لايرى منه شئ ، كذلك الدين والعلم والعمل ، لايزال صالحا ما كان له سريرة صالحة يصدق الله بها علانية العبد ، فان العلانية تنفع مع السريرة الصالحة ، ولا تنفع العلانية مع السريرة الفاسدة ، كما ينفع عرق الشجرة صلاح فرعها ، وإن كان حياته من قبل عرقها ، فان فرعها زينتها وجمالها ، وإن كانت السريرة هى ملاك الدين ، فان العلانية معها تزين الدين وتجمله إذا عملها مؤمن لايريد بها إلا رضاه ربه عز وجل .

وقال الهيثم بن جميل : حدثنا صالح المرى عن أبان عن وهب قال : قرأت فى الحكمة : الكفر أربعة أركان ، ركن منه الغضبة ، وركن منه الشهوة ، وركن منه الطمع ، وركن منه الخوف . وقال : أوحى الله تعالى إلى موسى : إذا دعوتنى فكن خائفا مشفقا وجلا ، وعفر خدك بالتراب ، واسجد لى بمكارم وجهك ويديك ، وسلنى حين تسألنى بخشية من قلبك ووجل ، واخشنى أيام الحياة ، وعلم الجهال آلائى ، وقل لعبادى لايتمادوا فى غى ماهم فيه فان أخذى أليم شديد . وقال وهب : إذا هم الوالى بالجور أو عمل به دخل النقص على أهل مملكته ، وقلت البركات فى التجارات والزراعات والضروع والمواشى ، ودخل المحق فى ذلك ، وأدخل الله عليه الذل فى ذاته وفى ملكه . وإذاهم بالعدل والخير كان عكس ذلك ، من كثرة الخير ونمو البركات . وقال وهب : كان فى مصحف إبراهيم عليه السلام أيها الملك المبتلى ، إنى لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها على بعض ، ولا لتبنى البنيان ، وإنما بعثتك لترفع لى دعوة المظلوم فانى لاأردها ولو كانت من كافر .

وروى ابن أبى الدنيا عن محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه أن ذا القرنين قال لبعض الملوك : مابال ملتكم واحدة ، وطريقتكم مستقيمة ؟ قال : من قبل أنا لانخادع ولايغتاب بعضنا بعضا . وروى

ابن أبى الدنيا عنه أنه قال : ثلاث من كن فيه أصاب البر ، سخاوة النفس ، والصبر على الأذى ، وطيب الكلام . وقال ابن أبى الدنيا : حدثنى سلمة بن شبيب حدثنا سهل بن عاصم عن سلمة بن ميمون عن المعافى بن عمران عن إدريس قال : سمعت وهبا يقول : كان فى بنى إسرائيل رجلان بلغت بهما عبادتهما أنهما مشيا على الماء ، فبينما هما يمشيان على البحر إذاهما برجل يمشى فى الهواء ، فقالا له : ياعبد الله بأى شئ أدركت هذه المنزلة ؟ قال : بيسير من البر فعلته ، و يسير من الشر تركته ، فطمت نفسى عن الشهوات ، وكففت لسانى عما لايعنينى ، و رغبت فيما دعانى إليه خالق ، ولزمت الصمت فان أقسمت على الله عز وجل أبر قسمى ، و إن سألته أعطانى . وقال : حدثنى أبو العباس البصرى الأزدى عن شيخ من الأزد . قال : جاء رجل إلى وهب بن منبه فقال : علمنى شيئاً ينفعنى الله به ، قال : أكثر من ذكر الموت ، واقصر أملك ، وخصلة ثالثة إن أنت أصبتها بلغت الغاية القصوى ، وظفرت بالعبادة الكبرى قال : وماهى ؟ قال : التوكل .

وممن توفى فيها من الأعيان

سليمان بن سعد

كان جميلا فصيحا عالما بالعربية ، وكان يعلمها الناس هو وصالح بن عبد الرحمن الكاتب ، وتوفى صالح بعده بقليل ، وكان صالح فصيحا جميلا عارفا بكتابة الديوان ، و به يخرج أهل العراق من كتابة الديوان وقد ولاه سليمان بن عبد الملك خراج العراق .

ام الهذيل

لها روايات كثيرة ، وقد قرأت القرآن وعمرها اثنتى عشر سنة ، وكانت فقيهة عالمة ، من خيار النساء ، عاشت سبعين سنة .

عائشة بنت طلحة بن عبدالله التميمي

أمها أم كلثوم بنت أبى بكر ، تزوجت بابن خالها عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ، ثم تزوجت بعده بمصعب بن الزبير ، وأصدقها مائة ألف دينار ، وكانت بارعة الجمال ، عظيمة الحسن لم يكن فى زمانها أجمل منها . توفيت بالمدينة

عبدالله بن سعيد بن جبير

له روايات كثيرة ، وكان من أفضل أهل زمانه ،

عبد الرحمن بن أبان

ابن عثمان بن عفان . له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة

ثم دخلت سنة احدى عشرة ومائة

ففيها غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى[1] ، وغزا سعيد بن هشام الصائفة اليمنى[2]، حتى بلغ قيسارية من بلاد الروم . وفيها عزل هشام بن عبد الملك أشرس بن عبد الله السلمى عن إمرة خراسان وولى عليها الجنيد بن عبد الرحمن ، فلما قدم خراسان تلقته خيول الاتراك منهزمين من المسلمين ، وهو فى سبعة آلاف فتصافوا واقتتلوا قتالا شديداً ، وطمعوا فيه وفيمن معه لقلتهم بالنسبة إليهم ، ومعهم ملكهم خاقان ، وكاد الجنيد أن يهلك ، ثم أظفره الله بهم فهزمهم هزيمة منكرة ، وأسر ابن أخى ملكهم ، وبعث به إلى الخليفة . وحج بالناس فيها إبراهيم بن هشام المخزومى ، وهو أمير الحرمين والطائف ، وأمير العراق خالد القسرى ، وأمير خراسان الجنيد بن عبد الرحمن المرى .

ثم دخلت سنة ثنتي عشرة ومائة

فيها غزا معاوية بن هشام الصائفة فافتتح حصونا من ناحية ملاطية . وفيها سارت الترك من اللان فلقيهم الجراح بن عبد الله الحكمى فيمن معه من أهل الشام وأذربيجان ، فاقتتلوا قبل أن يتكامل إليه جيشه ، فاستشهد الجراح رحمه الله وجماعة معه بمرج أردبيل ، وأخذ العدو أردبيل . فلما بلغ ذلك هشام بن عبد الملك بعث سعيد بن عمرو الجرشى بجيش وأمره بالاسراع إليهم ، فلحق الترك وهم يسيرون بأسارى المسلمين نحو ملكهم خاقان ، فاستنقذ منهم الأسارى ومن كان معهم من نساء المسلمين ، ومن أهل الذمة أيضا ، وقتل من الترك مقتلة عظيمة جدا ، وأسر منهم خلقاً كثيراً فقتلهم صبرا ، وشفى ما كان نغلت من القلوب ، ولم يكتف الخليفة بذلك حتى أرسل أخاه مسلمة بن عبد الملك فى أثر الترك ، فسار إليهم فى برد شديد وشتاء عظيم ، فوصل إلى باب الأبواب واستخلف عنه أميراً وسار هو بمن معه فى طلب الاتراك وملكهم خاقان ، وكان من أمره معهم ما سنذكره . ونهض أمير خراسان فى طلب الاتراك أيضاً فى جيش كثيف ، فوصل إلى نهر بلخ ووجه إليهم سرية ثمانية عشر ألفا ، وأخرى عشرة آلاف يمنة ويسرة ، وجاشت الترك وجيشت ، فأتوا سمرقند فكتب أميرها إليه يعلمه بهم ، وأنه لا يقدر على صون سمرقند منهم ، ومعهم ملكهم الاعظم خاقان ،فالغوث الغوث . فسار الجنيد مسرعاً فى جيش كثيف هو نحو سمرقند حتى وصل إلى شعب سمرقند وبقى بينه وبينها أربعة فراسخ ، فصبحه خاقان فى جمع عظيم ، فحمل خاقان على مقدمة الجنيد فانحازوا إلى العسكر والترك تتبعهم من كل جانب ، فتراءى الجمعان والمسلمون يتغدون ولا يشعرون بانهزام مقدمتهم وانحيازها إليهم ، فنهضوا إلى السلاح واصطفوا على منازلهم ، وذلك فى مجال واسع، ومكان بارز ، فالتقوا وحملت الترك على ميمنة المسلمين وفيها بنو تميم والازد ، فقتل منهم ومن غيرهم خلق

---

(١) أى البلاد الواقعة فى ساحل بلاد الأناضول (٢) أى بر الاناضول من جهة البلاد الداخلية

كثير ، ممن أراد الله كرامتـه بالشهادة ، وقـد برز بعض شجعان المسلمين لجماعة من شجعان الترك فقتلهم ، فناداه منادى خاقان : إن صرت إلينا جعلناك ممن يرقص الصنم الأعظم فنعبدك . فقال : و يحكم ، إنما أقاتلكم على أن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، ثم قاتلهم حتى قتل رحمه الله . ثم تناخى المسلمون وتداعت الأبطال والشجعان من كل مكان ، وصبروا وصابروا ، وحملوا على الترك حملة رجل واحـد ، فهزمهم الله عز وجل ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ثم عطفت الترك عليهم فقتلوا من المسلمين خلقا حتى لم يبق سوى ألفين ، فانا لله و إنا إليه راجعون ، وقتل يومئذ سودة بن أبجر واستأسروا من المسلمين جماعة كثيرة فحملوهم إلى الملك خاقان فأمر بقتلهم عن آخرهم ، فانا لله وإنا إليه راجعون وهذه الوقعة يقال لها وقعة الشعب . وقد بسطها ابن جرير جداً . وممن توفى فيها من الأعيان :

رجاء بن حيوة الكندي

أبو المقدام ، و يقال أبو نصر ، وهو تابعى جليل ، كبير القدر ، ثقة فاضل عادل ، وزير صـدق لخلفاء بنى أمية ، وكان مكحول إذا سئل يقول : سلوا شيخنا وسيدنا رجاء بن حيوة ، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة ووثقوه فى الرواية ، وله روايات وكلام حسن رحمه الله .

شهر بن حوشب الاشعري الحمصي

ويقال إنه دمشقى ، تابعى جليل ، روى عن مولاته أسماء بنت يزيد بن السكن وغيرها ، وحدث عنه جماعة من التابعين وغيرهم : وكان عالما عابداً ناسكا ، لكن تكلم فيه جماعة بسبب أخذه خريطة من بيت المال بغير إذن ولى الأمر ، فعابوه وتركوه عرضة ، وتركوا حديثه وأنشدوا فيه الشعر ، منهم شعبة وغيره ، و يقال إنه سرق غيرها فالله أعلم . وقد وثقه جماعات آخرون وقبلوا روايته وأثنوا عليه وعلى عبادته ودينه واجتهاده ، وقالوا : لايقدح فى روايته ما أخذه من بيت المال إن صح عنه ، وقد كان والياعليه متصرفا فيه فالله أعلم . قال الواقدى : توفى شهر فى هذه السنة ـ أعنى سنة اثنتى عشرة ومائة وقيل قبلها بسنة وقيل سنة مائة فالله أعلم .

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة ومائة

ففيها غزا معاوية بن هشام أرض الروم من ناحية مرعش، وفيها صار جماعة من دعاة بنى العباس إلى خراسان وانتشروا فيها ، وقد أخذ أميرهم رجلا منهـم فقتله وتوعد غيره بمثل ذلك . وفيها وغل مسلمة بن عبـد الملك فى بلاد الترك فقتل منهم خلقا كثيرا ، ودانت له تلك الممالك من ناحية بلنجر وأعمالها . وفيها حج بالناس إبراهيم بن هاشم المخزومى ؛ فالله أعـلم . ونواب البلاد هم المذكورون فى التى قبلها . وممن توفى فيها من الأعيان قال ابن جرير : فيها كان مهلك

الأمير عبد الوهاب بن بخت

وهو مع البطال عبد الله بأرض الروم قتل شبيدا وهذه ترجمته

هو عبد الوهاب بن بخت أبو عبيدة و يقال أبو بكر ، مولى آل مروان مكى ، سكن الشام ثم تحول إلى المدينة ، روى عن ابن عمر وأنس وأبى هريرة وجماعة من التابعين . وعنه خلق منهم أيوب ومالك ابن أنس ويحيى بن سعيد الأنصارى وعبيد الله العمرى ؛ حديثه عن أنس مرفوعاً « نضر الله امرأ سمع مقالتى هذه فوعاها ثم بلغها غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن صدر مؤمن ، إخلاص العمل لله ، ومناصحة أولى الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، كأن دعوتهم تحيط من ورائهم » . وروى عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال قال رسول الله ص . « إذا لقى أحدكم أخاه فليسلم عليه فان حالت بينهما شجرة ثم لقيه فليسلم عليه » . وقد وثق عبد الوهاب هذا جماعات من أئمة العلماء . وقال مالك : كان كثير الحج والعمرة والغزو ، حتى استشهد ولم يكن أحق بما فى رحله من رفقائه ، وكان سمحاً جواداً ، استشهد ببلاد الروم مع الأمير أبى محمد عبد الله البطال ، ودفن هناك رحمه الله . توفى فى هذه السنة قاله خليفة وغيره ، وذلك أنه لقى العدو ففر بعض المسلمين ، فجعل ينادى و يركض فرسه نحو العدو : أن هلموا إلى الجنة ، ويحكم أفراراً من الجنة ؟ أتفرون من الجنة ؟ إلى أين ويحكم لا مقام لكم فى الدنيا ولا بقاء ؟ ثم قاتل حتى قتل رحمه الله .

مكحول الشامي

تابعى جليل القدر ، إمام أهل الشام فى زمانه ، وكان مولى لامرأة من هذيل ، وقيل مولى امرأة من آل سعيد بن العاص ، وكان نوبياً ، وقيل من سبى كابل ، وقيل كان من الأبناء من سلالة الأكاسرة وقد ذكرنا نسبه فى كتابنا التكميل . وقال محمد بن إسحاق : سمعته يقول : طفت الأرض كلها فى طلب العلم : وقال الزهرى : العلماء أربعة ، سعيد بن المسيب بالحجاز ، والحسن البصرى بالبصرة ، والشعبى بالكوفة ، ومكحول بالشام . وقال بعضهم : كان لا يستطيع أن يقول قل ، وإنما يقول كل وكان له وجاهة عند الناس ، مهما أمر به من شئ يفعل . وقال سعيد بن عبد العزيز : كان أفقه أهل الشام ، وكان أفقه من الزهرى . وقال غير واحد : توفى فى هذه السنة ، وقيل بعدها فالله أعلم :

[مكحول الشامى هو ابن أبى مسلم ، واسم أبى مسلم شهزاب بن شاذل . كذا نقلته من خط عبد الهادى ، وروى ابن أبى الدنيا عنه أنه قال : من نظف ثوبه قل همه ، ومن طاب ريحه زيد فى عقله . وقال مكحول فى قوله تعالى (ثم لتسألن يومئذ عن النعيم) قال: بارد الشراب، وظلال المساكن وشبع البطون ، واعتدال الخلق ، ولذاذة النوم . وقال : إذا وضع المجاهدون أثقالهم عن دوابهم أتتها الملائكة ، فمسحت ظهورها ودعت لها بالبركة ، إلا دابة فى عنقها جرس] [1] .

---

(١) زيادة من المصرية .

ثم دخلت سنة أربع عشرة ومائة

فيها غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى وعلى اليمنى سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وهما ابنا أمير المؤمنين هشام : وفيها التقى عبد الله البطال وملك الروم المسمى فيهم قسطنطين ، وهو ابن هرقل الأول الذى كتب إليه النبى (ص.) فأسره البطال ، فأرسله إلى سليمان بن هشام ، فسار به إلى أبيه . وفيها عزل هشام عن إمرة مكة والمدينة والطائف إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، وولى عليها أخاه محمد بن هشام فحج بالناس فى هذه السنة فى قول ، وقال الواقدى وأبو معشر : إنما حج بالناس خالد بن عبد الملك بن مروان والله أعلم . وممن توفى فيها من الأعيان :

عطاء بن ابي رباح

الفهرى مولاهم أبو محمد المكى ، أحد كبار التابعين الثقات الرفعاء ، يقال إنه أدرك مائتى صحابى وقال ابن سعد : سمعت بعض أهل العلم يقول : كان عطاء أسود أعور أفطس أشل أعرج ، ثم عمى بعد ذلك ، وكان ثقة فقيها عالما كثير الحديث ، وقال أبو جعفر الباقر وغير واحد : ما بقى أحد فى زمانه أعلم بالمناسك منه ، وزاد بعضهم ، وكان قد حج سبعين حجة ، وعمر مائة سنة ، وكان فى آخر عمره يفطر فى رمضان من الكبر والضعف ويفدى عن إفطاره ، ويتأول الآية [وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين] وكان ينادى منادى بنى أمية فى أيام منى : لا يفتى الناس فى الحج إلا عطاء بن أبى رباح ، وقال أبو جعفر الباقر : ما رأيت فيمن لقيت أفقه منه ، وقال الأوزاعى : مات عطاء يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عندهم . وقال ابن جريج : كان فى المسجد فراش عطاء عشرين سنة ، وكان من أحسن الناس به صلاة . وقال قتادة : كان سعيد بن المسيب والحسن وإبراهيم وعطاء هؤلاء أئمة الأمصار . وقال عطاء إن الرجل ليحدثنى بالحديث فأنصت له كأنى لم أكن سمعته ، وقد سمعته قبل أن يولد ، فأريه أنى إنما سمعته الآن منه . وفى رواية : أنا أحفظ منه له فأريه أنى لم أسمعه . الجمهور على أنه مات فى هذه السنة رحمه الله تعالى والله أعلم .

فصل

أسند أبو محمد عطاء بن أبى رباح ـ واسم أبى رباح أسلم ـ عن عدد كثير من الصحابة ، منهم ابن عمر وابن عمرو ، وعبد الله بن الزبير ، وأبو هريرة ، وزيد بن خالد الجهنى ، وأبو سعيد . وسمع من ابن عباس التفسير وغيره . وروى عنه من التابعين عدة ، منهم الزهرى ، وعمرو بن دينار ، وأبو الزبير ، وقتادة ، ويحيى بن كثير ، ومالك بن دينار ، وحبيب بن أبى ثابت ، والأعمش ، وأيوب السختيانى ، وغيرهم من الأئمة والأعلام كثير . قال أبو هزان : سمعت عطاء بن أبى رباح يقول :

من جلس مجلس ذكر كفر الله عنه بذلك المجلس عشر مجالس من مجالس الباطل . قال أبو هزا قلت لعطاء : ما مجلس الذكر ؟ قال : مجالس الحلال والحرام ، كيف تصلى ، كيف تصوم ، كيف تنكح وتطلق وتبيع وتشترى .

وقال الطبرانى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم أخبرنا عبد الرزاق عن يحيى بن ربيعة الصنعانى . قال : سمعت عطاء بن أبى رباح يقول فى قوله تعالى : [وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون] قال : كانوا يقرضون الدراهم ، قيل كانوا يقصون منها ويقطعونها . وقال الثورى عن عبد الله بن الوليد - يعنى الوصافى - قال : قلت لعطاء : ما ترى فى صاحب قلم إن هو كتب به عاش هو وعياله فى سعة ، وإن هو تركه افتقر ؟ قال : من الرأس ؟ قلت القسرى لخالد . قال عطاء : قال العبد الصالح : [رب بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين] . وقال : أفضل ما أوتى العباد العقل عن الله وهو الدين . وقال عطاء : ما قال العبد : يا رب ، يا رب ، ثلاث مرات إلا نظر الله إليه ، قال : فذكرت ذلك للحسن فقال: أماتقرؤن القرآن [ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا] إلى قوله : [فاستجاب لهم ربهم] الآيات .

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا أبو عبد الله السلمى حدثنا ضمرة عن عمر بن الورد قال قال عطاء : إن استطعت أن تخلو بنفسك عشية عرفة فافعل . وقال سعيد بن سلام البصرى : سمعت أبا حنيفة النعمان يقول : لقيت عطاء بمكة فسألته عن شئ فقال : من أين أنت ؟ فقلت : من أهل الكوفة . قال : أنت من أهل القرية الذين فارقوا دينهم وكانوا شيعاً ؟ قلت : نعم ! قال : فمن أى الأصناف أنت ؟ قلت : ممن لايسب السلف ويؤمن بالقدر ، ولا يكفر أحداً من أهل القبلة بذنب : فقال عطاء : عرفت فالزم . وقال عطاء : ما اجتمعت عليه الأمة أقوى عندنا من الاسناد . وقيل لعطاء : إن هاهنا قوما يقولون : الايمان لايزيد ولا ينقص ، فقال : [والذين اهتدوا زادهم هدى] فما هذا الهدى الذى زادهم ؟ قلت : ويزعمون أن الصلاة والزكاة ليستا من دين الله ، فقال : قال تعالى : [وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة] فجعل ذلك دينا . وقال يعلى بن عبيد : دخلنا على محمد بن سوقة فقال : ألا أحدثكم بحديث لعله أن ينفعكم ، فانه نفعنى ، قال لى عطاء بن أبى رباح : يا ابن أخى إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكلام إثما ، ما عدا كتاب الله أن يقرأ ، وأمر بمعروف أو نهى عن منكر ، أو ينطق العبد بحاجته فى معيشته التى لابد له منها ، أتنكرون : [وإن عليكم لحافظين كراما كاتبين] و : [عن اليمين وعن الشمال قعيد، مايلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد] أما يستحى أحدكم

لونشرت عليه صحيفته التى أملاها صدر نهاره فرأى أ كثر مافيها ليس من أمر دينه ولا دنياه ؟ .

وقال : إذا أنت خفت الحر من الليل فاقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

و روى الطبرانى وغيره أن الحلقة فى المسجد الحرام كانت لابن عباس ، فلما مات ابن عباس كانت لعطاء بن أبى رباح . و روى عثمان بن أبى شيبة عن أبيه عن الفضل بن دكين عن سفيان عن سلمة بن كهيل قال : ما رأيت أحداً يطلب بعمله ما عند الله تعالى إلا ثلاثة ، عطاء ، وطاوس ، ومجاهد . وقال الأمام أحمد : حدثنا ابن نمير حدثنا عمر بن ذر قال : ما رأيت مثل عطاء قط ، وما رأيت على عطاء قميصا قط ، ولارأيت عليه ثوبا يساوى خمسة دراهم . وقال أبو بلال الأشعرى : حدثنا قيس عن عبد الملك بن جريج عن عطاء : أن يعلى بن أمية كانت له صحبة ، وكان يقعد فى المسجد ساعة ينوى فيها الاعتكاف . وروى الأوزاعى عن عطاء قال : إن كانت فاطمة بنت رسول الله ص. لتعجن ، و إن كانت قصتها لتضرب بالجفنة . وعن الأوزاعى عنه قال : [ولاتأخذكم بهما رأفة فى دين الله] قال : ذلك فى إقامة الحد عليهما .

وقال الأوزاعى : كنت باليمامة وعليها رجل وال يمتحن الناس من أصحاب رسول الله ص. إنه منافق وماهو بمؤمن ، و يأخذ عليهم بالطلاق والعتاق أن يسمى المسيء منافقا وما يسميه مؤمنا ، فأطاعوه على ذلك وجعلوه له ، قال : فلقيت عطاء فيما بعد فسألته عن ذلك فقال : ماأرى بذلك بأسا يقول الله تعالى : [إلا أن تتقوا منهم تقاة] .

وقال الأمام أحمد : حدثنا سفيان بن عيينة حدثنا إسماعيل بن أمية قال : كان عطاء يطيل الصمت فاذا تكلم تخيل الينا أنه يؤيد . وقال فى قوله تعالى : [لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله] قال : لا يلهيهم بيع ولا شراء عن مواضع حقوق الله تعالى التى افترضها عليهم أن يؤدوها فى أوقاتها وأوائلها . وقال ابن جريج : رأيت عطاء يطوف بالبيت فقال لقائده : امسكوا احفظوا عنى خمسا : القدر خيره وشره ، حلوه ومره من الله عز وجل ، وليس للعباد فيه مشيئة ولا تفويض . وأهل قبلتنا مؤمنون حرام دماؤهم وأموالهم إلا بحقها . وقتال الفئة الباغية بالأيدى والنعال والسلاح ، والشهادة على الخوارج بالضلالة . وقال ابن عمر : تجمعون لى المسائل وفيكم عطاء بن أبى رباح .

وقال معاذ بن سعد : كنت جالسا عند عطاء فحدث بحديث ، فعرض رجل له فى حديثه فغضب عطاء وقال : ماهذه الأخلاق ؟ وماهذه الطبائع ؟ والله إنى لأسمع الحديث من الرجل وأنا أعلم به منه فأريه أنى لاأحسن شيئا منه . وكان عطاء يقول : لأن أرى فى بيتى شيطانا خير من أن أرى فيه وسادة ، لأنها تدعو إلى النوم . و روى عثمان بن أبى شيبة عن على بن المدينى عن يحيى بن سعيد عن ابن جريج قال : كان عطاء بعد ما كبر وضعف يقوم إلى الصلاة فيقرأ مائتى آية من سورة البقرة

وهو قائم لايزول منه شيء ولا يتحرك . وقال ابن عيينة : قلت لابن جريج : مارأيت مصليا مثلك . فقال : لو رأيت عطاء ؟ . وقال عطاء : إن الله لايحب الفتى يلبس الثوب المشهور ، فيعرض الله عنه حتى يضع ذلك الثوب . وكان يقال : ينبغى للعبد أن يكون كالمريض لابد له من قوت ، وليس كل الطعام يوافقه . وكان يقال : الدعوة تعمى عين الحكيم فكيف بالجاهل ؟ ولا تغبطن ذا نعمة بما هو فيه فانك لاتدرى إلى ماذا يصير بعد الموت] (١)

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائة

ففيها وقع طاعون بالشام ، وحج بالناس فيها محمد بن هشام بن إسماعيل وهو نائب الحرمين والطائف . والنواب فى سائر البلاد هم المذكورون فى التى قبلها والله أعلم . وممن توفى فيها من الأعيان

ابو جعفر الباقر

وهو محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب القرشى الهاشمى أبو جعفر الباقر ، وأمه أم عبد الله بنت الحسن بن على ، وهو تابعى جليل ، كبير القدر كثيرا ، أحد أعلام هذه الأمة علما وعملا وسيادة وشرفا ، وهو أحد من تدعى فيه طائفة الشيعة أنه أحد الأئمة الاثنى عشر ، ولم يكن الرجل على طريقهم ولا على منوالهم ، ولا يدين بما وقع فى أذهانهم وأوهامهم وخيالهم ، بل كان ممن يقدم أبا بكر وعمر ، وذلك عنده صحيح فى الأثر ، وقال أيضا : ما أدركت أحدا من أهل بيتى إلا وهو يتولاهما رضى الله عنهما . وقد روى عن غير واحد من الصحابة ، وحدث عنه جماعة من كبار التابعين وغيرهم. فممن روى عنه ابنه جعفر الصادق ، والحكم بن عتيبة ، وربيعة ، والأعمش ، وأبو إسحاق السبيعى ، والأوزاعى والأعرج ، وهو أسن منه ، وابن جريج وعطاء وعمرو بن دينار والزهرى . وقال سفيان بن عيينة عن جعفر الصادق قال : حدثنى أبى وكان خير محمدى يومئذ على وجه الأرض ، وقال العجلى : هو مدنى تابعى ثقة ، وقال محمد بن سعد : كان ثقة كثير الحديث ، وكانت وفاته فى هذه السنة فى قول وقيل فى التى قبلها ، وقيل فى التى بعدها أو فى التى هى بعدها وبعد بعدها والله أعلم . وقد جاوز السبعين وقيل لم يجاوز الستين فالله أعلم .

فصل

أبو جعفر محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، كان أبوه على زين العابدين ، وجده الحسين قتلا شهيدين بالعراق . وسمى الباقر لبقره العلوم واستنباطه الحكم ، كان ذا كرا خاشعا صابرا وكان من سلالة النبوة ، رفيع النسب عالى الحسب ، وكان عارفا بالخطرات ، كثير البكاء والعبرات معرضا عن الجدال والخصومات .

---

(١) زيادة من المصرية .

قال أبو بلال الأشعرى : حدثنا محمد بن مروان عن ثابت عن محمد بن على بن الحسين فى قوله تعالى : [أولئك يجزون الغرفة بما صبروا] قال : الغرفة الجنة بما صبروا على الفقر فى الدنيا . وقال عبد السلام بن حرب عن زيد بن خيثمة عن أبى جعفر قال : الصواعق تصيب المؤمن وغير المؤمن، ولا تصيب الذاكر . قلت : وقد روى نحو هذا عن ابن عباس قال : لو نزل من السماء صواعق عدد النجوم لم تصب الذاكر . وقال جابر الجعفى : قال لى محمد بن على : يا جابر إنى لمحزون ، وإنى لمشتغل القلب . قلت : وما حزنك وشغل قلبك ؟ قال : يا جابر إنه من دخل قلبه صافى دين الله عز وجل شغله عما سواه ، يا جابر ما الدنيا ؟ وما عسى أن تكون ؟ هل هى إلا مركبا ركبته ؟ أو ثوبا لبسته ؟ أو امرأة أصبتها ؟ يا جابر ! إن المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقاء فيها ، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم ، ولم يصمهم عن ذكر الله ما سمعوا بآذانهم من الفتنة ، ولم يعمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة ففازوا بثواب الأبرار . إن أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤنة ، وأكثرهم لك معونة ، إن نسيت ذكروك ، وإن ذكرت أعانوك ، قوالين بحق الله ، قوامين بأمر الله ، قطعوا لمحبة ربهم عز وجل ، ونظروا إلى الله وإلى محبته بقلوبهم ، وتوحشوا من الدنيا لطاعة محبوبهم ، وعلموا أن ذلك من أمر خالقهم ، فأنزلوا الدنيا حيث أنزلها مليكهم كمنزل نزلوه ثم ارتحلوا عنه وتركوه ، وكماء أصبته فى منامك فلما استيقظت إذا ليس فى يدك منه شئ ، فاحفظ الله فيما استرعاك من دينه وحكمته .

وقال خالد بن يزيد : سمعت محمد بن على يقول : قال عمر بن الخطاب : إذا رأيتم القارئ يحب الأغنياء فهو صاحب الدنيا ، وإذا رأيتموه يلزم السلطان فهو لص . وكان أبو جعفر يصلى كل يوم وليلة بالمكتوبة . وروى ابن أبى الدنيا عنه قال : سلاح اللئام قبيح الكلام . وروى أبو الأحوص عن منصور عنه قال : لكل شئ آفة ، وآفة العلم النسيان . وقال لابنه : إياك والكسل والضجر فإنهما مفتاح كل خبيثة ، إنك إذا كسلت لم تؤد حقا ، وإن ضجرت لم تصبر على حق . وقال : أشد الأعمال ثلاثة ذكر الله على كل حال ، وإنصافك من نفسك ، ومواساة الأخ فى المال . وقال خلف بن حوشب : قال أبو جعفر : الايمان ثابت فى القلب ، واليقين خطرات ، فيمر اليقين بالقلب فيصير كأنه زبر الحديد ، ويخرج منه فيصير كأنه خرقة بالية ، وما دخل قلب عبد شئ من الكبر إلا نقص من عقله بقدره أو أكثر منه .

وقال لجابر الجعفى : ما يقول فقهاء العراق فى قوله تعالى : [لولا أن رأى برهان ربه] ؟ قال : رأى يعقوب عاضاً على إبهامه . فقال : لا ! حدثنى أبى عن جدى على بن أبى طالب أن البرهان الذى رآه أنها حين همت به وهم بها أى طمع فيها ، قامت إلى صنم لها مكلل بالدر والياقوت فى ناحية البيت فسترته بثوب أبيض خشية أن يراها ، أو استحياء منه . فقال لها يوسف : ما هذا ؟ فقالت إلهى أستحى

منه أن يرانى على هذه الصورة . فقال يوسف : تستحيين من صنم لاينفع ولا يضر ، ولا يسمع ولا يبصر ، أفلا أستحى أنا من إلهى الذى هو قائم على كل نفس بما كسبت ؟ ثم قال : والله لاتنالين منى أبداً . فهو البرهان . وقال بشر بن الحارث الحافى : سمعت سفيان الثورى يقول : سمعت منصوراً يقول : سمعت محمد بن على يقول : الغنى والعز يجولان فى قلب المؤمن ، فاذا وصلا إلى مكان فيه التوكل أوطناه . وقال : إن الله يلقى فى قلوب شيعتنا الرعب ، فاذا قام قائمنا ، وظهر مدينا كان الرجل منهم أجرأ من ليث وأمضى من سيف . وقال : شيعتنا من أطاع الله عزوجل واتقاه . وقال : إياكم والخصومة فانها تفسد القلب ، وتورث النفاق ، وقال : [الذين يخوضون فى آيات الله] هم أصحاب الخصومات .

وقال عروة بن عبد الله : سألت أبا جعفر محمد بن على عن حلية السيف فقال : لابأس به ، قد حلى أبو بكر الصديق سيفه . قال : قلت : وتقول الصديق ؟ قال : فوثب وثبة واستقبل القبلة ثم قال : نعم الصديق ، نعم الصديق ، فمن لم يقل الصديق فلا صدق الله له قولا فى الدنيا والآخرة . وقال جابر الجعفى : قال لى محمد بن على : ياجابر ! بلغنى أن قوماً بالعراق يزعمون أنهم يحبونا و يتناولون أبا بكر وعمر و يزعمون أنى أمرتهم بذلك ، فأبلغهم عنى أنى إلى الله منهم برئ ، والذى نفس محمد بيده ـ يعنى نفسه ـ لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم ، لانالتنى شفاعة محمد (ص) إن لم أكن أستغفر لهما ، وأترحم عليهما ، إن أعداء الله لغافلون عن فضلهما وسابقتهما ، فأبلغهم أنى برئ منهم وممن تبرأ من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . وقال : من لم يعرف فضل أبى بكر وعمر فقد جهل السنة . وقال فى قوله تعالى : [إنما وليكم الله و رسوله والذين آمنوا] الآية ، قال : هم أصحاب محمد (ص) ، قال : قلت : يقولون : هو على قال : علىّ من أصحاب محمد (ص) .

وقال عبد الله بن عطاء : ما رأيت العلماء عند أحد أصغر منهم عند أبى جعفر محمد بن على ، قال : رأيت الحكم عنده كأنه متعلم ، وقال : كان لى أخ فى عينى عظيم ، وكان الذى عظمه فى عينى صغر الدنيا فى عينه ، وقال جعفر بن محمد : ذهبت بغلة أبى فقال : لئن ردها الله على لأحمدنه بمحامد يرضاها ، فما كان بأسرع من أن أتى بها بسرجها لم يفقد منها شئ ، فقام فركبها ، فلما استوى عليها وجمع إليه ثيابه رفع رأسه إلى السماء وقال : الحمد لله ، لم يزد على ذلك ، فقيل له فى ذلك ، فقال : فهل تركت أو أبقيت شيئا ؟ جعلت الحمد كله لله عز وجل . وقال عبد الله بن المبارك : قال محمد بن على : من أعطى الخلق والرفق فقد أعطى الخير والراحة ، وحسن حاله فى دنياه وآخرته ، ومن حرمهما كان ذلك سبيلا إلى كل شر و بلية ، إلا من عصمه الله . وقال : أيدخل أحدكم يده فى كم صاحبه فيأخذ مايريد تاما إلا قال : فلستم إخوانا كما تزعمون ، وقال : اعرف مودة أخيك لك بماله فى قلبك من المودة

فان القلوب تتسكافأ . وسمع عصافير يصحن فقال : أتدرى ماذا يقلن ؟ قلت : لا ! ! قال : يسبحن الله و يسألنــه رزقهن يوما بيوم . وقال : تدعو الله بمـا تحب ، و إذا وقع الذى تكره لم تخالف الله عز وجل فيما أحب .

وقال : ما من عبادة أفضل من عفة بطن أو فرج ، وما من شئ أحب إلى الله عز وجل من أن يسأل . وما يدفع القضاء إلا الدعاء . و إن أسرع الخير ثوابا البر ، وأسرع الشر عقوبة البغى ، وكفى بالمرء عيبا أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه ، وأن يأمر الناس بما لا يستطيع أن يفعله ، و ينهى الناس بما لا يستطيع أن يتحول عنه . وأن يؤذى جليسه بما لا يعنيه . هـذه كلمات جوامع موانع لا ينبغى لعاقل أن يفعلها . وقال القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق . وقال أبو جعفر : صحب عمر بن الخطاب رجل إلى مكة فمات فى الطريق ، فاحتبس عليه عمر حتى صلى عليه ودفنه ، فقل يوم إلا كان عمر يتمثل بهذا البيت :

و بالغُ أمرٍ كانَ يأملُ دونهُ * ومختلجٌ مِنْ دونِ ما كانَ يأملُ

وقال أبو جعفر : والله لموت عالم أحب إلى إبليس من موت ألف عابد . وقال : ما اغرو رقت عين عبد بمائها إلا حرم الله وجه صاحبها على النار ، فان سالت على الخدين لم يرهق وجهه قتر ولا ذلة ، وما من شئ إلا وله جزاء إلا الدمعة فان الله يكفر بها بحور الخطايا ، ولو أن باكيا بكى من خشية الله فى أمة رحم الله تلك الأمة . وقال : بئس الأخ أخ يرعاك غنياً و يقطعك فقيراً . قلت : البيت الذى كان يتمثل به قبله بيتان وهو ثالثهما ، وهذه الأبيات تتضمن حكما و زهدا فى الدنيا قال :

لقدْ غرتْ الدنيا رجالاً فأصبحوا * بمنزلةٍ مابعدها متحولُ

فساخطُ أمرٍ لايبدلُ غيرهُ * وراضٍ بأمرٍ غيرهُ سيبدلُ

[وبالغُ أمرٍ كانَ يأملُ دونهُ * ومختلجٌ منْ دونِ ماكانَ يأملُ] (١)

ثم دخلت سنة ست عشرة ومائة

ففيها غزا معاوية بن هشام الصائفة ، وفيها وقع طاعون عظيم بالشام والعراق ، وكان معظم ذلك فى واسط . وفى المحرم منها توفى الجنيد بن عبد الرحمن المرى أمير خراسان من مرض أصابه فى بطنه ، وكان قد تزوج الفاضلة بنت يزيد بن المهلب فتغضب عليه أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك فعزله و ولى مكانه عاصم بن عبد الله على خراسان ، وقال له : إن أدركته قبل أن يموت فأزهق روحه . فلما قدم عاصم بن عبد الله خراسان حتى مات الجنيد فى المحرم منها بمرو ، وقال فيه أبو الجرير عيسى بن عصمة يرثيه:

هلك الجود والجنيد جميعا * فعلى الجود والجنيد السلام

---

(١) زيادة من المصرية .

أصبحا ثاويين فى بطن مرو * ما تغنّى على الغصون الحمامُ

كنتما نزهةَ الكرام فلما * متّ ماتَ الندى وماتَ الكرامُ

ولما قدم عاصمٌ خراسان أخذ نوّاب الجنيد بالضرب البليغ وأنواع العقوبات ، وعسفهم فى المصادرات والجنايات ، فخرج عن طاعته الحارث بن شريح فبارزه بالحرب ، وجرت بينهما أمور يطول ذكرها ، ثم آل الأمر إلى أن انكسر الحارث بن شريح وظهر عاصم عليه . قال الواقدى : وفيها حج بالناس الوليد بن يزيد وهو ولى الأمر من بعد عمه هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائة

فيها غزا معاوية بن هشام الصائفة اليسرى ، وسليمان بن هشام الصائفة اليمنى ، وهما ابنا أمير المؤمنين هشام . وفيها بعث مروان بن محمد - وهو مروان الحمار - وهو على أرمينية بعثين ففتح حصونا من بلاد اللان ، ونزل كثير منهم على الايمان : وفيها عزل هشام عاصم بن عبد الله الهلالى الذى ولاه فى السنة قبلها خراسان مكان الجنيد ، فعزله عنها وضمها إلى عبد الله بن خالد القسرى مع العراق معادة اليه جريا على ماسبق له من العادة ، وكان ذلك عن كتاب عاصم بن عبد الله الهلالى المعزول عنها ، وذلك أنه كتب إلى أمير المؤمنين هشام : إن ولاية خراسان لاتصلح إلا مع ولاية العراق ، رجاء أن يضيفها إليه ، فانعكس الأمر عليه فأجابه هشام إلى ذلك قبولا إلى نصيحته ، وأضافها إلى خالد القسرى . وفيها توفى

قتادة بن دعامة السدوسي

أبو الخطاب البصرى الأعمى ، أحد علماء التابعين ، والأئمة العاملين ، روى عن أنس بن مالك وجماعة من التابعين ، منهم سعيد بن المسيب ، والبصرى ، وأبو العالية ، وزرارة بن أوفى ، وعطاء ومجاهد ، ومحمد بن سيرين ، ومسروق ، وأبو مجلز وغيرهم ، وحدث عنه جماعات من الكبار كأيوب وحماد بن مسلمة ، وحميد الطويل ، وسعيد بن أبى عروبة ، والأعمش ، وشعبة ، والأوزاعى ، ومسعر ، ومعمر ، وهمام . قال ابن المسيب : ماجاءنى عراقى أفضل منه . وقال بكر المزنى : مارأيت أحفظ منه . وقال محمد بن سيرين : هو من أحفظ الناس ، وقال مطر : كان قتادة إذا سمع الحديث يأخذه العويل والزويل حتى يحفظه ، وقال الزهرى : هو أعلم من مكحول . وقال معمر : مارأيت أفقه من الزهرى وحماد وقتادة . وقال قتادة : ماسمعت شيئاً إلا وعاه قلبى . وقال أحمد بن حنبل : هو أحفظ أهل البصرة ، لايسمع شيئاً إلا حفظه . وقرئ عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها . وذكر يوماً فأثنى على علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير وغير ذلك ، وقال أبو حاتم : كانت وفاته بواسط

فى الطاعون ـ يعنى فى هذه السنة ـ وعمره ست أو سبع وخمسون سنة

[قال قتادة : من وثق بالله كان الله معه ، ومن يكن الله معه تكن معه الفئة التى لاتغلب ، والحارس الذى لاينام ، والهادى الذى لايضل ، والعالم الذى لاينسى . وقال . فى الجنة كوة إلى النار فيقولون : مابال الأشقياء دخلوا النار ، وإنما دخلنا الجنة بفضل تأديبكم ، فقالوا : إنا كنا نأمركم ولا نأتمر ، وننهاكم ولاننتهى . وقال : باب من العلم يحفظه الرجل يطلب به صلاح نفسه وصلاح دينه وصلاح الناس ، أفضل من عبادة حول كامل . وقال قتادة : لو كان يكتفى من العلم بشئ لا كتفى موسى عليه السلام بما عنده ، ولكنه طلب الزيادة] [1]

وفيها توفى : أبو الحباب سعيد بن يسار والأعرج ، وابن أبى مليكة ، وعبد الله بن أبى زكريا الخزاعى ، وميمون بن مهران بن موسى بن وردان

فصل

فأما سعيد بن يسار فكان من العباد الزهاد ، روى عن جماعة من الصحابة ، وكذلك الأعرج وابن أبى مليكة . وأما ميمون بن مهران فهو من أجلاء علماء التابعين وزهادهم وعبادهم وأئمتهم . كان ميمون إمام أهل الجزيرة . روى الطبرانى عنه أنه قيل له : مالك لا يفارقك أخ لك عن قلى ؟ قال : لأنى لا أماريه ولا أشاريه . قال عمر بن ميمون : ما كان أبى يكثر الصلاة ولا الصيام ، ولكن كان يكره أن يعصى الله عز وجل . وروى ابن أبى عدى عن يونس عنه قال : لا تمارين عالما ولا جاهلا ، فانك إن ماريت عالما خزن عنك علمه ، وإن ماريت جاهلا خشن بصدرك . وقال عمر بن ميمون : خرجت بأبى أقوده فى بعض سكك البصرة ، فمررنا بجدول فلم يستطع الشيخ أن يتخطاه ، فاضطجعت له فمر على ظهرى ، ثم قمت فأخذت بيده . ثم دفعنا إلى منزل الحسن فطرقت الباب فخرجت إلينا جارية سداسية ، فقالت : من هذا ؟ فقلت : هذا ميمون بن مهران أراد لقاء الحسن ، فقالت : كاتب عمر بن عبد العزيز ؟ قلت لها : نعم ! قالت : ياشقى ما بقاؤك إلى هذا الزمان السوء ؟ : قال : فبكى الشيخ فسمع الحسن بكاءه فخرج إليه فاعتنقا ثم دخلا ، فقال ميمون : يا أبا سعيد ! إنى قد أنست من قلبى غلظة فاستكن لى منه ، فقرأ الحسن : [أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون] فسقط الشيخ مغشيا عليه ، فرأيته يفحص برجليه كما تفحص الشاة إذا ذبحت ، فأقام طويلا ثم جاءت الجارية فقالت : قد أتعبتم الشيخ ، قوموا تفرقوا ، فأخذت بيد أبى فخرجت فقلت : ياأبت أهذا هو الحسن ؟ قال : نعم . قلت : قد كنت أحسب فى

---

(١) زيادة من المصرية .

نفسى أنه أكبر من هـذا ، قال : فوكز فى صدرى وكزة ثم قال : يا بنى لقد قرأ علينا آية لو فهمتها بقلبك لألفيت لها فيه كلوما .

وروى الطبرانى عنـه أنه قال : ما أحب أنى أعطيت درهما فى لهو وأن لى مكانه مائة ألف ، أخشى أن تصيبنى هذه الآية : [ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله] الآية وقال جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران قال : كنت عنـد عمر بن عبد العزيز فلما قمت قال عمر : إذا ذهب هذا وأضرابه لم يبق من الناس إلا حجاجة

وروى الامام أحمد عن معمر بن سليمان الرقى عن فرات بن سليمان عن ميمون بن مهران قال : ثلاث لاتبلون نفسك بهن : لاتدخل على سلطان وإن قلت آمره بطاعة الله ، ولاتدخل عـلى امرأة وإن قلت أعلمها كتاب الله ، ولا تصغين بسمعك إلى ذى هوى فانك لا تدرى مايعلق بقلبك من هواه . وروى عبد الله بن أحمد عنه فى قوله تعالى : [إن جهنم كانت مرصادا] و [إن ربك لبالمرصاد] فقال : التمسوا هذين المرصادين جوازا . وفى قوله تعالى : [ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون] فيها وعيـد شـديد للظالم ، وتعزية للمظلوم . وقال : لو أن أهل القرآن صلحوا لصلح الناس . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا عيسى بن سالم الشاشى حدثنا أبو المليح قال : سمعت ميمون بن مهران يقول : لاخير فى الدنيا إلا رجلين ، رجل تائب - أو قال : يتوب - من الخطيئات ، ورجل يعمل فى الدرجات ، فلا خير فى العيش والبقاء فى الدنيا إلا لهذين الرجلين ، رجل يعمل فى الكفارات ورجل يعمل فى الدرجات ، وبقاء ماسواهما وبال عليـه . وقال جعفر بن برقان : سمعت ميمون بن مهران يقول : إن هـذا القرآن قد خلق فى صدور كثير من الناس ، فالتمسوا ماسواه من الأحاديث ، وإن فيمن يتبع هـذا العلم قوما يتخذونه بضاعة يلتمس بها الدنيا ، ومنهم من يريد أن يمارى به ؛ وخيرهم من يتعلمه ويطيع الله عز وجل به . وقال : من اتبع القرآن قاده القرآن حتى يحل به الجنة ؛ ومن ترك القرآن لم يدعه القرآن يتبعه حتى يقذفه فى النار .

وقال الأمام أحمد : حـدثنا خالد بن حيان حدثنا جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران قال : لايسلم الرجل الحلال حتى يجعل بينه وبين الحرام حاجزاً من الحلال . وقال ميمون : من كان يريد أن يعلم مامنزلته عند الله فلينظر فى عمله فانه قادم عليه كائنا ما كان . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا يحيى بن عثمان الحربى حدثنا أبو المليح عن ميمون بن مهران . قال : نظر رجل من المهاجرين إلى رجل يصلى فأخف الصـلاة فعاتبه ، فقال : إنى ذكرت ضيعة لى . فقال : أكبر الضيعة أضعته . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنا جعفر بن محمد الدسعنى حدثنا أبوجعفر النفيلى حدثنا عثمان ابن عبد الرحمن عن طلحة بن زيد قال قال ميمون : لا تعرف الأمير ولا تعرف من يعرفه . وروى

عبد الله بن أحمد عنه أيضا قال : لأن أوتمن على بيت مال أحب إلى من أن أوتمن على امرأة . وقال أبو يعلى الموصلى : حدثنا هاشم بن الحارث حدثنا أبو المليح الرقى عن حبيب بن أبى مرزوق قال قال ميمون : وددت أن إحدى عينى ذهبت و بقيت الأخرى أتمتع بها ، وأنى لم أل عملا قط . قلت : ولا لعمر بن عبد العزيز ؟ قال : ولا لعمر بن عبد العزيز ، لاخير فى العمل لالعمر ولا لغيره .

وقال أحمد : حدثنا زيد بن الحباب حدثنا سفيان حدثنا جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران قال : ما عرضت قولى على عملى إلا وجدت من نفسى اعتراضا . وقال الطبرانى : حدثنا المقدام بن داود حدثنا على بن معبد حدثنا خالد بن حيان حدثنا جعفر عن ميمون قال : قال لى ميمون : قل لى فى وجهى ما أكره ، فان الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له فى وجهه مايكره . وروى عبد الله ابن أحمد عنه فى قوله تعالى : [خافضة رافعة] قال : تخفض أقواماً وترفع آخرين . وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل : حدثنى عيسى بن سالم حدثنا أبو المليح حدثنا بعض أصحابى قال : كنت أمشى مع ميمون فنظر فرأى على ثوب كتان فقال : أما بلغك أنه لا يلبس الكتان إلا غنى أو غاو ؟ وبهذا الاسناد سمعت ميمون بن مهران يقول : أول من مشت الرجال معه وهو راكب الأشعث بن قيس الكندى ، ولقد أدركت السلف وهم إذا نظروا إلى رجل راكب و رجل يحضر معه ، قالوا : قاتله جبار .

وقال عبد الله بن أحمد : بلغنى عن عبد الله بن كريم بن حبان ـ وقد رأيته ـ حدثنا أبو المليح قال قال ميمون : ما أحب أن لى ما بين باب الرُّها إلى حوران بخمسة دراهم . وقال ميمون : يقول أحدهم : اجلس فى بيتك واغلق عليك بابك وانظر هل يأتيك رزقك ؟ نعم والله لو كان له مثل يقين مريم و إبراهيم عليهما السلام ، وأغلق عليه بابه ، وأرخى عليه ستره ، لجاءه رزقه . وقال : لو أن كل إنسان منا يتعاهد كسبه فلم يكسب إلا طيبا ، فأخرج ما عليه ، ما احتيج إلى الأغنياء ، ولا احتاج الفقراء . وقال أبو المليح عن ميمون قال : ما بلغنى عن أخ لى مكروه قط إلا كان إسقاط المكروه عنه أحب إلى من تحقيقه عليه ، فان قال : لم أقل ، كان قوله لم أقل أحب إلى من ثمانية يشهدون عليه ، فان قال : قلت ولم يعتذر ، أبغضته من حيث أحببته . وقال : سمعت ابن عباس يقول : ما بلغنى عن أخ لى مكروه قط إلا أنزلته إحدى ثلاث منازل ، إن كان فوقى عرفت له قدره ، وإن كان نظيرى تفضلت عليه ، وإن كان دونى لم أحفل به . هذه سيرتى فى نفسى ، فمن رغب عنها فان أرض الله واسعة .

وقال أبان بن أبى راشد القشيرى : كنت إذا أردت الصائفة أتيت ميمون بن مهران أودعه ، فما يزيدنى على كلمتين . اتق الله ولا يغرنك طمع ولا غضب . وقال أبو المليح عن ميمون قال : العلماء هم ضالتى فى كل بلدة ، وهم أحبتى فى كل مصر ، ووجدت صلاح قلبى فى مجالسة العلماء . وقال فى قوله

تعالى : [إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب] قال : عزقا . وقال : لأن أتصدق بدرهم فى حياتى أحب إلى من أن أتصدق بمائة درهم بعد موتى . وقال : كان يقال : الذكر ذكران ، ذكر الله باللسان ، وأفضل من ذلك أن تذكره عند ما أحل وحرم ، وعند المعصية فتكف عنها وقد أشرفت. وقال : ثلاث الكافر والمؤمن فيهن سواء ، الأمانة تؤديها إلى من ائتمنك عليها من مسلم وكافر ، وبر الوالدين وإن كانا كافرين ، والعهد تفى به للمؤمن والكافر . وقال صفوان عن خلف بن حوشب عن ميمون قال : أدركت من لم يكن يملأ عينيه من السماء فرقا من ربه عز وجل .

وقال أحمد بن بزيغ : حدثنا يعلى بن عبيد حدثنا هارون أبو محمد البربرى أن عمر بن عبد العزيز استعمل ميمون بن مهران على الجزيرة وعلى قضائها وخراجها ، فمكث حينا ثم كتب إلى عمر يستعفيه عن ذلك ، وقال : كلفتنى مالا أطيق ، أقضى بين الناس وأنا شيخ كبير ضعيف رقيق فكتب إليه عمر : اجب من الخراج الطيب ، واقض بما استبان لك ، فاذا التبس عليك أمر فارفعه إلىّ ، فان الناس لو كان إذا كبر عليهم أمر تركوه ما قام لهم دين ولا دنيا.

وقال قتيبة بن سعيد : حدثنا كثير بن هشام حدثنا جعفر بن برقان قال : سمعت ميمون بن مهران يقول : إن العبد إذا أذنب ذنبا نكت فى قلبه نكتة سوداء ، فاذا تاب محيت من قلبه فترى قلب المؤمن مجليا مثل المرآة ، مايأتيه الشيطان من ناحية إلا أبصره ، وأما الذى يتتابع فى الذنوب فانه كلما أذنب نكتت فى قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه فلا يبصر الشيطانَ من أين يأتيه . وقال الامام أحمد : حدثنا على بن ثابت حدثنا جعفر عن ميمون قال : ما أقل أكياس الناس : ألا يبصر الرجل أمره حتى ينظر إلى الناس وإلى ما أدوا به ، وإلى ماقد أكبوا عليه من الدنيا ، فيقول : ماهؤلاء إلا أمثال الأباعر ، لاهم لها إلا ماتجعل فى أجوافها ، حتى إذا أبصر غفلتهم نظر إلى نفسه فقال : والله إنى لأرانى من شرهم بعيراً واحدا . وبهذا الأسناد عنه : مامن صدقة أفضل من كلمة حق عند إمام جائر . وقال : لاتعذب المملوك ولا تضر به على كل ذنب ، ولكن احفظ ذلك له ، فاذا عصى الله عز وجل فعاقبه على معصية الله وذكره الذنوب التى أذنب بينك وبينه . وقال قتيبة : حدثنا جعفر بن برقان سمعت ميمون بن مهران يقول : لايكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك شريكه ، حتى يعلم من أين مطعمه ، ومن أين مشربه ، أمن حلال ذلك أم من حرام ؟ .

وقال أبو زرعة الدارمى : حدثنا سعيد بن حفص النفيلى حدثنا أبو المليح عن ميمون قال : الفاسق بمنزلة السبع فاذا كلمت فيه فخليت سبيله فقد خليت سبعا على المسلمين . وقال جعفر بن برقان : قلت لميمون بن مهران : إن فلانا يستبطئ نفسه فى زيارتك ، قال : إذا ثبتت المودة فى القلوب فلا

بأس و إن طال المكث . وقال أحمد : حدثنا ميمون الرقى حدثنا الحسن أبو المليح عن ميمون قال: لاتجد غريما أهون عليك من بطنك أو ظهرك . وقال الامام أحمد أيضاً : حدثنا عبد الله بن ميمون حدثنا الحسن عن حبيب بن أبى مرزوق قال : رأيت على ميمون جبة صوف تحت ثيابه فقلت له : ماهذا ؟ قال : نعم ! فلا تخبر به أحدا . وقال عبد الله بن أحمد : حدثنى يحيى بن عثمان حدثنا أبو المليح عن ميمون قال : من أساء سراً فليتب سراً ، ومن أساء علانيـة فليتب علانية ، فان الله يغفر ولا يعير ، و إن الناس يعيرون ولايغفرون .

وقال جعفر قال ميمون : فى المال ثلاث آفات ، إن نجا صاحبه من واحـدة لم ينج من اثنتين، و إن نجا من اثنتين كان قمينا أن لاينجو من الثالثـة ، ينبغى أن يكون حلالا طيبا ، فأيكم الذى يسلم كسبه فلم يدخله إلا طيبا ؟ فان سلم من هذه فينبغى أن يؤدى الحقوق التى تلزمه فى ماله ، فان سلم من هذه فينبغى أن يكون فى نفقته ليس بمسرف ولا مقتر . وقال : سمعت ميمونا يقول : أهون الصوم ترك الطعام والشراب . وقال عبد الله بن أحمد : حدثنا يحيى بن عثمان الحربى حدثنا أبو المليح عن ميمون ابن مهران قال : مانال رجل من جسيم الخير نبى أوغيره إلا بالصبر . وبهذا الاسناد قال : الدنيا حلوة خضرة قد حفت بالشهوات ، والشيطان عدو حاضر ،فيظن أن أمر الآخرة آجل ، وأمر الدنيا عاجل . وقال يونس بن عبيـدة : كان طاعون قبل بلاد ميمون بن مهران ، فكتبت إليـه أسأله عن أهله : فكتب إلى : بلغنى كتابك تسألنى عن أهلى ، وانه مات من أهـلى وخاصتى سبعة عشر إنسانا : و إنى أكره البـلاء إذا أقبل ، فاذا أدبر لم يسرنى أنه لم يكن ، وأما أنت فعليك بكتاب الله ، فان الناس قـد بهئوا عنـه - يعنى أيسوا - واختاروا الأحاديث ، أحاديث الرجال ، و إياك والمراء فى الدين . قال أبو عبيد فى الغريب بهئوا به مهموزاً ، ومعناه : أنسوا به .

وقال عمر بن ميمون : كنت مع أبى ونحن نطوف بالكعبة فلقى أبى شيخ فعانقـه ، ومع الشيخ فتى نحو منى ، فقال له أبى : من هذا ؟ قال : ابنى . فقال : كيف رضاك عنه ؟ فقال : مابقيت خصلة يا أبا أيوب من خصال الخير إلا وقد رأيتها فيه ، إلا واحدة . قال : وماهى ؟ قال : أن يموت فأوجر فيه - أو قال فأحتسـبه - ثم فارقه أبى ، فقلت : من هـذا الشيخ ؟ فقال : مكحول . وقال : شر الناس العيابون ، ولا يلبس الكتان إلا غنى أو غوى .

و روى الامام أحمد عنه قال : يا ابن آدم خفف عن ظهرك فان ظهرك لا يطيق كل هذا الذى يحمل ، من ظلم هذا ، وأكل مال هذا ،وغشم هذا ، وكل هذا على ظهرك تحمله ، فخفف عن ظهرك . وقال : إن أعمالكم قليلة فأخلصوا هذا القليل . وقال : ما أتى قوم فى ناديهم المنكر إلا حق هلاكهم. و روى عبـد الله بن أحمد عنه أنه قرأ [وامتازوا اليوم أيها المجرمون] ثم فارق حتى بكى ، ثم قال :

ماسمع الخلائق بنعت قط أشد منه . وقال أبو عوانة : حدثنا إبراهيم بن عبد الله حدثنا محمد بن إسحاق حدثنا قتيبة بن سعيد حدثنا خالد عن حصين بن عبد الرحمن عن ميمون قال : أربع لاتكلم فيهم : على ، وعثمان ، والقدر ، والنجوم . وقال : احذروا كل هوى يسمى بغير الاسلام .

وروى شبابة عن فرات بن السائب قال : سألت ميمون أعلى أفضل عندك أم أبو بكر وعمر ؟ فارتعد حتى سقطت عصاه من يده ثم قال : ما كنت أظن أن أبقى الى زمان يعدل بهما غيرهما، إنهما كانا رداءى الاسلام ، ورأس الاسلام ، ورأس الجماعة . فقلت : فأبو بكر كان أول إسلاما أم على ؟ فقال : والله لقد آمن أبو بكر بالنبى صلى الله عليه وسلم زمن بحيرا الراهب حين مر به ، وكان أبو بكر هو الذى يختلف بينه وبين خديجة حتى أنكحها إياه . وذلك كله قبل أن يولد على ، وكان صاحبه وصديقه قبل ذلك . وروى ميمون بن مهران عن ابن عمر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل مايوجد فى آخر الزمان درهم من حلال ، أو أخ يوثق به » . وروى عن ابن عمر أيضا عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « شر المال فى آخر الزمان المماليك » . وروى ابن أبى الدنيا عنه قال : من طلب مرضاة الاخوان بلا شئ فليصادق أهل القبور . وقال : من ظلم أحداً ففاته أن يخرج من مظلمته فاستغفر له دبر كل صلاة خرج من مظلمته . وهذا إن شاء الله يدخل فيه الأعراض والأموال وسائر المظالم . وقال ميمون : القاتل والآمر والمأمور والظالم والراضى بالظلم ، كلهم فى الوزر سواء . وقال : أفضل الصبر الصبر على ماتكره نفسك . من طاعة الله عز وجل .

روى ميمون عن جماعة من الصحابة ، وكان يسكن الرقة ، رحمه الله تعالى] (١)

نافع مولى ابن عمر

أبو عبد الله المدنى أصله من بلاد المغرب ، وقيل من نيسابور ، وقيل من كابل ، وقيل غير ذلك . روى عن مولاه عبد الله بن عمر وجماعة من الصحابة ، مثل رافع بن خديج ، وأبى سعيد وأبى هريرة وعائشة وأم سلمة وغيرهم : وروى عنه خلق من التابعين وغيرهم ، وكان من الثقات النبلاء ، والأئمة الأجلاء ، قال البخارى : أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر ، وقال غيره . كان عمر بن عبد العزيز قد بعثه إلى مصر يعلم الناس السنن ، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة ووثقوه ومات فى هذه السنة على المشهور

ذو الرمة الشاعر

واسمه غيلان بن عتبة بن بهيس ، من بنى عبد مناة بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر ، أبو الحارث أحد فحول الشعراء ، وله ديوان مشهور ، وكان يتغزل فى مى بنت مقاتل بن طلبة بن قيس

---

(١) زيادة من المصرية .

ابن عاصم المنقرى ، وكانت جميلة ، وكان هو دميم الخلق أسود اللون ، ولم يكن بينهما فحش ولا خنا ولم يكن رآها قط ولا رأته ، و إنما كانت تسمع به و يسمع بها ، و يقال : إنها كانت تنذر إن هى رأته أن تذبح جزورا ، فلما رأته قالت : واسوأتاه واسوأتاه ، ولم تبد له وجهها قط إلا مرة واحدة ، فأنشأ يقول : على وجهِ مي لمحةٌ من حلاوةٍ * وتحتَ الثياب العارُ لو كانَ باديا

قال فانسلخت من ثيابها فقال :

ألم ترَ أنَّ الماءَ يخبثُ طعمهُ * وإنْ كانَ لونُ الماءِ أبيضَ صافيا

فقالت : تريد أن تذوق طعمه ؟ فقال : إى والله ، فقالت : تذوق الموت قبل أن تذوقه . فأنشأ يقول :

فواضيعةُ الشعرِ الذى راحَ وانقضى * بمى ولمْ أملكْ ضلالَ فؤاديا

قال ابن خلكان : ومن شعره السائر بين الناس ماأنشده :

إذا هبتْ الأرياحُ مِنْ نحوِ جانبٍ * بهِ أهلُ مى هاجَ شوقى هبوبها

هوى تذرفُ العينانِ منهُ وإنما * هوى كلِ نفسٍ أينَ حلَ حبيبها

وأنشد عند الموت :

ياقابضَ الأرواح فى جسمى إذا احتضرتْ * وغافرَ الذنبِ زحزحنى عَنِ النارِ

ثم دخلت سنة ثماني عشرة ومائة

فيها غزا معاوية وسليمان ابنا أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بلاد الروم ، وفيها قصد شخص يقال له : عمار بن يزيد ، ثم سمى بخداش ، إلى بلاد خراسان ودعا الناس إلى خلافة محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، فاستجاب له خلق كثير ، فلما التفوا عليه دعاهم إلى مذهب الخرمية الزنادقة ، وأباح لهم نساء بعضهم بعضا ، وزعم لهم أن محمد بن على يقول ذلك ، وقد كذب عليه فأظهر الله عليه الدولة فأخذ فجئ به إلى خالد بن عبد الله القسرى أمير العراق وخراسان ، فأمر به فقطعت يده وسل لسانه ثم صلب بعد ذلك . وفيها حج بالناس محمد بن هشام بن إسماعيل أمير المدينة ، وقيل إن إمرة المدينة كانت مع خالد بن عبد الملك بن مروان ، والصحيح أنه كان قد عزل وولى مكانه محمد بن هشام بن إسماعيل ، وكان أمير العراق القسرى . وفيها كانت وفاة :

علي بن عبدالله بن عباس

ابن عبد المطلب القرشى الهاشمى أبو الحسن ، ويقال أبو محمد ، وأمه زرعة بنت مسرح بن معديكرب الكندى ، أحد الملوك الأربعة الأقيال المذكورين فى الحديث الذى رواه أحمد ، وهم مسرح ، وحمل ، ومخولس ، وأبضعة : وأختهم العمردة وكان مولد على هذا يوم قتل على بن أبى

طالب ، فسماه أبوه باسمه ، وكناه بكنيته ، وقيل إنه ولد فى حياة على وهو الذى سماه وكناه ولقبه بأبى الأملاك ، فلما وفد على عبد الملك بن مروان أجلسه معه على السرير وسأله عن اسمه وكنيته فأخبره فقال له : ألك ولد ؟ قال : نعم ولد لى ولد سميته محمداً ، فقال له : أنت أبو محمد ، وأجزل عطيته ، وأحسن إليه . وقد كان على هذا فى غاية العبادة والزهادة والعلم والعمل وحسن الشكل والعدالة والثقة كان يصلى فى كل يوم وليلة ألف ركعة ، قال عمرو بن على الفلاس : كان من خيار الناس ، وكانت وفاته بالجهمة من أرض البلقاء فى هذه السنة ، وقد قارب الثمانين . وقد ذكر ابن خلكان أنه تزوج لبابة بنت عبد الله بن جعفر ، التى كانت تحت عبد الملك بن مروان ، فطلقها ، وكان سبب طلاقه إياها أنه عض تفاحة ثم رمى بها إليها فأخذت السكين فحزت من التفاحة ماس فمه منها ، فقال : ولم تفعلين هذا ؟ فقالت : أزيل الأذى عنها ـ وذلك لأن عبد الملك كان أبخر ـ فطلقها عبد الملك ، فلما تزوجها على بن عبد الله بن عباس هذا نقم عليه الوليد بن عبد الملك لأجل ذلك ، فضربه بالسياط ، وقال إنما أردت أن تذل بنيها من الخلفاء ، وضربه مرة ثانية لأنه اشتهر عنه أنه قال : الخلافة صائرة إلى بنيه ، فوقع الأمر كذلك . وذكر المبرد أنه دخل على هشام بن عبد الملك ومعه ابناه السفاح والمنصور وهما صغيران ، فأكرمه هشام وأدنى مجلسه ، وأطلق له مائة وثلاثين ألفا ، وجعل على بن عبد الله يوصيه بابنيه خيرا ، ويقول : إنهما سيليان الأمر ، فجعل هشام يتعجب من سلامة باطنه وينسبه فى ذلك إلى الحمق ، فوقع الأمر كما قال . قالوا : وقد كان على فى غاية الجمال وتمام القامة ، كان بين الناس كأنه راكب ، وكان إلى منكب أبيه عبد الله ، وكان عبد الله إلى منكب أبيه العباس ، وكان العباس إلى منكب أبيه عبد المطلب ، وقد بايع كثير من الناس لابنه محمد بالخلافة قبل أن يموت على هذا قبل هذه السنة بسنوات ، ولكن لم يظهر أمره حتى مات فقام بالأمر من بعده ولده عبد الله أبو العباس السفاح ، وكان ظهوره فى سنة اثنتين وثلاثين كما سيأتى إن شاء الله تعالى

عمرو بن شعيب ، وعبادة بن نُسَىّ ، وأبو صخرة جامع بن شداد ، وأبو عياش المعافرى .

ثم دخلت سنة تسع عشرة ومائة

ففيها غزا الوليد بن القعقاع بلاد الروم . وفيها قتل أسد بن عبد الله القسرى ملك الترك الأعظم خاقان ، وكان سبب ذلك أن أسد بن عبد الله أمير خراسان عمل نيابة عن أخيه خالد بن عبد الله على العراق ، ثم سار بجيوشه إلى مدينة خُتَّل فافتتحها ، وتفرقت فى أرضها جنوده يقتلون ويأسرون ويغنمون ، فجاءت العيون إلى ملك الترك خاقان أن جيش أسد قد تفرق فى بلاد خُتَّل ، فاغتنم خاقان هذه الفرصة فركب من فوره فى جنوده قاصداً إلى أسد ، وتزود خاقان وأصحابه سلاحا كثيراً ، وقديداً وملحا ، وساروا فى حنق عظيم ، وجاء إلى أسد فأعلموه بقصد خاقان له فى جيش عظيم

كثيف ، فتجهز لذلك وأخذ أهبته ، فأرسل من فوره إلى أطراف جيشه ، فلها وأشاع بعض الناس أن خاقان قد هجم على أسد بن عبد الله فقتله وأصحابه ، ليحصل بذلك خذلان لأصحابه فلا يجتمعون إليه ، فردّ الله كيدهم فى نحورهم ، وجعل تدميرهم فى تدبيرهم ، وذلك أن المسلمين لما سمعوا بذلك أخذتهم حمية الاسلام وازدادوا حنقا على عدوهم ، وعزموا على الأخذ بالثأر ، فقصدوا الموضع الذى فيه أسد ، فاذا هو حى قد اجتمعت عليه العساكر من كل جانب ، وسار أسد نحو خاقان حتى أتى جبل الملح ، وأراد أن يخوض نهر بلخ ، وكان معهم أغنام كثيرة ، فكره أسد أن يتركها وراء ظهره ، فأمر كل فارس أن يحمل بين يديه شاة وعلى عنقه شاة ، وتوعد من لم يفعل ذلك بقطع اليد ، وحمل هو معه شاة وخاضوا النهر ، فما خلصوا منه جيداً حتى دهمهم خاقان من ورائهم فى خيل دهم ، فقتلوا من وجدوه لم يقطع النهر و بعض الضعفة ، فلما وقفوا على حافة النهر أحجموا وظن المسلمون أنهم لايقطعون إليهم النهر ، فتشاور الأتراك فيما بينهم ، ثم اتفقوا على أن يحملوا حملة واحدة - وكانوا خمسين ألفا - فيقتحمون النهر ، فضربوا بكؤساتهم ضربا شديداً حتى ظن المسلمون أنهم معهم فى عسكرهم ، ثم رموا بأنفسهم فى النهر رمية واحدة ، فجعلت خيولهم تنخر أشد النخير ، وخرجوا منه إلى ناحية المسلمين فثبت المسلمون فى معسكرهم ، وكانوا قد خندقوا حولهم خندقاً لايخلصون إليهم منه ، فبات الجيشان تتراءى نارأهما ، فلما أصبحا مال خاقان على بعض الجيش الذى للمسلمين فقتل منهم خلقاً وأسر أمما و إبلا موقرة ، ثم إن الجيشين تواجهوا فى يوم عيد الفطر حتى خاف جيش أسد أن لايصلوا صلاة العيد ، فما صلوها إلا على وجل ، ثم سار أسد بمن معه حتى نزل مرج بلخ ، حتى انقضى الشتاء ، فلما كان يوم عيد الأضحى خطب أسد الناس واستشارهم فى الذهاب إلى مرو أو فى لقاء خاقان ، أو فى التحصن ببلخ . فمنهم من أشار بالتحصن ، ومنهم من أشار بملتقاه والتوكل على الله ، فوافق ذلك رأى أسد الأسد ، فقصد بجيشه نحو خاقان ، وصلى بالناس ركعتين أطال فيهما ، ثم دعا بدعاء طويل ، ثم انصرف وهو يقول : نصرتم إن شاء الله ، ثم سار بمن معه من المسلمين فالتقت مقدمته بمقدمة خاقان ، فقتل المسلمون منهم خلقاً وأسروا أميرهم وسبعة أمراء معه ، ثم ساق أسد فانتهى إلى أغنامهم فاستاقها ، فاذا هى مائة ألف وخمسون ألف شاة ، ثم التقى معهم ، وكان خاقان إنما معه أربعة آلاف أو نحوها ، ومعه رجل من العرب قد خامر إليه ، يقال له الحارث بن شريح ، فهو يدلهم على عورات المسلمين ، فلما أقبل الناس هربت الأتراك فى كل جانب ، وانهزم خاقان ومعه الحارث ابن شريح يحميه ويتبعه ، فتبعهم أسد ، فلما كان عند الظهيرة انخذل خاقان فى أربعمائة من أصحابه ، عليهم الخز ومعهم الكؤسات ، فلما أدركه المسلمون أمر بالكؤسات فضربت ضربا شديدا ضرب الانصراف ثلاث مرات فلم يستطيعوا الانصراف ، فتقدم المسلمون فاحتاطوا على معسكرهم فاحتازوه

بما فيه من الأمتعة العظيمة ، والأوانى من الذهب والفضة ، والنساء والصبيان ، من الأتراك ومن معهم من الأسارى من المسلمات وغيرهم ، مما لا يحد ولا يوصف لكثرته وعظمه وقيمته وحسنه . غير أن خاقان لما أحس بالهلاك ضرب امرأته بخنجر فقتلها ، فوصل المسلمون إلى المعسكر وهى فى آخر رمق تتحرك ، ووجدوا قدورهم تغلى باطعماتهم ، وهرب خاقان بمن معه حتى دخل بعض المدن فتحصن بها ، فاتفق أنه لعب بالنرد مع بعض الأمراء فغلبه الأمير فتوعده خاقان بقطع اليد ، فحنق عليه ذلك الأمير ثم عمل على قتله فقتله ، وتفرقت الأتراك يعدو بعضهم على بعض ، وينهب بعضهم بعضا ، وبعث أسد إلى أخيه خالد يعلمه بما وقع من النصر والظفر بخاقان ، وبعث إليه بطبول خاقان ـ وكانت كباراً لها أصوات كالرعد ـ وبشىء كثير من حواصله وأمتعته ، فأوفدها خالد إلى أمير المؤمنين هشام ففرح بذلك فرحاً شديداً ، وأطلق للرسل أموالا جزيلة كثيرة من بيت المال وقد قال بعض الشعراء فى أسد يمدحه على ذلك :ـ

لو سرتَ فى الأرضِ تقيسُ الأرضا * تقيسُ منها طولَها والعرضا
لم تلقَ خيراً إمرةً ونقضا * مِنَ الأميرِ أسدٍ وأمضى
افضى إلينا الخيرَ حتى افضا * وجمعَ الشملَ وكانَ ارفضا
ما فاتهُ خاقانُ إلا ركضا * قد فضَّ مِن جموعهِ مافضا
يا ابنَ شريحٍ قد لقيتَ حمضا * حمضاً بهِ تشفى صداعَ المرضى

وفيها قتل خالد بن عبد الله القسرى المغيرة بن سعيد وجماعة من أصحابه الذين تابعوه على باطله ، وكان هذا الرجل ساحرا فاجرا شيعيا خبيثا ، قال ابن جرير : ثنا ابن حميد ثنا جرير عن الأعمش قال : سمعت المغيرة بن سعيد يقول : لو أراد أن يحيى عادا وثمودا وقرونا بين ذلك لأحياهم . قال الأعمش : وكان المغيرة هذا يخرج إلى المقبرة فيتكلم فيرى مثل الجراد على القبور ، أو نحو هذا من الكلام . وذكر ابن جرير له غير ذلك من الأشياء التى تدل على سحره وفجوره . ولما بلغ خالداً أمره أمر بإحضاره فجىء به فى ستة نفر أو سبعة نفر ، فأمر خالد فأبرز سريره إلى المسجد ، وأمر باحضار أطناب القصب والنفط فصب فوقها ، وأمر المغيرة أن يحتضن طنبا منها ، فامتنع فضرب حتى احتضن منها طنبا واحدا وصب فوق رأسه النفط ، ثم أضرم بالنار . وكذلك فعل ببقية أصحابه .

وفى هذه السنة خرج رجل يقال له بهلول بن بشر ويلقب بكثارة ، واتبعه جماعات من الخوارج دون المائة ، وقصدوا قتل خالد القسرى ، فبعث إليهم البعوث فكسروا الجيوش واستفحل أمرهم جدا لشجاعتهم وجلدهم ، وقلة نصح من يقاتلهم من الجيوش ، فردوا العساكر من الألوف المؤلفة ، ذوات الأسلحة والخيل المسومة ، هذا وهم لم يبلغوا المائة ، ثم إنهم راموا قدوم الشام لقتل الخليفة

هشام ، فقصدوا نحوها ، فاعترضهم جيش بأرض الجزيرة فاقتتلوا معهم قتالا عظيما ، فقتلوا عامة أصحاب بهلول الخارجى . ثم إن رجلا من جديلة يكنى أبا الموت ضرب بهلولا ضربة فصرعه وتفرقت عنه بقية أصحابه ، وكانوا جميعهم سبعين رجلا ، وقد رثاهم بعض أصحابهم (١) فقال :ــ

بُدِّلتُ بعد أبي بِشْرٍ وصُحبتِهِ * قوماً عليَّ مع الأحزابِ أعوانا
بانوا كأنْ لم يكونوا من صَحابتنا * ولم يكونوا لنا بالأمسِ خِلَّانا
يا عينُ أذري دُموعا منكِ تَهتانا * وابكي لنا صُحبةً بانُوا وجيرانا
خلَّوا لنا ظاهرَ الدُّنيا وباطنَها * وأصبحُوا فى جِنانِ الخلدِ جيرانا

ثم تجمع طائفة منهم أخرى على بعض أمرائهم فقاتلوا وقتلوا وقتلوا ، وجهزت إليهم العساكر من عند خالد القسرى ، ولم يزل حتى أباد خضراءهم ولم يبق لهم باقية . وفيها غزا أسد القسرى بلاد الترك ، فعرض عليه ملكهم طرخان خان ألف ألف فلم يقبل منه شيئاً ، وأخذه قهرا فقتله صبراً بين يديه ، وأخذ مدينته وقلعته وحواصله ونساءه وأمواله . وفيها خرج الصحارى بن شبيب الخارجى واتبعه طائفة قليلة نحو من ثلاثين رجلا ، فبعث إليهم خالد القسرى جندا فقتلوه وجميع أصحابه ، فلم يتركوا منهم رجلا واحدا . وحج بالناس فى هذه السنة أبو شاكر مسلمة بن هشام بن عبد الملك ، وحج معه ابن شهاب الزهرى ليعلمه مناسك الحج ، وكان أمير مكة والمدينة والطائف محمد بن هشام بن إسماعيل ، وأمير العراق والمشرق وخراسان خالد القسرى ، ونائبه على خراسان بكمالها أخوه أسد ابن عبد الله القسرى ، وقد قيل إنه توفى فى هذه السنة ، وقيل فى سنة عشرين فالله أعلم . ونائب أرمينية وأذربيجان مروان الحمار والله أعلم .

سنة عشرين ومائة من الهجرة

فيها غزا سليمان بن هشام بلاد الروم وافتتح فيها حصونا ، وفيها غزا إسحاق بن مسلم العقيلى تومان شاه ، وافتتحها وخرب أراضيها . وفيها غزا مروان بن محمد بلاد الترك ، وفيها كانت وفاة أسد ابن عبد الله القسرى أمير خراسان ، وكانت وفاته بسبب أنه كانت له دُبيلة فى جوفه ، فلما كان مهرجان هذه السنة قدمت الدهاقين ــ وهم أمراء المدن الكبار ــ من سائر البلدان بالهدايا والتحف على أسد ، وكان فيمن قدم نائب هراة ودهقانها ، واسم دهقانها خراسان شاه ، فقدم بهدايا عظيمة وتحف عزيزة ، وكان من جملة ذلك قصر من ذهب ، وقصر من فضة ، وأباريق من ذهب ، وصحاف من ذهب وفضة ، وتفاصيل من حرير تلك البلاد ألوان ملونة ، فوضع ذلك كله بين يدى أسد حتى امتلأ المجلس ، ثم قام الدهقان خطيبا فامتدح أسداً بخصال حسنة ، على عقله ورياسته وعدله ومنعه أهله وخاصته أن يظلموا أحدا من الرعايا بشئ قل أو كثر ، وأنه قهر الخان الأعظم ، وكان فى مائة ألف

---

(١) هو الضحاك بن قيس . أنظر الطبرى (٢ : ١٦٢٧) طبع أوربا

فكسره وقتله ، وأنه يفرح بما يفد إليه من الأموال ، وهو بما خرج من يده أفرح وأشد سرورا ، وأثنى عليه أسد وأجلسه ، ثم فرق أسد جميع تلك الهدايا والأموال وما هنالك أجمع على الأمراء والأكابر بين يديه ، حتى لم يبق منه شئ ، ثم قام من مجلسه وهو عليل من تلك الدبيلة ، ثم أفاق إفاقة وجيء بهدية كمثرى فجعل يفرقها على الحاضرين واحدة واحدة ، فألقى إلى دهقان خراسان واحدة فانفجرت دبيلته وكان فيها حتفه ، واستخلف على عمله جعفر بن حنظلة البهرانى ، فمكث أميراً أربعة أشهر حتى جاء عهد نصر بن سيار فى رجب منها ، فعلى هذا تكون وفاة أسد فى صفر من هذه السنة ، وقد قال فيه ابن عرس العبدى يرثيه :

نعى أسدَ بن عبد الله ناعٍ * فريعَ القلبُ للملكِ المطاعِ
ببلخ وافقَ المقدارُ يسرى * وما لقضاءِ ربكَ منْ دفاعِ
فجودى عينُ بالعبراتِ سحاً * ألمْ يحزنكَ تفريقُ الجماعِ
أتاهُ حمامهُ فى جوفِ ضيعٍ * وكم بالضيعِ من بطلٍ شجاعِ
أتاهُ حمامه فى جوف صِيَغٍ * وكم بالصيغِ من بطلٍ شجاعِ
كتائبُ قد يجيبونَ المنادى * على جردٍ مسومةٍ سراعِ
سقيتَ الغيثَ إنكَ كنتَ غيثاً * مريعاً عندَ مرتادِ النجاعِ

وفيها عزل هشام خالد بن عبد الله القسرى عن نيابة العراق ، وذلك أنه انحصر منه لما كان يبلغه من إطلاق عبارة فيه ؛ وأنه كان يقول عنه ابن الحمقاء ، وكتب إليه كتابا فيه غلظة ، فرد عليه هشام رداً عنيفاً ، ويقال إنه حسده على سعة ما حصل له من الأموال والحواصل والغلات ، حتى قيل إنه كان دخله فى كل سنة ثلاثة عشر ألف ألف دينار ، وقيل درهم ، ولولده يزيد بن خالد عشرة آلاف ألف ، وقيل إنه وفد إليه رجل من ألزام أمير المؤمنين من قريش يقال له ابن عمرو ، فلم يرحب به ولم يعبأ به ، فكتب إليه هشام يعنفه ويبكته على ذلك ، وأنه حال وصول هذا الكتاب إليه يقوم من فوره بمن حوله من أهل مجلسه فينطلق على قدميه حتى يأتى باب ابن عمرو صاغرا ذليلا مستأذنا عليه ، متنصلا إليه مما وقع ، فإن أذن لك وإلا فقف على بابه حولا غير متحلل من مكانك ولا زائل ، ثم أمرك إليه إن شاء عزلك وإن شاء أبقاك ، وإن شاء انتصر ، وإن شاء عفا . وكتب إلى ابن عمرو يعلمه بما كتب إلى خالد ، وأمره إن وقف بين يديه أن يضربه عشرين سوطا على رأسه ، إن رأى ذلك مصلحة . ثم إن هشاماً عزل خالدا وأخفى ذلك ، وبعث البريد إلى نائبه على اليمن وهو يوسف ابن عمر فولاه إمرة العراق ، وأمره بالمسير إليها والقدوم عليها فى ثلاثين راكبا ، فقدموا الكوفة وقت السحر ، فدخلوها ، فلما أذن المؤذن أمره يوسف بالاقامة : فقال : إلى أن يأتى الأمام ـ يعنى خالداً ـ

فانتهره وأمره بالاقامة وتقدم يوسف فصلى وقرأ [إذا وقعت الواقعة] و [سأل سائل] ثم انصرف فبعث إلى خالد وطارق وأصحابهما ، فاحضروا فأخذ منهم أموالا كثيرة ، صادر خالداً بمائة ألف ألف درهم ، وكانت ولاية خالد فى شوال سنة خمس ومائة ، وعزل عنها فى جمادى الأولى من هذه السنة - أعنى سنة عشرين ومائة - وفى هذا الشهر قدم يوسف بن عمر على ولاية العراق مكان خالد بن عبد الله القسرى ، واستناب على خراسان جديع بن على الكرمانى ، وعزل جعفر بن حنظلة الذى كان استنابه أسد ، ثم إن يوسف بن عمر عزل جديعا فى هذه السنة عن خراسان ، وولى عليها نصر ابن سيار ، وذهب جميع ما كان اقتناه وحصله خالد من العقار والأملاك وهلة واحدة ، وقد كان أشار عليه بعض أصحابه لما بلغهم عتب هشام عليه أن يبعث إليه يعرض عليه بعض أملاكه ، فما أحب منها أخذه وماشاء ترك ، وقالوا له : لأن يذهب البعض خير من أن يذهب الجميع مع العزل والاخراق فامتنع من ذلك واغتر بالدنيا وعزت نفسه عليه أن يذل ، ففجأه العزل ، وذهب ما كان حصله وجمعه ومنعه ، واستقرت ولاية يوسف بن عمر على العراق وخراسان ، واستقرت نيابة نصر بن سيار على خراسان ، فتمهدت البلاد وأمن العباد ولله الحمد والمنة . وقد قال سوار بن الأشعرى فى ذلك :

أضحتْ خراسان بعدَ الخوفِ آمنةً * من ظلم كل غشومِ الحكمِ جبارِ

لما أتى يوسفاً اخبارُ مالقيتْ * اختارَ نصراً لها نصرَ بنِ سيارِ

وفى هذه السنة استبطأت شيعة آل العباس كتاب محمد بن على إليهم ، وقد كان عتب عليهم فى اتباعهم ذلك الزنديق الملقب بخداش ، وكان خرَّميا ، وهو الذى أحل لهم المنكرات ودنَّس المحارم والمصاهرات ، فقتله خالد القسرى كما تقدم ، فعتب عليهم محمد بن على فى تصديقهم له واتباعهم إياه على الباطل ، فلما استبطأوا كتابه إليهم بعث إليهم رسولا يخبر لهم أمره ، و بعثوا هم أيضا رسولا ، فلما جاء رسولهم أعلمه محمد بماذا عتب عليهم بسبب الخرَّمى ، ثم أرسل مع الرسول كتابا مختوما ، فلما فتحوه لم يجدوا فيه سوى : بسم الله الرحمن الرحيم ، تعلموا أنه إنما عتبنا عليكم بسبب الخرمى . ثم أرسل رسولا إليهم فلم يصدقه كثير منهم وهموا به ، ثم جاءت من جهته عصى ملويا عليها حديد ونحاس ، فعلموا أن هذا إشارة لهم إلى أنهم عصاة ، وأنهم مختلفون كاختلاف ألوان النحاس والحديد . قال ابن جرير : وحج بالناس فيها محمد بن هشام المخزومى فيما قاله أبو معشر ، قال : وقد قيل إن الذى حج بالناس سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقيل ابنه يزيد بن هشام فالله سبحانه وتعالى أعلم ،

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين ومائة

ففيها غزا مسلمة بن هشام الروم فافتتح مطامير وهو حصن ، وافتتح مروان بن محمد بلاد صاحب الذهب ، وأخذ قلاعه وخرب أرضه ، فأذعن له بالجزية فى كل سنة بألف رأس يؤديها إليه ، وأعطاه

رها على ذلك . وفيها فى صفر قتل زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، الذى تنسب إليه الطائفة الزيدية ، فى قول الواقدى ، وقال هشام الكلبى : إنما قتل فى صفر من سنة ثنتين وعشرين فالله أعلم . وقد ساق محمد بن جرير سبب مقتله فى هذه السنة تبعا للواقدى ، وهو أن زيداً هذا وفد على يوسف بن عمر فسأله هل أودع خالد القسرى عندك مالا ؟ فقال له زيد بن على : كيف يودعنى مالا وهو يشتم آبائى على منبره فى كل جمعة ؟ فأحلفه أنه ما أودع عنده شيئا ، فأمر يوسف بن عمر باحضار خالد من السجن فجئ به فى عباءة ، فقال : أنت أودعت هذا شيئا نستخلصه منه ؟ قال : لا ، وكيف وأنا أشتم أباه كل جمعة ؟ فتركه عمر وأعلم أمير المؤمنين بذلك فعفا عن ذلك ، ويقال بل استحضرهم فحلفوا بما حلفوا . ثم إن طائفة من الشيعة التفت على زيد بن على ، وكانوا نحواً من أربعين ألفا ، فنهاه بعض النصحاء عن الخروج ، وهو محمد بن عمر بن على بن أبى طالب ، وقال له : إن جدك خير منك ، وقد التفت على بيعته من أهل العراق ثمانون ألفا ، ثم خانوه أحوج ما كان إليهم ، وإنى أحذرك من أهل العراق . فلم يقبل بل استمر يبايع الناس فى الباطن فى الكوفة ، على كتاب الله وسنة رسوله حتى استفحل أمره بها فى الباطن ، وهو يتحول من منزل إلى منزل ، ومازال كذلك حتى دخلت سنة ثنتين وعشرين ومائة ، فكان فيها مقتله كما سنذكره قريباً . وفيها غزا نصر بن سيار أمير خراسان غزوات متعددة فى الترك ، وأسر ملكهم كورصول فى بعض تلك الحروب وهو لايعرفه ، فلما تيقنه وتحققه ، سأل منه كورصول أن يطلقه على أن يرسل له ألف بعير من إبل الترك ـ وهى البخاتى ـ وألف برذون ، وهو مع ذلك شيخ كبير جدا ، فشاور نصر من بحضرته من الأمراء فى ذلك ، فمنهم من أشار باطلاقه ، ومنهم من أشار بقتله . ثم سأله نصر بن سيار كم غزوت من غزوة ؟ فقال : ثنتين وسبعين غزوة ، فقال له نصر : ما مثلك يطلق ، وقد شهدت هذا كله ، ثم أمر به فضربت عنقه وصلبه ، فلما بلغ ذلك جيشه من قتله باتوا تلك الليلة يجعرون ويبكون عليه ، وجذوا لحاهم وشعورهم وقطعوا آذانهم وحرقوا خياما كثيرة ، وقتلوا أنعاما كثيرة ، فلما أصبح أمر نصر باحراقه لئلا يأخذوا جثته ، فكان حريقه أشد عليهم من قتله ، وانصرفوا خائبين صاغرين خاسرين ، ثم كر نصر على بلادهم فقتل منهم خلقا وأسر أمما لا يحصون كثرة ، وكان فيمن حضر بين يديه عجوز كبيرة جدا من الأعاجم أو الأتراك ، وهى من بيت مملكة ، فقالت لنصر بن سيار : كل ملك لا يكون عنده ستة أشياء فهو ليس بملك ، وزير صادق يفصل خصومات الناس ويشاوره ويناصحه ، وطباخ يصنع له ما يشتهيه ، وزوجة حسناء إذا دخل عليها مغتما فنظر إليها سرته وذهب غمه ، وحصن منيع إذا فزع رعاياه لجأوا إليه فيه ، وسيف إذا قارع به الأقران لم يخش خيانته ، وذخيرة إذا حملها فأين ماوقع من الأرض عاش بها .

وحج بالناس فيها محمد بن هشام بن إسماعيل نائب مكة والمدينة والطائف ، ونائب العراق يوسف بن عمر ، ونائب خراسان نصر بن سيار ، وعلى أرمينية مروان بن محمد .

ذكر من توفى فيها من الأعيان :

زيد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب

والمشهور أنه قتل فى التى بعدها كما سيأتى بيانه إن شاء الله

مسلمة بن عبد الملك

ابن مروان القرشى الأموى ، أبو سعيد وأبو الأصبغ الدمشقى ، قال ابن عساكر : وداره بدمشق فى حجلة القباب عند باب الجامع القبلى ، ولى الموسم أيام أخيه الوليد ، وغزا الروم غزوات وحاصر القسطنطينية ، وولاه أخوه يزيد إمرة المراقين ، ثم عزله وتولى أرمينية . وروى الحديث عن عمر بن عبد العزيز ، وعنه عبد الملك بن أبى عثمان ، وعبيد الله بن قزعة ، وعيينة والد سفيان بن عيينة وابن أبى عمران ، ومعاوية بن خديج ، ويحيى بن يحيى الغسانى .

قال الزبير بن بكار : كان مسلمة من رجال بنى أمية ، وكان يلقب بالجرادة الصفراء ، وله آثار كثيرة ، وحروب ونكاية فى العدو من الروم وغيرهم . قلت : وقد فتح حصونا كثيرة من بلاد الروم . ولما ولى أرمينية غزا الترك فبلغ باب الأبواب فهدم المدينة التى عنده ، ثم أعاد بناءها بعد تسع سنين . وفى سنة ثمان وتسعين غزا القسطنطينية فحاصرها وافتتح مدينة الصقالبة ، وكسر ملكهم البرجان ، ثم عاد إلى محاصرة القسطنطينية . قال الأوزاعى : فأخذه وهو يغازيهم صداع عظيم فى رأسه ، فبعث ملك الروم اليه بقلنسوة وقال : ضعها على رأسك يذهب صداعك ، فخشى أن تكون مكيدة فوضعها على رأس بهيمة فلم ير إلا خيراً ، ثم وضعها على رأس بعض أصحابه فلم ير إلا خيرا ، فوضعها على رأسه فذهب صداعه ، ففتقها فاذا فيها سبعون سطرا هذه الآية [إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا] الآية مكررة لاغير ، رواه ابن عساكر .

وقد لقى مسلمة فى حصاره القسطنطينية شدة عظيمة ، وجاع المسلمون عندها جوعا شديدا ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز أرسل إليهم البريد يأمرهم بالرجوع إلى الشام ، فحلف مسلمة أن لايقلع عنهم حتى يبنوا له جامعاً كبيرا بالقسطنطينية ، فبنوا له جامعا ومنارة ، فهو بها إلى الآن يصلى فيه المسلمون الجمعة والجماعة ، قلت : وهى آخر ما يفتحه المسلمون قبل خروج الدجال فى آخر الزمان ، كما سنورده فى الملاحم والفتن من كتابنا هذا إن شاء الله . ونذكر الأحاديث الواردة فى ذلك هناك ، وبالجملة كانت لمسلمة مواقف مشهورة ، ومساعى مشكورة ، وغزوات متتالية منثورة ، وقد افتتح حصونا وقلاعا ، وأحيا بعزمه قصوراً وبقاعاً ، وكان فى زمانه فى الغزوات نظير خالد بن الوليد

فى أيامه ، فى كثرة مغازيه ، وكثرة فتوحه ، وقوة عزمه ، وشدة بأسه ، وجودة تصرفه فى نقضه و إبرامه ، وهذا مع الكرم والفصاحة ، وقال يوماً لنصيب الشاعر : سلنى ، قال : لا ، قال : ولم ؟ قال : لأن كفك بالجزيل أكثر من مسألتى باللسان . فأعطاه ألف دينار . وقال أيضا : الأنبياء [لايتنابون كما يتناب الناس ماناب نبى قط] وقد اوصى بثلث ماله لأهل الأدب ، وقال : إنها صنعة جحف أهلها . وقال الوليد بن مسلم وغيره : توفى يوم الأربعاء لسبع مضين من المحرم سنة إحدى وعشرين ومائة ، وقيل فى سنة عشرين ومائة ، وكانت وفاته بموضع يقال له الحانوت ، وقد رثاه بعضهم ، وهو ابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك فقال :

أقولُ وما البعدُ إلاّ الردى * أمَسلمُ لاتبعدن مسلمهْ
فقدْ كنتَ نوراً لنا فى البلادِ * مضيئاً فقد أصبحتَ مظلمهْ
ونكتمَ موتكَ نخشى اليقينَ * فأبدى اليقينَ لنا الجمجمهْ

نمير بن قيس

الأشعرى قاضى دمشق ، تابعى جليل ، روى عن حذيفة مرسلا وأبى موسى مرسلا وأبى الدرداء وعن معاوية مرسلا وغير واحد من التابعين ، وحدث عنه جماعة كثيرون ، منهم الأوزاعى وسعيد ابن عبد العزيز ويحيى بن الحارث الذمارى . ولاه هشام بن عبد الملك القضاء بدمشق بعد عبد الرحمن ابن الخشخاش العذرى ، ثم استعفى هشاماً فعفاه وولى مكانه يزيد بن عبد الرحمن بن أبى ملك . وكان نمير هذا لايحكم باليمين مع الشاهد ، وكان يقول : الادب من الآباء ، والصلاح من الله . قال غير واحد : توفى سنة إحدى وعشرين ومائة ، وقيل سنة ثنتين وعشرين ومائة ، وقيل سنة خمس عشرة ومائة ، وهو غريب والله سبحانه أعلم

ثم دخلت سنة ثنين وعشرين ومائه

ففيها كان مقتل زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وكان سبب ذلك أنه لما أخذ البيعة ممن بايعه من أهل الكوفة ، أمرهم فى أول هذه السنة بالخروج والتأهب له ، فشرعوا فى أخذ الأهبة لذلك . فانطلق رجل يقال له سليمان بن سراقة إلى يوسف بن عمر نائب العراق فأخبره ـ وهو بالحيرة يومئذ ـ خبر زيد بن على هذا ومن معه من أهل الكوفة ، فبعث يوسف بن عمر يتطلبه ويلح فى طلبه ، فلما علمت الشيعة ذلك اجتمعوا عند زيد بن على فقالوا له : ماقولك يرحمك الله فى أبى بكر وعمر ؟ فقال : غفر الله لهما ، ماسمعت أحداً من أهل بيتى تبرأ منهما ، وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً ، قالوا : فلم تطلب إذا بدم أهل البيت ؟ فقال : إنا كنا أحق الناس بهذا الأمر ، ولكن القوم استأثروا علينا به ودفعونا عنه ، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً ، قد ولوا فعدلوا ، وعملوا بالكتاب

والسنة . قالوا : فلم تقاتل هؤلاء إذا ؟ قال : إن هؤلاء ليسوا كأولئك ، إن هؤلاء ظلموا الناس وظلموا أنفسهم ، و إنى أدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، و إحياء السنن و إماتة البدع ، فان تسمعوا يكن خيراً لكم ولى ، و إن تأبوا فلست عليكم بوكيل . فرفضوه وانصرفوا عنه ونقضوا بيعته وتركوه ، فلهذا سموا الرافضة من يومئذ ، ومن تابعه من الناس على قوله سموا الزيدية ، وغالب أهل الكوفة منهم رافضة ، وغالب أهل مكة إلى اليوم على مذهب الزيدية ، وفى مذهبهم حق ، وهو تعديل الشيخين ، وباطل وهو اعتقاد تقديم على عليهما ، وليس على مقدما عليهما ، بل ولا عثمان على أصح قولى أهل السنة الثابتة ، والآثار الصحيحة الثابتة عن الصحابة ، وقد ذكرنا ذلك فى سيرة أبى بكر وعمر فيما تقدم . ثم إن زيداً عزم على الخروج بمن بقى معه من أصحابه ، فواعدهم ليلة الأربعاء من مستهل صفر من هذه السنة . فبلغ ذلك يوسف بن عمر ، فكتب إلى نائبه على الكوفة وهو الحكم بن الصلت يأمره بجمع الناس كلهم فى المسجد الجامع ، فجمع الناس لذلك فى يوم الثلاثاء سلخ المحرم ، قبل خروج زيد بيوم ، وخرج زيد ليلة الأربعاء فى برد شديد ، و رفع أصحابه النيران ، وجعلوا ينادون يامنصور يامنصور ، فلما طلع الفجر إذا قد اجتمع معه مائتان وثمانية عشر رجلا ، فجعل زيد يقول : سبحان الله ! أين الناس ؟ فقيل : هم فى المسجد محصورون . وكتب الحكم إلى يوسف يعلمه بخروج زيد بن على ، فبعث إليه سرية إلى الكوفة ، و ركبت الجيوش مع نائب الكوفة ، وجاء يوسف بن عمر أيضا فى طائفة كبيرة من الناس ، فالتقى بمن معه جرثومة منهم فيهن خمسمائة فارس ، ثم أتى الكناسة فحمل على جمع من أهل الشام فهزمهم ، ثم اجتاز بيوسف بن عمر وهو واقف فوق تل ، و زيد فى مائتى فارس ولو قصد يوسف بن عمر لقتله ، ولكن أخذ ذات اليمين ، وكلما لقى طائفة هزمهم ، وجعل أصحابه ينادون : يا أهل الكوفة اخرجوا إلى الدين والعز والدنيا ، فانكم لستم فى دين ولا عز ولادنيا ، ثم لما أمسوا انضاف إليه جماعة من أهل الكوفة ، وقد قتل بعض أصحابه فى أول يوم ، فلما كان اليوم الثانى اقتتل هو وطائفة من أهل الشام فقتل منهم سبعين رجلا ، وانصرفوا عنه بشر حال ، وأمسوا فعبأ يوسف بن عمر جيشه جدا ، ثم أصبحوا فالتقوا مع زيد فكشفهم حتى أخرجهم إلى السبخة ، ثم شد عليهم حتى أخرجهم إلى بنى سليم ، ثم تبعهم فى خيله ورجله حتى أخذوا على المساة ، ثم اقتتلوا هناك قتالا شديداً جداً ، حتى كان جنح الليل رمى زيد بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى ، فوصل إلى دماغه ، فرجع ورجع أصحابه ، ولا يظن أهل الشام أنهم رجعوا إلا لأجل المساء والليل ، وأدخل زيد فى دار فى سكة البريد ، وجئ بطبيب فانتزع ذلك السهم من جبهته ، فما عدا أن انتزعه حتى مات من ساعته رحمه الله .

فاختلف أصحابه أين يدفنونه ، فقال بعضهم : ألبسوه درعه وألقوه فى الماء ، وقال بعضهم :

احتزوا رأسه وأتركوا جثته فى القتلى ؛ فقال ابنه : لا والله لا تأكل أبى الكلاب . وقال بعضهم : ادفنوه فى العباسية ، وقال بعضهم : ادفنوه فى الحفرة التى يؤخذ منها الطين ، ففعلوا ذلك وأجروا على قبره الماء لئلا يعرف ، وانفتل أصحابه حيث لم يبق لهم رأس يقاتلون به ، فما أصبح الفجر ولهم قائمة ينهضون بها ، وتتبع يوسف بن عمر الجرحى هل يجد زيدا بينهم ، وجاء مولى لزيد سندى قد شهد دفنه فدل على قبره فأخذ من قبره ، فأمر يوسف بن عمر بصلبه على خشبة بالكناسة ، ومعه نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصارى ، وزياد النهدى ، ويقال إن زيداً مكث مصلوبا أربع سنين ، ثم أنزل بعد ذلك وأحرق فالله أعلم . وقد ذكر أبو جعفر ابن جرير الطبرى أن يوسف بن عمر لم يعلم بشئ من ذلك حتى كتب له هشام بن عبد الملك : إنك لغافل ، وإن زيد ابن على غارز ذنبه بالكوفة يبايع له ، فألح فى طلبه واعطه الأمان ، وإن لم يقبل فقاتله ، فتطلبه يوسف حتى كان من أمره ماتقدم ، فلما ظهر على قبره حز رأسه وبعثه إلى هشام ، وقام من بعده الوليد ابن يزيد فأمر به فأنزل وحرق فى أيامه قبح الله الوليد بن يزيد . فأما ابنه يحيى بن زيد بن على فاستجار بعبد الملك بن بشر بن مروان ، فبعث إليه يوسف بن عمر يتهدده حتى يحضره ، فقال له عبد الملك ابن بشر : ما كنت لآوى مثل هذا الرجل وهو عدونا وابن عدونا . فصدقه يوسف بن عمر فى ذلك ، ولما هدأ الطلب عنه سيره إلى خراسان فخرج يحيى بن زيد فى جماعة من الزيدية إلى خراسان فأقاموا بها هذه المدة .

قال أبو مخنف : ولما قتل زيد خطب يوسف بن عمر أهل الكوفة فتهددهم وتوعدهم وشتمهم وقال لهم فيما قال : والله لقد استأذنت أمير المؤمنين فى قتل خلق منكم ، ولو أذن لى لقتلت مقاتلتكم وسبيت ذراريكم ، وما صعدت لهذا المنبر إلا لأسمعكم ما تكرهون .

قال ابن جرير : وفى هذه السنة قتل عبد الله البطال فى جماعة من المسلمين بأرض الروم ، ولم يزد ابن جرير على هذا ، وقد ذكر هذا الرجل الحافظ ابن عساكر فى تاريخه الكبير فقال :

عبدالله ابو يحيى المعروف بالبطال

كان ينزل إنطاكية ، حكى عنه أبو مروان الانطاكى ، ثم روى باسناده أن عبد الملك بن مروان حين عقد لابنه مسلمة على غزو بلاد الروم ، ولى على رؤساء أهل الجزيرة والشام البطال ، وقال لابنه : سيره على طلائعك ، وامره فليعس بالليل العسكر ، فانه أمين ثقة مقدام شجاع . وخرج معهم عبد الملك يشيعهم إلى باب دمشق . قال : فقدم مسلمة البطال على عشرة آلاف يكونون بين يديه ترساً من الروم أن يصلوا إلى جيش المسلمين . قال محمد بن عائذ الدمشقى : ثنا الوليد بن مسلمة حدثنى أبو مروان ـ شيخ من أهل إنطاكية ـ قال : كنت أغازى مع البطال وقد أوطأ الروم ذلا ،

قال البطال فسألني بعض ولاة بني أمية عن أعجب ما كان من أمرى فى مغازى فيهم ، فقلت له : خرجت فى سرية ليلا فدفعنا إلى قرية فقلت لأصحابى : ارخوالجم خيلكم ولا تحركوا أحداً بقتل ولا بشئ حتى تستمكنوا من القرية ومن سكانها ، ففعلوا وافترقوا فى أزقتها ، فدفعت فى أناس من أصحابى إلى بيت يزهر سراجه ، وإذا امرأة تسكت ابنها من بكائه ، وهى تقول له : لتسكتن أو لأدفعنك إلى البطال يذهب بك ، وانتشلته من سريره وقالت : خذه يا بطال ، قال : فأخذته .

وروى محمد بن عائذ عن الوليد بن مسلم عن أبى مروان الأنطاكى عن البطال قال : انفردت مرة ليس معى أحد من الجند ، وقد سمطت خلفى مخلاة فيها شعير ، ومعى منديل فيه خبز وشواء ، فبينا أنا أسير لعلى ألقى أحدا منفرداً ، أو أطلع على خبر ، إذا أنا ببستان فيه بقول حسنة ، فنزلت وأكلت من ذلك البقل بالخبز والشواء مع النقل ، فأخذنى إسهال عظيم قمت منه مراراً ، فخفت أن أضعف من كثرة الاسهال ، فركبت فرسى والاسهال مستمر على حاله ، وجعلت أخشى إن أنا نزلت عن فرسى أن أضعف عن الركوب ، وأفرط بى الاسهال فى السير حتى خشيت أن أسقط من الضعف ، فأخذت بعنان الفرس ونمت على وجهى لا أدرى أين يسير الفرس بى ، فلم أشعر إلا بقرع نعاله على بلاط ، فأرفع رأسى فاذا دير ، وإذا قد خرج منه نسوة صحبة امرأة حسناء جميلة جدا ، فجعلت تقول بلسانها : أنزلنه ، فأنزلننى فغسلن عنى ثيابى وسرجى وفرسى ، ووضعننى على سرير وعملن لى طعاماً وشرابا ، فمكثت يوما وليلة مستويا ، ثم أقمت بقية ثلاثة أيام حتى ترد إلى حالى ، فبينا أنا كذلك إذ أقبل البطريق وهو يريد أن يتزوجها ، فأمرت بفرسى فحول وعلق على الباب الذى أنا فيه ، وإذا هو بطريق كبير فيهم ، وهو إنما جاء لخطبتها ، فأخبره من كان هنالك بأن هذا البيت فيه رجل وله فرس ، فهم بالهجوم على فمنعته المرأة من ذلك ، وأرسلت تقول له : إن فتح عليه الباب لم أقض حاجته ، فثناه ذلك عن الهجوم على ، وأقام البطريق إلى آخر النهار فى ضيافتهم ، ثم ركب فرسه وركب معه أصحابه وانطلق . قال البطال : فنهضت فى أثرهم فهمت أن تمنعنى خوفا على منهم فلم أقبل ، وسقت حتى لحقتهم ، فحملت عليه فانفرج عنه أصحابه ، وأراد الفرار فألحقه فأضرب عنقه واستلبته وأخذت رأسه مسمطا على فرسى ، ورجعت إلى الدير ، فخرجن إلى ووقفن بين يدى ، فقلت : اركبن ، فركبن ماهنالك من الدواب وسقت بهن حتى أتيت أمير الجيش فدفعتهن إليه ، فنفلنى ماشئت منهن ، فأخذت تلك المرأة الحسناء بعينها ، فهى أم أولادى . والبطريق فى لغة الروم عبارة عن الأمير الكبير فيهم ، وكان أبوها بطريقا كبيراً فيهم ـ يعنى تلك المرأة ـ وكان البطال بعد ذلك يكاتب أباها ويهاديه .

وذكر أن عبد الملك بن مروان لما ولاه المصيصة بعث البطال سرية إلى أرض الروم ، فغاب عنه خبرها فلم يدر ماصنعوا ، فركب بنفسه وحده على فرس له وسار حتى وصل عمورية ، فطرق بابها ليلا

فقال له البواب : من هـذا ؟ قال البطال : فقلت أنا سياف الملك ورسوله إلى البطريق ، فأخذ لى طريقاً إليه ، فلما دخلت عليه إذا هو جالس على سرير فجلست معه على السرير إلى جانبه ، ثم قلت له : إنى قد جئتك فى رسالة فمر هؤلاء فلينصرفوا ، فأمر من عنده فذهبوا ، قال : ثم قام فأغلق باب الكنيسة على وعليه ، ثم جاء فجلس مكانه ، فاخترطت سيفى وضربت به رأسه صفحا وقلت له : أنا البطال فأصدقنى عن السرية التى أرسلتها إلى بلادك وإلا ضربت عنقك الساعة ، فأخبرنى ماخبرها ، فقال : هم فى بلادى ينتهبون ماتهيأ لهم ، وهذا كتاب قد جاءنى يخبر أنهم فى وادى كذا وكذا ، والله لقد صدقتك . فقلت : هات الأمان ، فأعطانى الأمان . فقلت : إيتنى بطعام ، فأمر أصحابه فجاؤا بطعام فوضع لى ، فأكلت فقمت لأنصرف فقال لأصحابه : اخرجوا بين يدى رسول الملك ، فانطلقوا يتعادون بين يدى ، وانطلقت إلى ذلك الوادى الذى ذكر فاذا أصحابى هنالك ، فأخذتهم ورجعت إلى المصيصة . فهذا أغرب ماجرى

قال الوليد : وأخبرنى بعض شيوخنا أنه رأى البطال وهو قافل من حجته ، وكان قد شغل بالجهاد عن الحج ، وكان يسأل الله دائما الحج ثم الشهادة ، فلم يتمكن من حجة الاسلام إلا فى السنة التى استشهد فيها رحمه الله تعالى ، وكان سبب شهادته أن ليون ملك الروم خرج من القسطنطينية فى مائة ألف فارس ، فبعث البطريق ـ الذى البطال متزوج بابنته التى ذكرنا أمرها ـ إلى البطال يخبره بذلك ، فأخبر البطال أمير عساكر المسلمين بذلك ، وكان الأمير مالك بن شبيب ، وقال له : المصلحة تقتضى أن نتحصن فى مدينة حران ، فنكون بها حتى يقدم علينا سليمان بن هشام فى الجيوش الاسلامية ، فأبى عليه ذلك ودهمهم الجيش ، فاقتتلوا قتالا شديدا والأبطال تحوم بين يدى البطال ولا يتجاسر أحد أن ينوه باسمه خوفا عليه من الروم ، فاتفق أن ناداه بعضهم وذكر اسمه غلطا منه ، فلما سمع ذلك فرسان الروم حملوا عليه حملة واحدة ، فاقتلعوه من سرجه برماحهم فألقوه إلى الأرض ، ورأى الناس يقتلون ويأسرون ، وقتل الأمير الكبير مالك بن شبيب ، وانكسر المسلمون وانطلقوا إلى تلك المدينة الخراب فتحصنوا فيها ، وأصبح ليون فوقف على مكان المعركة فاذا البطال بآخر رمق فقال له ليون : ماهذا ياأبا يحيى ؟ فقال : هكذا تقتل الأبطال ، فاستدعى ليون بالأطباء ليداووه فاذا جراحه قد وصلت إلى مقاتله ، فقال له ليون : هل من حاجة يا أبا يحيى ؟ قال : نعم ، فأمر من معك من المسلمين أن يلوا غسلى والصلاة على ودفنى ، ففعل الملك ذلك وأطلق لأجل ذلك أولئك الأسارى ، وانطلق ليون إلى جيش المسلمين الذين تحصنوا فحاصرهم ، فبينما هم فى تلك الشدة والحصار إذ جاءتهم البرد بقدوم سليمان بن هشام فى الجيوش الاسلامية ، ففر ليون فى جيشه الخبيث هاربا راجعا إلى بلاده ، قبحه الله ، فدخل القسطنطينية وتحصن بها .

قال خليفة بن خياط : كانت وفاة البطال ومقتله بأرض الروم فى سنة إحدى وعشرين ومائة ، وقال ابن جرير : فى سنة ثنتين وعشرين ومائة ، وقال ابن حسان الزيادى : قتل فى سنة ثلاث عشرة ومائة ، قيل وقد قاله غيره و إنه قتل هو والأمير عبد الوهاب بن بخت فى سنة ثلاث عشرة ومائة كما ذكرنا ذلك فالله أعلم ، ولكن ابن جرير لم يؤرخ وفاته إلا فى هذه السنة فالله أعلم .

قلت : فهذا ماخص ابن عساكر فى ترجمة البطال مع تفصيله للاخبار واطلاعه عليها، وأما ما يذكره العامة عن البطال من السيرة المنسوبة الى دلهمة والبطال والأمير عبد الوهاب والقاضى عقبة ، فكذب وافتراء ووضع بارد ، وجهل وتخبط فاحش ، لايروج ذلك إلا على غبى أو جاهل ردى . كما يروج عليهم سيرة عنترة العبسى المكذوبة ، وكذلك سيرة البكرى والدنف وغير ذلك ، والكذب المفتعل فى سيرة البكرى أشد إثما وأعظم جرما من غيرها ، لأن واضعها يدخل فى قول النبى (ص) : « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » . وممن توفى فى هذه السنة من الأعيان :

اياس الذكي

وهو إياس بن معاوية بن مرة بن إياس بن هلال بن رباب بن عبيد بن دريد بن أوس بن سواه ابن عمرو بن سارية بن ثعلبة بن ذبيان بن ثعلبة بن أوس بن عثمان بن عمرو بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، هكذا نسبه خليفة بن خياط ، وقيل غير ذلك فى نسبه ، وهو أبو واثلة المزنى قاضى البصرة ، وهو تابعى ولجده صحبة ، وكان يضرب المثل بذكائه ، روى عن أبيه عن جده مرفوعا فى الحياء عن أنس وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب ونافع وأبى مجلز ، وعنه الحمادان وشعبة والأصمعى وغيرهم . قال عنه محمد بن سيرين : إنه لفهم إنه لفهم ، وقال محمد بن سعد والعجلى وابن معين والنسائى : ثقة . زاد ابن سعد وكان عاقلا من الرجال فطنا ، وزاد العجلى وكان فقيها عفيفا . وقدم دمشق فى أيام عبد الملك بن مروان ، ووفد على عمر بن عبد العزيز ، ومرة أخرى حين عزله عدى بن أرطاة عن قضاء البصرة . قال أبو عبيدة وغيره : تحاكم إياس وهو صبى شاب وشيخ إلى قاضى عبد الملك بن مروان بدمشق ، فقال له القاضى : إنه شيخ وأنت شاب فلا تساوه فى الكلام ، فقال إياس : إن كان كبيرا فالحق أكبر منه ، فقال له القاضى : اسكت ، فقال : ومن ينكلم بحجتى إذا سكت ؟ فقال القاضى : ما أحسبك تنطق بحق فى مجلسى هذا حتى تقوم ، فقال إياس : أشهد أن لا إله إلا الله ، زاد غيره فقال القاضى : ما أظنك إلا ظالما له ، فقال : ما على ظن القاضى خرجت من منزلى . فقام القاضى فدخل على عبد الملك فأخبره خبره فقال : اقض حاجته واخرجه الساعة من دمشق لايفسد على الناس .

وقال بعضهم : لما عزله عدى بن أرطاة عن قضاء البصرة فرّ منه إلى عمر بن عبد العزيز فوجده

قد مات ، فكان يجلس فى حلقة فى جامع دمشق ، فتكلم رجل من بنى أمية فرد عليه إياس ، فأغلظ له الأموى فقام إياس ، فقيل للأموى : هذا إياس بن معاوية المزنى ، فلما عاد من الغد اعتذر له الأموى وقال : لم أعرفك ، وقد جلست إلينا بثياب السوقة وكلمتنا بكلام الاشراف فلم نحتمل ذلك .

وقال يعقوب بن سفيان : حدثنا نعيم بن حماد ثنا ضمرة عن أبى شوذب قال : كان يقال يولد فى كل مائة سنة رجل تام العقل ، فكانوا يرون أن إياس بن معاوية منهم . وقال العجلى : دخل على إياس ثلاث نسوة فلما رآهن قال : أما إحداهن فرضع ، والأخرى بكر ، والأخرى ثيب ، فقيل له بم علمت هذا ؟ فقال : أما المرضع فكلما قعدت أمسكت ثديها بيدها ، وأما البكر فكلما دخلت لم تلتفت إلى أحد ، وأما الثيب فكلما دخلت نظرت ورمت بعينيها . وقال يونس بن صملب[1] : ثنا الأحنف بن حكيم بأصبهان ثنا حماد بن سلمة سمعت إياس بن معاوية يقول : أعرف الليلة التى ولدت فيها ، وضعت أمى على رأسى جفنة . وقال المدائنى قال إياس بن معاوية لأمه : ماشئ سمعتيه وأنت حامل بى وله جلبة شديدة ؟ قالت : ذاك طست من نحاس سقط من فوق الدار إلى أسفل ، ففزعت فوضعتك تلك الساعة . وقال أبو بكر الخرائطى عن عمر بن شيبة النميرى قال : بلغنى أن إياساً قال : ما يسرنى أن أكذب كذبة يطلع عليها أبى معاوية . وقال : ما خاصمت أحداً من أهل الاهواء بعقلى كله إلا القدرية ، قلت لهم أخبرونى عن الظلم ما هو ؟ قالوا : أخذ الانسان ماليس له ، قلت : فان الله له كل شئ . قال بعضهم عن إياس قال : كنت فى الكتاب وأنا صبى فجعل أولاد النصارى يضحكون من المسلمين ويقولون : إنهم يزعمون أنه لا فضلة لطعام أهل الجنة ، فقلت للفقيه ـ وكان نصرانيا ـ : ألست تزعم أن فى الطعام ما ينصرف فى غذاء البدن ؟ قال : بلى ، قلت فما ينكر أن يجعل الله طعام أهل الجنة كله غذاء لأبدانهم ؟ فقال له معلمه : ما أنت إلا شيطان .

وهذا الذى قاله إياس وهو صغير بعقله قد ورد به الحديث الصحيح كما سنذكره إن شاء الله فى أهل الجنة أن طعامهم ينصرف جشاء وعرقاً كالمسك ، فاذا البطن ضامر . وقال سفيان : وحين قدم إياس واسط فجاءه ابن شبرمة بمسائل قد أعدها ، فقال له : أتأذن لى أن أسألك ؟ قال : سل وقد ارتبت حين استأذنت ، فسأله عن سبعين مسألة يجيبه فيها ، ولم يختلفا إلا فى أربع مسائل ، رده إياس إلى قوله ، ثم قال له إياس : أتقرأ القرآن ؟ قال : نعم ! قال أتحفظ قوله [اليوم أكملت لكم دينكم] ؟ قال : نعم ! قال : وما قبلها وما بعدها ؟ قال : نعم ! قال : فهل أبقت هذه الآية لآل شبرمة رأياً ؟

وقال عباس عن يحيى بن معين : حدثنا سعيد بن عامر بن عمر بن على قال قال رجل لاياس ابن معاوية : ياأبا واثلة حتى متى يبقى الناس ؟ وحتى متى يتوالد الناس ويموتون ؟ فقال لجلسائه : أجيبوه فلم يكن عندهم جواب ، فقال إياس : حتى تتكامل العدتان ، عدة أهل الجنة ، وعدة أهل النار .

---

(١) كذا . ولم نجد له ترجمة

وقال بعضهم : اكترى إياس بن معاوية من الشام قاصدا الحج ، فركب معه فى المحارة غيلان القدرى ، ولا يعرف أحدهما صاحبه ، فمكثنا ثلاثا لايكلم أحدهما الآخر ، فلما كان بعد ثلاث تحادثا فتمارفا وتعجب كل واحد منهما من اجتماعه مع صاحبه ، لمباينة مابينهما فى الاعتقاد فى القدر ، فقال له إياس : هؤلاء أهل الجنة يقولون حين يدخلون الجنة : [الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله] ويقول أهل النار [ربنا غلبت علينا شقوتنا] وتقول الملائكة [سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا] ثم ذكر له من أشعار العرب وأمثال العجم مافيه إثبات القدر ثم اجتمع مرة أخرى إياس وغيلان عند عمر بن عبد العزيز فناظر بينهما فقهره إياس ، ومازال يحصره فى الكلام حتى اعترف غيلان بالعجز وأظهر التوبة ، فدعا عليه عمر بن عبد العزيز إن كان كاذبا ، فاستجاب الله منه فأمكن من غيلان فقتل وصلب بعد ذلك ولله الحمد والمنة .

ومن كلام إياس الحسن : لأن يكون فى فعال الرجل فضل عن مقاله خير من أن يكون فى مقاله فضل عن فعاله . وقال سفيان بن حسين : ذكرت رجلا بسوء عند إياس بن معاوية فنظر فى وجهى وقال : أغزوت الروم ؟ قلت : لا ! قال : السند والهند والترك ؟ قلت : لا . قال : أفسلم منك الروم والسند والهند والترك ولم يسلم منك أخوك المسلم ؟ قال : فلم أعد بعدها . وقال الأصمعى عن أبيه : رأيت إياس بن معاوية فى بيت ثابت البنانى ، وإذا هو أحمر طويل الذراع غليظ الثياب ، يلون عمامته ، وهو قد غلب على الكلام فلا يتكلم معه أحد إلا علاه ، وقد قال له بعضهم : ليس فيك عيب سوى كثرة كلامك ، فقال : بحق أتكلم أم بباطل ؟ فقيل بل بحق، فقال : كلما كثر الحق فهو خير ، ولامه بعضهم فى لباسه الثياب الغليظة فقال : إنما ألبس ثوبا يخدمنى ولا ألبس ثوبا أخدمه ، وقال الأصمعى قال إياس بن معاوية : إن أشرف خصال الرجل صدق اللسان ، ومن عدم فضيلة الصدق فقد فجع بأكرم أخلاقه . وقال بعضهم : سأل رجل إياسا عن النبيذ فقال : هو حرام ، فقال الرجل : فأخبرنى عن الماء فقال : حلال ، قال : فالكسور ، قال : حلال ، قال فالتمر قال حلال ، قال فما باله إذا اجتمع حرم ؟ فقال إياس : أرأيت لو رميتك بهذه الحفنة من التراب أتوجعك ؟ قال : لا ، قال : فهذه الحفنة من التبن ؟ قال لاتوجعنى ، قال : فهذه الغرفة من الماء ؟ قال لاتوجعنى شيئاً ، قال : أفرأيت إن خلطت هذا بهذا وهذا بهذا حتى صار طيناً ثم تركته حتى استحجر ثم رميتك أيوجعك ؟ قال : إى والله وتقتلنى ، قال : فكذلك تلك الأشياء إذا اجتمعت . وقال المدائنى : بعث عمر بن عبد العزيز عدى ابن أرطاة على البصرة نائباً وأمره أن يجمع بين إياس والقاسم بن ربيعة الجوشنى ، فأيهما كان أفقه فليوله القضاء ، فقال إياس وهو يريد أن لايتولى : أيها الرجل سل فقيهى البصرة ، الحسن وابن سيرين ، وكان إياس لا يأتيهما ، فعرف القاسم أنه إن سألهما أشارا به ـ يعنى بالقاسم ـ لأنه كان

يأتيهما ، فقال القاسم لعدى : والله الذى لا إله إلا هو إن إياساً أفضل منى وأفقه منى ، وأعلم بالقضاء ، فان كنتُ صادقا فوله ، و إن كنت كاذبا فما ينبغى أن تولى كاذبا القضاء . فقال إياس : هـذا رجل أوقف على شفير جهنم فافتـدى منها بيمين كاذبة يستغفر الله ، فقال عدى : أما إذ فطنت إلى هذا فقد وليتك القضاء . فمكث سنة يفصل بين الناس و يصلح بينهم ، و إذا تبين له الحق حكم به ، ثم هرب إلى عمر بن عبد العزيز بدمشق فاستعفاه القضاء ، فولى عدى بعده الحسن البصرى .

قالوا : لمـا تولى إياس القضاء بالبصرة فرح به العلماء حتى قال أيوب : لقـد رموها بحجرها ، وجاءه الحسن وابن سيرين فسلما عليه ، فبكى إياس وذكر الحديث « القضاة ثلاثة ، قاضيان فى النار و واحد فى الجنة » . فقال الحسن [وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث] إلى قوله [وكلا آتينا حكما علما] قالوا : ثم جلس للناس فى المسجد واجتمع عليه الناس للخصومات ، فما قام حتى فصل سبعين قضيه ، حتى كان يشبه بشريح القاضى . وروى أنه كان إذا أشكل عليـه شئ بعث إلى محمـد بن سيرين فسأله منه . وقال إياس : إنى لأ كلم الناس بنصف عقلى ، فاذا اختصم إلى اثنان جمعت لهما عقلى كله . وقال له رجل : إنك لتعجب برأيك ، فقال : لولا ذلك لم أقض به ، وقال له آخر : إن فيك خصالا لا تعجبنى ، فقال : ما هى ؟ فقال : تحكم قبل أن تفهم ، ولا تجالس كل أحد ، وتلبس الثياب الغليظة . فقال له : أيها أكثر الثلاثة أو الاثنان ؟ قال : الثلاثة . فقال : ما أسرع ما فهمت وأجبت ، فقال أو يجهل هذا أحد ؟ فقال : وكذلك ما أحكم أنا به ، وأما مجالستي لـكل أحـد فلأن أجلس مع من يعرف لى قـدرى أحب إلى من أن أجلس مع من لا يعرف لى قدرى ، وأما الثياب الغلاظ فأنا ألبس منها ما يقينى لا ما أقيـه أنا . قالوا ، وتحا كم إليه اثنان فادعى أحدهما عنـد الآخر مالا ، وجحده الآخر ، فقال إياس للمودع : أين أودعتـه ؟ قال : عنـد شجرة فى بستان . فقال : انطلق إليها فقف عنـدها لعلك تتذكر ، وفى رواية أنه قال له : هل تستطيع أن تذهب إليها فتأتى بورق منها ؟ قال : نعم ! قال فانطلق ، وجلس الآخر فجعل إياس يحكم بين الناس و يلاحظه ، ثم استدعاه فقال له : أوصل صاحبك بعد إلى المـكان ؟ فقال : لا بعد أصلحك الله . فقال له : قم ياعدو الله فأد إليه حقه ، و إلا جعلتك نكالا . وجاء ذلك الرجـل فقام معه فـدفع إليه وديعته بكمالها . وجاء آخر فقال له : إنى أودعت عند فلان مالا وقد جحدنى ، فقال له : اذهب الآن وائتنى غدا . و بعث من فوره إلى ذلك الرجل الجاحـد فقال له : إنه قـد اجتمع عندنا ههنا مال فلم نرله أمينا نضعه عنـده إلا أنت ، فضعه عنـدك فى مكان حريز . فقال له سمعا وطاعة ، فقال له اذهب الآن وائتنى غدا ، وأصبح ذلك الرجل صاحب الحق فجاء فقال له : اذهب الآن إليـه فقل له أعطنى حقى و إلا رفعتك إلى القاضى ، فقال له ذلك فخاف أن لا يودع إذا سمع الحاكم خبره ، فدفع إليـه ماله بكماله ، فجاء إلى

إياس فأعلمه ، ثم جاء ذلك الرجل من الغد رجاء أن يودع فانتهره إياس وطرده وقال له : أنت خائن .
وتحاكم إليه اثنان فى جارية فادعى المشترى أنها ضعيفة العقل ، فقال لها إياس : أى رجليك أطول ؟
فقالت : هذه ، فقال لها : أتذكرين ليلة ولدتِ ؟ فقالت نعم . فقال للبائع رد رد .

وروى ابن عساكر أن إياسا سمع صوت امرأة من بيتها فقال : هذه امرأة حامل بصبى ، فلما ولدت ولدت كما قال ، فسئل بم عرفت ذلك ؟ قال : سمعت صوتها ونفسها معه فعلمت أنها حامل ، وفى صوتها ضحل فعلمت أنه غلام . قالوا ثم مر يوماً ببعض المكاتب فاذا صبى هنالك فقال : إن كنت أدرى شيئاً فهذا الصبى ابن تلك المرأة ، فاذا هو ابنها . وقال مالك عن الزهرى عن أبى بكر قال شهد رجل عند إياس فقال له : ما اسمك ؟ فقال أبو العنفر فلم يقبل شهادته . وقال الثورى عن الأعمش : دعونى إلى إياس فاذا رجل كلما فرغ من حديث أخذ فى آخر . وقال إياس : كل رجل لايعرف عيب نفسه فهو أحمق ، فقيل له : ماعيبك ؟ فقال كثرة الكلام . قالوا : ولما ماتت أمه بكى عليها فقيل له فى ذلك فقال : كان لى بابان مفتوحان إلى الجنة فغلق أحدهما . وقال له أبوه : إن الناس يلدون أبناء وولدت أنا أبا . وكان أصحابه يجالسون حوله ويكتبون عنه الفراسة ، فبينما هم حوله جلوس إذ نظر إلى رجل قد جاء فجلس على دكة حانوت ، وجعل كلما مر أحد ينظر إليه ، ثم قام فنظر فى وجه رجل ثم عاد ، فقال لأصحابه : هذا فقيه كتاب قد أبق له غلام أعور فهو يتطلبه ، فقاموا إلى ذلك الرجل فسألوه فوجدوه كما قال إياس ، فقالوا لاياس : من أين عرفت ذلك ؟ فقال : لما جلس على دكة الحانوت علمت أنه ذو ولاية ، ثم نظرت فاذا هو لايصلح إلا لفقهاء المكتب ، ثم جعل ينظر إلى كل من مر به فعرفت أنه قد فقد غلاما ، ثم لما قام فنظر إلى وجه ذلك الرجل من الجانب الآخر ، عرفت أن غلامه أعور . وقد أورد ابن خلكان أشياء كثيرة فى ترجمته ، من ذلك أنه شهد عنده رجل فى بستان فقال له : كم عدد أشجاره ؟ فقال له : كم عدد جذوع هذا المجلس الذى أنت فيه من مدة سنين ؟ فقلت : لا أدرى وأقررت شهادته .

ثم دخلت سنة ثلاث عشرين ومائة

ذكر المدائنى عن شيوخه أن خاقان ملك الترك لما قتل فى ولاية أسد بن عبد الله القسرى على خراسان ، تفرق شمل الأتراك ، وجعل بعضهم يغير على بعض ، وبعضهم يقتل بعضا ، حتى كادت أن تخرب بلادهم ، واشتغلوا عن المسلمين . وفيها سأل أهل الصغد من أمير خراسان نصر بن سيار أن يردهم إلى بلادهم ، وسألوه شروطاً أنكرها العلماء ، منها أن لايعاقب من ارتد منهم عن الاسلام ، ولا يؤخذ أسير المسلمين منهم ، وغير ذلك ، فأراد أن يوافقهم على ذلك لشدة نكايتهم فى المسلمين ، فعاب عليه الناس ذلك ، فكتب إلى هشام فى ذلك فتوقف ، ثم لما رأى أن هؤلاء إذا استمروا على

معاندتهم للمسلمين كان ضررهم أشد ، أجابهم إلى ذلك ، وقد بعث يوسف بن عمر أمير العراق وفدا إلى أمير المؤمنين يسأل منـه أن يضم إليه نيابة خراسان ، وتكلموا فى نصر بن سيار بأنه و إن كان شهما شجاعا ، إلا أنه قـد كبر وضعف بصره فلا يعرف الرجل إلا من قريب بصوته ، وتكلموا فيه كلاما كثيراً ، فلم يلتفت إلى ذلك هشام ، واستمر به على إمرة خراسان و ولايتها . قال ابن جرير : وحج بالناس فيها يزيد بن هشام بن عبد الملك ، والعمال فيها من تقدم ذكرهم فى التى قبلها . وتوفى فى هذه السنة ربيعة بن يزيد القصير من أهل دمشق ، وأبو يونس سليمان بن جبير ، وسماك بن حرب ، ومحمد ابن واسع بن حيان ، وقد ذكرنا تراجمهم فى كتابنا التكميل ولله الحمد

[قال محمد بن واسع : أول من يدعى يوم القيامة إلى الحساب القضاة . وقال : خمس خصال تميت القلب : الذنب على الذنب ، ومجالسة الموتى ، قيل له : ومن الموتى ؟ قال : كل غنى مترف ، وسلطان جائر . وكثرة مشاقة النساء ، وحـديثهن ، ومخالطة أهـله . وقال مالك بن دينار : إنى لأغبط الرجل يكون عيشه كفافا فيقنع به . فقال محمد بن واسع : أغبط منه والله عندى من يصبح جائعا وهو عن الله راض . وقال : ما آسى عن الدنيا إلا على ثلاث : صاحب إذا اعوججت قومنى ، وصلاة فى جماعة يحمل عنى سهوها وأفوز بفضلها ، وقوت من الدنيا ليس لأحد فيه منة ، ولا لله على فيه تبعة . وروى رواد بن الربيع قال : رأيت محمد بن واسع بسوق بزور وهو يعرض حماراً له للبيع ، فقال له رجل : أترضاه لى ؟ فقال لو رضيته لم أبعه .

ولما ثقل محمد بن واسع كثر عليه الناس فى العيادة ، قال بعض أصحابه : فدخلت عليه فاذا قوم قعود وقوم قيام ، فقال : ماذا يغنى هؤلاء عنى إذا أخـذ بناصيتى وقدمى غـداً وألقيت فى النار ؟ ! و بعث بعض الخلفاء مالا مستكثراً إلى البصرة ليفرق فى فقراء أهلها ، وأمر أن يدفع إلى محمد بن واسع منـه فلم يقبله ولم يلتمس منـه شيئا ، وأما مالك بن دينار فانه قبل ما أمر له به ، واشترى به أرقاء وأعتقهـم ولم يأخذ لنفسه منه شيئا ، فجاءه محمد بن واسع يلومه على قبوله جوائز السلطان . فقال له : يامالك قبلت جوائز السلطان ؟ فقال له مالك : يا أبا عبـد الله ! سل أصحابى ماذا فعلت منـه ، فقالوا له : إنه اشترى به أرقاء وأعتقهـم ، فقال له : سألتك بالله أقلبك الآن لهم مثل ما كان قبل أن يصلوك . فقام مالك وحثى على رأسـه التراب وقال : إنما يعرف الله محمـد بن واسع ، إنما مالك حمار إنما مالك حمار ، وكلام محمد بن واسع كثير جداً رحمه الله] (١)

ثم دخلت سنة أربع وعشرين ومائة

فيها غزا سليمان بن هشام بن عبد الملك بلاد الروم فلقى ملك الروم اليون فقاتله فسلم سليمان وغنم.

---

(١) زيادة من المصرية

وفيها قدم جماعة من دعاة بنى العباس من بلاد خراسان قاصدين إلى مكة فمروا بالكوفة فبلغهم أن فى السجن جماعة من الأمراء من نواب خالد القسرى ، قد حبسهم يوسف بن عمر ، فاجتمعوا بهم فى السجن فدعوهم إلى البيعة لبنى العباس ، و إذا عندهم من ذلك جانب كبير ، فقبلوا منهم ووجدوا عندهم فى السجن أبا مسلم الخراسانى ، وهو إذ ذاك غلام يخدم عيسى بن مقبل العجلى ، وكان محبوسا فأعجبهم شهامته وقوته واستجابته مع مولاه إلى هذا الأمر ، فاشتراه بكر بن ماهان منه بأربعمائة درهم وخرجوا به معهم فاستندبوه لهذا الأمر ، فكانوا لايوجهونه إلى مكان إلا ذهب ونتج مايوجهونه إليه ، ثم كان من أمره ماسنذكره إن شاء الله تعالى فيما بعد . قال الواقدى : ومات فى هذه السنة محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، وهو الذى يدعو إليه دعاة بنى العباس ، فقام مقامه ولده أبو العباس السفاح ، والصحيح أنه إنما توفى فى التى بعدها . قال الواقدى وأبو معشر : وحج بالناس فيها عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ، ومعه امرأته أم مسلم بن هشام بن عبد الملك ، وقيل إنما حج بالناس محمد بن هشام بن إسماعيل قاله الواقدى ، والأول ذكره ابن جرير والله أعلم . وكان نائب الحجاز محمد بن هشام بن إسماعيل يقف على باب أم مسلم و يهدى إليها الألطاف والتحف و يعتذر إليها من التقصير ، وهى لاتلتفت إلى ذلك ، ونواب البلاد هم المذكورن فى التى قبلها . وفيها توفى :

القاسم بن ابي بَزّة (١)

أبو عبد الله المكى القارئ ، مولى عبد الله بن السائب ، تابعى جليل ، روى عن أبى الطفيل عامر بن واثلة ، وعنه جماعة ، ووثقه الأئمة . توفى فى هذه السنة على الصحيح ، وقيل بعدها بسنة ، وقيل سنة أربع عشرة ، وقيل سنة خمس عشرة فالله أعلم

الزهري

محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة ، أبو بكر القرشى الزهرى أحد الأعلام من أئمة الاسلام ، تابعى جليل ، سمع غير واحد من التابعين وغيرهم.

روى الحافظ ابن عساكر عن الزهرى قال : أصاب أهل المدينة جهد شديد فارتحلت إلى دمشق ، وكان عندى عيال كثيرة ، فجئت جامعها فجلست فى أعظم حلقة ، فاذا رجل قد خرج من عند أمير المؤمنين عبد الملك ، فقال : إنه قد نزل بأمير المؤمنين مسألة ـ وكان قد سمع من سعيد بن المسيب فيها شيئا وقد شذ عنه فى أمهات الأولاد يرويه عن عمر بن الخطاب ـ فقلت : إنى أحفظ عن سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب ، : فأخذنى فأدخلنى على عبد الملك : فسألنى ممن أنت ؟ فانتسبت له ، وذكرت له حاجتى وعيالى ، فسألنى هل تحفظ القرآن ؟ قلت : نعم والفرائض والسنن ،

---

(١) فى نسخة القسطنطينية : القاسم بن أبى يسرة . وفى المصرية : القاسم بن مرة .

فسألنى عن ذلك كله فأجبته ، فقضى دينى وأمر لى بجائزة ، وقال لى : اطلب العلم فانى أرى لك عينا حافظة وقلبا ذكيا ، قال : فرجعت إلى المدينة أطلب العلم وأتتبعه ، فبلغنى أن امرأة بقباء رأت رؤيا عجيبة ، فأتيتها فسألتها عن ذلك ، فقالت : إن بعلى غاب وترك لنا خادما وداجنا ونخيلات ، نشرب من لبنها ، ونأكل من ثمرها ، فبينما أنا بين النائمة واليقظى رأيت كأن ابنى الكبير - وكان مشتدا - قد أقبل فأخذ الشفرة فذبح ولد الداجن ، وقال : إن هذا يضيق علينا اللبن ، ثم نصب القدر وقطعها ووضعها فيه ، ثم أخذ الشفرة فذبح بها أخاه ، وأخوه صغير كما قد جاء ، ثم استيقظت مذعورة ، فدخل ولدى الكبير فقال : أين اللبن ؟ فقلت : يابنى شربه ولد الداجن ، فقال : إنه قد ضيق علينا اللبن ، ثم أخذ الشفرة فذبحه وقطعه فى القدر ، فبقيت مشفقة خائفة مما رأيت ، فأخذت ولدى الصغير فغيبته فى بعض بيوت الجيران ، ثم أقبلت إلى المنزل وأنا مشفقة جدا مما رأيت ، فأخذتنى عينى فنمت فرأيت فى المنام قائلا يقول : مالك مغتمة ؟ فقلت : إنى رأيت مناما فأنا أحذر منه فقال : يارؤيا يارؤيا ، فأقبلت امرأة حسناء جميلة ، فقال : ما أردت إلى هذه المرأة الصالحة ؟ قالت : ما أردت إلا خيرا ، ثم قال يا أحلام يا أحلام ، فأقبلت امرأة دونها فى الحسن والجمال ، فقال : ما أردت إلى هذه المرأة الصالحة ؟ فقالت : ما أردت إلا خيراً ، ثم قال : يا أضغاث يا أضغاث ، فأقبلت امرأة سوداء شنيعة فقال : ما أردت إلى هذه المرأة الصالحة ؟ فقالت إنها امرأة صالحة فأحببت أن أغمها ساعة ، ثم استيقظت فجاء ابنى فوضع الطعام وقال : أين أخى ؟ فقلت : درج إلى بيوت الجيران ، فذهب وراءه فكأنما هدى إليه ، فأقبل به يقبله ، ثم جاء فوضعه وجلسنا جميعاً فأكلنا من ذلك الطعام

ولد الزهرى فى سنة ثمان وخمسين فى آخر خلافة معاوية ، وكان قصيراً قليل اللحية ، له شعرات طوال خفيف العارضين . قالوا : وقد قرأ القرآن فى نحو من ثمان وثمانين يوماً ، وجالس سعيد بن المسيب ثمان سنين ، تمس ركبته ركبته ، وكان يخدم عبيد الله بن عبد الله يستسقى له الماء المالح ، ويدور على مشايخ الحديث ، ومعه ألواح يكتب عنهم فيها الحديث ، ويكتب عنهم كل ما سمع منهم ، حتى صار من أعلم الناس وأعلمهم فى زمانه ، وقد احتاج أهل عصره إليه .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن الزهرى قال : كنا نكره كتاب العلم حتى أكرهنا عليه هؤلاء الأمراء ، فرأينا أن لا نمنعه أحداً من المسلمين . وقال أبو إسحاق : كان الزهرى يرجع من عند عروة فيقول لجارية عنده فيها لكنة : ثنا عروة ثنا فلان ، ويسرد عليها ما سمعه منه ، فتقول له الجارية : والله ما أدرى ما تقول ، فيقول لها : اسكتى لكاع ، فانى لا أريدك ، إنما أريد نفسى . ثم وفد على عبد الملك بدمشق كما تقدم فأكرمه وقضى دينه وفرض له فى بيت المال ، ثم كان بعد من أصحابه وجلسائه ، ثم كان كذلك عند أولاده من بعده ، الوليد وسليمان ، وكذا عند عمر

ابن عبد العزيز ، وعند يزيد بن عبد الملك ، واستقضاه يزيد مع سليمان بن حبيب ، ثم كان حظيا عند هشام ، وحج معه وجعله معلم أولاده إلى أن توفى فى هذه السنة ، قبل هشام بسنة . وقال ابن وهب : سمعت الليث يقول : قال ابن شهاب : ما استودعت قلبى شيئاً قط فنسيته ، قال : وكان يكره أكل التفاح وسؤر الفارة ، ويقول : إنه ينسى ، وكان يشرب العسل ويقول إنه يذكى ، وفيه يقول فايد بن أقرم .

زُرْ ذا وأثنِ على الكريم محمدٍ * واذكرْ فواضلَه على الأصحابِ

وإذا يقالُ من الجوادِ بمالهِ * قيلَ الجوادُ محمدُ بنُ شهابِ

أهلُ المدائنِ يعرفونَ مكانهُ * وربيعُ ناديهِ على الأعرابِ

يشري وفاءَ جفانهِ ويمدها * بكسورِ انتاجٍ وفتقِ لبابِ

وقال ابن مهدى : سمعت مالكا يقول : حدث الزهرى يوماً بحديث فلما قام أخذت بلجام دابته فاستفهمته فقال : أتستفهمنى ؟ ما استفهمت عالما قط ، ولا رددت على عالم قط ، ثم جعل ابن مهدى يقول فتلك الطوال وتلك المغازى .

وروى يعقوب بن سفيان عن هشام بن خالد السلامى عن الوليد بن مسلم عن سعيد ـ يعنى ابن عبد العزيز ـ أن هشام بن عبد الملك سأل الزهرى أن يكتب لبنيه شيئا من حديثه ، فأملى على كاتبه أربعمائة حديث ثم خرج على أهل الحديث فحدثهم بها ، ثم إن هشاما قال للزهرى : إن ذلك الكتاب ضاع ، فقال : لا عليك ، فأملى عليهم تلك الأحاديث فأخرج هشام الكتاب الأول فاذا هو لم يغادر حرفا واحداً ، وإنما أراد هشام امتحان حفظه . وقال عمر بن عبد العزيز : ما رأيت احداً أحسن سوقاً للحديث إذا حدث من الزهرى . وقال سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار : ما رأيت أحداً أنص للحديث من الزهرى ، ولا أهون من الدينار والدرهم عنده ، وما الدراهم والدنانير عند الزهرى إلا بمنزلة البعر . قال عمرو بن دينار : ولقد جالست جابرا وابن عباس وابن عمر وابن الزبير فما رأيت أحداً أسيق للحديث من الزهرى .

وقال الامام أحمد : أحسن الناس حديثا وأجودهم إسنادا الزهرى ؛ وقال النسائى : أحسن الأسانيد الزهرى عن على بن الحسين عن أبيه عن جده على عن رسول الله ص . وقال سعيد عن الزهرى : مكثت خمساً وأربعين سنة أختلف من الحجاز إلى الشام ، ومن الشام إلى الحجاز ، فما كنت أسمع حديثا أستطرفه . وقال الليث : ما رأيت عالما قط أجمع من ابن شهاب ، ولو سمعته يحدث في الترغيب والترهيب لقلت : ما يحسن غير هذا ، وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب قلت لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن الأعراب والأنساب قلت : لا يحسن إلا هذا ، وإن حدث عن القرآن والسنة كان حديثه بدعا جامعا ، وكان يقول : اللهم إنى أسألك من كل خير أحاط به علمك

وأعوذ بك من كل شر أحاط به علمك فى الدنيا والآخرة . قال الليث : وكان الزهرى أسخى من رأيت ، يعطى كل من جاء وسأله ، حتى إذا لم يبق عنده شئ استسلف . وكان يطعم الناس الثريد ويسقيهم العسل ، وكان يستمر على شراب العسل كما يستمر أهل الشراب على شرابهم ، ويقول اسقونا وحدثونا ، فاذا نعس أحدهم يقول له : ما أنت من سمار قريش ، وكانت له قبة معصفرة ، وعليه ملحفة معصفرة ، وتحته بساط معصفر ، وقال الليث قال يحيى بن سعيد : ما بقى عند أحد من العلم ما بقى عند ابن شهاب .

وقال عبد الرزاق : أنبأ معمر قال قال عمر بن عبد العزيز : عليكم بابن شهاب فانه ما بقى أحد أعلم بسنة ماضية منه ، وكذا قال مكحول . وقال أيوب : ما رأيت أحداً أعلم من الزهرى ، فقيل له : ولا الحسن ؟ فقال : ما رأيت أعلم من الزهرى ، وقيل لمكحول : من أعلم من لقيت ؟ قال : الزهرى ، قيل : ثم من ؟ قال الزهرى ، قيل ثم من ؟ قال الزهرى . وقال مالك : كان الزهرى إذا دخل المدينة لم يحدث بها أحداً حتى يخرج . وقال عبد الرزاق عن ابن عيينة : محدثو أهل الحجاز ثلاثة ، الزهرى ويحيى بن سعيد وابن جريج . وقال على بن المدينى : الذين أفتوا أربعة ، الزهرى ، والحكم ، وحماد وقتادة ، والزهرى أفقههم عندى . وقال الزهرى : ثلاثة إذا كن فى القاضى فليس بقاض ، إذا كره الملاوم وأحب المحامد ، وكره العزل . وقال أحمد بن صالح : كان يقال فصحاء زمانهم الزهرى وعمر بن عبد العزيز وموسى بن طلحة وعبيد الله ، رحمهم الله . وقال مالك عن الزهرى : أنه قال : إن هذا العلم الذى أدب الله به رسول الله (ص) ، وأدب رسول الله به أمته أمانة الله إلى رسوله ليؤديه على ما أدى إليه ، فمن سمع علما فليجعله أمامه حجة فيما بينه وبين الله عز وجل .

وقال محمد بن الحسين عن يونس عن الزهرى قال : الاعتصام بالسنة نجاة ، وقال الوليد عن الأوزاعى عن الزهرى قال : أمرّوا أحاديث رسول الله (ص) كما جاءت . وقال محمد بن إسحاق عن الزهرى : إن من غوائل العلم أن يترك العالم حتى يذهب علمه ، وفى رواية أن يترك العالم العمل بالعلم حتى يذهب ، فان من غوائله قلة انتفاع العالم بعلمه ، ومن غوائله النسيان والكذب ، وهو أشد الغوائل . وقال أبو زرعة عن نعيم بن حماد عن محمد بن ثور عن معمر عن الزهرى قال : القراءة على العالم والسماع عليه سواء إن شاء الله تعالى .

وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى قال : إذا طال المجلس كان للشيطان فيه حظ ونصيب ، وقد قضى عنه هشام مرة ثمانين ألف درهم ، وفى رواية سبعة عشر ألفا ، وفى رواية عشرين ألفا . وقال الشافعى : عتب رجاء بن حيوة على الزهرى فى الاسراف وكان يستدين ، فقال له : لا آمن أن يحبس هؤلاء القوم ما بأيديهم عنك فتكون قد حملت على أمانيك ، قال : فوعده الزهرى أن يقصر ،

فمر به بعد ذلك وقد وضع الطعام ونصب موائد العسل ، فوقف به رجاء وقال : يا أبا بكر ما هذا بالذى فارقتنا عليه ، فقال له الزهرى : انزل فان السخى لاتؤدبه التجارب . وقد أنشد بعضهم فى هذا المعنى

لهُ سحائبُ جودٍ فى أناملهِ * أمطارها الفضةُ البيضاءُ والذهبُ
يقولُ فى العسرِ إن أيسرتَ ثانيةً * أقصرتَ عن بعضِ ما أعطى وما أهبُ
حتى إذا عادَ أيامُ اليسارِ لهُ * رأيتَ أموالهُ فى الناسِ تنتهبُ

وقال الواقدى : ولد الزهرى سنة ثمان وخمسين ، وقدم فى سنة أربع وعشرين ومائة إلى أمواله بثلاث بشعب زبدا ، فأقام بها فمرض هناك ومات وأوصى أن يدفن على قارعة الطريق ، وكانت وفاته لسبع عشرة من رمضان فى هذه السنة ، وهو ابن خمس وسبعين سنة ، قالوا : وكان ثقة كثير الحديث والعلم والرواية ، فقيها جامعا ، وقال الحسين بن المتوكل العسقلانى : رأيت قبر الزهرى بشعب زبدا من فلسطين مسنما مجصصا ، وقد وقف الأوزاعى يوماً على قبره فقال : ياقبركم فيك من علم ومن حلم * يا قبركم فيك من علم ومن كرم * وكم جمعت روايات وأحكاما . وقال الزبير بن بكار : توفى الزهرى بامواله بشعب ثنين ، ليلة الثلاثاء لسبع عشر ليلة خلت من رمضان سنة أربع وعشرين ومائة ، عن ثنتين وسبعين سنة ، ودفن على قارعة الطريق ليدعو له المارة ، وقيل إنه توفى سنة ثلاث وعشرين ومائة ، وقال أبو معشر : سنة خمس وعشرين ومائة ، والصحيح الأول والله أعلم .

فصل

وروى الطبرانى عن إسحاق بن إبراهيم حدثنا عبد الرزاق عن معمر قال : أخبرنى صالح بن كيسان قال : اجتمعت أنا والزهرى ونحن نطلب العلم فقلنا : نحن نكتب السنن ، فكتبنا ما جاء عن النبى (ص) ، ثم قال لى : هلم فلنكتب ما جاء عن أصحابه فانه سنة ، فقلت : إنه ليس بسنة فلا نكتب ، قال : فكتب ماجاء عنهم ولم أكتب ، فأنجح وضيعت . وروى الامام أحمد عن معمر قال : كنا نرى أنا قد أكثرنا عن الزهرى حتى قتل الوليد ، فاذا الدفاتر قد حملت على الدواب من خزانته يقول : من علم الزهرى . وروى عن الليث بن سعد قال : وضع الطست بين يدى ابن شهاب فتذكر حديثا فلم تزل يده فى الطست حتى طلع الفجر وصححه . وروى اصبغ بن الفرج عن ابن وهب عن يونس عن الزهرى قال : للعلم واد فاذا هبطت واديه فعليك بالتؤدة حتى تخرج منه ، فانك لاتقطعه حتى يقطع بك .

وقال الطبرانى : حدثنا أحمد بن يحيى ثعلب حدثنا الزبير بن بكار حدثنى محمد بن الحسن بن زبالة عن مالك بن أنس عن الزهرى قال : خدمت عبيد الله بن عتبة ، حتى أن كان خادمه ليخرج فيقول : من بالباب ؟ فتقول الجارية : غلامك الأعيمش ، فتظن أنى غلامه ، وإن كنت لأخدمه

حتى أستقى له وضوءه . وروى عبد الله بن أحمد عن محمد بن عباد عن الثورى عن مالك بن أنس أراه عن الزهرى . قال : تبعت سعيد بن المسيب ثلاثة أيام فى طلب حديث . وروى الأوزاعى عن الزهرى قال : كنا نأتى العالم فما نتعلم من أدبه أحب إلينا من علمه . وقال سفيان : كان الزهرى يقول حدثنى فلان ، وكان من أوعية العلم ، ولا يقول كان عالما . وقال مالك : أول من دون العلم ابن شهاب . وقال أبو المليح : كان هشام هو الذى أكره الزهرى على كتابة الحديث ، فكان الناس يكتبون بعد ذلك . وقال رشيد بن سعد قال الزهرى : العلم خزائن وتفتحها المسائل . وقال الزهرى : كان يصطاد العلم بالمسألة كما يصاد الوحش . وكان ابن شهاب ينزل بالأعراب يعلمهم لئلا ينسى العلم ، وقال : إنما يذهب العلم النسيان وترك المذاكرة . وقال : إن هذا العلم إن أخذته بالمكابرة غلبك ولم تظفر منه بشئ ، ولكن خذه مع الأيام والليالى أخذاً رفيقا تظفر به . وقال : ما أحدث الناس مروءة أعجب إلى من الفصاحة . وقال : العلم ذكر لايحبه إلا الذكور من الرجال ويكرهه مؤنثوهم . ومر الزهرى على أبى حازم وهو يقول : قال رسول الله (ص) ، فقال : مالى أرى أحاديث ليس لها خطم ولا أزمة ؟ . وقال : ما عبد الله بشئ أفضل من العلم .

وقال ابن مسلم أبى عاصم : حدثنا دحيم حدثنا الوليد بن مسلم عن القاسم بن هزان أنه سمع الزهرى يقول : لايوثق الناس علم عالم لايعمل به ، ولا يؤمن بقول عالم لايرضى . وقال ضمرة عن يونس عن الزهرى قال : إياك وغلول الكتب ، قلت : وما غلولها ؟ قال : حبسها عن أهلها . وروى الشافعى عن الزهرى قال : حضور المجلس بلا نسخة ذل . وروى الأصمعى عن مالك بن أنس عن ابن شهاب قال : جلست إلى ثعلبة بن أبى معين فقال : أراك تحب العلم ؟ قلت : نعم ! قال : فعليك بذاك الشيخ - يعنى سعيد بن المسيب - قال : فلزمت سعيداً سبع سنين ثم تحولت عنه إلى عروة ففجرت ثبج بحره . وقال الليث : قال ابن شهاب : ماصبر أحد على العلم صبرى ، ومانشره أحد قط نشرى ، فأما عروة بن الزبير فبئر لاتكدره الدلاء ، وأما ابن المسيب فانتصب للناس فذهب اسمه كل مذهب .

وقال مكى بن عبدان : حدثنا محمد بن عبد العزيز بن عبد الله الأوسى حدثنا مالك بن أنس أن ابن شهاب سأله بعض بنى أمية عن سعيد بن المسيب فذكر علمه بخير وأخبره بحاله ، فبلغ ذلك سعيداً فلما قدم ابن شهاب المدينة جاء فسلم على سعيد فلم يرد عليه ولم يكلمه ، فلما انصرف سعيد مشى الزهرى معه فقال : مالى سلمت عليك فلم تكلمنى ؟ ماذا بلغك عنى وما قلت إلا خيرا ؟ . قال له : ذكرتنى لبنى مروان ؟ . وقال أبو حاتم : حدثنا مكى بن عبدان حدثنا محمد بن يحيى حدثنى عطاف ابن خالد المخزومى عن عبد الأعلى بن عبد الله بن أبى فروة عن ابن شهاب قال : أصاب أهل المدينة حاجة زمان فتنة عبد الملك بن مروان ، فعمت أهل البلد ، وقد خيل إلى أنه قد أصابنا أهل

البيت من ذلك مالم يصب أحداً من أهل البلد ، وذلك لخبرتى بأهلى ، فتذكرت : هل من أحد أمت إليه برحم أو مودة أرجو إن خرجت إليه أن أصيب عنده شيئا ؟ فما علمت من أحد أخرج إليه ، ثم قلت : إن الرزق بيدالله عز وجل ، ثم خرجت حتى قدمت دمشق فوضعت رجلى ثم أتيت المسجد فنظرت إلى أعظم حلقة رأيتها وأكبرها فجلست فيها ، فبينا نحن على ذلك إذ خرج رجل من عند أمير المؤمنين عبد الملك ، كأجسم الرجال وأجملهم وأحسنهم هيئة ، فجاء إلى المجلس الذى أنا فيه فتحشحشوا له ـ أى أوسعوا ـ فجلس فقال : لقد جاء أمير المؤمنين اليوم كتاب ما جاءه مثله منذ استخلفه الله ، قالوا : ماهو ؟ قال : كتب إليه عامله على المدينة هشام بن إسماعيل يذكر أن ابنا لمصعب بن الزبير من أم ولد مات ، فأرادت أمه أن تأخذ ميراثا منه فمنعها عروة بن الزبير ، وزعم أنه لا ميراث لها ، فتوهم أمير المؤمنين حديثا فى ذلك سمعه من سعيد بن المسيب يذكرعن أميرالمؤمنين عمر بن الخطاب فى أمهات الأولاد ، ولا يحفظه الآن ، وقد شذ عنه ذلك الحديث . قال ابن شهاب فقلت : أنا أحدثه به ، فقام إلى قبيصة حتى أخذ بيدى ثم خرج حتى دخل الدار على عبد الملك فقال السلام عليك ، فقال له عبد الملك مجيبا : وعليك السلام . فقال قبيصة : أندخل ؟ فقال عبد الملك ادخل ، فدخل قبيصة على عبد الملك وهو آخذ بيدى وقال : هذا يا أمير المؤمنين يحدثك بالحديث الذى سمعته من ابن المسيب فى أمهات الأولاد . فقال عبد الملك : إيه ، قال الزهرى فقلت : سمعت سعيد بن المسيب يذكر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر بأمهات الأولاد أن يقوَّمن فى أموال أبنائهن بقيمة عدل ثم يعتقن ، فكتب عمر بذلك صدراً من خلافته ، ثم توفى رجل من قريش كان له ابن من أم ولد ، وقد كان عمر يعجب بذلك الغلام ، فمرّ ذلك الغلام على عمر فى المسجد بعد وفاة أبيه بليال ، فقال له عمر : ما فعلت يا ابن أخى فى أمك ؟ قال : فعلت يا أمير المؤمنين خيراً ، خيرونى بين أن يسترقوا أمى [1] فقال عمر : أولست إنما أمرت فى ذلك بقيمة عدل ؟ ما أرى رأياً وما أمرت بأمر إلا قلتم فيه ، ثم قام فجلس على المنبر فاجتمع الناس إليه حتى إذا رضى من جماعتهم قال: أيها الناس ! إنى قد كنت أمرت فى أمهات الأولاد بأمر قد علمتموه ، ثم حدث رأى غير ذلك ، فأيما امرئ كان عنده أم ولد فملكها بيمينه ما عاش ، فاذا مات فهى حرة لا سبيل له عليها .

فقال لى عبد الملك : من أنت ؟ قلت أنا محمد بن مسلم بن عبيد بن شهاب ، فقال : أما والله إن كان أبوك لأباً نعاراً فى الفتنة مؤذياً لنا فيها . قال الزهرى فقلت : يا أمير المؤمنين قل كما قال العبد الصالح : [لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم] فقال : أجل ! [لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم] قال فقلت : يا أمير المؤمنين افرض لى فانى منقطع من الديوان ، فقال : إن بلدك ما فرضنا فيه

(١) كذا بالأصل وهو ناقص .

لأحد منذ كان هذا الأمر . ثم نظر إلى قبيصة وأنا وهو قائمان بين يديه ، فكأنه أومأ إليه أن افرض له ، فقال : قد فرض إليك أمير المؤمنين ، فقلت : إنى والله ما خرجت من عند أهلى إلا وهم فى شدة وحاجة ما يعلمها إلا الله ، وقد عمت الحاجة أهل البلد . قال : قد وصلك أمير المؤمنين . قال قلت : يا أمير المؤمنين وخادم يخدمنا ، فان أهلى ليس لهم خادم إلا أختى ، فانها الآن تعجن وتخبز وتطحن قال : قد أخدمك أمير المؤمنين .

وروى الأوزاعى عن الزهرى أنه روى أن رسول الله (ص) قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن » . فقلت للزهرى : ما هذا ؟ فقال : من الله العلم ، وعلى رسوله البلاغ ، وعلينا التسليم ، أمرّوا أحاديث رسول الله (ص) كما جاءت . وعن ابن أخى ابن شهاب عن عمه قال : كان عمر بن الخطاب يأمر برواية قصيدة لبيد بن ربيعة التى يقول فيها :

إن تقوى ربنا خيرُ نَفَلْ * وباذنِ اللهِ ريثى والعجلْ

أحمدِ اللهُ فلا ندَّ له * بيديهِ الخيرُ ما شاءَ فعلْ

من هداهُ سبلَ الخير اهتدى * ناعمَ البالِ ومن شاءَ أضلْ

وقال الزهرى : دخلت على عبيد الله بن عبد الله بن عتبة منزله فاذا هو مغتاظ ينفخ ، فقلت : مالى أراك هكذا ؟ فقال : دخلت على أميركم آنفا ـ يعنى عمر بن عبد العزيز ـ ومعه عبد الله بن عمرو بن عثمان فسلمت عليهما فلم يردا على السلام ، فقلت :

لاتعجبا أن تُؤتيا فتكلما * فما حشى الأقوامَ شراً من الكبرْ

ومَا ترابَ الأرضِ منهُ خُلقتما * وفيها المعادُ والمصيرُ إلى الحشرْ

فقلت : يرحمك الله ! ! مثلك فى فقهك وفضلك وسنك تقول الشعر ؟ ! فقال : إن المصدور إذا نفث برأ . وجاء شيخ إلى الزهرى فقال : حدثنى ، فقال : إنك لا تعرف اللغة ، فقال الشيخ : لعلى أعرفها ، فقال : فما تقول فى قول الشاعر :

صَريعَ ندامى يرفَعُ الشربُ رأسهُ * وقد ماتَ منهُ كلُّ عضوٍ ومفصلِ ؟

ما المفصل ؟ قال : اللسان ، قال : عد على أحدثك . وكان الزهرى يتمثل كثيراً بهذا :

ذهبَ الشبابُ فلا يعودُ جُمانا * وكأنَ ما قدْ كانَ لمْ يكُ كانا

فطَويتُ كفِي ياجمانُ على العصا * وكفى جمانُ بِطَيِّها حَدَثانا

وكان نقش خاتم الزهرى : محمد يسأل الله العافية . وقيل لابن أخى الزهرى : هل كان عمك يتطيب ؟ قال : كنت أشم ريح المسك من سوط دابة الزهرى . وقال : استكثروا من شئ لا تمسه النار ، قيل : وما هو ؟ قال : المعروف . وامتدحه رجل مرة فأعطاه قميصه ، فقيل له : أتعطى على كلام

الشيطان ؟ فقال: إن من ابتغاء الخير اتقاء الشر . وقال سفيان : سئل الزهرى عن الزاهد فقال : من لم يمنع الحلال شكره ، ولم يغلب الحرام صبره . وقال سفيان : قالوا للزهرى : لو أنك الآن فى آخر عمرك أقمت بالمدينة ، فقعدت إلى مسجد رسول الله (ص) ، ودرجت وجلسنا إلى عمود من أعمدته فذكرت الناس وعلمتهم ؟ فقال : لو أنى فعلت ذلك لوطئ عقبى ، ولا ينبغى لى أن أفعل ذلك حتى أزهد فى الدنيا وأرغب فى الآخرة . وكان الزهرى يحدث أنه هلك فى جبال بيت المقدس بضعة وعشرون نبيا ، ماتوا من الجوع والعمل . كانوا لا يأكلون إلا ما عرفوا ، ولا يلبسون إلا ما عرفوا وكان يقول : العبادة هى الورع والزهد ، والعلم هو الحسنة ، والصبر هو احتمال المكاره ، والدعوة إلى الله على العمل الصالح] (١) .

ومن توفى فى خلافة هشام بن عبد الملك كما أورده ابن عساكر

بلال بن سعد

ابن تميم السكونى أبو عمرو ، وكان من الزهاد الكبار ، والعباد الصوام القوام ، روى عن أبيه وكان أبوه له صحبة ، وعن جابر وابن عمر وأبى الدرداء وغيرهم ، وعنه جماعات منهم أبوعمرو الأوزاعى وكان الأوزاعى يكتب عنه مايقوله من الفوائد العظيمة فى قصصه ووعظه ، وقال : مارأيت واعظا قط مثله . وقال أيضا : ما بلغنى عن أحد من العبادة مابلغنى عنه ، كان يصلى فى اليوم والليلة ألف ركعة . وقال غيره وهو الأصمعى : كان إذا نعس فى ليل الشتاء ألقى نفسه فى ثيابه فى البركة ، فعاتبه بعض أصحابه فى ذلك فقال : إن ماء البركة أهون من عذاب جهنم . وقال الوليد بن مسلم : كان إذا كبر فى المحراب سمعوا تكبيره من الاوزاع . قلت : وهى خارج باب الفراديس . وقال أحمد بن عبد الله العجلى : هو شامى تابعى ثقة . وقال أبو زرعة الدمشقى : كان أحد العلماء قاصاً حسن القصص ، وقد اتهمه رجاء بن حيوة بالقدر حتى قال بلال يوما فى وعظه : رب مسرور مغرور ، ورب مغرور لايشعر ، فويل لمن له الويل وهو لايشعر ، يأكل ويشرب ، ويضحك ، وقد حق عليه فى قضاء الله أنه من أهل النار ، فياويل لك روحاً ، ياويل لك جسداً ، فلتبك ولتبك عليك البواكى لطول الأبد .

وقد ساق ابن عساكر شيئا حسنا من كلامه فى مواعظه البليغة ، فن ذلك قوله : والله لكفى به ذنبا أن الله يزهدنا فى الدنيا ونحن نرغب فيها ، زاهدكم راغب ، وعالمكم جاهل ، ومجتهدكم مقصر . وقال أيضاً : أخ لك كلما لقيك ذكرك بنصيبك من الله ، وأخبرك بعيب فيك ، أحب إليك ، وخير لك من أخ كلما لقيك وضع فى كفك دينارا . وقال أيضا : لاتكن وليا لله فى العلانية وعدوه فى السر ولاتكن عدو إبليس والنفس والشهوات فى العلانية وصديقهم فى السر ، ولاتكن ذا وجهين وذا لسانين

(١) زيادة من المصرية .

فتظهر للناس أنك تخشى الله ليحمدوك وقلبك فاجر . وقال أيضا : أيها الناس إنكم لم تخلقوا للفناء وإنما خلقتم للبقاء ، ولكنكم تنتقلون من دار إلى دار ، كما نقلتم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى الدنيا ، ومن الدنيا إلى القبور ، ومن القبور إلى الموقف ، ومن الموقف إلى الجنة أوالنار . وقال أيضا : عباد الرحمن إنكم تعملون فى أيام قصار لأيام طوال ، وفى دار زوال إلى دار مقام ، وفى دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود ، فمن لم يعمل على يقين فلاتتفعن ، عباد الرحمن لو قد غفرت خطايا كم الماضية لكان فيما تستقبلون لكم شغلا ، ولو عملتم بما تعلمون لكان لكم مقتدا وملتجا ، عباد الرحمن أماما وكلتم به فتضيعونه ، وأما ماتكفل الله لكم به فتطلبونه ، ماهكذا نعت الله عباده الموقنين ، أذو وعقول فى الدنيا وبله فى الآخرة ، وعمى عما خلقتم له بصراء فى أمر الدنيا ؟ فكما ترجون رحمة الله بما تؤدون من طاعته ، فكذلك اشفقوا من عذابه بما تنتهكون من معاصيه ، عباد الرحمن ! هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئاً من أعمالكم قد تقبل منكم ؟ أو شيئا من خطاياكم قد غفر لكم ؟ [أم حسبتم أنما خلقنا كم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون] والله لو عجل لكم الثواب فى الدنيا لاستقللتم مافرض عليكم . أترغبون فى طاعة الله لدار معمورة بالآفات ؟ ولا ترغبون وتنافسون فى جنة أكلها دائم وظلها ، وعرضها عرض الأرض والسموات [تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار] وقال أيضاً : الذكر ذكران ذكر الله باللسان حسن جميل ، وذكر الله عند ما أحل وحرم أفضل . عباد الرحمن يقال لأحدنا : تحب أن تموت ؟ فيقول : لا ! فيقال له : لم ؟ فيقول : حتى أعمل ، فيقال له : اعمل ، فيقول سوف أعمل ، فلا يحب أن تموت ، ولا تحب أن تعمل ، وأحب شيء إليه يحب أن يؤخر عمل الله ، ولا يحب أن يؤخر الله عنه عرض دنياه . عباد الرحمن إن العبد ليعمل الفريضة الواحدة من فرائض الله وقد أضاع ماسواها ، فما يزال يمنيه الشيطان ويزين له حتى مايرى شيئا دون الجنة ، مع إقامته على معاصى الله . عباد الرحمن قبل أن تعملوا أعمالكم فانظروا ماذا تريدون بها ، فان كانت خالصة فامضوها وإن كانت لغير الله فلا تشقوا على أنفسكم ، فان الله لايقبل من العمل إلا ما كان له خالصا ، فانه قال [إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه] وقال أيضاً : إن الله ليس إلى عذابكم بالسريع ، يقبل المقبل ويدعو المدبر ، وقال أيضا : إذا رأيت الرجل متحرجا لحوحا مماريا معجبا برأيه فقد تمت خسارته . وقال الأوزاعى : خرج الناس بدمشق يستسقون فقام بهم بلال بن سعد فقال : يامعشر من حضر ! ألستم مقرين بالاساءة ؟ قالوا : نعم ، فقال : اللهم إنك قلت [ماعلى المحسنين من سبيل] وقد أقررنا بالاساءة فاعف عنا واغفر لنا . قال : فسقوا يومهم ذلك : وقال أيضا : سمعته يقول : لقد أدركت أقواما يشتدون بين الأغراض ، ويضحك بعضهم إلى بعض ، فاذا جنهم الليل كانوا رهبانا . وسمعته أيضا يقول : لاتنظر إلى صغر الذنب وانظر إلى من عصيت . وسمعته يقول : من بادأك بالود فقد استرقك بالشكر .

وكان من دعائه : اللهم إنى أعوذ بك من زيغ القلوب ، ومن تبعات الذنوب ، ومن مرديات الأعمال ومضلات العين .وقال الأوزاعى عنه أنه قال : عباد الرحمن لو أنتم لم تدعوا إلى الله طاعة إلا عملتموها ولا معصية إلا اجتنبتموها ، إلا أنكم تحبون الدنيا لكفا كم ذلك عقوبة عند الله عزوجل . وقال : إن الله يغفر الذنوب لمن تاب منها ، ولكن لا يمحوها من الصحيفة حتى يوقف العبد عليها يوم القيامة .

ترجمة الجعد بن درهم

هو أول من قال بخلق القرآن ، وهو الذى ينسب إليه مروان الجعدى ، وهو مروان الحمار ، آخر خلفاء بنى أمية . كان شيخه الجعد بن درهم ، أصله من خراسان ، ويقال إنه من موالى بنى مروان ، سكن الجعد دمشق ، وكانت له بها دار بالقرب من القلاسيين إلى جانب الكنيسة ، ذكره ابن عساكر . قلت : وهى محلة من الخواصين اليوم غربيها عند حمام القطانين الذى يقال له حمام قلينس . قال ابن عساكر وغيره : وقد أخذ الجعد بدعته عن بيان بن سمعان ، وأخذها بيان عن طالوت ابن اخت لبيد بن أعصم ، زوج ابنته ، وأخذها لبيد بن أعصم الساحر الذى سحر رسول الله (ص) عن يهودى باليمن ، وأخذ عن الجعد الجهم بن صفوان الخزرى ، وقيل الترمذى ، وقد أقام ببلخ ، وكان يصلى مع مقاتل بن سليمان فى مسجده ويتناظران ، حتى نفى إلى ترمذ ، ثم قتل الجهم بأصبهان ، وقيل بمرو ، قتله نائبها سلم بن أحوز رحمه الله وجزاه عن المسلمين خيراً ، وأخذ بشر المريسى عن الجهم ، وأخذ أحمد بن أبى دواد عن بشر ، وأما الجعد فانه أقام بدمشق حتى أظهر القول بخلق القرآن ، فتطلبه بنو أمية فهرب منهم فسكن الكوفة ، فلقيه فيها الجهم بن صفوان فتقلد هذا القول عنه ، ثم إن خالد بن عبد الله القسرى قتل الجعد يوم عيد الاضحى بالكوفة ، وذلك أن خالداً خطب الناس فقال فى خطبته تلك : أيها الناس ضحوا يقبل الله ضحايا كم ، فانى مضح بالجعد بن درهم ، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا . ولم يكلم موسى تكليما ، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيراً . ثم نزل فذبحه فى أصل المنبر .

وقد ذكر هذا غير واحد من الحفاظ منهم البخارى وابن أبى حاتم والبيهقى وعبد الله بن أحمد وذكره ابن عساكر فى التاريخ ، وذكر أنه كان يتردد إلى وهب بن منبه ، وأنه كان كلما راح إلى وهب يغتسل ويقول : أجمع للعقل ، وكان يسأل وهبا عن صفات الله عز وجل فقال له وهب يوما : ويلك يا جعد ، اقصر المسألة عن ذلك ، إنى لأظنك من الهالكين ، لولم يخبرنا الله فى كتابه أن له يدا ما قلنا ذلك ، وأن له عينا ما قلنا ذلك ، وأن له نفسا ما قلنا ذلك ، وأن له سمعا ما قلنا ذلك ، وذكر الصفات من العلم والكلام وغير ذلك ، ثم لم يلبث الجعد أن صلب ثم قتل . ذكره ابن عساكر ، وذكر فى ترجمته أنه قال للحجاج بن يوسف ويروى لعمران بن حطان :

ليثٌ عليَّ وفى الحروبِ نعامةٌ * فتخاءُ تجفلُ من صفيرِ الصافرِ
هلا برزتَ إلى غزالة فى الوغى * بلْ كانَ قلبكَ فى جناحيْ طائرِ

ثم دخلت سنة خمس وعشرين ومائة

قال الحافظ أبو بكر البزار : حدثنا رزق الله بن موسى ثنا محمد بن إسماعيل بن أبى فديك ثنا عبد الملك بن زيد عن مصعب بن مصعب عن الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه قال قال رسول الله (ص) : ترفع زينة الدنيا سنة خمس وعشرين ومائة ، وكذا رواه أبو يعلى فى مسنده عن أبى كريب عن ابن أبى فديك عن عبد الملك بن سعيد بن زيد بن نفيل عن مصعب بن مصعب عن الزهرى به . قلت : وهذا حديث غريب منكر ، ومصعب بن مصعب بن عبد الرحمن ابن عوف الزهرى تكلم فيه وضعفه على بن الحسين بن الجنيد : وكذا تكلم فى الراوى عنه أيضا والله أعلم . وفيها غزا النعمان بن يزيد بن عبد الملك الصائفة من بلاد الروم ، وفى ربيع الآخر منها توفى أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك بن مروان .

ذكر وفاته وترجمته رحمه الله

هو هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس ، أبو الوليد القرشى الأموى الدمشقى ، أمير المؤمنين . وأمه أم هشام بنت هشام بن إسماعيل المخزومى ، وكانت داره بدمشق عند باب الخواصين ، وبعضها اليوم مدرسة نور الدين الشهيد التى يقال لها النورية الكبيرة ، وتعرف بدار القبابين - يعنى الذين يبيعون القباب وهى الخيام - فكانت تلك المحلة داره والله أعلم . وقد بويع له بالخلافة بعد أخيه يزيد بن عبد الملك بعهد منه إليه ، وذلك يوم الجمعة لأربع بقين من شعبان سنة خمس ومائة ، وكان له من العمر يومئذ أربع وثلاثون سنة ، وكان جميلا أبيض أحول يخضب بالسواد ، وهو الرابع من ولد عبد الملك الذين ولوا الخلافة ، وقد كان عبد الملك رأى فى المنام كأنه بال فى المحراب أربع مرات ، فدس إلى سعيد بن المسيب من سأله عنها ففسرها له بأنه يلى الخلافة من ولده أربعة ، فوقع ذلك ، فكان هشام آخرهم ، وكان فى خلافته حازم الرأى جماعا للأموال يبخل ، وكان ذكيا مدبرا له بصر بالأمور جليلها وحقيرها ، وكان فيه حلم وأناة ، شتم مرة رجلا من الأشراف فقال : أتشتمنى وأنت خليفة الله فى الأرض ؟ فاستحيا وقال : اقتص منى بدلها أو قال بمثلها ، فقال : إذاً أكون سفيها مثلك ، قال فخذ عوضا قال : لا أفعل ، قال : فاتركها لله ، قال : هى لله ثم لك ، فقال هشام عند ذلك : والله لا أعود إلى مثلها .

وقال الأصمعى : أسمع رجل هشاما كلاما فقال له : أتقول لى مثل هذا وأنا خليفتك ؟ وغضب مرة على رجل فقال له : اسكت وإلا ضربتك سوطا ، وكان على بن الحسين قد اقترض من مروان

ابن الحكم مالا أربعة آلاف دينار ، فلم يتعرض له أحد من بنى مروان ، حتى استخلف هشام فقال : ما فعل حقنا قبلك ؟ قال : موفور مشكور ، فقال! هو لك .

[قلت : هذا الكلام فيه نظر ، وذلك أن على بن الحسين مات سنة الفقهاء ، وهى سنة أربع وتسعين ، قبل أن يلى هشام الخلافة باحدى عشرة سنة ، فانه إنما ولى الخلافة سنة خمس ومائة ، فقول المؤلف : إن أحداً من خلفاء بنى مروان لم يتعرض لمطالبة على بن الحسين حتى ولى هشام فطالبه بالمال المذكور ، فيه نظر ولا يصح ، لتقدم موت على على خلافة هشام ، والله سبحانه وتعالى أعلم]

وكان هشام من أكره الناس لسفك الدماء ، ولقد دخل عليه من مقتل زيد بن على وابنه يحيى أمر شديد وقال : وددت أنى افتديتهما بجميع ما أملك . وقال المدائنى عن رجل من حي عن بشر مولى هشام قال : أتى هشام برجل عنده قيان وخمر وبربط ، فقال : اكسروا الطنبور على رأسه فبكى الشيخ ، قال بشر : فضربه ، قال أتراني أبكي للضرب ، إنما أبكي لاحتقارك البربط حتى سميته طنبورا ، وأغلظ لهشام رجل يوماً فى الكلام فقال : ليس لك أن تقول هذا لامامك . وتفقد أحد ولده يوم الجمعة فبعث إليه مالك لم تشهد الجمعة ؟ فقال : إن بغلتى عجزت عنى ، فبعث إليه أما كان يمكنك المشى ، ومنعه أن يركب سنة ، وأن يشهد الجمعة ماشيا

وذكر المدائنى أن رجلا أهدى إلى هشام طيرين فأوردهما السفير إلى هشام ، وهو جالس على سرير فى وسط داره ، فقال له : ارسلهما فى الدار ، فأرسلهما ، ثم قال : جائزتى يا أمير المؤمنين فقال : ويحك وما جائزتك على هدية طيرين ؟ خذ أحدهما ، فجعل الرجل يسعى خلف أحدهما ، فقال : ويحك مابالك ؟ فقال أختار أجودهما : قال : وتختار أيضا الجيد وتترك الردىء ؟ ثم أمر له بأربعين أو خمسين درهما . وذكر المدائنى عن محرم ، كاتب يوسف بن عمر . قال : بعثنى يوسف إلى هشام بياقوتة حمراء ولؤلؤة كانتا لرابعة ، جارية خالد بن عبد الله القسرى ، مشترى الياقوتة ثلاثة وسبعون ألف دينار ، قال : فدخلت عليه وهو على سرير فوقه فرش لم أر رأس هشام من علو تلك الفرش ، فأوريتها له ، فقال : كم زنتها ؟ فقلت : إن مثل هذه لامثل لها ، فسكت . قالوا : ورأى قوما يفرطون الزيتون فقال القطوه لقطا ولا تنفضوه نفضا ، فتفقأ عيونه وتتكسر غصونه ، وكان يقول : ثلاثة لايضعن الشريف : تعاهد الصنيعة ، وإصلاح المعيشة ، وطلب الحق وإن قل . وقال أبو بكر الخرائطى : يقال إن هشاما لم يقل من الشعر سوى هذا البيت :

إذا أنت لم تعصِ الهوى قادك الهوى * إلى كلِ مافيهِ عليكَ مقالُ

وقد روى له شعر غير هذا ، وقال المدائنى عن ابن يسار الاعرجى حدثنى ابن أبى بجيلة عن عقال بن

(١) زيادة من المصرية .

شبة قال : دخلت على هشام وعليه قباء فنك أخضر ، فوجهنى إلى خراسان ، ثم جعل يوصينى وأنا أنظر إلى القباء ، ففطن فقال : مالك ؟ قلت : عليك قباء فنك أخضر ، [وكنت رأيت عليك مثله] قبل أن تلى الخلافة، فجعلت أتأمل هـذا هو ذاك أم غيره ، قال : والله الذى لا إله غيره هو ذاك ، مالى قباء غيره ، وما ترون من جمعى لهذا المال وصونه إلا لـكم . قال عقال : وكان هشام محشوا بخلا .

وقال عبـد الله بن على عم السفاح : جمعت دواوين بنى أمية فلم أر أصلح للعامة والسلطان من ديوان هشام . وقال المدائنى عن هشام بن عبـد الحميد : لم يكن أحد من بنى مروان أشـد نظراً فى أصحابه ودواوينه ، ولا أشد مبالغة فى الفحص عنهم من هشام ، وهو الذى قتل غيلان القدرى ، ولما أحضر بين يديه قال له : ويحك قل ما عنـدك ، إن كان حقا اتبعناه ، وإن كان باطلا رجعت عنه ، فناظره ميمون بن مهران فقال لميمون أشياء فقال له : أيعصى الله كارها ؟ فسكت غيلان فقيدم حينئذ هشام وقتله . وقال الأصمعى عن أبى الزناد عن منذر بن أبى وقال : أصبنا فى خزائن هشام اثنى عشر ألف قميص كلها قد أثر بها . وشكى هشام إلى أبيه ثلاثا إحـ ى أنه يهاب الصعود إلى المنبر ، والثانية قلة تناول الطعام ، والثالثة أن عنده فى القصر مائة جارية من حسان النساء لا يكاد يصل إلى واحدة منهن . فـكتب إليه أبوه : أما صعودك إلى المنبر فاذا علوت فوقه فارم ببصرك إلى مؤخر الناس فانه أهون عليك ، وأما قـلة الطعام فمر الطباخ فليكثر الألوان فعلك أن تتناول من كل لون لقمة ، وعليك بكل بيضاء بضة ، ذات جمال وحسن . وقال أبو عبد الله الشافعى : لما بنى هشام بن عبـد الملك الرصافة قال : أحب أن أخلو بها يوماً لا يأتينى فيه خبر غم ، فما انتصف النهار حتى أتته ريشة دم من بعض الثغور ، فقال : ولا يوماً واحداً ؟ ! وقال سفيان بن عيينة : كان هشام لا يكتب إليه بكتاب فيه ذكر الموت . وقال أبو بكر بن أبى خيثمة : ثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى ثنا حسين ابن زيد عن شهاب بن عبد ربه عن عمر بن على قال : مشيت مع محمد بن على - يعنى ابن الحسين ابن على بن أبى طالب - إلى داره عنـد الحمام فقلت له : إنه قـد طال ملك هشام وسلطانه ، وقد قرب من العشرين سـنة ، وقـد زعم الناس أن سليمان سأل ربه ملـكا لا ينبغى لأحد من بعده ، فزعم الناس أنها العشرون ، فقال : ما أدرى ما أحاديث الناس ، ولـكن أبى حدثنى عن أبيه عن على عن النبي (ص) قال : « لن يعمر الله ملـكا فى أمة نبى مضى قبله ما بلغ ذلك النبى من العمر فى أمته ، فان الله عمر نبيه (ص) ثلاث عشرة سنة بمكة وعشراً بالمدينة » . وقال ابن أبى خيثمة : ليس حديث فيه توقيت غير هذا ، قرأه يحيى بن معين على كتابى فقال : من حدثك به ؟ فقلت : إبراهيم ، فتلهف أن لا يكون سمعه ، وقد رواه ابن جرير فى تاريخه عن أحمـد بن زهير عن إبراهيم بن المنذر الحزامى . وروى مسلم بن إبراهيم ثنا القاسم بن الفضل حدثنى عباد بن المعرا الفتكى[1] عن عاصم بن

(١) كذا الاصل .

المنذر بن الزبير عن عبد الله بن الزبير أنه سمع عليا يقول : هلاك ملك بني أمية على رجل أحول - يعنى هشاما - .

وروى أبو بكر بن أبى الدنيا عن عمر بن أبى معاذ النميرى عن أبيه عن عمرو بن كليع عن سالم كاتب هشام بن عبد الملك : قال خرج علينا يوما هشام وعليه كآبة وقد ظهر [عليه] الحزن ، فاستدعى الأبرش بن الوليد فجاءه فقال : يا أمير المؤمنين مالى أراك هكذا ؟ فقال : مالى لا أكون وقد زعم أهل العلم بالنجوم أنى أموت إلى ثلاث وثلاثين من يومى هذا . قال : فكتبنا ذلك ، فلما كان آخر ليلة من ذلك جاءنى رسوله فى الليل يقول : احضر معك دواء للذبحة ، وكان قد أصابته قبل ذلك ، فاستعمل منه فعوفى ، فذهبت إليه ومعى ذلك الدواء فتناوله وهو فى وجع شديد ، واستمر فيه عامة الليل ، ثم قال : ياسالم اذهب إلى منزلك فقد وجدت خفة وذر الدواء عندى ، فذهبت فما هو إلا أن وصلت إلى منزلى حتى سمعت الصياح عليه ، فجئت فاذا هو قد مات .

وذكر غيره أن هشاما نظر إلى أولاده وهم يبكون حوله فقال : جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء ، وترك لكم ماجمع ، وتركتم له ما كسب ، ما أسوأ منقلب هشام إن لم يغفر الله له . ولما مات جاءت الخزنة نختموا على حواصله وأرادوا تسخين الماء فلم يقدروا له على فحم حتى استعاروا له ، وكان نقش خاتمه الحكم للحكم الحكيم . وكانت وفاته بالرصافة يوم الأربعاء لست بقين من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ، وهو ابن بضع وخمسين سنة ، وقيل إنه جاوز الستين ، وصلى عليه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، الذى ولى الخلافة بعده ، وكانت خلافة هشام تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وإحد عشر يوماً ، وقيل وثمانية أشهر وأيام فالله أعلم .

وقال ابن أبى فديك : ثنا عبد الملك بن زيد عن مصعب عن الزهرى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه أن رسول الله (ص) قال : « ترفع زينة الدنيا سنة خمس وعشرين ومائة » . قال ابن أبى فديك : زينتها نور الاسلام وبهجته ، وقال غيره - يعنى الرجال - والله أعلم .

قلت : لما مات هشام بن عبد الملك مات ملك بنى أمية ، وتولى وأدبر أمر الجهاد فى سبيل الله واضطرب أمرهم جداً ، وإن كانت قد تأخرت أيامهم بعده نحوا من سبع سنين ، ولكن فى اختلاف وهيج ، وما زالوا كذلك حتى خرجت عليهم بنو العباس فاستلبوهم نعمتهم وملكهم ، وقتلوا منهم خلقاً وسلبوهم الخلافة كما سيأتى إن شاء الله تعالى ذلك مبسوطاً مقدرا فى مواضع ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

بحمد الله قد تم الجزء التاسع من البداية والنهاية ويليه الجزء العاشر

وأوله خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

فهرست

الجزء التاسع

من كتاب البداية والنهاية

صحيفة

انتهى الفهرست



